المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

الدولة العثمانية والغزو الفكري

حتى عام ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م

الطالب: خلف بن دبلان الوذيناني

رسالة مقدمة لنيل درجة

الدكتوراه في التاريخ الإسلامي الحديث

إعداد

خلف بن دبلان بن خضر الوذيناني

إشراف الأستاذ

الدكتور عبد اللطيف عبد الله بن دهيش



مكة المكرمة

١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

عنوان الرسالة : (الدولة العثمانية والغزو الفكري حتى عام ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩م)

مما هو ملاحظ أن معظم من تناول موضوع الغزو الفكري في الدولة العثمانية قد ركز على أن الدولة العثمانية كانت عرضة لهذا الغزو الفكري في كل عصورها التاريخية ولكن فاتهم أن يعرفوا الحقيقة وهي أن الدولة العثمانية كانت غازية في عصور قوتها حيث قامت بفتح مناطق واسعة ونشرت الاسلام بها . وكان تقدمها في عصرها الاول يرجع الفضل فيه الى الله سبحانه ، ثم لتطبيقها للنظم الاسلامية تطبيقا شاملا، ولكنها كانت غير ذلك في عصرها الثاني ، عندما انحرفت عن المنهج الاسلامي القويم ،فاخذت في سن قوانين وضعية ما أنزل الله بها من سلطان وحق عليها قوله تعالى : ﴿ ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم ﴾ .

وتحتوي خطة البحث على مقدمة وخمسة فصول . فالمقدمة تتحدث عن طبيعة الدولة الاسلامية وفتوحاتها في آسيا الصغرى وشرق أوربا تدفعها الى ذلك روح الجهاد الاسلامي ، لنشر الاسلام فيها ، لذلك كان استمرار الجهاد أحد أهداف قادة هذه الدولة .

ففي الفصل الاول تحقق هذا حيث بلغت الدولة العثمانية أوج قوتها لاعتمادها على تطبيق النظم الاسلامية ، وكان ركائز هذه القوة صلاح السلطان والشيخ والجندي وهذا ماجعل محمد الفاتح يتطلع لفتح القسطنطينية مركز ومعبر الصليبية الى الأراضي الاسلامية لمحاربة الاسلام ، وقد استطاع محمد الفاتح من فتحها .

أما الفصل الثاني فجاء الحديث فيه عن الوسائل التي أدت الى تسرب الخلل الى السلاطين وهيئة العلماء والى الجيش المحارب (الانكشارية) وعدم استطاعتهم حل المشكلات لاخراج دولتهم الى بر الأمان في عصر الدولة الثاني ، هذا الخلل جعل الدولة حقلا للغزو الفكري الأوربي . وقد جاء هذا الغزو عن طريق الارساليات الاجنبية والتي كانت تضم آعدادا كبيرة من المستشرقين والمنصرين .

وفي الفصل الثالث كان الحديث عن عوامل الغزو الفكري الأوربي للدولة العثمانية والممثلة في العلمانية والقومية والحركة الدستورية والتي تسربت افكارها عن طريق الحملة الفرنسية الى ولايات عديدة من ولايات الدولة العثمانية بهدف تفتيت الوحدة الاسلامية وخلق جو من الاضطرابات داخل جسم الدولة رغبة في الاستقلال عنها .

أما الفصل الرابع فقد تعرضت الخطة لمظاهر الغزو الفكري حيث اتجهت الدولة نحو الدستور فأصدرت خط كلخانة سنة ١٢٥٥ هـ . ثم آخذ هذا الغزو يتفاقم منذ الحرب الروسية التركية المسماة بحرب القرم التي انتهت بمعاهدة باريس سنة ١٢٧٣ هـ عندما آرغمت الدول الاوربية الدولة العثمانية باصدار الخط الهمايوني سنة ١٢٧٣ هـ . تبع ذلك انهيار التشريع الاسلامي وخلع السلطان عبدالحميد سنة ١٣٢٧ هـ بواسطة حزب الاتحاد والترقي بالتعاون مع الصهيونية والماسونية التي فرضت على البلاد صدور المشروطية الاولى والثانية .

أما الفصل الخامس فقد خصص لمواجهة الغزو الفكري في الدولة العثمانية وذلك عندما قام حزب الاتحاد الاسلامي ضد الاحرار دعاة المشروطية لمقاومتها .

ومن أهم النتائج التي تم التوصل اليها في هذا البحث :

١- حماس الدولة العثمانية في الجهاد ونشر الدعوة نحو الغرب منذ بدايتها .

٢- عقب سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين سجلت اوربا تراجعا عسكريا ،واوقفت تهديدها الصليبي لغزو المقدسات الاسلامية وحصرت طاقتها الدفاعية عن مقر البابوية في روما .

٣- حين تساهلت الدولة في آمر دينها الاسلامي في عصرها الثاني ، اخذ الغزو الفكري يتغلغل ، لضعف سلاطين وجيش وعلماء الدولة فعمل على تفتيت ممتلكاتها الاسلامية .

٤- واخيرا فانه اذا كانت اوربا النصرانية قد اوقفت التحرك الصليبي العسكري فانها ظهرت بمظهر جديد هو الغزو الفكري ، مما يحتم على العالم الاسلامي أن يركز على غزو فكري اسلامي مضاد يعمل على ترسيخ النظم الاسلامية ونبذ مايخالف ذلك .

" وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون " .

وبالله التوفيق .

الطالب	المشرف	عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
خلف بن دبلان الوذيناني	د.عبد اللطيف بن دهيش	د. عابد محمد السفياني

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الموضوع :

الحمد لله الذى هدانا الى الاسلام ، وماكنالنهتدى لولا أن هدانا الله ، وأكمل لنا الدين ،وأتم علينا النعمة ،ورضي لنا الاسلام دينا ، وأرسل محمدا بالهدى ودين الحق ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة وجاهد في الله حق جهاده ، حتى تركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ،لايزيغ عنها الا هالك ، فصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين • وبعد:

فانه بعد حصولي على درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي في (العصر الحديث) ،أخذت أستعرض أحداث التاريخ الاسلامي وتطوراته وذلك لاختيار موضوع منها يكون مناسبا لدراسته في مرحلة الدكتوراه ، ومن خلال تلك الدراسة رأيت أن تاريخ العالم العربي والاسلامي في العصر الحديث يعتبر الجزء الأكبر منه داخلا في تاريخ الدولة العثمانية ، ومن ثم أصبح اختيار موضوع من تاريخنا العربي والاسلامي في العصر الحديث مرتبطا أساسا بتاريخ الدولة العثمانية • ومن هذا المنطلق وقع اختيارى لموضوع جوهرى يمس حياتنا وواقعنا المعاصر ، لأن جذوره ظهرت ونشأت خلال فترة تاريخ العصر الحديث للعالم الاسلامي والعربي وذلك لمعرفة أسبابه ونشأته وتطوره ونتائجه • فكان هذا الموضوع يحمل عنوان (الدولة العثمانية والغزو الفكرى) حتى عام ١٣٢٧ هـ /١٩٠٩م • وقد جاء اختيارى لهذا الموضوع لأمور منها :

أولا: لاحظ كثير من الباحثين الذين تناولوا الغزو الفكرى قد ركزوا على أن العالم الاسلامي كان عرضة للغزو الفكرى في كل عصوره التاريخية ،وخاصة في العصر الحديث • ولكن فاتهم أن يلاحظوا أن العالم الاسلامي كان غازيا في عصور قوة الدولة الاسلامية • فالدولة العثمانية كانت متقدمة فكريا وسياسيا في عصرها الأول ذلك العصر الذى طبقت فيه النظم الاسلامية تطبيقا شاملا ولكنها كانت غير ذلك في عصرها الثاني •

ثانيا: أهمية تناول الغزو الفكرى من الجانب التاريخي وبالأسلوب التاريخي التطبيقي في العصر الحديث ،تناولا – في ظني – ينفرد به قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية وقسم التاريخ الاسلامي بكلية الشريعة

والدراسات الاسلامية بجامعة أم القرى لاعداد تخصصات مباشرة ودقيقة للموضوعات التي استحدثت عند تطوير مناهج قسم التاريخ ،ومنها الغزو الفكري .

فموضوع الدولة العثمانية والغزو الفكري من الموضوعات الهامة والجديدة التي لم يتعرض لها أى باحث على المستوى العلمي الدقيق، ونتيجة لذلك استعنت بالله وسألته التوفيق وعزمت على دراسة هذا الموضوع وجمع شتات مادته من الموارد العلمية ذات الصلة بالموضوع .

أما الصعوبات التي واجهتني ، فلا شك أن أى باحث مهما بلغت درجته العلمية -لابد أن تقابله بعض الصعوبات والمتاهات التي تظهر له أثناء جمع المادة ،ولكن بالعزيمة والاصرار يستطيع الباحث بتوفيق من الله تعالى أن يجتاز كل الصعوبات ، الا أن الباحث لايخلو من الخوف والقلق وهذا ماحدث لي ،وخاصة لصعوبة هذا الموضوع ، حيث بدأت رحلتي العلمية الشاقة للبحث عن مادة هذا الموضوع ، بدراسة تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى خلع السلطان عبد الحميد الثاني دراسة مستفيضة وقفت من خلالها على أحوال الدولة في عصر قوتها حتى دانت لها أوربا ،وجثت أمامها على ركبتيها ، بلوهددت روما حتى كادت فتحها ونشرالاسلام بها ، فاهتزت لهذا الحدث أركان أوربا ،وخافت روما من السقوط ،ونتيجة لذلك انكمشت الحركة الصليبية خوفامن المسلمين بل توقفت نهائيا من الوصول الى اسطنبول التي كانت مركزها ومعبرها الوحيد الى داخل الاراضي الاسلامية فوقفت الصليبية تدافع عن نفسها مذهولة ، بعد أن كانت تهدد العالم الاسلامي وتقيم الأحلاف عقب الاحلاف ، لتنطلق بحروبها الصليبية من جديد الى البلاد الاسلامية ولكن الله خذلها وردكيدها لهذا لابد أن أبرز هذه الاحداث التاريخية المشرقة التي قام بها العثمانيون فاتحين نحو الغرب للجهاد في سبيل الله ونشر الاسلام في أوربا حتى حققوا تلك الانتصارات وبناء دولتهم على الأسس الاسلامية ، فتمكنت بفضل من الله قهر أعدائها نصارى أوربا واوقفت خطر الحملات الصليبية التي كانت تهدد العالم الاسلامي وحولت مركزهم ومنطلق حملاتهم الى عاصمة اسلامية ومنطلق

للدعوة الاسلامية في أوربا .لذلك تقدمت الجيوش الاسلامية في فتوحاتها في عصر سليمان الأول (القانوني) حتى بلغت أقصى اتساعها فشملت القارات الثلاث آسيا واوربا ثم افريقيا ، وبالتالي غدت الدولة العثمانية دولة اسلامية عظيمة شملت أراضيها قارات ثلاث فانتشرت مع ذلك الدعوة الاسلامية وزاد عدد شعوبها ، الا أن هذا التحرك الاسلامي العظيم أزعج الدول الأوربية والشعوب النصرانية فاخذت تخطط للنيل من هذه الدولة ومحاربة الاسلام والحد من انتشاره وكان منفذها الوحيد لتحقيق أهدافها وغاياتها هو عن طريق الغزو الفكرى وايهام قادة الدولة بأنها في حاجة الى تطوير نظمها ؟ وقد تحقق لها ذلك بعد موت السلطان سليمان الأول ، فحل بالدولة الخلل الذى لم يستطع للأسف سلاطينها وعلماؤها وقادة جيشها من التغلب عليه خاصة بعد أن سرت بين قادتها حياة الترف والانغماس في الملذات وعدم الالتفات الى ادارة الدولة وتطويرها، فقد كانت الثروة التي جمعها سلاطين آل عثمان في عصرها الأول من الفتوحات العديدة والغنائم الكثيرة ،وما تلى ذلك من الاستقرار الداخلي وزيادة موارد الدولة هي التي أفسدت نظام الدولة وسلاطينها وجيشها ، ونظرا لضعف السلاطين خلال العصر العثماني الثاني للدولة العثمانية وتساهلهم في الحفاظ على ممتلكات وحدود الدولة ووحدتها التي حصلت عليه في عصرها الأول . مما هيأ الجو للعناصر المعادية لأن تعمل في السر والعلانية لغزو الدولة العثمانية فكريا وعسكريا ، فكثرت الارساليات الاجنبية والبعثات التنصيرية وخاصة الى بلاد الشام وتداخلت الأحزاب السرية من صهيونية وماسونية حتى أغرقت البلاد من شرقها الى غربها ومن شمالها الى جنوبها محاولة تغير المفاهيم الاسلامية . ومما يؤسف له أن قادة الدولة اهملوا الداء حتى عم واستشرى شره ،وما علموا ان الاسلام صالح لكل زمان ومكان فلم يبحثوا في ايجاد نظم تتمشى مع الشريعة الاسلامية بل استبدلوا بالشريعة القوانين الوضعية التي وضعها لهم أعداء الاسلام، فأضاعوا الاسلام فضاعوا ، وتدخلت الدول الأجنبية في شئون الدولة الداخلية والخارجية وحصلت على الامتيازات والحقوق التي رسخت أقدامها في البلاد الاسلامية وظهر أعداء الاسلام بمظهر دعاة الاصلاح ، فكانت الفرصة سانحة

لهم لعمل مايريدون عمله بتوجيه عالمي من زعماء الصهيونية والماسونية والعلمانية العالمية وجاءت جمعية الاتحادوالترقي التي يقودها أذيال الماسوينية والعلمانية وتسلطوا على السلطة حتىاستطاعوا اخلع السلطان عبدالحميد الثاني عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م فأنهوا بذلك الدولة التي أصبحت لقمة سائغة للاستعمار.

وخلال تلك الفترةظهر في شبه الجزيرة العربية الزعيم القائد الامام محمد بن سعود⁶فأيد الدعوة الاصلاحية التي قام بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب وظهرت في شبه الجزيرة العربية دولة التوحيد⁶الدولة السعودية فكان الاعداء لها بالمرصاد ،فقاموا بتفتيت تلكالدولة الاسلامية الرائدة أكثر من مرة ونعتوها بالألقاب حتى يظهروها بالمظهر الخارج عن الاسلام ولكن الله ينصر من ينصره فقد هيأ لهذه الدولة قائدا حكيما لم تنطل عليه الحيل والأقاويل⁶ هو الملك عبدالعزيز الذى خشي أن تطأ أقدام الكفرة الأراضي المقدسة فيالحرمين الشريفين ،فسار فيعملية فدائية حتى وحد شبه الجزيرة العربية وأبعد عنها شبح الاستعمار وعمل علىتوحيد الأمة العربية والاسلامية وأعاد للعالم الاسلامي مكانته وشخصيته البارزة كما طبق الشريعة الاسلامية كأساس للحكم والادارة .

ولجمع مادةهذا البحث فكان لزاما علي أن أقومبرحلة علمية أقف من خلالها على مادة هذا الموضوع من مظانها الأصلية في المكتبات العامة والخاصة ومراكز البحوث والوثائق في داخل المملكة وخارجها.

لهذا قررت السفر أولا الى اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية ولوجود الوثائق والمخطوطات هناك . وبعد عناء وجدت في الأرشيف العثماني التابع لرئاسة مجلس الوزراء في اسطنبول Baskbkanlik Osmanli Arsiv بعض الوثائق والمعاهدات العثمانية الهامة منها مايتعلق بالامور التالية :

١- وثائق المشروطية الاولى التي صدرت في عهد السلطان عبدالحميد الثاني سنة ١٢٩٤هـ .

٢- معاهدةسان ستيفانو سنة ١٩٧٨م .

٣ — معاهدة برلين سنة ١٨٧٨م .

٤ — وثائق المشروطية الثانية التي صدرت في نهاية عهد السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٣٢٦هـ .

اضافة الى بعض المخطوطات والكتب النادرة التي أثرت البحث في معظم أبوابه .

ثم عرجت في طريق عودتي الى سوريا ثم الاردن حيث كانت المحطة الثانية للرحلة ، فالقاهرة حيث حصلت هنا على مجموعة هامة من الكتب والمذكرات التي أعانتني في الدراسة وبددت الخوف والقلق الذى كان ينتابني من عدم الحصول على المادة العلمية ، ولكن ما أسعدني حقا هو حصولى — عندما واصلت السير الى لندن ،و عثورى على بعض الوثائق الهامة في أرشيف السجلات البريطانية العام Public Record Office هذه الوثائق أثرت موضوع الغزو الفكرى وغطت مادته العلمية في كثير من الجوانب الهامة فأغنتني عن بعض المراجع لولا الاستئناس بها ،لان بريطانيا تتجسس على فرنسا وروسيا ، فنقلت نشاطهم ونفوذ هذه الدول وماكانت تجنده لغرض بسط نفوذ تلك الدول على بلاد الشام ، وما يملىعليها لتنفيذه وهو ماتعرضنا له في متن الرسالة .

فكل تلك الوثائق والمعاهدات والمصادر والمراجع التى سنذكرها في قائمة ثبتالمراجع في آخر هذا البحث حصلت عليها من تلك البلاد، وقد فتحت هذه المادة العلمية أمامي مجال البحث والاستقصاء ودراسة ماتوفر لي من مادة علمية ، فوقفت أمامها ساعات طويلة أقرأها وأحللها وأستنبط الحقائق منها بكل تجرد وبكل حذر واضعا أمامى أن تلك الامور احدى مهام المؤرخ الفاحص الباحث عن الحقيقة المجردة ، وأخذت بعد جمع المادة الكتابة في الموضوع حسب الخطة الموضوعة له .

وتحتوىخطة الرسالة على مقدمة وخمسة فصول لتعالج نقاط البحث . فالمقدمة تتحدث عن طبيعة الدولة الاسلامية وفتوحاتها في آسيا الصغرى وشرق وجنوب أوربا تدفعها الى ذلك روح الجهاد الاسلامي، لفتح المدن البيزنطية ونشر الاسلام لذلك كان استمرار الجهاد أحد أهداف قادة الدولة ،وهذا

ماتحقق في الفصل الأول حيث بلغت الدولة العثمانية أوج قوتها وتماسكها بفضل من الله وتوفيقه ثم باعتمادها على تطبيق النظم الاسلامية . وقد عرف المؤرخون هذه الفترة بعصر عظمة الدولة ، أو عصر السلاطين العشرة الأوائل . وكان من ركائز هذه القوة هو صلاح العناصر الثلاثة السلطان والشيخ والجندى واعتمادهم على الاسلام قلبا وقالبا مما جعل الدولة قوية ، وهذا ماجعل السلطان محمد الفاتح يتطلع بنظره لفتح القسطنطينية مركز ومعبر الصليبية الى الاراضي الاسلامية لمحاربة الاسلام . وقد استطاع محمد الفاتح فتح القسطنطينية فثار غضب الصليبية ، ولم تهدأ الا عندما دبرت اغتياله بواسطة طبيبه اليهودى الذى اعتنق الاسلام لأجل هدف القضاء على هذا السلطان المجاهد.

أما الفصل الثاني فقد جاء الحديث فيه عن الوسائل التي أدت الى تسرب الخلل الى السلاطين وهيئة العلماء والى الجيش المحارب (الانكشارية) في عصر الدولة العثمانية الثاني ، مما أدى الى التوقف والركود بعد أن بلغت الدولة شأوا رفيعا من النصر والاتساع ، وبسطت نفوذها على ثلاث قارات ، أدى الى انكماش الدولة وتدهورها منذ نهاية السلطان سليمان الأول حيث تعاقبت الهزائم على جيش الدولة في ميادين حربية عديدة مما أعقبه عقد المعاهدات الواحدة تلو الأخرى والتي عجلت في ضعف الدولة ، ففقدت الدولة بعض ممتلكاتها في جنوب أوربا ، وذلك لضعف السلاطين وانغماسهم في حياة الترف، وتعسف الولاة، وحماقة القادة، وعدم استطاعتهم حل المشكلات بحكمة ودراية من اجل اخراج الدولة الى بر الامان وتخليصها من هذه الأزمات، ودراسة وضع البلاد، وايجاد طرق العلاج لها في الحال. ولكن استمرار الدولة على هذا الوضع جعلها حقلا للغزو الفكرى الاوربي بسبب عوامل امتدت الى الفصل الثالث ، وهي تطورات او عوامل الغزو الفكرى في التاريخ الأوربي الحديث والمتمثلة في العلمانية والقومية والحركية الدستورية ، فقد تسربت هذه الأفكار والأطماع عن طريق الثورة الفرنسية الى ممالك الدولة العثمانية في أوربا ، مما أفقدها بلاد اليونان ثم تلتها

الحركة الدستورية التي اضطربت بافكارها دول البلقان ، الصرب والافلاق والبغدان والجبل الاسود ، طلبا للاستقلال ، فأخذت في الثورة رغبة في الاستقلال عن الدولة العثمانية ، وكانت تساندهم روسيا حتى نالت استقلالها في معاهدة برلين سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م .

وفي الفصل الرابع تعرضت الخطة لمظاهر الغزو الفكرى ، الذى أخذ يتفاقم منذ الحرب الروسية التركية المسماة بحرب القرم (١٢٦٩-١٢٧٢هـ/ ١٨٥٣-١٨٥٥م) وما انتهت اليه من عقد معاهدة باريس سنة ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م ، تحت اشراف فرنسا وبريطانيا وهي دول معادية للاسلام ،ونتيجة لابرام هذه المعاهدة وقعت الدولة العثمانية في منزلق الاصلاح ، ثم ألحقت خط كلخانة سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م بالخط الهمايوني سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م وتبعه انشاء المحاكم المختلطة والمحاكم التجارية ، هذا الحدث هو بداية انهيار التشريع الاسلامي ، حيث أخذ الغزو يتفاقم حتى خلع السلطان عبد الحميد الثاني بواسطة حزب الاتحاد والترقي وبالتعاون مع الصهيونية والماسونية ، وتم نفيه الى سلانيك سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م بعد أن أعيت أوربا الحلول العسكرية بسبب القوة والتماسك اللذان اكسبهما الاسلام للدولة العثمانية .

أما الفصل الخامس والأخير فقد جاء بتقييم جديد لدعوة التوحيد والاصلاح بعد أن هيأ الله لها دعاة صدقا ،قاموا بصد الموجات والتيارات الملحدة الوافدة الى شبه الجزيرة العربية وقاوموها بقوة ايمانهم واسلامهم وعقيدتهم بمحاربة أعداء الاسلام فجاهدوا في سبيل الله لنشرها في البلاد المفتوحة . وبالرغم من الأزمات التي تعرضوا لها فانها لم تزدهم الا ثباتا على دعوتهم السلفية التي استمرت على مر عصور الدولة السعودية وسوف تظل كذلك الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وأخيرا اختتمت الفصول بالخاتمة والنتائج التي توصلت اليها خلال هذا البحث .

أرجو من الله العلي القدير أن أكون قد وفقت بتقديم اضافة جديدة للعلم وطلابه اسهاما مني في دراسة جزء من عالمنا الاسلامي ، اسهام المتواضع لخدمة وطنه الوفي الغالي .

وفي هذه المناسبة لايفوتني أن أنوه بجهود المشرف السابق الأستاذ الدكتور محمد عبداللطيف البحراوى ، الذى أشرف على هذه الرسالة مايقارب السنة ، وقد أعطاني من وقته الكثير في سبيل مناقشة كثير من المواضيع حتى استقر الرأى الأخير على اختيار هذا الموضوع . ولايسعني في هذا المقام الا أن أدعو له بطول العمر والبقاء وأن يجزيه الله عنا خير الجزاء . ولاستقالته حول اشرافي الى سعادة الأستاذ الدكتور ابراهيم مغيرون الذى لم يأل جهدا في متابعة الاشراف وتقديم النصح حتى استقال. ومن ثم حول الاشراف الى أستاذنا الاستاذ الدكتور عبداللطيف عبدالله بن دهيش .

وختاما أرى من واجبي في هذه المناسبة أن أتقدم بالشكر الجزيل الى كل من قام بمساعدتي في اجتياز هذه المراحل لاخراج هذا البحث الى حيز الوجود ، فأخص بالذكر جامعة أم القرى ، وكلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، وقسم التاريخ الاسلامي ، وقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، ومكتبة الجامعة المركزية . وكذلك القائمين على الارشيف العثماني في اسطنبول والقائمين على أرشيف السجلات البريطانية العامة Public Record Office والى كل من مد لي يد المساعدة .

وأخص أستاذى المشرف سعادة الأستاذ الدكتور عبداللطيف عبدالله ابن دهيش الذى قدم لي كل دعم وخصني بعلمه الغزير وتوجيهاته السديدة ، فقد أعطاني من وقته وجهده الكثير غير مقتصر على المكان والزمان ، ولم يبخل عليَّ فقد فتح لي داره رغم مشاغله الكثيرة ،وعلى حساب راحته الشخصية ،وكانت لملاحظاته القيمة خير معين لاخراج هذه الرسالة . فاليه أقدم شكرى وتقديرى بالجميل والعرفان ،جزاه الله عنا خير الجزاء.

والى الأستاذين الفاضلين أعضاء لجنة الفحص والمناقشة .

راجيا من الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأسألـــه أن يوفقنا لخدمة هذا الوطن الغالي الذى نكن له كل حب وتقدير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . وهو الهادى الـــى سواء السبيل ...،

...

المقدمة : طبيعة الدولة العثمانية

أ - نشأة الدولة

ب - الجهاد والفتح ونشر الإسلام

أ - نشأة الدولـة :

تؤكد المصادر التاريخية أن أول من فكر في فتح الأناضول هم السلاجقة ، ففي سنة ٤٠٦ هـ الموافق ١٠١٥م جرد سلجوق أوغلو أول حملة على الأناضول ، تعرف فيها على مدى قوة الامبراطورية البيزنطية ، وفي هذه الحملة هزم سلجوق الجيش البيزنطي في باسينلر(Pasinler) قرب مدينة أرض الروم ، وأسر القائد العام لباريد (Liparit) ، فأرسل الامبراطور البيزنطي فدية الى الخاقان الأكبر أرطغرل بك السلجوقي من أجل اطلاق سراح القائد البيزنطي المذكور ، الا أن ارطغرل أعاد الفدية ووعد باطلاق سراح لباريد (Liparit) مقابل اعادة فتح الجامع الذى أغلق في القسطنطينية لاقامة الشعائر الاسلامية للمسلمين المقيمين هناك، وقد استجاب الامبراطور البيزنطي لمطالب أرطغرل بك وأمر باعادة فتح الجامع المذكور وأصبحت تقام فيه الصلوات ويذكر فيه اسم ارطغرل بك بعد اسم الخليفة العباسي في الخطبة (١) .

وتلى ذلك قيام ملوك السلاجقة وأمراء الأتراك بترتيب الغزوات على الأناضول سنويا على وجه التقريب للتقدم في فتوحاتهم نحو الغرب (٢) للدفاع عن الحدود الاسلامية ضد الامبراطورية البيزنطية ، حتى كانت المعركة الحاسمة التي انتصر فيها المسلمون عام ٤٦٤ هـ الموافق ١٠٧١م . على جميع البيزنطيين المحتشدين قرب بحيرة وآن (Van) شرقي تركيا والتى عرفت في التاريخ باسم معركة (ملازكرد) (٣) حيث هزم فيها جيش بيزنطه وأسر

---

(١) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة عدنان محمود سلمان (تركيا ، استانبول ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل : ١٩٨٨م) ، جـ ١ ، ص ٦٥-٦٦ .

(٢) يلماز اوزتونا : المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(٣) ملاز كرد: احدى المعارك الحاسمة في التاريخ الاسلامي التي أسفر عنها تحول منطقة الأناضول الى أراضي اسلامية يعيش عليها شعب مسلم ، كما تعد هذه الواقعة أيضا المنطلق الأول لتأسيس الدولة الاسلامية في آسيا (=)



امبراطورها رومانوس الرابع (Romanos Diogenes)، واكتسب الزعيم التركي المسلم آلب أرسلان في هذه المعركة شهرة واسعة عمت كافة أرجاء العالم الاسلامي .

وعلى اثر ذلك استطاعت القبائل التركمانية المسلمة تثبيت أقدامها في بلاد آسيا الصغرى فنزلت في شرق ووسط منطقة الأناضول ، وكان من ضمن تلك القبائل التي دخلت الأناضول وسكنته قبيلة (قابي) وهم أسلاف العثمانيين (١) .

وعندما ظهر المغول من الأقصى الشرقي لآسيا بزعامة جنكيزخان ومعه نحو خمسين ألف مقاتل في حوالي عام ٦٢٤ هـ / ١٢٢٦م أخذوا يتقدمون نحو الغرب فاحتلوا في طريقهم عددا من الممالك الاسلامية وأذاقوا أهلها ويلات من الدمار والقتل والنهب فقتلوا الأبرياء ونهبوا ودمروا المدن والمزارع (٢) .

لهذه الأسباب هاجر سليمان شاه أحد ملوك تركستان وجد آل عثمان من وطنه ماهان تحت ضغط المغول ، فاتجه غربا نحو آسيا الصغرى بقبيلته

(=) الصغرى وبلاد الروم الصليبية . كما يمكن النظر اليها كذلك على أنها كانت الحادثة التي هيأت الأسباب لولادة الدولة العثمانية
- يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٧ .
- زبيدة عطا : بلاد الترك في العصور الوسطي ، (الناشر دار الفكر العربي) ، ص ٥١ .

(١) على حسون : العثمانيون والروس ، (الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م) ، ص ١٧ ،
نبيل رضوان : جهود العثمانيين لانقاذ الأندلس واسترداده . (رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة أم القرى ،تحت الطبع ،١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م) ، ص ٨ .

(٢) - ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، (الطبعة الأولى ،مطبعة عموم الأوقاف ،١٣٢٣/١٩٠٥م) ، ص ٣٤ .
- اسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار ،(الطبعة الأولى،مصر، طبع بالمطبعة الأميرية ،ببولاق : ١٣١٢هـ) ج ١ ،ص ٤٨٣ .

العظيمة البالغ عدد محاربيها ألفي فارس ، الى الأناضول في أوائل القرن السابع الهجرى ، الموافق للقرن الثالث عشر الميلادى ، فأقام بمدينة أخلاط [(١)]، فلما انتشر التتر واقتربوا من المدينة هاجروا منها الى آذربيجان [(٢)]، فهناك تقاتل مع المغول ،فانتصر عليهم وغنم منهم غنائم كثيرة [(٣)] . ثم عاد سليمان شاه راجعا الى وطنه الأصلي عن طريق حلب ولما وصل في طريقه الى نهر الفرات ، وأمام قلعة جعبر حاول مع أولاده عبور النهر فغلب عليهم الماء فسقط سليمان بالنهر وغرق في الحال وكان ذلك في سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣١م ، فأخرجوه الذين معه ودفنوه حول قلعة جعبر [(٤)] ، وكان لسليمان أربعة أولاد وهم سنقورزنكي ، وكون طوغدى، وأرطغرل ،وكوندوز اختلفوا بعد وفاة والدهم ، فمنهم من اختار متابعة السير الى بلاده [(٥)]، ومنهم من فضل البقاء مع أرطغرل بن سليمان شاه .

---

(١) أخلاط : بلدة في شرق تركيا الحالية بالقرب من بحيرة وآن في هضبة أرمينيا .
- أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،(الطبعة الأولى ، بيروت ،دار الشروق : ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ، ص ١٧-١٨ .

(٢) أحمدجودت باشا : تاريخ جودت ، ترجمة ،عبدالقادر افندى الدنا ، (بيروت ، طبع في مطبعة جريدة بيروت ،١٣٠٨ هـ) جـ ١ ، ص ٣٢ .
ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ،ص ٣٤ .

(٣) السيد أحمد بن زيني دحلان : الفتوحات الاسلامية ، (القاهرة ،الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٨م) جـ ٢ ،ص ١١٠ .

(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ،جـ١ ، ص ٤٨٣ ،
أحمد جودت باشا : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٢ .
ابراهيم بك حليم : المصدر السابق، ص ٣٤ ،
أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ،ص ١٨ .
أحمد ابراهيم خليل أحمد : تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني، (الموصل ، طبع بمطابع جامعة الموصل ، مديرية مطبعة الجامعة)، ص ١١ .

(٥) ابراهيم بك حليم : المصدر السابق ،ص ٣٤ .

الذى اختار السير الى الأناضول مع أربعمائة أسرة من قومه يقدرون بحوالي أربعمائة وأربعين فارسا ، ونزلوا في طريقهم (بسرمه لو وباسين) وضربوا بهاخيامهم [١] .

ولما لم تكن تلك المناطق أو الجهات غير صالحة وموافقة لسكناهم أرسل أرطغرل ولده صاروباتي بك [٢] ، الى سلطان قونيه علاء الدين السلجوقي يطلب منه الحماية ويستسمحه أن يقطعه أو يمنحه هو وعشيرته بعض الأراضي الخصبة ، فأقطعه السلطان أراضي كان بها مايلزمهم من الدفء شتاء والمراعي لمواشيهم صيفا في منطقة قريبة من أنقرة [٣].

وبينما هم يسيرون في الأناضول لمحو جيشين مشتبكين يقتتلان قتالا عنيفا دون أن يعلموا شيئا عن هويتهما ، وكان أحد الجيشين قليل العدد وغير متكافئا مع الآخر ، فما لبثوا أن تدافعوا الى نجدة الجيش الضعيف بدافع النخوة ونصرة الضعيف الملهوف [٤] ، وتبين فيما بعد أنه جيش الأمير علاء الدين سلطان قونيه احدى الامارات السلجوقية التي تأسست

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٣٤ ..
أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٨ .

(٢) اسمه : ساوجي ، وقد توفي وهو عائد في الطريق الى أبيه .
— ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٤ .
— أحمد زيني دحلان : الفتوحات الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١١٠ .

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٣.

(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١٨ ،
اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٣.
— محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق احسان حقي : (الطبعة الثانية ، بيروت ، دار النفائس ، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣م) ، ص ١١٥ .
— ابراهيم خليل أحمد : تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ، ص ١١ ، ١٢.

عقب انحلال دولة آل سلجوق الروم سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م عهد اليه فتح الأجزاء الغربية من آسيا الصغرى [١]، على حين كان الجيش الآخر مغوليا ، وتذهب بعض الروايات الى أنه بيزنطيا [٢] . كما يذكر صاحب كتاب التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية أنه في أواخر القرن السابع الهجرى الموافق للقرن الثالث عشر الميلادى،تصادف وجود فرقة من المغول كانت تحارب عساكر السلطان علاء الدين في أثناء مرور أرطغرل في تحركاته نحو غرب آسيا الصغرى فهجم بفرسانه على الجيش المغولي فهزمهم شر هزيمة ، وربما يعني ذلك أنه كان على معرفة تامة بعلاء الدين ولذلك نراه ينقض لنجدته ضد المغول . [٣]

ومما يؤكد ذلك ، الرواية التي أوردها يلماز اوزتونا والتي نوردها هنا باختصار حيث أشار الى هذه الحادثة بقوله " إن ارطغرل من مواليد سنة ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢م وبذلك يكون عمره بحلول سنة ٦٢٨هـ /١٢٣٠م ، ٤٠ سنة وهي سن النضج . وقد كانت منطقة أذربيجان في تلك الفترة ميدانا فسيحا لاحدى أكبر الحروب في القرون الوسطى ، حيث تقابل جيشان لأخوين سنيين على المذهب الحنفي ، عندما اجتاز السلطان جلال الدين سلطان الترك الشرقيين ، والآخر سلطان خرزم - شاهي ، الذى طرده المغول من أراضي أجداده في تركستان التي هي حدود سلطنة تركيا ، ودخل الأناضول التابعة للسلطان علاء الدين ، وأخذ يتقدم فيها غير مبال بنصيحة السلطان علاء الدين ، والتقى بجيش علاء الدين الأول قرب اذربيجان

---

(١) لما سقطت دولة السلجوقيين تجزأت آملاكهم في بلاد الأناضول الى عشر امارات (قرة سي - صاروخان - آيدين - تكه - الحميد - القرمان - وكرميان - وقسطموني - ومنشأ - وقونيه) ،ضمت فيما بعد الى الدولة العثمانية .

محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ،حاشية رقم(٢)ص ١١٥.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ١٨.

(٣) ابراهيم بك حليم: التحفة الحليمية فيتاريخ الدولة العلية ، ص ٣٤.

حيثانكسر وترك أراضي الدولة التركية وابتعد عنها" (١) .

ومن هنا تبدأ قصة كيفية اتصال أرطغرل بن سليمان شاه بخدمة علاء الدين .

ويظهر أن علاء الدين الأول كان في حاجة الى عدد كبير من المحاربين للانضمام الى الجيش الأناضولي ، ولذلك انضم اليه عدد كبير منهم وكان من بين هؤلاء الملبين لهذه الدعوة أرطغرل بن سليمان شاه وعشيرته قابي، حيث شاركوه في حرب ياصي جمن Yassi Chamen وهي حرب مهمة في التاريخ التركي (٢).

وعلى الرغم من أن هؤلاء المؤرخين استقوا معلوماتهم من الحوليات العثمانية القديمة الا أنهم لايزالون في خلاف عميق حول قيمة هذه الروايات التاريخية فغريق منهم اعتبر هذه الحوليات حقائق ثابتة ،دونت بمعرفة رواة معاصرين لأحداثها ، أما الفريق الآخر فقد ألقى عليها ظلالا كثيفة من التشكك فيها (٣) .

وعلى أى حال فقد اتفق المؤرخون جميعا على أن أرطغرل قد أسدى خدمات جليلة للسلطان علاء الدين ، تلبية لدعوته أو الانضمام الى جانبه مصادفة لنصرة الضعيف في حربه مع المغول أو البيزنطيين .

فقد استحق بعدها أن يكافئه علاء الدين على نجدته ومساعدته له بعمله البطولي ، فأقطعه عدة أقاليم (٤) تقع بجهتي

---

(١) تاريخ الدولة العثمانية ،جا ، ص٨٦ .

(٢) يلمازاوزتونا : المصدر السابق .

(٣) عبدالعزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ،(القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة : ١٩٨٠م)،جا ، ص ٣٣ .

(٤) محمد فريد بك : الدولة العلية العثمانية ، ص ١١٥ .
زاد عبدالعزيز الشناوى: أن البقعة تشمل المنحدرات الشرقية من جبال طومانيج وارمني Ermeni يقضي فيها افراد القبيلة فصل الصيف وسهول سكود Soegud يقضون فيها فترة الشتاء ، المصدر السابق، ج ١ ص ٣٤ ، حاشية رقم (١).

طومانيج Toumandji واسكشهر[1] . وكان ذلك سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م[2] في محاذات بلاد الروم غربي بلاد السلاجقة[3] أو بمعنى آخر على الحدود البيزنطية ليتمكن من صيانة الحدود وتوسيعها نحو الغرب ، فمنح السلطان السلجوقي أرطغرل غازى لأمر أمير بني جوبان أى الأمير الأكبر للقطاع الشمالي من الحدود البيزنطية ، وهكذا استوطن أرطغرل بك وعشيرة قابي في القسم الشمالي - الغربي من الأناضول وذلك في حدود عام ٦٢٩ هـ / ١٢٣١م. على أرجح الأقوال .

وتقدرمساحة هذه الاقطاعية بحوالى ١٠٠٠ الى ٢٠٠٠ كم^2 .

وهكذا تم وضع حجر أساس الدولة العثمانية في سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣١م[4]، وصار لايعتمد في حروبه مع جيرانه الا عليه وعلى رجاله ، وكان عقب كل انتصار يقطعه أراضي جديدة ويمنحه أموالا جزيلة ، ثم لقب هو وقبيلته بمقدمة السلطان لوجودها دائمة في مقدمة الجيوش ، ولتمام النصر على يديه[5] وفي الوقت نفسه ظفر بلقب " أوج بكي " أى محافظ الحدود ، وكان منح هذا اللقب يتمشى مع التقاليد التي درجت عليهادولة السلاجقة وهو منح أى رئيس من رؤساء العشائر يعظم أمره ، ويلحق به عدد من العشائر الصغيرة لقب محافظ الحدود[6]، وهذا مما أتاح

---

(١) اسكي شهر : أى المدينة القديمة ، وهي مدينة تقع في جهة الغرب لأنقرة ، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٨.

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ،ج ١ ، ص ٤٨٤.

(٣) على حسون : الدولة العثمانية ، ص ١٥.
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١٨

(٤) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ٨٦ ، ٨٧.

(٥) محمد فريد بك : الدولة العلية العثمانية ، ص ١١٥.

(٦) عبدالعزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، ج ١ ،ص ٣٤.
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٣٦.
، ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ، ص ١٢.

لأرطغرل فترة سلام طويلة استطاع خلالها أن يوطد حكم العشيرة على الأراضي التي أوكل اليه أن يحكمها (١) .

غير أن أرطغرل بن سليمان شاه كان ذا طموحات واسعة ، فهو لم يقنع بالمنطقة التي أقطعها له السلطان علاء الدين الأول ، ولم يقتنع أيضا باللقب الذى منح له ولا ولن يقنع بمهمة المحافظة على الحدود فقط ، بل شرع في تحقيق طموحاته ، وهي القيام بالفتح الاسلامي ومواصلة نشر الاسلام في الأجزاء الغربية من آسيا الصغرى والتابعة للامبراطورية البيزنطية وذلك لأن تلك المناطق كانت تعاني الأمرين من الهجمات الصليبية المعادية للاسلام من جانب الامارات المسيحية هناك .وبتوفيق من الله ونصره نجح أرطغرل في تحركاته فضم للمنطقة التي كان يحكمها اسكى شهر (٢) مناطق جديدة هي المناطق المسماة آنذاك سلطانية اوصبراجق من ولاية قونية .

وقد تعددت فيما بعد الحروب بين السلطان علاء الدين والمغول الذين استولوا على قلعة كوتاهية ، فقام السلطان بتفويض أمر محافظة هذه القلعة المذكورة الى أرطغرل ، فاستردها بعد حروب شديدة وقتال عنيف مع المغول ، وبعد هذه المعركة علا وسما نجم أرطغرل عند السلطان علاء الدين ، ولم يزل في خدمة السلطان وطاعته مما جعل السلطان يزداد به اعجابا حتى توفي أرطغرل سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١هـ بمنطقة سكود (٣) التي اتخذها مقرا له فدفن فيها (٤) .

---

(١) احمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٦ .
(٢) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٣٤ ،
أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٣٦ .
(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٤ .
(٤) عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٤ .

ولما بلغ السلطان علاء الدين خبر وفاته حزن حزنا شديدا ، وعين مكانه في الحال أكبر أولاده وهو عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه [١]، مؤسس الدولة العثمانية [٢] ، والذى اليه تنسب الدولة والأمة فسميتا باسمه [٣] ، ولكي يصبح قائدا مستقلا على منطقة الحدود السلجوقية فقد اقتضت التقاليد الحدودية أن يحرز عثمان نصرا كبيرا على المسيحيين يؤهله لان يتلقى لقب البكوية من السلطان السلجوقي ، وفي سبيل ذلك سارع عثمان وسار بقواته غربا وحقق انتصارات كبيرة على البيزنطيين فاستولى على قلعة قرة فيون [٤] وحينما رآه علاء الدين في حزمة وجهاده مقتفيا سيرة والده في الفتح والجهاد مده بالأموال والامدادات وحفه بالرعاية السلطانية حيث أرسل اليه تعظيما لشانه وكفاءته الحربية شارات السلاجقة وهي الراية البيضاء والخلعة والطبل [٥] ، وكتابا تركي العبارة معلنا فيه استقلال عثمان ، ثم أقطعه كل مافتحه من الأراضي وكل ماسيفتحه من أراض جديدة وكان ذلك عام ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩م. ولما ضرب الطبل بين يدى الأمير عثمان بك نهض قائما على قدميه تعظيما للسلطان علاء الدين .

وقد جرت هذه العادة بأن يقوم السلطان عند سماعه الطبلة تعظيما وتذكارا حتى أمر السلطان محمود الثاني في سلطنته بابطال هذه العادة [٦].

---

(١) شاه : معناها ملك ،ولكن اذا جاء بعد الاسم فيعني السيد .
محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١١٥ ، حاشية رقم (١) .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ٢ ، ص ٤٨٤.

(٣) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٤٠.

(٤) Halil Inalcik:The Otoman Empire, P. 55.

(٥) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ،ص ٤٨٤ . ،
Hilil Inalcik: op.cit., P.55.

(٦) اسماعيل سرهنك: المصدر السابق ،ج ١ ، ص ٤٨٤.
Hilil Inalcik: op. cit., p.55.

ولقبه السلطان علاء الدين بلقب بك ، وسمح له بأن يضرب السكة باسمه ويذكر اسمه على المنابر بعد اسم السلطان [1] في خطبة الجمعة . وهذا العمل من علاء الدين يعتبر بمثابة اظهار شرعية امارة عثمان على الحدود الاسلامية المسيحية [2] .

فصار عثمان بهذه الامتيازات يملك صلاحية السلطان ولا ينقصه منه الا اللقب [3] ، ونظرا لانتصاراته العسكرية الباهرة على البيزنطيين فيما بعد فقد منحه السلطان علاء الدين لقب " عثمان الغازى حضرتلرمرزبان عاليجاه عثمان باشا " أى " حضرة عثمان الغازى ،حارس الحدود ، العالي الجاه ،عثمان باشا "[4] . ولاشك أن هذه الانتصارات كان لها في الواقع أعظم الأثر الذى جعل عثمان يظهر على مسرح الأضواء التاريخية [5] .

وبينما كان شأن العثمانيين يسير فى الصعود والارتقاء ، اذ أغار غازان التتار سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م بجموعه على سلطنة قونية ،وفي هذه الغارة قتل سلطانها الأمير علاء الدين آخر ملوك السلجوقيين[6] فانقرضت

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ، ص ٤٨٤.

(٢) Hilil Inalcik: The Ottoman Empire, P. 55.

(٣) محمد فريد بك : الدولة العلية العثمانية ، ص ١١٨ .

(٤) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٣٩-٤٠.

(٥) Hilil Inalcik: Op. cit., p.55.

(٦) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ،ج ١ ، ص ٣٩-٤٠.

السلطنة السلجوقية ولم يكن للسلطان ذرية فاجتمع وزراء الدولة وأعيانها وقرروا بالاجماع أنه لايليق للسلطنة سوى عثمان الغازي ليحفظ للاسلام عزته[1] . فعرضوا عليه هذا الأمر فأجاب طلبهم[2] ، ويذكر احمد جودت باشا في تاريخه أن الدولة السلجوقية انقرضت في عام ٦٩٩ هـ حيث قام امراؤها وولاتها بالاستقلال ، الا أن عثمان استطاع أن يؤلف قلوبهم عليه ، فخطب له باسمه في يكي شهر التابعة له[3].

فانفتح المجال أمام عثمان بن ارطغرل بن سليمان شاه ، فقام باستئثار معظم المقاطعات والأراضي التي كانت تحت حكم السلطان علاء الدين[4] ، فأعلن قيام امارته[5] ولقب نفسه (بادشاه آل عثمان) ، معلنا بذلك ولادة امارة بني عثمان ، وجعل مقر حكمه يكي شهر[6]، فقام بتحسينها وتحصينها[7]، ثم اتخذ الراية البيضاء (راية السلاجقة)

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،جـ١ ،ص ٤٨٤-٤٨٥،
محمد فريد بك : الدولة العلية العثمانية ،ص ١١٨.
عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، جـ ١ ، ص ٣٩- ٤٠.

(٢) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية فيتاريخ الدولة العلية ،ص ٣٤.

(٣) تاريخ جودت ، جـ ١ ، ص ٣٧.

(٤) محمد فريد بك :المصدر السابق ، ص ١١٨.
زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الاتراك (الطبعة الثانية ،عمان ،دار الفرقان للنشر والتوزيع :١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ص ١٩.

(٥) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٥.
اورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني حياته واحداث عهده ، (الطبعة الاولى ، الكويت ،دار الوثائق ،١٤٠٧هـ/١٩٨٦م) ، ص ١٦.

(٦) يكي شهر : تلفظ الكاف هنا نونا فهي اذن : ينى شهر ومعناها البلد الحديث ويكتبها الاتراك الان هكذا Yenisenir وتقع الى الشمال الشرقي من بورسه .
محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١١٨ ، حاشية رقم(٤).

(٧) محمد فريد بك : المصدر السابق نفسه ، ص ١١٨.

واضعا عليها الشارات التي لاتزال حتى اليوم تشكل العلم التركي المؤلف من الهلال والنجمة [١] .

ولهذا اعتبر استقلال الدولة أو نشوءها من نهاية انقراض الدولة السلجوقية سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩/٩/٢٨م [٢] . وهكذا يعتبر عثمان بن أرطغرل ابن سليمان شاه المؤسس الأول للدولة العثمانية [٣] .

وعندما أعلن السلطان عثمان استقلال دولته سنة ٦٩٩ هـ أتاه علماء وأعيان وأمراء الدولة السلجوقية التي انهارت فانضموا اليه بدافع الجهاد تحت لوائه [٤] ، لتصبح هذه الدولة المتنفس الوحيد للحماس الديني للاسلام فجاء كل راغب في الجهاد في سبيل الله لنشر الاسلام ،فاجتذبت هذه الامارة أعدادا من المتحمسين لنصرة الدين الاسلامي ضد المسيحية .

وهذا مايؤكد أن الدولة العثمانية كانت اسلامية المنطلق والهدف [٥] فكان الغزو والجهاد عاملين مهمين في تأسيس وتطوير هذه الدولة العثمانية الفتية .

فالمجتمع في امارات الحدود قد صاغه اطار فكري خاص أشبعه بفكرة الجهاد المستمر والفتح الدائم في سبيل اعلاء كلمة الله حتى تشمل

---

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٥ ، أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني حياته وأحداث عهده ، ص ١٦ .

(٣) زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ١٨ - ١٩ .

(٤) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٦ .

(٥) زياد أبوغنيمة : المرجع السابق ، ص ١٩ - ٢١ .

العالم بأسره (١) . فقد كان التركمان الرحل القادمون الى الأناضول القلب النابض في المقاطعات الحدودية العثمانية . هؤلاء التركمان جاهدوا بتلهف في سبيل النصر أو الشهادة . وقد تربوا تربية اسلامية مليئة بالقيم الروحية المبنية على حب الجهاد والعمل على نشر الاسلام في البلاد المسيحية وصد الغارات الصليبية المعادية للاسلام والأمة الاسلامية (٢) .

ويتجلى هذا الاتجاه الديني في سياسة العثمانيين وتشجيعهم الجهاد لنشر الاسلام .

ولقد كان السلطان عثمان بعيد النظر ، حيث وجه فتوحاته نحو الغرب الى بيزنطه المتهالكة باعتبار أن كل فتح يناله منهم سيزيد من قوته ، وفي نفس الوقت تحاشى التصادم مع جيرانه أمراء الأناضول المحيطين به ، وخصوصا امارة القرمان القوية (٣) ، نظرا لأن تلك البلاد وصل اليها الاسلام وقد بدأت فتوحاته الفعلية في القرن الثامن الهجرى الموافق للقرن الرابع عشر الميلادى ،حين الانهيار النهائي لدولة السلاجقة مما أدى الى استيلاء عثمان بك على قلعتي اسكيشهر وقرجه حصار، وفي اسكيشهر بنى مسجدا وعين الموظفين لاقامة شعائر الاسلام وتطبيق الشريعة (٤) ، فأخذ يفتح مناطق جديدة فزحف على ازميد ثم ازنيك فلما لم يتمكن من فتحها عاد الى عاصمته (٥) ، وشرع في توطيد سلطته على أساس العدالة ، ثم مالبث أن سير الجيوش للفتح حتى وصلت الى " يني شهر " وبذلك أصبح على مرمى البصر

---

(١) ابراهيم شحاته حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، (الاسكندرية ، الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية :١٩٨١) ص٧٨-٧٩.

(٢) يلماز اوزتونا :تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٨٨.

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٧ .

(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٣٦ - ٣٧.

(٥) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١١٨ .

من بروسه ونيقية وهما أهم المدن البيزنطية في غرب الأناضول . وما لبثت " ينى شهر " حتى أصبحت عاصمة لبلاده بعد فتحها فتوفرت له فيها قاعدة الانطلاق نحو بروسه ثم الى القسطنطينية ، فمن موقعه الحصين في ينى شهر أرسل عثمان حملاته ضد المدن البيزنطية المجاورة لاستكمال الفتح، فاستولى على كثير من الحصون قبل أن تتحرك جيوش الدولة البيزنطية للدفاع عنها، وبعد أن دحر الجيش البيزنطي لم يجرؤ البيزنطيون على الخروج من أسوار نيقيه (ازنيك)[1] ، وذلك لأن الأراضي التي يسيطر عليها عثمان من اسكى شهر الى السهول المجاورة لنيقية وبروسه اصبحت بها امارته والتي تعتبر من أقوى الامارات في المنطقة .

ونتيجة لذلك شعرت بيزنطة بتهديد تلك القوة النامية ، فقرر الامبراطور البيزنطي تركيز اهتمامه وقوته في الجانب البحرى ليمنع وصول العثمانيين الى اراضيه الأوربية . في حين أن عثمان كان يخشى أن يتوقف الفتح العثماني بسبب اغلاق البيزنطيين طريق البحر ،وخاصة لتفوق بيزنطه البحرى، في الوقت الذى لاتملك فيه الدولة العثمانية أسطولا بحريا ، او بمعنى آخر انحصار عثمان في منطقة محدودة ، ربما سيؤدى هذا الانحصار الى ترك أتباعه له للبحث عن أراضي جديدة ،فبدأ عثمان بالفتح في المناطق المجاورة من أراضي بيزنطه فهاجم نيقيه وهزم الجيش البيزنطي في بافيون [2].

وقبيل أن يعزم السلطان على فتح بروسه ، أقام قلعتين بجوارها وعلى مسافة ربع ساعة ، وعين على هاتين القلعتين ابنه الغازى اورخان [3] ، ليتمكن من حصار المدينة [4] ، فأرسل الى جميع أمراء الروم ببلاد آسيا

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٧.

(٢) زبيده عطا : بلاد الترك في العصور الوسطى ، ص ٥٤-٥٥ .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٩٩ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٣٧.

يخيرهم بين ثلاثة أمور : الاسلام ، أو الجزية ، أو الحرب . فأسلم بعضهم وانضم اليه ، وقبل البعض دفع الجزية ، أما بعضهم الآخر فقد استعان على السلطان بالتتار [١] ،وطلبوا منهم النجدة ، فلبوا لهم ذلك واجتمعوا لحرب السلطان عثمان ، لكن السلطان لم يعبأ بهم ، فأرسل لهم جيشا جرارا بقيادة ابنه أورخان ، وبعد صدام عنيف بين القوتين استطاع الأخير من تشتيت شمل التتار ومن استنجد بهم ، ثم عاد مسرعا لمحاصرة مدينة بورسه سنة ٧١٧ هـ / ١٣١٧م [٢] .

ومما ساعد أيضا في فتح بروسه بسهولة هجوم اورخان على حصن اودنوس الواقع على قمة جبل أولمب [٣]، فدخله عنوة ، وبعد ذلك دخل مدينة بروسه ، بعد فتح كافة ماحولها من الحصون والقلاع ونشر الاسلام بها وقد دام هذا الحصار مدة من الزمن ،حتى أرسل امبراطور القسطنطينية أوامره لعامله على هذه المدينة بالانسحاب ، فانسحب منها ودخلها أورخان ، دخول الفاتحين منغير حرب ولا قتال ، وأسلم حاكمها (افرينوس) وأعطي لقب بك ، وصار افرينوس بك من مشاهير قواد المسلمين الذى أسندت له قيادة المعارك فيما بعد [٤] وقد توج فتوحاته بفتح مدينة بورسه سنة ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦م [٥].

---

(١) يبدو أن هذه الموقعة تمخض عنها اتفاق بين اوربا الطيبية والمغول ظهرت نتائجه في موقعة أنقره مع السلطان بايزيد الاول كما سيأتي .

(٢) محمدفريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٩٩.

(٣) أولمب : اسمه بالتركية (اناطولي طاغ) او (كشيش طاغ) وطاغ بالتركية معناه الجبل ،وقد كتب داغ لأن الاتراك يلفظون الطاء بين (الطاء والضاد والدال) وكشيش : لفظ فارسي معناه القسيس ويسمى هذا الجبل اليوم أولوطاغ (Uludag) اى الجبل الكبير .
- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٢٠ حاشية رقم(١).

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق نفسه ، ص ١١٩-١٢٠ .
- عبداللطيف عبدالله بن دهيش : قيام الدولة العثمانية (الطبعة الاولى ، مكة المكرمة ،مكتبةومطبعة النهضة الحديثة : ١٤٠٩هـ) ص ٢٨.

(٥) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ،ص ٣٧.
- عبداللطيف عبدالله بن دهيش : المرجع السابق ، ص ٢٨.

وعقب ذلك الفتح بلغ "اورخان مرض والده فهرول مسرعا اليه ،ولم يلبث أن توفى في سنة ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦م[١]، فدفن في مدينة بروسه العاصمة الجديدة للدولة العثمانية بعد أن أوصى بنقل جثمانه الى هناك[٢] ، ويعتبر عثمان بك من الرواد الذين أرسوا قواعد دولة اسلامية مترامية الأطراف ، وبدأ السير في طريق النصر ،حتى قيض الله لابنائه وأحفاده أن ينتهجوا خطواته[٣] .

وهكذا حاولنا أن نورد القرائن في كيفية نشأة الدولة العثمانية منذ هجرتها الأولى حتى استقرارها في الأناضول ،كما تبين أن تأسيس امارة آل عثمان هو بعد انهيار ملك قونيه السلطان علاء الدين آخر ملوك السلاجقة وذلك في عام ٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩/٩/٢٨م على يد التتار .

ولاحظنا ماصاحب نشأة الدولة في صراعها مع الروم وقوتها التي تحركها روح الجهاد الاسلامي لنشر الاسلام ،وسحق من يقف أمامهم من الروم حتى تم لهم فتح أهم المدن البيزنطية في آسيا ونشر الاسلام بها.

وبما أن عثمان كان شخصية محبوبة وجذابة فقد اتصف بالتسامح، فعندما أرسل الى الروم يخيرهم في الاسلام فقد اختار قسم منهم الدخول في الاسلام طوعا والقسم الثاني اختار دفع الجزية دليلا على أنه دخل طاعة السلطان الاسمية . أما القسم الآخر فقد امتنع ورفع راية العصيان والرغبة في القتال فرأيناه ينهزم بسهولة ،وقد حسن اسلام من دخل من رجال الروم كما أسندت الى بعضهم قيادة الجيش كما مر معنا وكما سيأتي .

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ،ج ١ ،ص ٤٨٧.

(٢) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، ج ١ ، ص ٤٣.

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٨.

ب - الجهاد والفتح ونشر الاسلام :

عقب وفاة السلطان عثمان بن أرطغرل أوص بالملك من بعده لابنه أورخان ثاني أولاده ، لشجاعته واقدامه في الحرب ، ولم يوص به لابنه الكبير علاء الدين ،لميله الى الورع والعزلة ، ومن حسن حظ هذه الدولة عدم معارضة علاء الدين في هذه الوصية ، بل أقدم على قبولها وتنفيذها مقدما الصالح العام على الخاص ، واكتفى بوزارة المملكة (الصدارة العظمى) التى قلدها له أخوه أورخان (١) ، بالرغم من الحاح اورخان له بأن يقاسمه السلطة فيما بينهما فلم يقبل علاء الدين احتراما لمشيئة ورغبة والده (٢)، فأصبح علاء الدين مختصا بتدبير الامور الداخلية ، واشتغل في اعداد وتأسيس الانظمة والقوانين وبناء الجيش للدولة كما تفرغ اورخان للفتوحات ونشر راية الجهاد على كل البلدان المجاورة اليه (٣) . فالدولة منذ تأسيسها دولة اسلامية في المنطلق والراية والهدف (٤) .

ويتضح هذا جليا من وصية عثمان لابنه أورخان عند وفاته والتى جاء فيها : " اعلم يابني أن نشر الاسلام ،وهداية الناس اليه ، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنه "(٥) . ثم قال : " يابني انني أنتقل الى جوار ربي وأنا فخور بأنك ستكون عادلا في الرعية ،مجاهدا في سبيل الله لنشر دين الاسلام ". وقال أيضا :

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولية العلية العثماية ، ص ١٢٢.
(٢) حسين لبيب : تاريخ الاتراك العثمانيين ،(القاهرة ،مطبعة الواعظ ، بمصر : ١٣٣٥هـ / ١٩١٧م) ،ج ١ ، ص ٩.
(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٢ ،
أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ،ج ١ ، ص ٣٨.
(٤) زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الاتراك ، ص ٢١.
(٥) زياد أبوغنيمة : المرجع السابق نفسه . ،
كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، (مطبعة أحمدحسان:١٣٢٧هـ) ج ١ ، ص ١٠.

" أوصيك بعلماء الأمة ، أدم رعايتهم وأكثر تبجيلهم وانزل على مشورتهم فانهم لايأمرون الا بخير ... يابني اياك أن تفعل مالا يرضي الله عز وجل، واذا صعب أمر فاسأل علماء الشريعة فانهم سيدلونك على الخير، واعلم يابني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله ، وأننا لسنا طلاب جاه ولا دنيا ".

وفي هذه الوصية حث الأبناء والمسئولين على الجهاد في سبيل الله حيث قال: " وصيتي الأولى لأبنائي ، ولجميع الأعزاء علي أن لايتركوا الجهاد في سبيل اعلاء كلمة الله ،ونشر دين الاسلام الجليل ورفع راية الاسلام عاليا في ربوع العالمين ، وأنني أقول لكم : انني أدعو الله عز وجل أن يحرم من شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، كل واحد فيكم يبتعد عن طريق الاسلام ، ويظلم الناس ويترك الجهاد"(١).

بعد هذه الوصايا التي صاحبت تكوين هذه الدولة والتي تدل على الحث على الجهاد في سبيل الله والعدل بين الرعية ، استلم السلطان اورخان عن والده دولة ليس لها قوانين ولا عملة او حدود واضحة يحيط بها جيران أقوى منها(٢) .

الا أن التزامه بوصية والده بمواصلة الجهاد قام بفتح بورسه جعله يفكر في نقل تخت السلطنة اليها ، فأصبحت عاصمة الدولة الجديدة للعثمانيين ، والتي صارت من ضمن العواصم التي انتقل العثمانيون اليها عبر تاريخهم(٣)، بعد أن كانت عاصمتهم ولمدة خمس وثلاثين سنة في مدينة

---

(١) زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، ص ٢١-٢٣.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٣٨

(٣) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٤٣.

بني شهر[١] • ومن بروسه انطلقت الجيوش العثمانية لفتح مناطق جديدة ونشر الاسلام بها وتحويلها الى مناطق اسلامية[٢] •ذلك لأن الدولة العثمانية دولة قامت على الجهاد في سبيل الله ، فبدأت ثغرا ثم تحولت الى سلطنة بدأت تكتلا عشائريا ، ثم تطورت بسرعة لتتحول الى دولة اسلامية شعارها الجهاد في سبيل الله ، وقد أصبح هذا واضحا منذ بدء قيامها دولة متفرغة لتأييد سلطة الاسلام وعقيدته ، متأهبة للدفاع عنه ، لتأكيد الشعور العثماني بأنهم أمة نذروا أنفسهم لنشر الدعوة الاسلامية ، وأن نشر الاسلام هو الهدف الأساسي لسلاطين بني عثمان[٣]•

وما ان استقرت قواعد الدولة ببناء النظم الجديدة المستمدة من النظم الاسلامية التفت أورخان الى الفتوحات[٤]، فزحفت جيوشه لفتح مابقي من بلاد آسيا الصغرى وبلاد الروم، ففي سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م انطلقت الجيوش العثمانية بقيادة الغازى عبد الرحمن واتجهت الى ازميد التي آل الحكم فيها الى ابنة حاكمها وكانت هذه المدينة تتلقى الامدادات المالية والعسكرية من القسطنطينية ، ولما حاصر الغازى عبد الرحمن كاتبته البنت سرا[٥]، وقامت بارشاده الى الطرق السهلة لفتح القلعة المسماة ايدوس ،وتم فتح القلعة بسببها[٦]، وقام الغازى عبد الرحمن بجمع الغنائم وارسال البنت مع الغنائم الى السلطان اورخان الذى عقد نكاحها على الغازى عبد الرحمن لكونها خدمت وأعانت الدولة •

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٨•
(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٨•
(٣) عبد الكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، (الطبعة الاولى ،منشورات المكتبة الدولية ، الرياض ،ومكتبة الخافقين دمشق : ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص ٢٤•
(٤) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٩•
(٥) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٤•
(٦) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٨•

ومازال السلطان يتقدم في فتوحاته حتى حضر بنفسه سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧م وحاصر مدينة نيقوميديا (ازميد الحالية) وارسل قرة علي والغازي عبد الرحمن وقور الب لفتح قيون حصار وفي أثناء الحرب اصيب قلايون حاكم قيون حصار برصاصة سقط على اثرها ميتا من سور القلعة ،فاستولت الجنود العثمانية على القلعة المذكورة ، وخلال ذلك أيضا سلمت بلاقونية حاكمة ازميد المدينة الى السلطان أورخان ، فأركبها مع جنودها ومن يريد من اهل المدينة السفن ، وأرسل الكل الى القسطنطينية وذلك بناء على رغبتها (١) .

وبهذا العمل جذب اليه قلوب الأهالي لمعاملته لهم باللين والرفق ولم يعارض الاهالي الذين رغبوا في اقامة شعائرهم الدينية وأذن كذلك لمن اراد ان يهاجر باخذ كافة منقولاته وبيع عقاراته مع تمام الحرية في اجراءاته (٢) . وبهذا الفتح صارت حدود الدولة قريبة من خليج القسطنطينية (٣) ، ولم يبق من مدن الروم المهمة في آسيا سوى مدينة نيقية (ازنيك الحالية) فحاصرها السلطان وضيق الحصار عليها وعلى أهلها حتى تم فتحها فدخلها بعد سنتين من الحصار وذلك في سنة ٧٣١ هـ/ ١٣٢٩م فسقط بسقوطها نفوذ الروم (٤)).

وخلال هذه المعارك غنم العثمانيون غنائم كثيرة ،وكان امبراطور القسطنطينية قد اجتهد من أجل خلاصها (٥) حيث سار بجيشه لاسترجاعها

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ، ص ٤٨٩.
ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ،ص ١٢٤.
(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ،ص ١٢٤.
(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ،ص ٤٨٩ .
(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٢٤.
(٥) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٩.

فالتقى بالجيش العثماني في بلكانون [١]، وكانت النتيجة انتصار الأتراك الذين طاردوا الجيش البيزنطي حتى اسكدار [٢] الواقعة في آسيا [٣] ،على الشاطئ الأسيوى لمضيق القسطنطينية ، فكانت هذه المدينة من المدن المقدسة لدى المسيحيين ، ومن أعظم مدائن تلك الجهات لذلك اتخذها السلطان أورخان مركز لتجمع قواته [٤] .

ونتيجة للانتصارات الكبيرة للقوات العثمانية فقد تخلت بيزنطة عن بذل الجهود الخاصة بتنظيم المقاومة العسكرية في الأناضول ،أو تزويد حاميات ماتبقى لها من المدن هناك ضد الدولة العثمانية وهذا ماجعل دولة السلطان أورخان من أقوى الامارات التركمانية حتى تم اعتبارها زعيمة الجهاد الاسلامي ضد المسيحيين [٥] .

وفي سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٠م توفي الوزير علاء الدين ابن أورخان ،وحل مكانه الأمير سليمان بن اورخان وزيرا للدولة ،وفاتح مدينة ازنيك المقدسة [٦]، وتلى ذلك بأن استولى اورخان على ماتبقى من البلاد البيزنطية الواقعة شمال غربي الاناضول دون صعوبة [٧]، ومنها بلاد مدرني وكمليك .

---

(١) بلكانون : هذا المكان يدعى الآن " مالتبه ".
انظر : اورخان محمد على : السلطان عبدالحميد الثاني ،حياته واحداثه ، ص ١٦.
(٢) اسكدار : هي احدى المناطق الاسيوية لمدينة القسطنطينية .
انظر : اورخان محمد علي : المصدر السابق ،ص ١٦-١٧.
(٣) اورخان محمد على : المصدر السابق نفسه ، ص ١٦-١٧.
(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار، ج ١ ،ص ٤٨٩.
(٥) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٥-٤٦.
(٦) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٩.
(٧) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

وخلال تلك المعارك أرسل قيصر الروم جملة من الهدايا للسلطان أورخان طالبا منه عقد الصلح بين الطرفين ، وايقاف المعارك ، وبعد المفاوضات عقدت هدنة بين الطرفين ولمدة عشرين سنة في عام ٧٣٢هـ/١٣٣٠م[(١)].

وبالرغم من تلك الهدنة فان السلطان أورخان كان يطمح لنشر الاسلام في مناطق اوسع ولذلك قام في عام ٧٣٦ هـ /١٢٣٦م بفتح امارة قرة سي[(٢)]، وضمها الى دولته وذلك لوقوع الخلاف بين ولدى أميرها[(٣)] ، عجلان بك بعد موته وهي أول مملكة اسلامية من الأناضول [(٤)]، تعزز بهامركزه وحركة الفتح الاسلامي على شواطئ بحر مرمره كما انه سهل للعثمانيين الوصول الى قلعة الدردنيل في شبه جزيرة غاليبولي مما يسهل عليه العبور الى شرق أوربا حين تسنح أول فرصة له[(٥)] .

وما ينبغي ملاحظته لتمييز امراء بني عثمان الاول انهم لم يشنوا الحرب تلو الحرب من أجل الانتصارات المتوالية والتوسع المستمر ،بل كانت حروبهم من أجل الفتح ونشر الاسلام وبناء حضارة اسلامية عالية ،فما ان ينتهوا من فتح مدينة او منطقة حتى يسارعوا الى تنظيمها ونشر الاسلام والعدل والأمن

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ،ص ٤٨٩.

(٢) قرة سي : امارة صغيرة تقع غرب الاناضول جنوب بحر مرمره والى الشرق من بحر ايجه .
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ،ص ١٢٤ ، حاشية رقم (١)

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق نفسه ،ص ١٢٤.
- اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ،ج ١ ، ص٤٨٩.
- علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ١٦.

(٤) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٨٩.

(٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ، ص ٤٦.

والمساواة بها ،بحيث تكون الاراضي الجديدة جزءا لايتجزأ من الدولة بكل مقوماتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية وغيرها من الجوانب الحضارية.

وعلى هذا المنوال جعلوا من آسيا الصغرى قوة فريدة في نظامها ووحدتها بعد أن كانت عبارة عن مناطق تعيش فيها طوائف متفرقة. وبهذا العمل ضمنت استمرارها في آسيا الصغرى وشرق أوربا فترة طويلة من الزمن[1]. وكان اعتمادها بالدرجة الأولى على صهر عناصر السكان في وحدة واحدة وذلك من أجل تماسك الدولة وجعل السكان يعملون يدا واحدة من أجل البناء والتصور على حسب أسس اسلامية قيمة.[2]

وتلت فتح قرة سي فترة عشرين سنة انقضت من غير حرب وفتوح[3]. وقد استفاد اورخان من فترة الهدنة فعمل على الاصلاح الداخلي وذلك بسن الأنظمة ونشر الاسلام والسلام في ربوع البلاد[4] عن طريق بناء المساجد والمدارس وتخصيص الأوقاف للصرف على المنشآت والمرافق العامة ما شهد بعظمة عصر السلطان أورخان وحبه للخير والاحسان والنظام[5]. وفي سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م جددت المعاهدة السلمية مع قيصر الروم ،فزاد ذلك من جو الصفاء والمودة بين الدولتين[6] وارتبط السلطان اورخان برباط الصداقة والود مع الامبراطور اندرونيكوس ومن أتى بعده[7] ،ولم يدرك السلطان أورخان أن وراء تلك الهدنة تخطيط من جانب قيصر الروم وأن عقده لتلك الهدنة هو من أجل تدعيم موقفه وتقوية صفوفه وهذا ماحدث فعلا.فماكاد قيصر الروم

---

(١) حسين لبيب : الأتراك العثمانيون ،جـ١ ،ص١٤ .
(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص٤٧.
(٣) حسين لبيب : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٤
(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار من دول البحار ،جـ ١ ،ص٤٨٩.
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص١٢٤.
(٥) حسين لبيب : المصدر السابق ، ص١٤.
(٦) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص٤٩٠.
(٧) حسين لبيب : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٤-١٥.

بعقد تلك الهدنة حتى أخذ يعمل في الخفاء من أجل تدعيم مركزه وبناء قوته وكان يبطن العداء الشديد للدولة العثمانية وسلطانها ويتحين الفرص للايقاع بالدولة العثمانية لكن لم يجرء على اعلان ذلك الا بعد عشر سنوات من عقد تلك المعاهدة وذلك بعد أن اتحد القيصر مع البنادقة الذين كانوا يهاجمون أطراف الدولة العثمانية من الجهة البحرية [1] فلقد كانت الحروب التي نشبت بين الجمهوريتين البحريتين البندقية والجنوية وشهدها البحر الأبيض المتوسط، سببا مباشرا لتجديد العداوة بين قوى اورخان وصهره كانتكوزين، والتي أدت الى استقرار العثمانيين في شرق اوربا، لأن الجنويين كانوا يملكون الضاحية الاوربية للقسطنطينية وهي المعروفة بغلطة، فكان البوسفور احدى الجهات التي شهدت اشتباكهم مع أعدائهم البنادقة في القتال، وكان اورخان يكره البنادقة لان اساطيلهم عبثت بأملاكه الواقعة على البحار، كما احتقروا المفاوضة معه كأمير ولكنهم كانوا حلفاء لصهره المذكور، فارسل أورخان جنودا مساعدة الى غلطة لتعضيد الجنويين ونصرتهم على النبادقة العدو المشترك .. وفي الوقت نفسه مد اورخان يد المساعدة الى يوحنا يولوجوز في الحرب الاهلية التي نشبت بينه وبين صهره الامبراطور [2] للمطالبة بأحقية عرش القسطنطينية.

ففي وسط هذه الاضطرابات، تمكن السلطان أورخان من اصدار أمره الى ابنه سليمان بالاستعداد والعبور لبلاد الروملي، فتقدم سليمان بالجيش في سنة ٧٥٧ هـ /١٣٥٦م حتى وصل الى مدينة جناق قلعة بالساحل الغربي لآسيا على مضيق الدردنيل ثم عقد هناك مجلسا مع أشهر قواده، فاتفقوا على عمل عبارات (اكلاك) للعبور بها، وبعد انشائها عبروا بها الدردنيل ليلا الى ساحل روم ايلي . واستولى سليمان بن اورخان على

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار، ج ١، ص ٤٨٩.
محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ١٢٤.

(٢) حسين لبيب : تاريخ الأتراك العثمانيين، ج١، ص ١٥.

قلعة جمنك (Tzyme) وذلك في سنة ٧٥٨هـ / ١٣٥٧م [١] وتسمى أيضا حصن (Zampe) زميه في الوقت الذى كان فيه كونتاكوزينوس مشغولا بصراعه مع صهره يوحنا بولوجوز. ولهذا السبب لم يستطع التصدى للقوات العثمانية من احتلال هذا الموقع الهام [٢] . ويعتبر هذا العبور بداية للتاريخ البحرى للدولة العثمانية . ففي تلك الأثناء ظهرت بعض الاضطرابات والمنازعات بين أعضاء العائلة الامبراطورية في القسطنطينية ، بعد وفاة اندرنيكوس الثالث امبراطور دولة الروم في سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م . فكان الوارث لعرش الدولة هو يوانيس يوحنا [٣] ، باليولوجوس وكان حديث السن عند ذلك قام ناظر قصر الامبراطور المدعو كانتاكوزينوس [٤] وآخرون، يطلبون الاستئثار بالملك ، فطلب انتاكوزينوس من السلطان أورخان المساعدة

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩٠.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٧.

(٣) يوحنا بولوجوز : هو يوحنا الخامس امبراطور بيزنطة من سنة ١٣٤١–١٣٩٠م . وكان ابن تسع سنين حينما توفى والده الامبراطور اندرونيكوس الثالث ، فحصل صراع على السلطة ففاز من جراء ذلك رئيس وزراء والده (يوحنا كانتاكوزين) وبالرغم من زواج بولوجوز من ابنة رئيس وزراء والده كانتاكوزين المذكور ، الا أنه كان يعمل ضده لاجبارة على التنازل عن وصاية العرش فطلب مساعدة الغرب بعد فتح غاليبولي من قبل العثمانيين ، واعترف بروما وتعهد بانهاء الخلاف بين البيزنطيين واللاتين ، مقابل وعود البابوية بحملة صليبية لدعمه ، ولكن بقي ذلك حبرا على ورق ، وحينما حاول تحصين القسطنطينية ، منعه العثمانيون وهددوه ، وتوفى سنة ١٣٩١ هـ .

— على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٩ ، حاشية رقم (٢)

(٤) كانتاكوزينوس : هو يوحنا كانتاكوزينوس من السلالات الاستقراطية البيزنطية . كان له دور بارز في قيادة الامبراطورية ، فاز من بين المتنافسين على وصاية العرش الامبراطورى البيزنطي ، وذلك بمساعدة العثمانيين بعد وفاة الامبراطور اندرونيكوس الثالث .

— على حسون : المصدر السابق ، ص ١٩ ، حاشية رقم (١).

وزوجه بابنته تيودورا لتقوية أواصر المساعدة ، وعلى ذلك أرسل السلطان أورخان قوة من جيوشه عدة مرات لمساعدته ونجدته حتى مكنه من السيطرة على منافسيه والفوز بعرش القسطنطينية [1] متحديا في ذلك قوى الغرب [2] .

من أجل ذلك قام الروم بعقد حلف صليبي مع المجر والصرب والبلغار والافلاق والبغدان لقتال سليمان لفتوحاته في أوربا اولا وتدخله في أحوال الدولة الرومية ثانيا ،فاستعد سليمان لهذا الحلف الصليبي المتحد وانقض عليهم بجنوده من جبال البلقان وأوقع بجمعهم الهزيمة . ثم قصد جهة بلاد البلغار لتسكين ثورتها واضطرابها [3].

وفي خلال ذلك حصلت أيضا منافسات كبيرة بين ملوك الصرب والمجر والبلغار والافلاق والبغدان أدت الى منازعات عديدة [4] ، ذلك لأن ملك الصرب (دوشان) جمع قبائل المقابلة تحت سلطانه ، وسار بهم الى بلاد البلغار فاستولى عليها وزحف على مدينة القسطنطينية ، فأرسل امبراطور الروم بالقسطنطينية [5] وفدا الى السلطان اورخان يطلب منه الاغاثة والاعانة مرة ثانية ، فأمده السلطان وأرسل له جيشا عظيما بقيادة ابنه

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ، ص٤٩٠.
ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ،ص ٣٩.

(٢) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ١٩.

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ،ص ٤٩٠.
ابراهيم بك حليم : المصدر السابق ،ص ٣٩.

(٤) اسماعيل سرهنك: المصدر السابق ، ص ٤٩٠.

(٥) كانت مدينة رومه وما استولى عليه من الاقاليم المتسعة مشكلة بهيئة جمهورية من ابتداء وجودها الى سنة ٢٩ قبل المسيح فجعلها القائد الشهير (اكتافيوس Octavius) حكومة امبراطورية وأطلق على نفسه لقب (أوغسطس) أي السامي القدر . واستمرت هذه المملكة الى سنة ٣٩٥ حيث قسمها الامبراطور (طيودوس بين ولديه الى مملكة رومانية شرقية وجعل مقرها بيزنطة التي سميت فيما بعد بالقسطنطينية وأقام عليها ابنه اركاديوس Arcadius ومملكة رومانية غربية جعل عاصمتها مدينة رومه وأقام عليها ابنه (=)

سليمان باشا لصد غارة ملك الصرب [١] حتى عسكر تحت أسوار القسطنطينية وسكن ذلك الاضطراب [٢] بموت ملك الصرب قبل وصوله الى القسطنطينية وبذلك تخلصت القسطنطينية من شره [٣] .

ولما نزل العثمانيون بساحل آوربا تاكدوا ضعف مملكة الروم وما آلت اليه من الانحلال ، فأخذ السلطان اورخان سرا تجهيز واعداد الكتائب لاجتياز البحر واحتلال بعض نقاطه الهامة على شاطئه الاوربي لتكون مركزا لانطلاق اعمال العثمانيين نحو اوربا ،حتى اذا حانت الفرصة انقضوا لحصار القسطنطينية برا وبحرا ودخلوها فاتحين غانمين [٤].

يظهر من هذا خطة اورخان في اتباع سياسة دقيقة مع بيزنطة تسندها القوة العسكرية ولاتميل الى البدء بالاعتداء والمعروفة بسياسة النفاذ الى البحار المفتوحة والوصول الى المضايق [٥].

ففي سنة ٧٥٩ هـ / ١٣٥٧م سنحت الفرصة فاجتاز سليمان باشا أكبر أولاد السلطان أورخان وولي عهده وصدر مملكته مضيق الدردنيل ومعه أربعون من أشجع جنوده تحت استار الظلام حتى وصلوا الى الضفة الأخرى فقبضوا على ماكان بها من القوارب وعادوا بها الى معسكرهم ،فانتقل الجيش الى ضفة أوربا وكان عدده ثلاثين الفا ، واحتل ميناء (تزنب) وساعدهم الله بأن أصاب مدن تراقيا زلزالا شديدا اسقط جزءا من أسوار

(=) الثاني (انوريوس Honorius) ثم سقطت الدولة الغربية سنة ٤٧٦م بسبب اغارة المتبربرين عليها ،واستمرت الشرقية الى أن فتحها العثمانيون عام ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣م .
- محمد فريد بك :تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٥، حاشية رقم(١).

(١) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٢٥.
(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ص٤٩٠.
(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٥.
(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٢٦.
(٥) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ،ج ١ ،ص ٩٤.

غاليبولي (١) فدخلها العثمانيون بدون قتال (٢). وكان ذلك في سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٥٨م فاحتج الامبراطور البيزنطي على ذلك دون جدوى ، فكان رد السلطان أورخان أن العناية الالهية قد فتحت أبواب المدينة أمام قواته (٣) . وما لبثت غاليبولي أن أصبحت أول قاعدة عثمانية في أوربا.

وحين انفرد باليولوس (حنا الخامس) بحكم بيزنطه قام باقرار فتوح أورخان في اوربا وذلك مقابل تسهيل وصول المؤن الغذائية وغيرها الى القسطنطينية (٤) . وفي نفس العام ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م تم فتح عدة مدن منها ابسالا (٥) و (رودستو) (٦) وغيرها من المدن وأصبحت الدولة العثمانية ذات مكانة عالية تهابها وتحسب لها ألف حساب جميع الدول الأوربية رغم عهدها الحديث .

وبينما كان الروم يطلبون من العثمانيين أن يعيدوا لهم هذه المناطق في مقابل مايريدون من المال ، كانت عساكر السلطان مهتمة بالفتوحات المتواصلة في أراضي الروم التى كانت منشغلة بالمنازعات الداخلية (٧).

---

(١) كليبولي : مما يكسب هذه المدينة أهمية عظمى وقوعها على ضفة بوغاز (مضيق) الدردنيل الذى هو الممر الوحيد بين بحار اوربا وبحر مرمرة ، وهي تبعد عن مدينة أدرنة بمائة واربعين كيلو متر تقريبا. وتقع في آخر مضيق الدردنيل في الجانب الأوربي .
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٦.

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٦.

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٧.

(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٤٧.

(٥) ابسالا : تقع في شمال مضيق الدردنيل في الجانب الاوربي .

(٦) رودستو : Rodosto ويسميها الاتراك تكرطاغ أوتكفور طاغ وتقع على بحر مرمره من الجانب الغربي .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٧ حاشية رقم (١) و(٢).

(٧) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج١ ، ص ٤٩٠-٤٩١.
ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٩.

فكانت هذه المنازعات فرصة لتقوية مركز السلطان أورخان في أوربا لأن كل فريق من المتحاربين كان يطلب ود المسلمين ليستعين بهم على الفريق الآخر(١).

ثم أرسل أورخان أعدادا كبيرة من التركمان الى تراقيا لتدعيم مركز الدولة العثمانية هناك (٢) . وبينما كان سليمان يقود الجيوش لتحقيق النصر على أعداء الاسلام وافاه الأجل المحتوم فعين لقيادة الجيش أخوه مراد الأول مكانه (٣) . ولما بلغ هذا الخبر والده أسف عليه أسفا شديدا ولم يلبث الا أن توفي من كدره (٤) .

وهكذا توفى السلطان اورخان بعد أن تم خلال حكمه اقامة أهم النظم المدنية والعسكرية، وخفق الهلال راية الدولة على القارة الأوربية، فمنذ أول يوم ثبت فيه العثمانيون أقدامهم على الأرض الاوربية وأعداؤهم يحاولون عبثا زحزحتهم عنها دون جدوى (٥) .فانطلقت من غاليبولي قاعدتهم في أوربا الحملات الأولى التي كان من نتاجها فتح كامل شبه جزيرة البلقان على يد خلفاءه (٦) .

واذا كان السلطان عثمان هو مؤسس دولة آل عثمان ،فان السلطان أورخان يعتبر المؤسس الحقيقي لأركان هذه الدولة على أساس مقومات الدولة الحقيقية، فقد حمل لقب سلطان وقام بسك أول عملة عثمانية (٧).

---

(١) حسين لبيب : تاريخ الأتراك العثمانيين ،ج١ ، ص ١٧.
(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٧.
(٣) تاريخ جودت ،ج ١ ،ص ٣٨.
(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار،ج ١ ،ص ٤٩١.
ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ،ص ٣٩.
(٥) حسين لبيب : المصدر السابق ، ص ١٧.
(٦) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٤٧-٤٨ ،
(٧) Halil Inalcik, The Ottoman Empire, p.56.

وعندما تربع السلطانمراد الأول على كرسي الحكم اتبع خطـوات والده في الجهاد والفتوحات الاسلامية (١) ، وبينما هو مهتم في بنـاء أمور دولته الداخلية اذ بأولاد القرمان(٢) المتاخمين لدولته يتحدون مع الحكام المسيحيين ضد السلطان مراد الأول(٣) . ذلك لأن سلطان هـذا الاقليم علاء الدين أراد انتهاز فرصة انتقال الملك الى السلطـان مراد الاولبعد وفاة والده فأثارحمية هؤلاء الامراء المستقلين وحرضهـم على قتال العثمانيين ليدك صرح مجدهم وايقاف عجلة تقدمهم(٤)،فهجـم هذا الحلف على بروسه عاصمة الدولة العثمانية ثم ازنيق ،فاستعد السلطان لقتالهم وهزمهم ، ثم استولى على قلعة انقره سنة ٧٦٢هـ /١٣٦٠م(٥) أهـم مدنهم ومقر سلطنة القرمان. فلما رأى القرمان انهزامهم أمام القـوات العثمانية سارعوا الى ابرام الصلح مع السلطان ليحفظ مابقي لهم مـن الاملاك(٦). وفيتلك اللحظة سار البنادقة باسطول بحرى مؤلف من ستيـن سفينة لطرد العثمانيين من أوربا تقدمت الأولى الى قلعة غاليبولـي ، والثانية دخلت جون المعارض ،ثم تقدمت هذه القوة وهجموا علـى العثمانيين الموجودين في الروملي ، فتصدى لهم الجيش العثماني بكل ثبات فأجلاهم عند الهجمة الأولى وارتدوا على أعقابهم يجرون أذيال الهزيمـة والعار .

ولم يكن للعثمانيين في ذلك الحين قوة بحرية ماعدا بعض الـزوارق التي يستعملونها داخل بحرمرمرة ، ولكن السلطان رأى في سنة ٧٦٣هـ/١٣٦١ م

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق أخبار عن دول البحار ،ج ١ ، ص ٤٩١.

(٢) أمراء شبه ملوك الطوائف بالأناضول الذين استقلوا بامار اتهم عقـب سقـوط دولة السلاجقة في بلاد قونية.

- Halil Inalcuk: The Otoman Empire, p.56.

(٣) ابراهيك بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ،ص ٤١.

(٤) محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ،ص١٢٩.

(٥) ابراهيمبك حليم : المصدر السابق ،ص ٤١.

(٦) محمد فريد بـك : المصدر السابق ،ص ١٢٩.

زيادة عدد تلك الزوارق لتساعد الجيش في نقل مهامه البحرية . وعلى اثر ذلك عبر بجيشه الى روملي [١]،وفتح جملة من البلاد والقلاع [٢] .

وفي سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦١م فتحت مدينة أدرنة [٣] . وعين عليها شاهين بك لاله [٤]، سلمها قائدها الرومي لما داخله اليأس في استخلاصها .

وقد نقل السلطان مراد الأول عاصمته من بروسه الى أدرنه لأهمية موقعها الاستراتيجي لوقوعها على ملتقى ثلاثة انهار ، فأصبحت عاصمة للدولة حتى فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح الثاني سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م [٥] وأصبحت أدرنة مركز الروملي وعاصمة للدولة بعد بروسه وتحولت من مدينة بيزنطية الى مدينة اسلامية [٦].

وفي سنة ٧٦٣ هـ /١٣٦١م عين السلطان مراد الاول القائد اورنوس بك على سواحل الروملي الجنوبية [٧] وأناط به مهمة فتح كوملجنة [٨] ووردار ،

---

(١) الروملي : بالمصطلح الجديد (مقدونيا ،وتراقيا).
ـ أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٤٨.

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ص ٤٩١.

(٣) أدرنه : اسمها بالرومية (أدريانا بوليس) نسبة للامبراطور ادريان الرومي الذى أجرى فيها عدة تحسينات اوجبت اطلاق اسمه عليها وتوفي الامبراطور سنة ١٣٨م.
ـ محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٩، حاشية رقم١).

(٤) لاله شاهين : (اى مربي السلطان ،وهومربي السلطان في صغره).
ـ ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية فيتاريخ الدولة العلية ،ص ٤٨.

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٢٩-١٣٠.
، اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ص ٤٩٢.

(٦) يلماز اوزتونا :تاريخ الدولة العثمانية ،ج ١ ،ص ٩٨ .

(٧) ابراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٤١.

(٨) كوملجنة : وتسمى (Komotini) وتقع في الجنوب الغربي من أدرنة وعلى بعد نحو ٢٥ كم شمال بحرايجه .. وتقع وردار Vardar الى غرب كوملجنة وعلى نهر يعرف بهذا الاسم .
ـ محمد فريد بك :المصدر السابق ، ص ١٣٠ حاشية رقم (٢).

وما جاورها من البلاد[١] .

وفي سنة ٧٦٥هـ / ١٣٦٣م فتح القائد العثماني شاهين باشا فيلبه[٢] ، عاصمة الروملي الشرقية ،وما حولها ،وفتح القائد العثماني اورنوس بك جهات سيروز ومناستر وبهشتنه وموشنه وماحولها أيضا[٣] ،وصادرت أعمال هذه الجهات الأربع وتوابعها ولايةواحدة عين عليها أورنوس بك حاكما لها[٤].

وبذلك صارت مدينة القسطنطينية محاطة من الجهة الأوربية بأملاك آل عثمان ، وأصبحت الدولة العثمانية بهذا الفتح مجاورة لامارات الصرب والبلغار وألبانيا المستقلة[٥].

ونتيجة لذلك أضطرب الملوك المسيحيون الصليبيون المتاخمون للدولة العلية العثمانية وطلبوا من البابا (اوربانوس)[٦]. الخامس أن يدعو ملوك اوربا الغربيين ليساعدوهم على حرب العثمانيين المسلمين واخراجهم من أوربا خوفا من امتداد الفتوح الاسلامية ونشر الاسلام الى ماوراء جبال البلقان، اذ لو اجتازوها بدون معارضة أو مقاومة لن يقو أحد بعد ذلك على ايقاف وصد تيار فتوحاتهم ويخشى بعدها على ممالك أوربا من

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٤٩١.

(٢) فيلبه : اسمها بالرومية ميلبو بولس اى مدينة فيليب نسبة لمؤسسها فيليب والد الاسكندر الاكبر ..وتقع Philippolis الى الجنوب الشرقي من صوفيا وأدرنه .
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ،ص ١٣٠،حاشية رقم (١).

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٩١-٤٩٢.
أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميدالثاني حياته وأحداث عهده ،ص ١٧.

(٤) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية فيتاريخ الدولة العلية ، ص ٤١.
اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ،ص ٤٩٢.

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٠.

(٦) اوربانوس : يلفظ بالفرنسية Vrbain واسمه الاصلى قبل أن يكون باباهوكيوم ده كريموار Guillaume de Grimoare
وهو فرنسي المولد سنة ١٣١٠ م ومات سنة ١٣٧٠م وانتخب بابا سنة ١٣٦٢م.
- محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٣٠ حاشية رقم (٣).

العثمانيين (١) للاستيلاء عليهاونشر الاسلام فيها ، وهذا ماكان يزعجهم ويقلق بالهم . وقد استجاب البابا فدعا المسيحيين الى حملة صليبية ضد الاتراك العثمانيين (٢) وحرض القوى الصليبية على محاربتهم محاربة دينية حفظا للدين المسيحي من الفتوحات الاسلامية (٣) .

وفي سنة ٧٦٦هـ / ١٣٦٤م تم اتفاق الدول المسيحية على اخراج العثمانيين من الأقاليم الاوربية بناء على دعوة البابا فاستجاب كل من ملوك المجر وبوسنة والصرب مع امير الفلاخ (الافلاق) (٤) .

ولكن (اوروك) الخامس ، الذى عين ملك على الصرب (دوشان) لم ينتظر وصول المدد اليه من أوربا واكتفى بما قدمه له أمراء البوسنة (٥)، والافلاخ، من مساعدات ، وبعدد كبير من فرسان المجر وسار بهم لمهاجمة مدينة (أدرنة) عاصمة الدولة العثمانية ،منتهزا فرصة انشغال السلطان مراد بمحاصرة مدينة (بيجا)(٦) بيغا بالقرب من مدينة بورسة بآسيا الصغرى . ولما علم السلطان بأمرهم استعد لهم وقابلهم على شاطئ نهر (ماريتزا) (٧) فجأة

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ،ص ١٣٠ ،
عبد اللطيف عبد الله بن دهيش : قيام الدولة العثمانية ،ص ٣١.

(٢) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ،ج ١ ص ٩٨.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٣٠.

(٤) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية فيتاريخ الدولة العلية ،ص ٤١.
يلماز اوزتونا : المصدر السابق ،ج ١ ،ص ٩٨.

(٥) البوسنة : احدى جمهوريات الاتحاد اليوكسلافي الآن وعاصمتها سراجيفو وأكثرية أهلها من المسلمين .
أما الافلاخ : فكان يسميها الاتراك(افلاق) فهي امارة من امارات الدانوب أصبحت تابعة للدولة العثمانية من سنة ١٣٩٥م واستقلت سنة ١٨٥٦م واتحدت مع مولدافيا سنة ١٨٥٨م وكونتا معا الدولة الرومانية الحاضرة .
- محمد فريد بك: المصدر السابق ،ص ١٣٠-١٣١ ،حاشية رقم (٤)

(٦) بيجا : (Bija): تقع الى الجنوب من بحر مرمره وبالقرب من مضيق الدردنيل .
- محمد فريد بك: المصدر السابق ص ١٣١ ،حاشية رقم (١).

(٧) نهر ماريتسا: Maritza , Marica ينبع من غرب بلغاريا وبحر اليونان ويصب في بحر ايجه .
محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٣١ ،حاشية (٣) .

في ليلة مظلمة وكان معه قوة عظيمة ، فاندهش العدو وداخله الفزع ودار قتال عنيف بين القوتين انتهى باندحار القوى الصليبية الذين ولوا على أدبارهم وملأ الرعب قلوبهم [١] .

وتمكن العثمانيون بذلك النصر ضم جنوب جبال البلقان الى بلادهم . وتعد هذه المعركة من المعارك الهامة في تاريخ المسلمين العثمانيين ، اذ لو كتب لهذه الحملة الصليبية النجاح في اخراج المسلمين من أوربا لو اصلوا زحفهم باتجاه المشرق الى آسيا الصغرى ولتكررت مأساة الحملة الصليبية الأولى [٢] ، اذ أن فكرة احتلال بيت المقدس كانت ولا تزال قائمة باستمرار في أذهان زعماء أوربا [٣] ، ولأن هذه الحملة الصليبية تعد الأولى التى نفذت ضد الدولة العثمانية [٤] ، بعد الحملة الثانية التي أسر فيها لويس التاسع في المنصورة وانتهت بالفشل والهزيمة للصليبيين ، وقد بذل لويس وهو ملك فرنسا فدية كبيرة للمسلمين حتى فك من الأسر [٥] .

بعد ذلك عاد السلطان مراد الى مقر سلطته لتنظيم مافتحه من الأقاليم متبعا في ذلك سياسة أسلافه ليستريح من عناء الفتح ، وليعيد ترتيب جيوشه ويوطد اركان بلاده [٦] .

فعظم شأن الدولة العثمانية وخافها خصومها خصوصا الضعفاء منهم ، فأرسلت جمهورية (راجوزه) [٧] في عام ٧٦٧ هـ/١٣٦٥م رسلا عقدوا مع

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص١٣٠-١٣١ ، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٢ .
(٢) احتلت أنطاكيا والرها وبيت المقدس حتى تم تخليصه على يد صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٣ هـ .
(٣) على حسون : المرجع السابق ، ص ٢٢ .
(٤) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٩٨ . اورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده ، ص ١٧ .
(٥) على محمد جريشه وآخرون : أساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامي ، ص ١٩ .
(٦) محمد فريد بك : المصدر نفسه ، ص ١٣١ .
(٧) راكوز : Raguse هي الآن بلدة يوكوسلافية وتسمى اليوم (=)

السلطان مراد الأولمعاهدة تجارية تعهدوا فيها بدفع جزية سنوية مقدارها خمسمائة دوكا من ذهب ، وهذه المعاهدة هي أولى المعاهدات التي عقدت بين العثمانيين والدول المسيحية (١) .

وفي سنة ٧٧٥هـ / ١٣٧٣ م عين خير الدين باشا الصدر الأعظم لحفظ الجهات الغربية للروملي وأخذ بلاد من يتعدى او يتحرش بالحدود العثمانية ثم فتح قواله وماحولها ثم عاد بجيشه .

وفي سنة ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤ م ذهب السلطان والصدر الاعظم خيرالدين باشا الى بروسه لاقامة بعض الاصلاحات الداخلية وتفقد أحوالها ، واذ بملك الصرب لازار الذى خلف ملك الصرب أودوك بعد وفاته يتحرش بقوات الدولة العثمانية (٢)، فقد اتحد مع سيسمات أمير البلغار على هجوم وحرب الدولة العثمانية (٣) ، لمحو ما لحق بهم من العار في الحملة الصليبية الأولى وطرد الدولة من أملاكهم ،وعندمابلغ السلطان هذا الأمر غضب منه ،وذهب بنفسه سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م اليه فهرب لازار الى الجبال ،فدعاه الى الحرب والا فانه سوف يستولي على بلاده تأديبا له ، فلم يستطع مقابلته ، فاستولى على قلعة نيش (٤) ،فطلب منه لازار الأمان وعاهده بأن لايتعرض لممالك الدولة مرة أخرى ، فقبل السلطان منه ،وسحب جيشه عائدا الى بروسه مع العلم بأن الجيش كان غير راغب في الانسحاب ، بل كان قادرا على استيلاء

(=) دوبرفنيك Dubrounik وتقع على شاطىء البحر الادرياتيكي،وكانت هذه المدينة من سنة ١٤٠٣م ـ ١٨٠٩م عاصمةلجمهورية استقراطية وقد أثرت ثراءا كبيرا من تجارتها مع الدولة العثمانية ،وهي شبه جزيرة مبنية على شاطىء البحر .
محمد فريد بك :تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣١حاشية٣.

(١) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٣١-١٣٢ .

(٢) ابراهيم بك حليم: التحفة الحليمية فيتاريخ الدولة العثمانية ،ص ٤٢.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٣٢.

(٤) نيش : مدينة في شرقي يوغوسلافيا قرب الحدود البلغارية .
علي حسون: تاريخ الدولة العثمانية ،ص ٢٢ حاشية رقم(٤).

بلاد الصرب بسهولة[١] . وقيل احتل صوفيا [٢] وسلانيك [٣]، لهذه الأمور ابرم الصلح بين الطرفين على أن يتزوج السلطان بنت امير البلغار ،وعلى أن يدفع ملكا الصرب و البلغار الجزية سنويا[٤]، فدفعوها صاغيرين خوفا من تصفية أملاكهم .

وفي سنة ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦م سلمحاكم سلستره المدينة الى السلطان مراد، ومن ذلك التاريخ حتى سنة ٧٨٣ هـ/ ١٣٨١م كان السلطان مهتما بسن التنظيمات و الاصلاحات الداخلية في المناطق المفتوحة ليكمل بذلك بناء دولته[٥] فبدأ يفكر فيتوثيق العلاقات مع جيرانه حتى يكون له حلفاء من بين مابقي مستقلا بامارته من أمراء آسيا الصغرى، فقام بزواج ولده "بايزيد" من بنت أمير كرمان[٦]، وجهزها للسلطان بمدينة كوتاهية[٧] ، مهرا لابنته كما هي عادة الافرنج[٨]، وذلك لتقوية عرى الصداقة بهذه الروابط الأسرية

---

(١) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية فيتاريخ الدولة العلية ، ص ٤٢-٤٣ .

(٢) صوفيا : عاصمة بلغاريا اليوم .

(٣) سلانيك : مدينة في اليونان تقع اليوم على الخليج المسمى باسمها، كانت بؤرة الحركات المعاديةللدولة العثمانية .
- عليحسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ٢٢ حاشية رقم(١-٢).

(٤) محمد فريد بك :تاريخ الدولة العلية العثمانية ،ص ١٣٢.
و ابراهيم بك حليم : المصدر السابق ،ص ٤٣.

(٥) ابراهيم بك حليم: المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(٦) كرمان : تقع هذه البلاد في غربالأناضول مابين اسكي شهر شمالا وآفيون قرة حصاره جنوبا .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ص ١٣٣ حاشية رقم (١)

(٧) كوتاهية : تقع الىالشرق باليقيصر وغرب اسكي شهر.
- محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٣٣ حاشية رقم (٢).

(٨) محمد فريد بك : المصدر السابق ص ١٣٣؛
- أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٤٨-٤٩.

وكسب هذه المناطق بجانبها ، وتبادل المحبة و المودة بين الدولة العثمانية وهذه المناطق الاسلامية المستقلة .

الا أن أولاد كرمان كانوا لايزالون يتحرشون بالحدود العثمانية من جهة قونية ، فأرسل السلطان الى حسين بن حميد سفيرا من عنده للمفاوضة معه في بيع [(١)] ، امارة حميد [(٢)]، من حاكمها المذكور ،وبذلك أدمج في أملاكه أربعا من دول التركمان ، سلطانوني ،قرة سي ، كرميان ، حميد .

وما لبث ابنه بايزيد أن اكتسح مابتقي من الامارات التركمانية فضم الى دولته أراضي سلاجقة قونية المسلمة [(٣)] .

أما الصليبيون فمنذ فشل حملتهم الأولى وهم ينظرون الى الدولة ويخططون للخلاص منها ، ففي عام ٧٧٩ هـ / ١٣٨٧م قرر ألسلاف طرد العثمانيين من أوربا ، فتزعمت الصرب و البوسنة وبلغاريا هذه الحملة الصليبية لتنفيذ هذه المؤامرة ، وانضمت اليها ألبانيا ولاشيا والمجر وبولندة ، على حين انشغلت أوربا الغربية بشئونها الخاصة ،ولم تشترك في هذه الحملة الصليبية الثانية ، فحينئذ قام الحلفاء بحشد قواتهم التى هاجموا بها قوات الدولة العثمانية في البوسنة وأبادت ثلاث أرباعها [(٤)]، الا أن السلطان مراد الأول أرسل قوات أرغمت ملك بلغاريا سيسمان ، الذى كان يتأهب للانضمام الى لازار ملك الصرب ، فاحتلت الجيوش العثمانية ترونوه [(٥)]وشومله [(٦)] ،

---

(١) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية فيتاريخ الدولة العلية ، ص ٤٣.

(٢) الحميد : اقليم يقع جنوب الاناضول غرب كرمان وشرق منتشا وشمال تكن .
ــ محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ض ١٣٣، حاشية رقم (٣) .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٩.

(٤) أحمدعبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٤٩-٥٠.

(٥) ترنوه : هي تورنوفو Tuvnovo وتقع في الجانب الشرقي من بلغاريا.
ــ محمد فريد بك : المصدر السابق ص ١٣٤ حاشية (٤)

(٦) شومله : Shumen وتقع شمال تورنوفو .
ــ محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٣٤ ،حاشية (٥).

واضطر سيسمان الى الفرار والاحتماء في مدينة نيكوبلى [1]، وأعاد شمل وشتات مابقي من عسكره لحرب الدولة العثمانية ، وخرج من نيكوبلى وهاجم الجيوش العثمانية الاسلامية هجوم اليائس ، فانهزم هزيمة نكراء ووقع أسيرا ،فضم السلطان مراد نصف بلاده الى الدولة ،وعفى عنه ولم يقتله بل عينه حاكما مستقلا على النصف الباقي من بلاده ،مراعيا مقامه السابق وتم ذلك في سنة ٧٩١ هـ/ ١٣٨٩م [2] .وبذلك أصبح نهر الدانوب حد الدولة العثمانية الشمالي [3] .

لقد كان للانتشار السريع للمسلمين في أوربا الممثل في الدولة العثمانية أثره البالغ في بث الفزع والرعب في قلوب الحكام الصليبيين الذين قرروا أن يجمعوا قواتهم ويسيروا بها في حملة صليبية ثالثة ،وكان منعقدا على هذه الحملة آمال المسيحيين في طرد المسلمين من أوربا [4].

فتزعم هذا الحلف ملك الصرب لازار أيضا الذى لم يعتبر بانسحاب حليفه ملك بلغاريا وما جرى له ، بل نراه يجمع قواته ويتحدى السلطان مراد الأول ، ويسعى لهذا الامر في سنة ٧٩١ هـ/١٣٨٩م لدى حكام وملوك المجر وبولونيه والبوسنة وألبانيا وغيرها من سائر الحكومات المسيحية المجاورة لتكون الحملة الصليبية الثالثة ضد العثمانيين المسلمين وطردهم من أوربا فجمعوا جيشا من تلك الأقوام بلغوا نحو المائتي ألف [5]، فلم يمكنه السلطان

---

(١) نيكوبلي : اسمها بالرومية نيكوبوليس ،ومعناها مدينة النصر. أسسها الامبراطور الروماني تراجانوس المتوفي سنة ١١٧ بعد المسيح عقب انتصاره على أعدائه .
— محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ،ص ١٣٥ ، حاشية رقم (١).

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٣٤-١٣٥.

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ،ص٤٩.

(٤) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني حياته واحداث عهده ،ص ١٨.

(٥) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ،ص ٤٥. ، اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ،ص ٤٩٢.

مراد من ذلك بلجد السير في طلبه حتى لحق به في سهل (قوصوه) [١] سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م ، فأحرز نصرا باهرا على هذا الحلف الصليبي بعد قتال شديد يشيب من هوله الولدان ، دافع خلاله الصربيون واحزابهم دفاعا جعل الحرب بينهما سجالا تناثرت فيها الرؤوس وزهقت فيها النفوس [٢] وقد استبسل فيه العثمانيون حتى وقعت الهزيمة فيه على الاعداء وأسر من جيش العدو كثيرون ، وقتل ملك الصرب زعيم العصابة [٣] ،بعد أن جرح وأسر. وبهذه الواقعة فقدت الصرب استقلالها كما فقدت البلغار والروملي والأناضول (آسيا الصغرى) استقلالها من قبل [٤].

ولكن أعقب هذا النصر أسف شديد ، وذلك أنه حينما كان السلطان مراد الأول يمر بين القتلى والجرحى ليتعرف على رجاله منهم اذ قام جندى صربي جريح من بين القتلى اسمه (ميلون بلوفتش) وأظهر حركة يرى منها أن مراده تقبيل قدمي السلطان بعد أن أعلن اسلامه واذا به قد أسرع باخراج خنجر كان معه ، وطعن بها السلطان مراد الاول طعنة كانت القاضية على السلطان في الحال [٥] فسقط القاتل قتيلا تحت السيوف الانكشارية ،وكانت وفاته سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م ودفن في بروسه [٦].

---

(١) قوص : معناها كبير أو واسع . أوه : معناها السهل ويسمى هذا السهل باليوكسلافي (Kosov polje) ومركزه بلدة برتستينا وتقع في جنوب يوكوسلافيا بين بلغاريا والبانيا واليونان .
— محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٥، حاشية رقم(٢).

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ص ١٣٤.

(٣) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية فيتاريخ الدولة العلية،ص ٤٥.
اسماعيل سرهنك :حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ،ص ٤٩٢.

(٤) اسماعيل سرهنك: المصدر السابق ،ص ٤٩٢ ،
محمد فريد بك : المصدر السابق ص ١٣٥.
على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ١٩.

(٥) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٩٣،
ابراهيم بك حليم: المصدر السابق ،ص ٤٥ ،
محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٥ ،
عبد اللطيف عبد الله بن دهيش : قيام الدولة العثمانية ص ٣٦.

(٦) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٣٥-١٣٦ ،

والحقيقة أن عثمان أوجد جنسا ، وأورخان بنى دولة ، الا أن مراد الأول هو الذى أرسى قواعد الدولة العثمانية (١) .

وبوفاة السلطان مراد الأول بويع ابنه السلطان بايزيد الأول في ميدان حرب قوصوه ، يوم وفاة والده ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م فخطى خطو والده وسيرته في الفتح والجهاد (٢) كما هو ديدن سلاطين الدولة منذ تكوينها.

وقد استهل بايزيد حكمه بالقضاء على الاستقراطية الصربية ،وحل القضية القومية الصربية ، ثم تقدم بالجيوش العثمانية داخل بلاد الصرب ، فعرض عليه ستيفن بن لازار ملك الصرب الصلح ، فقبل ذلك ووافق عليه (٣) . وعين حاكما على الصرب ، وتزوج السلطان من أخته (٤)، المسماة مليحة (٥)، وترك له استقلال حكم بلاده على أنظمتهم وقوانينهم بشرط دفع الجزية للدولة وتقديم عدد معين من الجنود ينضمون الى الجيوش العثمانية وقت الحاجة (٦)، وأن يقوم بنفسه بقيادة الجيش (٧) ، وقد اتبع السلطان بايزيد هذه السياسة وهي الاكتفاء بدخول منطقة الصرب تحت طاعته (٨)

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥٠.
(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٥٠-٥١.
(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٧.
(٤) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ،ص٤٧.
(٥) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج١ ، ص ٤٩٥.
(٦) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٧.
على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٠.
اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٩٥.
(٧) احمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٥١.
(٨) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٩٥ .

وذلك ليهدىء بال الصربيين، لأن الصربيين قوم يحبون الاستقلال[(١)]، وخاصة أنهم قبلوا دفع الجزية فتتم معاملتهم معاملة أهل الذمة .

ومن منطقة الصرب سار بايزيد الأول الى ولاشيا فدخلها سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٢م وقد وافق أميرها على دفع الجزية والولاء للسلطان العثماني (٢)

ولما ساد الأمن في أوربا في منتصف سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٢م انتهز بايزيد الاول هذه الفرصة وسار بنفسه الى قلعة الآشهر باسيا الصغرى المسماة عند الافرنج (فيلادلفيا)(٣) ففتحها فكانت آخر مدينة مهمة بقيت للقسطنطينية بآسيا الصغرى (٤) .

عند ذلك هابه أمير (آيدين)(٥) ،فترك له أملاكه وغادرها ليعيش في احدى المدن الخارجة عن النفوذ العثماني ، ثم تلى ذلك قيام كل من اميرى منتشا(٦) وصاروخان(٧) فترك ولايتهما واحتمائهما بأمير (قسطموني)(٨) كما قام حاكم بلاد القرمان الامير علاء الدين بالتنازل للسلطان عن جزء عظيم من أملاكه ليؤمن له ماتبقى له من أملاك (٩) .

---

(١) محمد فريد بك :تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٧.

(٢) عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥١.

(٣) فيلادلفيا : تقع غرب الأناضول الى الشرق من مدينة أزمير.
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٧ ،حاشية رقم(١)

(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ص ٤٩٥.
محمد فريد بك :المصدر السابق ،ص ١٣٧. حاشية (٢).
على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ٢٠.

(٥) ايدين : تقع فيجنوب غربتركيا جنوب فيلادلفيا .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٧. حاشية (٢).

(٦) منتشا : جنوب آيدين على بحر ايجة .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٨ . حاشية (١)

(٧) صاروخان : شمال أزمير على بحر ايجه .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٣٨ حاشية (٢)

(٨) قسطموني : في شمال الأناضول علىبعد نحو مئةكم عن البحر الأسود.
- محمد فريد بك : المصدر السابق ص ١٣٨ . حاشية (٣).

(٩) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٣٧-١٣٨.

وبعد هذه الفتوحات العثمانية بآسيا الصغرى عاود السلطان بايزيد الأول حرب اوربا فبدأ بحصار القسطنطينية ،وبعد أن ضيق عليها الخناق وترك حولها جيشا ليتولى مهمة حصارها ، انتقل لغزو أمير الفلاخ (الفلاق) دوكمانيس ، فقهر أميرها وأخذ منه الجزية [١]،شريطة الاعتراف بالسيادة العثمانية مع بقاء بلاده يحكمها بما ألفوه من قوانين وكان ذلك في سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩٣م [٢] .

واستغل علاء الدين أمير القرمان انشغال السلطان بحرب أمير الفلاخ وقام باسترداد ماتنازل عنه للدولة سابقا ، فهاجم مدينة انقره ،واستطاع أن يهزم أميرها تيمور طاش وأن يأسره [٣] .

فلما علم السلطان بالخبر قاد بنفسه الجيش الى بلاد الأناضول مسرعا في طلب علاء الدين فتقابل الجيشان في مكان يسمى (آق جاى) فانهزم أمام السلطان بايزيد وأسره مع ابنه محمد على ، وضم بلاده الى دولته ، وكل ماتبقى له من أملاك [٤]، فتعجب الناس في سرعة وصوله لبعد المسافة فلقبوه (بيلدرم) أى الصاعقة [٥] . بسبب سرعة حركته .

ثم واصل فتوحاته ففتح امارات سيواس ،وتوقات [٦]،وكان آخر أمرائها برهان الدين [٧]، ولم يبق في الأناضول من بقايا اطلال دولة السلاجقة الا امارة قسطموني [٨] ، وكانت خارجة عن أملاك الدولة العثمانية

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٠.
(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ،ص ١٣٩.
(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٣٩.
- على حسون : المرجع السابق ، ص ٢٠.
(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٣٩.
(٥) ابراهيم بك حليم: التحفة الحليمية فيتاريخ الدولة العلية ،ص ٤٧.
(٦) سيواس وتوقات : مدينتان تقعان في شمال شرق تركيا.
محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٩ حاشية رقم(٤)
(٧) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٩.
(٨) علىحسون : المرجع السابق ، ص ٢٠.

وحاكمها اسمه بايزيد أيضا ، احتمى ببلاده كثير من أولاد الأمراء الذين ضم السلطان بلادهم ، فأرسل السلطان اليه يطلب منه تسليم أولاد أمير آيدين وصاروخان فامتنع عن ذلك ،فسار اليه السلطان بنفسه وتم ضم مدن ساسون(١) وقيصرية(٢) وجنابك وعثمانجق (٣) فلجأ بايزيد صاحب قسطموني الى تيمورلنك سلطان المغول (٤)، وبذلك انقرضت جميع الامارات السلجوقية القائمة بالاناضول وصار العلم العثماني يخفق فوق صروحها(٥) .

وقد أخطأ بايزيد الأول حين ادخل سياسة جديدة لفرض سيطرته المباشرة على هذه المناطق التي قام بضمها في آسيا الصغرى وذلكعندما طرد أسرها الحاكمة وأخضعها لسلطته المباشرة . ذلك لأن هذه السياسة لقيت مقاومة شديدة في الدولة العثمانية خاصة ، وفي البلدان التى تم الاستيلاء عليها عامة، وكانت هذه المقاومة موجهة ضد التسرع في الضم التى تم الاستيلاء

---

(١) مدينة صغيرة شمال تركيا علىساحل البحر الأسود .
- على حسون:تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٠ حاشية (٥).

(٢) مدينة في الأناضول وهي عقدة مواصلات برية .
على حسون : المرجع السابق ،ص ٢٠ ، حاشية رقم (٦).

(٣) تقع الىالجنوب الغربي من ساسون .
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ١٤٠ حاشية رقم (١).

(٤) اى تيمور الأعرج : ولد سنة ١٣٣٦ ميلادية تقريبا ببلدة بالقرب من سمرقند ويتصلنسبه بجنكيزخان التترى من جهة النساء وخلف عمه سيف الدين فيامارة كيش سنة ١٣٦٠واخذ في الاستيلاء علىماحوله من الامارات والقبائل ثم استولىعلى بلاد خوارزم وكشغر وبلاد ايران ومنها سار الى جنوب الروسية واحتلاقليم آزاق ثم قصد بلاد الهند فانتصر على صاحب (دهلي) وضم معظم بلاد الهند ومنها عاد الىالغرب ، فاحتل بلاد الشام ومدينة بغداد التي خربها عن آخرها وقبل أن ينظم هذه التحركاتالعديدة قصد بلاد الصين في جيش يجل عنالحصر بعد أن حارب السلطان بايزيد العثماني، وأخذه اسيرا فعاجله المنون قبل أن يصل الصين في اقليم خوقند في ١٧ شعبان ٨٠٧هـ(١٨فبراير سنة ١٤٠٥م) وبموته تفرقت مملكته بين ولده شامرخ واحفاده واولاد احفاده .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٤٠ ،حاشية رقم(٢).

(٥) محمد فريد بك: المصدر السابق ، ص ١٣٩-١٤٠.

عليها حيث اعتبرت هذا خروجا على القاعدة العثمانية .

وقد كانت هذه السياسة من أهم العوامل التي أدت الى نكبة أنقرة ، وعودة الأسرة الحاكمة في القرمان على أثرها ، مما يدل على أن آل عثمان لم يحكموا قبضتهم على الدولة القرمانية الا بعد فتح القسطنطينية [1].

وعاد بايزيد بعد ذلك لمتابعة حروبه في اوربا ، واستكمال فرض الحصار الذيكان قد فرضه علىالقسطنطينية ، ومع استمرار الحصار قام باستكمال فتح بلاد البلغار وضمها الى املاكالدولة فأصبحت تلك المناطق ولاية عثمانية خاصةبعد مقتل حاكمها سيسمان ،واسلام ابنه الذي عين حاكما لمدينة لسمسون[2] في سنة ٧٩٤هـ / ١٣٩٤م[3] .

ولتدعيم مركزه في تلك المناطق قام بايزيد بتزويدسلستريا ونيكوبوليس ودين وقلاع أخرى من قلاع الدانوب بحاميات قوية ،بعد تحصينها . وعلى أثر اعتناق عدد كبير من البلقانيين للاسلامتعززت مكانة السكانالمسلمين على طول الحدود الشمالية للدولة ، وزاد نتيجة لذلك هجرة عدد من مسلمي الاناضول الى البلقان[4]، مما ساعد على انتشار الاسلام في مناطق البلقان كلها ، وهذا يدل على قوة الدولة في نشر الاسلام في أوروبا . وهذا ماحققه العثمانيون على طول جهادهم المستمر داخل القارة الأوربية .

وقد أعقب ذلك قيامبايزيد الأول بتشديد الحصار علىالقسطنطينية وطلب من امبراطورها أن يعين قاضيا في القسطنطينية للفصل في شئون المسلمين ، فقبلالامبراطور ذلك الشرط بايجاد محكمة اسلامية وبناء مسجد وتخصيص سبعمائة منزل داخل المدينة للجالية الاسلامية ،كما تنازل لبايزيد

---

(١) محمد فريد بك : تاريخالدولة العلية العثمانية ،ص ١٣٩-١٤٠.
(٢) سمون : مدينة تركية في شمال شرق البلاد على البحر الاسود .
ـ محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤٠ حاشية رقم (٣).
(٣) محمد فريد بك المحامي : المصدر السابق ،ص ١٤٠.
(٤) أحمد عبدالرحيممصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٥٣.

عن نصف غلطه التي وضعت فيها حامية عثمانية قوامها ستمائة جندي، ثم زيدت الجزية التي كانت الامبراطورية البيزنطية تدفعها ، وزيد على ذلك فرض رسوم على الكروم ومزارع الخضروات الواقعة خارج المدينة تدفع لخزينة الدولة العثمانية في استانبول ، وأخذت من تلك الساعة المبتأذن تنقل الآذان من العاصمة البيزنطية (القسطنطينية)[١].

وكان من نتائج هذه الانتصارات العثمانية أن قامت دول أوربية بتحريض من البابا بونيفاسيوس التاسع واتفقت على شن حرب صليبية رابعة اشتركت فيها حوالى خمسة عشر دولة آوربية كان من بينها دول انكلترا وفرنسا والمجر [٢] .

وكان المحرك الأول لتلك الحرب الصليبية الجديدة وزعيمها هو ملك المجر سجمند الذى سمع ماحل ببلاد البلغار ، فداخله الخوف على فقد مملكته اذ صار متاخما في عدة نقاط للدولة العثمانية ، فدعا حكام أوربا من المسيحيين مستنجدا بهم وساعده في ذلك البابا ، الذى أعلن الحرب الدينية بين أقوام أوربا الغربية[٣] فشكلت في مجموعها جيشا صليبيا اشتركت فيه كل دول أوربا الغربية ،وكذلك دول المواجهة التي تواجه مناطق السيطرة العثمانية[٤] .

وتفصيل ذلك أن دوك (بورغونيا)[٥] أجاب الدعوة ، وأرسل ابنه

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٥٣٠

(٢) أورخان محمد على : السلطان عبد الحميد الثاني ،حياته واحداث عهده ، ص ١٨٠
كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة : نبيه فارس ومنير البعلبكي ،(الطبعة السادسة ،بيروت ،دار الملايين: ١٩٧٤م) ،ص ٤١٩٠

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ،ص ١٤٠-١٤١

(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٥٣٠

(٥) بورغونيا : كانت ولاية عظيمة في شرق فرنسا شبه مستقلة لم يكن لملوك فرنسا عليها الا السيادة وحق طلب الجنود للحرب عند الضرورة حتي توفى اهم امرائها شارل الجسور الذى توفي سنة ١٤٧٧م من غير عقب وضمت الى فرنسا من ذلك التاريخ ،واسمها بوركوني · Bourgogne
ـ محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤١ حاشية رقم (١)٠

الكونت دى نيفر [1]، ومعه ستة الاف محارب أغلبهم من نبلاء فرنسا وكان من بين هؤلاء المحاربين اقارب ملك فرنسا نفسه كما انضم اليهم حين مسيرتهم الى بلاد المجر بافاريا [2]، وولاشيا وبلغاريا مجموعة من الخارجين عن طاعة الدولة العثمانية من الذين خلعوا ولاءهم للعثمانيين [3]. كما وفد عليهم أشخاص من النمسا (استيريا) وشواليه [4] ، فرسان القديس حنا الأورشليمي وكثير من الألمان [5]. وتوافد ايضا الصليبيون الى بودا من الانجليز واسكتلنده وبولنده وبوهيميا والنمسا وايطاليا

---

(1) نيفير Denevers مركز ولاية نيفر وتقع جانب نهر لوار وتبعد ٢٣٢ كم الى الجنوب الشرقي من باريس .
- محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٤١ ، حاشية (٢).

(2) مملكة مستقلة بألمانيا يبلغ عدد سكانها خمسة ملايين نسمة وعاصمتها مدينة مونيخ او (مونكن) كما يسميها الالمان وهي داخلة الان ضمن الدولة الالمانية التي تشكلت سنة ١٨٧١م ، عقب تغلب الروسيا على فرنسا مع بقاء استقلالها وحكومتها وملوكها ، وهي الآن جزء من جمهورية ألمانيا الاتحادية .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤١ حاشية رقم (٣).

(3) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول الدولة العثمانية ، ص ٥٤.

(4) شواليه : هم طائفة الرهبان الذين ذهبوا الى فلسطين في القرن الحادى عشر الميلادى اثناء الحروب الصليبية التى اثارها المسيحيون على المسلمين لامتلاك القدس الشريف لخدمة حجاج النصارى . ولما استولى السلطان صلاح الدين الايوبي على مدينة اورشليم سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م انتقلت هذه الطائفة الى عكا ثم الى جزيرة رودوس واتخذتها مركزا لمحاربة المسلمين وتعطيل تجارتهم ونهب مراكبهم وأسر من بها . ولما فتح السلطان سليمان القانوني هذه الجزيرة سنة ٩٢٢ هـ/١٥٢٢م ، رحلت هذه الطغمة الى جزيرة مالطة التي أعطاها لهم الامبراطور شارلكان فاحتلوها الى أن احتلها بونابرت سنة ١٧٩٨م اثناء قدومه الى مصر فانمحت هذه الطائفة تقريبا ولم يبق الا اسمها .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤١ حاشية رقم (٥).

(5) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤١-١٤٤.

وسويسرا ، وكذلك من بلدان جنوبي شرقي أوربا وعبر الحلفاء أراضي الصرب التي حافظ أميرها اسطفن بن لازار على ولائه ، مما دعا هذا الحلف الصليبي الى تخريب أراضيه [١] ، وأخيرا وصلت قوات الحلفاء الى نيكوبوليس ، عن طريق نهر الدانوب لمحاصرتها [٢]، الا أن الصاعقة أو البرق السلطان بايزيد كما يسميه معاصريه ، لقوة بأسه ،عاد مسرعا من آسيا الصغرى [٣] وكان محاصرا للقسطنطينية فتخلى عن حصارها وعاد لمواجهة هذا التحالف الصليبي [٤] ، وبصحبته مائتى الف مقاتل ،كان من ضمنهم اهل الصرب تحت قيادة اميرها اسطفن (استيفن) بن لازار المذكور وغيرهم من الأمم المسيحية الخاضعة لولاء السلطان العثماني ،جاءوا جميعا لقتال هؤلاء الصليبيين ، فدارت معركة بين القوتين انتهت بانتصار العثمانيين انتصارا باهرا ألحق بالحلف الصليبي هزيمة نكراء و ذلك في ٢٣ ذى القعدة سنة ٧٩٨ هـ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ١٣٩٦م [٥] .

وكان هدف هذه الحملة الصليبية الرابعة هو هزيمة الدولة العثمانية في أوربا ومحاولة الوصول الى البقاع المسيحية المقدسة في بيت المقدس بفلسطين [٦] . ومعنى ذلك أن الروح أو الفكرة الصليبية التي نسيها الناس في الظاهر منذ أمد طويل تعود الى الظهور مرة أخرى [٧].

وبمعنى آخر ان الحملات الصليبية على المسلمين لازالت الشغل الشاغل في ذلك الوقت للصليبيين بهدف الوصول الى بيت المقدس ،وهذا ماتحقق لهم الا بعد الحرب العالمية الأولى ، مرورا بالمسألة الشرقية في القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للتاسع عشر الميلادى .

---

(١) أحمدعبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٥٤.
(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ،ص ٤٤.
(— احمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٤.
(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ،ص ٥٤ .
(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ،ص ٤٩٥.
(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤٤.
(٦) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٠.
(٧) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ١٤٩.

وفي هذه المعركة الحاسمة أحرز بايزيد الأول قمة مجده ، فأرسل من ميدان المعركة الى قاضي بورسه ، بأنباء النصر ، وأعلن انه سيفتح ايطاليا وأن حصانه سيتناول طعامه على مذابح كنيسة القديس بطرس ٠

كما بعث من أدرنه برسائل الى كبار حكام الشرق الاسلامي يزف اليهم بشرى انتصاره في نيكوبوليس ، واتخذ لنفسه لقب (سلطان الروم)كدليل على وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته على شبه جزيرة الأناضول كلها [١]،وأرسل السلطان بايزيد الى الخليفة العباسي المتوكل المقيم في القاهرة طالبا منه أن يخلع عليه أو يمنحه لقب " سلطان الروم " كي يضيف على سلطنته التي يتمتع بها هو وأجداده من قبل الطابع الشرعي الرسمي فتزداد هيبته لدى العالمين الاسلامي والمسيحي ٠

ولم يكن في استطاعة السلطان برقوق ، حامي الخليفة ، الا أن وافق على طلب السلطان ، اذ كان يرى فيه حليفه الأوحد ضد الخطر المغولي الذى كان يهدد العالم الاسلامي بأكمله [٢] فخلع عليه الخليفة لقب (سلطان أقاليم الروم) [٣] ٠

عاد السلطان بايزيد الأول بعد ذلك لمواصلة حصاره للقسطنطينية فشد عليها الحصار ، ولولا غارة المغول على بلاد آسيا الصغرى لتمكن السلطان هذه المرة من فتحها [٤]، لنقض صاحبها العهد حين تعاهد أوتحالف مع ملك الصرب والمجر وفرنسا لحرب الدولة قبيل الحلف الصليبي الرابع [٥] ٠

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : فيأصول التاريخ العثماني ، ص ٥٤٠
(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٤٢٠٠
(٣) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية فيتاريخ الدولة العلية ، ص ٤٩٠
(٤) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ،ص ١٤٤٠
(٥) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ،ص ٤٩٥٠

ولكن استفحال أمر تيمورلنك الأعرج سنة ٨٠٢ هـ / ١٤٠٠ م جعل السلطان يترك حصار القسطنطينية ويكتفي بالصلح مع ملكها مانويل[1]، بعد حصار دام ست سنوات أشرفت فيها على السقوط [2].

وكان تيمورلنك قد سار الى بلاد الاسلام بآسيا الوسطى لسلبها من أيدي ملوكها حتى وصل الى بغداد والعراق ، فهرب حاكمها السلطان احمد جلاير خشية من بطشه ، وكذلك هرب حاكم أذربيجان قره يوسف ، والتجآ بعائلتيهما الى السلطان بايزيد ، فأرسل تيمورلنك سفيرا الى السلطان بايزيد الاول يطلب فيه تسليمهما ، ولكن السلطان رفض هذا الطلب واستهجنه وعاد السفير الى تيمورلنك [3] .

وكما لجأ امراء العراق وأذربيجان الى السلطان بايزيد ، فقد لجأ من قبل الى تيمورلنك بعض أمراء آسيا الصغرى ، وكان آخرهم بايزيد أمير قسطموني كما سبق أن فر الى تيمورلنك ، وفي كلا الجانبين كان اللاجئون يحرضون ويحركون كل طرف لشن الحرب ضد الآخر ، وربما لم نجد هذه التحريضات آذانا صاغية من تيمورلنك ، الا أنه خشي من تحركات الدولة العثمانية ضده وضربه من الخلف ، في الوقت الذى كان يفكر فيه بغزو الهند لتوسيع رقعة ملكه ،وقد أدرك بايزيد هو الآخر حتمية الصراع مع تيمورلنك ،ولهذا السبب سعى الى تقوية مركزه الحربي في آسيا الصغرى عن طريق القضاء على الامارات التي قامت على أنقاض دولة السلاجقة [4] كما مر بنا.

---

(١) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، ص ٤٩.
محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ١٤٤.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥٥.

(٣) ابراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٤٩.
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤٦.

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٥٧.
علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٣.

وقد أشيع أن الصليبيين عمدوا هذه المرة الى تحريض المغول على هجوم العالم الاسلامي من جهة وذلك عن طريق بناتهم اللواتي كن في قصور أمراء وحكام المغول عن طريق السياسة و المفاوضة (١) . وبمعنى آخر أن الصليبيين زوجوا بناتهم وأهدوا بعض الجواري الحسان للعمل في قصور وأمراء وحكام المغول لاستمالة قلوبهم وتحريكهم لغزو الدولة العثمانية واشغالها من الخلف حتى تتوقف حركة جهادهم عن الفتح في أوربا وهم يواصلون الهجوم على الدولة من الغرب حتى يستطيعوا ابعادهم عن أوربا كلها ، وبالتالي يزحفون الى آسيا للاستيلاء على القدس الشريف في فلسطين ، وقد نميل الى هذا الرأي أنه من أهم أسباب غارة المغول على الدولة الاسلامية اضافة الى ما سبق من أطماع المغول منذ موجاتهم الأولى ،وقد تكون هذه الحملة استمرارا للغارات والهجرات المغولية التي قامت في وسط آسيا السابقة .

ومهما تكن المبررات فقد أعد تيمورلنك العدة فاغار بجيوشه على بلاد آسيا الصغرى ، وفتح مدينة سيواس بأرمينيا وأسر حاكمها أورخان ابن السلطان بايزيد ،وقطع رأسه . حينئذ اضطرب السلطان بايزيد، فجمع الجيش وسار به لمحاربة هذا المغولي ،فتقابل الجيشان في سهل أنقرة ،فاقتتل الجيشان قتالا عنيفا أظهر السلطان خلاله من الشجاعة ما أبهر العقول وأدهش الأذهان ، قبيل شروق الشمس حتى المغيب ،ولكن نتيجة لضعف جيشه وفرار فرق آيدين ومنتشا وصاروخان وكرميان وانضمامهم الى جيوش تيمورلنك لوجود أمرائهم الأصليين وأبنائهم وكبار رجالهم في صفوف المغول ، فلم يبق مع السلطان سوى عشرة آلاف جندي انكشاري ، وبعض العساكر الصربية ، الذين اثبتوا ولاءهم للدولة في الحملة الصليبية الرابعة .

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢١.

ولم يثنه ذلك النقض فقد استمر في الحرب والقتال حتى سقط آخر النهار أسيرا في أيدى المغول ومعه ابنه موسى [1]،ولكن على حسب ما يذكر أن جيوش النصارى التي كانت تحت قيادة بايزيد لم تدخل المعركة الا وهي مكرهة ولعلهم يعلمون مدى التحالف القائم بين صليبي أوربا والمغول والذى أبرم بين الطرفين ، فقد سعى هؤلاء قبل تقدمهم نحو العالم الاسلامي أن يكون هجومهم والتتار معا ، مع العلم أن التتار في ذلك الوقت كانوا قد دخلوا الاسلام ، الا أن الصليبيين استغلوا الخلاف المذهبي بين العثمانيين السنة وماكان عليه تيمورلنك من التشيع ،فأقنعوه بوسائلهم الخاصة كما سبق ، على غزو العثمانيين من الغرب وقدومهم من المغرب في آن واحد [2] .

وقد أسر أيضا ابنه مصطفى الذى أرسله تيمورلنك الى سمرقند، وقد أطلق سراحه بعد عدة سنوات [3]، وهرب اولاده سليمان ومحمد وعيسى وكانت هذه الموقعة في ١٩ ذى القعدة سنة ٨٠٤/ ٢٠ يوليو سنة ١٤٠٢م [4]، ولكن تيمورلنك لم يقتل أسيره بايزيد بل أكرم مثواه ، وفي رواية أهانه [5]. بعد أن شرع في الهرب ثلاث مرات [6] . ولكن السلطان مات بعد سنة من أسره اى سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٣م [7] . وأن هذه الهزيمة هي سبب موته كمدا وهو في الاسر وصرح تيمورلنك لابنه موسى بأن يدفن اباه في مقابر سلاطين آل عثمان في بورسه وهذا دليل على احترام تيمورلنك للسلطان بايزيد الثاني [8] .

---

(١) محمد فريد بك :تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٤٦.
(٢) علىحسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٣.
(٣) يلماز اوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١١٨.
(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤٦.
(٥) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ،ج ١ ،ص ١٩٦.
(٦) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٤٦.
(٧) اورخان محمد على : السلطان عبد الحميد الثاني حياته واحداث عهده ، ص ١٨.
(٨) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ج ١ ،ص ٤٩٦.

وقد أخذ تيمورلنك بعد ذلك في الاستيلاء على الأناضول وعمد الى احياء الامارات القديمة من أجل تفتيت وتقسيم الدولة العثمانية (١)، وأن لايقوم لها قائمة بعد اليوم .

ويذكر المؤرخ أحمد جودت باشا ، أنه قد تهيأ لبايزيد الأول ماكان مطمح أنظار العثمانيين منذ زمن الغازي عثمان بن ارطغرل مؤسس الدولة العثمانية ، وهو فتح القسطنطينية لكن من سوء طالعه استولت عليه أهواء النفس في أمره فتهافت على مالايتفق من الاسراف والتبذير والميل مع هوى النفس والاسترسال في اللهو والخلاعة ، وغير ذلك من دواعي التأخر ، اغتنمها تيمورلنك لصالحه فوقع له ماوقع ، ففرحت دول أوربا بما وقع للسلطان بايزيد فأرسل ملك فرنسا تهنئة الى تيمورلنك بهذه المناسبة ، فأجابه تيمورلنك على التهنئة (٢).

وعلى أثر موقعة أنقرة اكتسح تيمورلنك آسيا الصغرى،واستولى على نيقية وبروسه وغيرهما من المدن الساحلية (٣)، وكان تيمور لنك يريد تمزيق وحدة الدولة العثمانية ، وتفريق كلمتهم وألا يقوم لهم بعد تلك المعركة أي قائمة كما أنه يحرض بعضهم على قتال بعض (٤) ، لهذا دب الخلاف بين أبناء بايزيد الكل منهم يريد أخذ مكان والده ليحكم الدولة (٥)

---

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ،حياته واحداث عهده ، ص ١٨ .

(٢) تاريخ جودت : ج ١ ، ص ٤٠.

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥٩.

(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ،ص ٤٩٧.

(٥) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ١٩.

وكادت الدولة أن تفلت منهم بسبب هذه الخلافات التى وقعت فيهـــا السلطنة وهذا مايسمى بفترة فاصلة في التاريخ العثماني ، " أى منفصلة عن محورها الأصلي " (١) . وقد دام هذا الخلاف حوالي احدى عشرة سنـــة من ٨٠٥ - ٨١٦ هـ / ١٤٠٢ - ١٤١٣م حتى استطاع السلطان محمد الأول ابـن السلطان بايزيد الأول أن يتولى زمام السلطنة بعد اسقاط اخوته ، وأن يجمع الكلمة في يده وأن يوحد الدولة العثمانية من جديد ، وينفـــرد بسلطتها (٢) .

ولذلك تعتبر معركة انقرة من أكبر الكوارث التى أخرت الدولــة العثمانية عن فتوحاتها الجهادية نحو أوربا حوالى نصف قرن (٣) .

وان كارثة كهذه لو وقعت على آية دولة لمحتها عن آخرها ، الا أن الأساس الذى قامت عليه الدولة العثمانية كان متينا فاستقر أمرها ، بتغلـب السلطان محمد الاول الملقب بـ (جلبي) على اخوته فتهيأت له ذلك أسبـاب الاستقلال بالملك كما مر بنا ، فرفع شأن الدولة العلية وعادت في زمـن قليل الى سابق عزها ومجدها ووحدتها ، ثم توفى سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١ م (٤) .

ويعود ذلك الى التوفيق الكبير من الله الذى صادف السلطان محمـد جلبي لتوحيد ملكه ، لذلك اعتبر هو المؤسس الثاني للدولة العثمانية بعـد كارثة أنقرة (٥) . وتقلد الملك من بعده ابنه السلطان مراد الثاني الـذى قوى أركان الدولة ووسع نطاق المملكة بما يزيد على ماكانت عليه . ولمـا توفى رحمه الله سنة ٨٥٥هـ / ١٤٥١ م تولى مكانه ابنه محمد الثانـي (الفاتح) (٦) ، كما سيأتي في بابه .

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، جـ ١ ، ص٤٩ .

(٢) أورخان محمد على : السلطان عبد الحميد الثاني ، حياته واحداث عهده ، ص ١٩ .

(٣) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١١١ .

(٤) أحمد جودت باشا : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٠ .

(٥) يلماز اوزتونا : المصـــدر السابـــق ، ص ١١٦ .

(٦) أحمد جودت باشا : المصدر السابق ، ص ٤٠ .

الفصل الأول : الدولة في عصرها الأول

أ - تطبيق النظم الإسلامية ، فضل الإسلام في قوة الدولة وتماسكها ، والحصانة الفكرية .

ب - الانكشارية والتربية الإسلامية .

جـ - انتشار الإسلام في أوربا في عصر عظمة الدولة : فتح القسطنطينية ، وتهديد روما .

أ — تطبيق النظم الاسلامية :

ان العصر العثماني الأول هو عصر قوة الدولة ، ذلك العصر الذى طبقت فيه النظم الاسلامية ، وخاصة فيما يتعلق بأهل الذمة [١] . ففي ظرف مائة عام تبلورت شخصيتها ومعالم قوتها ، وعظم أمرها وشاع صيتها ، وصارت دولة عظيمة تهابها أوربا ، بعد أن كانت قبل ذلك امارة صغيرة ، وهذا يعود فى المقام الأول الى تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية ونظمها والتمسك بوصية الغازى عثمان بك مؤسس الدولة العثمانية ، عند وفاته حيث قال لابنه وولي عهده اورخان بوصايا ثلاث أوجزها فيما يلي :

أولا : التمسك في كل أمورك بالشريعة الغراء وشاور في المهمات أهل الرأي والدهاء .

ثانيا : اعط كل ذى حق حقه من التكريم والانعام من الخواص والعوام ، لاسيما العلماء الاعلام الذين هم ركائز دين الاسلام لتكون مظهرا لما قيل "خير الناس من ينفع الناس" .

ثالثا : وبما أنك خليفتي من بعدى فتنبه لما هو أعظم ركن من أركان هذا المقام وهو التعظيم " لأوامر الله ، والشفقة على خلق الله " واطلب الأعمال الخيرية من اعلاء كلمة الله ، والغزو لوجه الله .

وقد عمل أورخان بهذه الوصية وسلك بنوه مسلكه القويم [٢] ، وقال يابني لايغرنك المال والجاه من مخالفة الله واحرص على الدين فانه سر انتصارنا [٣] فانتهجوا جادة العدل وتطبيق الشرع من غير افراط ولا تفريط، فعدلوا بين رعاياهم فوصلت دولتهم بهذه السياسة الاسلامية الحكيمة الى قمة مجدها [٤] .

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوى : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، مجلة دارة الملك عبدالعزيز ، العدد الرابع ، السنة الثالثة عشر ، ١٤٠٨ هـ /١٩٨٨م ، ص ٢١١-٢١٢ .

(٢) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت باشا ، جـ ١ ، ص ٣٨-٣٩ .

(٣) زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٣٨ .

(٤) أحمد جودت باشا ، المصدر السابق ، ص ٣٩ .

وحين جلس السلطان أورخان على سرير الحكم نقل عاصمته الى مدينة بورسه بعد أن كانت في يكيشهر [١] .

فورث أورخان عن والده عثمان دولة ليس لها قوانين أو عملة وكذلك ليس لها حدود واضحة [٢]، لهذا التفت السلطان الى التنظيمات الضرورية، وسن القوانين والأنظمة بمساعدة رجال حكومته وعلى رأسهم علاء الدين بن عثمان وقره خليل ، فكان أول شيء بدأه أن ضرب السكة العثمانية [٣]. ولما رأى جيوشه لانظام لها ولا معرفة لها بالحرب قام بانشاء طائفة يني جرى " الانكشارية " التي سنتناول الحديث عنها باسهاب في الفقرة التالية ، كما نظر الى أراضي البلاد المفتوحة فقسمها الى قسمين خاص وتيمار [٤] ، فكانت الايرادات من الأراضي الخاصة للخزينة السلطانية وللأمراء والأعيان في الحكومة [٥].

وقد اكتسب العلماء نفوذا كبيرا بسبب طبيعة مراكزهم الدينية والتعليمية والقضائية ، وكان المفتي هو رأس العلماء والذى سمي مؤخرا شيخ الاسلام ويعتبر في المرتبة الثانية في الدولة بعد السلطان . فالدولة تطبق النظم الاسلامية وتستقي تشريعاتها من دستور المسلمين وهو الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة [٦] .

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ،ج ١ ، ص ٤٨٨.
(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٠ .
(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٩.
(٤) تعريف التيمار: عبارة عن حقول يتصرف فيها أربابها بالحرث والزرع ويعطون ماعليها من العشور الشرعية ، وما يخصها من خراج للدولة .
 - اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٩.
(٥) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٩.
(٦) محمد عبداللطيف البحراوى : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، (الدارة ، ع ٤ ، س ١٢ ، ١٤٠٨ هـ ، ص ٢٠٦).

وفي ضوء هذه السياسة الاسلامية انطلق العثمانيون في جميع حروبهم الهجومية والدفاعية ، فاعتبروا نشر دين الله وهداية الناس في الأرض من أهم الواجبات المقدسة ، كما حرصوا على القيام بهذا الواجب على حسب ما أقره التشريع الاسلامي [١].

فعندما قام السلطان عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة بفتح البلاد المسيحية جعل نصب عينيه تطبيق النظم الاسلامية ، كما كانت تطبق في عصرها الاسلامي الأول ، فأرسل الى جميع أمراء الروم ببلاد آسيا الصغرى يخيرهم في ثلاثة أمور :

- الاسلام - أو دفع الجزية - أو الحرب .

متبعا في ذلك المنهج الاسلامي وسائرا على حسب الخطوات التي سار عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون رضوان الله عليهم ومن تبعهم من الحكام ، فقبل من أعلن اسلامه ، وأخذ الجزية ممن قبل الانضمام الى الأمة الاسلامية من المسيحيين وحارب من أعلن الحرب على الاسلام أو الخروج عن طاعة السلطان [٢] .

كان الهدف من تلك الحروب الجهادية هو اخضاع عالم الكفر (دار الحرب) وليس تدميره ، لهذا أقام العثمانيون دولتهم على أساس توحيد الأناضول الاسلامية ، والبلقان المسيحية تحت حكمهم ، كما ظهرت في الوقت نفسه حامية للكنيسة الارثوذكسية وملايين المسيحيين الأورثوذكس . فقد ضمن الاسلام حياة وممتلكات المسيحيين واليهود . في مقابل استسلامهم ودفع الخراج ، وسمح لهؤلاء حرية ممارسة شعائرهم الدينية الخاصة بكل فئة منهم .

---

(١) زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٧٦ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١١٨ - ١٢٠ .

ومع وجود العثمانيين في مجتمع الحدود واختلاطهم مع المسلمين طبقوا مبادئ الاسلام ، بأقصى درجة من التسامح ، وخاصة خلال السنوات الأولى من تاريخ الدولة العثمانية حيث اتبعوا سياسة استهدفت تحقيق النهج الاسلامي في معاملة أهل الديانات الأخرى بالنسبة لكسب ثقة المسيحيين وغيرهم وذلك قبل اللجوء الى الحرب (١) .

هذا التسامح اتضح من التزام السلاطين بالشريعة ، حيال الديانات الأخرى وخاصة فيما يتعلق بأهل الذمة ، حيث عاش الرعايا المسيحيون واليهود في أمن وسلام (٢)، جنبا الى جنب داخل الدولة .

ومن أمثلة ذلك أن أرطغرل عهد الى ابنه عثمان مؤسس الدولة بولاية القضاء في مدينة قرة جه حصار بعد أن تم فتحها سنة ٦٨٤ هـ. الموافق ١٢٨٥م، حكم عثمان لبيزنطي نصراني ضد مسلم تركي ، فأبدى هذا البيزنطي استغرابه ، وسأل عثمان ،كيف تحكم لصالحي وأنا لست من أهل دينك أو ملتك ؟ فأجابه عثمان قائلا : بل كيف لا أحكم لك ، والذى نعبده يقول لنا : " ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل "(٣)، فكان تطبيق الشريعة الاسلامية سببا في اسلام هذا الرجل(٤).

ولقد طبق العثمانيون المبادئ الشرعية في حماية الفلاحة باعتبارها احدى مصادر الدخل الضريبي ، أو الموارد الاقتصادية للدولة ، لذلك اتخذت دولة الكفالة الاسلامية موقف التسامح لتشجيع الفلاحين ، فشكل الخراج أو الجزية جزءا كبيرا من ايرادات الدولة (٥). كما أن

---

(١) ابراهيم شحاته حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية ،ص ٧٩-٨٠.
(٢) عبدالكريم مشهداني : العلمانيةوآثارها على الأوضاع العلمانية في تركيا ، ص ٥١ .
(٣) سورة النساء : الآية (٥٨).
(٤) زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ،ص ٧٥-٧٦.
(٥) - ابراهيم شحاته حسن:المرجع السابق ، ص ٨٠ ،
- نبيل رضوان : جهود العثمانيين لانقاذ الأندلس واسترداده ،ص ١٠.

الموارد من العشور والرسوم التي كانت تجبى لخزينة الدولة تعتبر مشروعة ومتمشية مع نظام الشريعة ، وهذه العشور ماكان يفضله العلماء ويحثون اقتصار السلاطين عليه (١).

وكان نظام الملل قد صنف هؤلاء الرعايا تصنيفا لايقوم على أساس الجنس أو القومية أو اللغة ، بل على أساس المذهب الديني الذى يدينون به . لذلك أصبح لكل ملة رئيس ديني يمارس الحكم الذاتي في المسائل الدينية ويقوم بالفصل في قضايا الأحوال الشخصية كالارث والزواج والطلاق والتبني الخاصة بأتباع كل ملة ، كما سمح هذا النظام لكل ملة استخدام لغتها ، في السنة التي فتحت فيها القسطنطينية ، وممارسة عقيدتها ،وتطور نظمها ، الثقافية ، وجمع الضرائب ، ودفع مايخصها الى بيت مال الدولة .

وكان من بين النظم السائدة في الدولة العثمانية ، النظم الخاصة بالأجانب ، من رعايا الدول الأوربية ، وعلى الخصوص التجار الأجانب المقيمين بالقسطنطينية فلقد وضعت الدولة نظاما خاصا بهم يعرف ب " نظام الامتيازات" وعاشت كل مجموعة من هؤلاء طبقا لما نص عليه في المعاهدات الرسمية التي أبرمتها الدولة مع حكام الدول التي تنتمي اليها هذه المجموعة (٢).

وراعى العثمانيون العدالة في القضاء بين المسلمين والمسيحيين الى درجة أن صدرت فتوى يقال فيها بأنه اذا قتل ألف من المسلمين مسيحيا واحدا مخلصا للسلطان دون حق يجب قتلهم ولكي يسهل لهم السلطان قبول الحكم الاسلامي الجديد ، فقد سمح باستمرار كنيستهما الأرثوذكسية والاغريقية (٣).

وهذا نموذج من النماذج الاخرى الكثيرة حول صدق تطبيق الدولة للنظم الاسلامية في معاملة الذميين كما عاملهم الدين الحنيف .

---

(١) هاملتون جب : المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، (القاهرة ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٨٩م)ج٣،ص ١٣.

(٢) عمرعبدالعزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، (بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م) ، ص ٦٠-٦١.

(٣) محمد مصطفى صفوت: فتح القسطنطينية ،(الرياض ، منشورات الفاخرية ، ص ١٨٢-١٨٣) .

رأى السلطان سليم الأول عدد أهل الكتاب من النصارى واليهود في الدولة قد زاد على بضعة ملايين وأن هذا العدد يزداد عاما بعد عام . ففكر في طريقة للخلاص منهم فخيرهم بين اعتناق الاسلام ، أو الطرد من أراضي الدولة العثمانية ، ولكن عندما وصل هذا الخبر الى مسامع شيخ الاسلام على افندى ، انبرى للسلطان معترضا على هذا الاجراء الذى يتنافي وطبيعة الاسلام ،وماكان عليه السلف الصالح ، فقال للسلطان سليم ليس لنا على هؤلاء النصارى واليهود الا الجزية فماداموا يؤدونها فقد عصموا منادماءهم وأعراضهم وعباداتهم فيما يعتقدون ، فلا يحق لك أن تزعجهم في دينهم ،ولايحق لك أن تخرجهم من ديارهم ، فأعلن السلطان سليم رضوخه لحكم الاسلام (١) ،وهذا دليل على تمسك العثمانيين بالنظم الاسلامية وتطبيقها ، حتى تمتع أصحاب الديانات الاخرى غير الاسلامية بكامل حريتهم في معتقداتهم وعباداتهم (٢) .

ومعنى ذلك أن الدولة العثمانية دولة قامت على الشريعة الاسلامية فاتسمت به تنظيماتها وتشريعاتها واصبحت سمة واضحة في جميع أمور الدولة وتصرفاتها . وكان المفتي ، أو شيخ الاسلام تخضع لنفوذه الهيئات القضائية أو الهيئات ذات الطابع الديني ، وكان السلاطين حريصين كلما حز بهم أمر أو أقدموا على مشروع خطير (٣) على استعانة المفتي حتى يصدر فتوى الحروب التي تخوضها الدولة دفاعا أو هجوما أو لعقد الصلح ،وكانت الدولة تهتم اهتماما بالغا بشيخ الاسلام والعلماء لنشر التعبئة الروحية بين أفراد القوات المسلحة ،واثارة روح الجهاد وصولا الى تسخين الجنود روحيا ومعنويا لخوض المعارك في سبيل نشر الاسلام (٤) .

---

(١) زياد ابوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الاتراك ، ص ٧٦ .

(٢) لوثروب ستودارد: حاضر العالم الاسلامي : ترجمة عجاج نويهض وتعليق شكيب ارسلان (الطبعة الرابعة ، بيروت ،دار الفكر للطباعة والنشر، ١٣٩٤هـ/١٩٧٣م) ص ٢٠٨-٢١٠ .

(٣) زياد ابوغنيمة : المرجع السابق ، ص ٧٦ .
محمد جميل بيهم : العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب ، (بيروت ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧م) ص ١٢٤ .

(٤) عبد العزيز الشيناوى: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، (القاهرة ، الناشر : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٨٠م) جا ، ص ٥٤ .

تجلى هذا الأمر في حرص الدولة :

أولا: على تطبيق مبادىء الشريعة الاسلامية تطبيقا صارمـــــا، وهذا ماتؤكده في شتى المناسبات أنها تلتزم التزاما دقيقا بمبـــادىء الشرع .

ونذكر هنا نماذجا على سبيل المثال لا الحصر أنهاحين أصـــدرت قانون نامه الذى أكمله السلطان سليمان القانوني ، توجت هذا القانـــون بجملة معبرة وردت في صدره " قانونتا مي سلطاني كي شريعي شريفي موافقاني محرر أولوب " أي " القانون نامه السلطاني الذى يتفق مع الشريعـــة الشريفة ".

ثانيا: المحافظة على التقاليد الاسلامية ، وعلى سبيل المثـــال أن السلطات العثمانية لم تكن تسمح لأحد بانتهاك حرمة شهر رمضان ، ولذلـك لم يجرؤ أحد مهما كان مركزه ، مسلما كان أو غير مسلم ، أن يأكل أو يشرب في مكان عام أثناء النهار طوال هذا الشهر المبارك ،واذا أقدم على ذلـك فانه يعاقب شرعا ويشهر به أمام الناس وفي الشوارع العامة (١).

من هنا أتى تاريخ العثمانيين في عصرهم الاول تجربة فريدة معتمـدا على تطبيق النظم الاسلامية في مطلع العصر الحديث ، وفي دولة مركز الثقـل فيها القسطنطينية سيدة البلقان وعرفت أوربا أن المسلمين قوة ثابتة الدعائم في أوربا خلافا لمحاولات الحصار العربي للقسطنطينية في العصور السابقـة وعلى مختلف العصور.

الا أنه يجب أن نشير الى دور الاسلام كأهم عامل من عوامل المقاومـة ضد الاستعمار الأوربي ، وخلال عصور الاستعمار الطويلة كان للاسلام الفضـــل الأكبر في تحطيم مشروعات الاستعمار بالنسبة لسكان المسلمين في المستقـرات وظلت الشخصية الاسلامية سليمة على الرغم من محاولات الاستعمار المتعـددة لهدم هذه الشخصية ، والاسلام هو الذى أعطى للدولة القوة الخارقـــة ،

---

(١) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانيـــة ج ١ ، ص ٥١ .

ذلك التماسك الذي حير الاوربيين على مدى تاريخها الطويل ، وليس أدل على قوة الدولة العثمانية وتماسكها من أن الغزو الفكرى تأخرت نتائجه حتى بدء عصر السلطان عبدالمجيد بن محمود الثاني ، حيث أصبحت الدولة عارية بعد أن قضى السلطان محمود الثاني على الانكشارية [١].

وهذا هو سر عظمة السلاطين الأول الذين وضعوا بناءها على أساس مكين عندما تمسكوا بمبادئ دينهم ومحافظتهم على تعاليم الشريعة السمحاء فكانوا يطيعون السلطان وليس لبعضهم على البعض الآخر فضل الا بالتقوى [٢].

لذلك لم يعرف التاريخ دولة صمدت للزمن ومحنته كدولة آل عثمان في القرون الثلاثة ، القرن العاشر ، والحادى عشر ، والثاني عشر الهجرى الموافق للقرن السادس عشر ، والسابع عشر ،والثامن عشر الميلادى ،فقد فرضت وحدة شبه عامة للعالم الاسلامي ، أرهبت أوربا وهزته ، ثم قامت بتحرير شعوب اسلامية كانت قد سقطت في أيدى الصليبيين ، فحررت تونس والجزائر وأجزاء من المغرب وليبيا ، وأنقذت أجزاء من المشرق من اكتساح صليبي بدأ يستولى على البحار ويطوف العالم الاسلامي [٣] . فاستطاعت الدولة أن توقف هذا الزحف وتصد هذا المد عن المشرق العربي .

...

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوى : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة (مجلة الدارة ، العدد الثاني، السنة الحادية عشرة ،١٤٠٦هـ) ص ٨٠-٨٢.

(٢) حسين لبيب : تاريخ الأتراك العثمانيين ،جـ ٢ ، ص ٩٠.

(٣) هيئة التحرير : مجلة الدعوة السعودية (العدد ٥٧٠ ، ٢٥ شوال ١٣٩٦هـ)، ص ٤ .

ب - الانكشارية نموذج فريد للتربية الاسلامية :

كان العثمانيون عند قدومهم الى آسيا الصغرى لايزالون على البداوة يجاهدون تحت راية أميرهم ويقتسمون الغنائم فيما بينهم فاذا فرغوا من الحرب عادوا الى شئونهم فلم يكونوا جنودا منتظمة بل كانوا يقدمون على الحرب من تلقاء أنفسهم .

فلما وضع عثمان أساس الدولة العثمانية على أنقاض دولة السلاجقة في آسيا الصغرى ، أصبح العثمانيون في حاجة الى من يحارب معهم لبناء دولة اسلامية كبرى تدافع عن الاسلام ، فكان يأتيهم المتطوعون ينضمون اليهم رغبة في الفتح والجهاد ، ونشر الاسلام ولايحاربون الا على ظهور الخيل . وكانوا يسمون أولئك المحاربون (اكينجي) ،وكانوا يتدربون على الحركات العسكرية تدربا حسنا واشتهروا على الخصوص بانتظامهم في الصفوف ، فاذا مشوا كانت أفراسهم صفا واحدا . وكان عثمان اذا عزم على الحرب بعث المنادين الى القرى والبلاد لاعلان عزمه ويدعوا من يشاء للاشتراك في ذلك(١).

وعندماورث السلطان اورخان السلطنة عن والده كما سبق ،كان لزاما عليه مواصلة الجهاد ضد البيزنطيين ، فقد رأى جيوشه المؤلفة من الفرسان التركمان ،وممن يتطوع من الرعية على الحرب ولكن ليس لهم نظام ولامعرفة بقوانين الضبط والربط وبذلك فانهم يشعرون بأنهم ليسوا محكومين لأحد(٢) .

فكان السلطان اورخان يعتمد في حربه التي يشنها ضد البيزنطيين على المرابطين في الحدود (مجاهدى النفير) والذى كان يطلق عليهم بالتركية اسم (Akincilar) أى المندفعون ، ويسمون أيضا أهل النفرة(٣)

---

(١) هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني (مجلة الهلال ، القاهرة ، الجزء الثاني ، السنة السابعة عشرة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) ص ٤٥٧.

(٢) اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار،ج ١ ص ٤٨٨ .

(٣) كامل باشا: تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ،ج ١ ،ص ١٢.
زياد ابوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الاتراك ، ص ١٤٤.
حسين لبيب :تاريخ الاتراك العثمانيين ،ج ١ ،ص ١٠.

وهم الذين يستجيبون لنداء الجهاد تجسيدا لقوله تعالى : (انفروا خفافـــا وثقالا وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم)[(١)] .

فهو أيضا لم يمتلك جيشا نظاميا وانما كان لديه مئات من فرســـان عشيرته ومن المجاهدين ومن أمراء الروم وعساكرهم الذين دخلوا الاســـلام اثر الفتوحات العثمانية . وحينما كان يريد اعدادا أكثر مما لديه يطلـــق النفير (حي على الجهاد) فتتوافد عليه جموع المجاهدين من كل صـــوب[(٢)] فاذا وضعت الحرب أوزارها عاد المجاهدون من حيث أتوا لانتظار دعوة أخـــرى للجهاد[(٣)] ، وكانت هذه الطريقة غير مجدية لأنها تضيع كثيرا من فرص الفـــوز وذلك لأنه عندما يعلن النفير العام يستمر جميع الافراد المحاربيـــن فترة طويلة من الزمن مما يمكن العدو من تعزيز مواقعه فتفوت بذلك فـــرص الفوز على قوات العدو[(٤)] . كذلك فان هذه الطريقة تجعل افراد المحاربين اكثر ارتباطا بقبائلهم مما يؤدى الى انفصام عرى الوحدة العثمانية داخـــل قوات الدولة التي تسعى الدولة جاهدة لتحقيقها كما ان بعضهم كان حريصـــا على جمع المال . ولذلك خشي السلطان أن مثل تلك الامور قد تصرف قـــواد المحاربين عن الهدف المنشود الا وهو الجهاد في سبيل الله[(٥)]. خاصـــة

---

(١) سورة التوبة : الآية (٤١).

(٢) زياد ابوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الاتراك ، ص ١٤٥.
- حسين لبيب : تاريخ الاتراك العثمانيين ، جا ، ص ١٠.
- احمد رشيد: خريطة لي ورسملي تاريخي عثماني ، ج ١ ، ص ١٤-١٥.

(٣) زياد ابوغنيمة : المرجع السابق، ص ١٤٥.
- حسين لبيب : المصدر السابق ، ص ١٠.
- كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، جا ، ص ١٢.

(٤) كامل باشا : المصدر السابق، ص ١٢.

(٥) محمد فريد بـــــا : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٢-١٢٣.
- كامل باشا : المصدر السابق ، ص ١٢.

وأن حملات البيزنطيين ، قد زاد تهديدها للدولة العلية، فوجد أورخان صعوبة في تجميع المحاربين في الوقت المناسب ، ففكر في طريقة جديدة لتجميع قوة لقتال البيزنطيين الذين أخذ خطرهم يتصاعد يوما بعد آخر، فاستشار أخاه علاء الدين وزير الدولة وبعض قواده الآخرين ، فاشاروا عليه وخاصة علاء الدين وقائده قرة خليل بفكرة ايجاد جيش نظامي دائم يكون مستعدا استعدادا كاملا لخوض المعارك ضد أعداء الدولة وأعداء الاسلام ويكون متواجدا في حالة الحرب والسلم على حد سواء[1]، على أن يخصص لكل فرد من افراد ذلك الجيش راتب معين في اليوم وقدره ليرة عثمانية واحدة مقابل هذا التفرغ [2] لأنه ليس من العقل التجاء السلطان الى جيش غير متفرغ ولا منظم ، بعد أن راى فساد ذلك الاتجاه في الدولة البيزنطية وايضا ليس من المقبول ان يجاهد العثمانيون بقوات غير منظمة [3] .

وبما ان الغزو والجهاد لازال قائما في بلاد الروم ومتتابعا فقد اشار على السلطان رجال حكومته بأخذ خمس الأسرى [4] ، وفصلهم عن كل مايذكرهم بجنسهم وأصلهم ، فيربون تربية اسلامية ، بحيث لايعرفون أبا الا السلطان ولا عملا الا الجهاد في سبيل الله ، ولعدم وجود اقارب لهم يضمن السلطان عدم تحزبهم أو عصيانهم عليه ، فأعجب السلطان بهذه الفكرة والرأى وامر بانفاذه في الحال[5] ، فأسند هذا العمل الى قرة خليل .

---

(١) زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ الاتراك العثمانيين ص ١٤٥-١٤٦.
كاملباشا : تاريخ سياسي دولت عليه ، ج ١ ص ١٢.

(٢) كاملباشا : المصدر السابق ص ١٢.

(٣) محمدعبداللطيف البحراوي : في خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم (مجلة الدارة ع ٤ ، س ١٣ ، ١٤٠٦هـ) ص ٢٠٤.

(٤) أحمد زيني دحلان : الفتوحات الاسلامية ، ج ١ ، (القاهرة ، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر ، ١٣٨٧هـ) ص ١١٧.
كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٤١٤.

(٥) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٢-١٢٣.

والحقيقة أن العثمانيين يومئذ كانوا يواصلون جهادهم في فتح البلاد الواقعة في املاك الامبراطورية البيزنطية ، واكثر اهلها من مسيحيين فيدخل في حوزتهم من غلمان النصارى الذين قتل آباؤهم نتيجة تلك الحروب فاصبحوا لانصير لهم ولا مرجع لآمالهم ولذلك ارتأى السلطان ان يربي اولئك الغلمان تربية اسلامية [١] .

وعلى اثر ذلك نشأ هؤلاء الأطفال نشأة اسلامية لانهم تربوا في بيئة اسلامية بعيدا عن الوسط المسيحي ، فأثر ذلك في ميولهم وعقليتهم نتيجة لما لهذا الدين الجديد من أمور انسانية عظيمة [٢]، فاذا صاروا الى حالة حسنة من التربية والانتظام أدخلتهم الدولة في سلك الجيش الجديد [٣] فلايخشى منهم التمرد لانهم لايعرفون عصبية غير الدولة ، ولا عملا غير الجندية ، ولادينا غير الاسلام [٤] .

وقد ارتبطت هذه القوة منذ بداية نشأتها بهيئة العلماء في الدولة العثمانية ، وذلك حينما عهد السلطان اورخان الى حاجي بكتاشي أشهر علماء عصره ، وأكثرهم سلطة دينية في الدولة برعاية هؤلاء الجند ، ووضع أصول تربيتهم تربية اسلامية صحيحة ، فقام الشيخ بكتاشي بوضع مناهج لتعليمهم وتدريبهم على أسس اسلامية سليمة [٥] .

---

(١) هيئة التحرير : تاريخ الجند (مجلة الهلال ، ج ٨ ، س ١٧ ، ١٩٠٩) ص ٤٥٨ .
- كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، ج ١ ، ص ١٣ .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، مجلد الدارة ، ع ٤ ، س ١٣ ، ص ٢٠٥ .

(٣) أحمد زيني دحلان : الفتوحات الاسلامية ، ج ١ ، ص ١١٧ .
- احمد رشيد : خريطه لي ورسملي تاريخي عثماني ، ج ١ ، ص ١٤-١٥ .

(٤) محمد عبد اللطيف البحراوي : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

(٥) محمد عبد اللطيف البحراوي : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .
- أحمد زيني دحلان : المرجع السابق ، ج ١ ص ١١٧ .
- أحمد رشيد : المرجع السابق ، ج ١ ص ١٤-١٥ .

اذا فهم نخبة موظفين يقيمون في ثكناتهم على الدوام ، وهم في غاية الطاعة والانقياد ، مع ماهم عليه من الشجاعة والثبات في المعارك للجهاد في سبيل الله واعلاء كلمته (١).

وقد شجع السلطان أورخان تحويل الرعايا المسيحيين الى رعايا عثمانيين مسلمين ، ولم يتبع في ذلك الوقت العنف والاكراه (٢)، بل اتبع الترغيب والتهذيب ، وكانت الوظائف عامة وخاصة الدينية والعسكرية منها في ذلك الوقت تقتصر على المسلمين (٣)، حتى صار النصارى يطلبون من تلقاء أنفسهم ادخال أولادهم ضمن الانكشارية (٤).

وكان أهم مصادر الانكشارية هي: أسرى الحرب نتيجة الجهادعلى حدود العالم المسيحي ، ثم ماكانت تقدمه العائلات المسيحية طواعية من أبنائهم وليس صحيحا أن هؤلاء الغلمان كانوا يقدمون كجزية أو ضريبة كما يدعي

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت باشا ، ج ١ ، ص ٣٩.

، Stanford J. Shaw,Ezelkural Shaw: Osmanli Imprataraugu ve modern , Turky, p. 15.

(٢) يذكر كارل بروكلمان : أن الدولة أكرهت النصارى الذين اختيروا لتأليف الجيش الجديد الانكشارى على الدخول في الدين الاسلامي. وهكذا افتتحت الدولة هذه الحملة بأن انتزعت ألف غلام نصراني من بيوت آبائهم وأكرهتهم على رفض معتقدهم . بيد أن تطلع هؤلاء الى مستقبل باهر جعلتهم يتعلقون بشخص السلطان ويخلصون له . والواقع أن القوة الجديدة الانكشارية نظمت تنظيما دينيا.

— تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٤١٤.

وقد نهج على منواله كثير من المؤرخين الأوربيين وأخذ عنهم بعض المؤرخين المسلمين دون تدقيق في الرواية . وهنا نحن بدورنا نطلب الدليل على هذه الفرية ، لأننا نخالفهم هذا الرأى لنظام الدولة ، وطلب النصارى أنفسهم الانضمام الى الانكشارية.

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوى : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم، مجلة الدارة ، (ع ٤ ،س ١٣) ص ٢٠٤.

(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ،ج ١ ، ص ٤٨٨.

البعض [1]، ولاتوجد وثيقة واحدة تشير أو تؤيد هذا القول ، بل ان هذه الأسر نفسها كانت تتنافس في تقديم أبنائهم لاعجابهم بالانكشارية ونظام الانكشارية كنوع آخر من الفروسية ، فاق فروسية أوربا في العصر الوسيط وطمعا أن تنفتح أبواب وظائف الدولة أمام أبنائهم ، اضافة الى نظام أهل الذمة الذى طبقته الدولة كجزء من نظمها الاسلامية قد أبهرت أوربا في وقت انعدمت فيه الحرية الدينية في أوربا ذاتها أو كادت ، بل ان اقبال الأسر المسيحية على ذلك هو الذى دفع الدولة أن تشترط أن يكون الغلام هو الابن الخامس أو العاشر في الأسرة الواحدة [2]. وكانت عقيدتهم التنادي الى السلاح نحو الجهاد في سبيل الله تعالى .

وكان الانكشاريون كتلة واحدة تشعر بواجبها الاسلامي العظيم وبالمهمة التي أعدوا من أجلها ، السيف سلاحهم متى ما احتاجوا اليه ، ودعوة الحق شعارهم ، والرحمة والشفقة تملأقلوبهم ، ذلك لأن الاسلام دينهم وعقيدتهم والسلطان أبوهم وقائدهم ، كانوا مثقفين متدينين بدين الاسلام ، وقبل خوض المعركة كانوا يستعدون للشهادة فيتطهرون ويصلون لربهم ويطيلون سجودهم في صلاتهم خشوعا لبارئهم بنفوس مفعمة بالايمان صافية كلها رحمة وعدل [3].

---

(١) هي ضريبة آدمية فرضتها الدولة على رعاياها المسيحيين الذين يعتنقون مذهب الكنيسة الارثوذكسية الشرقية القائمة في اسطنبول ، وكانت تجمع أولادهم وهم في سن غضة ، وتحولهم الى الدين الاسلامي وتنظم لهم دراسات علمية ،مدنية وعسكرية تجعل منهم في النهاية أدوات اسلامية للحرب والحكم في خدمة الاسلام.

- عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ١٢٠.

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، (مجلة الدارة ، ع ٤ ، س ١٣) ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٣) عبدالعزيز سليمان نوار : الشعوب الاسلامية (بيروت ،دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٧٣م) ص ٤٨-٤٩.

وعلى العموم كانت أسرة آل عثمان أكبر عائلة عرفها التاريخ الحديث ، شادت بصرح دولتهم ، ودافعت عن الاسلام دفاعا مشهورا ، وزادت رقعته ، كما عملت على نشر الاسلام في معظم الأجزاء الأوربية (١).

ثم ان دخول الأتراك الاسلام على مذهب أهل السنة والجماعة ، وقيامهم بدور المجاهد الأول في سبيل الله أمام الامبراطورية البيزنطية أكسب هذه الدولة العثمانية أصالة وحصانة فكرية في الاسلام ،ومكانة عالية في النفوس ، فكانت هذه الدولة تملك قوة روحية كبيرة أصيلة نابعة من القيم والعقيدة الاسلامية الصافية ، تستطيع أن تعتمد عليها من وقت لآخر لاعادة تنظيم نفسها والوقوف على أقدامها كلما تعرضت لنكسة شديدة ،ومعنى ذلك أن الاسلام وحضارته الراقية في جميع المجالات طور الفكر التركي العثماني ، ونماه حضاريا وهذب أخلاقه واقتلع من جذوره البداوة والتعصب وغرس فيه روح التنظيم والجهاد ، وعلى هذا الأساس سارت السياسات العليا العثمانية لتكون نبراسا لكل مسئول يعمل بها ويهتدى بنورها حفاظا على تماسك البناء الاسلامي للرعية والامة الاسلامية ،شعارها الدفاع عن الاسلام (٢) في أى موقع وعلى أى اتجاه وعلى هذا الأساس أقام السلطان أورخان بن عثمان ووزرائه هذا الجيش الذى رافق تكوين دولتهم فكان أداة في انتصاراتها بتوفيق من الله وعونه الى جانب الجيوش الاخرى في الدولة ،حتى فشلت مهمته في الدور الثاني من عصر الدولة .

...

---

(١) عبدالعزيز سليمان نوار: الشعوب الاسلامية ، ص ٦٣ ، ٦٤.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار: المرجع نفسه ، ص ٦٤.

انتشار الاسلام في أوربا في عصر عظمة الدولة : فتح القسطنطينية وتهديد روما :

قبل أن ندخل في تفاصيل فتح القسطنطينية فلابد أن نستعرض بايجاز سلطنة السلطان مراد الثاني الذي استلم العرش سنة ٨٢٤هـ الموافق ١٤٢١ م ،كمدخل لحكم السلطان محمد الثاني ،وخصوصا أنه اشركه في الحكم وهولم يبلغ سن الرشد وقد زاده هذا العمل حنكة سياسية وخبره بالحروب الطليبية كما سيأتي • وقد افتتح السلطان مراد الثاني اعماله باعادة العاصمة الى أدرنه ،وعقد مصالحة مع أمير القرمان ،وهدنة مع ملك المجر لمدة خمس سنوات ،حتى يتفرغ الى اعادة الولايات التى شقت عصا الطاعة بعد وصول تيمورلنك اليها ،فاسترد ولايات قسطموني ،وآيدين ،وصاروخان ،ومنتشا ،وغيرها في الامارات التى استولى عليها تيمورلنك بعد وقبل موقعة انقره من السلطان بايزيد الأول ،كما أن السلطان مراد الثانى استرد بلاد القرمان سنة ٨٣١ هـ الموافق ١٤٢٨م ،وذلك بعد وفاة أميرها من غير عقب ،فأوصى بالملك من بعده للسلطان مرادالثانى[(١)] • وتفرغ السلطان بعد ذلك لاستعادة ما استقل من بلاد أوربا وخاصة دول البلقان[(٢)] فاتجه نحو اوربا ،فحارب ملك المجر ،وفتح مدينة كولمباز الواقعة على شاطىء نهر الدانوب الأيمن ،حتى يكون هذا النهر فاصلا بين املاك المجر والدولة العثمانية[(٣)] • وفي سنة ٨٣٢هـ الموافق سنة ١٤٣٠م ، أعاد السلطان فتح سلانيك وعزم على فتح مابقي من بلاد الصرب وألبانيا (الأرنؤد) والفلاخ فأخضع بلاد البانيا ،ثم الفلاخ سنة ٨٣٥ هـ الموافق ١٤٣٣ ، الذى سلم بسيادة الدولة هلعا من الحرب ،ولكنه مالبث أن ثار مع أمير الصرب لتحريض ملك المجر لهما ،لمحاربة الدولة ،فحاربتهما الدولة وفتحت سمندريه[(٤)] بسبب عصيان أمير الصرب ،وحاصرت مدينة بلغراد عاصمة بلاد الصرب ،ولم تتمكن من فتحها[(٥)] •

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ،ص١٥٣ - ١٥٤ • ،على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ٢٥ •

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٥٣ - ١٥٤ • ، احمد عبدالرحين مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٦٣ •

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٥٤ ،،على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ٢٥ •

(٤) معناها القديس اندريا مدينة واقعة على نهرالدانوب (الطونة)تبعد ٤٥كيلومترا عن بلغراد عاصمة الصرب،،على حسون: المرجع السابق ،ص ٢٥ ،حاشية رقم (١) •

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٥٥ - ١٥٦ •

ثم واصل السلطان الغارة على ترنسلفانيا ،فحاصر مدينة (هرمان ستاد)[1] التابعة لملك المجر وكان حاكم هذه الاقاليم (هونياد) القائد المجرى الشهير وقائد عموم جيوش المجر ،فأتى هذا القائد مسرعا ،للدفاع عنها ،فاستطاع الانتصار على العثمانيين ،والزمهم الرجوع الى خلف نهر الدانوب وخلال هذه المعارك قتل قائد القوة العثمانية شهاب الدين باشا ،فحث القائد المجرى السير لتخليص بلاد الصرب ،فتغلب على السلطان مراد الثاني الذى تصدى له في مدينة نيش[2] فاصبحت أملاك العثمانيين في خطر،لهذا عرض السلطان مراد الصلح [3] ،وبمقتضاه استرجعت الصرب استقلالها بعودة سمندريه ،وضمت المجر ولاشيا ،كما تنازل السلطان لهم عن الأفلاق فاتفق الفريقان على ايقاف الحرب لمدة عشر سنوات ،وتم التوقيع على هذه المعاهدة في سنة ٨٤٨ هـ الموافق سنة ١٤٤٤ م [4]. عقب ذلك توفى ابن السلطان علاء ،فحزن عليه وسئم الحياة ،فتنازل لابنه محمد الثاني البالغ من العمر آنذاك اربعة عشر سنة ،وذهب الى منغيسيا في آسيا الصغرى ليتفرغ للعبادة والخلوة هناك [5].

---

(١)تقع هذه المدينة هرمنستاد (Harmannstat) في رومانيا الى الشمال الغربي من العاصمة بخارست . ،محمد فريدبك : تاريخ الدولة العلية ،ص١٥٦، حاشية رقم (٢).

(٢)ويقال لها نيسا مدينة فيجنوب الصرب ،واقعة على الطريق الموصل الىاسطنبول ، وسلانيك ،وهى بلدة يوغسلافية . ،محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص١٥٧،حاشية رقم (٢) .

(٣)محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص١٥٦ - ١٥٧ ،، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ،ص٥٠٢ - ٥٠٣ .

(٤) اسماعيل سرهنك :المصدر السابق ،ص٥٠٣ - ٥٠٤ . ،محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص١٥٧ . ،احمد عبدالرحيم مصطفى : فيأصول التاريخ العثماني ،ص٦٤. على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص٢٦ .

(٥)محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص١٥٧، اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ،ج ١ ،ص٥٠٤ ،،على حسون : تاريخ الدولة العثمانية (الطبعة الثالثة ،بيروت ، المكتب الاسلامي ،١٤٠٣هـ ،ص٢٤، أحمد عبدالرحيم مصطفى في أصول التاريخ العثماني ،ص٦٥ . ،يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ،ج ٢ (الطبعة الثالثة ،دمشق ، البصائر ،١٤٠٥هـ) ،ص٥٤.

وحينما تنازل مراد الثاني عن الحكم لابنه محمد الثاني ، قام المسيحيون بنقض الصلح [1]، ونظموا حملة صليبية خامسة للقضاء على الدولة العثمانية ، اشتركت فيها عدة دول أوربية [2].

فتنادى ملوك النصارى لاعداد الحملة وفعلا تم اعدادها ، وتوجهت تلك الجموع بعد ذلك نحو أراضي البلغار فاجتازوها ، وهجموا على الحاميات العثمانية ، وهناك أنزلوا بها صنوفا من العذاب ثم واصلوا تقدمهم الى البحر الأسود واستولوا على وارنه [3] ، فعاد السلطان من عزلته لصد الحملة فأحرز انتصارا حاسما على الأحلاف الصليبية ، واسترد مدينة وارنه[4] ثم واصل تقدمه حتى تمكن من اخضاع البوسنة والصرب اللتين اعترفتا من جديد للسيطرة العثمانية ، خوفا من التحول القسرى الى الكاثولكية فيما لو انتصر هونيادى زعيم الحلف الصليبي [5] والعدو التقليدى للدولة العثمانية .

عاد السلطان مراد الثاني بعد ذلك الى خلوته من جديد ، فلم يستمر طويلا ، بل انه عندما شاهد تمرد الجيش الانكشاري وثورتهم على السلطان محمد الثاني لصغر سنه شن هجوما كبيرا عليهم حتى استطاع اخماد ثورتهم وذلك سنة ٩٥٢ هـ الموافق ١٤٤٥م .

---

(١) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، ج٢ ، ص ٥٤، أحمد عبدالرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ، ص ٦٥ ، اسماعيل سرهنك: المصدر السابق، ص ٥٠٤.

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني، حياته وأحداث عهده ، (الطبعة الاولى ، الكويت ، دار الوثائق ،١٤٠٧هـ) ص ١٩.

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٦٤ ، يوسف آصاف : المصدر السابق ، ص ٥٤ ، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٦ .

(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ، ص ٤٠٥،محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٥٨ ، علي حسون : المرجع السابق ، ص ٢٦ ، أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٦٤.

(٥) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

وخوفا من رجوعهم الى الثورات مرة أخرى أشغلهم بحرب الموره حتى استسلم اهلها وقبلوا دفع الجزية [1]. وخشية من تكرار الثورات والحروب ضد الدولة العثمانية فانه استمر في ادارة شئون دولته لمدة ست سنوات ،تمكن خلالها من ايقاع هزيمة بهونيادى [2]،عندما اراد الغارة على بلاد الصرب ليثأر لنفسه ويعيد ما فقده من الشرق الأدنى فاصطدم بالجيش العثماني في وادى قوصوه في معركة حاسمة انتصر فيها السلطان مراد الثاني نصرا عظيما وذلك في سنة ٨٥٢هـ الموافق ١٤٤٨م وكأنه أعاد بذلك انتصارات سلفه مراد الأول من قبل على ملك الصرب سنة ٧٩٢ هـ الموافق ١٣٨٩م ،وفي هذا الموقع بالذات .

بعد هذه المعركة بثلاث سنوات وبالتحديد في ٥ محرم سنة ٨٥٥هـ الموافق ٧ فبراير سنة ١٤٥١م توفي السلطان مراد الثاني في أدرنه ،ونقل جثمانه الى بروسه . حيث دفن هناك فتولى من بعده ابنه السلطان محمد الثاني [3].

وما ان تولى السلطان محمد الثاني مقاليد السلطه فيالدولة العثمانية حتىسارعالى تأمين حدود دولته من ناحية نهر الدانوب ،كما الزم الامبراطور البيزنطي قسطنطين دفع الجزية ،ولم يبق آنذاك من ممتلكات الدولة البيزنطية الا القسطنطينية وضواحيها [4].

ومن أجل ذلك شرع السلطان محمد الثاني البالغ من العمر عند توليه السلطة تسعة عشر عاما ،في الاستعداد لاتمام فتح ما بقي من بلاد البلقان والقسطنطينية ، حتى يحقق بذلك الحلم الكبير والامنية العظيمة التى طالما تمناها اسلافه (٥) خاصة وان والده قد شرع من قبل فيحصار القسطنطينية ، لكنه

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٥٨.
(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ،ص ٦٥ .
(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٥٩ .، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ،ص ٥٠٥ .
(٤) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ،ص ١٣ .
(٥) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ،ج ١ ،ص ١٣١ . ،محمد فريد بك: المصدر السابق ،ص ١٦١ .

لم يتمكن من فتحها ،لتحالف أوربا من جهة الغرب والثورات في آسيا من جهة أخرى كما مر بنا [١]،فأخذ السلطان محمد الفاتح ينفذ وصية والده مراد الثاني في التحضير لفتح القسطنطينية [٢]،حيث سبق لاسلافه العثمانيين عدة محاولات لفتحها لشعورهم أنها العاصمة الطبيعية لدولتهم [٣]،والقاعدة التى يجب أن تنطلق منها الفتوحات الاسلامية لتشمل كامل القارة الأوربية ٠

وقد أدرك السلطان محمد الثاني أن نجاحه في فتح هذه المدينة يتطلب منه أن يتفرغ تفرغا كاملا لهذه المهمة ،فعمد الى توثيق علاقاته بالقوى المجاورة، وتجميد الخلافات معهم ،حتى لا تشغله عن هدفه العظيم ،كما كانت تلك رغبة القوى المسيحية المجاورة للدولة العثمانية ،في عقد اتفاقيات المصالحة فقد انتهز يوانيس كومنيوس الرابع امبراطور طرابزون الكاثوليكى والموالى لبابا روما وملك الصرب جورج برانكوفيش ،وأمراء وحكام الافلاق ،ورودس ،وغلطة ،وغيرها من الامارات الأوربية الأخرى مناسبة تسلم السلطان مقاليد الحكم ،فتسابقوا الى ارسال الوفود اليه للتبريك وتقديم الهدايا والتهانى له وعلى أثر ذلك تم عقد معاهدات جديدة ،كما سارع بعضهم الى تجديد المعاهدات القديمة التى كانت بينهم وبين السلطان مراد الثانى ٠

وقد أظهر محمد الثاني في هذه المناسبة مرونة فائقة ليضمن بذلك تحييدهم وتوقفهم عن تقديم أى مساعدة عندما يقرر توجيه ضربته الفاصلة نحو القسطنطينية ، الا أنه فوجىء في نفس الوقت بعصيان أمير سلطنة القرمان

---

(١) عبدالسلام عبدالعزيز فهمى : فتح القسطنطينية ،(دار الكاتب العربى ، الهيئة للتأليف والنشر ،١٩٦٩م) ،ص ٣٦ ٠

(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ٢٥ ٠ ،محمد فريد بك :تاريخ الدولة العلية العثمانية ،ص ١٦١ ٠

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٦٥ ٠

السلجوقية ،فسارع السلطان محمد الثاني الى اخماد هذه الفتنة بعقد الصلح معه.

وبينما كان السلطان في طريقه الى بروسة تواترت اليه الأخبار باعلان عصيان امراء منتشا،وكرميان ،ضد الدولة العثمانية فارسل قواته الي تلك المناطق وتم اخماد هذه الثورة المسلحة [(١)].

ان مثل هذه الثورات قد اغرت الامبراطور قسطنطين الحادى عشر ،فانتهز هذه الفرصة لابعاد الخطر عن القسطنطينية ،فبعث الى السلطان محمد الثاني يهدده بأنه سيمد يد العون الى الأمير أورخان [(٢)]،لمنازعته على عرش السلطنة [(٣)] اذا لم يخصص له بعض المخصصات المالية ،فغضب السلطان غضبا شديدا ،وكان هذا أحد الأسباب القوية حول دفع السلطان لاتخاذ القرار اللازم لفتح القسطنطينية [(٤)]. اضافة الى ذلك أهمية موقع القسطنطينية لدولته ،نظرا لموقعها الجغرافي عند نقطة اتصال آسيا بأوربا عن طريق مضيقي البوسفور والدردنيل اللذين يصلا البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأسود ،بواسطة بحر مرمره ،ولا يزيد عرض ذلك الممر المائي عن كيلوا متر [(٥)]،فهو مركز الاتصال البحرى والبرى بين القارتين أوربا وآسيا وطريق هام للملاحة العالمية [(٦)].

---

(١) زياد أبو غنيمة : السلطان المجاهد محمد الفاتح ،فاتح القسطنطينية (الطبعة الثانية ،عمان ،دار الفرقان للنشر والتوزيع ،١٤٠٤هـ) ،ص ٢٩ — ٣٢ .

(٢) أورخان هذا هو حفيد سليمان بن السلطان بايزيد الثاني الذي لجأ الى القسطنطينية أثناء الصراع على السلطة عقب موقعة أنقره .
— ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ،ص ٦٤ .

(٣) زياد أبو غنيمه : المرجع السابق ،ص ٣٢ . ، أحمد عبد الرحيم مصطفى في أصول التاريخ العثمانى ،ص ٦٥ / ٦٦ .

(٤) ابراهيم بك حليم : المصدر السابق ،ص ٦٤.

(٥) اضيق نقطة في هذا الممر المائى عند اسطنبول حيث ينخفض العرض الى ستمائة وستون مترا .
يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ،ج ١ ،ص ١٣١ .

(٦) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ٣١ .

ولكن الدوافع الحقيقية والكامنة وراء محاولة هذا الفتح لاشك أنها دوافع اسلامية بحتة حافزها بشارة الرسول صلى الله عليه وسلم (١).

لذلك كان سلاطين الدولة العثمانية ، موجهين أنظارهم الى هذا الأمر المهم ، وقد ورد في الحديث الشريف ، عن عبدالله بن أحمد بن حنبل عن أبيه أحمد بن حنبل حدثنا عبدالله بن محمد بن أبي شيبة ، وسمعه أناس عن عبدالله بن محمد بن أبي شيبة قال : حدثنا زيد بن الحباب قال حدثني الوليد بن المغيرة المعافرى قال : حدثني عبدالله بن بشر الخثعمي عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش " . قال فدعاني مسلمة بن عبدالملك فسألني فحدثته فغزا القسطنطينية (٢) . وهذا الحديث أورده السيوطي في الجامع الصغير وعزاه الى الامام أحمد بن حنبل في المسند ، والحاكم في المستدرك ، ورمز له بالصحة بشر الغنوى (٣)، الا أنه لم يرد في الكتب الستة . ولما كانت أحوال المدينة الداخلية في ذلك الوقت مختلة وسيئة من الناحية الاقتصادية ، والدينية للاختلاف المذهبي ، حول توحيد الكنيسة في روما (٤) ، ثم ان بقاء القسطنطينية في أيدى غيرهم من غير المسلمين سوف يكون من شأنه تهديد المواطلات مابين أملاكهم الاوربية والآسيوية ، ففتحها وضمها

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٢ .

(٢) أحمد بن حنبل : مسند الامام أحمد ، بيروت ، المكتب الاسلامي)، ج ٤ ، ص ٣٣٥ .

(٣) محمد المدعو بعبدالرؤوف المناوى : فيض القدير شرح الجامع الصغير ، (الطبعة الثانية ، لبنان ، دار المعرفة للطباعة ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢م) ج ٥ ، ص ٢٦٢.

(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ، ص ٥٠٦.

للدولة العثمانية كفيل بتشديد قبضة العثمانيين على الأراضي التي يحكمونها، ويخلع عليهم المهابة من الدول المسيحية [1] ولينال السلطان محمد الثاني وجيشه الشرف النبوي ليكونوا هم المعنيون بهذا الحديث وقبل الشروع في هذا الفتح فكر السلطان في تحصين بوغاز مضيق اسطنبول حتى يضمن قطع مدد أهل طرابزون وغيرهم من المسيحيين من مديد المساعدة الى اهلي القسطنطينية [2]. ومن أجل ذلك شيد السلطان محمد الفاتح على الشاطئ الأوربي من البوسفور قلعة روملي حصار أو " بوغازكسن حصاري " [3]،وتقع على بعد سبعة كيلوامترات من أسوار القسطنطينية ،مقابل القلعة التي بناها السلطان بايزيد الأول ،وفي أضيق نقطة منه حتى يتيسر له اغلاق هذا المضيق عند اللزوم [4].

ولما علم قسطنطين بذلك وهو البادئ بالتحرش والتهديد باطلاق اورخان المذكور ، ارسل الرسل يتضرع ليصرف السلطان عن بناء هذه القلعة التي أزعجته فعرض عليه الوفد دفع الجزية التي يقررها ،لكن السلطان رفض هذا الاغراء وقال : " لما كنت مغيرا كنتم تظلمون المسلمين ،وكنتم لا ترحمونهم ووالدي حلف بأن يبني قلعة على ساحل الروم ،عندما كان في عزوة وارنه وأنا الآن أنفذ وصية والدي لفتح القسطنطينية ،كما أنني ابني هذه القلعة في أرضي وخارج أرضكم ،وليس لكم الحق في التدخل ، ارجعوا الى امبراطوركم وقولوا له : السلطان

---

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ٦٥ .
(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ١٦١ .
(٣) أي القلعة قاطعة البوغاز .
- يلماز اورتونا : تاريخ الدولة العثمانية ،ج ١ ،ص ١٣١ .
(٤) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ،ج ١ ،ص ٧٨ .
،محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٦١ .
،علي حسون : المرجع السابق ،ص ٣٣ .
، احمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ،ص ٦٦.
،عبد السلام عبد العزيز فهمي : فتح القسطنطينية ،ص ٣٨ .

الحاضر ليس كمثل سلفه ، بل مصمم ومقدم على الفتح ، والآن نسمح لكم بالرجوع لابلاغه ، أما المرة الثانية سأسلخ جلد من أتاني حيا[١].

وبعد ثلاثة أشهر من العمل أكمل السلطان بناء القلعة في شكل مثلث سمك جدارها عشرون قدما ، وفي كل زاوية منها برج ضخم مغطى بالرصاص سمكه اثنان وثلاثون قدما[٢]. ثم قام السلطان بتفقد القلعة التي بناها ، وجهزها بالجيش والمعدات الحربية[٣]. فعين فيروز أغا قائدا للقلعة الجديدة ، وضم اليه أربعمائة جندى من خيرة جنود الانكشارية[٤]، ثم أصدر أوامره ألا يسمح لاية سفينة أجنبية عبور المضيق الا بعد خضوعها للتفتيش الدقيق ، مع أخذ الرسوم المحددة لذلك وان حاولت المرور بالقوة يطلق عليها النار[٥]. ويعنى ذلك أن العثمانيين استطاعوا احكام سيطرتهم على مدخل البوسفور ومن شاطئيه الأسيوى والأوربي ، كما ضمنوا منع وصول أية امتدادات الى القسطنطينية وخاصة من مملكة طرابزون النصرانية[٦]. فأصبح العثمانيون منهاتين القلعتين يسيطرون سيطرة كاملة على الطرق الشمالية التي تؤدى الى مدينة القسطنطينية[٧]. وبهذه الخطة المحكمة فان السلطان محمد الثاني يعتبر بحق مؤسس نظام المضائق

---

(١) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت علية عثمانية ،ج ١ ، ص ٧٨.
(٢) عبد السلام عبد العزيز فهمي : فتح القسطنطينية ،ص ٣٨ ، زياد أبوغنيمة : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، فاتح القسطنطينية ، ص ٣٢ .
(٣) كامل باشا : المصدر السابق ،ج ١ ،ص ٧٩.
(٤) عبد السلام عبد العزيز فهمي : المرجع السابق ، ص ٤٠.
(٥) كامل باشا : المصدر السابق ،ص ٧٩ ، عبد السلام عبد العزيز فهمي : المرجع السابق ،ص ٤٠ .
(٦) زياد أبوغنيمة : المرجع السابق ، ص ٣٤.
(٧) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ٦٠ .

والقدرة على التحكم بها في العصور الحديثة ، وبعد أن اطمأن السلطان محمد الثاني على سلامة خطته الحربية لفتح القسطنطينية عاد الى أدرنه وذلك في أوائل عام ٨٥٦ / ١٤٥٢م(١). فحول مدينة أدرنه الى مصانع هائلة للأسلحة وجعلها مركزا لتجمع جيوشه القادمة من كل أقطار دولته ، ومخزنا كبيرا للمعدات والذخائر والآلات النارية والمدافع التى تحتاجها تلك الحرب (٢).

وعندما أدرك قسطنطين نوايا السلطان محمد الثاني ، لفتح مدينته ، استعد للدفاع عنها ، فأمر باغلاق أبوابها (٣)،ثم بعث الى جميع ملوك الغرب وأمرائه يستصرخهم ويحثهم على نجدته ومساعدته ، كما بعث للبابا نقولا الخامس يستنصره وفي نفس الوقت يحذره وينذره اذا سقطت القسطنطينية في يد العثمانيين فانهم سيهجمون بعدها لا محالة على ايطاليا نفسها(٤).

لذلك كثرت البعثات التي أرسلتها القسطنطينية الى أوربا تطلب الغوث والنجدة ولكن كان هناك بعض المصاعب التي عرقلت نجاح هذه البعثات وأهمها الاختلاف المذهبي ، والتعصب الديني ، بين الكنيستين الشرقية الأرثوذكسية ، والغربية الكاثوليكية ، ويعني ذلك أن النزاع كان على أشده بين بيزنطة وروما . ولقد بذلت مساع دبلوماسية أوربية هائلة للتوفيق بين الشرق البيزنطي والغرب الروماني ، رغبة في اتحاد قوتهم أمام المسلمين العثمانيين (٥).

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٣١-١٣٢.

(٢) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ٦٠ - ٦١.

(٣) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ،ج١ ،ص ٧٩ ، يلماز أوزتونا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ، ص ٦٦.

(٤) عبد السلام عبد العزيز فهمي : المرجع السابق ، ص ٣٧ ، أحمدعبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٦٦.

(٥) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق، ص ٥١ - ٥٢.

وقد كانت النتيجة الحتمية لبناء قلعة " روملي حصار " هي محاولة القسطنطينية هدمها ومن ثم الاعتداء على عمالها مما جعل السلطان محمد الثاني يعلن الحرب رسميا على الامبراطور قسطنطين ، فأخذت حامية الحصن تغير بانتظام على الجهات المجاورة ، فأدرك الامبراطور البيزنطي أن محاولته للمحافظة على مركزه بأى ثمن لن يفيده شيئا ، فلا شيء يرضي العثمانيين غير فتح القسطنطينية ونشر الاسلام فيها والقضاء على ملكه نهائيا[١]، ولذلك أمر الامبراطور باغلاق أبواب المدينة [٢]، والقبض على كل العثمانيين الأتراك الموجودين داخل الامبراطورية . عندها أعلن السلطان محمد الثاني الحرب لفتح القسطنطينية وخرج معه جيش عظيم يبلغ نحو خمسين ألفا ونزل بهم بجوار أسوار القسطنطينية لكنه عندما وظل الى هناك عاد مسرعا الى أدرنه وكان غرضه من هذه الزيارة التي استغرقت ثلاثة أيام ترتيب بعض أموره في عاصمة ملكه كما أنه قام باستكمال دراساته عن موقع القسطنطينية واستعداداتها ، وعلى هذا الأساس بنى السلطان استعداده ، واكتمل تخطيطه لحصار المدينة من كل صوب . ثم عاد الى مواقع تجمعات جيشه حول أسوار القسطنطينية [٣] .

بدأ السلطان محمد الفاتح تحركه بضرب المواقع القريبة والمجاورة للقسطنطينية بقصد اضعافها حتى فقدت المدينة كل اتصال بالبلاد المجاورة لها فكانت عليها أن تعتمد فقط على المؤن والذخائر والرجال الموجودة بداخلها [٤].

---

(١) عبد السلام عبد العزيز فهمي : فتح القسطنطينية ،ص ٤٠ ، محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ٦٤ - ٦٥ .

(٢) عبد السلام عبد العزيز فهمي : المرجع السابق، ص ٤٠-٤١ ، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ، ص ٥١٣.

(٣) محمد مصطفى صفوت: المرجع السابق ، ص ٦٦ - ٦٨ ، عبد السلام عبد العزيز فهمي : المرجع السابق ،ص ٤١.

(٤) عبد السلام عبد العزيز فهمي : المرجع السابق ، ص ٤٤ .

وظهر الجيش أمام أسوار القسطنطينية في غرة ربيع الثاني سنة ٨٥٧هـ ، الموافق للخامس من شهر ابريل سنة ١٤٥٣ م ، ويرافقه العلماء الذين يدعون له بالنصر منظمين تنظيما رائعا ، وبدأت الفرق بجانب الفرق ، في أعلامها وطبولها ، ومدافعها المكونة من أربع عشرة بطارية ، واثنين وستون مدفعا ، ونصب السلطان محمد الثاني خيمته على الشاطئ الأيسر ، محيطا بالخنادق ، أمام الباب المشهور بباب القديس رومانوس فسلطت المدافع البعيدة المدى على ذلك الباب [١] لدك سور القسطنطينية ، وكان المدفع الكبير يطلق ثماني طلقات في اليوم ، لأن تعبئته تأخذ ساعتين من الوقت [٢]، ثم اتجه السلطان نحو القبلة وصلى ركعتين ، وصلى معه الجيش كله وبدأ من ذلك الوقت الحصار الفعلي للقسطنطينية [٣] .

وقد أعد السلطان في فترة الاستعداد أسطولا عظيما في مدينة غاليبولي التي هي قاعدة العثمانيين البحرية في أوربا ، وكان مكونا من ثلاثمائة وخمسين سفينة ، فأمر بعبوره الى البوسفور ، حيث ألقى مراسيه هناك في بشكطاش ، وانضمت اليه بعض السفن العثمانية من البحر الأسود ، فأضاف منظره الى منظر الجيوش المحاصرة روعة وقوة بحرية للقوى البرية [٤].

وهذا أول اسطول عثماني متكامل بالمعنى الصحيح ، وقد كان ظهوره مصدر ذعر لسكان المدينة المحاصرة [٥] حيث مهمته تنحصر وتحدد في منع وصول التموين الغذائي والحربي عن طريق البحر الى المدينة ومهاجمة السفن التي تحرس السلسلة المعلقة على القرن الذهبي ، ومحاولة الاقتحام على هذا القرن الذهبي والقضاء على السفن الراسية فيه ، وبالتعاون مع الجيش البرى

---

(١) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ٧٤ - ٧٥ .
(٢) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، ج ١ ، ص ٨٢.
(٣) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ٧٥.
( ) - عبد السلام عبد العزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٤٦.
(٤) عبد السلام عبد العزيز فهمي : المرجع السابق ، ص ٤٧.
(٥) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ٧٦ .

في حصار مدينة القسطنطينية (١) ،فحوصرت القسطنطينية من جميع الجهات ماعدا ناحية القرن الذهبي التي كانت تحميه السلسلة والاسطول البيزنطي الموجود في الميناء من خلفها(٢).

وفي الوقت نفسه قام الاسطول العثماني بمحاولة تحطيم السلسلة الواقعة في مدخل القرن الذهبي لعبورها الى ميناء القسطنطينية ، ولكن السفن الرومية والايطالية التي تحرس هذا الموقع ، صبت قذائفها على السفن العثمانية ، فصدتها عن محاولاتها (٣) ، كما لم تنجح المحاولة العثمانية في صد خمس سفن نصرانية كانت تحمل مؤنا وبضائع وسلاح للقوات المحاصرة حيث ظهرت فجأة في بحر مرمرة ، فاستطاعت بذلك الافلات من قبضة السفن العثمانية وهذا يعود الى أن هذه السفن متقدمة في الصنع أكثر من سفن المسلمين ولكن السلطان محمد الثاني لم تلن عزيمته أمام تلك النكسات ، وهذه مـن أبرز الصفات التي يتحلى بها العثمانيون ، اذ أن النكسات لاتزيدهم الا تصميما جديدا (٤) ففكر في طريقة جديدة لادخال سفنه الى داخل القرن الذهبي لاتمام الحصار برا وبحرا ، بعدما فشلت المحاولات في تحطيم السلسلة ، ولاحت فيبال السلطان فكرة جديدة وبارعة ، تتلخص في نقل السفن عن طريق البر ولمسافة ميلين من بحر مرمره (في بشكطاش) حتى مياه القرن الذهبي ، ومن خلف مستعمرة غلطة الجنوبية ، ولم تكن المنطقة سهلا بل كانت وهادا وتلالا ، فأمر السلطان بتعبيد الأرض وتسويتها - ثم فرشت بألواح الخشب التي دهنت بالزيت والشحم لسهولة انزلاق المراكب عليها ، وبهذه الكيفية أمكن نقل نحو سبعين سفينة في ليلة واحدة الى داخل الخليج وتغطية لذلك العمل عن أعين العدو ظلت المدفعية تطلق قذائفها طوال ذلك

---

(١) عبد السلام عبد العزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٤٨ ،
- محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ٧٧ .

(٢) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ٧٨.

(٣) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ،ج ١ ، ص٨٢.
، عبد السلام عبد العزيز فهمي : المرجع السابق ،ص٥٧.
،علي حسون :تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٦.

(٤) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣٦.

اليوم من المرتفعات خلف أسوار غلطة ، فتقع هذه القذائف في القرن الذهبي في عملية تمويهية حتى اندفعت هذه السفن بسرعة الى أعلى الميناء حيث يتوفر لها الحماية البرية (١)، ومن مظاهر هذا الاعجاز أن هذه العملية تمت في ليلة واحدة دون أن يشعر بها العدو (٢).

أحدثت هذه العملية انهيارا معنويا للبيزنطيين ، فقد أصبحوا يوم ٨٥٧/٦/١٥ هـ الموافق ١٤٥٣/٥/٢٤م على منظر الخليج وهو يموج بقطع الأسطول العثماني ، وهذا ماعبر عنه المؤرخ البيزنطي الأمير دوكاس حيث قال: " مارأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق ، محمد الثاني يحول الأرض الى بحار ، وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلا من الأمواج ، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الاسكندر الأكبر "(٣) .

فانتشرت بين أهل القسطنطينية مقولة جديدة تقول : " ستسقط القسطنطينية عندما ترى سفنا تمر على اليابسة "(٤).

وفي يوم ٨٥٧/٥/١٨ هـ الموافق ٢٧ مايو سنة ١٤٥٣م أمر السلطان الفاتح جنوده بالصيام قبل الهجوم ، تطهيرا لنفوسهم وتقوية لعزيمتهم،ثم قام بتفقد الأسطول والسور من بحر مرمرة الى القرن الذهبي ،بعين فاحصة ، وما أحدثته المدافع من ثغرات ، وماهي المواقع التي لازالت في حاجة الى القصف والهدم (٥) ، فقام بتنظيم الفرق التي ستقوم بالهجوم العام والأخير على كل المحاور ، ثم أمر مدفعيته الامعان في تحطيم الأسوار ، ودكها دكا عند وادى ليكوس لأن هذه النقطة هي أهم النقط التي يعتبر الاستيلاء عليها بمثابة تأشيرة دخول الى المدينة .

---

(١) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ، ص ٦٣
، يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ،ج ٢ ، ص ٥٦.
،علي حسون: تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٦.
،عبدالسلام عبدالعزيز فهمي / فتح القسطنطينية ، ص ٦٢.

(٢) يلماز اوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ،ج ١ ،ص ١٣٥.

(٣) يلماز أوزتونا : المصدر السابق ،ج ١ ، ص ١٣٥.

(٤) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : المرجع السابق ، ص ٦٣.

(٥) علي حسون : المرجع السابق ،ص ٣٩.

وزار السلطان كل أقسام جيشه يشجعهم ويحثهم على التضحية ، ويقوى فيهم الثقة بالنفس والنصر ، وأمر كل جندى بالمحافظة على موقعه ، وتوعد كل من تحدث له نفسه مخالفة الأوامر أو الاخلال بالنظام ، أو النكوص عن المعركة بالفرار القتل وحذر الجنوبيين المقيمين في غلطة أن يلتزموا بالحياد وعدم تقديم أى مساعدة للمدينة المحاصرة [1].

عند ذلك أعلن السلطان في جيوشه بالاستعداد للهجوم الاخير في ٢٠ جماد الاول سنة ٨٥٧ هـ الموافق ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م ، وخطب فيهم باعثا فيهم الحماس ووعدهم في تمام النصر باقطاعهم الأراضي ، وبذل العطايا ، والمكافآت ، وفي الليلة السابقة التي سبقت اليوم المحدد للهجوم ، أشعل الجنود العثمانيون الأنوار أمام خيامهم للاحتفال بالنصر المحقق ، وظلوا طوال هذه الليلة يهللون ويكبرون حتى لاح الفجر ، فأدى السلطان صلاة الصبح ، وامتطى جواده وتقدم الى الصف الأمامي فأصدر أوامره بالهجوم[2] فتقدمت الجيوش وحاصرت أسوار المدينة ووضعوا عليها السلالم وأخذوا يتسلقون الى داخل المدينة فدخلوا ورفعوا العلم العثماني [3].

وعندما رأى السلطان محمد الثاني العلم يرفرف فوق أسوار المدينة ترجل عن حصانه وخر ساجدا على الأرض للرحمن ، حامدا وشاكرا لله سبحانه وتعالى على هذا النصر وتحقيق نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنذ تلك اللحظة نال محمد الثاني شرف " الفاتح "[4] .

لذلك اندفع المهاجمون المسلمون من كل صوب نحو الأسوار المثلومة للاجهاز على البقية الباقية من المدافعين البيزنطيين [5]، الذين تخلوا عن

---

(١) عبد العزيز عبد السلام فهمي :فتح القسطنطينية ، ص ٧٧.
(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٦٤.
،كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ،ج ١ ،ص ٨٥.
(٣) برنارد لويس : اسطنبول ، ص ٢٢.
(٤) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ،ج ١ ،ص١٣٩.
،علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٠.
(٥) برنارد لويس : المرجع السابق ، ص ٢٢.

عن قسطنطين، وانهزموا يبحثون عن طريق النجاة ، فلما رأى الامبراطور قسطنطين هذه الحالة التي حلت بجنده ترجل عن فرسه وسل سيفه ،وهجم على الجنود العثمانيين فقاتل حتى مات في ساحة المعركة (١)، فدخل العثمانيون وفتحت لهم جميع المنافذ والأبواب بعد فرار حاميتها وحماتها (٢).

وهكذا انتهى فتح القسطنطينية ، فوقف الجيش بنظام الصفوف أمام أياصوفيا في انتظار السلطان ، ولم تكن صلاة الظهر قد حانت بعد ،فلم يعتد الجيش على أحد من عشرات ألوف البشر المجتمعين في أيا صوفيا ولم يمسهم بأدنى سوء ، ملتزمين بوصاية سلطانهم ، ولكنهم في انتظاره ، ليتلقوا أوامره بشأن هذا الموقف ، فدخل السلطان محمد الفاتح الى المدينة وقت الظهر واتجه الى أياصوفيا فخورا بأنه أصبح الفاتح للقسطنطينية فنال بذلك شرف الفتح العظيم ، كما أنه أصبح بذلك سلطان الروم، وكان الأهالي في القسطنطينية يستقبلونه بالتصفيق أما الجيش فاستقبله بالتهليل والتكبير . وعند وصوله الى أيا صوفيا أمر الرهبان باخلائها (٣) ، ثم قام بتفقدها وأمر بأن يؤذن فيها بالصلاة اعلانا بجعلها مسجدا جامعا للمسلمين (٤). ثم صلى هو وجيشه الظهر . وفي الوقت نفسه أمر بالبحث عن جثة الامبراطور ، وأحضرها الى الرهبان وأمر بدفنه (٥) .

وبعد تمام الفتح على هذه الصورة ، أعلن في كافة الجهات بأنه لايعارض في اقامة شعائر المسيحيين بل انه يضمن لهم حرية شعائرهم وحفظ أموالهم وأملاكهم فلما رأى المسيحيون هذا التسامح عاد ممن هاجر الى القسطنطينية ، فأعطاهم نصف الكنائس ، وجعل النصف الآخر جوامع للمسلمين

---

(١) كامل باشا: تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ،ج ١ ، ص ٨٦.
، برنارد لويس : استانبول ، ص ٢٢.
(٢) كامل باشا: المصدر السابق ، ص ٨٦.
، عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٨٣.
(٣) يلمازا اوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ،ج١ ،ص ١٤٠.
(٤) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٦٥.
،برناردلويس : اسطنبول ،ص ٢٣.
(٥) يلماز اوزتونا: المصدر السابق ، ص ١٤١.

ثم جمع رجالات دينهم لينتخبوا بطريقا لهم فاختاروا جورج سكولاريوس واعتمد السلطان هذا الانتخاب ثم جعله رئيسا لطائفة الكاثوليك ، واحتفل بتثبيته كما كان يعمل البطارقة أيام الروم المسيحيين ، وأعطاه حرسا ، ومنحه حق القضاء بالقضايا المدنية والجنائية بكافة أنواعها ، في مقابل دفع الجزية والخراج [1]، ثم قام بزيارة غلطة بعد خمسة أيام ، وأمر بتأمين أهلها على أموالهم وحياتهم على دفع الجزية ، وهكذا تم فتح القسطنطينية [2].
فسر العالم الاسلامي سرورا لايوصف بهذا الفتح ، وانبرت القاهرة أياما طويلة باقامة الافراح والاحتفالات بهذه المناسبة السعيدة ، فأرسل السلطان المملوكي في مصر وسلطان الهند الجنوبية ، وحكام مسلمون عديدون سفراء خاصين لتهنئة السلطان محمد الفاتح ، واعتبر هذا الفتح أكبر حدث في التاريخ العثماني ، فقد سجل هذا الفتح وبشر العالم الاسلامي بصورة قطعية بأن الدولة العثمانية سائرة في طريق الدولة العظمى .

أما أوربا فقد أصابها نبأ سقوط القسطنطينية في يد المسلمين ،فانتاب المسيحيين الشعور بالذعر والفزع ، وتجسم لهم خطر المسلمين ، وتهديدهم لأوربا المسيحية وأخذ بعضهم يستنفر بعضا ، على ترك الخلافات ، وعقد الاجتماعات بين الأمراء والملوك ، فانبعث فيهم النزعة الصليبية ضد الدولة العثمانية [3]
وماكانت البابوية زعيمة المسيحية لتنصرف الى اليأس ، أو تخلد الى السكون ، مهما كانت كارهة للأرثوذكس ، فهي لاتسمح بقضاء المسلمين على الامبراطورية البيزنطية ، وفي نفس الوقت تخشى اعتداء العثمانيين على البلاد المجاورة لهم التي تتبع للنفوذ البابوى الديني . ومن هنا تحولت فكرة الصليبية في محاولة انتزاع الأراضي المقدسة من المسلمين الى صراع دفاعي يستهدف منه

---

(١) محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٦٥.
، Halil Inlik:The Ottoman Empire, p. 57.
، سيرتوماس .و. ارنولد : الدعوة الى الاسلام ،ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون ، (الطبعة الثالثة ، القاهرة ،مكتبة النهضة المصرية ،١٩٧٠م) ،ص ١٧٠.
(٢) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٠.
(٣) عبد السلام عبد العزيز فهمي : فتح القسطنطينية ،ص ٩٢.
، اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ، ص ٥١١-٥١٢.

انقاذ أوربا الكاثوليكية من يد الدولة العثمانية المسلمة (١).

فكان البابا " نيقولا الخامس " أشد الناس تأثرا بنبأ سقوط القسطنطينية فجد في توحيد الدويلات الايطالية، وتأليبها على قتال العثمانيين، وترأس مؤتمرا عقد في روما، أعلنت فيه الدول المشتركة عزمها على التعاون ضد الخطر الاسلامي المشترك، وكاد الحلف الصليبي أن يتم، لولا أن البابا اشتد عليه المرض فمات كمدا أثر الصدمة في نبأ سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين، فمات في سنة ٨٥٩هـ الموافق ١٤٥٥م (٢).

لذا حاول البابا " بيوس الثاني " الذى تولى البابوية بعده أن يقوم بكل ما أوتي من مقدرة خطابية ومهارة سياسية في تأييد الفكرة الصليبية الجديدة، وحاول توحيد أوربا ضد العثمانيين، فتركزت مجهوداته في عنصرين هامين أولهما: أنه حاول أن يقنع العثمانيين باعتناق الدين المسيحي ولم يقم بارسال بعثات تنصيرية، بل اكتفى بارسال خطاب الى السلطان محمد الفاتح، يطلب منه أن يعضد المسيحية كما عضدها من قبله قسطنطين، وكلوفس، وأن يكفر عن خطاياه باعتناق المسيحية مخلصا، ولم يكن معقولا نجاح هذه المهمة ففشل في خطته الاولى، عند ذلك لجأ الى خطته الثانية: وهي التهديد والوعيد واستعمال لغة القوة عن طريق اقناع الدول المسيحية بتكوين حملة صليبية جديدة ضد الدولة العثمانية على الأخذ بنصرة المسيحية (٤).

لكن الدول الاوربية والجمهوريات الايطالية، ماكانت لتقوم بتنفيذ مثل هذا المشروع، على الرغم من الخطر الذى يهدد معظم أقطارها، مع أن

---

(١) محمد مصطفى صفوت: فتح القسطنطينية، ص ١٣٨-١٣٩.

(٢) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي: فتح القسطنطينية، ص ٩٢.

(٣) زياد أبوغنيمة: السلطان المجاهد محمد الفاتح، فاتح القسطنطينية، ص ١٠٨-١٠٩.

(٤) محمد مصطفى صفوت: المرجع السابق، ص ١٣٩.

فكرة القيام بحملة صليبية مازالت حية ، فقد وعدت الدول بالاستعداد لتحقيق فكرة البابا ، وعندما جاءوقت الجد اعتذرت دول اوربا لمتاعبها الداخلية [١].
وماكانت اوربا التي ذهبت وحدتها تستطيع الوقوف أمام الدولة العثمانية ، ففي القسطنطينية والبوسفور والدردنيل وضع العثمانيون أقدامهم في موقع استراتيجي مهم من العالم ، جعل تقدم روسيا أو نمو النمسا من ناحية الشرق أمرا مستحيلا ، كما سيطروا أيضا بذلك على معظم الطرق البرية والبحرية المهمة بين الشرق والغرب [٢].

لهذا اعتبرت اوربا هذا الفتح العثماني فاصلة في مصير الدولة البيزنطية ، وفي مصير عاصمتها القسطنطينية ، وتثبيت أقدامها كارثة لايضاهيها كارثة ، في ذلك الجزء من العالم .فولدت في تلك اللحظة المسألة الشرقية التي شغلت أوربا في ذلك الوقت ، ولاتزال تشغلها . كيف تستطيع أوربا وقف تقدم الاسلام ونشره الى الاقطار الأوربية ؟ ثم لماذا عاد الاسلام مرة أخرى يتراجع منطلقا من هذه الديار؟ وكيف تعمل أوربا على تقسيم ممتلكاته ؟

وماكانت أوربا تجد لهذه الأسئلة جوابا نهائيا [٣] ، لقوة المسلمين الجهادية الضاربة المتمثلة في الدولة العثمانية التي أجبرت أوربا عندما وقفت عاجزة عن انقاذ سقوط القسطنطينية ، جاثية

---

(١) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ١٣٩.

(٢) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ٩٤ - ٩٥.

(٣) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ١٤٢.

على ركبتيها فازدادت حيرتها عندما شهر الفاتح سيفه لمواطلة الجهاد نحوها ، حينما رأى استياءها وثورتها العارمة ، ومؤامرات باباواتها وامرائها في تشكيل حلف صليبي جديد ، لصد الدولة عن استمرار الفتح في أوربا ونشر الاسلام بها ، والذى كان هدف الدولة منذ تكوينها (١).

وفي سنة ٨٥٩ هـ الموافق ١٤٥٤ م أعاد السلطان الكرة لفتح بلاد الصرب ومر من جنوبها الى شمالها دون أن يلقى أى معارضة ، حتى وصل الى مدينة بلغراد عاصمة بلاد الصرب ، الواقعة على نهر الدانوب ، فحاصرها من جهة البر والنهر ، فدخلها قبل الحصار هونياد القائد المجرى ، ودافع عنها دفاعا شديدا حتى يئس السلطان من فتحها ، فرفع الحصار عنها في سنة ٨٥٩هـ الموافق سنة ١٤٥٥م ، الا أنهم استطاعوا من اصابة هونياد بجراح بالغة مات هذا القائد بسببها ، وارتاح المسلمون من شره لقوته وشجاعته .

ولما علم السلطان بموته أرسل محمود باشا الصدر الاعظم ، لاتمام فتح بلاد الصرب فقد أتم فتحها في سنة ٨٦٤ هـ / ١٤٦٠م .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٥.

، يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، جـ ١ ،ص ١٤١.

، Halil Inalick: The Ottaman Empire,p.56.

وفي هذه الأثناء تم فتح بلاد المورة سنة ٨٦٤ هـ الموافق سنة ١٤٦٠م، ثم بلاد اليونان، فحول السلطان انظاره الى آسيا، لفتح ماتبقى منها [١]. فسار بجيشه وهاجم ميناء آما ستريس، وكان مركزا هاما لتجارة أهل جنوه ولكون سكانها تجارا، فكان لايهمهم الا المحافظة على أموالهم، فقد فتحوا أبواب المدينة ودخلها العثمانيون بدون حرب، ثم قصد مدينة طرابزون ودخلها بدون مقاومة، وقبض على ملكها وأولاده وأرسلهم الى القسطنطينية، ثم ضمت بلاد الفلاخ الى الدولة وفي سنة ٨٦٦ هـ الموافق ١٤٦٢م حارب السلطان بلاد البوسنة [٢] لامتناعها عن دفع الخراج، فتدخل ملك المجر لانقاذ بوسنة من العثمانيين، وكان هذا التدخل من اسباب ضم البوسنة الى الدولة كباقي ولايات الدولة وقد دخل أكثر شبابها تطوعا في الجيش الانكشاري، واسلم اغلب سكانها [٣].

وعندما أراد السلطان فتح بلاد البغدان سنة ٨٧٩ هـ الموافق ١٤٧٥م، ارسل جيشا الى هناك، وبعد حرب عنيفة قتل فيها الكثير من الجيشين المتحاربين، عادت الجيوش العثمانية بدون فتح هذا الأقليم [٤]، حينئذ عزم السلطان على فتح بلاد القرم حتى يستعين بفرسانها المشهورين في القتال لمحاربة بلاد البغدان، فأرسل اليها عمارة بحرية، فاستطاعت جيوش الدولة من فتحها، ثم واصلت العمارة البحرية سيرها ففتحت آق كرمان، ثم واصلت طريقها لفتح بلاد البغدان، وبينما كان السلطان يسير بالجيش مجتازا به نهر الدانوب، اذ تقهقر امامه جيش البغدان لعدم استطاعته الحرب في البر، فتبعه الجيش العثماني حتى توغل خلفه في غابة كثيفة يجهل بمفاوزها، عندئذ انقض عليه الجيس البغداني، وهزم الجيش العثماني [٥].

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية، ص ١٦٦ - ١٦٨.
(٢) البوسنة : تشكل البوسنة والهرسك اليوم أحد مقاطعات يوغسلافيا التي يتركز فيها المسلمون.، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية، ص ٤١، حاشية رقم (٢).
(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٦٩ - ١٧٠.
(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٧٣.
، علي حسون : المرجع السابق، ص ٤١.
(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٧٣ - ١٧٤.

اتجه السلطان بعد ذلك الى فتح بلاد البنادقة سنة ٨٨١هـ الموافق سنة ١٤٧٧ م ،فخاف البنادقة على مدينتهم ،وابرموا الصلح معه تاركين له مدينة كرويا [(١)] ثم مدينة أشقودره [(٢)] ،وبعض القلاع الأخرى في المنطقة ،وفي سنة ٨٨٤ هـ الموافق سنة ١٤٨٠ م ، استطاعت الدولة من فتح بعض الجزر اليونانية ،ثم واصل الجيش مسيره لفتح اورترانت [(٣)] بايطاليا . التى عزم السلطان على فتحها مهما تكن الظروف ،وأقسم بأن يربط فرسه في كنيسة القديس بطرس بمدينة روما مقر البابا ففتحت مدينة اوترانت عنوه في ٤ / ٦ / ٨٨٥هـ الموافق أغسطس / ١٤٨٠م . فاهتزت ايطاليا ،في الوقت الذى أرسل فيه السلطان عمارة بحرية أخرى لفتح جزيرة رودس [(٤)] التى كانت مركزا لرهبنة القديس حنا الارشليمى ،وكان رئيسها بيير الفرنساوى الأصل ،وكانت هذه الجزيرة محصنة تحصينا منيعا ،فحاصرها العثمانيون واستمر حصارها ثلاثة أشهر ،حاول خلالها العثمانيون الاستيلاء عليها ..ولكنهم تقهقروا لبسالة أهلها ودفاعهم عنها ، فرفعوا الحصار [(٥)] .

وفي يوم ٤ / ربيع أول / ٨٨٦ هـ الموافق ٣ / مايو / ١٤٨١م توفي السلطان محمد الفاتح بعد أن أكمل مقاصد أجداده في فتح القسطنطينية ،ثم مملكة طرابزون الرومية ،والصرب والبوسنة والبانيا ،وجميع أقاليم آسيا ولم يبق في بلاد البلقان

---

(١) كرويا : الى الجنوب من مدينة اشقودره . وتكتب هكذا (Kruja)
ـ محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية، ص ١٧٤ ،حاشية رقم (١) .

(٢) اشقودره : مدينة قديمة ،كانت تابعة للصرب ثم انتقلت الى البنادقة ويقال أن مؤسسها اسكندر المقدومي ،ثم انتقلت من ذلك اليوم الى العثمانيين ولا تزال حتي اليوم .
ـ محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٧٥ ،حاشية رقم (١) .

(٣) : تقع على ساحل ايطاليا في أقرب نقطة ،ساحل البانيا وفي هذه المنطقة الضيقة من بلاد من بحر الادرياتيك ،تصله مع البحر المتويط يعرف باسم مضيق اترانت.
ـ على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ٤١ ،حاشية رقم (٢)

(٤) رودس : جزيرة قريبة من شاطىء آسيا الصغرى طيبة الهواء ،فتحها السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٢٢ م . ولا زالت تابعة للدولة حتى الآن .
ـ محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٧٦ ،حاشية رقم (٢) .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٧٤ – ١٧٦ .

الا مدينة بلغراد التابعة للمجر وبعض الجزر التابعة للبنادقة ،وقد دفن في اسطنبول [(١)]،وبموته انقذت ايطاليا خاصة من الخطر العثماني وأوربا بصفة عامة ويعتبر أول من ثبت اركان الدولة في أوربا [(٢)].

ولكنه مات من أثر السم الذى دسه له بصورة تدريجية العميل اليهودى البندقي أحد أطبائه الخاصيين المسمى (Master Lacopo) الذى ادعى أنه اهتدى الى الاسلام ويسمى يعقوب باشا ،وكان مدسوسا لقتله ،فمزق الاتراك العثمانيون هذا البندقي اليهودى ،قبل أن يتسلم مكافآته من أسياده ،فعلمت البندقية خبر موت الفاتح بعد ستة عشر يوما من الحادث ،كانت الرسالة التي أوصلها حامل البريد السياسي لسفارة البندقية في اسطنبول تحتوى هذه الجملة " مات النسر الكبير " فجرت المراسيم لمدة ثلاثة أيام بلياليها، بأمر البابا دقت معها أجراس كافة الكنائس الأوربية [(٣)].

بعد أن أشاد السلطان محمد الفاتح دولة عظيمة ،كانت من أقوى الدول في القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ،واتخذ عاصمة بلاده سيدة البلقان أسطنبول ، التى كانت تشرف على ممتلكاتهم الآسيوية والأوربية ،على البر والبحر فمهدت فتوحات السلطان الطريق لفتوح العثمانيين من بعده في المجر وأواسط اوربا ،وفي الشام والعراق [(٤)] ،والحجاز فأرسي بذلك قواعد الدولة العثمانية المتينة [(٥)].

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ١٧٦ - ١٧٧ .
،على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ٤٠ - ٤١ .
(٢) احمد عبدالرحيم مصطفي : في أصول التاريخ الاسلامي ،ص ٧٢ .
،محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ،ص ١٧٠ .
(٣) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ،ج ١ ،ص ١٧٧ .
(٤) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ،ص ١٧٣ .
(٥) يلمازاوزتونا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٧.

الفصل الثاني : الدولة العثمانية في عصرها الثاني

أ - إتساع الدولة وكثرة مشكلاتها .

ب - الخلل : السلاطين - العلماء - الإنكشارية - التوقف والركود .

جـ - الخطة الجديدة للعالم النصراني نحو الدولة : فشل الحلول العسكرية ، الغزو الفكري ، سياسة الرجل المريض .

أ - اتساع الدولة وكثرة مشكلاتهـا :

هكذا بعد أن بينا قوة الدولة وعظمتها وقهرها لأوربا ،وتراجع أوربا للدفاع عن نفسها ، خوفاعلى سقوط روما ، مقر البابوية الكاثوليكية أمام جهاد العثمانيين ، فلابد أن نجمل الاحداث التي أعقبت سقوط القسطنطينية وبعض المدن اليونانية والايطالية ، التي قادت الدولة الى العالمية ، على محاور القارات الثلاث ، آسيا وافريقيا وأوربا ، في عهدي السلطان سليم الأول بن بايزيد الثاني ، والسلطان سليمان الأول بن سليم الاول ، لنصل مع القارىء الى اتساع رقعة الدولة مما نتج عنه تعدد مشكلاتها ، مرورا بالسلطان بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح وهو كما يلي :

تسلم بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح مقاليد السلطة في الدولة بعد وفاة والده سنة ٨٨٦ هـ الموافق ١٤٨١ م ، وكان هذا السلطان ميالا للسلم ، الا أنه اضطر لخوض بعض المعارك الداخلية والخارجية ،ولكن بالرغم من ذلك فانه لم تكن فيه همة الفاتح أو طموحاته (١) .

وفي عهده بدأت العلاقات السياسية مع بعض دول أوربا ، ومنها قيام الاتصالات الودية مع مملكة بولونيا بعقد معاهدة سنة ٨٩٦ هـ الموافق ١٤٩٠م ، ولكنها لم تلبث مدة حتى تكدر الصفو بين الدولتين ، بسبب ادعاء كل منهما حق السيادة على بلاد البغدان (٢) ، فأغار ملك بولونيا عليها ، وقام العثمانيون بطرد المجر منها ،والغارة على حدود بولونيا بمساعدة أمير البغدان الذى قبل حماية الباب العالي (٣) . كما وصل الى اسطنبول أول سفير روسي ومعه جملة من الهدايا وذلك في سنة ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م . وفي الوقت نفسه

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٢.
، أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٧٣ .
(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ١٨٣-١٨٤.
،على حسون : المرجع السابق ،ص ٤٢ .
(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٨٤.

بدأت بعثات الدول الأوربية تتزاحم في العاصمة العثمانية الكل منهم يجتهد فيمحالفة الدولة العثمانية للاستعانة بها على أعدائها ،وقطع العلاقات مع من خالفها (١) .

لهذا تميز عهد السلطان بايزيد الثاني ببدء العلاقات الدبلوماسية مع أوربا ،لكن جنوح السلطان الى السلم كان مرتبطا بالتزام الاطراف الأخرى لهذا لم تمنعه الاتفاقات من قيامه بقمع أي تحرك ضده (٢) ، وذلك حينما استطاع الايطاليون ايقاع الفتنة والنفرة بين الدولة العثمانية والبنادقة عندئذ أرسل السلطان جيوشه برا وبحرا لقمع تحركات البنادقة على ساحل البلقان ، فاستولى على جزر ليانتو أو " ليبانت " وموزون ،ونافارين من بلاد اليونان ،وكانت كلها تتبع لجمهورية البندقية ، فخافت البندقية من تقدم العثمانيين واسقاط حكومتهم ، فاستغاثت بالدول النصرانية في أوربا ، فانجدها البابا ، والدول الأخرى بالقوة اللازمة ، وبالرغم من ذلك استطاع العثمانيون من الاستيلاء على ميناء رودستو الواقع على بحر الادرياتيك (٣) .

وقد كانت المواقع التي احتلها العثمانيون من البنادقة تشكل مراكز استراتيجية هامة يمكنها أن تساعدهم على التقدم والتوغل في شرق البحر المتوسط ، بل أيضا في حوضه الغربي ، وهذا جعل البنادقة يطلبون عقد الصلح بين الطرفين (٤)، وكان بامكان السلطان بايزيد عدم قبول الصلح وضم بلاد البنادقة اليه لولا عصيان أولاده عليه (٥) واضطراب الأحوال الداخلية

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ١٨٤-١٨٥.
،على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٢.
(٢) محمد عبد اللطيف الهريدي : الحروب العثمانية الفارسية ، ص ٤١.
(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٨٥.
(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٧٣.
(٥) تكدر صفاء حياة السلطان بايزيد الثاني في السنوات الأخيرة من حكمه بعصيان اولاده الثلاثة : كركود ،وأحمد ،وسليم ،لاختلافهم في المشارب السياسية ، فعين كركود على أحد الولايات ،وأرسل أحمد الى أماسيا (=)

مما أجبره على ابرام الصلح مع البنادقة سنة ٩٠٧ هـ الموافق ١٥٠٢ م وفي السنة التي تلتها تم الصلح مع ملك المجر [(١)].

لكن مشاكل بايزيد الثاني ازدادت هي الأخرى من الشرق لحربه مع دولة المماليك حول دولة بني ذى القدر ، ومع الدولة الصفوية في ايران، التي بدأت تثير القلاقل في الأناضول ، اضافة الى الخلافات الأسرية داخل البيت العثماني خاصة مع أخيه جم الذى يطالب بعرش الدولة ، وقد حدثت بينهما عدة حروب حالت دون تقديم المساعدة لاخوانه المسلمين في غرناطة [(٢)].

أعقب ذلك عصيان أولاده وتنافسهم على العرش المرتقب ، مما أدى الى الاختلال في أمن البلاد ، وازدياد نشاط الدعاة الذين أثاروا الفتن والقلاقل في الأناضول . ونتيجة لذلك استمرت هذه الحالة حوالي عامين من (١٥٠٩-١٥١١ م) استنزفت بالسلب والنهب واراقة دماء المسلمين، وهذا ماجعل الأمير سليم الأول حاكم طرابزون في أقصى الأناضول يحسم الموقف لضبط البلاد ، ويطالب والده بالتنازل عن العرش ، وذلك بعدما رأى عن كثب ماخطط له الصفويون وتغلغل خطر الشيعة بين رعايا الدولة في الأناضول [(٣)] .

(=) وعين سليم على طرابزون ، ففرق بينهم ، وعين سليمان بن سليم على بلاد القرم ، فلم يرض سليما ،وكان محبوب الانكشارية ، فانتقل الى ولده سليمان ، وخاطب والده من هناك بتعيينه في احدى الولايات الاوربية ،فلم يقبل السلطان فعصى الابن وقام بحرب الدولة فجرد والده جيشا فاستطاع قمعه ، ولكن الامر انتهى بعفو الوالد لولده فأتى بالانكشارية في اسطنبول لوالده واستطاعوا اقناع السلطان بالتنازل لابنه عن الملك ،ولمزيد من المعلومات ارجع الى :
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ١٨٦-١٨٧.

(١) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٨٥.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٧٤-٧٥.

(٣) محمد عبداللطيف هريدى : الحروب العثمانية الفارسية (الطبعة الاولى ، القاهرة ،دار الصحوة للنشر والتوزيع ،١٤٠٨هـ) ص ٤٧-٤٨.

وقد أدى ذلك الى تنازل بايزيد الثاني لابنه سليم الاول في سنة ٩١٨ هـ الموافق ١٥١٢ م عن الحكم وذلك بمساعدة الانكشارية(١).

فالسلطان سليم الاول الذى تسلم دفة الحكم كان من قبل حاكما لطرابزون ، وبذلك كان على علم بشئون حدوده الشرقية التي كانت تواجه غزو الصفويين (٢) الذين تولوا الحكم في ايران (٣).

ونتيجة لذلك وصلت الى السلطان سليم تقارير تقول " ان المبتدعين من الصوفية والشيعة قد استفحل خطرهم وزاد عددهم وباتوا يعيثون في القرى بالسلب والنهب حتى انهم لم يتورعوا عن قتل الرجال وسبي النساء وأتوا على الأخضر واليابس "(٤) .

وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت تتربع على عرش الأناضول وشبه جزيرة البلقان ، فأصبحت بذلك على مفترق الطرق ، وبين خيارين مهمين هما: هل تستمر في فتوحاتها نحو أوربا ؟ أو أنها تتجه نحو الشرق وتصطدم بدولة فارس ثم المماليك ؟ وبعد دراسة مستفيضة للموقف على الجبهتين قرر السلطان اختيار الخيار الثاني والتوقف الموقت عن فتوحاتها في أوربا للاتجاه نحو بلاد فارس لخطورة الموقف هناك ولايقاف التحرك الفارسي الشيعي الذى أخذ ينتشر في الأناضول والعراق ، وبدأ يحرض أقليات الشيعة الى الثورات ضد الحكم العثماني السني كما سبق(٥).

---

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص٤٢.

(٢) تنتسب الى صفي الدين وهو من اردبيل وكان من المتصوفة الزاهدين ومنذ القرن التاسع الهجرى انتقلت الصوفية من التامل الصوفي الى العقيدة الشيعية ، وكانت هذه الاسرة زعيمة لحركة تركمانية صوفية.
- أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ،ص ٧٦-٧٧.

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٧٦-٧٧.

(٤) محمد عبد اللطيف هريدى : الحروب العثمانية الفارسية، ص ٤٢ ،٤٨، نقلا عن (وثيقة رقم ٦٥٢٢ بطوب قابي).

(٥) محمد كمال الدسوقي : أهمية الحجاز في مطلع العصور الحديثة، نقلا عن وثيقة رقم ٦٥٢٢ بطوب قاربي (مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، العدد الثاني ، السنة الثانية) ص ٤١٦-٤١٧.

عند ذلك نهض السلطان سليم الأول في وجه هذا التحدى الصفوى ،وسل سيفه ، ورفع راية أهل السنة ، وغزا بلاد فارس ليضع حدا لترهات الشاه ولهذه الأمة ، فهزم الشاه اسماعيل في موقعة جالديران سنة ٩٢٠ هـ الموافق ١٥١٤م ، ودخل السلطان مدينة تبريز قاعدة ملك الدولة الصفوية. ولكنه اضطر فيما بعد للعودة الى بلاده لتنظيم صفوف جيشه ، مما مكن الشاه من العودة الى عرشه من جديد ، ومحاولة مد نفوذه الديني الى الدولة . والواقع أن السلطان لم يقض على استقلال فارس بل بقيت الدولة العثمانية وفارس على عداء مستمر ، وبذلك فان الدولة العثمانية استطاعت اضعاف نفوذ الدولة الصفوية في العراق وتركستان ، مما مهد للدولة العثمانية امتلاك العراق في عصر السلطان سليمان الأول كما سيأتي [1].

وحين عاد السلطان سليم الأول الى مواقع جيشه ، علم أن دولة المماليك كانت تميل لنصرة الدولة الصفوية أثناء حربها معها [2] . فقد أرسل الشاه وفدا الى سلطان مصر يطلب منه التحالف ضد الدولة العثمانية في حربه معها مبينا أنها اذا لم يتفقا معا ، حاربت الدولة كلا منهم على حدة للاستيلاء على أملاكها [3].

ومن تلك الأمور التي ظهرت واضحة للسلطان سليم الأول هو تدخل السلطنة المملوكية أثناء حربه مع الشاه ، فرغم اعلان المماليك حيادهم التام حين دعاهم السلطان سليم الاول للاتفاق معه لحرب الشاه اسماعيل فانهم بعثوا بجنودهم ليقطعوا خطوط المواصلات المتجهة لامتداد الجيش العثماني في شمال حلب عبر الأراضي المملوكية [4] مما أغضب السلطان سليم الاول وأدرك أن المماليك يعملون ضده ، وعليه أن يتخذ الاجراء السليم الذى يكفيه شرهم أو انتزاع الاقطار السورية منهم .

---

(١) محمد شفيق غربال : منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية ، ص ١٢٤.

(٢) احمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ،ص ٤٣.

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٨٩ .

(٤) محمد عبداللطيف هريدى : الحروب العثمانية الفارسية ،ص ٥٤.

لذلك سعت الدولة في التحالف والتفاهم والوحدة بين الدول الثلاث لتكون هجمتها نحو الغرب موحدة ، ولكن الخلاف المذهبي بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية في ايران جعل الدولة تجرد حملة جالديران سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤م كما سبق . كما أن حرص المماليك في مصر والشام على زعامة العالم الاسلامي بالرغم من ضعف المماليك وعدم قدرتهم على مواجهة البرتغاليين وصد حملاتهم ، جعل السلطان سليم الأول يتحرك نحو الشام ، فاستعد له سلطان المماليك قانصوه الغورى عند حلب على الحدود الشمالية ، فالتقى الجمعان في معركة مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م وبعد قتال شديد انهزم الغورى وقتل في ساحة المعركة ، فدخل سليم حلب وجميع المدن السورية (١).

حينئذ سارع قادة المماليك في مصر الى تعيين طومان باى نائب الغيبة حاكما على مصر ، ولما علم السلطان سليم بذلك أرسل اليه يعرض عليه الصلح بشرط اعترافه بالسيادة العثمانية ، فرفض ذلك ، فغزا سليم الاول مصر ، وانتهت المعركة بالقضاء على دولة المماليك في موقعة الريدانية سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٧م (٢).

وبعد ضم مصر للدولة العثمانية أراد سليم الاول ضم الحجاز ففي تلك الفترة (٣) حضر أبونمي ابن الشريف بركات شريف مكة الى مصر ، فقدم الطاعة للسلطان سليم الأول ،وأطلق عليه لقب حامي الحرمين الشريفين (٤)،وخليفة الاسلام ، زيادة على لقب السلطان ، فجمع للسلطان سليم الأول بين الخلافة والسلطنة ، فوصلت الدولة في عهده الى أعلى المراتب ، واتحدت كلمة المسلمين على يده ، فأصبحت بذلك الزعامة

---

(١) محمد شفيق غربال : منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية ، ص ١٢٥.

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٩٢-١٩٣. ، أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ،ج ١ ، ص ٤٣.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٩٤.

(٤) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٥٨.

الاسلامية للعثمانيين [١].

وقد ظل السلاطين العثمانيين دائما سلاطين غزاة أو مجاهدين في سبيل الله لحماية العالم الاسلامي ، ولكنهم استثمروا موقف الخلافة بمعنى جديد وبمفهومه الخاص ، على أنهم حماة العالم الاسلامي في جهادهم ضد الصليبيين[٢].

ولم يستخدم ذلك اللقب صراحة ، الا في أيام السلطان عبد الحميد الثاني ابان اعلان حركة الجامعة الاسلامية ، ولعل ذلك اعترافا من سلاطين آل عثمان. ومن ثم تبقى الخلافة للعرب ، دون منازع اكتفاء بلقب حامي الحرمين الشريفين وهذا اعلان موجه الى أوربا المسيحية وطلائع الاستعمار الأوربي على الحدود الجنوبية للعالم الاسلامي [٣].

وبعد ضم مصر والحجاز للدولة العثمانية عاد السلطان سليم الى اسطنبول فوصلها في بداية عام ٩٢٤ هـ الموافق ١٥١٨م بعد أن مكث في دمشق خمسة أشهر ، ثم غادر اسطنبول الى ادرنة بقصد الراحة وهو يفكر في بدء القتال ضد الأعداء في أوربا بعد أن تم له توحيد الجبهة الاسلامية كما أراد وبعد أن سير حملة الى اليمن لاخضاعها للحكم العثماني [٤].

فأخذ السلطان سليم الأول يحضر هذا الأسطول لحصار جزيرة رودوس لقتال فرسان القديس يوحنا ، ولكن وافته المنية قبل اتمام مشروعه في ٩ شوال سنة ٩٢٦ هـ الموافق ١٥٢٠م [٥] ، وعندما وصلت وفاته الى العالم المسيحي

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ،ج ١ ،ص ٤٣

(٢) Halil Inalcik: The Ottoman Empire , p. 57

(٣) محمد عبداللطيف البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، مجلة الدارة ، ع ٤ ، س ١٣ ، ص ٢٠٣.

(٤) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٥٨.

(٥) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٩٧ .

شعروا بالفرجة ، وأن الخطر الذى كان يهددهم قد انزاح لأنهم كانوا يتوقعون في ابنه السلطان سليمان الأول أنه رجل سلام هادئ الطبع ميال للسلم ، وأنه لايميل الى الحرب الا فيما ندر [١] ، فظنوا أن الخطر قد زال ، وبحق فقد جانب توقعهم الصواب . ذلك لأنه عندما تولى السلطان سليمان الأول (القانوني أو المنظم) كان العلم العثماني يرفرف فوق معظم القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوربا .

الا أنه في سنة ٩٢٧ هـ الموافق ١٥٢١م تغير الموقف وذلك عندما أرسل السلطان سليمان الأول ، بهرام سفيرا لجمع الجزية من أهل المجر لكنهم امتنعوا وتمردوا وثاروا عليه ، فقتلوا بهرام رسول السلطان ، فغضب السلطان وبعث بحملة لمحاصرة مدينة سابتس القريبة من بلغراد بقيادة أحمد باشا ففتحها عنوة سنة ٩٢٧ هـ الموافق ١٥٢١م ودخلها السلطان في اليوم الثاني ثم انطلق منها الى بلغراد عاصمة الصرب ، ففتحها عنوة بعد حصار شديد في ٢٥ رمضان من نفس السنة ، وكانت قد امتنعت عن أسلافه من قبل لقوة تحصينها [٢] ،فدخلها السلطان وصلى صلاة الجمعة في أكبر كنائسها فحولت الى مسجد للمسلمين [٣] ، وكانت هذه المدينة الحصينة معقلا من معاقل المجريين يحتمون وراءها كلما أغاروا على الدولة العثمانية ، ففتحها يعني حرمان المجريين من هذا الدرع الواقي من هجمات الدولة لتوسطها من القارة الأوربية [٤] . ولأهمية موقعها أصبحت بلغراد قاعدة الدولة العثمانية للزحف الى ماوراء نهر الدانوب [٥] ، أو لوسط أوربا ،

---

(١) V.J. Parry: A History of the Ottoman Empire to 1730, p. 95.

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٩٩-٢٠٢ .
، هيئة التحرير : سليمان الكبير (مجلة الهلال ، الجزء الاول ، السنة الاولى ١٣١٠ هـ /١٨٩٢م) ص ٣٥ .
،علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٥-٦٦ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٤) محمد عبداللطيف هريدى : الحروب العثمانية الفارسية ، ص ٦٠ .

(٥) علي حسون : المصدر السابق ، ص ٦٦ .

وقد استغرق حصارها شهرا كاملا وكان مايميز هذا الحصار هو انضمام طلبة المعاهد الدينية التي شيدها العثمانيون في البلقان الى صفوف المقاتلين العثمانيين طلبا للجهاد في سبيل الله ، وهذا مايدل على أن الدولة العثمانية بدأت تجني ثمرة جهودها في سبيل نشر الاسلام في أوربا (١) . فعاد السلطان بعد هذا النصر العظيم الى اسطنبول عاصمة البلاد ، فأرسل اليه قيصر الروسي سفيرا يهنئه ، وكذلك رؤساء جمهوريتي البندقية وراجوزة (٢) يتقربون اليه خوفا من غاراته وهجماته على بلادهم (٣).

ولكن عند أوائل سنة ٩٢٨ هـ / ١٥٢٢ م منحت الدولة العثمانية أولى الامتيازات التجارية في الدولة ، فوقعت معاهدة تجارية مع جمهورية البندقية ، خولت فيها قنصلها في اسطنبول ، حق حضور المرافعات أمام المحاكم حين الفصل في قضاياها ، اذ كانت الدول الاوربية تعتبر النصارى كلهم رعاياها بالاضافة الى بعض البنود الأخرى ، أما السبب المباشر لهذه المعاهدة التجارية ، فقد كانت اقتصادية الهدف ، منها محاولة من الدولة العثمانية في اعادة النشاط التجاري الى البحر المتوسط ، بعد الدوران حول رأس الرجاء الصالح بواسطة البرتغاليين وأن السلطان سليمان كان في اعتقاده أنه مادام قويا فانه باستطاعته أن يلغيها متى شاء وفي أي لحظة عندما يحس بخطرها (٤).

ثم ولى سليمان وجهته لفتح جزيرة رودوس التي لاتزال حصنا منيعا أمام الدولة (٥)، فقد تأسست خلال الحملات الصليبية في عكا للجهاد ضد

---

(١) محمد عبد اللطيف هريدي : الحرب العثمانية الفارسية ،ص ٦٠.

(٢) راجوزة : ميناء تجاري ببلاد دلماسيا على الساحل الشرقي من بحر الادرياتيكي.
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٢٠٢ ،حاشية رقم (١).

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٠٢.
،هيئة التحرير : السلطان سليمان الكبير،مجلة الهلال ،ج ٢ ،س ١ ،ص ٣٥.

(٤) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٦ .

(٥) كمال الدسوقي : العثمانيون وقراصنة رودس(مجلة البحث العلمي،كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ،العدد الثاني ،١٣٩٩هـ) ص ١٧٠.

المسلمين [١]، وكانت تناصب الدولة العثمانية المترامية الاطراف العداء، السافر ، وتقف منهاموقف المتحدى لمناعة حصونها ، فلم يجرؤ أحد من سلاطين آل عثمان قبل السلطان محمد الفاتح الذى حاول حصارها ثلاث مرات ولم يوفق في فتحها [٢]. لذلك أخذ السلطان سليمان الأول يستعد لفتح الجزيرة برا وبحرا ، لأنها نقطة الاتصال بين اسطنبول ومصر [٣] ، ثم الى سوريا والحرمين الشريفين [٤]، وذلك لكسر شوكة النصارى المتمركزين وسط البلاد العثمانية [٥] باعتبار أن هذه الجزيرة تعد من أقوى المراكز الدفاعية في أوربا ، وكان قراصنتها يأسرون أعدادا كبيرة من السفن الاسلامية التي كانت تجلب الحنطة والذهب من الولايات العربية والتي تنقل معها الحجاج الى الأماكن المقدسة عبر البحر الابيض المتوسط [٦] ، لهذا أراد السلطان الاسراع في اتمام هذا العمل الذى عجز عنه أسلافه [٧]. فأمر السلطان في الحال غزوها برا وبحرا ، وبعد أربعة أشهر من حصارها استسلمت الجزيرة على شروط معينة وهي كالتالي :

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢٠٣.
(٢) يلمار اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ،ج ١ ، ص ٢٦٢.
(٣) محمد فريد بك : النصدر السابق ، ص ٢٠٣
، مجلة الهلال ، ج ٢ ،س ١ ، ص ٣٠٥.
(٤) مجلة الهلال ، المصدر السابق ، ص ٣٥.
(٥) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٦.
(٦) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٨٩ .
، V.J. Parry: A History of the Ottoman Empire to 1730. p. 79.
، كمال الدسوقي : العثمانيون وقراصنة رودس ،(مجلة البحث العلمي ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ،ع ٢ ،١٣٩٩ هـ) ص ١٦٩.
(٧) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ،ج ٢ ، ص ٧٢.
،محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٠٣

١ - أن تصان الكنائس النصرانية .

٢ - أن تقام الشعائر الدينية .

٣ - أن لايفرض على الأهالي ضرائب لمدة خمس سنوات .

وكان رئيس الجزيرة فيليب دى ليل آدم ، الذى طلب مقابلة السلطان وقد وافق السلطان على تلك الشروط ، وبعدمدة أبحر ليل آدم ومعه أربعة آلاف من أتباعه وذهبوا الى ايطاليا ، ومنها الى مالطة [(١)] .

الا أن فتح السلطان سليمان الأول لجزيرة رودس آمن أملاكه ،وتحركاته في شرق البحر المتوسط [(٢)] .

حينئذ توافدت الى السلطان الوفود من ملوك وأمراء لتهنئته بذلك النصر ، وخاصة بعد فتح جزيرة رودس التي بفتحها زادت هيبة الدولة ونالت عظمة على عظمتها [(٣)] ، فسعى فرنسوا الأول ملك فرنسا بارسال الرسل للتحالف مع الدولة العثمانية ضد خصمه شارل الخامس ملك النمسا الذى كان يحيط بأملاكه كالسوار بالمعصم عدا البحر[(٤)] ، فقد كان ملكا لأسبانيا وهولندا وألمانيا ولجزء عظيم من المدن الايطالية [(٥)] ، وحين تعزز نفوذ الدولة العثمانية ، ووطدت سيطرتها القوية على البحر الأبيض المتوسط وجد فرنسوا في العثمانيين حليفا قويا مهاب الجانب ، حينما أصبح لهم كلمة عليا في السياسة ، فأرسل سفيره الى اسطنبول طالبا منه وبكل خضوع

---

(١) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ،ج ٢ ، ص ٧٤.

V.J.Parry:A History of the Ottoman Empire, p.80.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ، ص ٨٩.

(٣) هيئة التحرير : السلطان سليمان الكبير (مجلة الهلال ،ج ٢ ،١٨٩٢، س ١ ،) ص ٣٦.

(٤) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٧.

(٥) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٢٠٨-٢٠٩.

مهاجمة ملك المجر أحد حلفاء شارل الخامس [١] ، في محاولة من فرنسوا اشعال الحرب بين العثمانيين والنمساويين ، وهو يأمل من ذلك تخفيف الضغط الهابسبرجي الذى كان واقفا على أبواب مملكته نفسها ، بعد هزيمته سنة ٩٣٢ هـ /١٥٢٥م في بافيا (Pavia) وكان السلطان سليمان واعيا لذلك ومتفهم حالة العداء بين المسيحيين والامبراطور شارل الخامس (ملك الامبراطورية المقدسة) وفرنديناد ملك النمسا ، لهذا رحب السلطان سليمان بمطلبه لتحقيق هدفه ورغبته في السيطرة الحقيقية على مملكة المجر [٢]، فأرسل رسالة الى فرنسوا بالموافقة على تنفيذ طلبه والاستعداد لحرب خصمه [٣] ، والعدو التقليدى للعثمانيين منذ آن وطئت أقدامهم في شبه جزيرة البلقان ، فهي اما خصمه المباشر أو حليفه لخصم [٤].

سار السلطان سليمان الأول ملبيا طلب صديقه فرنسوا يقود الجيش بنفسه الذى كان قوامه مائة ألف جندى ، وثلثمائة مدفع ،وثمانمائة سفينة ، فشق طريقه عن طريق صربستان الى بلاد المجر حتى وصل قلعة بلغراد حيث اتخذها قاعدة لجيشه ثم واصل سيره حتى وصل وادى موهاكس [٥] فاصطدمت القوتان فقتل ملك المجر في ساحة القتال وكثير من نبلائه وكهنته في موقعة موهاكس ، فسقطت بودا عاصمة الصرب في يد العثمانيين ودخلها السلطان وجنوده دخول الفاتحين [٦] .

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٧.

(٢) V.J. Parry: A History of the Ottoman Empire to 1730, p. 81.

(٣) على حسون : المرجع السابق ، ص ٦٧.

(٤) محمد عبد اللطيف هريدى : الحروب العثمانية الفارسية ، ص ٦١.

(٥) موهاكس : Mohucs تقع اليوم في جنوب بلاد المجر بالقرب من الحدود اليوغوسلافية.
- محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ، ص ٢١١ حاشية رقم (٢).

(٦) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢١٠-٢١١
، على حسون : المرجع السابق ، ص ٦٧.
، أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٩٠
، V.J. Parry: A History of the Ottoman Empire to 1730, p. 81.

وبدخول العثمانيين المجر خلق هذا احتكاكا مباشرا مع النمسا نتج عنه ادعاء ملك النمسا فرديناند الأحقية في ملك بلاد المجر بسبب قرابته لملكها لويس الذى قتل في معركة موهاكس في أواخر سنة ٩٣٤ هـ الموافق ١٥٢٧م [١] . ولكن عليه أولا أن يقضى على منافسه في بودا (Buda) زعيم ترانسلفانيا جون زابولي الذى طالب به النبلاء ليعتلى عرش المجر بناء على موافقة السلطان كما سبق [٢] .

فسار بجيشه لحرب زابولي ملك المجر ، واستطاع ازاحته عن حكم المجر ، فأرسل زابولي الى السلطان بهذا الأمر يستنجد به ، فقاد السلطان بنفسه الجيش سنة ٩٣٦ هـ الموافق ١٥٢٩م وتوجه الى بودا عاصمة المجر ، وما ان وصلها السلطان حتى فر منها فرديناند وتوجه الى فينا عاصمة النمسا، ودخل السلطان البلاد ثم أعاد زابولي الى عرش المجر [٣].

ولم يتوقف السلطان سليمان الأول عن تعقب ملك النمسا الفار فلقد توجه معه زابولي ملك المجر الى فينا وأخذ يضرب حولها الحصار كما سلط مدافعه على أسوارها وهدم جزءا منها فأمر الجنود بالهجوم ، فاندفعوا لدخول المدينة عدة مرات خلال أربعة أيام ، فصمد أهل فينا أمامهم فلم يستطع الجنود العثمانيون دخول المدينة ، فأصدر السلطان أوامره بالرجوع لحلول فصل الشتاء القارس على أن يعاود الكرة عندما تحين الفرصة [٤].

وفي سنة ٩٣٨ هـ الموافق ١٥٣١م قام ملك المجر مرة آخرى بارسال جيش لمحاصرة بودا عاصمة المجر ، لانتزاعها من زابولي ، ولكن الحامية الاسلامية التي وضعها السلطان لحماية هذه المدينة استطاعت صد هذا الهجوم النمسوى(٥) .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢١٠-٢١١.

(٢) V.J. Parry : A History of the Ottoman Empire to 1730 , p. 82.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢١٥-٢١٦.

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢١٦-٢١٧.
، على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٨ .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢١٨.

وكعقاب لملك النمسا على تكرار هجومه على عاصمة المجر كرر السلطان غزو فينا في نفس السنة ٩٣٨ هـ /١٥٣٢م للمرة الثانية وكان في هذه المرة مصمما على فتحها ،ولكنه لما اقترب من فينا ،بلغه استعداد أهلها للدفاع عن المدينة ، وقد جمعوا لهذه الحرب الى جانب الجيوش النمساوية جيوش المانية واسبانية الى غير ذلك ، فعاد السلطان الى عاصمته وكانت هذه اول مرة لايحرز فيها السلطان سليمان نصرا[1] ، والواقع أن اقتران موسم المطر وفشل العثمانيين في نقل مدافعهم الثقيلة عبر الدانوب كل ذلك كان من أهم أسباب رفع الحصار والعودة عن فينا[2] .

وقد انتهزت القوى الصليبية في اوربا انشغال السلطان العثماني بالحروب البرية داخل اوربا فهاجموها بحرا بقيادة الاميرال اندرى دوريا الجنوى ، الذي التحق بخدمة شارلكان فاحتلت كورون وباتراس Patras التابعة لبلاد المورة ، ولكن ملك النمسا توقع رد الفعل العثماني، فأرسل سفيرا الى السلطان سليمان يطلب فيه الصلح فلم يقبل الا بشروط معينة[3] وهي تسليم مدينة (جران Gran) فقبل ملك النمسا وتحررت بين الطرفين معاهدة الصلح في سنة ٩٣٩هـ/١٥٣٣م وأهم مافي المعاهدة هو رد مدينة كورون للدولة ،وان ماتتفق عليه النمسا مع زابولي ملك المجر لاينفذ مالم يعتمده السلطان ، وهذه اول معاهدة صلح بين النمسا والدولة العثمانية وقع الطرفان عليها[4] . وقد تعني هذه المعاهدة للصلح مع المسيحيين علامة واضحة بما أصاب الدولة من أعباء واجهاد اضطر سليمان الاول لقبول

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢١٨ .
، احمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ،ص ٩٠.
، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ٦٨.
،محمد عبد اللطيف البحراوى: فتح العثمانيين عدن،ط ١، القاهرة ، دار التراث ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) ، ص ٩٠.

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوى : المرجع السابق ، ص ٩١.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢١٩.
،علي حسون : المرجع السابق ،ص ٦٨.

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق، ص٢١٩.

الصلح مع النمسا ، وبدأ الخوف الذى سيطر على نفوس الاوربيين يقـــل من نفوسهم ،وعرفوا ايضا ان الجيش العثماني من الممكن صده والوقـــوف في طريقه [١].

وقد أعقب هذه المعاهدات عدة معاهدات وامتيازات منها أنه فـــي عام ٩٤٢ هـ الموافق ١٥٣٦م قامت الدولة العثمانية بعقد اتفاق مع ملـــك فرنسا ،وقد خول هذا الاتفاق اعطاء بعض الامتيازات للفرنسيين بالأراضـــي العثمانية [٢]، وهي تشبه المعاهدة التي منحت للبنادقة وهذه الاتفاقيـــة كانت بمثابة الرمز المرئي للصداقة بين الدولتين [٣] .

وقد خول هذا الاتفاق الطرفين حق التجول والاتجار والملاحة البحريـــة ، كما أجاز التبادل الاقتصادى دون ضرائب ، وأصبح للقنصل الفرنسي فـــي اسطنبول والاسكندرية حق التقاضي بموجب القوانين الفرنسية لرعاياهـــم دون تدخل الدولة ،ولايحق للقضاة المسلمين الحكم على تجار ورعايا فرنســا ، الا في حضور الصدر الأعظم أو من يمثله ،كما أعفى من تبع الرعية الفرنسية من دفع الخراج والضرائب [٤] ،واشترط ملك فرنسا بأن يكون للبابـــا وملك انجلترا اخيه وحليفه الحق في الاستفادة او الانتفاع من المعاهـــدة واجابه العثمانيون بالقبول [٥] ، مما أثار المشكلات فيما بعد ،وكانـــت هذه المعاهدة اول اسفين يدق في نعش الدولة العثمانية [٦]. وهذا الاتفـــاق من اسباب تدخل فرنسا نفسها ،وباقي دول اوربا في شئون الدولة العثمانيـــة

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ، ص ٩١

(٢) محمد فريد بـــك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢٢٣ .

(٣) V.J.Parry: A History of the Ottoman Empire to 1730., p. 86.

(٤) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ٦٨-٦٩ ، ، احمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ،ص ٩٥.

(٥) محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ،ص ٩٢ .

(٦) علي حسون : المرجع السابق، ص ٦٩ ، ، محمد فريد بك: المصدر السابق ،ص ٢٣٠ .

وخصوصا في عصرها الثاني [1] تحت حماية الامتيازات للدفاع عن نصارى الدولة ، وخاصة في بلاد الشام [2] .

والحقيقة كان هدف السلطان في ذلك الوقت من هذه الامتيازات هو دعم دولة فرنسا ثم الانجليز خلال نضالهما ضد بابا روما وهابسبورج النمسا ويتجلى ذلك في عقد الحلف الذى تم بين ملك فرنسا والسلطان في مواجهة اسرة الهابسبورج على أن تبقى هذه المعاهد سرية بين الطرفين حتى لايتعرضا لسخط شعبيهما في وقت كان يسوده التعصب الديني . هذا الاتفاق جعل الدولة تتجه بفتحها نحو صقلية واسبانيا بدل النمسا بالتعاون مع ملك فرنسا حسب المعاهد السرية ،ولكنها لم تنفذ هجومها مع الدولة على ايطاليا ،كما اتفقا على خطة الهجوم نظرا لسخط الراى العام النصراني على ملك فرنسا لتحالفه مع المسلمين ، ثم عاود السلطان الهجوم لفتح ايطاليا سنة ٩٤٤ هـ / ١٥٣٨ م بالاتفاق مع ملك فرنسا على أن يكون هجوم السلطان من الشرق وملك فرنسا من الغرب الذى تخلى عن مهمته وقد نجم عن ذلك فشل الدولة في فتح ايطاليا كما تحالف مع ملك فرنسا مع شارلكان على الدولة ، وهكذا آخذ موقف ملك فرنسايتذبذب وهذا ماجلب عليه الاعداء ، ثم نراه يعود فيطلب العفو من السلطان ويجدد المعاهدة فاستجاب السلطان لطلبه وبقي على هذا الموقف حتى توفى [3] . وهكذا اعتاد الفرنسيون التنصل من تعهداتهم ومواثيقهم والتزاماتهم كلما خفت حدة التوتر بينهم وبين الهبسبرج ، او كلما توصلوا الى اهدافهم واغراضهم المادية والسياسية [4] . أما النمسا العدو التقليدى للدولة العثمانية في هذا الوقت فقد كثرت غاراتها على أملاك الدولة وخاصة

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢٣٠ .
(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٩.
(٣) أحمدعبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٩٤ ، ٦٩ .
(٤) محمدعبداللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ، ص ٩٢ .

علىحلفائها المجر وفرنسا ، مما أثار العداء ،ونقض العهد ،حتى استؤنف القتال من جديد بسبب غارتهم على املاكالمجر التابعين للدولة [١]. فاشتعلت نيران العثمانيين فمازالت تهدم قلاع النمسا وتسقطها حتى اضطر ملك النمسا والامبراطور شارل الخامس والبابا وملك فرنسا وحاكم جمهورية البندقية الى الدخول في مفاوضات مع السلطان لعقد هدنة لمدة خمس سنوات [٢] فعقدت هذه الهدنة في سنة ٩٥٤ هـ الموافق ١٥٤٧م على شرط أن يدفع ملك النمسا جزية قدرها ثلاثون الف دوك نظير مابقي تحت يده من بلاد المجر[٣]. وأن تبقى بلاد المجرالتي توفي واليها زابولي لابنه وتحت وصاية أمه ورعاية الدولة العثمانية [٤]، وهذه هي أول معاهدة قضت على دولة النمسا باداء الجزية السنوية لسلاطين آل عثمان [٥]. في الوقت الذى جاء فيه سفراء الهند يستغيثون بالسلطان سليمان الاول ضد البرتغال [٦] .

وبعد أن عقد السلطان الصلح مع دولة النمسا ، تفرغ لمواجهة الغزو البرتغالي والفارسي ، فكان الصفويون في ذلك العصر تحت قيادة طهماسب ابن اسماعيل الصفوى ، يثيرون القلاقل في أوساط التركمان في الأناضول في الوقت الذى شهد فيه العراق الاوسط والجنوبي - بما في ذلك بغداد والبصرة ،في محاولة لفرض المذهب الشيعي ،والتضييق فيه على أهل السنة ، وقد أثارت هذه الاعمال غضب السلطان سليمان الاول باعتباره زعيم

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٢٣٨.
(٢) محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ، ص ٩٣-٩٤.
(٣) قد استمرت النمسا على دفع الجزية للدولة العلية حتى ابطلت في معاهدة كارلوفتس.
- محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ٢٣٨ حاشية رقم (٣).
(٤) محمدفريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٣٨-٢٣٩ .
،هيئة التحرير: سليمان الكبير (مجلة الهلال ،ج ٢ ،س ١ ، ١٩٨٢م) ص ٣٩ .
V.J. Parry. A History of the Ottoman Empire to 1730, P.84.
(٥) مجلة الهلال : المصدر السابق ،ص٣٩.
(٦) محمدعبد اللطيفالبحراوى : المرجع السابق ،ص ٩٤.

العالم السني ، اضافة الى استيلاء الدولة الصفوية على فارس والعراق. مما عرقل مرور التجارة بين الشرق الاقصى وأوربا حين تحولت سيطرة البرتغاليين على البحار الشرقية الى حصار عام لكل الطرق القديمة بين الشرق والغرب [(١)] .وحولت التجارة عبر رأس الرجاء الصالح في محاولة من البرتغاليين قتل الملاحة العربية في البحار العربية ،وحين سقطت دولة المماليك في يد الدولة العثمانية ، فقد ورثت عنها نفوذها في الحرمين ورعايتهما ، كما ورثت عنها سيادة النفوذ في البحر الأحمر وسواحله اضافة الى مسئوليتها في محاربة البرتغاليين[(٢)] في عصر الاستعمار الاوربي الحديث ،عندما وصل التهديد الصليبي ولاول مرة في التاريخ الى جنوب العالم الاسلامي أو البحار الاسلامية[(٣)] ، وقد حاول القائد البرتغالي " البوكرك " دخول البحر الاحمر في سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣م للاستيلاء على مكة المكرمة والمدينة المنورة كاجراء مقابل لوجود الاماكن المقدسة المسيحية في ايدي المسلمين في فلسطين وللقضاء على تجارة البحر الاحمر التي تركزت في جدة ، وقد فشلت هذه الحملة ، لجهل قائدها بالملاحة في البحر الاحمر[(٤)] ، لذلك اضطر العثمانيون فتح الميدان الجنوبي لمواجهة الغزو البرتغالي المسيحي الذى بدأ يهدد البحار العربية واقامة حزام آمن لحماية الأراضي المقدسة الاسلامية[(٥)] مكة والمدينة من التهديد البرتغالي .

ونتيجة لذلك وضعت الدولة لنفسها خطة لحماية الاماكن المقدسة فأرسل السلطان سليمان أسطولا من السويس ، قد صنع لهذا الغرض بقيادة

---

(١) احمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٩١ ،
V.J.Parry: Op.cit., p.85.

(٢) محمد شفيق غربال: منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية ،ص ١٢٥.

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ،ص ٩٢.

(٤) عمر الفاروق السيد رجب : دراسات في جغرافية المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ،جدة ،دار الشروق ،١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ص ٢١٥حاشيه (١).

(٥) خلف دبلان الوذيناني : الاحساء في القرن الثاني عشر الهجري ، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى ،١٤٠٥هـ لم تنشر ، ص ٤٩-١٥٠ ،محمد سعيد المسلم : ساحل الذهب الأسود ، ص ١٧١-١٧٢.

سليمان باشا ،لفتح عدن واليمن ، فعبر به البحر الاحمر واستطاع اغلاق وتامين منافذه أمام التحدى البرتغالي ، ثم احتل عدن واتخذها قاعدة بحرية لمواجهة البرتغاليين في المحيط الهندى، لكن البرتغاليين نجحوا في اخذ مضيق هرمز أهم قاعدة في الخليج العربي ومنه هددوا الخليج العربي وماحوله ، ولكن الدولة العثمانية استطاعت صدهم عن التقدم الى الامام نحو المقدسات الاسلامية عبر الخليج العربي اذ لابد أن تؤمن الدولة ظهرها أثناء حروبها فيأوربا بعد أن لمحت التحالف الصفوى [1] البرتغالي لحرب الدولة العثمانية ، ولضمان حماية الاماكن المقدسة من التهديد البرتغالى[2] ، وعلى اثر ذلك سار السلطان سليمان الأول سنة ٩٤٠ هـ / ١٥٣٣ م من عاصمته نحو الشرق ، فاستطاع الاستيلاء في طريقه على المنطقة الواقعة بين أرض روم وبحيرة وان بهدف الاستيلاء على اذربيجان ،ثم زحف بقوة كبيرة على أواسط فارس[3] .

أما الشاه طهماسب فقد تجنب المصادمة في بداية الامر مع الدولة العثمانية ، لان معركة جالديران مع والده لازالت عالقة في ذهنه وكانت أكبر درسا له ، لهذا انسحب الى تبريز الواقعة في قلب اذربيجان وهي منطقة جبلية بعيدة جدا عن اقرب قاعدة عثمانية وان اى محاولة للحاق به هناك تكون ضربا من ضروب المخاطرة او الجنون لهذا اصدر السلطان أمره بالتقهقر حتى يحين الوقت المناسب .

قبل ذلك ركز السلطان سليمان في الاستيلاء على العراق . فسقطت في يده بغداد وباقي العراق دون مقاومة ثم ضم البصرة في عام ٩٤٥هـ/١٥٣٨م ،

---

(١) فقد سعت الدولة الصفوية في التحالف مع الدول الاوربية وقد اتصلت بملك المجر والمانيا ،لاجل عقد حلف دفاعي هجومي ضد الدولة العثمانية
— محمد عبداللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ،ص ١١٥.

(٢) محمد عبداللطيف هردى : الحروب العثمانية الفارسية ،ص١٣.

(٣) V.J.Parry: History of the Ottoman Empire, to 1730, p.85-86.

وما لبث الحكم العثماني ان امتد الى الاحساء في سنة ٩٦٣هـ/١٥٥٥م وهكـــذا استطاع سليمان الاول انقاذ المذهب السني من الخطر الشيعي وحفظ للعـــراق هويته الاسلامية السنية وتاكدت بذلك زعامة الدولة العثمانية على العالـم الاسلامي (١) .

في الوقت الذى أحرزت فيه الحملة نتائج طيبة (٢) في مد نفوذهـــا على العراق والبصرة كما مر بنا وانحسار نفوذ الدولة الصفوية من العـــراق، وصد البرتغاليين من الشرق لحماية الاراضي المقدسة من أعداء الاسلام .

ورغم استيلاء سليمان على كردستان ومعظم اجزاء العراق ، الا انه لم يوقـع الهزيمة بالصفويين الذين احتفظوا باذربيجان وبعض اجزاء من مشرق العراق وجنوب القوقاز (٣) .

وبعد ذلك عاد السلطان سليمان الاول الى اسطنبول لتنظيم شئـــون دولته الداخلية والخارجية ولاحتياط للطوارىء للتحركات الاوربية علـــى الدولة الاسلامية العثمانية . الا ان السلام مع النمسا لم يضع حدا للعداوات المحلية على حدود الدانوب والمناطق المجاورة وذلك ان المحاربين على حـــدود البوسنة وسمندريا ، كانوا من المجاهدين المسلمين يغزون دار الحرب لبعـض المخالفات الحدودية على المسلمين هناك من قبل الاعداء المجريين الذيـــن يقطنون الحدود النمساوية المجرية ،كانوا مندفعين للدفاع عن المسيحيـــة فكانوا يتحرشون بالمسلمين ولم تستطع اسطنبول ولا النمسا من ايقاف هـــذه الحرب للتعصب الديني بين الطرفين (٤) ، وان كنت أرجح بان النمسا قـــد دفعتهم لفعل هذه الاعمال ،وتزويدهم بكل مايحتاجون اليه لاضعاف شوكـــة الاسلام في تلك الديار .

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٩١.

(٢) V.J. Parry: History of the Ottoman Empire to 1730, p. 86.

(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابـــق ،ص ٩١

(٤) V.J. Parry : Op.cit., p.86.

ويتضح هنا عندما توفى ملك النمسا فردينانديسنة ٩٧٢هـ/١٥٦٤م خلف ابنه مكسمليان عرش الحكومة ، فاحتل مدينة توكاى من أعمال بلاد المجر ، فكان السلطان سليمان الاول مريضا وكانت المجر تحت السيادة العثمانية منذ ملكها زابولي فوعد السلطان اسطفن بن زابولي ملكها انذاك باعادة ماسلب منه فقصد قلعة ارلو من اعمال النمسا وهو في الطريق بلغه أن أمير اسكدوار أغار على فرقة من جيشه ، فوجه السلطان الغزو الى تلك المدينة وقام بحصارها فاحتلها بعد أسبوعين من الحصار ،وبالرغم من أن السلطان سليمان الاول توفى أثناء الحصار الا أن قائد الجيش أخفى خبر وفاته وأرسل الى ابنه سليم الثاني في مدينة كوتاهية يخبره بما حدث ويستعجله الحضور لاستلام زمام الامور خوفا من الفتن والقلاقل .

وبهذه المعركة كانت نهاية عصر السلطان سليمان الأول ، الذى يعتبر للدولة العثمانية عصر المجد وأقص المد[1].

ثم استطاع طرد الأسبان وصدهم عن تعقب العرب بعد سقوط غرناطة من طرابلس الغرب وقد هزم البابا وامبراطور المانيا ودوقيه البندقية سنة ٩٤٥ هـ الموافق ١٥٣٨م في معركة بحرية بعد أن روعهم قبطانه بربروسا في سواحل البحر الابيض [2] كما نقل الجهاد الاسلامي الى الغرب بدلا من البحر المتوسط وأواسطه مما مهد للدولة السيطرة على شمال أفريقيا باستثناء مراكش [3] اما تونس فانها أصبحت قصب السبق بين الأسبان والعثمانيين حتى استقرت أخيرا في يد العثمانيين الذين قضوا على الأسبان والحفصيين معا . وأنقذ المغرب العربي من خطر الاسبان وأصبحت تونس ولاية عثمانية كما أصبحت من قبل بلاد الجزائر وطرابلس الغرب . وقد كان النزاع بين الاسبان والعثمانيين لايتمثل في السواحل الافريقية فقط . بل كان يجرى أيضا حول سيادة البحر الابيض المتوسط وتمكن الاسطول العثماني فرض السيادة على هذا البحر مماجعل الاساطيل النصرانية تتلافى ملاقاته الا مجتمعة ومتحدة ومتحالفة لاسيما بعد أن أصبح خير الدين بربرسا متوليا

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢٥١.

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوى : منخصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، ع ٤ ، س ٣ ، ص ١١٢ .

(٣) احمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة (القاهرة ، الناشر دار المعارف ١٩٧٢م) ص ٤٤٣-٤٤٤.

قيادة الأسطول العام " قبودان باشا"[١] ، وقد أصبحت أملاك السلطان سليمان الاول تمتد من بودابست على نهر الطونة الى اسوان بالقرب من شلالات النيل ومن نهر الفرات الى مسافة قريبة من مضيق جبل طارق [٢].

وقد رفض السلطان سليمان الاعتراف بحق شارل الخامس بلقب امبراطور وانما أقر به ملكا فقط على أسبانيا وكان يشجع علنا أية قوة تقف في سبيل مطالب شارل الخامس في الحصول على السلطنة كما كان يهمهم بالسيطرة على العالم المسيحي كله [٣].

صحيح ان انتصارات سليمان قد أعطت للعثمانيين أبعد مايمكن من الحدود الصالحة والفتح العظيم . فالحرب بين العثمانيين والفرس التي يسعى فيها العثمانيون لضم جورجيا وارمينيا الفارسية واذربيجان[٤] لتقليص النفوذ الشيعي في المنطقة الذى أصبح خطرا كبيرا يهدد الدولة العثمانية السنية كما أن حروب الدولة العثمانية مع الفرس قد كبدتها نفقات كبيرة وكان من نتائج ذلك توقف حركة الفتح الاسلامي نحو الغرب كما أنه في الوقت نفسه كان من العوامل الأساسية في ضعف الدولة أمام فينا لأن الدولة أدت بهذا العمل الى فتح جبهتين احداهما في أوروبا والاخرى في فارس اضافة الى مقاومة البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندى والخليج العربي لتحركات الأساطيل العثمانية هناك .

---

(١) محمد العروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ص ٢٧١ - ٢٧٤ .

(٢) أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة ، ص ٤٤٤ .

(٣) V.J. Parry : A History of the Ottoman Empire to 1730, p. 94.

ـ الخلل في: السلاطين والعلماء والانكشارية ،والتوقف والركود :

من تتبع الأحداثالسابقة يشاهد أن العثمانيين شيدوا دولتهم على أسس اسلامية اتصفت بالقوة والتعاون والنظم الراقية ، فتمكنت بتوفيق من الله من قهر أعدائها ، فكانظهور الدولة على مسرح التاريخ أشبه بمعجزة حيث نمت بسرعةفائقة ، فضمتاليها بلدان واسعة في ثلاث قارات هي آسيا وآوربا وافريقيا .(١)

وبما أن الأحكام الأساسية لكلدولة يمكن آن تنقسم الى قسمين رئيسيين هما: احقاقالحق للعباد باجراءالعدل في داخل البلاد ، وحماية الحدود من تعرض الأجانب ، فان رفعة شأن كل دولة وبلوغها الى أقصى درجات المنعة والعظمة وحصولها على أرفع مراتب القوة والاجلال ، انما يكون على قدر سعيها واقدامها في هذينالقسمين . وقد كانت الدولة العثمانية في الأصل مهتمة غاية الاهتمام بايفاء هذين القسمين المذكورين .

فكان سلاطين آلعثمان يعتنون بذلك كل الاعتناء ويهتمون بالمصالح المتعلقة بأمور الدين والدولة ويحضرون بأنفسهم في الديوان . وكان امراء الولايات لايتمتعيينهم في الولايات الا بعد تعيينهم مدة من الزمن في امارةالسناجق حتى يكون الواحد منهم عارفا مدربا على أمور الادارة وكذلك أمراء السناجق لايتم تعيينهمالا بعدالتاكد من ولائهم للدولة ومعرفتهم بأمور الدين . وتنحصر أنظارهم فيمافيه عمران البلاد ورفاهية العباد أيامالسلم ، فاذاوقعت حرب ساروااليها بجنود منظمة وأسلحة تامة (٢) .

فتقدمت الفتوحات في عصرالسلطان سليمان الاول (القانوني) ،وبلغت أوج مجدها ، وأخذت بعده في التوقف تارة والتقهقر تارة أخرى(٣) ،ولعل السر في ذلك أنالدولة لمتجد فسحة زمنية لدراسة هذه الفرعيات من هذه الأصول وتفهمها(٤) .

---

(١) محمدعبداللطيف البحراوي : فتحالعثمانيين عدن ، ص ٨٤.

(٢) احمد جودت باشا : تاريخ جودت ،ج ١ ،ص ٩٧.

(٣) محمد فريد بك المحامي : تاريخالدولة العلية ،ص ٢٥٢.

(٤) محمد عبداللطيف البحراوي : المصدر السابق ، ص ٨٤.

قيل في المثل "الورد يلازمه الشوك ،والدفينة تأوي اليها الأفاعي " فقد كانت الثروة التي جمعت بسبب الفتوحات العديدة والغنائم الكثيرة داعية الى الشهوات والوقوع في الأخطاء التي أفسدت نظام الدولة وتساهل السلاطين بالحفاظ عليها (١) ، وكل أمة سادت فيها المفاخرة في المصرف والتعالي في الزهو والترف ،لابد لها من التأخر(٢) .

لهذا مرت الدولة العثمانية بعصرين متميزين أولهما ماتسميه بعصر عظمة الدولة أو بمعنى آخر عصر السلاطين العشرة الأوائل والأقوياء أو عصر قوة الدولة ،وعصر استقرار النظام فيها ،وقد تشكل هذا وترتب على صلاح العناصر الثلاثة التي ارتكزت عليها الدولة في عصرها الأول وهي السلطان والشيخ والجندى . فالدولة قوية مالم يتسرب الخلل الى السلاطين او الى هيئة كبار العلماء أو الى القوة المحاربة في الدولة وهم الانكشارية (٣).

وكان العثمانيين قد استلهموا أن الفتح يستلزم عناصر أربعة أيضا هي الرجال والمال والممتلكات ثم القوانين فنقص احداها يسبب ضياعها جميعا ويؤدى الى انهيار الدولة بأسرها (٤) .

فقد كان الأمراء من أبناء السلاطين في العصر الأول يقودون الجيوش فيصحبون الانكشارية مع أبنائهم في ميدان القتال أو لادارة احدى الولايات فاذا وصلوا الى عرش السلطنة كان باستطاعتهم ادارة الحكومة ادارة حازمة فيقومون بتطبيق ماتعلموه من علوم على حياتهم العملية (٥)،وكان الانكشاريون

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ،جـ ١ ، ص ٤٧.

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٢٥٢.

(٣) خلف دبلان الوذيناني : الاحساء في القرن الثاني عشر الهجرى، (رسالة ماجستير ،نوقشت بجامعة أم القرى عام ١٤٠٥ هـ ،لم تطبع) ،ص ٦١.

(٤) محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ، ص ٨٤ .

(٥) محمد عبد اللطيف البحراوى : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٤٠.

لايخرجون الى الحرب الا اذا كان السلطان او احد ابنائه معهم ،ولذا كانت أهم الحروب والغزوات تحت آمرة السلطان وقيادته أو أحد أبنائه ،لأنه ان لم يخرج بنفسه أو ابنه لماحاربت الانكشارية التي هي الدعامة الأولى في الحروب (١).

ولذلك نلاحظ أن الخلل تسرب الى الدولة من خلال عناصرها الأساسية وذلك عندما أتى بعد السلاطين الأقوياء سلاطين ضعفاء كانت أوضح صفاتهم الخجل وعدم الكفاءة ، فأسندوا السلطة الى الصدور العظام والوزراء والحريم (٢).

وقد ظهر ذلك جليا عندما غير السلطان سليمان الأول هذه السنة الحميدة وأجاز للانكشارية القتال تحت امرة قائدهم الأكبر ولو لم يكن السلطان موجودا فكان هذا التغيير سببا في تقاعس أغلب من جاء خلفه من السلاطين عن الخروج من قصورهم وتفضيلهم البقاء بين غلمانهم وجواريهم على مختلف الأجناس على الخروج للقتال وتكبد المشاق (٣).

اضافة الى ذلك عندما بلغت قوة الدولة درجة الكمال في عصر السلطان سليمان ، احتجب السلاطين عن الناس وتركوا الحضور الى الديوان مع أنه قبل ذلك كان السلطان يحضر الى الديوان ويلقى السمع الى الأمور من وراء حجاب وكان منصب الصدارة لايوجه الا لمن ثبت لياقته وأهليته بين الوزراء ،واستعمل في السنجق ثم امارة الولايات ثم امارة أمراء الأناضول ثم امارة أمراء الروم ايلي ، وجرب أحوال العالم ، لاياخذ هدية ولا رشوة على توجيه المناصب بل كان الاستحقاق سائدا والأهلية معمولا بها (٤).

لكن السلطان سليمان الأول خالف أسلافه حينما عين لمقام الصدارة رأسا ابراهيم آغا بعد أن أصبح الوكلاء بمثابة آلات في يده والا لم يكن نصب

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢٥٢.
(٢) محمد عبد اللطيف البحراوى : حركة الاصلاح العثماني ،ص ٤٠.
(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ٢٥٢.
(٤) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ،ج ٢ ،ص ١٠٣.

ابراهيم آغا الذي تربى تحت أنظاره مضرا بالدولة في زمانه ، الا أن هـــذا العمل كان مثالا سيئا احتذى من بعده ، حيث آخذ خلفاؤه سلاطين عصـــر الدولة الثاني هذا العمل سنة وساروا عليه ، حيث آخذوا يعينون في مناصـــب الوزراء من يرغبون فيه بالرغم من آن بعضهم كان من الشباب غير المجـــرب لأمور الحياة ، ولعدم معرفتهم بادارة هذه المناصب السلطانية فانهم كانـــوا يصدرون آحكامهم عن عدم خبرة أو معرفة بل حسبما يرونه ومن غير آن يتنازلوا باستشارة آهل العلم والمعرفة ، غير مراعين في ذلك للأحكام القانونية . فاختلت أنظمة الدولة وتبدلت قوتها ضعفا .

ومعروف آن اسناد الأمور لمثل هؤلاء مخالف للقاعدة الكلية المبنيـــة على منطوق الآية الكريمة ﴿ ان الله يامركم آن تؤ دوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾(١) .

ومن جملة مايلاحظ أيضا على سلاطين هذه الفترة آن السلطان سليـــم الثاني الذى خلف والده السلطان سليم الأول ماكاد يجلس على كرسي السلطنـــة حتى ولى آغوات الانكشارية قائدا للبحرية ، وحيث آن هذا الرجل يجهـــل آمر البحر فقد كان سببا في حرق الأسطول الهمايوني في مرسى (بانتو)(٢) .

وبما آن الموضوع هوخلل السلاطين ، اذ لايهمنا استعراض آعمالهـــم السياسية ، بقدر مايهمنا استعراض اجمال أسباب ذلك الخلل ؛ فانه اضافـــة الى ماسبق ، فقد كانت الفترة الواقعة بين وفاة السلطان سليمـــان الأول (القانوني) سنة ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م حتى تولية السلطان سليم الثالث سنة ١٢٠٤هـ/١٧٨٧م وهي مايقارب مائتين وثلاثون سنة حكم الدولة خلالها سبعة عشر سلطانا كـــان منهم ثلاثة سلاطين (٣) على درجة عالية من الكفاءة آما السلاطين الآخرون فقـــد كانوا يتصفون بالضعف . كما آنهم كانوا لايمارسون الحكم الا بواسطـــة

---

(١) سورة النساء آية (٥٨) .

(٢) احمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ٣ ، ص ١٠٣ .

(٣) (محمد الثالث (١٥٩١-١٦٠٣) ، ومحمد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) مصطفى الثالـــث (١٧٥٦-١٧٧٣)) .

عبد العزيز نوار : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ١٥٣ .

وزراء كانوا مثالا للفساد والانحدار، وكان بعضهم قد وصل الى الحكم وهم صبية صغار مثل كل من السلطان أحمد الأول، والسلطان عثمان الثاني، فانهما وصلا الى السلطنة في سن الرابعة عشرة فكان مصير السلطان عثمان الثاني القتل، كما تولى محمد الرابع بعد وفاة والده في السنة السادسة من عمره (١) .

ومن السلاطين من كان معتوها، مثل مصطفى الأول، وكم سلطان عزل عن منصبه بمهانة وتحقير، كما كان عدد من السلاطين قبل أن يتولوا العرش مجرد سجناء في ظلمات سوداء انعكست هذه المظلمة على سلوكهم خلال حكمهم للدولة، فمنهم من كان شديد الاسراف في المظاهر والقتل، ومنهم من شغل بالقنص والنساء والشراب وسطى على مالية الدولة وأخذ الرشوة، وباع المناصب (٢)، والحق قد ظهر في نهاية عصر السلطان سليمان الأول (القانوني) لقاء الأمراء بجانب الحريم بدلا من قيامهم بادارة حكم الاقاليم وقيادة الجيوش وتمرينهم على الحروب (٣)، وبالرغم من أن السلطان سليم الثاني كان يتدخل من وقت لآخر في ادارة شئون الدولة ومحاولة ضبط الأمور، الا أنه قضى جل سنوات عمره بجانب نساء القصر، تاركا حكم البلاد في يد الصدر الأعظم محمد صوقوللي (٤) . وكانت النتيجة هي "بدأت سلطنة الحريم" كما أوضحنا من قبل، التي برزت بشكل واضح في هذا العصر، عصر الخلل في الدولة العثمانية وضعف السلاطين وذلك بعد أن تخلى السلطان عن تدريب أبنائه على الحروب وادارة الولايات، فركن الأمراء الى حياة الترف والنعيم وقضاء حياتهم بين حريم القصر دون أن يكتسبوا علما أوخبرة تفيدهم عند توليهم سلطنة البلاد (٥) .

---

(١) عبدالعزيز نوار : تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ١٥٣
، خلف دبلان الوذيناني: الاحساء في القرن الثاني عشر الهجرى، ص ٦٢.
(٢) عبدالعزيز نوار : المرجع السابق، ص ١٥٣-١٥٤.
(٣) محمدعبداللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن، ص ٩٤-٩٥.
(٤) أحمدعبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني، ص ١٤٨.
(٥) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ١٤٨.

وهذا يعني أن الأمراء من أبناء السلاطين قد ركنوا الى الدعة حتى اذا وصلوا الى عرش السلطنة فانهم ليسوا على مستوى عرش الخلافة [(١)] وكان لنساء البلاط تأثير قوي على السلاطين وخاصة السلطانة الوالدة [(٢)] ،هؤلاء الحريم كانوا في عهد السلاطين الأول في شبه عزلة ، عن بقية الخاصة السلطانية ، وكن قليلات التأثير على تسيير أمور الدولة [(٣)].

ولكن منذ عهد السلطان سليمان الاول بدأ تأثير الحريم على السلطان وسياسته اذ وقع تحت تأثير زوجته خرم سلطان المعروفة باسم (روكسلانا) التي تدخلت للتآمر ضد ابنه الاكبر الأمير مصطفى من زوجة آخرى وعلى أثر هذا التآمر قتل الأمير لتضمن لابنها سليم الثاني العرش بعد وفاة والده [(٤)] .

ولكن عندما بدأ الضعف يدب في جسم الدولة أصبح تدخلهن واضحا ،وكان ذلك يعد من أهم الأسباب في فساد نظم الدولة وانحلالها . فالسلطان مراد الثالث (٩٨٢ - ١٠٠٤ هـ / ١٥٧٤-١٥٩٥م) وقع تحت تأثير حاشيته وندمائه وخضع لسيطرة والدته وزوجاته وكبيرة وصيفات القصر ، فأخذت هؤلاء في التدخل في شئون الدولة العامة لتحقيق مصالحهن الخاصة ،وعملن على اجبار رجال الدولة بما فيهم الصدر الأعظم على تنفيذ رغباتهن ، وتدبير المؤامرات اذا رفضوا أحيانا تنفيذ رغباتهن [(٥)].

---

(١) محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢٧٠.
،محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ،ص٩٨.

(٢) عبد العزيز نوار : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ١٥٤.

(٣) أميرة المداح : العثمانيون والامام القاسم بن محمد بن علي في اليمن ، (الطبعة الاولى ،جدة ،مطبوعات تهامة ،١٤٠٢ هـ ،) ص ١٥٠.

(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى :في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٠٢.

(٥) أميرة المداح : المرجع السابق ، ص ١٥٠.

وهذا على سبيل المثال لا للحصر ، بل أكثر النماذج أو الأمثلة الواردة أصبحت احداث متكررة تحدث طوال فترة ضعف الدولة العثمانية سواء ماسبق منها أوماسيلحق على شاكلة ذلك ، وخاصة حينما تولى المناصب العليا وزراء جهلة لايعرفون شيئا عن أحوال سياسة الدولة وليست لهم تجربة سابقة بأمور الادارة في الدولة ولايهتمون بشيء من الاصلاح ،وكان بعضهم ينتمون أصلا الى عناصر أجنبية لايهمهم مصلحة الدولة .

كما كانت قصور السلاطين والوزراء وكبار رجال الدولة مملوءة بالأجنبيات من الجوارى والسبايا الحسان ، وكان بعضهن عيونا لدولهن لكشف مواقع الضعف في الدولة العثمانية لدولهن (١) ، وأهمل بعض السلاطين عقد الديوان الذى اقتصر على المراسيم والأعمال المظهرية ،وفسد القضاء وأصبحت الأمور تسير فيه بالرشوة لاكما كان بالعدل في عصر سلاطين الدولة العثمانية الأول (٢) .

ونتيجة لذلك تسرب الخلل والفساد الى طبقة العلماء الذين كانوا ياتون في المرتبة الثانية في الدولة بعد السلطان ،فقد كانت السلطة القضائية في يدهم ، فالكتاب والسنة هما مصدر التشريع ،فاذا قال العلماء في قضية هذا أمر الله قال الكل السمع والطاعة ، فلا يخالفه أحد (٣) .

لهذا كان من حق كل عثماني حق الانتظام في هيئة العلماء والقيام بتدريس الطلاب في مدارس ملحقة بمساجد المدن الهامة معروفة باسم (صوفت) حيث يدرس فيها الطلاب اللغة العربية والفلسفة والفلك وعلوم الدين ، فيعقد لهم امتحان يختارون فيه المتقدمون للاستمرار في الدراسة لاعدادهم لمناصب القضاء ، أما البقية الباقية فيلحقون أئمة للمساجد.

---

(١) محمد كمال جمعه : انتشار دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب (الرياض ،مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ،١٣٩٧/١٩٧٧) ص ١٢.

(٢) عبد العزيز نوار: تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ١٥٤.

(٣) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ،ج ١ ، ص ١٢٤.

فيخضع المختارون لبرنامج دراسي مطول ،ويخضعون كذلك لامتحانات متتالية حتى يصل كلمنهم على درجة ملازم ، وهي أول رتبة في سلكالقضاء ، ومن هؤلاء يختار القضاة ونوابهم ، أما من يريد رتبة مدرس فعليه أن يواصل دراسته التي تصل مدتها الى سبع سنوات فوق دراسته العادية ، ومن شروطها أن يجتاز الدارس امتحانا صعبا باشراف مفتي الدولة نفسه ، ومن هؤلاء يتم اختيار من يشغلون مراكز القضاء العليا بكل اتقان بعلمهم بعلوم الشريعة الاسلامية (١) .

وحين اختل نظام العلماء اختلت معه الطرق العلمية للتدريس بالتالي ، اختل النظام الأساسي للاختبار الملازمين والقضاة فدخل في هذه المهنة أشخاص غير مؤهلين لوظائف الملازمة والقضاء (٢) ،بعد أن كان العلماء الحقيقيين يصلون الى مراكزهم بعد اجتياز عدة مراحل من التعليم والامتحانات فتسرب الخلل الى هذه الهيئة لان هذا العصر عصر الخلل ،فكان أولاد العلماء يعفون من الدراسة المنتظمة ، ويمنحون الاجازات العلمية دون أن يعقد لهم الامتحان وهم في بيوت آبائهم ،اضافة الى بعض مناصب السلكالتي تمنح لهم كانعام ، فقد وصل كثير من ذلك الصنف الى قمة هيئة العلماء دون مشقة أو عناء (٣) .

ومن مظاهر ذلك الاختلال في طبقة العلماء أنه أصبح القضاة يبيعون أوراق الملازمة فيصبحون ملازمين بواسطة الدراهم والدنانير ، وفي مدة قصيرة يصل هؤلاء الى وظائف القضاة والمدرسين ، ونتيجة لذلك امتلأت المدارس بالجهلة (٤) .

---

(١) أحمدجودتباشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ١٢٨-١٢٩.
، محمدعبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ،ص ٤١.

(٢) أحمد جودت باشا : المصدر السابق ، ص ١٢٥.

(٣) محمدعبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ،ص ٨٠.
، أحمد جودتباشا : المصدر السابق ، ص ١٢٥.

(٤) أحمد جودت باشا : المصدر السابق .

ولعل هذا هو السر في وجود مجموعة ضمن هيئة العلماء في ذلك العصر تتصف بالجهل في الاسلام وأحكامه [(١)] وذلك بعد أن أهمل امر التقدم والامتياز في العلم والاستحقاق والأهلية في العمل واعتبر أمر الاقدم فالاقدم قاعدة استثنائية تعرف باصطلاح المدرسين بالظفرة ، وهي أن المنتسبين الى ذوى الشرف والمتذرعين بواسطة ذوى الشفاعة من المقربين كانوا يتقدمون على كثير من القدامى ، وهذه القاعدة أيضا أخذ بها في تعيين رتبة الصدور والموالي [(٢)] .

وهنا نورد للقارىء تقريرا لبيان ما آلت اليه هذه الهيئة من فساد. كتب هذا التقرير عبد الله افندى ، الحائز على رتبة قاضي روم ايلى في نظام الدولة حيث قال مانصه : " ان كثيرا من الذين أدخلوا في سلك التدريس نالوا المولوية ثم ترقوا الى رتبة قاضي عسكر الرفيعة من دون استحقاق ولا قابلية ولا أهلية ولافائدة تحصل منهم للدولة ،ومع ذلك فانهم يرون ذلك قليلا عما يستحقونه ، ثم انهم يتفاخرون ببلوغهم الى رتبة قاضي عسكر فيظهرون الجبروتية ويتكبرون ويصرفون اوقاتهم في ذكر مساوىء بعضهم والقيل والقالات في حق بعضهم الآخر ، فلاشغل لهم الا هذا، حيث أن هؤلاء بلغوا الى هذه الرتب السنية فأصبحت المحافظة على مقامها واعتبارها من واجبات السلطنة السنية ، ولاشك أن ادارة هؤلاء حمل ثقيل على الدولة بلافائدة ...) [(٣)] . ومن هذا النص يتضح لنا مدى ذلك الجهل المطبق المنتشر بين هؤلاء الفئة التي فرضت على المجتمع العثماني وما ينشأ عنها من قرارات وأحكام وفتاوى .

هذه الأمور أدت الى فساد وخلل كلي للبلاد والملة [(٤)]

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوى : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٨٠.

(٢) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ١٢٥.

(٣) أحمد جودت باشا : المصدر السابق ، ص ١٢٦-١٢٧.

(٤) أحمد جودت باشا : المصدر السابق ، ص ١٢٧.

أمـا الانكشارية ، فكما تسرب الخلل الى السلاطين ثم العلماء ،فقـد لحق هذا الخلل أيضابالانكشارية ، الذى أقاموا مجد الدولة ،فكـان يقيم هؤلاء في الثكنات منذ عهد السلطان أورخان ابن عثمان ،يواظبـون على تعلم الفنون الحربية ومتى سار السلطان ساروا معه ، فتسيـر كل فرقة بلوازمها في مزيد من الرغبة والطاعة والانقياد لضباطهم فكانـوا أثناء اقامتهم في الثكن لاتجول أفكارهم الا في كيفية الهجوم وانتظارهـم نداء الجهاد في سبيل الله اما النصر واما الشهادة ، لانهم تربوا منـذ الصغر على بذل النفوس متعطشين الى الجهاد غير مبالين بالوقوع في المهالك والمخاطر ، بل كانوا يتلقون العدو بصدورهم وقوة ثباتهم ،فكان الظفـر والغلبة متلازمين لهم • فاذا عجزوا عن الحرب ، تعطف عليهم الدولـة وتمنحهم معاش المتقاعدين وحينئذ يتزوج هؤلاء المتقاعدين (١) •

ويعني ذلك أن هذا العجز اما لكبر سن الانكشارى أو اصابته اصابـة بالغة في الحروب وبالتالي لايكون لائقا للخدمة العسكرية ،الا أنهـم كانوا يغذون الانكشارية بأبنائهم أيضا ، فكانت الممالك في ذلك الوقـت محفوظة ومحروسة من الظلم والاعتداء والثغور الاسلامية وحدودها منيعـة لايتجاوزها الأعداء ،فكان الشعب العثماني في ذلك راتعا في بحبوحة الراحـة والأمن في الحرب والسلم ، فأخذت الممالك في العمران يوما بعد يـوم ، فاتسع نطاق الدولة وزادت قواها ،وخاصة في عصر السلطان سليمـان الأول (القانوني)•

وكما أخذ الكمال يتدرج في أيام السلطان سليمان المشار اليه ،كذلك أخذ الانحطاط يتكون في الوقت نفسه ، غير أنه لم يشعر بهذا الانحطاط ، لأن الدولة كانت آنذاك في أزهى قوتها ، فأخذت الدولة في تطبيق القوانين على ما استحسنته عقول رجالهم ، وبهذه الأسباب ظهر الاختلال في نظام القوانيـن شيئا فشيئا ،وبعد فترة ظهرت آثاره السيئة (٢) •

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ،ج ١ ،ص ٩٧•

(٢) أحمد جودت باشا : المصدر السابق، ص ١٠٢ •

هذه القوانين التي أصدرها سليمان القانوني ، وطبقها وهو اجازة السلطان للانكشارية القتال تحت أمره قائدهم الأكبر ،ولو لم يكن السلطان موجودا. ولقد أعطى هذا النظام تقاعس أغلب من خلف السلطان عن الخروج من قصورهم ، وتفضيل البقاء مع الغلمان والجواري (١).

ومعنى ذلك أن الانكشارية هي أساس قوة الدولة كما ينطق به تاريخ الدولة نفسه ،وسبب عظمتها ، ثم صار سبب توقفها ونكستها وضعفها ،خاصة حين قبع السلاطين في السراي كما أشرنا الى ذلك سابقا ، مما أدى الى ضعف الروح العسكرية والقتالية والنظام في الجيش الانكشاري الذى كان رمز قوة الدولة .(٢)

لذلك كان هؤلاء الانكشاريون أخطر العناصر التي تسرب اليها الخلل حينما قاموا بحركات عصيانية وتوالت هزائمهم في كافة ميادين الدولة ،وأصبحوا مصدر اضطراب وفوضى في العاصمة (٣) .

والحقيقة أن نظام الانكشارية تعرض نتيجة لذلك للتصدع منذ عهد السلطان مراد الثالث حين سمح في سنة ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م بدخول عدد كبير من المجندين غير المدربين في صفوفهم، بالرغم من معارضة اغا الانكشارية ويعتقد أن مراد كان راغبا في افساد تنظيم الانكشارية ،بعد أن لاحظ مدى خطرهم على الدولة لقوة نفوذهم (٤) .

أما الرواية الثانية هي أنه عندما احتفل بختان ابنة محمد ،تزاحمت الاقدام لحضور هذا الختان حتى مات منهم خلق كثيرون دهسا تحت الأرجل بسبب كثرة الحضور فأسهم بعض الأجلاف في حفظ النظام ، فالح عليه أقرباؤه، وندماؤه بادخال هؤلاء الأجلاف ضمن صفوف الانكشارية كنوعا من رد الجميل

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٢٥٢.
(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي: حركة الاصلاح العثماني ،ص ٨٢.
(٣) علاء موسى ،كاظم نورس : مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية، (المجلة التاريخية المغربية ،السنة التاسعة ،العدد ٢٥-٢٦) ١٩٨٢ ص ١٠٤.
(٤) خلف دبلان الوذيناني : الاحساء في القرن الثاني عشر الهجرى ،ص ٨٣.

أو التشريف او مكافأة لهم لهذا العمل [1]،بعد أن كانت الانكشارية منذ نشأتهم سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م الى زمن السلطان مراد الثالث ٩٨٢ ـ ١٠٠٥هـ / ١٥٧٤-١٥٩٠م لايسمح الانتظام في سلكها الا الغلمان الاعاجم فصار بعد ذلك عادة جارية يقبلون الاخلاط ،ولو كان طالب الانضمان في الانكشارية تاجرا أو صانعا أو غيرهما ، مما اعتبر نوعا من المفاخرة ، فآل ذلك الى فساد هذا النظام خاصة بعد أن انتظم فيه الكثير بالهدايا والرشوة [2] ممازودها بعناصر فاسدة ،وذلك عندما سمح للانكشارية بالزواج والاقامة خارج ثكناتهم فأصبحوا لايهتمون بتدريباتهم وواجباتهم العسكرية ، وبهذا فقدوا قدرتهم وفنياتهم العسكرية وقدراتهم القتالية فانشغلوا بحركات العصيان والعنف كبديل لهذه الخدمة الشريفة التي حل محلها الشقاق والنفاق والمجاملات والمنفعة وهي الأهم ،فأصبح لايأتي الانكشارى الى ثكنته الا لأخذ مرتبه أو الاشتراك في حركة عصيان ضد الدولة [3] .

وقد نتج عن زيادة الانكشارية زيادة في العبء المالي والاجهاد على خزانة أو صندوق الدولة كثيرا ،مما أوجد بالتالي العجز المالي أو الاقتصادى لرواتب الجند الانكشارى [4] حيث لجأت الدولة الى خفض العملة عدة مرات لجي تواجه تلافي هذه الازمة المالية من أجل دفع رواتب الجيش التي زادت أعداده بشكل ملفت للنظر للأسباب المشار اليها أعلاه .

وهذه الأزمة أدت الى نشوب ثورات في العاصمة قام بها الانكشارية أولا ثم تلى ذلك بسنوات قليلة أن انتقلت الثورات الى فرق الخيالة [5]

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ،جا ،ص ١٠٤-١٠٥.
- هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني "(مجلة الهلال ج ٨ ،١٩٠٨ م)، ص ٤٦١)

(٢) هيئة التحرير: تاريخ الجند العثماني : المرجع السابق ،ص ٤٦١.

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوى : حركة الاصلاح العثماني ،ص ٨٣.
ارنولد تونبي : تاريخ البشرية ،نقله الى العربية ،نقولا زيادة (بيروت ، الأهلية للنشر والتوزيع ،١٩٨٢م ،ج ٢ ص ١٣٥.

(٤) عبد العزيز الشناوى : في مطلع العصور الحديثة ،ج ١ ،ص ٧٥٥.
،اميره المداح : العثمانيون والامام القاسم ، ص ١٤٤.

(٥) علاء موسى كاظم نورس : مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية (المجلة التاريخية المغربية ، السنة التاسعة ، العدد ٢٥، ٢٦، ١٩٨٢م)

وزاد هذا العجز أيضا فوضىواضطرابات الانكشارية ، ففي عصر السلطان مصطفى الثاني (١١٠٧ - ١١١٥هـ / ١٦٩٥-١٧٠٣م) تعددت ثوراتهم من أجل مرتباتهم [١] .

عندها أصبح نظام الانكشاريةنظاما للارتزاق ،حتى صار لكل ضابط أو جندي تذكرة يحصل بمقتضاها على راتب (علوفه) نقدية أو عينية ، ولما ضعفت الدولة وقصرت في دفع رواتبهم تولى هؤلاء تحصيل حقوقهم بالقوة ،أو بيع تذاكرهم لمن يدفع قيمتها ، والشاري يصبح صاحب التذكرة وبالتالي يصبح انكشاريا ،حتى وجد في قوائم أسماء الانكشارية آلاف من أصحاب الحرف والسيدات بسبب ذلك [٢].

وهكذا بذرت بذورالفساد ، ودخل الانكشارية عناصر لايعرف أصلهم ولا منشأهم فكانوا بذلك علة خراب فتزايدت أسماء الانكشارية يوما بعد يوم ولكنالاشخاص الذين يعول عليهم في الحرب تناقصوا وحل محلهم هؤلاء الصعاليك [٣] فكان هؤلاء الرجال حين يطلبون التسجيل رسميا ،كان الاجراء مغريا ، فقد يحلفون يمين الانضمام ثم بعد ذلك يلبسون شعار كتيبتهم (أورطتهم) الموشوم على اذرعتهم وسيقانهم ،وحينما يتم ذلك فانهم يتمتعون بمركز ممتاز فمثلا كانوا يشبهون الانكشارية الاصليين في اعفائهم من عقاب السلطات المدنية ،وكانوا يستطيعون ان يسخروا نفوذالفرقة لمصالحهم كما أن الانشكاريين الاصليينقد حصلوا بهذه الاعداد على قوة جديدة او اضافية تعينهم علىالتمرد أكثر [٤] .

---

(١) محمدعبداللطيف البحراوى: حركة الاصلاح العثماني ، ص ٨٤.

(٢) عبدالعزيزنوار: تاريخ الشعوب الاسلامية ،ص ١٥٦.
،علاء كاظم نورس ، مسئولية الانكشارية فيتدهور الدولة العثمانية ، (المجلةالتاريخية المغربية ،السنة التاسعة ،العدد ٢٥ ، ٢٦، ١٩٨٢) ص ١٠٨.

(٣) أحمد جودت باشا: تاريخ جودت ،ج ١ ص ١٠٥.

(٣) علاء كاظم نورس : مسئولية الانكشارية فيتدهور الدولة العثمانية ،(المجلة التاريخية المغربية ،السنة التاسعة ،العدد ٢٥ ، ٢٦، ١٩٨٢) ،ص ١٠٨-١٠٩.

فدب الفساد في الانكشارية في أول القرن الحادي عشر الهجري الموافق للقرن السابع عشر ، بشكل ملفت للنظر ، وأخذ هذا الفساد يتزايد ويستشرى وكان علة العلل هو فساد الحكم واضطراب المجتمع ، اختلال الجند ونظامها .

وهنا يمكن القول بأن حركات الانكشارية من ثورات وتمرد وشغب وعصيان منذ ثورتهم على السلطان عثمان الثاني (١٠٢٧-١٠٣٢هـ/١٦١٨-١٦٢٢م) حتى ثورتهم على السلطان سليم الثالث (١٢٠٤-١٢٢٢هـ /١٧٨٩-١٨٠٧م) كانت تمثل صورة واحدة ومتكررة ، من حيث الأسباب والنتائج . فقد قاد عثمان الثاني جيشا منهم وعبر بهم نهر بروث ، فهزم البولونيين المجتمعين على نهر دينستر ، تلك المعركة التي أعادت للمسيحية الخوف والقلق ولكن تمرد الانكشارية وعدم انقيادهم قلب ميزان الانتصار الى نصر غير حاسم فعقد صلحا استفاد به البولونيون ، فاشتد الضيق بعثمان وقرر أن يستخدم جندا غير هؤلاء [1] ، فعزم على استبدالهم وأمر بتجنيد جيوش جديدة من ولايات آسيا وتنظيمها وتدريبها على القتال ، لكن جنود الانكشارية أحسوا بذلك التنظيم ، فهاجوا وماجوا وتذمروا وعقدوا الامر على عزل السلطان عثمان الثاني وكان ذلك في سنة ١٠٣١هـ/١٦٢٢م فتم لهم ذلك ، وعينوا مكانه السلطان مصطفى الأول [2] ، ولكنهم لم يكتفوا بعزله بل اقتحموا قصره وقادوه قهرا الى ثكناتهم ثم نقلوه من ثكناتهم الى القلعة المعروفة بذات السبع قلل (يدى قلة) ، حيث كان بانتظاره داود باشا وأعوانه ،

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوى : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٨٣.
، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢٧٨.
، عبد العزيز نوار : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ١٥٥-١٥٦.
، آرنولد توينبي : تاريخ البشرية ، جـ ٢ ، ص ١٣٥.

(٢) الذى عين خلفا للسلطان احمد الأول ، ولكنه لم يلبث في الحكم سوى ثلاثة أشهر تقريبا ، ثم عزله أرباب الحاجات والغايات وفي مقدمتهم المفتي وقيز أغاسي ، وساعدهم في ذلك الانكشارية لتوزيع الهبات عليهم لتعودهم عند تولية كل سلطان جديد ، فعزل سنة ١٠٢٧ هـ الموافق ١٦١٨م ، وعينوا مكانه السلطان عثمان الثاني .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٧٨.

فاعدموا السلطان غير مبالين بهذا الجرم العظيم (١) . وكان هذا أول سلطان عثماني يقتل على أيدى رعاياه ،وكانت الخمس عشرة سنة التالية عصرا مخيفا ،وذلك لأن الانكشارية والسباهية (الفرسان) قاموا بالتمرد والعصيان وعاثوا في البلاد طولا وعرضا (٢)، وبعد هذه الاحداث الدموية أصبح للانكشارية شأن سياسي آخذوا من خلاله في اغتصاب سلطات السلطان كما اصبح أمر تصريف شئون الدولة تحت قبضتهم ، فأرهبوا الحكام وأخذوا ينصبون الوزراء ويعزلونهم على حسب أهوائهم ،فعزلوا داود باشا قاتل السلطان بعد بضعة أيام من منصبه وصاروا يمنحون المناصب لمن يجزل العطايا فكانت الوظائف تباع علنا (٣)، فأنكرت المدن كل طاعة للدولة ، وصارت العاصمة ميدانا مخيفا للمذابح البشرية (٤) . ومنذ ذلك الوقت سرى انحلال الانكشارية في الولايات وفشل الباشوات في مواجهة أعمال العدوان التي كانوا يقومون بها (٥) .

فتطورت هذه الأحداث واضطربت الولايات بسبب تمرد الانكشارية وأعوانهم فأشهر والي طرابلس الشام استقلاله وطرد الانكشارية من ولايته فانتهج أثره والي ارضروم المدعو أباظة باشا مدعيا أنه يريد الانتقام للمرحوم السلطان عثمان الثاني شهيد الانكشارية ، فسار بمن تبعه الى أن وصل أنقره فاستولى عليها ،وصادر كلما آل الى الانكشارية من التزامات واقطاعات ملكا للسلطان ، كما أنه قام بالقبض على كل من وقع عليه بصره من الانكشارية .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٢٧٨.

(٢) محمدعبد اللطيف البحراوى : حركة الاصلاح العثماني ،ص ٨٣.

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٢٧٨-٢٧٩. ،علاء كاظم نورس : مدى مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية (المجلة التاريخية المغربية ، السنة التاسعة ، العدد ٢٥-٢٦ ، ١٩٨٢م) ص ١٠٤ .

(٤) محمد عبد اللطيف البحراوى : المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٥) علاء موسى كاظم نورس : المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

فاستمرت هذه الاضطرابات والفتن الداخلية مدة ثمانية عشر شهرا متوالية شعر بعدها المفكرون بما ورثته هذه الفوضى من انحلال الدولة وخرابها والتي شبع منجراشها بالمال المتمردون عن طريق النهب والسلب طوال هذه المدة حتى ارتبك النظام وصار عدم النظام هو الصفة السائدة في البلاد، عندها أسند أمر الدولة الى على باشا صدرا أعظم ، فاشير عليه بعزل مصطفى الأول مرة ثانية ، لضعف عزيمته ووهن قواه العقلية ، فعزلوه وعينوا مكانه السلطان مراد الرابع سنة ١٠٣٢هـ /١٦٢٣م .

وحينما تسلم مراد الرابع سلطنة البلاد كانت الدولة تواجه أخطارا وكوارث اذ كان يصل من كل أجزاء الدولة رسائل وتقارير جامعة أنباء غير سارة ، فهؤلاء الفرس يرابطون على الحدود ، أما الثائر أباظة باشا[1] صاحب الأمر والنهي في آسيا الصغرى ، فقد استولى عليها ، وهناك بعض القبائل الخارجة عن طاعة الدولة علنا ، كما أن حكام مصر والولايات الأخرى آنذاك أصبح ولاؤهم يتأرجح ، وليس هذا فقط ، بل ان الأساطيل القوقازية المغيرة لم تكتف بما كانت تسلبه باستمرار على طول البحر الأسود فأخذت تنتقل الى البوسفور وراحت تنهب الأماكن القريبة جدا من العاصمة .

أما في اسطنبول نفسها فان الخزينة كانت خاوية ، ودار الصناعة معطلة والنقود قليلة القيمة لانخفاض قيمة الذهب والفضة فيها لتلافي النقص الحاصل أثناء سكها ، كما أن مخازن الذخيرة كانت تفتقر الى الذخائر والمعدات العسكرية ، وسكانها في حاجة للغذاء ، أما الجند فانه بلغ بهم الفجور أقصى مراحله [2] ، فكان السلاطين يخشون الدخول في ذكر مسألة الاصلاح لهذه المسألة الخطيرة ، "خوفا من الانكشارية حتى قال يوما الصدر الاعظم للسلطان مصطفى الثالث أفندم آن هذا الجيش لاينفع العصر وضروري من

---

(١) محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢٧٩ .

(٢) علاء موسى كاظم نورس : مدى مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية (المجلة المغربية السنة التاسعة ، ١٩٨٢م ، ع ٢٥-٢٦ ، ص ١٠٦) .

ايجاد النظام الجديد ، فاندهش السلطان ونظر يمينا وشمالا هل موجود في محضره من يفشي هذا القول للبيكجريين ، ثم قال: ان جيشنا عظيم يريد بذلك اخفاء هذا الخبر ،وغمز الى الصدر الأعظم بالسكوت ،وبعد هذا المجلس طلب الصدر الأعظم بمفرده وقال له : انك قلت قولا عظيما يخشى منه الخطر، أما أنا ففي حيرة من قبل توليتي السلطة بسنين عديدة في مسألة اختلال الجيش ولكن خوفا من الخطرات العظيمة أخفي هذا الداء في جوفي كالقروح " . ثم سأل يوما أحد رجال الدولة جنديا انكشاريا ماذا تقول في النظام الجديد؟ فكان جوابه اننا ماكفرنا ولن نكفر ، يريد القول أن اتخاذ النظام الجديد ضرب من ضروب الكفر (١) .

والحق لانريد أن نسهب في ذكر ضروب الفساد الذى حل بالانكشارية ، الذين تحولوا من أداة فعالة لبناء الدولة الى معول هدموهزيمة وتخريب وفساد استمرت تمرداتهم خلال القرن الثاني عشر الهجرى الموافق للقرن الثامن عشر الميلادى ،وقد أوردنا بعض النماذجمنها ،ولكن أخطرها تلكالتي حدثت في عهد السلطان أحمد الثالث ، اذ تمكن الانكشارية من فرض سيطرتهم التامة على العاصمة سنة ١١٤٣ هـ / ١٧٣٠م (٢)، وظلوا لمدة ثلاثة أيام متتالية يطالبون برأس الصدر الأعظم ، وعدد منكبار رجال الدولة على مختلف القطاعات ، وذلك لأسباب الانتصارات التي أحرزها الصفويون ضد القوات العثمانية في أراضيهم مما سبب اضطرابا وهياجا في العاصمة العثمانية (٣).

وقد اضطر السلطان أحمد أن يستجيب لمطلبهم خوفا من أن يطيح تمردهم بعرشه ، ولكن الشيء الذى خافمنه وقع ، حيث أعدم الصدر الأعظم واثنين من أعيان الدولة ، وبالرغم من انصياع السلطان احمد لهم وتسليمه بماطلبوه

---

(١) محمدعبداللطيف البحراوى :حركة الاصلاح العثماني ، ص ٨٤.

(٢) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت علية عثمانية ،١٩٨٢م ،جـ٢ ص ١٤١-١٤٢. ، علاء موسى كاظم : مدى مسئولية الانكشارية فيتدهور الدولة العثمانية (المجلة التاريخية المغربية ، السنة التاسعة ،١٩٨٢م ، ع ٢٥ — ٢٦)، ص ١٠٦.

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٣١٨-٣١٩. علاء موسى كاظم : المصدر السابق ، ص ١٠٦.

لم يمنعهم من التمرد والعصيان عليه ، فأعلنوا اسقاطه عن العرش [١] .

وهكذا تولى التمرد الانكشارية حتى أصبحوا ثقلا كبيرا على كاهل الدولة وصار كل سلطان يحاول التخلص منهم أو استبدالهم [٢] وعندئذ يثورون عليه فيعزلونه أو يقتلونه ،حتى أصبح هذا ديدنهم أو شعارهم ضد كل اصلاح ، رؤوس تريد المنفعة والسلطة ، وأفكارها محدودة لاتهمها مصلحة الدولة بل كانت الدولة ضحيتها [٣] . حتى عزم السلطان سليم الثالث على استبدالهم لاستبدادهم في أمور الدولة ،حيث يعزلون ويولون كمايريدون [٤] .ونتيجة لذلك لحق بالدولة العثمانية في المجال الخارجي طوال القرن الثاني عشر الهجرى الموافق القرن الثامن عشر الميلادى هزات خطيرة من الدول الأوربية [٥] .

فكان التوقف والركود ، بعد أن بلغت الدولة العثمانية شأوا رفيعا منذ عهد السلطان سليمان الأول من النصر والاتساع وبسطت رقعتها في ثلاث قارات ،سببا أدى الى انكماش الدولة وتدهورها وكثرت هزائمها التي أصابت الجيوش العثمانية ، وعقدت معاهدات تتلوها الأخرى لم تجن منها الدولة غير الذل والعار ، وفقدت من ممتلكاتها ، لضعف بعض السلاطين وجهلة الحاكمين وحمق السياسيين .

ولاننسى كما سبق أن هناك رجال كانوا يصلحون ويدعمون ،وقد أصابت العساكر بعض الظفر ، ولو كان ذلك قليلا في عصر الدولة الثاني [٦] . بعد الانتصارات التي أحرزها الأتراك العثمانيون عندما حملوا راية الاسلام ،

---

(١) علاء موسى كاظم : مدى مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية (المجلة التاريخية المغربية ، السنة التاسعة ،١٩٨٢،ع ٢٥-٢٦) ص ١٠٦ ، كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ،ج ٢ ،ص ١٤١-١٤٢ .

(٢) هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني(مجلة الهلال ،ج ٨ ،س ١٧ ،١٩١٨) ص ٤٦٧ .

(٣) محمدعبد اللطيف البحراوي:حركة الاصلاح العثماني ،ص ٨٤ .

(٤) هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني ، المرجع السابق ،ص ٤٦٨ .

(٥) علاء موسى كاظم : المرجع السابق ، ص ١٠٦-١٠٧ .

(٦) حسين لبيب : تاريخ الأتراك العثمانيين ،ج٢ ،ص ١١٤-١١٥ .

وساروا بفتوحاتهم صوب الغرب ، ولما داخلهم الغرور جنحوا الى الكسل ، وتهاونوا في الأخذ بمبادىء الاسلام الداعية للعمل والجهاد ، ومسايرة الزمن وتطوراته ،فانشغلوا بخلافاتهم وشهواتهم ،وأصبحوا فيغفلة من الحوادث العالمية ، وعما يخبئه القدر عندما قنع السلاطين العثمانيون بما حصلوا عليه من نصر حربي ، وهذه للأسف من الأسباب التي ساعدت على الركود[1] ، اضافة لما سبق .

ومنذ ذلك التاريخ بدأت عوامل الضعف تتسرب الى كيان الدولة وبنيتها الداخلية بشكل تدريجي وملحوظ ، ولم تظهر آثار هذه العوامل الا في سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٣م أثناء حصار فينا الثاني ، وما أعقبه من انسحاب الجيش العثماني[2] .

وكان انهيار الجيش العثماني بعد فشله في الاستيلاء على فينا مؤشرا أو نذيرا بفترة قادمة جديدة في علاقتها مع دول أوربا التي اتخذت سياسة هجومية بعد أن أدركت ضعف الدولة العثمانية [3] .

وكانت النتيجة انتصار المسيحيين في هذه الحملة على العثمانيين بقيادة السلطان مصطفى الثاني ، لاختلاف الجيش العثماني وعدم تنظيمه ، كما أن جزءا من الجنود الانكشاريين تمرد في ذروة المعمعة بالرغم من ثبات البقية الباقية من الجيش ، ولكنهم لم يستطيعوا الوقوف أمام التحالف الصليبي، وبعد هذه الكارثة لم يكن أمام الدولة الخيار الا البحث عن السلام بغض النظر عن الهزيمة التي تلقاها الجيش العثماني وقواده ، ولأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية يتم التوقيع على معاهدة (كارلوفتيز) سنة ١١١١هـ/ ١٦٩٩م على نهر الدانوب ، والتي خسرت فيها الدولة العثمانية ولاية بأكملها

---

(١) محمدعبدالله بن ماضي : النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، (الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ١٣٧٢هـ/١٩٧٢م) ص ٢٢-٢٣.

(٢) أورخان محمدعلي : السلطان عبدالحميد ،حياته واحداث عهده ،ص ٢٧.

(٣) أحمدعبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ١٥٥.

المجر بأكملها ، وترانسلفانيا ،وكانت هذه المعاهدة هي الاولى التى خرجت منها الدولة خاسرة •

وقد كان هذا الاتفاق ايذانا ببدء عصر جديد من تاريخ الشرق وانسحب الاتراك الى فينسيا ،ولم يكن الأمر مجرد خسارة العثمانيين لاقاليم واسعة بل كان تحطيما لآمالهم وتفوقهم العسكرى ، فظهر الخلل واضحا وجليا في أنظمة الدولة العثمانية وفي التكتيك العسكرى أمام تفوق النمسا أو التفوق الأوربي على المستوى الدولي •

يقول كريزى في هذا الشأن " منذ تلك اللحظة وصاعدا لم يكن هنالك أى خوف حقيقي من القدرة العسكرية التركية "•

وقد أصبح التفكك واضحا ومستمرا في الدولة العثمانية ،كما ظهرت عوامل ضعفها تزداد يوما بعد يوم ، بعد أن كانت الجيوش العثمانية متميزة بالشجاعة والقوة والمهابة (١) .

وهكذا كان صلح كارلوفينز الذى أنهى حرب مايسمى " بالعصبة المقدسة أول سلسلة من الاتفاقات بين العثمانيين والمحالفات الأوربية المشكلة ضد الدولة ،مما جعل انتقال موازين القوى أو قلب موازين القوى العثمانية من الهجوم الى الدفاع ،وقد وصف هذا الصلح بأنه أول تفكيك لاوصال الدولة العثمانية ، الذى استمر ببطء منذ ذلك الوقت • وكان اعتراف العثمانيين بالتنازل عن أراضي كانت تشكل جزءا من أملاكها مع بداية الانسحاب الفعلي العثماني من أوربا (٢).

وفي (سنة ١١٨٢-١١٨٨هـ / ١٧٦٨- ١٧٧٤م) خسرت الدولة العثمانية حربها مع روسيا لأول مرة في التاريخ (٣) • وبغض النظر عن الدخول في تفاصيل

---

(١) William Stearns Davis: A Short History of the Near East , pp. 271-272.

(٢) احمدعبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٥٨•

(٣) دخلت الدولة العثمانية في أربعة حروب مع روسيا قبل هذه المعركة ، انتصرت فيها جميعا •
- أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني حياته واحداث عهده ، ص ٢٧ ،حاشية رقم (١)•

المعارك الحربية التي دارت بين الطرفين ، ولكن النتيجة لهذه الخسارة هو عقد معاهدة (كوجيك كينارجي) التي حصل بها القرم على استقلاله ، وأمام هذا التوقف والركود بل التراجع بدأت الدولة في محاولات لاصلاح جوانب التدهور المختلفة والتي شملت النواحي الاقتصادية والعسكرية والسياسية والعلمية والنفسية [١] . ففي الوقت الذى كان فيه العثمانيون قد وضعوا أيديهم على مفاتيح الطرق العالمية الكبرى ،ولكنهم آثروا سياسة العزلة والانكفاء فعملوا على قتل كل فكرة اصلاحية جديدة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية فساعد ذلك على الركود والضعف ،وزاد من طمع الغرب فيهم رويدا رويدا لنشر سيادته ونفوذه واستقطاع مايريد من أملاك الدولة [٢] .

وهذا مما أدى الى ظهور اتجاه جديد في الدولة العثمانية بدعوة الى اصلاح الدولة ونظم الحكم فيها وهو الاتجاه المعروف بحركة الاصلاح والتجديد [٣] والذي واجه تحقيقه سلسلة طويلة من العراقيل ، لذلك فان الدولة العثمانية باصلاحاتها الجديدة لم تدخل في طور التأثير الا في القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للقرن التاسع عشر الميلادى كما سيأتي في بابه [٤] ، وبالتالي ظهرت المسألة الشرقية في وضعها الأخير ،حين انشغل القائمون بالامر حول السلطان بالدسائس والسعي وراء تحقيق الأغراض والأموال ،يضحون في ذلك بمصالح الدولة والصالح العام [٥] وهذا الضعف الذى أصاب الدولة في عصرها الثاني لكل من جراء الخلل كان امتداد لما أصاب السلاطين والعلماء والانكشارية من تدهور شامل كما مر بنا .

---

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ،حياته وأحداث عهده ،ص٢٧ .
(٢) محمد عبدالله ماضي : النهضات الحديثة في جزيرة العرب ،ص ٢٢-٢٣ .
(٣) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٦٢ .
علاء موسى كاظم نورس : مدى مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية (المجلة المغربية س ٩ ، ١٨٩٢،ع ٢٥-٢٦) ، ص ١٠٨-١٠٩ .
(٤) ساطع الحصرى : المرجع السابق ،ص ٦٢ .
(٥) محمدعبدالله ماضي : المرجع السابق ، ص ٢٥ .

- الخطة الجديدة للعالم المسيحي نحو الدولة : فشل الحلول العسكرية ، الغزو الفكرى ، سياسة الرجل المريض :

ان الغزو العسكرى هو غزو ظاهرى ويمكن مواجهته بنفس الأسلوب والقوة ، أما الغزو الفكرى فهو غزو خفي يعمل على تخريب المعنويات وتدمير النفوس ، كما أنه يعمل على تعطيل طاقات الأمم (١) .

والغزو الفكرى يكاد يكون من معطيات العصر الحديث الذى بلى بأنواع عديدة من مثل هذا الغزو ، آتى بها الاستعمار وعملاؤه مع ماجاؤا به للبلاد الاسلامية ، فالغزو الفكرى في التاريخ هو أن يحول العدو بين أمة من الأمم وبين تاريخها وماضيها المجيد وسير الصالحين من أسلافها ، للتشكيك فيهم وفي معتقداتهم الاسلامية (٢) . وان مفكرى الغرب ومؤرخيه من مستشرقين ومنصرين نتيجة لقوتهم المادية والعلمية التي وصلوا لها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الموافق للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين اعتقدوا أن قوتهم المادية هي أصل جميع الحضارات في التاريخ كما اعتقدوا ان العقلية الغربية هي العقلية الدقيقة التأمل والتي تستطيع أن تفكر تفكيرا سليما ، أما غيرهم من الشعوب وبخاصة الشعوب الاسلامية فان عقليتهم ساذجة بسيطة وذلك على حد تعبير المستشرق جب في كتابه " وجهة الاسلام " ،ويقصد أن العقلية الاسلامية تدرك الأمور بواسطة الجزئيات ولاتدركها ادراكا كليا (٣) ، ليحل محل ذلك تاريخ العقلية الأوربية أو الدولة الغازية وسير أعلامها وقادتها ،فيشب المثقف من أبناء تلك الأمة المقهورة وليس في نفسه مثل الا مايقرأ عنه في تاريخ الدولة الغازية ، وليس في خلده ابطال الا أبطالها ولا مفكرون الا مفكروها ، بل يصبح لايعرف من الحق والباطل الا مارأته هذه الأمة الغازية التي تشبع بأفكارها ومفكريها حقا أو باطلا ، فتتشوه رؤيته الحقيقية للناس والأشياء ، وبالتالي ينسى تاريخه المجيد التليد وسير الصالحين من أسلافه فيجنح عن حاضره ومستقبله ويضل عن معالم الطريق المستقيم (٤) . ففشل الصليبيين في حروبهم المتوالية على الشرق الاسلامي

---

(١) محمد جلال كشك : الغزو الفكرى ، (الطبعة الرابعة ، القاهرة ، المختار الاسلامي للطباعة والنشر ، ١٣٩٥هـ) ص ٧ .
(٢) على عبد الحليم محمود : الغزو الفكرى والتيارات المعادية للاسلام : من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الاسلامي لجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض سنة ١٣٩٦ هـ ،ص ٨ .
(٣) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ،ص ١٢٩-١٣٠ .
(٤) على عبد الحليم محمود : المرجع السابق ، ص ٨- ٩ .

كان دافعا للمزيد من الاهتمام بالدراسات الشرقية، وكان القرآن أول ماصبوا اليه سهامهم وثنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عرجوا بعد ذلك على خلفائه الراشدين ، ثم التاريخ الاسلامي الذى شوهوا حقائقه [(١)]، مما أدى الى ازدياد التعصب الديني للحقد على الاسلام ومقاومته ،فاتجهوا الى اتجاه فكرى جديد هو الاستشراق ، فقد اتخذه الغربيون المسيحيون طريقة طعن الاسلام والتغلب على المسلمين ، وقد شرع نفر منهم في تعلم اللغة العربية ، لاحبا فيها ،ولكن لاتخاذها وسيلة الى قراءة القرآن ومناقشته في محاولة لتشويه معانيه وتنفير الناس منه ،عن طريق الهدم المعنوي في حركة ظاهرها طلب العلم والبحث وباطنها المكر والخبث [(٢)] ، والكيد للاسلام والمسلمين عن طريق بتر الآيات القرآنية والمغالطة بها للتدليل على آرائهم الخاطئة من اجل تشكيك المسلمين في دينهم ٠

وقد ظهرت أول دعوة للاستشراق على لسان البارون " دويتز" سنة ١٠٧٥ هـ الموافق ١٦٦٤م ، أى في أواخر القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر الميلادى، حيث طالب بتأسيس مدرسة أو كلية ، تكون قاعدة لتعليم التنصير ،ويعلم فيها لغات الشرق للطلاب الذين يناط بهم امر التنصير ٠ وقد ارتأى أحد أحبار الكنيسة أن يعهد الى الأروام ،بمسئولية تنصير الأتراك ،لكن البارون فشل في مشروعه [(٣)].

وهكذا يكون الغزو الفكرى بالوسائل غير العسكرية التي اتخذها الغزو الصليبي لازالة مظاهر الحياة الاسلامية وصرف المسلمين عن التمسك بالاسلام بالعقيدة الاسلامية الصافية ، ومايتصل بها من افكار وتقاليد وأنماط وسلوك [(٤)] .

---

(١) محمدعبد الفتاح عليان : أضواء على الاستشراق : (الطبعة الاولى ،الكويت ، الناشر دار النشر للطباعة ،١٤٠٠هـ) ص ١٠٠

(٢) محمدعبد الفتاح عليان: المرجع السابق ،ص ١٠٠

(٣) ، نجيب عقيقي : المستشرقون ،(الطبعة الرابعة ،القاهرة ،دار المعارف) جـ ٣ ،ص ٦١٣)

(٣) آ٠ل شاتليه :الغارة على العالم الاسلامي ،ترجمة محب لخطيب ومساعد اليافي ،(الطبعة الرابعة ،١٣٩٨هـ) ،ص ١٣٠

(٤) محمد قطب : واقعنا المعاصر(الطبعة الرابعة ،جدة ،الناشر مؤسسة

ويتركز الدافع الرئيسي للاستخدام الغزو الفكرى في أنه بعد فشل الصليبيين في حملاتهم المتوالية على الشرق الاسلامي عملوا على الاهتمام بالثقافة الاسلامية ، وقد ظهر ذلك واضحا من خلال وثيقة خطيرة تلقى الضوء على تحول الصليبيين من الغزو العسكرى ، الى الغزو الفكرى ، وهذه الوثيقة تتضمن وصية (القديس لويس ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية الثامنة التي انتهت بالفشل والهزيمة ووقوع (لويس) آسيرا في أيدي المصريين في مدينة المنصورة ، ولم يطلق سراحه الا بعد تقديم فدية عظيمة استطاع بها الخلاص من الأسر ، وبعد أن عاد الى فرنسا أيقن أنه لاسبيل الى النصر والتغلب على المسلمين عن طريق القوة الحربية ، لأن تدينهم بالاسلام دفعهم للمقاومة والجهاد وبذل النفس والنفيس في سبيل الله لحماية دار الاسلام وصون آرضهم ومقدساتهم وأعراضهم ، والمسلمون قادرون دوما للانطلاق من عقيدتهم الى الجهاد ودحر الغزاة ، وأنه لابد من سبيل آخر وهو تحويل التفكير الاسلامي وترويض المسلمين عن طريق الغزو الفكرى • بأن يجند العلماء الاوربيين بدراسة الحضارة الاسلامية ليأخذوا منها السلاح الجديد ثم يغزون به (الفكر الاسلامي)(١)

ويعتبر لويس التاسع ملك فرنسا هو رائد حركة الغزو الفكري لانه كاد أن يذهب ضحية الحملة الثامنة سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م لولا المبلغ الكبير الذى دفعه لانقاذ نفسه ،لذا نادى بهذا الرأى وكتب به وصية •

وهكذا تحولت المعركة من ميدان السلاح الى معركة في ميدان العقيدة والفكر بهدف تزييف عقيدة المسلمين الراسخة التى تحمل معنى الجهاد وتدفع المؤمنين الى الاستشهاد •

وقد سار الاوربيون في طريق تنفيذ هذه الوصية للوصول للهدف

---

(١) على محمد جريشة وآخرون : أساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامي ، (دار الاعتصام) ص ١٩•

المرسوم [1]، وبخاصة عندما تأكدوا من فشلهم في الحروب الصليبية وعدم تحقيق أهدافهم ، اجتمع رجال الكهنوت والسياسة والفكر لديهم لمناقشة طرد المسلمين من الأراضي المقدسة ، ووضع الخطط التي تكفل لهم تخليص بيت المقدس من المسلمين واعادة الاراضي الاسلامية الى السيطرة النصرانية ، فقام القسيس الاسباني (ريمون لول) ينادى باستخدام سلاح التنصير ،والغزو الفكرى بدلا من الحروب الصليبية [2].

هنا أصبحت الأمور واضحة أن أسباب الحروب الصليبية أسباب كان ظاهرها دينيا غايتها تخليص بيت المقدس من يد المسلمين ، بينما كانت في حقيقتها سبيلا للسيطرة على الشرق الاسلامي بما فيه من خيرات .فتاريخ التنصير المسيحي يعود الى القرون الوسطى وذلك عندما قام " ريمون لول " الاسباني فتولى الدعوة الى التنصير بعد فشل الحروب الصليبية في مهمتها ،بعد أن تعلم اللغة العربية بكل مشقة وطاف البلاد الاسلامية ،وناقش علماء المسلمين في بلاد كثيرة [3] . فلقد ذكر آرست باكر مانصه : " وظهر أمثال ريمون لول الذى كان ينادى بوجوب استبدال الحملة الصليبية ببعثة تنصيرية وأن يقوم التنصير السلمي مقام الحملة الحربية " [4] .

ومن الطريف أن ريمون لول هو أول من نادى باستخدام التنصير كسلاح للسيطرة على البلاد الاسلامية واضعاف الاسلام ،وهو أول من نادى كذلك بايجاد كرسي للدراسات الشرقية الاسلامية في الجامعات الاوربية . وهكذا نشأ الاستشراق نظرا للفشل الذى آلت اليه الحروب الصليبية أيضا ، وذلك لدراسة الاسلام ونقده وتشويهه باعداد دراسات غريبة عنه وعن تاريخه ، لتقديمها جاهزة حسب التفكير الغربي . وبما يخدم مصالحه

---

(١) على محمد جريشه وآخرون : أساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامي ،ص ١٩.

(٢) مصطفى خالدى وفروخ : التبشير والاستعمار (الطبعة الخامسة ،١٩٧٣م) ص ١١٤-١١٥.

(٣) أ.ل. شاتليه : الغارة على العالم الاسلامي ،ص ١٢-١٣.

(٤) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة (الطبعة الاولى ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٠هـ) ص ١٢٦.

ويحقق غايته للموفدين الشرقيين لمتابعة تحصيلهم العلمي في ديـــــار الغرب ، وعودتهم الى بلادهم وجها آخر حسب التشكيل الجديد أو للعملـــة التي يريدها المستعمر [١] .

ومن أهداف الاستشراق والتنصير هو تدبير المؤامرات والدسائـــس لاحداث الفتن والانقلابات في الوطن الاسلامي [٢] .

ولكن لما أرادت معظم دول الغرب عقد الصلات السياسية بدول الشـرق والاغتراف من تراثـه والانتفاع من علمه والتزاحم على استعماره أحسنـت كل دولة الى مستشرقيها ، فضمهم ملوكها الى حاشيتهم أمناء أسرار وترجمة ، مع انتدابهم للعمل في سلك الجيش والدبلوماسية في بلدان المشرق الاسلامـي ، فولوهم كراسي اللغات الشرقية في كبرى الجامعات والمدارس الخاصـــة والمكتبات العامة والمطابع الوطنية ، ومنحوهم ألقاب الشرف وعضويـــة المجامع العلمية ، كما أجزلوا لهم العطايا والمنح في الحل والترحال [٣].

اذا الاستشراق هو دراسة يقوم بها الغربيون لتراث الشرق وبخاصـــة كل مايتعلق بتاريخه ولغاته وآدابه ، وفنونه وعلومه وتقاليده وعاداتـــه ، فالمستشرق بهذا الاعتبار هو الغربي الذى يدرس تراث الشرق ، ولابد مـــن دراسة هذا التراث الضخم من اداة بواسطتها توصله الى بغيته المنشودة وهذه الأداة التي يجب للمستشرق اتقانها هي مفتاح الشرق أو لغة الشرق والتخصص في ابرزها في الآثار وفي التاريخ والفنون والآداب والعلوم وهي اللغة العربية لاريب ، وأن الهدف من الاستشراق هو التنصير ، وهو محاولة اقناع المسلميـــن بلغتهم ببطلان الاسلام واجتذابهم الى الدين المسيحي [٤] .

(١) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ، ص ١٢٩.
(٢) عبدالله التل : جذور البلاء ، (الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتـــب الاسلامي ، ١٢٩٨هـ) ص ٢٠٦.
(٣) نجيب عقيقي : المستشرقون ج٣ ، ص ٦٠٤.
- محمد حسين الصغير : المستشرقون والدراسات القرآنية (الطبعة الأولـى، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٤٠٣ هـ) ، ص ١٨-١٩.
(٤) محمد حسين صغير : المصدر السابق ص ١١ ، ١٥.

فكانت الحروب الصليبية أحد منابع الاستشراق ،فاطلعت الغربيين على مواطن الضعف في دينهم ، فكانت المقارنة بين الاسلام وبين أديانهم تحتاج الى نظرة شاملة فاحصة أو التعديل ،وهذا ما أسماه الغرب بحركة الاصلاح الديني ، ثم كانت الرغبة أيضا في التبشير بالمسيحية في الشرق، كل هذه الأمور استلزمت منهم دراسة اللغة العربية على أيدى المستشرقين ، ومن هنا تلاقت وجهة الاستعمار والتنصير والاستشراق [١].

وقد بدأت محاولات الغزو الصليبي الحديث في القرن التاسع الهجرى الموافق للقرن الخامس عشر الميلادى بعد سقوط مدينة غرناطة آخر المعاقل الاسلامية في الأندلس سنة ٨٩٨ هـ الموافق ١٤٩٢م بعد عدة حروب وسلسلة من المعارك ضد المسلمين وقد بارك البابا هذا الانتصار الصليبي وشجع المسيحيين على متابعة طرد وتعذيب المسلمين من بقية بلاد الاسلام في الأندلس [٢] .

ففي القرن العاشر الهجرى الموافق للقرن السادس عشر الميلادى الذى ازدهرت فيه النهضة غرب اوربا قام الاسبان والبرتغال باعنف واقسى ماشهده التاريخ البشرى من الارهاب والتعصب الديني ،وهذا المثال يصور لنا ماقام به الكاردينال "خيمينيث سنيروس (Ximinez de Cesnero) وكان ذا مكانة دينية كبيرة في قشتاله (أسبانيا الحالية) فدعا الى اكراه بقايا المسلمين الذين كانوا يعرفون بالموريسكيون على التنصير وترك الاسلام ، ولكي يقطع صلتهم بالعلوم الاسلامية أشار بحرق جميع كتب المسلمين . وقد تم بالفعل حرق ثمانين الف كتاب من كتب العرب الاسلامية بعد جلائهم عن أسابنيا . ثم أنشئت محاكم التفتيش ليس فقط لحرق كل من لم يرتد عن الاسلام ولكن لحرق كل نصراني لايدين بالمذهب الكاثوليكي .

---

(١) نجيب عقيقي : المستشرقون ، ج ٣ ، ص ٦١٢-٦١٣.

(٢) محمد قطب ، واقعنا المعاصر ،ص ١٨٦.

أما بالنسبة للارقوان (البرتغال الحالية) فان الملك فيليب الثاني أصدر قانونا في سنة ٩٧٤هـ/١٥٥٦م يحرم على بقايا المسلمين فيها أيضا كل شيء يربطهم بالاسلام حتى لغتهم وأساليب معيشتهم وبلغ من غلوه أن اعتبر الحمامات التي أنشأها المسلمون بقايا نجسة فأصدر قرارا بهدمها[(١)].

واذا كان الاسلام قد أفل في سماء الأندلس فقد بزغ على أيدى الأتراك العثمانيين في بلد آخر ، وتربعوا على الأناضول سيدة البلقان بعد فتحها ثم توغلوا في جنوب شرقي أوربا أولا : لصد الغزو الفكرى عن المشرق الاسلامي ، وثانيا: لنشر لواء الاسلام هناك ، حتى دانت لحكمهم كل شبه جزيرة البلقان التي تشمل اليوم كل من أراضي رومانيا،وبلغاريا،واليونان، ويوغوسلافيا ، والمجر ،وألبانيا ، وقد حطمت الأحلاف المسيحية المتعددة التي تحالفت ضدهم حلفا حلفا كما مر بنا في فصل سابق . فامتلت انتصارات المسلمين في أوربا وعلت أصوات المؤذنين في مساجدها ، وقد ترتب على ذلك أن اكتسب الاسلام أنصارا يقدر عددهم بعشرات الملايين [(٢)] فقامت الدولة العثمانية ضمانا لحماية الشرق الاسلامي بأن تقيم سياجا على المناطق التي تتبعها ، وذلك ضد كل محاولة للنيل من الاسلام ، الا أن هذا السياج فيما بعد أحرم هذه البلاد من الاستفادة العلمية التي تقدمت آنذاك على أيدى الأوربيين فظهرت آثار ذلك على البحث العلمي لدى المسلمين الذى أصيب بالتوقف والركود ، كما أصيبت الدولة بالضعف والخلل وتطرق اليها الوهن في أواخر القرن الثاني عشر الموافق لأواخر القرن الثامن عشر الميلادى ،فتكالبت عليها الدول الأوربية الاستعمارية ، وهكذا بضعف الدولة العثمانية ظهرت أطماع الدول الأوربية فيها[(٣)].

---

(١) محمد عبدالفتاح عليان : أضواء على الاستشراق ، ص ١٢.

(٢) محمد عبدالفتاح عليان : المرجع السابق ،ص ١٢-١٣.
، محمد قطب : واقعنا المعاصر ، ص ١٨٧.

(٣) محمد عبدالفتاح عليان : المرجع السابق ، ص ١٣.

ولم يكن عمل المستشرقين منفصلا عن أعمال المنصرين بل كانت مهمة كل طايفة متممة للفئة الأخرى ، فالاستشراق تولد عنه الاستعمار والتبشير[١].

ومما هو معروف أن الاستشراق أيضا من أدوات التنصير ثم استغل فيما بعد لتحقيق مطامع الدول الاستعمارية . وقد نزل كثير من الأساقفة الى ميدان الاستشراق بقصد التنصير وتدريب المنصرين على العمل في بلاد الشرق . لهذا كان لابد من تكليف بعضهم بتعلم اللغة العربية ،فانتشر تعليمها في المعاهد الدينية وبعض الجامعات وكان الهدف من دراسة اللغة العربية لرجال الدين من المسيحيين هو تخريج أهل جدل يقارعون فقهاء المسلمين ويردون عليهم ببراهين من الكتب الاسلامية [٢].

لذا يرى المستشرق الألماني المعاصر "البرت ديتريش أن المستشرق: " هو الباحث الذى يحاول دراسة الشرق وتفهمه ،ولن يأتي له الوصول الى نتائج سليمة مالم يتقن لغات الشرق ، وكانت دوافع الاستشراق بوجه عام من خلال دراساته العربية والاسلامية دوافع متفاوتة شدة وضعفا ،اتسم بعضها بهدف تنصيرى واتجه البعض الآخر لغرض استعمارى ، أما القسم الثالث باتجاه علمي ، فشكلت بذلك دوافع تنصيرية ،وثانية استعمارية وأخرى دوافع علمية "[٣].

والحملة الفرنسية تؤكد ماسبق من القول ،فقد صاحب ذلك مستشرقين ومنصرين ،اضافة الى أنها صورة من الاطماع الاوربية في العصر الحديث في الشرق . ففي هذه الحملة استعان الفرنسيون بعدد كبير من المستشرقين لتحقيق الاهداف الاستعمارية ، وقد لجأ نابليون بونابرت الى اللغة العربية في

---

(١) على محمد جريشه وآخرون : أساليب الغزو الفكرى ،ص ١٩-٢٠.

(٢) محمد عبد الفتاح عليان : أضواء على الاستشراق ،ص ٢٤-٢٥.

(٣) محمد حسين الصغير : المستشرقون والدراسات القرآنية ،ص ١١-١٥.

منشوراته ولوائحه ، كذلك طبع كتبا في تعليم اللغة العربية بالمطابع التي جلبها معه معحملته . وكان هؤلاء المستشرقون الذيناصبحوا في هذه الحملةعلماء متخصصين في كثير من فروع المعرفة ،فمنهم الأثريون ومنهم المهندسون والأطباء والمترجمون ، فكان بعضهم شرقيا من مصر ولبنان وسورية . وبعد وصول نابليون الىمصر أمر بتأليف المجمع العلمي المصري ،وتأسيس مطبعة عربية (مطبعة بولاق حاليا) واصدر ثلاث صحف واحدة منها باللغة العربية ، وأنشأ متحفا ومكتبة ومصنعا ومختبرا، ومسرحا،وفتح أبوابها أمام المصريين . وقد ظهر نابليون أمام المصريين بصورة المستشرق ،فتظاهر باعتناق الاسلام وشارك المصريين في احتفالاتهم الدينية ، وارتدى العمامة والجبة ،وزار علماء الأزهر في بيوتهم [١] . والسؤال الذى يفرض نفسه هنا لماذا أتى نابليون من فرنسا إلىمصر طالما أنه مسلم كما يدعي ؟ هل كان يريد أن ينشر الاسلام في مصر؟. اذا ماهو هدف هذه الحملة ؟

قد أجاب على ذلك صاحب كتاب واقعنا المعاصر حيث ذكر أن قدوم نابليون الى مصركان محاولة منه في تنحية الشريعة الاسلامية ،وكانت أولى المخططات التي بدأ تنفيذها بالفعل ،ولكنه لم يستطع الاستمرار في مخططه حتى كشفه أحد علماء الأزهر الذى ضاق منه ومن أكاذيبه ونفاقه ،حيث قال له في وجهه : لو كنت مسلما حقا كما تدعي لطبقت الإسلام وشريعته في بلدك فرنسا ، بدلا من تنحية الشريعة هنا ، ومحاولة وضع القوانين الوضعية بدلا عنها [٢]، ولما انكشف أمره امتنع علماء الأزهر عن تنفيذ أوامره ولم يستجب له منهم أحدا نظرا لتصرفاته الحاقدة علىالاسلام ، ثار وأزبد حينما رأى علماء الأزهر يقودون الشعب ضد هذا المستعمر الدخيل ،عندها

---

(١) محمدعبدالفتاح عليان: أضواء علىالاستشراق ،ص ٢٦-٢٧.

(٢) واقعنا المعاصر ، ص ٢٠١.

قام بتصويب مدافعه المقامة على قلعة الجبل الى الجامع الأزهر، فاقتحم بجنده الجامع الأزهر وهم يمتطون الخيل ، فدخل الجيش الأزهر وظهرت أطماع استعماره على حقيقتها ، فانكشفت للشعب المصرى حقيقته وان ماتظاهر به وادعاه من حب للاسلام والمسلمين ليس بحقيقة [١]. وأن هذا متناف مع النشرة التي أرسلها من الاسكندرية الى مصر ،كما وردت في كتاب الجبرتي حيث قال : " بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله لاولد له ولاشريك له في ملكه ، من طرف الفرنساوية [٢] المبني على آساس الحرية والتسوية ، السر عسكر[٣] الكبير امير الجيوش الفرنساوية بونابارته يعرف أهالى مصر جميعهم ان من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في الملة الفرنساوية .. يا أيها المصريون،قد قيل لكم انني مانزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب فلا تسدقوه ، وقولوا للمفترين انني ماقدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين وانني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم ،وقولوا أيضا ان جميع الناس متساوون عند الله وأن الشيء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل فقط .... أيها المشايخ والقضاة والأئمة و (الجربجية)[٤] وأعيان البلد قولوا لأمتكم ان الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون واثبات ذلك أنهم نزلوا في رومة الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام .... ومع ذلك فان الملة الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه "[٥].

---

(١) محمد عبد الفتاح عليان : أضواء على الاستشراق ،ص ٢٧ .

(٢) الفرنساوية : فرنسا .

(٣) السر عسكر : قائد الجيش .
ـ تسدقوه : تصدقوه .

(٤) الجربجية : الاغريقية .

(٥) عبد الرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الاثار في التراجم والاخبار ، (بيروت ،دار الجيل) ج ٢ ، ص ١٨٢-١٨٣.

بل أعلن أنه لم يأت لاحتلال مصر بل على انه حليف البابا العالي و أتـــي لتوطيد سلطته ومحاربة المماليك العاصين وقد قالها الانجليز فيما بعـــد عند احتلالهم مصر سنة ١٢٠٠هـ/١٨٨٢م[1] . كلهم مستعمرين وأهدافهم واحدة .

الأمر الثاني الذي يؤكد سوء نية نابليون انه دخل الى مصر بـــدون علم السلطان العثماني ، الذي يتبجح بحبه وطاعته وولائه وهذا أيضا مسلـــك آخر في المراوغة .

فقد أرسلت فرنسا سنة ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٨م بونابرت القائد الشهير الى مصر لاحتلالها بغير اعلان حرب على الدولة العثمانية وأوصت فرنسا هذا القائـــد بكتمان الخبر حتى لاتعلم به انجلترا ، فتسعى لاحباطه ، وكان الهدف مـــن هذا الاحتلال لمصر هو منع مرور تجارة الانكليز عبر أراضي مصر الى الهنـــد وبالعكس[2]. وفي أثناء الحملة الفرنسية على مصر اعدت فرنسا خطة الزحـــف الى الهند عبر سوريا والعراق بمحاذاة نهر الفرات لبسط نفوذها على الشرق[3]. ولكن لم يدم الاحتلال أكثر من سنتين وقد تعاون الانجليز مع الدولة العثمانية لاخراج نابليون وجيشه من مصر والشام سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م[4] .

أما الوجه الآخر لسياسة نابليون وماسارت عليه أوربا منذ تفكيرهـــا في الغزو الفكري ، هو نبش الأرض الاسلامية لاستخراج حضارات ماقبل التاريـــخ لذبذبة ولاء المسلمين بين الاسلام وبين تلك الحضارات ، تمهيدا لاقتلاعهـــم نهائيا من الولاء الاسلامي ، وهذا هو هدف البعثة العلمية التى آتى بهـــا نابليون الى مصر[5] ، اضافة الى ذلك أثارت الخلافات المذهبيـــة بيـــن

---

(١) محمد فريد بـــك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٧٣.
(٢) محمد فريد بـــك : المصدر السابق ص ٣٧١-٣٧٣.
(٣) لوتسكي : تاريخ الاقطار العربية الحديث ، ترجمة عفيفه البستاني (موسكو دار التقدم) ص ٧٦.
(٤) محمد فريد بـــك ، المصدر السابق ص ٣٧٣.
(٥) محمد قطب ، واقعنا المعاصر ، ص ٢٠٢-٢٠٣.

المسلمين حتى يتصارعوا من أجلها وينصرفوا عن دينهم وبلادهم حتى يتسللوا بين صفوفهم لزيادة الجفوة فيستغلون تلك الخلافات لغزو العالم الاسلامي كل على حدة ٠

وبعد خروج الفرنسيين من مصر ، اعتلى محمد على حكم مصر ، كنابليون فكلاهما عملة لوجه واحد فكان محمد على تحركه أهداف علمانية ،وكان طموح نابليون الذى حققه في أوربا بعد رحيله من مصر أكبر عوض عن فشل تحقيقه في الشرق ، ثم ان الاستعمار نفسه لم يخسر شيئا فقد استطاع أن يحقق أهدافه عن طريق المسلمين أنفسهم الذى لم يستطع تحقيقه ، وهذا لايعني أن فشل نابليون في حصارعكا وغزوها ، أن تظل مغلقة ، وليكن الاستيلاء عليها في هذه المرة عن طريق قائد مسلم هو ابراهيم بن محمد علي ٠

ولقد كانت حروب محمد علي في عكا وفلسطين وسوريا واسطنبول ،وشبه الجزيرة العربية لحرب الدعوة السلفية دعوة الشيخ محمد بنعبد الوهاب التي انطلقت من الدرعية لتعيد للاسلاموحدته تحت راية الاسلام ، كانت بسلاح فرنسي ومشورة فرنسية ،وخبراء فرنسيين ، اضافة الى أن الحروبالتي قادها محمد علي ضد المسلمين هي تحقيقا للتخطيط الذى رسمه المستشرق الفرنسي الكونت (فولتي) قبلحملته على مصر ، اذ كان ينادى هذا المستشرق بأن السيطرة على الشرق لاتتم الا بعد الاستيلاء على مصر والشام وتحطيم الخلافة العثمانية ٠

اذا فكل الذى يهم الدول الاستعمارية هو القضاء على وحدة الشعوب الاسلامية ٠ ولما لم يستطيعوا تحقيقها في احتلال مصر والشام بسيف نابليون ، فليكن تحقيق الخطة بيد محمد علي وابنه ابراهيم ٠(١) الأمر الذى جعل محمد على يستمر في تلك التيارات

---

(١) السيد أحمد فراج جذور العلمانية ، (الطبعة الثالثة، المنصورة ، دار الوفاء للطباعة والنشر ،١٤٠٧هـ) ص ٢٧-٢٨٠

قرابة أربعين سنة وكان ذلك نابع من فكره رفاعة الطهطاوى [1] الذي قاد حركة التحديث في مصر في أول عملية منظمة تدعو الى ضرورة تغيير العقلية المصرية ، وتقبل المبادئ الأوربية [2]، والتي استمرتحتى نهاية حكم محمد على على مصر ومجيء سعيد باشا بعدهفيمابعدعام١٢٧١هـ / ١٨٥٤م [3].

وهكذا دخل الغزو الفكرى عن طريق بلاد الشام ممثلا في الارساليات المسيحية من نتاج التسامح الديني الذى تميز به حكم ابراهيم باشا بن محمد على بعد استيلائه على بلاد الشام ، فقد فتح هذا التسامح الباب أمام

---

(١) درس في فرنسا ،وتأثر بافكارها ونظمها وأساليبها فتزعم بعد عودته الىمصر تصدير هذه الافكار والنهضة الفرنسية ومحاولة تطبيقها في مصر.

(٢) السيد أحمد فرج : جذور العلمانية ، ص ٢٨.
مصطفى خالد وعمر فروخ : الاستعمار والتبشير ،ص ١١٨.

(٣) وهذه السنة التي دخل فيها المنصران الامريكيان مكاج وبارنت مصر ليبدأ في الارساليات وقد أهدى لهم سعيد سنة ١٨٦٢م للارسالية الامريكية مبني كبير ليباشروا فيه نشاطهم فمنحوه لقب (الامير الطيب المستنير) وذلك أسوة بالارسالية الكاثولكية الفرنسية التي قد وهبها مثل ذلك من قبل ،ثم ان أعمال التبشير قد تقدمت اثناء حكم سعيد باشا ولقد تأسست هذه الارساليات في عهده على أسس متينة قوية لايكون بعد ذلك هدمها بسهولة في ظل الحكومات التي تدعمها القوى العلمانية الاوربية ولكن عندما حكم اسماعيل باشا سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م كان قويا وضيق على المبشرين عندما بدأوا يتدخلون في شئون الدولة من اجل ذلك وصفه المنصرون(متكبر ومستبد) . كل ذلك لانه اراد ايقاف الأصابع الخفية التنصيرية داخل مصر في اغلاق مدارس المنصرين البروتستانت لأن هؤلاءكانوا يتدخلون في سياسة البلاد ويثيرونالاضطرابات ويزيدون مشاكل البلاد. ولكن القنصلية الامريكية والانجليزية قد ايدتا المنصرين وحملتا الحكومة المصرية علىالتقيد بالخط الهمايوني " الدستورالعثماني " الذى ينص علىاحترام الحرية الدينية . هذا صحيح ولكن الدستور لاينص على ان بعض الناس يحملون الاخرين على تغيير دينهم بالقوة ولكن اسماعيلباشا في نفس الوقت قام بالغاء المحاكم الشرعية واحل محلها القانون ، ففصل بذلك بين المسلمين والخيط (=)

البعثات التنصيرية الغربية • ويرجع وجود هذه البعثات التنصيرية الأجنبية في بلاد الشام الى منتصف القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادي ولكن كان مجال نفوذها أو جهودها في أول الأمر محدودا اقتصر على انشاء عدد قليل من المدارس والمعاهد في أماكن متفرقة ، ونشر كتب العبادات وكانت البعثات كلها كاثوليكية ومعظمها من الفرنسيين وتنسب الى اليسوعيين أو الكبوشيين أو الكرمليين • وكان من العسير عليها آنذاك، بحكم التعصب الشديد الذى كان يسود ذلك العصر أن تعمل خارج نطاقها، ولذلك اضطرت أن تحصر معظم جهودها في رعاية الطوائف المسيحية الموالية لكنيسة روما[1]. ولم يكن الشام حديث عهد بالبعثات التبشيرية، بل كانت البلاد ميدانا لنشاط الارساليات ، وذلك بسبب كثرة المسيحيين ووجود الأماكن المقدسة بها[2].

وقد زادت هذه الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية للفرنسيين بعد معاهدة الهدنة التي عقدتها الدولة العثمانية مع ملك فرنسا شارل التاسع سنة ٩٦٦هـ الموافق ١٥٦٩م التي نصت على اقامة التمثيل القنصلي واعفاء كل فرنسي من دفع الخراج الشخصي،واعطاء القناصل حق البحث عمن يكون لدى العثمانيين في حالة الرق•مع اطلاق سراحهم ومجازات من تعرض لهم ورد ما يأخذه قراصنة البحر من المراكب الفرنساوية وأن تكون البحرية ملزمة بحوادث المراكب الفرنسية التي تكون على شواطئ الدولة ، وحفظ ما بها من مال ورجال وعتاد ، وتكون الامتيازات الفرنسية الممنوحة لها مساوية للامتيازات الممنوحة للبنادقة ، فأصبحت بهذا فرنسا ملكة التجارة في البحر الأبيض المتوسط وجميع البلاد التابعة للدولة العثمانية ،ونتيجة لهذه المعاهدات

(=) الباقي الأخير الذى يربطهم بدينهم عندما أنجز قلم الترجمة برئاسة رفاعة الطهطاوى ، حيث ترجم القانون الفرنسي المدني والجنائي الى العربية في مصر ، سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م •
- مصطفى خالد وعمر فروج : الاستعمار والتبشير ص ١١٨-١١٩•
، السيد أحمد فرج : جذور العلمانية ، ص ٢٨ ، ٣٥•

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب ،تعريب علي حيدر ،(دمشق ، مطبعة الترقي ،١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م) ص ٩٧•

(٢) محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية ، ص ٩٢•

السابقة أو اللاحقة أو تحت مظلتها قامت فرنسا بارسال ارسالياتها الدينية الكاثوليكية الى كافة بلاد الدولة العثمانية الموجود بها مسيحيون وخصوصا بلاد الشام ، لتعليم أبنائهم وتربيتهم على محبة فرنسا وكان من أهم نتائج هذه البعثات حفظ جنسية ولغة كل شعب مسيحى حتى اذا ضعفت الدولة أمكن هذه الشعوب من الاستقلال بمساعدة الدول المسيحية (١) كما سيأتي .

وبعد ذلك وصلت البعثات التنصيرية الامريكية الى بلاد الشام، وأخذت تحول بعض الأفراد من الطوائف الكاثوليكية الى المذهب البروتستانتي وكان اتباع الكنيسة المشيخية أول من وصل من الامريكان في سنة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠م وكانوا يخضعون لاشراف المجلس الامريكي لمراقبة البعثات التنصيرية في الخارج وكان هذا المجلس قد أسس مركزا في مالطة ثم أحس أن الواجب يدعوه الى مزاولة نشاطه الديني في المشرق ، فأسس في بيروت أول مركز لهم. وهذا المركز بقي من أهم مراكزهم.

أما الكاثوليك فكان اليسوعيون أنشط هذه الجمعيات ، وتعود صلتهم بالشام الى سنة ١٠٣٥هـ/١٦٢٥م وقد استمروا في نشاطهم في الشام يقاومون الفقر حتى عطلت جمعيتهم في سنة ١١٨٧هـ/١٧٧٣م فتشتتوا وأغلقوا أكثر مؤسساتهم وسلموا الباقي للبعثات اللغازرية لتديرها ولكنهم عادوا في سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م وكان السبب في عودتهم وصول البعثات الامريكية التنصيرية التي وصلت الى بلاد الشام والتي أخذت تحول الكاثوليك الى البروتستانت كما سبق . وقد أدى نشاطهم هذا الى اثارة روح العداوة في نفوس علماء الشريعة الاسلامية في بلاد الشام ،غير أن ذلك لم يثن من عزمهم رغم العوائق التي اعترضت طريق هذه البعثات التنصيرية قبل الفتح المصرى لبلاد الشام ان لم يكن عطل جهودها تعطيلا كاملا ، مما اضطر الأمريكان منذ وصولهم أن يحصروا أنفسهم داخل بيروت .(٢) وذلك للحد من نشاطهم

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٢) جورج انطونيوس : يقظة العرب ، ص ٩٨-٩٩.

،موفق بن المرجه : صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الاسلامية (الكويت ،مؤسسة صقر الخليج ،١٩٨٤م) ص ١٦٥-١٦٦.

ومقاومة أساليبهم والحفاظ على طوائف الكاثوليك للانخراط في المذهب البروتستانتي . فلما جاء ابراهيم وأحدثت سياسته في الحكم كثيرا من التغييرات ، فتح المجال بذلك امام البعثات التنصيرية ، فتقاطر المنصرون على بيروت ومنها انطلقوا الى جميع أنحاء الشام . وكانوا جادين في افتتاح المدارس في أنحاء متعددة في بلاد الشام وكانت أولى منشآتهم في بيروت والقدس وجبل لبنان [١].

وقد انطلقت حركتهم تحت ستار تحقيق الغايات الانسانية والتخفيف من الآلام البشرية عن طريق اقامة المستوصفات أو مدارس التعليم أو تقديم المساعدات المادية الى غير ذلك من الأمور التي تهدف الى غاية أساسية وهو استعمار الغرب للشرق بتحويل آسيا الى النصرانية ثم القضاء على الاسلام وهو هدفهم الأسمى . لأن القوة التي تكمن في الاسلام هي التي تخيف أوربا [٢] ، فلابد من العمل على أن يمحو الاسلام من العالم . هذه أمنية المنصر جب [٣]، وقد قال المنصر وليم بالكراف : مايفيد بأنه متى توارى القرآن ومدينة مكة المكرمة عن بلاد العرب أمكن السيطرة على الأمة الاسلامية وتحقيق الأهداف النصرانية فيها [٤]. وهذا لن يكون الا كما قال لورنس براوان : " اذا اتحد المسلمون أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا. أما اذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بلا وزن ولاتأثير". أما القس سيمون فكان أوضح في التعبير حيث كان يرى أن الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية . من أجل ذلك يجب أن يحول بالتنصير مجارى التفكير في الوحدة الاسلامية حتى تستطيع النصرانية أن تتغلغل في المسلمين [٥].

فاذا أرادت أوربا أن تثير على المسلمين حربا صليبية جديدة عن طريق التنصير فلابد من نشر الكنائس والمدارس والمستشفيات في البلاد

---

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب ، ص ٩٩ ، ١٠٦.

(٢) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ، ص ١٢٦ ، مصطفى خالد وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ٣٦.

(٣) اسماعيل الكيلاني: المرجع السابق ، ص ١٢٦.

(٤) اسماعيل الكيلاني : المرجع السابق ، ص ١٢٨.

(٥) مصطفى خالد وعمر فروخ: المرجع السابق ، ص ٣٦-٣٧ ، اسماعيل الكيلانى : المرجع السابق ، ص ١٢٦-١٢٧.

الاسلامية وارسال المنصرين الى مختلف بلاد العالم ،ومن هذا المنطلق تستطيع حركة التنصير تحقيق مآربها السياسية ومطامعها الاقتصادية (١).

ومن ثم حلت روح التنصير ونشر المسيحية محل الروح الصليبية اى آن اوربا اخذت تتجه الى فتح عقلي وثقافي وغزو فكرى تستكمل غزوها العسكرى والسياسي (٢) حينما بدآت الكتائب التنصيرية تتقاطر على العالم الاسلامي - كما سبق - . وكان ذلك على شكل موجات من الرهبان والراهبات الى الجزائر وتونس ومصر والشام ، بدعوى افتتاح المدارس والمستوصفات فكان هؤلاء آوائل الكتائب لجيش وجهته البابوية في غزو فكرى يستهدف العالم الاسلامي ، هذه الارساليات التبشيرية تمهيدا لانقضاض الحملات العسكرية الأجنبية على الدولة الاسلامية بهدف تصفية الحسابات القديمة منذ الحروب الصليبية (٣) ، فانطلقت البعثات التنصيرية ساعية لتحقيق غايتها مستخدمة جميع الوسائل المتاحة لها دون تفريق بين وسيلة فكرية أو عسكرية ،فكانت طليعة الغزو الاستعمارى الجديد ، واذا حدث أن هذه الارساليات اشارت بآن يتقدمها الجيش أولا فان ذلك لم يحدث على التحقيق قبل القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للقرن التاسع عشر الميلادى بعد ان يستطيع المنصرون تمهيد الطريق لتلك الحملات . وقد ظهر ذلك جليا في آواخر ايام الدولة العثمانية بعد ان بلغت من الضعف مايمكن معه اختراق سورها عن طريق القوة العسكرية (٤) .

---

(١) مصطفى خالدى وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ،ص ١١٥.

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوى : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة العضوية ،مجلة دارة الملك عبدالعزيز ،ع ٢ ،س ١١ ،ص ٨١.

(٣) موفق بن المرجه : صحوة الرجل المريض ... ص ١٦٥-١٦٦.

(٤) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ،ص ١٢٧.

وقدعملت هذه الارساليات التنصيرية على احتكار العلم والتعليم فقامت بفتح المدارس لجميع مراحل التعليم بدءا من رياض الاطفال وانتهاء بالدراسات العليا ووضعت المناهج التي تحقق غايتها في جميع المناطق التي سيطر عليها الاتسعمار الغربي ، أو تتركز في أيدى النخبة التي تربت على المناهج التي وضعها هؤلاء المنصرون والتي أصبحت ترى أن السير خلف الحضارة الأوربية هو عنوان كل شيء ومصدر كل رقي وتقدم . لان التعليم الآن هو السلم الحقيقي للوصول الى الزعامة ، وعن طريق هذه الزعامة يمكن تحقيق الأهداف التي تخدم النهاية التي من أجلها خرجت هذه الارساليات(١).

وحين تعددت هذه الارساليات التنصيرية وتضارب نشاطها اتفقت فيما بينها بحيث تغطي أنحاء دولة الخلافة الاسلامية (٢).

وكان الأتراك العثمانيون على حق حينما بدأوا يرتابون منذ آمد بعيد من حركة التنصير في الدولة العثمانية ، ولاغرو فان المنصر يسبق الجيش الى كل مكان (٣)، ويمهد له الطريق . رغم أن الدولة لم تعترف بالكنائس الكاثوليكية حتى القرن الثالث عشر الهجرى : التاسع عشر الميلادى ، حينما انحصرت رعايتها بالارثوذكس الذين يتمتع بطريقهم في استنبول بنفوذ كبير ، وبعد اصطدام الكنائس الكاثوليويكة بالارثوذكسيين أصبحت هي الأخرى تتمتع بالاستقلال (٤) .

وكان السبب في ذلك آن الكاثوليك بموجب الامتيازات الممنوحة لهم عام ١١١٣ هـ حصلوا في الدولة العثمانية على حقوق خولتهم امتلاك الكنائس فيها

---

(١) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) موفق بن المرجه : صحوة الرجل المريض .. ، ص ١٦٦.

(٣) مصطفى خالد وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ١١٦.

(٤) موفق بن المرجه : المرجع السابق ، ص ١٦٥.

وكان الروس يسعون جاهدين لسلبهم تلك الامتيازات واعطائها للأرثوذكس لحمايتهم لهذا المذهب ، ولذلك اصطدمت الدولتان ووقفت الدولة العثمانية الى جانب فرنسا ومنحتها زعامة الكنائس حسب أسبقية الامتيازات فاصطدمت الدولة مع الروس بمساعدة دول انجلترا وفرنسا والنمسا وانتهت هذه بمعاهدة باريس سنة ١٢٧٣ هـ / ١٨٥٦م [1] .

وبعد ذلك أخذت الارساليات التنصيرية تشد الرحال الى الأناضول مستهدفة عاصمة الخلافة وأزمير ثم يممت وجهتها نحو بيت المقدس فوجدته مرتعا خصبا .

لذلك عملت حركة المستشرقين على انشاء المدارس والجامعات [2] ، في لبنان بالتعاون مع المنصرين والارساليات التنصيرية والاستعمارية ، في محاولة منهم غرس مبادىء التربية الغربية حتى يشبوا مستغربين في حياتهم وسلوكهم وتفكيرهم وتخف لديهم موازين القيم والمبادىء الاسلامية [3] . وقد دفع نشاط هذه المدارس التنصيرية المختلفة رجال الدين المسيحيين الوطنيين في الشام على اختلاف مذاهبهم الى مضاعفة نشاطهم التعليمي بفتح المدارس المختلفة من أجل المحافظة على كيانهم [4] .

ولذلك الغرض أنشأوا عدة مؤسسات تعليمية في لبنان أهمها (الجامعة الأمريكية) في بيروت سنة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥م ، والتي كانت قبل ذلك تسمى باسم " الكلية السورية الانجيلية " وهي جامعة بروتستانتينية ، كان الهدف من انشائها هو تأصيل الأفكار الهدامة بين شباب بلاد الشام المثقفين [5] .

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥٣ .

(٢) ولمزيد من التفصيل والاطلاع على هذه الجمعيات او الجامعات وتأثير المنصرين في تأسيسها انظر :

ـ أنيس النصولي : أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر ، حققه وقدم له : عبدالله الطباع (الطبعة الاولى ، بيروت ، دار ابن زيدون ١٤٠٥ هـ /١٩٨٥م) من (ص ٨٥ الى ص ١٠٠) .

(٣) مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر ، (القاهرة ، دار الوفاء للطباعة ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢م) ، ص ١٤٩ .

ـ أنيس النصولي : المرجع السابق ، ص ٨٥ .

وبعدها بقليل أنشئت في بيروت كلية القديس يوسف ، التي تعرف اليوم (بالجامعة اليسوعية) وهي جامعة كاثوليكية ، وتدير أعمالها ارسالية التنصير الكاثوليكية في بيروت ، فكان لها الحظ الاوفر في نشر الافكار الفرنسية في بلاد الشام [١] ، وكانت هاتان الكليتان تصولان وتجولان في ميدان الثقافة في الوقت الذى لم يكن فيه في الشام كلية اسلامية ، الأمر الذى فتح الباب على مصراعيه للأفكار الهدامة لتحتل عقول طلائع المثقفين الذين سارعوا للانخراط في صفوفهما[٢].

وقد اشتهرت هذه الارساليات بخططها ووفرة الوسائل التي أعدتها وتسلحت بها لمقاومة دين الاسلام [٣] . وكان الطلاب المسلمون في الكلية الامريكية يجبرون على الدخول يوميا الى الكنيسة التابعة للكلية الأمريكية ليشهدوا بعض الطقوس المسيحية ، حتى احتج بعض الطلاب المسلمين الغيوريين على اسلامهم في سنة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٩م .

فأصدرت الكلية في بيروت منشورا رادا على احتجاجهم ويتضح من مادته الرابعة مايلي :

> " ان هذه كلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي هم اشتروا الارض وأقاموا الأبنية ،وهم أنشأوا المستشفى وجهزوه ولايمكن للمؤسسة أن تستمر اذا لم يسندها هؤلاء وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليمات يكون الانجيل من مواده فتعرض منافع الدين المسيحي على كل تلميذ ....وهكذا نجد أنفسنا ملزمين بأن نفرض الحيقية المسيحية على كل تلميذ...، وان كل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف مسبقا ماذا يطلب منه ..." [٤] .

---

(١) مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر،ص ١٤٩. ، محي الدين الخطيب : الغارة على العالم الاسلامي ،ص ٨.

(٢) مصطفى محمد رمضان : المرجع السابق ص ١٤٩.

(٣) محيي الدين الخطيب : المرجع السابق ، ص ٨.

(٤) مصطفى خالدى و عمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ١٠٥ ، مصطفى محمد رمضان : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

ثم تلى ذلك ان أعلن مجلس أمناء الكلية في هذه المناسبة " ان الكلية لم تؤسس للتعليم العلماني ولا لبث الاخلاق الحميدة ، ولكن من أول غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التي في التوراة ، وأن تكون مركزا للنور المسيحي وللتأثير المسيحي ، وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به "(١).

وهنا يتجلى لنا أهداف هذه المؤسسات الغربية المسيحية واضحة وسافرة ليعلم كل مسلم مدى تأثير هذه الافكار الغربية التي تتعرض لها البلاد الاسلامية ، والتي لاتخلو عاصمة اسلامية من بعض المعاهد البروتستانتينية ، ومعهد كاثوليكي أو مدارس للارساليات الأجنبية المتعصبة (٢).

وكانت الارساليات الأمريكية في المقدمة رغم تأخر وصولها عن ارساليات اليهود الانجليز الذين استهدفوا اسطنبول وأزمير وسالونيك (٣)، فتنبهت الدولة العثمانية لهذا التحرك فأخذت تراقب المنصرين مراقبة دقيقة حتى تضيق عليهم الخناق في تلك المناطق ،وكانوا يخشون من المنصرين البروتستانت لأن هؤلاء كانوا يتوارون خلف العلم البريطاني ثم أيضا من المنصرين اليسوعيين لأنهم يشتغلون لحساب السياسة الفرنسية ،فأخذت تقاوم المنصرين في جميع أرجاء الدولة العثمانية وتحول بين المنصرين وبين وصولهم الى بلاد العرب ،ثم وقفت الدولة من المنصرين كلهم موقفا حازما أصبح التنصير في الدولة العثمانية مستحيلا للرقابة الشديدة التي فرضتها عليهم. فعندما فتحت الجمعية التنصيرية بضع مدارس في (لبنان) لاطفال الدروز في عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م اجبرتها الحكومة العثمانية للتخلي عنها أمام الحزم العثماني ،على أن الدولة لم تستطع أن تتخذ سياسة علنية تجاه المنصرين لأن هؤلاء في بادئ الأمر كانوا يأتون في الظاهر كرعايا انكليز أو أمريكيين

---

(١) مصطفى خالدى وعمر فروخ: التبشير و الاستعمار ،ص ١٠٥-١٠٦.
، مصطفى محمد رمضان: العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر، ص ١٥٠.

(٢) مصطفى محمد رمضان: المرجع السابق ، ص ١٥٠-١٥١.

(٣) موفق بن المرجه : صحوة الرجل المريض ...،ص ١٦٦.

أو دنمركيين أو فرنسيين . فاذا استقروا في الدولة أخذوا يدعون سرا الى التنصير ما أمكنهم لذلك كان هؤلاء اذا وجدوا مضايقات من الدولة لجأوا الى قناصلهم وكانت هذه القناصل تدافع عنهم كرعايا أجانب في الظاهر أيضا . ولكن عندما صعب على البروتستانت الوصول الى المسلمين التفوا حول الأرثوذكس والأرمن فلجأ بطريق الأرمن الى الباب العالي فحرص الباب العالي على حماية الارمن من المنصرين البروتستانت فتدخل السفير البريطاني فاخذ يسعى لدى العثمانيين حتى استطاع سنة ١٢٦٧ هـ /١٨٥٠م ان يحصل على مرسوم عثماني يعترف بوجود طائفة بروتستانية وطنية منحت من الحقوق مثل ما منحت به الكنيسة الكاثوليكية والارثوذكسية في الدولة العثمانية (١).

ولما أدركت الدول الاوربية أن المنصرين آلة فعالة في تاييد النفوذ الأجنبي في الدولة العثمانية آخذت الدول تتسابق في استخدام المنصرين فكانت انكلترا لها الدور الريادى في ذلك الأمر ولكنها كانت لاتخشى من النفوذ الامريكي كما كانت تخش النفوذ الفرنسي والايطالي . لكن الدولة العثمانية لما فقدت سياستها الحكيمة تجاه المنصرين ،فقد ظلت تمنع الأطفال المسلمين من دخول المدارس التنصيرية قبل الانتهاء من التعليم الابتدائي في المدارس الرسمية . ثم كانت تلزم أن يكون التعليم الديني في تلك المدارس قاصرا على المسيحيين وحدهم .

وعندما ظهر ضعف الدولة العثمانية آخذت الدول الاجنبية تزيد في تظاهرها بدعم المنصرين . ولقد كان المنصرون يطلبون من دولهم أن تؤيدهم ولو كان ذلك مخالفا للعرف الدولي فتستجيب الدول لرغبة منصريها تاييدا لنفوذها السياسي والديني فكانت تضغط على الدولة العثمانية بين الحين والآخر حتى تلين أمام رغبات هؤلاء المنصرين (٢) . فحرصت بريطانيا على

---

(١) مصطفى خالدى وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ١١٦.

(٢) مصطفى خالدى وعمر فروخ : المصدر السابق ،ص ١١٧- ١٢١.

حماية ارسالياتها البروتستانية خاصة سواء كانت هذه الارساليات انجليزية أم أمريكية أو ألمانية ، لنفوذها الفعال في الدولة في ذلك الحين. وحين أرادت الدولة العثمانية منع باعة الاناجيل الدوارين من التجول في المدن والقرى قاموا قناصل الدول يتدخلون حتى حملوا الدولة العثمانية على عودة السماح لهم بذلك (١).

تلى ذلك اغلاق الدولة العثمانية مدارس المنصرين الامريكيين في بيروت سنة ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٨م لأن هذه المدارس فتحت أبوابها بلا رخصة أو اذن من الحكومة . ولكن القنصل الأمريكي في بيروت تدخل في الأمر حتى سمح الوالي العثماني في بيروت على رضا باشا بأن تعود تلك المدارس الى فتح أبوابها على أن لاتقبل الا التلاميذ المسيحيين فقط . ولكن القنصل مازال يسعى حتى حمل الوالي على الغاء هذا الشرط . مع آن امريكا مثلا لايمكن أن تقبل لمدرسة ان تستقبل الطلاب الامريكيين بلارخصة في فتحها ثم تلقنهم بعد ذلك مايخالف المبادئ الأمريكية (٢) . فكيف وأنها تنصر المسلمين . ولكن المنصرين وصلوا الى اسطنبول منذ عام ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٦م فقد اصبحت مركزا لاعمال المنصرين ووكرا اخر بعد الشام أمينا لنشاطاتهم ولاسيما بعد تأسيس الكنيسة البروتستانية سنة ١٢٦٧ هـ / ١٨٥٠م ولم يكن اختيار المنصرين لاسطنبول كمركز رئيسي لنشاطهم مجرد صدفة بل لانها كما يقول " بلس " محط أنظار المسلمين وعاصمة المسلمين وعاصمة أمير المؤمنين وفيها راية الاسلام على اتساع رقعة العالم الاسلامي . لذلك فقد سعت الارساليات التنصيرية للتمركز بها بشكل أو بآخر مما يساعدها على رصد الحركات السياسية ومتابعة التطورات اولا بأول تحت شعار الخدمات الطبية والتعليمية والتنصيرية (٣).

---

(١) موفق بن المرجه : صحوة الرجل المريض .. ، ص ١١٨.

(٢) مصطفى الخالدى وعمر فروخ ، ص ١١٩-١٢٠.

(٣) موفق بن المرجه : المرجع السابق ، ص ١٦٦-١٦٧.

وعلى الرغم من أن خط كلخانه عند صدوره سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م لم يشرالى التعليم فان السنوات التي تلت اصداره شهدت تغيرا ملحوظا في التفكير الحر في داخل الدولة العثمانية . فقد أنشئت المدارس على حساب بعض الأتراك الذين درسوا في أوربا أو زاروها، وقد تأثروا وامتلئوا حماسة للمعاهد التي شاهدوها . ولهذا فانهم بعد عودتهم وضعوا الخطط لبناء المصانع دون ايجاد الرجال المدربين لتشغيلها. كما جرى الحديث عن انشاء جامعة دون وجود أي كوادر اسلامية مؤهلة للتدريس فيها . وقد بدئ في انشاء مدارس ثانوية جديدة وقليلة ،كما قامت كنيسة غلطة سراى بتشجيع من فرنسا بتوفير التعليم الغربي للاولاد من كل الملل والنحل قوامه اللغة الفرنسية كما أنشئت أيضا المدارس الخاصة للبنات ولتدريب المعلمين ،ففي عام ١٢٧٦ هـ / ١٨٥٩م أنشئت مدرسة لتدريب الموظفين ليكونوا اداريي المستقبل يدرسون الشئون العامة والدولية .

ونتيجة لذلك التحرك من بعض الأتراك انفصلت مدارس الحكومة بصفة رسمية عن اشراف العلماء ، ووضعت تحت اشراف ادارة جديدة ذات صفة علمانية ،فتوسع التعليم الحديث بشكل سريع منذ حرب القرم واشتمل على فروعه العالية عسكرية ومدنية ،ثم جرى تطوير مدارس الطوائف الدينية بافتتاح المعاهد العليا . فزاد عدد الارساليات الأجنبية أمريكية ونمساوية وفرنسية وانجليزية وألمانية وايطالية .(١)

الا أن الباب العالي في آخر الستينات من القرن التاسع عشر شدد قيوده على المؤسسات التعليمية التنصيرية التي اعتبروها مراكز لاثارة القومية والثورة لدى الاقليات الدينية . مع العلم أن النظام التعليمي العثماني لم يجتذب الا عددا قليلا من المسيحيين ،ولكن الفترة التي تلت تطبيق قانون التعليم في سوريا من قبل الدولة وهو سحب تلاميذ المسلمين الذين التحقوا بمدارس المنصرين ،ثم تلى ذلك صدور أوامر الدولة العثمانية التي منعت الحاق المسلمين بمدارس الارساليات في حالة وجود مدرسة حكومية أو مدرسة اسلامية خاصة في منطقة الشام . فرد المنصرون على ذلك بزيادة عدد

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢١٨.

مدارسهم خاصة وأنهم فسروا السياسة التعليمية الجديدة التي اتخذتها الدولة لحماية أبناء المسلمين من الوقوع في حركة التنصير والردة عن الاسلام بأنها تهدف الى شل حركتهم (١).

ولم يكن ميدان الغزو الفكرى أوالتدخل السياسي عن طريق التنصير قاصرا فقط على الأمريكيين أوالانجليز أو الفرنسيين أو الايطاليين وحدهم بل ان روسيا القيصرية "ارادت أيضا أن تدلى بدلوها فتنبهت أن في الدولة العثمانية طائفة أرثوذكسية ، فأرادت أن تسيطر أولا على البطارقة والأساقفة الارثوذكسيين وتتخذهم وسيلة الى تحقيق اطماعها السياسية في الدولة العثمانية عن طريق التنصير، وهكذا أخذ الروس في ايجاد الأراضي ،فأخذوا يشترون الأراضي في فلسطين خاصة ويقيمون عليها الأبنية حتى يتدخلون بعد ذلك في الأمور الدينية والسياسية (٢)، وقد اقتصر نشاط الارساليات الروسية القيصرية على فلسطين فقط (٣). على أن نزول الروس الى ميدان التنصير قد وقف فيوجه المساعي الانجليزية والفرنسية والايطالية (٤) .

يتضح لنا هذا الموقف من خلال دراستنا للوثائق البريطانية التي توضح روح التنافس الاستعمارى التنصيرى بين بيرطانيا وروسيا وفرنسا من خلال الارساليات والمعاهد الكنسية خدمة للأهداف التنصيرية والتي تكشف عن النفوذ الروسي في فلسطين والشام . ومن أهم عوامل روسيا بلا شك أن جهودها قد توجهت الآن بالنجاح الذى جعل السيطرة والسياسة في يدها حاليا . على أساس حماية وتدعيم الكنيسة الأرثوذكسية التي يديرها اسما الأساقفة ورجال الدين اليونانيون .

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٢١٩.
(٢) مصطفى خالدى وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ،ص ١٢١.
(٣) موفق بن المرجه : صحوة الرجل المريض .. ص ١٦٧.
(٤) مصطفى خالد وعمر فروخ : المرجع السابق، ص ١٢١ .
، موفق بن المرجه : المرجع السابق ، ص ١٦٧.

وهناك أيضا عنصر آخر هو بناء المدارس الروسية ، وتشجيع هجرة اليهود الى فلسطين . بالرغم من موقفالدولة العثمانية الحازم ضد هجرة وتسرب اليهود الا أن الروس حاولوا تهجيراليهود الى هذه المنطقة لتوطيد نفوذهم في تلك البلاد . كما كان الروس لايغفلون ايضا حمايتهم الشاملة على اليهود ليضيفوا لقوسهم السياسي أيضا وترا ثانيا لايقلعن قوة الأول[1].

ويتضح من هذه الوثائق ظاهرة آخرى هو أن السياسة البريطانية تتهم دوما السياسة الفرنسية وخاصة في الأماكن المقدسة ،وتلقي باللوم على سياستها التي اتسمت بالتقصير خاصة في مجال التنصير والنشاط الثقافي والعتاب البريطاني هو ظن بريطانيا أن فرنسا مقصرة، فلابد أن تكون اللغة الفرنسية سائدة في الشام كله مع النفوذ السياسي آيضا ،لما للروس من سيطرة ونفوذ لاترغبه بريطانيا اطلاقا ، الا آنهم اشادوا في تقاريرهمعن ذكاء اليهود ومثابرتهم فيالشام ونشاطهم الدراسي في كلية الزراعة في يافا ،لأنهم كانوا يتحدثون الفرنسية بطلاقة اضافة الى لغتهم العبرية .

هذه هي أهم نتائج هجرة اليهود من البلدانالأوربية المختلفة الى فلسطين والذين كانت لديهم الرغبة في الاقامة الدائمة في فلسطين وعدم العودة الى أهلهم ومواطنهم الأصلية في روسيا وأوربا [2].

كما أنه منالواضح أن اتجاه روسيا وفرنسا وبريطانيا من خلال هذه الوثيقة وما سيأتي هو تشجيع وتمهيد الاستطيان اليهودى في فلسطين .

كما آن نبرة الاحتقار بالنسبة للعرب المسلمين في المنطقة بالكل وهذه الفكرة صدى لما كان يدور أو يخطط له في أروقة الخارجية البريطانية والتمهيد له لما بعد ،حولاعلان وعد بلفور .

---

(١) F.O.: 424/197 Sir N.o'coner to the Marqueses of Salisbury. No: 91, 24-12-1898.

(٢) Ibid.

أما القنصل الروسي عندما يحمي هؤلاء اليهود في فلسطين سيكسب أو سيضيف عنصراسياسيالنفوذه في البلاد العربية التابعة للسلطان العثماني لاستغلاله يهودالسلاف لحل مشاكلهم من اوربا لكسب سياسة جديدة ،والعمل على خلق مشاكل للسلطان في ميدانه •

ففي هذه الوثيقة أيضا اشارة الى أن الحقائق التي يراها من الممكن أنتحقق توقعات(لورد بيكم فيلد)• كما أنها يمكن أن تكون عاملا مهما في وجود حل للمسألة الشرقية ، ويؤكد النفوذ السياسي الروسي في البلاد لانه هو النفوذ السائد فيفلسطينوالاراضي المقدسة ، ولايستبعد في الوقت نفسه أن تفرضالوصاية على الأماكنالمقدسة [(١)]• ويؤكد أيضا انتشار النفوذ التعليمي والديني الروسي في سوريـاوفلسطين لان مسيحي سوريا ليسوا كثيرى العدد وانما يتقسمون في اتجاهاتهم العقدية الىعدد كبير من الكنائس المختلفة التي يعتمد بعضها على روما والبعضالآخر منعزلا عنها• فالمجموعة الأولى تشمل اللاتين والذين يتبعون الطقوس الرومانية العديدة لكل الكنائس اليونانية والسورية والكاثوليكية الامريكية والمارونية نتيجة لجهود الارساليات التنصيرية الفرنسية والايطالية والروسية التي دخلت بلاد الشام•

وعموما كاناهتمام هذه الارساليات بسوريا وفلسطين من خلال رحلات الحج التيتنظمها جمعية فلسطين الأرثوذكسية التابعة لروسيا [(٢)] وذلك من أجل تركيز نفوذهم في المنطقة العربية والاسلامية •

وتتحدث هذه الوثيقة أيضا عن جمعية فلسطين ونشاطها وسيطرتها على أقوى سلاح والمتمثل في هيمنتهم على المدارس الارثوذكسية التي تمكنت تدريجيا من نشرها على طول البلاد وعرضها • وينقل المحرر عبر الوثيقة تخوفه

---

(١) F.O.: 424/198-Sir N. O. Conor to M. Salisbury, No, 76, 26-4-1899.

(٢) Ibid.

من خلال هذه المدارس سوف يتم بناء جيل جديد ينتمي الى روسيا بالولاء والروح . كما تشير هذه الوثيقة الى الجهود المتواصلة التي تقوم بها الحكومة الروسية من خلال جمعية فلسطين لتحقيق هدف التنصير في ولاية سوريا ولبنان . وتنفق هذه الجمعية بسخاء مالايقل عن (٦٠٠٠) ستة الاف جنيه تركي سنويا ، لدفع ايجار المباني المدرسية المستأجرة في تلك البلاد ، ومرتبات المدرسين مع ايجاد طبيب روسي في دمشق .

هذا الطبيب اضافة الىعمله طبيبا فكان يعملجاسوسا للجمعية وكان يقوم برحلات في كافة البلاد يعالج فيها مجانا من كلمن يقابله ،بل ويقدم المساعدة لمرضاه يقدم لهم الكشف والأدوية اللازمة مجانا ،وكان غالبية هؤلاء المدرسين من الروس ،وزيادة في نشر اللغة الروسية في البلاد يتم تعليمها مجانا على أن هذه المدارس مدارس عثمانية اسميا ، اذ لايعترف بها أنها مدارس روسية رسمية حتى تضمن الاستمرارية (١).

ومن الأحداث في سوريامامرح به مصدر مسئول قوله : ان بعض القرى المجاورة للقدس ، التى كانت كاثوليكية منذ خمسة وعشرين سنة تحولت الآن الى آرثوذكسية تماما بسبب الاغراءات المالية والمساعدات الشخصية من خلال المساعدات الروسية لآباء وأطفال الملتحقين بالمدارس الروسية ،وينقل صاحب هذا التقرير مارآه غير مانقله عن طريق المخبرين في قرية على الطريق بين القدس وبيت لحم تسمى (بيت يانا) ، هذه القرية تحول سكانها جميعا الى آرثوذكسيين تماما.

وتشير هذه الوثيقة الىآنعمالجمعية فلسطين التنصيرية الأرثوذكسية قد حصرت أكثر اعمالها في مجال التعليم ،فانه من المرجح ماكانت تقابل مقاومة كبيرة من السلطات الكنسية المسئولة عن المجتمع المحلي والتى أسعدها

---

(١) F.O.: 424/198, Sir N. O'Conor to M. Salisbury, N: 76, 26-4-1899.

أن تتلقى مساعدات مالية من هذه المؤسسة لمدارسها [1].

وبسبب هذه الاغراءات والمساعدات الكبيرة التي تغدقها روسيا عليهم فاننا نرى نبرة القناصل ومساعديهم في الاماكن المقدسة يرفعون تخوفهم ويفصلون لدولهم مايرونه من النشاط البارز لروسيا في بلاد الشام ونفوذها السائد. كما يظهر الخلاف واضحا بين السياستين البريطانية والروسية في الصراع المذهبي الذى أقلق انكلترا من بسط النفوذ التعليمي الروسي في سوريا والشام ، أو الغزو الفكرى الذى تتزعمه روسيا لتحويل أهل سوريا ولبنان وفلسطين الى أرثوذكس . كما يظهر هذا القلق من المذكرة التي تلقي اللوم على السلطات الكنسية الايطالية والفرنسية التى تغرى بالمال الروسي وما حققته روسيا في القدس لايمكن للقارئ العادى أن يغفله .

ففي الأماكن المقدسة تجد أن الكنيسة الأرثوذكسية هي المسيطرة في كل مكان وحتى في المدينة نفسها ، وعلى مايجاورها كلها كانت مكتظة بالمؤسسات الروسية . ويؤكد هذا التقرير ان كل مبنى هام جديد هنالك اما كنيسة روسية أو دير روسي ، أو تكية لاستقبال أفواج الحجاج المسيحيين الذين يفدون على دفعات مابين ثلاثة آلاف الى أربعة آلاف شخص [2] في جهود مكثفة لاستيعاب سكان هذه المناطق للدخول الى ملتهم الارثوذكسية دون ملل ودون كلل، في تقديم المساعدات المادية والعينية من أجل بناء المدارس والكنائس في تلك المناطق .

هذا التقرير المفصل ينقل لنا معلومة آخرى هي ان العملة الروسية هي السائدة اذ اغرقت البلاد واصبحت كثيرة التداول والاستخدام في المجتمعات المسيحية الاخرى التي لاتتصل بكنيسة روما والتي نلمس منها يوميا الدخول أفواجا الى المذهب الارثوذكسي الروسي لأسباب اقتصادية بحتة . مع اتهام

---

(١) F.O.: 424/198, Sir N. O'Conor to M. Salisbury, No.: 76,. 26-12-1899.

(٢) Ibid .

فرنسا بأنها غير قادرة على مقاومة التنصير الروسي صراحة ، ويبدو أن ممثلي القنصلية الفرنسية في فلسطين وسوريا تبذل جهودها ولكنها جهود سرية لمواصلة تأييد اللاتينيين الكاثولكيين الذين لازالت فرنسا تحميهم في الشرق ولكن الواضح أنها لم تستطع أن تنجح في مسعاها (١) .

وهذه وثيقة أخرى عن بعض المدارس الروسية أيضا في الجليل تبين نتائج جولة السيد انيشيوف عضو مجلس الشيوخ الروسي ورئيس جمعية فلسطين الروسية على تلك المدارس في الناصرة وحيفا للبنين والبنات ،هذه المدارس أقيمت على نفس النظام الذى انتهجه الروس ،حيث يدرس في هذه المدارس اللغة الروسية والعربية ،كما يدرس بها حصة أو حصتين في الأسبوع في فن النجارة ، والحرف الأخرى للبنين ، كما يوجد بالمدرسة طبيبان من رجل وامرأة ملحقان بالمدرسة يقدمان الرعاية والخدمة الصحية مجانا (٢).

وهنا ينقل لنا القنصل الانجليزى ريتشارد من القسطنطينية بالتقرير السرى رقم (١٠) عن انتشار النفوذ التعليمي الروسي في دمشق لابلاغه لحكومته عن الأرثوذكسيين اليونانيين الذين سلموا مدرستين واحدة للبنن والأخرى للبنات تضم الأولى مائة وخمسين طالب والثانية مائة طالبة ، للقنصل الروسي ، وقد سبقتها مدرسة يونانية سلمت أيضا للقنصلية المذكورة ،والسبب في ذلك هو النقص المالي الذى تعانيه تلك المدارس حتى تضمن دفع مرتبات المدرسين والكتب للطلبة وغيرها من المصروفات المستقبلية .

اضافة الى ذلك تحول مدرستين من المدارس اليونانية في لاطاكيا الى الكنيسة الروسية ، وقال التقرير ان التاثير الروسي في سوريا

(١) F.O.; 424/189,Sir N. O'Conor to M. Salisbury, No.:76, 26-4-1899.

(٢) F.O. 424/199, From Consul General Drummond Hay to sir N. O'Conor No. 3/1, 3/2, 15/16-6-1899.

لازال في تقدم ونمو مستمر(١) .

وهذا التقرير أيضا يسجل ظاهرة أخرى من النفوذ الروسي أو جمعية فلسطين التنصيرية على المدارس اليونانية التي حولتها الى حظيرتها بالاغراء المالي لهذا نراها أيضا تسيطر على المدارس وتتبناها للصرف عليها لا بل تحولها الى ارثوذكسية روسية مما زاد قلق بريطانيا في هذا الشأن الى جانب المذاهب أو الملل الأخرى النصرانية لرعاياها هناك .

الا أن القنصل ريتشارد مطمئن لأنه من بين جميع المدارس الأرثوذكسية اليونانية في دمشق ان مدرسة البنين لازالت تحتفظ باستقلالها عن النفوذ الروسي ويعلل ذلك بان عدم ضم هذه المدرسة هي سياسة مرضية ولا بأس بها .

أما عدد المدارس التنصيرية الروسية في سوريا وفلسطين بلغ نحو (١٠٠) مائة مدرسة للبنين والبنات ،تشمل نحو (٨٠٠٠) ثمانية آلاف تلميذ ،تحت الادارة الروسية وأنها تكلف جمعية فلسطين للتنصير حوالي (١٠٠ر٠٠٠) مائة ألف نابليون (٢) تدفعها روسيا بسخاء(٣).

ويواصل ريتشارد فيتقريره التصويرى عن المدارس الروسية وأنظمتها للدارسين بها فيشرح ذلك بأن كلمدرسة تعلق صور القيصر على الحائط جنبا الى جنب مع صورة مريم العذراء ، أو أحد القديسين حيث ينحني أمامها التلاميذ بصحبة مدرسيهم ثلاث مرات في اليوم ويرسمون بيدهم علامة الصليب . ثم ان التلاميذ يتعلمون كيف يتحدثون عن الامبراطور الروسي بكلمة " ملكنا " وهو تعبير يعني لرعايا الدولة العثمانية المتحدثين باللغة العربية السلطان فقط .

---

(١) F.O.:424/200-Consul Richards to Sir N . O'conor No. : 23, 19-2-1900.

(٢) النابليون : عملة فرنسية تساوى ٢٠ فرنك . الوثيقة السابقة رقم(٢٣).

(٣) F.O.:424 /200 , Ibid.

ويضيف الكاتب ريتشارد فيتقريره قوله : " وربمايعترض البعض بقوله أن هذه أشياء تافهة ، بالعكس فانها ليست عديمة الفائدة اذا نظرنا اليها كفشات تبين لنا اتجاه الريح "(١).

أما شروط الدخول للتلاميذ فانه أقلمن خمس سنوات لايسمح لهم بدخول هذه المدارس ولكن لايوجد قيد زمني فيما يتعلق بمدارس البنات وتفسير ذلك أن عقل الطالب ينمو بسرعة اكبر من عقلالفتاة وانه كلما بدأ مبكرا في مرحلةالتعليم كلما قل احتمالمحو مافي عقولهم عند استمرار معرفتهم وتعلمهم حقائق الحياة (٢) كما يراها هؤلاء المنصرين . وبمعنى آخر لغسل مخ التلاميذ الذين ينضمون الى هذه المدارس .

وقد أساء المنصرون الىالعلم لما اتخذوامنه وسيلة الىالتنصير ، فالأب يأتمنعلىابنه عند دخوله المدرسة حيث يقدم أثمن مالديه وهو يظن أنه وضع ابنه بين يدى أنبلالناس ، بين يدى المعلمين .. ولكن المعلم المنصر انسان خلت من قلبه أجمل معاني الانسانية .فقد الأمانة والاستقامة والصدق (٣) ، وهذا ما أشار اليه التقريرالسابق عن شروط دخول المدارس التنصيرية بالنسبة للاطفالوبينالاعمار المطلوبة لدخولهم والسبب في ذلك وخاصة البنين(٤).

وفي الحقيقة هذه من أهم صفات المعلمين أو المدرسين وخاصة في المراحل الأولى من تعليمالطفل الابتدائي ،فاذا فقدها المعلم فقد مقومات الأمانة العلمية .

---

(١) F.O. 424/200, Consul Richards to Sir No.O'conor, No.: 23, 19-2-1900.

(٢) Ibid.

(٣) مصطفى خالدى وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ٧٦ .

(٤) Ibid.

والمنصر اذا تعرض لرجل ناضج حاول استمالته بشتى الطرق ليقنعه بصواب مذهبه . أما أن يتخذ رجل أشرف مهنة أسبغها الله على الانسانية وسيلة ليخادع بها الأطفال ومن فوقهم فهذا في منتهى الكفران للأمانة العلمية التي علقت في رقاب الناس . فقد قال أحمد شوقي في هذه المهنة الجليلة مايلي :

قم للمعلم وفه التبجيلا	كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرف أو أجل من الذي	يبني وينشىء أنفسا وعقولا

وهذا الذي ظنه شوقي وظنه الناس كلهم قد جاءوا الى بلادنا بعنوان الانسانية بينما تنطوي نفسه على أشياء أخرى استغلله في أشرف مكان وهو المدرسة . فاستغل المنصرون العلم ستارا لغايات هي بدورها لغايات اخرى هم ومن استخدمهم ليصلوا عن طريق هذا النشاط الى استعباد الشرق واستغلاله سياسيا واقتصاديا .

فقد حصل رامون لل على مقابلة البابا سلستين الخاص وكان ذلك عام ٦٩٤ هـ/١٢٩٤م وقدم له كتابين فيهما خطة للتنصير بين المسلمين :

أولهما : أن تتخذ الكنيسة العلم والمدارس وسيلة للتنصير .

ثانيهما : ينصر المسلمون بالقوة اذا لم تنجح فيهم الجهود .

ومع أن البابا لم يصغ الى خطط رامون كما قيل . وهكذا نرى أن التنصير عن طريق التعليم مشروع باباوي في أساسه وتطوره [1].

وللتعليم أيضا عند المنصرين غاية واحدة هي تنصير التلاميذ الذين يحضرون الى المدارس . ومعلوم أن في الكلية الانكليزية في القدس طلاب مسلمون ونصارى ويهود ، وكانت سياسة المدرسة أن تنصرهم كلهم ، الا أن المقصود

---

(١) مصطفى خالدى وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ٧٦-٧٧ .

بالتنصير الجموع الاسلامية . لهذا اختار المنصرون ميدان التعليم لأن للتعليم أثرا فعالا ، بل هو أقوى وسائل التنصير ، والمنصرون يرون أن الوسيلة التي تأتي بأحسن الثمار في تنصير المسلمين انماهي تعليم أولادهم الصغار ومن أجل ذلك لانستغرب أن يدعو المنصرون الى بناء مدارس كثيرة في البلاد الاسلامية . فقد أنشأ أول مدرسة في الدولة العثمانية للبنات ببيروت عام ١٨٣٠م .

بهذه الطريقة يخرج التلاميذ المسلمون من عناية المدارس المسلمة . ولكي يكون التنصير كاملا كان يرى المنصرون أن يتولوا هم التعليم في جميع أنواعه في البلاد العثمانية وأقطارها ، فرياض الأطفال مهمة جدا لك طفال لأن التعليم الديني في هذه المدارس يجعلها بابا مفتوحا للتنصير ولتأثيره في عقول الأطفال الغضة ، ثم ان الذين يشرفون على مدارس رياض الأطفال يكونون أكثر اتصالا بأهل الطلاب .

وكذلك التعليم الابتدائي وسيلة ثمينة للتنصير لانه يمكن للمنصرين أن يثبتوا اقدامهم في القرى تحت ستار التعليم الابتدائي الذى تحتاج اليه القرى ،وللمدارس الابتدائية فضل على الكليات بصفة عامة لأنها تمكن المنصر من أن يصل الى العقول وهي لاتزال تتأثر بما يلقى اليها (١).

وهنا نرى أيضا بعض المنافسة بين الروس والانجليز لاتهام الروس بضعف التعليم لديهم لطول الدراسة للغة الروسية وتجاهل بعض الموضوعات الأخرى الأكثر أهمية للأطفال مما جعل الأطفال يفضلون التعليم في مدارس الارساليات البريطانية حتى أصبحوا من حين لآخر يفضلون العودة الى مدارسهم الأساسية ويتركون المدارس الروسية على اعتبار أنها أفضل من الارساليات الروسية (٢).

---

(١) مصطفى خالدى وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ،ص ٧٦-٧٧ .
F.O. 424/200 Consul Richards to sir N. O'conor No:23,19-2-1900.

(٢) F.O. 424/200 : Ibid.

هذا النفوذ في مجال التعليم يوضح بجلاء الدور الروسي في عمليـة الغزو الفكرى في منطقة اسلامية مهمة من الدولة العثمانية ٠

كما يظهر تغلغل التنصير الروسي وغيره في البلاد العربية في دمشـق وفلسطين ولبنان ٠ ثم نلمس أن هناك محاولة السيطرة على رئاسة الناحيـة الدينية ٠ وأيضا انعكاس ومؤشر لاطماع روسيا القيصرية في الدولـة العثمانية ومظهرا من مظاهر الغزو الفكرى في مجال التعليم ٠

فالتعليم في مدارس الارساليات المسيحية انما هي واسطة الى غايـة ، هذه الغاية هي قيادة الأفراد الى الدين النصراني وتعليمهم حتى يصبحو جموعا وأفرادا نصارى ٠

فكل التقارير تبين التنافس الاستعمارى بين بريطانيا وروسيا وتوظيـف الارساليات والمعاهد التعليمية والكنسية خدمة لأهداف الاستشراق والتنصيـر والاستعمار ٠

وهنا نرى موقف فرنسا كرد للنفوذ الروسي خلال فقدانها لمركزهـا عندما قام السيد جيسويت بانشاء مدرسة طبية ، وهذه الخطوة لاشك أنها خطـوة مضادة للنشاط الروسي في الشام (١).

ثم ان المجتمع المسيحي قام مؤخرا بشراء قطعة أرض في شارع دمشـق في مدخل بيروت لاقامة مدرسة طبية على أن يلحق بهذه المدرسة مؤسسة علاجيـة للوقاية من الديفتيريا ، الذى يعج في تلك البقاع ، ولما علمت الحكومـة الفرنسية ساهمت بحوالي مليون فرنك للمساعدة البريطانية في هذا المشـروع ، وقد تم بناء سور حول هذه الارض (٢)، وهذا كرد فعل للنشاط الروسـي في الأماكن المقدسة ٠

---

(١) F.O: 424/200, Sir. N. O'conor to Marguess of Salisbry No: 55. 22-5-1900.

(٢) F.O: 424/200 Consul-General Drummond Hay to N. O'conor, No. 55/2, 20-4-1900 .

ويتابع القنصل العام دارموند حديثه عن نشاط الروس فيذكر بـــأن طراسوف مفتش المدارس الروسية في طرابلس قد قام بزيارة المدارس المشتركة الروسية في فلسطين ، وقد قرر في هذه المدارس تدريس اللغة الروسية والعربية وتدريس كتاب يشمل على العقيدة الأرثوذكسية واللغة الفرنسيـة والتركية ، وسوف تواصل فتح مدارس أخرى في طرابلس بنفس النظام (١).

يلاحظ في هذا التقرير أو التقارير رصد قناصل بريطانيا لكل من نفوذ روسيا وفرنسا في الدولة العثمانية في مجال التعليم والتنصير، ويأتي هذا انطلاقا من روح التنافس الاستعماري التي سادت بين القوى الأوربية وأطماعها في ممتلكات الدولة العثمانية ثم في وسائل التنصير عن طريق الخدمـــات التعليمية والعلاجية والدعم المالي الهائل من الدول الأوربية كما يتضـــح ذلك من مساهمة الحكومة الفرنسية فأصبحت بهذا أرض الشام أرض مناورة أوخلية للصراع بين الملل والمذاهب المسيحية حول نفوذ كل ملة من هذه الطوائـــف على أرض سوريا وفلسطين ولبنان حتى اسطنبول ، لم تخل من ذلك التنـافس على كسب أكبر أرض من الدولة العثمانية على مختلف قاراتها الثـــلاث ، ومحاولة تنصير الأمم الاسلامية وردهم عن دينهم الى دين النصرانية عن طريق التعليم المجاني والخدمات الطبية والمساعدات الزراعية .. الى غير ذلـك من أساليب تحايل دول الغرب عن طريق الغزو الفكرى .

وما يهمنا هنا هو تناول الغزو الفكرى من الناحية التاريخيـــــة وبالاسلوب التاريخي في بلاد الشام وعاصمة الدولة العثمانيـــــة حســـب خطـــة البحـــث ، وتأثير ذلك على عقيـــدة ناشئة المسلمين بالطرق والأساليب الملتوية حول تحويل منهج الصليبييـــن من الغزو العسكرى الى الغزو الفكرى للمشرق الاسلامي حين فشلت حلولهـــم العسكرية لاستكمال حلقات المؤامرة الصليبية الشرسة لهدم الخلافة الاسلامية كما سيأتي في بابه .

---

(١) F.O. 424/200, Consul-General Drummond Hay to N. 55/3, 7-5-1900.

أما سياسة الرجل المريض : فهي من حملات التشهير بالدولة العثمانية والتى كان منها اطلاق عدة مسميات أو صفات على السلطان العثماني فهو " المريض الذى لايرجى شفاؤه " و "المريض المشرف على الموت " و " رجل أوربا المريض "(١).

ولقد جاءت هذه التسمية نتيجة لاتساع كيان الدولة العثمانية وعدم استطاعتها تجديد أنظمتها و اداراتها ،ولما كانت عظمتها مبنية على أساس قوتها العسكرية لذا عندما سقطت هيبتها العسكرية سقطت بالتالي . الدولة للضربات التي سددها الغرب المسيحي اليها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الموافق للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وذلك بعد أن تغلغلت فيها الامتيازات الأوربية التي شجعت الغزو الفكرى الذى ساعد في تمزيق الافكار والأوطان • وبعد أن أصبحت بلدان الخلافة العثمانية في يد الاحتكارات الأوربية الرأسمالية وظهرت معها الأطماع الاستعمارية لاقتسام أملاك الدولة العثمانية التي أطلقوا عليها تركة الرجل المريض ، وحاول سلاطين آل عثمان أن يقوموا بمحاولات اصلاحية اتخذت النظام الغربي نموذجا لها ، وقد بدأ الاصلاح في المقام الاول الى اصلاح آلة الحرب والنظم العسكرية ، وقد فشلت هذه المحاولات الاصلاحية أيام سليم الثالث (١٢٤٠ - ١٢٢٢ هـ) وأيام محمود الثاني (١٢٢٣-١٢٥٥هـ) وغيرهما من السلاطين الذين أتوا بعدهما في القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للقرن التاسع عشر الميلادى ، نظرا لأن هذه المحاولات لم تأخذ بعين الاعتبارات الصيحات المخلصة المنبعثة من الجزيرة العربية التي تنادى بالاصلاح على أساس التوحيد الخالص من كل دخيل وعلى أساس عقائد السلف الصالح ، أى بالبناء على قواعد الماضى المجيد التي أسسها الجدود ، وبدلا من أن تتعامل الدولة العثمانية مع هذه الصيحات وتصغى لها التفتت اليها لتضربها كما سنرى فيما بعد(٢).

---

(١) عبدالعزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، جـ ٢ ، ص ٨٣٠•

، حسين لبيب : تاريخ الأتراك العثمانيين ،جـ ٢ ،ص ١٣٧•

(٢) محمد مصطفى رمضان : العالم الاسلامي الحديث والمعاصر ،ص ١١٢•

ولكن أطلقت هذه المسميات أول ما أطلقت في بادئ الأمر على المجال الدبلوماسي المغلق ، وعلى أعلى المستويات ، ولكن لم تمض عدة سنوات حتى أعلنت هذه المسميات علنا على الدولة العثمانية وما أحاطت به من ملابسات فوقف على هذه التسميات الرأى العام البريطاني • ثم انتقلت الى سائر الدول الأوربية ، فتلقفها المؤرخون والباحثون ورجال السياسة الحاقدون أو المتحاملون على الدولة العثمانية أو أعداء الاسلام واتخذوا منها مادة للتشهير بالدولة العثمانية (١).

والحق أن دعاية الرجل المريض دعاية مغرضة ، أطلقت على الخلافة العثمانية في سنواتها الأخيرة فكانت هذه الدعاية دعاية يهودية انطلقت أو خرجت من يهود الدونمة من داخل تركيا نفسها ، فهذا التعبير لم يكن اذا ترجمة حقيقية لوضع الخلافة قبل السقوط (٢) انما هو مجرد دعاية للتشهير بضعف الدولة العثمانية وايهام الناس بذلك لزعزعة ولاء ولاياتها أو شعبها لاتخاذها حجة للانفصال ، وهذا مافعله محمد على حين ثار على الدولة العثمانية فانفصل عن الدولة سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠م وقد سبقه في ذلك اليونان •

وبعد القضاء على ثورة محمد على ، عادت روسيا الى سياستها التقليدية في محاولة تدمير الدولة العثمانية عن طريق الضغط العسكرى وأثارة الاضطرابات في البلقان (٣).

وسواء كان هذا التوجه للتشهير بالدولة العثمانية وللحط من قيمتها من بعض حكومات الدول الأوربية ، أو جاءت كتاباتهم بوحي من أفكارهم

---

(١) عبدالعزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، جـ ٢ ، ص ٨٣٠ •

(٢) هيئة الاخبار : الرجل المريض ،دعاية يهودية ،مجلة التضامن الاسلامي ، السنة ٤٤ ، الجزء ٥ ، ص ٥٩ - ٦٠•

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠٧•

وحقدهم فقد كان الهدف من ذلك كله هو النيل من الدولة باعداد وتخطيط فكرى مسبق ، لدى الدول الأوربية بأن سقوط الدولة العثمانية لامحالة أمر وشيك وأن نهايتها آتية لايختلف فيه اثنان (١).

وهذا التخطيط مبني على حقد دفين من هذه الدول للدولة العثمانية التي حمت راية الاسلام لعدة قرون ، وقد أجهضت الحروب الصليبية التي قادتها أوروبا نحو الشرق لاخراج الدولة العثمانية من اوربا واحتلال بيت المقدس ، فقد ردت عليهم الدولة وشتتت جموعهم الصليبية حلفا بعد حلف وجعلتهم في حالة الدفاع عن النفس بعد الاستيلاء على القسطنطينية وتهديد روما كما سبق . هذا الحقد وراء الاشهار باطلاق هذه المسميات " الرجل المريض " الى غيره من المسميات الأخرى ، التي تنم عن الحقد الدفين والقصد منها احباط الدولة في مسيرتها وتحريك كوامن الأقليات النصرانية داخل هذا الكيان واشعال الثورات لتزيد من تفاقم الأزمات في الدولة ويسهل تدخل الدول الأوربية لحماية أقلياتها.

وان أول من أطلق هذا الاسم أو عبارة " رجل أوربا المريض" (The Sickman of Europe) هو نيقولا الأول قيصر الروس (سنة ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥م - ١٢٧٢ هـ/١٨٥٥ م) في حديث جرى سنة ١٢٦٠ هـ/١٨٤٤م ، بينه وبين ابردين (Aberdeen) رئيس وزراء بريطانيا في وندسور Windsor في انجلترا وكانت تجمع بين الاثنين صداقة حميمة ، وهذا التصريح لم يكن جديدا أيضا على القيصر ،فقد أعلن رأيا من قبل أشد لهجة وأكثر بعدا عن اللباقة الدبلوماسية حيث قال : " ليس في استطاعتي أن أبعث الحياة في الموتى. ان الامبراطورية العثمانية دولة ميتة ،وليس

---

(١) عبدالعزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، جـ ٢ ، ص ٨٣٠.

لدى ثقة أن يستمر هذا الجسم العجوز محافظا على الحياة، انه في حالة انحلال في جميع النواحي "(١).

هذا التصريح جاء في وقت كان الرأى العام الأوروبي يطالب أوربا بطرد العثمانيين من القارة بقضهم وقضيهم واقتسام أملاكهم بين الدول النصرانية (٢).

ثم أعاد القيصر عبارة الرجل المريض في سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م أى قبيل نشوب حرب القرم، فقد تحدث القيصر مع سير هاملتون سيمور (Sir Hamilton Seymour) السفير البريطاني لدى روسيا ومع غيره من رجال السياسة وكانت هذه الأحاديث تدور حول اعتقاد نيقولا الاول أن سلطان الدولة العثمانية رجل مريض للغاية وقد يلفظ أنفاسه الأخيرة فجأة، وأن من الخير للسلام العالمي ان تفكر الدول الأوربية مليا في توزيع ممتلكاته قبل وفاته . وأعرب عن رأيه بامكان تسوية الأمور بين بريطانيا والروس دون الحاجة الى قيام أي حرب (٢).

فاقترح استيلاء روسيا على اسطنبول وبريطانيا على مصر وكريت . فلم يجبه السفير الانكليزى جوابا شافيا بل أجاب القيصر بأن الأولى أن نعالج هذا الرجل المريض، وتعهده بالعناية حتى تعود اليه قوته كما كان سابقا، لانه لو مات حصلت بعده حروب تهدر فيها الدماء أنهارا في سبيل تقسيم تركته، ولم يكن ذلك من الدولة الانجليزية حبا بتقوية الدولة العثمانية أو حبا في بقائها بل كان خوفا من امتداد روسيا في الشرق واحتلالها لاسطنبول فتشارك انكلترا في ملك البحار الذى انفردت به .

---

(١) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، ج ٢، ص ٨٣٠ - ٨٣١.
، حسين لبيب : تاريخ الاتراك العثمانيين، ج ٢، ص ٣٧.

(٢) عبد العزيز الشناوى : المصدر السابق، ج ٢ ص ٨٣١.

ومنجهة آخرى خابر نابليون الثالث حكومة بريطانيا بشأن الاتحاد مع الدولة العثمانية لتحديد مصير الأماكن المقدسة في فلسطين حتى لاينتشر نفوذ الروس بين رعايا الدولة العثمانية الأرثوذكس الذين ربما يبلغ عددهم احد عشر مليونا ، لاسيما وأن حماية روسيا للقدس وماجاورها يجعل انكلترا في خطر على أقرب طرقها لمستعمراتها الهندية وهي طريق مصر ، فاقتنعت بضرورة مقاومة نفوذ روسيا في هذه الاماكن خصوصا بعد أن اطلعت على مقاصد القيصر عن طريق سفيرها في روسيا (١) . وهذا النفوذ الروسي الذى لمسناه فيماسبق من خلال الوثائق والتقارير حيث تركز اهتمامها أساسا على حماية وتدعيم الكنيسة الأرثوذكسية التي يديرها الأساقفة ورجال الدين المسيحيين وهذا مانقله نابليون الىحكومة بريطانياللتحالف ضد هذا النشاط الروسي في الأماكن المقدسة ، وهو بلاشك توجه من روسيا للموقف السياسي في فلسطين ، وهو من العوامل التي توجت نجاح روسيا والسيطرة السياسية في المنطقة (٢).

ولكن هذا التعبير الأوربي الذى أطلق على الدولة العثمانية يعني المرض الذى انتاب السلطان العثماني - انماهو تعبير سياسى قصد به الضعف السياسي والعسكرى بعد آن بلغ بالدولة حد الاضمحلال والتدهور وذلك في أواخر القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى . في الوقت الذى تتقدم فيه أوربا نحو الأمام ، وكانت الدولة الأوربية الكبرى مسئولة عن جانب كبير من ذلك الضعف الذى ألم بالدولة (٣) لكثرة ثورات واضطراب الاقليات المسيحية داخل الدولة والتدخل من هذه الدول الأوربية بقصد الحماية.

---

(١) محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٩٣.

(٢) F.O. 424/197, Sir. N. O'Concor to the Marguess of Saliabury, No: 91, 24-12-1899.

(٣) عبدالعزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، جـ٢ ، ص٨٣١.

ولكني أقول حين تركت الدولة العثمانية التمسك بالكتاب والسنة وحاولت تطبيق القانون الوضعي واقتباس الانظمة الغربية أتاها الضعف ، لأن هذه القوانين الوضعية لاتوافق بأى حال من الأحوال طبيعة الدولة الاسلامية وهذا الخط هو الذى جرف الدولة عن مسارها القويم . ثم ان معارضة العلماء لكل اصلاح جديد لايتنافى مع الشريعة هو أيضا سبب من أهم أسباب ضعف الدولة ، ولا ننسى أن هذا التشهير بالدولة أيضا غزو فكرى لخطط سابقة وهي زحزحة الدولة العثمانية الاسلامية عن النظم الاسلامية والصاقها بالنظم الأوربية ، لأن نظرة الاستشراق الأوربي هو القضاء على الاسلام والمسلمين من الكرة الأرضية واستعبادهم واستغلال ممتلكاتهم ، حتى تجعل الشعوب الاسلامية بهذه الدعايات تؤمن بعجزها عن تحقيق أي تقدم في المجالات الاقتصادية والفكرية والاجتماعية والسياسية ، واستحالة تقدمها مادامت مصرة على التمسك بدينها ، واتهامهم بأن هذا الدين هو السبب الحقيقي لتخلفهم .

يقول هانوتو " الدين الاسلامي يبعث في الانسان الخمول والكسل ولايوقظه منهما ... وان تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد . لأن الاسلام معتقدهم يحول دون ذلك ، وأن كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على منهاج أوربا علما ومدنية نجحت " (١).

فعملاء الغزو الفكرى قد عملوا منذ نهاية القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى ، وبعبارة أصح منذ أن استقر في أوكار الصهيونية والاستعمار ، تدمير الخلافة الاسلامية ، عند ذلك عملوا على تخريب الفكر الاسلامي وتشويه عقل المسلمين وهم مازالوا يعملون حتى الآن ، الأسماء تتغير ، والشعارات تتلون ولكن الهدف واحد ، هو تجريد المسلم من أقوى سلاح وهو ايمانه بالله وان كتائب الغزو الفكرى (الطابور الخامس) الذى يعمل داخل صفوفنا

---

(١) السيد أحمد فرج : جذور العلمانية ، ص ٣٦

ليجهز على مقاومتنا [١] .

هكذا نرى أن التعاون بين السياسة والتنصير قد أعطى ثمرته الأولى حين أخذت الأقطار الشرقية تسقط تحت السيطرة أو النفوذ الأجنبي الا أن هذه الدول لم تقص المنصرين بعد أن نالت حاجتها من جهودهم بل زادت تقريبهم لانهم أصبحوا أعرف الناس للبلاد وأهلها واتجاه الريح فيها. لذلك وقف المنصرون ورجال السياسة وجها لوجه أى الفريقين يجب أن يتقدم على الآخر وكان المنصرون من قبل يدخلون البلاد وبعد ذلك يأتي الجيش على آثر ذلك ولكن في أواخر القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى أخذ المنصرون بتقديم الجيش أولا لأن ذلك يسهل مهمتهم [٢].

معنى هذا أن تغيير هذا النظام يعطينا دلالة واضحة على ضعف الدولة العثمانية وعدم استطاعتها المقاومة كما كانت في سابق عهدها لبعد هذا الميدان عن الدولة المنشغلة في مشاكلها الداخلية وما أكثرها آنذاك .

لهذا فضل المنصر أن يعمل بعد الاحتلال ،فكان حكام هذه المناطق على حق في تخوفهم حينما يعتقدون أن مجيء المنصرين ينهي دائما تدخل الدول النصرانية في بلادهم ثم بعد ذلك يفقدون جزءاً منه [٣] .

...

---

(١) محمد جلال كشك : الغزو الفكرى ، (الطبعة الرابعة ، القاهرة ، المختار الاسلامي للطباعة والنشر والتوزيع ،١٣٩٥هـ) ص ٧٠.

(٢) مصطفى خالدى وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ١٤٤-١٤٥.

(٣) مصطفى خالدى وعمر فروخ : المرجع السابق، ص ١٤٥.

الفصل الثالث : عوامل الغزو الفكري الأوربي للدولة

أ - أثر الموقع الجغرافي .

ب - تطورات التاريخ الأوربي الحديث : العلمانية والقومية والحركة الدستورية

جـ - صدى الثورة الفرنسية .

د - اطماع الدولة الأوربية في ممتلكات الدولة الإسلامية .

هـ - انشطة الماسونية والصهيونية .

أثر الموقع الجغرافي السياسي :

يأتي أهمية موقع القسطنطينية السياسية على الكرة الأرضية نظرا لموقعها الجغرافي حيث تقع عند نقطة اتصال آسيا بأوربا عن طريق مضيق اسطنبول "البوسفور" الذى يصل البحر الأبيض بالبحر الأسود بواسطة بحر مرمره [١].

وهذا الموقع يعد من المواقع الاستراتيجية على الكرة الأرضية لتحكم القسطنطينية في هذا المضيق بين البحر الأبيض والأسود ،ولهذا أسموها في القديم باسم الفاروق لفرقها بين البرين والبحرين ، أى (بين بر آسيا وأوربا والبحر الأسود والأبيض) [٢] ،فكان عرض هذا المضيق المذكور في أقرب نقطتين بين البرين أقل من كيلو متر [٣] .

وقد قال نابليون في القسطنطينية " لو كانت الكرة الارضية في حوزة دولة واحدة لكان يلزمها أن تتخذ القسطنطينية عاصمة لها " [٤] .

ولتلك المدينة أهمية خاصة لدى المسلمين ،وقد وردت البشارة النبوية بفتحها [٥]، فكانت أمنية من أكبر أماني المسلمين ،وقد حاولوا عدة محاولات لفتحها ، لكنها لم تكلل بالنجاح حتى شاءت ارادة الله أن يقوم السلطان محمد الثاني " الفاتح " بفتحها ،فكان ذلك نصرا عظيما للاسلام والمسلمين وتحقيقا لحلم طالما ترقبوا طول انتظاره .[٦]

---

(١) أحمد جودتباشا : تاريخ جودت ،جا ، ص٤١-٤٢
،على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ٣١.

(٢) محمد بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار (بيروت ،دار صادر ، طبع بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣هـ) ج ٥ ص ٤٢-٤٣.
، ابو الحسن على الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (الطبعة الثالثة ، الكويت ، دار القلم ، ١٤٠٢ هـ) ، ص ١٦٢.

(٣) على حسون : المرجع السابق ، ص ٣١.

(٤) احمد جودت باشا : المصدر السابق ، ص ٤٢.
، ابو الحسن على الندوي : المرجع السابق ، ص ١٦٢.

(٥) على حسون : المرجع السابق ، ص ٣١.

(٦) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ،ص ٤٢ ، ٤٥.

وقد عرفت هذه المدينة التي على ضفاف البوسفور بأسماء عديدة ، فكان اسمها عند السلاف (زارغراد) : أى مدينة الامبراطور، وعند سكان شمال أوربا (ميكالاغارد) أو (ميكل غارث) (Myklagaardor (Micklegarth) أى البرج العظيم[١].

الا أن اليونان والرومان عرفاها باسم بيزنطة أو بيزنطية (Bysanca) نسبة الى مؤسسها بيزاس (Bisas) وهو بحار يوناني ترك بلاده سنة ٦٥٢ ق ٠ م٠ مع بعض رفاق له وبعدما مخرت بهم سفنهم في بحر ايجه مروا بالدردنيل ، ووصلوا الى البوسفور فاحتلوا القرن الذهبي لانه أوى سفنهم ،ومع توالي الزمن كثر عددهم وعظم شأنهم وسمو موقعهم بيزنطه (Bysance) وبعد مرور الزمن أصبحت مدينة بيزنطة حاضرة الدولة البيزنطية ٠ لذلك نقل قسطنطين الأول سنة ٣٢٤م مقر ملكه من روما الى بيزنطة وسمى المدينة باسمه (القسطنطينية)[٢] ٠ وبهذا الاسم اشتهرت عند المسلمين والمسيحيين وغيرهم ٠ وفي عهد سلاطين آل عثمان سميت حين فتحها السلطان محمد الفاتح باللغة التركية اسلام بول ، أى مدينة الاسلام [٣] ٠ ومنذ ذلك التاريخ أصبح اسمها اسطنبول بعد أن جرى بعض التعديل على الاسم التركي لها ٠ [٤]

وسميت ايضا استانة (استانبول) وهي كلمة فارسية معناها العتبة ،عتبة الدولة أي العاصمة [٥]،كما سميت "دار السعادة")[٦].

---

(١) برنارد لويس : استنبول ، ص ١١٠

(٢) عزيز خانكي بك : ترك واتاتورك ،(القاهرة المطبعة العصرية ، الفجالة) ص ١١٨٠

(٣) كامل باشا : تاريخ سياسي دولة علية عثمانية ،جا ص ٨٠٠

(٤) عزيز خانكي بك : المرجع السابق ، ص ١١٨٠

(٥) Ferit Develligla : Osmanli Ca-Turkce, Ansiklopedik Lugat. (مادة استانة) ٠

(٦) عزيز خانكي : المصدر السابق ، ص ١١٨

ونظرا لموقعها البرى والبحرى الفريد فانها كانت ميناءا بحريا تمر به تجارة الشرق والغرب وتحدها المياه من ضلعيها ،ففي الشمال الغربي القرن الذهبي ،وفي الجنوب الغربي يقع بحر مرمره ، وبين البحرين يجرى المضيق (البوسفور) ،وتقع هذه المدينة على سبع تلال، فمناخها معتدل ليس بشديد الحرارة صيفا ولا شديد البرودة في فصل الشتاء (١).

ويجدر بنا الآن القول بأن موقع اسطنبول، موقع استراتيجي هام حيث أنها تربط قارتين هامتين هما آسيا واوربا وقد اشتهرت بالصناعة والتجارة (٢) ، وكانت التجارة تأتي اليها بحرا عن طريق البحر الابيض والبحر الاحمر والبحرالأسود ، وبرا من القارتين آسيا وأوربا وأهم تلك التجارة تجارة بلاد فارس والهند وغيرهما من البلاد الاسلامية وكذلك تجارة الشرق الاقصى والتجارة القادمة من شرقي أوربا وغربها فهي مجمع لتجار العالم المعروف آنذاك ، تأوى اليها السفن من كل صوب الى مينائها في القرن الذهبي الذى يعج بحركة دائمة . وقداهتمت الحكومات التي سبقت الدولة العثمانية وكذلك الدولة العثمانية بهذه المدينة وتسهيل حركة التجارة بها وتامين سبل الراحة والعيش لهم ،فاشتهرت أسواقها بمواد الترف والزينة والمصنوعات والعطور،والمنسوجات الحريرية والكتانية الجميلة ذات الألوان الباهية الى جانب ذلك كان الصيارفة يزاولون مهنتهم بنجاح منقطع النظير .

وقد عملت الدولة العثمانية على نشر الاسلام فيها وتحويلها الى حاضرة اسلامية كما أنها عملت على سن سياسة خاصة بمرور السفن بمضيق

---

(١) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي: فتح القسطنطينية ،ص ١٦.

(٢) كامل باشا: تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ،ج ١ ،ص٨٥.

البوسفور والدردنيل وذلك لأنهما يمثلان نقطة اتصال عالمية بين الشرق والغرب كما أن هذه النقطة تمثل عنق الزجاجة بالنسبة للبحر الاسود والمخرج الوحيد له للمياه الدافئة حيث يمكن لتجار البحر الاسود الاتصال بالبحار العامة والمحيطات عن طريق تلك المضايق ، وكانت سياسة الدولة العليا هي فرض سيادتها على المضايق(١) . فالسلطان محمد الفاتح هو مؤسس نظام المضايق حين شيد القلعتين المتقابلتين في أضيق نقطة في مضيق اسطنبول كما سبق ذكره (٢) .

فاستندت الدولة على ممارسة السيادة على المضايق تمشيا مع القاعدة القانونية التي تقول: اذا كان المضيق واقعا في أرض دولة واحدة وكان اتساعه لايزيد على ستة أميال فان مياهه تعتبر مياها اقليمية ، وتتبع لهذه الدولة ،واذا زاد اتساعه عن ستة أميال فانه لايدخل تحت سلطة الدولة منه أكثر من ثلاثة أميال من كل ناحية من ناحية هذا المضيق ،على اعتبار أن المضيق كله تابع للدولة صاحبة شاطئيه اذ جرى العرف بذلك، وعلى اثر ذلك اتبعت الدولة العثمانية سياسة ناجحة في فرض سيادتها على البحر الاسود ،وكانت لها في ذلك الزمان حرية التصرف تفتحه لسفن بعض الدول على حسب اتفاقيات خاصة وللبعض منها استثنائية وتقفله عمن تشاء ومتى تشاء (٣) وخاصة اذا كانت السفن سفن حربية او تحمل معدات حربية فيها خطر على البلاد الاسلامية . فالدولة بحكم موقعها الجغرافي معبر بين أوربا وآسيا او بمعنى آخر بين بلاد الاسلام وبلاد المسيحية ،فهي المكان التي التحمت فيه القارتان وتقابلت فيه الديانتان وجها لوجه ،في العصر الحديث ،فقد هاجمت الدولة العثمانية الاسلامية أوربا في عصر قوتها ،من هذا الموقع الا أنها أصبحت في موقف الدفاع عن النفس في عصرها الثاني

---

(١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ،ج١، ص ١٩٠.

(٢) يلماز اوزتونا :تاريخ الدولة العثمانية ج١ ص ١٣١.

(٣) عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ج١ ص ١٩٠-١٩١.

الذى يستدعي نظرة شاملة في كل أمورها [١]. وخاصة في مشكلة المضايق البحرية لموقع الدولة بوجه خاص ، فمشكلة مسألة المضايق مشكلة دقيقة ، بل كانت صورة حساسة لمركز الدولة العثمانية من حيث القوة والشموخ أو الاضمحلال والضعف [٢].

لذلك جعلت مسألة المضايق الجغرافيا والسياسة شيئا واحدا ،فهي مشكلة ناشئة عن موقع الدولة أو أهمية موقع الدولة ومركز اسطنبول الخطير من حيث تحكمها في المضايق وهذا جد خطير للغاية بالنسبة لدولة ضعيفة التسلح ،وعلاقتها العدائية بروسيا التي تريد الخروج من سجنها عبر هذه المضايق الى البحار الدافئة في عصر كان المستقبل فيه للبحر والتوجه اليه لهذا ينبغي للحركة الاصلاحية أن تعالج هذه الأوضاع وأن تدفع هذه الأخطار المحدقة بها من كل صوب ،حين ظهر بوضوح أن قوة الدولة قد اضمحلت في القرن الثاني عشر الهجرى ، القرن الثامن عشر الميلادى ، وأصبحت قوة مصطنعة وأن الدولة اذا لم تستيقظ من نومها وتصلح من شأنها فانها سوف تنهار قوتها ومركزها عاجلا أو آجلا [٣] . فالدولة العثمانية كانت في عصرها الأول قوية الجانب استطاعت ان تفرض سيادتها على المضايق والبحر الأسود مع احترام الدول لهذه السيادة ، الى حد ان الرعايا الروس اذا أرادوا ممارسة التجارة بين موانئ البحر الاسود كان عليهم أن ينقلوا بضائعهم على سفن عثمانية تحمل العلم العثماني ،أما الدولة في عصرها الثاني فقد اضمحلت وتعرضت لضغوط سياسية وعسكرية أحيانا من الدول الأوربية التي تسابقت في معاهدات اعطاء حق المرور لسفنها التجارية الحربية في البحر الأسود في وقت الحرب والسلم حتى بلغ الهوان والضعف بالدولة لاعترافها في احدى

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوى ،حركة الاصلاح العثماني ،ص ٦٤.

(٢) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ١ ،ص١٩١.

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوى : المرجع السابق ،ص ٦٤.

المعاهدات بأن الدفاع العسكري عن المضايق انما هو مسئولية مشتركة بينهاوبين الروس • وهذا يعد انتهاكا لسيادة الدولة العثمانية وعصفا بسياستها العليا ،للهزائم العسكرية التي تعاقبت عليها ،والأخطار التي جثمت عليها لضعف شخصية سلاطينها في الفترة الثانية [1]. كما سيأتي الحديث عنهم حين تكالبت الدول الأوربية للضغط على الدولة من كل صوب، في اثارة المشاكل بين الأقليات المسيحية في البلقان والصرب ، لايجاد المبرر للتدخل الأجنبي بحجة حماية الأقليات المسيحية • وهكذا أصبحت الدولة في اضطرابات دائمة ،حتى أصبح التفكير جادا بين دول أوربا لاقتسام ممتلكات الدولة العثمانية ، الا أن البعض الآخر كان يرى المحافظة على ممتلكات الدولة وأن تبقى الحالة كما هي عليه خوفا من اندلاع الحرب بينهما حول هذه التركة •

•••

(١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، جـ ١ ، ص ١٩١•

ب ـ تطورات التاريخ الأوربي الحديث :

ان تطورات التاريخ الأوربي الحديث قد أوجد . الحركة العلمانية والقومية والحركة الدستورية ، وهي أحد عناصر الغزو الفكرى الاوربي الذى تسرب للدولة العثمانية بصورة خاصة ، أو للعالم الاسلامي بصورة عامة بقصد تفتيت الوحدة الاسلامية وخلقجو من الاضطرابات والصراعات داخل جسم الدولة العثمانية .

فالعلمانية هي من نتاج الصراع الذى حصل بين البابوية والأباطرة أيهما أعلى ،البابا أو الامبراطور ؟ فانتهى هذا الصراع بعد قرنين من الزمان بهزيمة البابوية وظهور العلمانية ، لاصدار الدساتير لبيان حدود الحاكم والمحكوم ، ويعني ذلك تحلل أوربا من الاقطاع الذى خيم على أوربا خلال العصور الوسطي ، وايجاد الدول الحديثة المنظمة ،لاستحالة العودة لنظام اوربا الاقطاعي (١) .

ويؤكد عبد الكريم المشهداني أن معنى "العلمانية في المفهوم الغربي تعنى أن شئون الحياة امر خاص بنشاط الانسان وسعيه بمعزل عن اى نظام ديني او روحي،فهي تعني الدنيوية أو العصرية أو الزمنية ، والتفريق فيها واضح بين ثنائيات الله والقيصر والكنيسة والدولة والامبراطور والبابا والقانون الكنيسى والقانون الوضعي " . فالدولة الاوربية تقف من الدين موقف المحايد ، لامعه ولا عليه مع كفالة حرية المعتقد وحرية العبادة ، وحرية التنصير الديني على شرط آلا يخل هذا بالنظام العام وعدم التزام الدولة بأى عقيدة دينية وحتى لاتميز اىعقيدة على الأخرى(٢) .

والتفسير الشائع للعلمانية في الكتب الاسلامية المعاصرة هو" فصل الدين عن الدولة " والحقيقة ان هذا التفسير لايعطي المدلول الكامل

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوى : التاريخ المعاصر وعلاقة العضوية بالأزمنة الحديثة ، (العدد ٢ السنة الحادية عشرة ،١٤٠٦هـ) ، ص ٩٢.

(٢) العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ،ص ١٣.

لمعنى العلمانية الذى ينطبق على الافرادوعلى السلوك الذى لايكون له صلة بالدولة ولو قيل أنها فصل الدين عن الحياة لكان أصوب ،وذلك فان المدلول الصحيح للعلمانية هو " اقامة الحياة أوالأفراد في موقفها من الدين بمفهومه الضيق المحدود : فبعضها تسمح به كالمجتمعات الديمقراطية الليبرالية ،وتسمى منهج (العلمانية المعتدلة - Noreligious) أى أنها مجتمعات لادينية ولكنها غير معادية للدين وذلك مقابل مايسمى (العلمانية المتطرفة - Anti Relious) اى المضادة للدين ويعنون بها المجتمعات الشيوعية ومشاكلها .

أما موقف الاسلام من هذا لافرق عنده بين المسيحيين فكل ماليس دينا في المبادىء والتطبيقات فهو فيحقيقته مضاد للدين ،فالاسلام واللادينية نقيضان لايجتمعان ولا واسطة بينهما(١) .

ولقد كان للصراع الداثر بين الكنيسة ورجال الدين الحر في أوربا اثر بعيد في التطرف ،ونقل معنى العلمانية الى معنى يكاد يقرب من الالحاد ،فقد كانت الكنيسة تتمتع بسلطان مطلق لاحدود له ،لافي شئون الدين فحسب بل في شئون الدنيا أيضا . فكان لها وحدها تفسير الكون ووضع النظريات الفلكية والجغرافية دون الدخول في تفاصيل تلك القضايا،ثم في المبدأ والمصير وقوانين المجتمع بكل تفاصيلها ،ولوخالف ذلك العقل والمنطق ، وزاد شعور الناس بعبء سلطان الكنيسة حين وقفت في طريق التقدم الفكري والعلمي وراحت تلاحق العلماء وتعدمهم حتى جاءت الثورة الفرنسية فحسمت هذا الموقف لصالح اللادينية (العلمانية) (٢) .

---

(١) سفر عبدالرحمن الحوالي : العلمانية ،(الطبعة الأولى ،مكة ،دار مكة للطباعة والنشر ،١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م) ص ٢٣-٢٤.

(٢) عبدالكريم المشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ١٣-١٤.

، محمد أبوزهرة : محاضرات في النصرانية ، (الطبعة الرابعة ،الرياض ، الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية ،١٤٠٠هـ) ،ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

، سيد قطب : المستقبل لهذا الدين ، (الطبعة السابعة ،القاهرة ، دار الشروق ، ١٤٠٧هـ) ، ص ٤٠ - ٤١.

ولكن قبل ذلك كان النظام الاجتماعي الذى كان يسودالحياة الأوربية في تلك الفترة أو طيلة القرون الوسطى هو نظام " الاقطاع " وهذا النظام أبشع وأظلم النظم الاجتماعية التيعرفها التاريخ. فالظلم دائما سمة من سمات الحكم الجاهلي لأي مجتمع في كل مكان وزمان ، ولكن صورته في المجتمع الأوربي الاقطاعي كان أشد قسوة ، فيالوقت الذى كان فيه المشرق الاسلامي ينعم بحياة هادئة في ظل العدالة الاسلامية ، أفضل نظام اجتماعي على مر العصور عندماكان المسيحي في المقابل يعيش نير نظام الكنيسة البغيض . فليس هناك مقارنة ، وكان الاحتكاك المباشر بالمسلمين هو أولى محاولات الانسان محاولة الانفلات من المظالم الاقطاعية وذلك عن طريق الفتوحات الاسلامية في أوربا ،وبلغ الاحتكاك ذروته ابان الحروب الصليبية ، وليس غريبا أن يكون أرقاء فرنسا ، هم رواد الثورة الاقطاعية لموقعها الجغرافي المحاذى للمسلمين في الاندلس ،وبعد مركز البابوية عنها وهذا من الأسباب التي دفعتها الى روح التحرر والانطلاق [1].

اضافة الى ماسبق لاننسى الفتوحات العثمانية التي توغلت في أوربا لنشر الاسلام بها ،مما جعل هذه الدول تتعرف على الاسلام في عقر دارها ،مما أعطها دفعة قوية أيضا للثورة على افساد نظام الاقطاع والتحرر من القيود الكنسية التي أصبحت لاتجارى طموحاتها كما هو الاسلام الذى يصلح أو يواكب كل زمان ومكان .

لذلك انطلقت الثورة الفرنسية ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م لتكون آخر مسمار في نعش السمو الكنيسي تلك الثورة التي كان واحدا من شعاراتها (اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس) وبذلك تم الفصل بين الدين والدولة في أوربا [2] لتصبح اوربا اللادينية (علمانية) والتي قلصت سلطان الدين حين حصرته داخل جدران الكنيسة فمن أراده فليذهب اليه هناك [3].

---

(١) سفر عبد الرحمن الحوالي : العلمانية ص ١٦٥

(٢) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ص ١١٦-١١٨.

(٣) عبد الكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الاوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ١٤-١٥.

لذلك يقول ويلز " كانت ثورة الشعب على الكنيسة دينية ،فلم يكن اعتراضهم على قوة الكنيسة بل على مساوئها ، ونواحي الضعف فيها ،وكانت حركات تمردهم على الكنيسة حركات لايقصد بها الفكاك من الرقابة الدينية بل طلب الرقابة دينية أتم وأوفى .. وقد اعترضوا على البابا لأنه الرأس الديني للعالم المسيحي بل لأنه لم يكن كذلك أى لأنه كان أميرا ثريا دنيويا ، بينما يجب أن يكون قائدهم الروحي "(١) . والحقيقة ان المناداة التي سبقت بفصل الدين عن الدولة في تاريخ الكنيسة ، في الواقع العودة الى ماكانت عليه في وضعها الأول الصحيح وأن انحرافها عن هذا هو الذى جرها الى البلاء والشقاء .

أما موقف الاسلام من هذا فان المناداة بفصل الدين عن الدولة فهو انحراف عن وضعه الصحيح ،بل وقوع هذا الفصل في بعض مراحل التاريخ قد جر على الاسلام والمسلمين البلاء(٢) .

لذلك لم تكن الثورة الفرنسية حدثا هاما في تاريخ فرنسا فقط ، انما هي أبرز احداث القارة الأوربية ، فقد وضعت حدا للنظام القديم القائم على الاستبداد في الحكم ،وفتحت الباب أمام نظم جديدة ،ملكية كانت أم جمهورية (٣)، لادينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب (وليس باسم الله) وعلى حرية التدين والحرية الشخصية بدلا من التقيد بالأخلاق الدينية وعلى دستور وضعي بدلا من قرارات الكنيسة ، ثم قامت بحل الجمعيات الدينية وسرحت الرهبان ، وصادرت أموال الكنيسة ، وألغت كل امتيازاتها وحاربت

---

(١) معالم تاريخ الانسانية ، ج ٤ ص ٩٨٩-٩٩٠
،سفر عبدالرحمن الحوالي : العلمانية ص ١٦٦-١٦٧

(٢) اسماعيل الكيلاني : المرجع السابق ،ص ١٢٠-١٢١.

(٣) عبدالعزيز سليمان نوار وآخرون : التاريخ المعاصر ،(بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ص ١٩.

الثورة العقائد الدينية علنا وبشدة في هذه المرة وأصبح رجل الدين المسيحي موظفا مدنيا لدى الحكومة [(١)] .

فكانت أوربا تشكو مما كانت تشكو منه فرنسا حيث كان الملوك يمارسون الحكم المطلق على شعوبهم والطبقات الممتازة (الاقطاعيون) يهيمنون على خيرات البلاد في كل مكان ،والكنيسة تتمتع باسم الدين بامتيازات لاحد لها ،وباعفاءات من الضرائب والواجبات تجاه الدولة ،والحريات العامة لاوجود لها الا في صدور الأحرار ،والشعوب لاسيطرة لهم ولا سلطان لهم [(٢)] ، فالثورة الفرنسية جاءت تعالج هذه العلل وتحاول أن تجد لها حلولا تطلح لفرنسا كما تصلح لغير فرنسا في حالات كثيرة أبان العصر الحديث [(٣)]، فالثورة التي حدثت في القرن الثالث عشر الهجرى / الموافق للقرن التاسع عشر الميلادى بالنسبة لشعوب أوربا المظلومة كانت بمثابة المدرسة الرائدة في مجال التحرر ، تأثرت بها واستنارت بكثير من أفكارها ومبادئها الجديدة ، لمعالجة أوضاعها السياسية والاجتماعية [(٤)] .

ومن هذا نصل الى أن العلمانية في أوربا أو الحركة الدستورية رد فعل خاطىء لدين محرف وأوضاع خاطئة ، وأنها نبات نكد من تربة خبيثة ونتاج سيء لظروف غير طبيعية [(٥)] أشعلتها أو تزعمتها الثورة الفرنسية ،

---

(١) سفر عبدالرحمن الحوالي :العلمانية ، ص ١٦٩.

(٢) عبدالعزيز سليمان نوار وآخرون : التاريخ المعاصر ،ص ١٩.

(٣) عبدالعزيز نوار وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٩.
،محمد عبداللطيف البحراوى : التاريخ المعاصر وعلاقته بالأزمنة الحديثة ، (الداره ،العدد الثاني ،السنة الحادية عشرة،١٤٠٦هـ/١٩٨٥م) ص ٩٣.

(٤) عبدالعزيز نوار وآخرون: المرجع السابق ، ص ١٩-٢٠.

(٥) سفر عبدالرحمن الحوالي : المرجع السابق ، ص ٦٤٨.

عندماكانت الحكومات والشعوب الأوربية في القرنين الحادىعشر والثاني عشر الهجريين الموافق للقرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين تعيش في حركة ، في جو الأزمات الفكرية وأزمات التنظيم الاجتماعي والحروب والثورات الدينية ، فحاولت الثورة الفرنسية أن تجد حلا لجميع المشكلات وفعلا حلت مشكلات وأصبحت هي ذاتها مشكلة [١] وسنتناول ذلك في الفقرة التالية .

...

---

(١) محمد شفيق غربال : منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة الاسلامية ، ص ٨٢.

جـ - صدى الثورة الفرنسيـة في الدولة العثمانية :

لقد كانت الثورة الفرنسية بداية لتغير سياسي على الخريطة الأوربية بشكل جذري كشفت للعالم عن مطامع نابليون التوسعية ، فنتيجة لذلك اتسعت فرنسا بعد الثورة وبشكل غير معقول ، لم تعهده فرنسا نفسها ، فأصبحت تضم بلاد بلجيكا ، وكل الأراضي الواقعة بين الحدود الفرنسية حتى نهر الراين ، ثم آخذ الساحل الايطالي من الحدود الفرنسية الى روما (١).

فقد آثارت هذه المطامع أوربا كلها ، فواجه نابليون العداء الشديد من تلك الدول ، نتيجة للسلطات التي آلت اليه ، فكان مبعث خوف أوربا أولا من الميول الاستعمارية التي تجلت في حملات نابليون العسكرية على ايطاليا وألمانيا وهولندا وسويسرا ، حتى دانت له تلك المناطق التي جعلها نابليون من ممتلكاته الشرعية الجديدة (٢) ، فأصبحت هذه المكاسب الثورية مصدر رعب لملوك أوربا المحافظين لاعتناق أبناء هذه الشعوب مبادئ الثورة . وهذا يعنى أن هذه هي بداية النهاية لسلطانهم خاصة اذا ما آثار شعوبهم عليهم طلبا لهذه الحرية (٣).

لذلك رأوا أن الحل هو الصدام العسكرى المباشر مع فرنسا ،لوقف انتشار أفكار هذه الثورة في أوربا . وكان على رأس هؤلاء روسيا وأسبانيا فانتهزوا وفاة الامبراطور ليوبولد وارتقاء ابنه فرنسيس عرش النمسا الذى كان أكثر قوة وأقل حذرا وميلا للمسالمة من والده فشجعوه على اعلان الحرب ضد فرنسا (٤).

---

(١) عبدالمجيدنعنعي : أوربا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ، (بيروت :دار النهضة العربية ،١٩٨٣م) ص ٣١٩.
، عبدالعزيز نوار وآخرون : التاريخ المعاصر ، ص ١٣٥-١٣٦.

(٢) آمال السبكي : أوربا في القرن التاسع عشر ،(الطبعة الاولى،جدة ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ،١٤٠٥/١٩٨٥م) ص ٩٥.

(٣) آمال السبكي : المرجع السابق ،ص ٩٥-٩٦.

(٤) عبدالعزيز نوار وآخرون : المرجع السابق ، ص ٥٠ - ٥١.

وقد انتهت تلك الحرب بانتصار الحلفاء على فرنسا ، رغم محاولة نابليون وأنصاره كبح جموح الجيوش المتحالفة الأوربية ، وذلك للقضاء على نظام الملكية وانتصار مبادئ الثورة الفرنسية التي تدعو الى (الحرية والعدالة والمساواة)[١].

وأمام هذا الخوف من تجدد الثورة وللحد من اتساعها بادرت الدول الكبرى الى اتخاذ بعض الترتيبات الكفيلة لتحقيق تحالف ضد هذه الثورة [٢] بين ملوك روسيا والنمسا وبروسيا . ودعى ملوكا آخرين للانضمام اليه ظنا منهم انهم يوم هزموا نابليون قد هزموا الثورة ، وأرجعو الساعة أدراجها وأعادوا الملكية العظمى للأبد [٣]، وغفلوا أن نابليون قام بادخال المبادئ الأساسية للثورة الفرنسية في كل بلد ضم الى الامبراطورية الفرنسية ، وقد أوجد في كل مكان تقريبا أنصارا ومؤيدين لاصلاحاته الدستورية من أبناء الطبقات الثائرة ، وقد أعطى كل بلد من هذه البلدان مع الدستور الجديد القانون المدني الذى أفرزته الثورة الفرنسية (القانون الفرنسي) [٤].

هذا الحلف رسم بتوجيه من البارونة فون كرودنر التي كانت المدبرة الدينية للامبراطور الروسي . وتنص وثيقة هذا الحلف على التزام المشتركين فيه " بأن يضعوا أنفسهم ورعاياهم وجيوشهم في مكان الوالد من العائلة " وأنهم " اذ يعد احدهم الآخر مواطنا له " يشد أحدهم ازر الآخر ويجمعون الدين المسيحي ويحثون رعاياهم على تقوية أنفسهم وتدريبها على القيام بالواجبات المسيحية حيث ينص أحد بنود الحلف بأن المسيح هو الملك الحق لكل الشعوب المسيحية وأن الملوك المتربعين

---

(١) عبدالعزيز نوار وآخرون : التاريخ المعاصر ، ص ٥١.
، ل .ج. شيني : تاريخ العالم الغربي . ترجمة مجد الدين حفني ناصف ، (القاهرة : الناشر دار النهضة العربية) ص ٣١٠ .
(٢) عبدالمجيد نعنعي : أوربا في بعض الازمنة الحديثة والمعاصرة ، ص ٣٢٥.
(٣) هـ.ج. ولز : معالم تاريخ الانسانية ، ج ٤ ، ص ١٢٦٠.
(٤) عبدالعزيز نوار وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٣٦-١٣٧.
، عبدالمجيد نعنعي : المرجع السابق ، ص ٢٢٠-٢٢١.

على دولهم بمثابة المحافظين باسم الملك المسيح ويحكمون باسم هذا الملك [١].

وقد وقع هذا الحلف كل من بروسيا وروسيا والنمسا سنة ١٢٣١ هـ / ١٨١٥م وانضمت اليهم فرنسا فيمابعد [٢] محاولة للبقاء في الصف الأوربي بعد اقالة نابليون واعادة الملكية في حكمها ،أوبالأصح عودة ملوكها آل بوربون .

ورغم الصبغة الدينية لهذا التحالف الا أنه في الواقع لايمثل الا رغبة ملوك أوربا في القضاء على كل محاولة للخروج عن طاعتهم أو قيام جمهورية ثورية في أوربا والعالم على شاكلة الثورة الفرنسية ، والواقع أن فكرة هذا التحالف فكرة خيالية تعارض الأماني الشعبية الاوربية السائدة في تلك الأيام . وقد صاحب هذا التحالف معارضة من الانجليز لعدم التوقيع على هذا الحلف لاعتبار مبادئه غامضة للجميع وغير عملية ، خاصة وأن المبادرة لهذا الحلف أتت من روسيا المعروفة بمطامعها الواسعة في أوربا مما جعل الشكوك تساور بريطانيا حول غاية ومقصدهذا التحالف .

اضافة الى ذلك ، أن ملك بولنده (بولونيا) هو الآخر لم يوقع لأنه لم يكن لهملك في بولنده ، لأن الاسكندر الروسي قام وألحق بولنده ببلاده ، فأصبح حلفهم مخالفةقانونية بين الدول حلت محله عصبة أمم هي " اتحاد أوربا " [٣] وسنرىهذا الاتحاد القومي ينقض على الدولة العثمانية يدا واحدة في ثورة اليونان لتسكين الحرب ثم السعي في استقلاله وخلاصة من الدولة العثمانية .

فالدولة العثمانية كلما فتحت اقليما اوربيا اكتفت للأسف الشديد من أهله بالخراج والجزية غيرمتدخلة في دينهم أو لغتهم أو عاداتهم الاجتماعية [٤] لتطبيق الدولة الشريعة الاسلامية مع أهل الذمة .

---

(١) هـ.ج. ولز: معالم تاريخ الانسانية ،ج ٤ ،ص ١٢٦٠-١٢٦١.
(٢) عبد المجيدنعنعي : أوربا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ، ص ٢٢٥-٢٢٦.
(٣) هـ.ج. ولز: المرجع السابق ص ١٢٦١.
(٤) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤١١.

ولهذا حين سنحت أول فرصة لهذه الدول طالبت باستقلالها من الدولة (١) . فالصورة التي خلفتها الحملة الفرنسية في مصر ثم تركتها انعكس صداها وامتد أثرها في أجزاء متفرقة من الدولة وفي العاصمة لأن نابليون أرسل وهو في مصر رسالة الى علي باشا والي يانيا يحرضه فيها على التمرد والعصيان فورا في صراع مع السلطان ، الا أن السلطان سليم الثالث أعلن عام ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٨م أن السفير الفرنسي المقيم في اسطنبول والفرنسيين فيها يرسلون رسلهم الى الروملي والمورة وجزر الأرخبيل للحث على ثورة هذه البلدان ضد الدولة العثمانية (٢). عندما اكتشف ذلك .

ولما قامت الثورة الفرنسية بدعوى الحرية والمساواة والاخاء انتشرت مبادؤها في جميع أنحاء أوربا التي وطئها نابليون بجيوشه كما أسلفنا بل تعدت حتى وصلت آثارها وأفكارها الى بلاد اليونان فوجدت الباب سكانها مغريا فنمت فيه تحت ظل زعمائها في اليونان (٣) فأهاجت أوربا الاهالي في تلك البلاد ضد الدولة العثمانية وافتتن شبابها بمبادىء الثورة الجديدة وخاصة ممن درسوا في أوربا (٤).

فبلاد اليونان جبلية وأرضها وعرة المسالك اشتهر أهلها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الموافق للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين على حب العصيان والميل الى شق عصا الطاعة ولما أراد أهلها الخروج على طاعة الدولة متأثرين بالثورة الفرنسية اجتمع زعماؤهم ووحدوا رأيهم (٥) فألفوا عدة جمعيات لنشر العلم والمعرفة بين أفراد الأمة ، وبث الوطنية وشكلوا جمعيات أخرى سياسية متخصصة وجعلوا مراكزها في روسيا والنمسا ، وأهم هذه الجمعيات الجمعية السرية

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤١١.
(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ،ص ٧٠.
(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤١١.
(٤) علي حسون : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٣٢.
(٥) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ،ص ٦٦٧.

المسماة (هيتيرى)[١] تشكلت بتحريض من اسكندر الاول حتى يتسنى له تنفيذ وصية بطرس الاكبر ليجعل مدينة القسطنطينية مفتاح الممالك الروسية [٢]، باطنها بث روح الفساد والفتنة لتنفيذ المقاصد السياسية وكان من أهم أعضاء هذه الجمعية كثير من كبار اليونان و القساوسة في بلاد روسيا[٣].

وهنا يتضح دور الكنيسة الارثوذكسية في روسيا ونفوذها في اليونان مما يوضح دور الغزو الفكرى لنشرهذه الافكار واثارة اليونان ضد الدولة العثمانية كما نلمس محاولة بث الروح الصليبية لتعود مرة آخرى في هذه الثورة ، لأن الكنيسة خلفهاكما يظهر من أعضاء هذه الجمعية .

فانتشرت جمعية الهيتيرى بين اليونان في اقليم المورة حتى بلغ عدد أعضاؤها عام ١٢٣٧هـ/١٨٢١م عشرين ألفا وجميعهم من الشباب القادرين على حمل السلاح ،متأهبين للثورة عند اول شرارة تبدو لهم ، وهذه الشرارة ساعد على اشعالها عصيان على باشا والي يانيا الذى شق عصا الطاعة وكان ينوى استقلال بلاده[٤]. فاعتبرت ثورة علي باشا هي مطلع الثورة اليونانية[٥].

لهذا انتهز اليونانيون هذه الفتنة وأشهروا عصيانهم على الدولة العثمانية فأخرجوا الجنود المحتلة لحصونهم واحتل الثوار محل الحكومة العثمانية ، الا أن السلطان محمود الثاني سير جيشا بقيادة خورشيد باشا الى علي باشا فاستطاع هذا الجيش قمع تلك الثورة وقتل والي يانيا سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م ومن ثم واصل سيره لقمع ثورة اليونان بأمر من السلطان واخضاعها للدولة ،لكن اليونان في هذه المرة استطاعت هزيمة خورشيد سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م فمات هذا القائد كمدا من هذه الهزيمة[٦].

---

(١) هيتيرى: كلمة يونانية معناها (أخويه) أطلقت على جمعيتين أسست احداهما في مدينة وينانه عاصمة النمسا بدعوى تأسيس المدارس ونشر العلوم بين اليونان،و الثانية لقصد سياسي محض وهو السعي في استخلاص بلاد اليونان من الدولة العثمانية وبقيت سرية الى سنة ١٨٢١م حيث ابتدأت الثورة جهارا وكان مركزها أولا في مدينة اودسا ثم انتقلت الى مدينة كييف وكلتاهما ببلاد روسيا الامر الذى يدل على أن لروسيا ضلعا مهما في تاسيسها و الصرف عليها.
ـ محمد فريد بك: تاريخ الدولة العثمانية ص ٤١١ ،حاشية رقم(١).

(٢) محمد فريد بك: المصدر السابق ، ص ٤١١.

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ج ١ ص ٦٦٧.

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ص ٤١٢.

(٥) محمدعبد اللطيف البحراوى : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٧٠ .

(٦) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤١٢.

ولما كانت النمسا تميل الى مساندة السلطان محمود الثاني ضد اى تدخل روسي لمعاونة الثوار فقد أشارت عليه بان يستعين بواليه في مصر محمد على ، والحقيقة لم تكن النمسا صادقة في موقفها ولكنها تريد أن تقف في وجه روسيا من التدخل في شئون البلقان (١) . لذلك رأى السلطان محمود الثاني ان يحول هذه المهمة فعلا الى واليه في مصر، ليشغله أيضا عما كان يظن أنه ينويه في طلب الاستقلال ببلاده ، فأصدر السلطان مرسوما في سنة ١٢٣٩هـ/١٨٢٤م بتعيين محمد على واليا على جزيرة كريت واقليم مورة وهما بؤرتا هذه الثورة (٢) .

وفي الحال أصدر محمد على أوامره هو الآخر باستعداد الجيش للسفر لهذه المهمة وعين ابراهيم باشا قائدا لهذه الحملة التي أبحرت من الاسكندرية على سفن مصرية تكتنفها سفن حربية أيضا من الاسطول البحرى الذى أنشأه محمد على فسارت السفن حتى وصلت جزيرة رودوس للاجتماع بالبحرية العثمانية ومنها انطلق ابراهيم باشا الى جزيرة كريت فاحتلها وتمكن من انزال جيشه في ميناء مودون بعد مقاومة شديدة من أهله وكان الرأي في أوربا ملتهبا ، ولولا مساعدة أوربا لليونانيين عن طريق المال والرجال لما أمكنهم مقاومة الجيش العثماني (٣).

وقد ظل اليونان من قبل يقاتل قتال المستيئس ست سنوات ، على حين وقفت حكومات أوربا تنظر اليهم متفرجة ، فاحتج الراى العام على هذا الجمود (٤) لهذا انضم الى الثوار كل من تطوع من مشاهير أوربا

---

(١) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية (القاهرة دار الثقافة للطباعة والنشر : ١٩٧٦م) ، ص ١٤١.

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤١٢.
، محمد كمال الدسوقي ، المرجع السابق ، ص ١٤٠-١٤١.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤١٣-٤١٥.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، جـ ١ ، ص ٦٧٩.
، محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٤١.

(٤) هـ.ج. ولز : معالم تاريخ الانسانية ، جـ ٤ ، ص ١٢٦٦.

وأميركا وعلى رأس هؤلاء وشنطون ابن محرر أمريكا ،واللورد بيرن الشاعر الانكليزى ،وغيرهما الذين وقفوا حياتهم للدفاع عن مبادئ العلمانية [١]، ولبث أفكار الثورة الفرنسية في الأقطار الاوربية التابعة للدولة العثمانية وفي كل مكان • حتى العناصر المعادية للثوار اليونانيين في بعض الدول الاوربية أظهرت تعاطفا مع الثورة اليونانية لأن اليونان يقاتلون المسلمين وقتال المسلمين يتفق مع الروح الصليبية المعادية للاسلام [٢].

كانت قوات ابراهيم باشا قد اكتسبت العديد من المواقع الحربية في اليونان ،عندما استولت على مودرن وميسولونجي وآثينا واصبحت المورة بأكملها تحت السيطرة العثمانية بفضل من الله وتوفيقه [٣].

ولما استرد الجنود العثمانيون هذه المدن سكنت الثورة ببلاد اليونان لاخضاع معظمها [٤] بينما ابراهيم لايزال مستمرا في فتح ماتبقي من البلاد وأثناء ذلك تدخلت الدول الأوربية بين الدولة العثمانية واليونان بحجة وقف القتال وحماية اليونانيين في الظاهر ، اما الوجه الاخر فهو فتح المسألة الشرقية وتقسيم ممتلكات الدولة الاسلامية بينهما سرا [٥] • ففي سنة ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٧م رأت أوربا أن تمكن اليونانيين من استقلالهم، فاتحدت روسيا وانجلترا وفرنسا على التدخل السريع لمناصرة بني جلدتهم حسب الحلف سالف الذكر ، أو الاتحاد الاوربي ،وعقدوا لاجل ذلك مؤتمرا بمدينة لندن في سنة ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٧م قرروا فيه بالاجماع الزام الباب العالي قبول استقلال اليونان (سمي باسم معاهدة لندن) استقلالا اداريا بشرط أن يدفع اليونان للباب العالي مبلغا يتفق على مقداره فيمابعد كما يتفق على حدود البلدين •

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤١٤-٤١٥، ، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ص ٦٧٩•
(٢) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ،ص ١٤٥•
(٣) آمال السبكي : اوربا في القرن التاسع عشر ،ص ٢٠٠•
(٤) اسماعيل سرهنك : المرجع السابق ، ص ٦٧٩•
(٥) محمد فريد بك : المرجع السابق ، ص ٤١٦•

وبعد أن صادق عليه المجتمعون قاموا بابلاغه الى الباب العالي وأعطوه مهلة شهر من تاريخه ليتمكن من وقف أعماله العسكرية برا وبحرا[(١)]. فبادرت الدولة بالرد ، بأنها لاتقبل هذا التدخل اطلاقا ، من قبل روسيا وفرنسا وبريطانيا ، واعتبرت هذا العمل تدخلا سافرا في شئونها الخاصة .

فاغتاظت الدول من الدولة العثمانية واتفقت فيما بينها على الزام الدولة بمنح بلاد اليونان استقلالها الاداري بموجب المعاهدة ، ولكنهم انتظروا حتى انقضت المهلة المعطاة للدولة العثمانية ، عندئذ اصدرت هذه الدول الثلاث المتحالفة الاوامر الى أساطيلها بالتوجه الى سواحل اليونان لمواجهة الموقف عندئذ طلبوا من ابراهيم الكف عن مواصلة حربه ضد اليونان واجتمعت سفن الحلف الاوربي في ميناء نافارينو لمنع الاسطول التركي المصري [(٢)] . وما لبثت أن دمرت هذه الاحلاف الاسطول التركي في عمل مشترك في معركة نافرينو سنة ١٢٤٣ هـ/١٨٢٧م [(٣)].

وهكذا انتهت المعركة وانسحبت قوات محمد على بعد أن اعتذرت منه انكلترا عن خطأ قصف الاسطول ووعدته أن هو لزم الحياد عن مساعدة الدولة العثمانية بالاعتراف له مستقبلا لاستقلال مصر ، فقد قبل العذر الواهي وقبل وعود الاعتراف له باستقلال مصر [(٤)] .

فعقدت الدول الثلاث في سنة ١٢٤٤ هـ / ١٨٢٨م مؤتمرا للنظر في مسألة استقلال اليونان حين رفضت الدولة العثمانية ذلك وتعيين حدوده . فأرسلوا الى الباب العالي دعوة لحضور هذا المؤتمر فرفض حضوره محتفظا بآرائه واحتجاجا لانعقاده [(٥)] .

---

(١) اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار ، جا ، ص ٦٧٩-٦٨٠.

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٢٧.

(٣) ، هـ.ج. ولز : معالم تاريخ الانسانية ج٤ ص ١٢٦٦-١٢٦٧.
اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ص ٦٨٠.
، محمد كمال الدسوقي : تاريخ اوربا الحديث (القاهرة مطبعة النهضة الجديدة) ص ٧١-٧٢.

(٤) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٨٢.

وصدر قرار الدول الثلاث في لندن سنة ١٢٤٤ هـ / ١٨٢٨م بوضع استقلال بلاد اليونان تحت حمايتها وأن ينصب عليها أمير مسيحي تنتخبه الدول الثلاث ، ويعوض المسلمون عن مافقدوه من املاك وأن تدفع هذه الامارات للباب العالي جزية مقدارها خمسمائة الف فرنك ، هذا القرار لم يرض الجانبين وبذلك عاد الحرب بين الجنود العثمانية الباقية في بلاد اليونان ، ولم يحسم هذه الحروب الا انتصار روسيا على الدولة العثمانية وتدخل الدول الاوربية وعقد معاهدة ادرنة (١) كما سيأتي الحديث عنها في فقرة تالية.

وهكذا تمكنت الحروب الفرنسية من تحضير الشعوب البلقانية لمرحلة التمرد والعصيان (٢)، حين شغلت ثورة اليونان الدول الأوربية جميعا نظرا لموقعها الهام ، فأوجدت توترا بين الدول الكبرى والدولة العثمانية ، كاد أن يكون سببا في نشوب حرب كبرى (٣) تقودها الأطماع في أملاك الدولة.

ولم تكن في الواقع ثورة اليونان الا مقدمة للثورات التي نشبت في كل أنحاء أوربا سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠م وكنتيجة حتمية للسياسة التي سارت عليها النمسا وروسيا وبروسيا بزعامة ميتونيخ وزير خارجية النمسا في الفترة من (١٢٣١ - ١٢٤٦هـ/ ١٨١٥ - ١٨٣٠م) وهي باسم العودة الى النظم القديمة التي سادت في أوربا سياسيا قبل حرب نابليون كما مر بنا (٤).

ولكن في سنة ١٢٦٥ هـ/ ١٨٤٨م وهو العام الذى برزت فيه الحركة الدستورية والقومية بشكل قوى فالتغييرات التي طرأت على أوضاع الدول خلال هذه الفترة أصبح واضحا وحتميا ،ولقد أدى ذلك الى حدوث تغييرات جذرية ضد الاوضاع القديمة عن طريق الثورة لرغبة كل شعب

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ،ص ٦٨٢.

(٢) علي حسون : العثمانيون والبلقان (الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م) ص ١٧٨.

(٣) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ،ص ١١٩.

(٤) محمد كمال الدسوقي : تاريخ أوربا الحديث ص ٧٢ - ٧٣.

أن يحكم نفسه بنفسه بواسطة أحكام دستورية مقيدة (١).

ومهما يكن فقد حدثت في أوربا سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م الحركة الدستورية للحصول على النظامات الدستورية ووضع حد لاستبداد الملوك فبدأت هذه الثورة من باريس أيضا سنة ١٨٤٨م باسقاط حكومة لويس فيليب (٢) ملك فرنسا وظهور الجمهورية الثانية.

عند ذلك تسربت هذه الافكار أو صدى هذه الثورة الى جميع دول العالم الى برلين وفينا وبراغ ،وغيرها من العواصم الأوربية الأخرى طلبا للحرية (٣).

وكان من نتائج هذه الحركة الدستوية سنة ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٨م والتي عمت جميع أوربا قد تسربت أفكارها الغربية الى الممالك الاوربية التابعة للدولة العثمانية فتاقت (الأفلاق والبغدان) الى الاستقلال والانضمام الى ترانسلفانيا لتكوين دولة رومانية جديدة فثار الاهالي على أميرى الولايتين المذكورتين فاضطرتهما للفرار فأقاموا حكومة مؤقتة حينئذ قامت الدولة العثمانية بارسال جيوشها تحت قيادة القائد الشهير عمر باشا فأعاد الأمور الى ماكانت عليه.

الا أن روسيا أرسلت جيشا الى بلاد البغدان لطرد الحكومة المؤقتة فاحتلت بذلك الافلاق سنة ١٢٦٥ هـ/١٨٤٨م مما أدى الى معارضة الدولة العثمانية

---

(١) عبد المجيد نعنعي : أوربا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ، ص ٣٣٦.
، موريس دوفرجيه : دساتير فرنسا : ترجمة أحمد حبيب عباس ،القاهرة ، الناشر: مكتبة الآداب ، المطبعة النموذجية ، الحمية الجديدة ، ص ٧٨.

(٢) انتخب كما مر بنا ملكا على فرنسا بعد عزل شارل العاشر الذى خلف أخاه لويس بعد موته سنة ١٨٢٤م وبقي ملكا حتى أجبره الثوار سنة ١٨٤٨م الى اللجوء الى انكلترا حتى توفي سنة ١٨٥٠م.
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٤٨٩ حاشية رقم (١).

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٨٩-٤٩٠.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار،جـ١ ،ص ٦٩٢.
،علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٥٢.

ضد هذا الاحتلال حتى أصبحت الحرب وشيكة بين الطرفين ،لولا حدوث المخابرات التي انتهت باتفاق الدولتين على احتفاظ السلطان العثماني بحق تعيين الامراء بالولايتين كما كان وان تبقى البلاد تحت حكم مشترك عثماني روسي لمدة سبع سنوات حتى يستتب الأمن في البلاد . وقد سمي هذا الاتفاق باتفاق (بلطة ليمان)(١)،نسبة الى المكان الذى تم فيه الاتفاق والتوقيع(٢) وهكذا استطاعت الثورة الفرنسية ان تخترق الحواجز السياسية والدينية لمجتمعات اوربا الغربية ، وتعمل علىتغير النظم القديمة في اوربا " فالأمة الفرنسيةستجود بالاخاء وبالمساعدة على جميع الشعوب التي تتحسس عميقا الرغبة في استرجاع حريتها المهيضة " وكان من الطبيعي أن تخرج هذه الافكار عبر الحدود والمحيطات(٣) ، مع توسعات نابليون في أوربا انتشرت التقاليد الفرنسية وقامت في اسطنبولجمعيات تعلم افرادها في باريس وكانوا يضعون شارة مثلثة الالوان على العمامة ويتغنون بأغاني الحرية التي انبعثت في عصر الثورة ،وان أهم العوامل التي شجعت اليونانيين على فكرة الاستقلال هي المعاني العلمانية التي نشرتها الثورة الفرنسية (٤) ، ومن أتى على شاكلتهم فيما بعد طلبا لاستقلال بلاده سواء ضد النظم القديمة الاوربية او الانفصال عن الدولة العثمانية بالتحريض والتدخل من الدول الاوربية والروسية .

اذا كل هذه الأحداث السابقة سواء كانت قومية او خلاف ذلك وماسيلحق بها صدى للثورة الفرنسية ،فالمحرك الأول والأخير هو تسرب افكار مبادئ الثورة الفرنسية التي تدعو للعلمانية بموجب قوانين مقيدة ومشروطة لم تنج منها حتى الدولة العثمانية فقد تسربت لها هذه الأفكار.

---

(١) هي قرضة صغيرة على بوغاز البوسفور (مضيق اسطنبول الحالي) من ضواحي اسطنبول الان .
- اسماعيل سرهنك :حقائق الاخبار عن دول البحار جا ص ٦٩٢.

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٤٩٠.
اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ،ص ٦٩٢.
على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ص ١٢٥-١٢٦.

(٣) عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ص ٢٥٨.

(٤) محمدعبد اللطيف البحراوى : حركة الاصلاح العثماني ،ص ٧٢-٧٣.

ويعزو المؤرخ عمر عبد العزيز عمر نجاح الافكار الفرنسية الغربية وتاثيرها على الدولة العثمانية الى القوة المادية للغرب واقامة اقتصاد أوربي متحكم وتفوق عسكري وسياسي يفوق كثيرا ،ماكان لدى العثمانيين أو أية أمة اسلامية وخاصة في عصر الدولة الثاني • ويبدو أن أفكار الثورة الفرنسية في عالم الاسلام ،وفي الدولة العثمانية كان يرجع الى أنها كانت اول ثورة اجتماعية في اوربا تدعو الى العلمانية ولا تتاثر بالعقيدة المسيحية[1] •

ولم تستثن الدولة العثمانية نفسها أو الولايات الخاضعة لها من التاثيرات لهذه الثورة اذا كانت التاثيرات الفرنسية في الدولة العثمانية عسكرية ودبلوماسية أكثر منها فكرية الا أن هذه المؤثرات قد فتحت قنوات تسرب منها الفكر والتقنية الاوربية لاول مرة الى عالم الاسلام عن طريق المدرسين والخبراء الفرنسيين • حيث وجد العثمانيون انه من الضروري تعلم اللغات ،وهكذا أخذ العثمانيون ينقبون في الآداب الغربية ، فأخذت بهذه الطريقة الافكار الغربية وافكار الثورة الفرنسية تتغلب على حواجز الرفض الاسلامي لكل ماهو مسيحي وسار تقدم الدولة الحديثة في هذا المجرى المضاد للاسلام •

والواقع ان هذا التاثير قد اصاب المجتمع العثماني بكل طبقاته ولئن كان التاثير في أول الأمر ضعيفا ،الا أنه أصاب الفئات المسيحية التي كانت تعيش تحت مظلة الدولة العثمانية ، زادت خلال القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي حيث استطاعت هذه الافكار ان تؤثر في بنية المجتمع العثماني وان تصيب جميع فئاته بدرجات متفاوتة بكلمات ثلاث براقة (حرية - اخاء - مساواة)[2] كانت تمهيدا للحركة الدستورية ولحرب القرم وصدور الخط الهمايوني سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م كما سيأتي الحديث عنه في بابه •

---

(١) عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٢٥٨•

(٢) عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق ،ص ٢٥٨-٢٥٩•

د ـ أطماع الدول الأوربية في ممتلكات الدولة الاسلامية :

كانت الدولة العثمانية بحكم موقعها الجغرافي همزة الوصل بين آسيا وأوربا والمكان الذى التحمت فيه القارتان وتقابلت فيه الديانتان وجها لوجه في العصر الحديث (١) .

فعندما استطاع الأتراك العثمانيون منذ سقوط القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م ان يندفعوا في فتوحاتهم الاسلامية نحو البلقان وظلوا مسيطرين على معظم بلاده حتى القرن الثاني عشر الهجرى الموافق للقرن الثامن عشر الميلادى حين دب الفساد والخلل في الدولة العثمانية .

الا أن السياسيين درجوا على تسمية البلقان " برميل البارود " لأن بلاده كانت مثارا للحرب منذ القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للقرن التاسع عشر الميلادى، فقد كان يسكنه شعوب مختلفة الاجناس والعادات والتقاليد متنافرة الشعور والأهواء والميول وقد تقاسم النفوذ في تلك المنطقة دولتان هما الامبراطورية النمسوية والدولة العثمانية كما مر بنا في الفصول السابقة لذلك كانت الفرصة سانحة لكل من روسيا والنمسا ان تحققا أطماعهما (٢) .

مع العلم بان الدولة العثمانية شهدت فترة انتعاش ،بعد ان فقدت اسطولها سنة ٩٧٩هـ/١٥٧١م في معركة لبانتو (Lepanto) حين استطاع اسطول البنادقة وحلفائهم بقيادة دون جوان النمسوى من الحاق هزيمة ساحقة به في عصر السلطان سليم الثاني بن سليمان القانوني عند تولي الأسرة الالبانية كوبرولو منذ منتصف القرن الحادى عشر الهجرى الموافق للقرن السابع عشر الميلادى التى استحوذت على أعلى مناصب الدولة

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوى : حركة الاصلاح العثماني (الطبعة الاولى، القاهرة ، دار التراث ،١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ص ٢٦ .

(٢) عبد الحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة (الطبعة الاولى ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٤م) ،ص ٤٧ .

غير أن هذا الانتعاش النسبي لم يحل دون تدهور الدولة أو انتكاسها في حروبها الخارجية مرة أخرى فكان فشلها الذريع في محاولة استيلائها على فينا سنة ١٠٩٥هـ / ١٦٨٣م في حين استمرت النمسا تلحق بالدولة الهزائم المتتالية حتى انتهت هذه الحروب بين الدولتين بمعاهدة كارلوفتز سنة ١١١١ هـ / ١٦٩٩م والتي بمقتضاها اجبرت الدولة العثمانية على التنازل عن ترانسلفانيا وغالبية اراضي المجر واجزاء كبيرة من سلافونيا وكرواتيا وأن ترد أجزاء من أكرانيا الى بولندة (١).

لهذا تعد معاهدة كارلوفتز أول محاولة تقطيع وحدة الدولة العثمانية (٢)،هذا العمل الذى بدأ في كارلوفتز قد عملت معظم الدول الاوربية على استكماله في غالبية المعاهدات التي فرضتها على الدولة العثمانية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الموافق للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ومن ابرز هذه المعاهدات التي تلت كارلوفتز على سبيل المثال لا الحصر معاهدة باساروفتز (Passarovitz) سنة ١١٣١هـ/١٧١٨م ومعاهدة كتشك كينارجي (Kuckkaynarca) سنة ١١٨٨هـ/١٧٧٤م ثم تلاها فيما بعد معاهدة ادرنة ومعاهدة سان ستيفانو ا ومعاهدة برلين التي تم فيها تقسيم املاك الدولة العثمانية وذلك في سنة ١٢٩٥ هـ / ١٩٧٨م كما سيأتي .

وقد تسابقت روسيا والنمسا وفرنسا وبريطانيا وايطاليا فيما بعد على السير على نفس النهج والعمل على تدمير وحدة الدولة العثمانية فكان على الدولة العثمانية ان تواجه أطماع هذه الدول وتقوم بصد تلك المحاولات العدائية (٣)

---

(١) محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق الغربي (القاهرة ،مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٨٥م) ص ١٦٨.

(٢) يعتبر ارتداد الجيش العثماني عن أسوار فينا للمرة الثانية يؤرخ لبداية انحلال الدولة العثمانية . وقد سبق للدولة ان ارتدت عن أسوار فينا سنة ١٥٢٩م وكان ذلك في عهد السلطان سليمان الاول(القانوني) وتحت قيادته .

— عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ،

واذا كانت معاهدة كارلوفتز قد أنهت الصراع التقليدى النمساوى العثماني فقد بدأ صراعها مع دولة حديثة وهي روسيا فلقد نمت روسيا في دوقية موسكو في أواخر القرن التاسع الهجرى الموافق لاواخر القرن الخامس عشر الميلادى حتى أصبحت دولة فتية صغيرة وبدأ الاحتكاك بين الدولتين الدولة العثمانية والدولة الروسية الحديثة على امارات الحدود غير أن الوقت تغير بوصول بطرس الأكبر الى عرش روسيا ،وكانت سياسة القيصر واضحة تنحصر فيفتح آفاق جديدة في البلطيق وفي البحر الأسود(١).

فقد رسم سياسة روسيا التي سارت على نهجها كاترين الثانية ثم اسكندر الاول ، نحو الدولة العثمانية ،حيث اخذت كاترين الثانية تتطلع لليوم الذى تسير فيه الى القسطنطينية ولهذا الهدف اوقفت جهدها وقد ذهبت الى أكثر من ذلك فقد أعدت حفيدها قسطنطين لاعتلاء عرش بيزنطة في مقابلة للامبراطور جوزيف الثاني ملك النمسا في كرسون(Kherson) فأقيم احتفال بهذه المناسبة وقد مر الاثنان من تحت قوس كتب عليه " هذا الطريق الى بيزنتيوم " وفي هذه المقابلة تم تقسيم أملاك الدولة العثمانية في أوربا بحيث يتكون كلمن موريا وتساليا ومقدونيا وتراقيا والقسطنطينية امبراطورية يونانية .

اماكيف الوصول الى الهدف فقد اتبعت كاترين ما اسماه بعض المؤرخين بالميكافيلية المسكوفية وهي اثارة الحروب الاهلية والاضطرابات في أملاك الدولة ، وخلق فرص للتدخل ثم مقاومة اى حركة اصلاحية عثمانية قد تؤدى الى القضاء على هدفها ، أو الابطاء به ولذلك كان الاشتباك بين الدولتين يكاد يكون متصلا في القرن الثاني عشر الهجرى ومطلع القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للقرنين الثامن عشر ومطلع القرن الذى يليه الميلاديين ،وكان القصد من ذلك هو نشر الخلل الادارى وابعاد البلاد بقدر

---

(١) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق الأدنى ، ص ١٦٨.

الامكان عن الاصلاح الممكن (١) حتى لاتستعيد الدولة سابق قوتها.

وكانت النتيجة أن اتجهت مطامع هذه الدول نحوها فلم تملك الدولة العثمانية سوى الوقوف امام هذه المطامع موقف الدفاع ،بعد أن كانت في السابق في موقف الهجوم ،لذلك بدأت الدول الاوربية في تقدم مستمر ودائب ، و الضعف و الانحلال ينخر جسم الدولة ،فتكالبت دول الاستعمار لالتهام الدولة العثمانية و الضعيفة في نفس الوقت ، ولكن هذه الدول الأوربية وروسيا أثناء سباقها لالتهام الدولة العثمانية كانت تجد نفسها وجها لوجه في كثير من الاحيان ،وقد تساعد احدى هذه الدول الدولة العثمانية وتعقد معها المعاهدات لا لتأمين سلامتها بل خشية وقوعها في احضان المنافسين دون أن تأخذ حصة مناسبة وهذا هو ماسمي في التاريخ " بالمسألة الشرقية "(٢).

و الحقيقة ان المسألة الشرقية لها معنيان : الأول: عصر قوة الدولة وخوف أوربا من تقدم العثمانيين في اوربا . اما المعنى الثاني : فهو العصر الأخير للدولة و الخوف من سقوطها ونشأة صراع أوربي حول تقسيم ممتلكاتها.

يؤكد ذلك التشابك المتقلب الوعر من مصالح متضاربة ، ومن شعوب متنافسة ،ومن أديان متنابذة تقنعها بقناع شفاف ونطلق عليها اسم يسير : المسألة الشرقية غير ان المسألة الشرقية كما يعرفها كل باحث حق المعرفة ، هي وجود الاتراك العثمانيين في أوربا وفتحهم لمدينة القسطنطينية ـ ذلك الموقع الفريد ـ وسيطرتهم الاسلامية على شعوب مسيحية "(٣) .

---

(١) محمدعبد اللطيف البحراوي:حركة الاصلاح العثماني ،ص ٦١-٦٣.

(٢) أورخان محمد على : السلطان عبد الحميد الثاني حياته و احداث عهده ، ص ٣٠

(٣) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان (الطبعة الثانية ،بيروت ،دار النهار للنشر: ١٩٧٧م) ،ص ٢٢ ،

John Morely:the Life of Willem Ewart Goldstone Vol. 1. (1809-1859) London, p . 476.

غير أن المسألة الشرقية بوجه عام مسألة تتناول المصالح المتضاربة أو التنافس العنيف الذى وقع بين الدول الاوربية والشرق الادنى ، في المجالات الدينية والسياسية والاقتصادية وعلى وجه التحديد في القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للقرن التاسع عشر الميلادى .

فقد كتب البرت سورل (Sorrel) يقول: " منذ أن ظهر الاتراك في أوربا نشأت مسألة شرقية في الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية دولة قوية مابين القرن الثامن ، وأواخر القرن الحادى عشر الهجريين أى مابين القرن الرابع واواخر القرن السابع عشر الميلاديين ، في هذه الفترة كانت الدولة العثمانية " الرجل الاوربي المعافي السليم الجسم " كان دوافع المسألة تعنى كراهية الاتراك وبغضهم دينيا وعسكريا ولكن عندما أخذت الدولة تتقهقر اصبحت المسألة الشرقية تعنى" بالمشكلات الدولية المترتبة على انحلال الامبراطورية التركية وتجزئها الوشيك ". وعند التحليل لهذه المشكلات في النهاية نجد انها تدور حول سؤال واحد هو : اية دولة أو دول ستكون وارثة هذه الدولة الشاسعة المساحة[1].

اذا في المرحلة الأولى من مراحل المسألة الشرقية ، كان الأتراك العثمانيون يشكلون تهديدا حقيقيا للنظام السياسي والاجتماعي في أوربا . أما المرحلة الثانية فكانت الدول المسيحية خلالها تشكل خطرا على الاتراك العثمانيين ينذر بزوالهم من أوربا .

وفي هذا المقام ينبغي علينا أن لاننسى أو نتناسى العصر العلماني او عصر الغزو الفكرى وهو ان العامل الديني كان من أهم عوامل المسألة الشرقية . فقد نشأ الاتراك في اوربا اكبر واقوى دولة اسلامية تعرف بالدولة العثمانية ولذا فان المسألة الشرقية كما عرفها ادوارد دريو (Driault) هي " مشكلة القضاء على قوة الاسلام وسياسته "[2]

---

(١) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان . ص ٢٢-٢٣.

(٢) زين نور الدين زين: المرجع السابق ص ٢٣.

وهذا ماقاله الاوربيون انفسهم ، ليكون حجة على من سواهم ، والحق ماشهد به الأعداء .

ويعزز ذلك الرأى قول فارلى (Farley) : "ان السلطان الحاكم في القسطنطينية هو خليفة المسلمين ،واسطنبول عاصمة للدولة العثمانية ولكنها في نفس الوقت مركز للخلافة الاسلامية ،كما أن روما عاصمة للديانة المسيحية ، وعلى هذا فان المسألة الشرقية مسألة دينية كذلك "(١).

لذلك أرتبطت الاقليات المسيحية في الدولة العثمانية بأوربا ارتباطا دينيا ،ومذهبيا بوجه عام ،ففرنسا اعتبرت نفسها حامية للمذهب الكاثوليك في لبنان ،لما كان للمارونية من مجهود خاص في الحروب الصليبية فقد اكتسبوا منذ ذلك الحين نوعامن الحماية الفرنسية،وكانوا يخصون مكانا في كنائسهم للقنصل الفرنسي .

أما روسيا فقد جعلت نفسهاحامية للمذهب الارثوذكسي في ممتلكات الدولة العثمانية ،ومن خطتهاجذب الأرثوذكسي نحوها وتحريضها ضد الدولة العثمانية الا انها تركت للنمسا الارثوذكس السلاف في الصرب مقابل مساعدة النمسا لروسيا في اعادة الامبراطورية البيزنطية كما سبق .

أما انجلترا فقدكانت المصالح الاقتصادية هي شغلها الشاغل في توجيه سياستها لذلك كانت الدولة العثمانية في مطلع القرن الثالث عشر الهجرى الموافق لمطلع القرن التاسع عشر الميلادى امام مصاعب عاتية نتيجة للارتباط المذهبي بين جماعات من رعاياها داخل الدولة وبين الدول الاوربية التي أشرنا اليها .(٢)

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوى : حركة الاصلاح العثماني ،ص ٢٧.

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوى: المرجع السابق ،ص ٢٧-٢٨.

ولاشك أن هذا النشاط الديني كان حجر الاساس في بعث القوميات في البلقان ، الذي مر بمراحل الاثارة ثم النضال ثم التدخل الاوربي المستمر ثم المرحلة الأخيرة وهي الاستقلال [١].

يتضح من ذلك تدخل عوامل الغزو الفكري والعسكري في شئون الدولة العثمانية جنبا الى جنب لحماية الاقليات ظاهريا اما الوجه الآخر فهو القضاء على الاسلام وطرد الدولة العثمانية من اوربا متذرعين باسم الامتيازات الممنوحة لهم منذ عهد السلطان سليم القانوني •

لذلك كان الأوربيون يؤلمهم بصفة خاصة خضوع شعوب مسيحية لحكومة اسلامية فهي اذا لاتكره سقوط الدولة العثمانية واختفاء رايتها تماما وكانت كل من الدول تحب أن ينالها شيئا من ولاياتها [٢].

لتوطيد علاقتها المباشرة مع جميع طوائفها غير الاسلامية في داخل كيان الدولة العثمانية فاهتزت الدولة لهذا الامر واصبحت في موقف يستدعي نظرة شاملة في شئونها الخارجية والداخلية وذلك في أواخر القرن الثاني عشر الهجرى وما يليه الموافق للقرن الثامن عشر الميلادى [٣].

لهذا كانت المسألة الشرقية ايضا ذات شقين : " هما الدولة بنظمها في جانب وثورات مستمرة من شعوب هم رعايا للدولة ويحاولون التخلص من سيادتها من جانب آخر وبين هذين العنصرين عنصر ثالث هو تدخل الدول الاوربية الكبرى في شئونها • وقد أدى ذلك الى ضعف الدولة واختلال النظم فيها وخلق ميدان فسيح للصراع والتنافس الاوربي [٤] من اجل اقتسام أملاك الدولة العثمانية فيما بينها طوال القرن التاسع عشر الميلادى•

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوى : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٢٧ – ٢٨•
(٢) محمد شفيق غربال: العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ماهي عليه اليوم ، ص ٨٢•
(٣) محمد شفيق غربال: المرجع السابق ،ص ٨٥•
(٤) محمدعبد اللطيف البحراوى: المرجع السابق ، ص ٦١•

لكن الدول الكبرى أصبحت سياستها ترتبط بمصالحها الخاصة مما جعلت كل دولة تضحي بكل شيء عدا مصالحها فكانت كل دولة تنظر بمنظارها الخاص وتعمل من أجله ،فكانت بعض الدول ترى من مصلحتها التعجيل بتقسيم الدولة وتحطيمها لتحصل على الأجزاء التي ترغب فيها ، بينما البعض الأخر يريد المحافظة عليها على أن يكون له النفوذ الراجح ، فنشأ ماسمي باسم سياسة التدخل وتقابلها ما أسميت باسم سياسة التكامل(١).

وتعني سياسة التدخل : العمل على طرد المسلمين العثمانيين من أوربا او تحرير الاجناس الاوربية الخاضعة لهم . أما فكرة التكافل فهي : تعني تكامل الدولة العثمانية وتحقيق سيادة السلطان على رعاياه . وتسرى بين الفكرتين روح صليبية فكانت السياسة الاولى (التدخل) خلق ثورة بين رعايا السلطان ثم تتدخل الدول الكبرى بحجة المحافظة على تكامل الدولة(٢).

فروسيا كانت تطمع في الخروج من سجنها بالقارة وانجلترا تريد ابعاد روسيا عن طريق الهند ،والنمسا ترى في القسطنطينية وسالونيك مركزا هاما لها فكان هناك وفاقا بين السياسة الروسية والنمسا ،والعكس بين سياسة انجلترا وروسيا ،لذلك نرى أن روسيا تثير المشاكل للدولة وبريطانيا تبحث عن الحل لها . ففي تغاير السياستين الروسية والبريطانية أعطى الدولة فرصة للبقاء أكثر في أوربا(٣).

الا أن قيام الثورة الفرنسية كان لها الاثر الواضح في انصراف الدول الاوربية وفي مقدمتها روسيا والنمسا عن الاعتداء على اراضي الدولة العثمانية(٤) .

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي: حركة الاصلاح العثماني ،ص ٦٣. ،عايض خزام الروقي : حروب محمد علي في الشام واثرها في الجزيرة العربية (رسالة ماجستير من جامعة ام القرى ،لم تنشر ،١٤٠٦هـ/١٩٨٥م) ص ٤٦.

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي : المرجع السابق ، ص ٦٣.

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوي : المرجع السابق ،ص ٦٣-٦٤.

(٤) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ،ص١٦٩.

فانشغال اوربا المسيحية بالصراع مع فرنسا والثورة ،كان مفيدا للدولة العثمانية من الناحية السياسية ،ففي ١٢٠٧ هـ/١٧٩٢م قال أحمد أفندى ، السكرتير الخاص للسلطان سليم الثالث " ليجعل الله الثورة في فرنسا تنتشر كالزهري في أعداء الدولة العثمانية ،ويقذفهم في صراع طويل مع بعضهم البعض بحيث تكون النتيجة بما ينفع الدولة العثمانية.

لذلك كانت ترى الدولة العثمانية ان توسع الثورة الفرنسية في أوربا سوف يبعد عنها أطماع النمسا وروسيا في اراضيها. فقد كانت الدولة العثمانية تشحن المؤن الى فرنسا من موانئها كما استعانت الدولة نفسها من فرنسا بالخبراء العسكريين والبحريين ولم يكن تاخر اعتراف الدولة العثمانية بالجمهورية الفرنسية الا بسبب التحذيرات والاحتجاجات من جانب النمسا وروسيا (١).

ولكن هذه الهدنة كانت قصيرة اذ سرعان ما أصبحت الدولة العثمانية مرة أخرى مجال توسع لفرنسا (٢)

قد كانت وجهات نظر الحلفاء صحيحة حينما اشاروا على الدولة العثمانية بأن الثورة الفرنسية تهدد الدولة العثمانية كما تهدد الدول المسيحية جاء ذلك في التقرير الذى رفعه احمد عاطف للسلطان بصدد طلب الحلفاء اشتراك الدولة العثمانية في عمل موحد ضد فرنسا (٣). فجاءت الأحداث تبرهن صدق هذا القول ،عندما اختار نابليون مصر كنقطة انطلاق خارج أوربا ، أقلق هذا العمل بريطانيا بصورة جعلتها تقيم علاقات سياسية ودفاعية دائمة مع الدولة العثمانية لتقف بذلك في وجه الأطماع

---

(١) عمر عبدالعزيز: تاريخ المشرق العربي ، ص ٢٦٠.
(٢) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ،ص ١٧٠.
(٣) عمر عبدالعزيز : المرجع لسابق ،ص ٢٦٠-٢٦١.

الفرنسية حتى لاتقترب من حدود الهند والمداخل البحرية للخليج العربي والبحر الأحمر ، لأن هذين الشريانين المائيين هما الطريقان المؤديان الى دورة التاج البريطاني في الهند (١).

ومع أن فرنسا اضطرت الى الجلاء سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م الا أن هذا الجلاء لم يكن في الحقيقة نتيجة انتصار عسكرى للدولة العثمانية بل جاء نتيجة للتدخل الانجليزى البرى والبحرى ، لكن الحملة الفرنسية نظرا لفشلها فقد فتحت الباب على مصراعيه للتطاحن والتنافس بين فرنسا وبريطانيا حول مصر وغيرها من ممتلكات الدولة العثمانية الأخرى(٢).

وقد اتضح من تلك الانطلاقة ان دور فرنسا لم يعد ينحصر على حماية الكاثوليك كما كان سائدا قبل ذلك بل بدأت تفكر في مصالحها السياسية والتجارية لتأخذ طابعا مميزا وتشترك مع الدول العظمي كبريطانيا والنمسا وروسيا(٣) .

ويؤكد ذلك عندما انسحبت الحملة الفرنسية من مصر ، أعاد السلطان لفرنسا امتيازاتها القديمة وعادت السياسة الفرنسية تسعى للحصول على صداقة الدولة العثمانية حتى عادوت فرنسا من جديد في اسطنبول (٤).

وفي الوقت الذى حاولت فيه كاترين الثانية اغراء النمسا للموافقة على اقتسام الدولة العثمانية اخذت تثير القلاقل والاضطرابات حتى تنازل لها السلطان عن شبه جزيرة القرم (٥).

---

(١) عايض خزام الروقي : حروب محمد علي في الشام ... ، ص ٤٦.

(٢) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٧٠.

(٣) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، ص ٣٤.

(٤) عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٢٦١.

(٥) عايض خزام : المرجع السابق ، ص ٤٧-٤٨.

بموجب معاهدة كتشك فينارجه سنة ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٤م وبمقتضاها اكتسبت روسيا حقوقا تجارية وبحرية ، فاصبح من حقها انشاء قنصليات في ممتلكات الدولة العثمانية واصبح لرعاياها حق التجارة في املاك الدولة العثمانية كما فتحت لسفنها حرية الملاحة في أوقات السلم في البحر الاسود عبر المضايق التركية ومن أهم المكاسب التي حصلت عليها روسيا نتيجة لهذه المعاهدة هو اعطاءها الحق في اقامة كنيسة ارثوذكسية في اسطنبول كما أصبح من حق رعايا روسيا الحج الى الاماكن المسيحية التي تقع في ممتلكات الدولة العثمانية ، لهذا فقدت الدولة العثمانية انفرادها بالسيطرة على البحر الأسود ،كما أصبح في امكان روسيا التدخل في شئون الدولة العثمانية بحجة حماية رعاياها المسيحيين الارثوذكس ، والواقع انه منذ ذلك الوقت تحدد الطريق للتدخل الروسي في شئون الدولة العثمانية فاضحى في امكان روسيا ان تزحف على الدولة العثمانية وهي رابطة الشعوب السلافية للعمل على اثارة المتاعب للدولة في البلقان كما مر بنا .

الا أن انجلترا عادت وغزت مصر سنة ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م وكان هذا الغزو في الحقيقة نابعا من داخل الموقف الأوربي ابان الحروب النابوليونية حتى استقرت هذه الحروب بعد معاهدة فينا سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٥م [١] ،لأن غزو انجلترا لمصر كان ناتجا من خوفها من الدول الاوربية وخاصة فرنسا التي تريد عن طريق مصر الوصول الى الهند .

في الوقت الذي كان فيه نابليون حريصا على اقتسام املاك الدولة العثمانية لاعتقاده بأن ذلك فرصة لتوجيه ضربة قوية ضد بريطانيا في الهند [٢] ، حاولت روسيا اقناعه باقتسام أملاك الدولة العثمانية

---

(١) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ،ص ١٦٩.

(٢) عايض خزام الروقي : حروب محمدعلي في الشام.... ،ص ٤٨.

سنة ١٢٢٣ هـ / ١٨٠٨م على أن ترضي النمسا بطعم من تلك الغنيمة [(١)]

الا أن الدول الاوربية طيلة القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للقرن التاسع عشر الميلادى كانت تخاف من الشبح الروسي اضافة الى الغموض الذى كان يكتنف سياسة روسيا [(٢)]، هذا الخوف سيطر على نابليون وحال دون قبول ذلك التقسيم .

أما بريطانيا رغم وجود بعض الفتور في علاقتها مع الدولة العثمانية خلال الفترة من (١٢٢٣-١٢٢٤هـ) - (١٨٠٨-١٨٠٩م) فانها لم تغفل عن الخليج العربي وطرق الهند ،فقد أرسلت البعوث للدولة العثمانية وعقدت معاهدة للوقوف معها يدا واحدة ضد النفوذ الفرنسي والروسي كان ذلك في سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م وكان انجلترا تترجم بذلك لواقع سياستها تجاه الدولة العثمانية مع اعتبارها مع فارس منطقة عازلة للهند البريطانية آنذاك لأن وقوع أي جزء من تلك الدولتين وبالذات الدولة العثمانية في أيدى الدول الاوربية حري به تعريض الهند للخطر الأوربي [(٣)].

ولكن بعد توقيع معاهدة فينا سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٥م أصبحت هذه المعاهدة حجر الزاوية في سياسة كل من فرنسا وانجلترا والذى ترتب عليها قيامها بحماية املاك الدولة العثمانية والمحافظة على تكاملها السياسي ضد الغزو من جانب روسيا بل ضد الانهيار من الحركات الداخلية المنبعثة من داخل الدولة العثمانية كحركة محمدعلي كما سيأتي [(٤)].

فالمحافظة علي كيان الدولة العثمانية وتماسك ممتلكاتها هو نهج السياسة الانجليزية منذ موءتمر فينا سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٥م [(٥)] .

---

(١) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ،ص ١٠٤

(٢) عبدالحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة ، ص ١١٨.

(٣) عايض خزام الروقي :حروب محمد علي في الشام ... ،ص ٤٨.

(٤) سليمان بن محمد الغنام : قراءة جديدة لسياسة محمد على التوسعية ، (الطبعة الاولى ،جدة ،نشر تهامة ، ١٤٠٠/١٩٨٠م) ص ٤٧.

(٥) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٧٠.

أما الامبراطورية النمساوية فقد نجحت في طرد العثمانيين من بلاد المجروكان يرضيها أن يسود نفوذها السياسي والاقتصادى في البلقان ،وخاصة في نهر الطونه الذى يخرج من المجر للبلقان ليصب في البحر الاسود ،فهو منفذ من منافذ الامبراطورية النمساوية الاقتصادية لان الفاراداز ايضا يلتقي به وينتهي في الارخبيل وهذا المخرج الثاني للامبراطورية النمساوية •

أما الخط السياسي للنمسا يهمها ان يسود نفوذها اخوانهم المقالبة البلقانيين في الصرب [1] واهل الجبل الاسود • فهي تعمل على ابعاد الروس عن البلقان ما استطاعت ذلك • وقد دخل ذلك التنافس طوره الاخير عندما احتلت النمسا عسكريا المقاطعتين الصربيتين (البوسنة والهرسك سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م) حتى ضمتها نهائيا عقب صدور المشروطية. الثانية ، اضافة الى ذلك فقد كانت النمسا تميل لتأييد الدولة العثمانية لأن الدولتين لاتشجعان مبدأ القومية العصبية [2].

وقد تزعم هذه الفكرة مترنيخ وزير خارجية النمسا ،ودعا الى تحطيم أى ثورة تقوم ضد الحاكم الشرعي او الحكومة الشرعية في أى مكان في أوربا ولو أدى ذلك الامر الى التدخل العسكرى [3] .

كما جعل مبدأ الحقوق الشرعية أساسا لأية تسوية للمشكلات الطارئة [4] وكان من المفروض أن تؤدى سياسة المحافظة على تكامل الدولة الى الحيلولة دون تفكك الدولة العثمانية لولا ان هذا التفكك كان يتخذ طريقه من

---

(١) ان التنافس القومي بين النمسا وروسيا في البلقان على صربيا بالذات كان العامل المباشر في استعجال الحرب العالمية الأولى •
– محمد شفيق غربال: منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الامة على ماهية عليه اليوم ،ص ٨٣•

(٢) محمد شفيق غربال :المرجع السابق ،ص ٨٣•

(٣) عبد الحميد البطريق ، التيارات السياسية المعاصرة ص ٢٤

(٤) عايض حزام الروقي : حرب محمد علي في الشام••• ،ص٤٩•

داخل الدولة نفسها من الحركات الثورية في أملاكها الأوربية • غير أنه من المهم أن نذكر أنه منذ حرب الاستقلال الصربية من سنة (١٢٢٠-١٢٢٩هـ) (١٨٠٥-١٨١٣م) اخذت بلدان البلقان طريقها الى الاستقلال الواحدة تلو الأخرى [1].

فكانت ثورة المورة او استقلال اليونان التي اشرنا اليها في الفقرة السابقة يقال عنها انها الناقوس الذى دق للتنبيه عن اهمية مناقشة احوال الدولة العثمانية امام الدول الاوربية [2] المتحالفة ضد الدولة العثمانية التي أخذتها العزة بالاثم عندما تكالبت وتدخلت في الحرب الدائرة بين الدولة العثمانية واتباعها في اليونان وحولت نصر الدولة الى خسارة منفذين في ذلك حلف فينا سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٥م •

لذلك بدأت الدول الاوربية تثير مناقشة هذه المسألة وتساءلت فيما بينها هل تسرع بتقسيم الدولة؟ او تحاول بقدر المستطاع حماية تلك الدولة وعدم تفتيتها؟ [3]

في تلك اللحظة مات كاننج (Canning) وزير خارجية بريطانيا فخلفه دوق ولنجتون الذى اتبع سياسة مخالفة لسياسة كاننج فاعتذر عن حدوث الكارثة التي لحقت بالاسطول العثماني في نفارينو واظهر رأيا مؤيدا لتركيا ضد اى تدخل روسي هادفا بذلك منع اى استغلال لهذه الازمة من شأنه ان يهدد وجود الدولة العثمانية • الا أن السلطان محمود لم يقتنع بتلك الأعذار الواهية التي أبدتها الدول لتحطيم أسطوله مثلما اقتنع بها محمد علي [4]. الذى أمر ولده بالانسحاب بما تبقى له من الأسطول المصري ،لأن روسيا وفرنسا وبريطانيا لم تباشر معه استعمال القوة

---

(١) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ،ص ١٧٠•

(٢) امال السبكي : اوربا في القرن التاسع عشر ،ص ٢٠٢•

(٣) آمال السبكي : المرجع السابق ،ص ٢٠٢•

(٤) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ،ص ٤٩-٥٠•

المسلحة ، لفرض الهدنة لان بريطانيا تدرك أن قوة الجيش العثماني الحقيقية هي قوات محمد علي للخلل الذى أصاب الانكشارية في ذلك الوقت وقد استطاعت بريطانيا اقناعه بالانسحاب ببعض الوعود[1].

أما السلطان محمود الثاني فقد واصل استعداداته لمواصلة الحرب في بلاد اليونان ،وضد روسيا التي أعلنت عليه الحرب [2]

ولكن لمواصلة خبر حادثة نفارينو ارسل بلاغا الى سفراء هذه الدول الثلاث يقيم الحجة ويشجب هذا العمل المخالف للقوانين الدولية ، ويطلب من الدول عدم التدخل في شئون بلاده ،وأن تدفع له تعويضا عن الخسائر التي لحقت باسطوله ،فلم يجبه احد بل غادروا بلاده . فعمد السلطان الى عمل بيان أو منشور وزعه على جميع الولايات بين فيه مقاصد الدول الثلاث المذكورة وخاصة روسيا نحو الدولة العثمانية الدولة الاسلامية الوحيدة مبينا فيه للامة الدافع الحقيقي من هذا العدوان الديني لا السياسي وختم هذا المنشور بحث المسلمين على القتال دفاعا عن الاسلام وديارە فاغتاظت روسيا لذلك واعلنت الحرب على الدولة العثمانية سنة ١٢٤٣هـ/١٢٢٨م[3] . محاولا بذلك تحقيق الخطوة التي حاول كاننج طوال السنوات السابقة منعها وهكذا اعلنت روسيا بمفردها ضد الدولة العثمانية دون النظر الى سياسة انجلترا وفرنسا اللتين كانتا في غاية التخوف من التدخل الروسي أن تبتلع روسيا أملاك الدولة العثمانية وهذا يسبب للدولتين العديد من المشاكل ويختل التوازن الدولي [4].

فسارت روسيا بجيوشها التي كانت مستعدة ومتأهبة على الحدود فاجتازت باختصار نهر بورث الفاصل بين أملاك الدولتين واحتلت مدينة (ياش)

---

(١) سليمان محمد الغنام : قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية ،ص ٧٠

(٢) محمد كمال الدسوقي :الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص ١٤٩-١٥٠.

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار.. جا ،ص ٦٨٢.
،محمد فريد بك :تاريخ الدولة العلية ،ص ٨٢٧-٨٢٨.

(٤) محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ،ص٤٩.

عاصمة البغدان ثم بعد ذلك اجتازت نهر الطونة فاخترقت جبال البلقان بعد تغلبها على الجيوش العثمانية واخيرا وصلت الى مدينة ادرنة واحتلتها عنوة .

ولم يبق أمامها عائق يوقفها عن التقدم الى اسطنبول الا عدم رغبة الدول في سقوطها في ايدي الروس بل كان الاتفاق ضمنا حول اضعافها الحد لايمكن معه التقدم والارتقاء لتبقى عقبة أو حاجزا بينها وبين البحر الأبيض المتوسط (١) التي ترغب الروس الوصول اليه بشتى الطرق . فأوقفت روسيا الحرب ودارت المحادثات بين الدولتين المتنازعتين بتوسط بروسيا التي أنهت المسألة بالموافقة على الصلح ووقع بهذا معاهدة ادرنة سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م (٢).

استغل بولنياك (Polignac) وزير خارجية فرنسا هذه الحادثة بتقديم مشروع تحالف فرنسي روسي على تقسيم املاك الدولة العثمانية تقسيما كاملا لاعادة تخطيط حدود الدول الاوربية في ضوء هذا التقسيم (٣). ومن الغريب أن روسيا قد خرجت من هذه التجربة بفكرة مغايرة تماما بالنسبة للدولة العثمانية (٤).

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٣١-٤٣٢ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ص ٤٣٣ .
، محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص ١٥١

(٣) هذا المشروع بأن يمتد اليونان حتى القسطنطينية ويصبح ملك الاراضي المنخفضة ملكا عليها . وتأخذ روسيا الافلاق والبغدان وأجزاء من آسيا الصغرى وتحصل النمسا على الصرب والبوسنة ،وتقسم مملكة الاراضي المنخفضة ،فتأخذ بروسيا هولنده ،وتأخذ فرنسا بلجيكا وتحصل بروسيا على مملكة ساكس وتترك اراضيها على الضفة اليسرى للراين لكي تصبح دولة تحت حكم ملك ساكس السابق. وتحصل بريطانيا على المستعمرات الهولندية .
- محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٥٠ حاشية رقم (٢).

(٤) أ.ج. جرانت وآخرون : أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين.ترجمة بهاء فهمي (القاهرة . الناشر مؤسسة سجل العرب ، ١٩٨٥م) جـ١ ،ص ٣٤٢ .

فيهذه اللحظة الحاسمة كون القيصر الروسي نقولا لجنة خاصة لدراسة المشاكل الروسية العثمانية التي نتجت عن الحرب القائمة بين روسيا والدولة العثمانية وجاء هذا التقرير من اللجنة المكلفة بهذه الدراسة مخالفا لكل ماكان متعارفا عليه في السياسة الروسية (١) التي تقوم دائما على السياسة التوسعية نحو الدولة العثمانية واملاكها وكانت أطماعها تتركز في السيطرة على البوسفور والدردنيل للخروج الى المياه الدافئة في البحر الابيض المتوسط وترتب على هذه السياسة التوسعية محاولة دائمة لتقسيم أملاك الدولة العثمانية على أن يكون التقسيم لصالح روسيا أساسا، وتخليص البلقان من الحكم الاسلامي (٢).

أما تقرير اللجنة التي كونها القيصر نقولا فقد جاء مخالفا لكل تلك السياسات أو الاتجاهات، لقد قررت تلك اللجنة في وضوح وصراحة تامة ان تقسيم أملاك الدولة العثمانية وتحطيمها ليس في صالح روسيا ولايتمشى مع مصالحها مستقبلا لأن انهيار الدولة العثمانية سينتج عنه مشاكل سياسية معقدة.

كماقررت اللجنة أن تقسيم أملاك الدولة العثمانية سيترتب عليه أن تحصل الدول الأوربية الكبرى على أجزاء من شبه جزيرة البلقان مما يجلب لروسيا جيرانا أقوياء على حدودها الجنوبية بدلا من الدولة العثمانية التي لاتمثل اى خطر على روسيا.

وان روسيا اعتادة على الهجوم على أملاك الدولة العثمانية. أما الدولة فانها ولقرنين من الزمان لم تهاجم الحدود الروسية وظلت روسيا من سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م ولمدة عشر سنوات عكس سياستها الاولى الرامية

---

(١) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، ص ١٥٠-١٥١

(٢) محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق، ص ١٥١

، محمد شفيق غربال : منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الامة على ماهي عليه اليوم، ص ٨٢.

، أ.ج.جرانت وآخرون : اوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين ج ١ ص ٣٤٢.

الى السيطرة على المضايق و القسطنطينية ، ولقد نالت روسيا في تلك السنوات تأييد مترنيج مستشار النمسا الذى قاد في أوربا تيارا معاديا لكل الحركات الثورية ، ومؤيدا للمحافظة على الحقوق الشرعية للدول في مقدمتها الدولة العثمانية (١) . اذ رأت روسيا بنظرتها الثاقبة ان دولا بلقانية صغيرة ستنشأ اذا ما استمر انحلال تركيا ، وأن روسيا لن تتمكن من السيطرة على هذه الدول . فأشارت اللجنة أيضا الى أنه اذا أرادت روسيا السعي لكسب المزيد من الاراضي فان عليها ان تتجه صوب ارمينيا او بغداد لا الى القسطنطينية فقامت سياسة نيقولا على هذا الاساس طوال العشر سنوات على ابقاء الوضع على ماهو عليه للمحافظة على سلامة الدولة العثمانية .

وقد أسر نيقولا بآرائه الى النمسا فنال تأييد مترنيخ ،ولكن كبرياءه منعته من شرح سياسته لانكلترا فاستمر بالمرستون في مناوأة السياسة الروسية على أنها تنوى ضم القسطنطينية والاستيلاء على الدردنيل ولعله كان بوسع بالموستون أن يخمن الحقيقة ازاءمالمسه من مظاهر الود بين النمسا وروسيا ولكنه لم يفعل(٢).

ونعود الى أهم ماجاء في معاهدة أدرنة التي كسبتها روسيا وهي أن يكون نهر البروث فاصلا بين الدولتين كما كان سابقا وكذلك تتخلى الدولة لروسيا عن مصبات نهر الطونة وان يكون لروسيا حق الملاحة في البحر الأسود الى البحر الأبيض بدون تفتيش مراكبهم ،وأن يكون تعيين أمراء ولايتي الافلاق والبغدان لمدة حياتهم وعدم عزلهم الا بأسباب مقنعة للدولتين (٣) .

---

(١) أ.ج. جرانت وآخرون : اوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج ١ ص ٣٤٢-٣٤٣.
محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ،ص ١٥١-١٥٢

(٢) أ.ج. جرانت وآخرون : المرجع السابق ، ص٣٤٣.

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٤٤٤.
،محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٥٢.

والواقع ان فرنسا في هذه المرة هي التى راحت تنتهج في همة ونشاط سياسة تمزيق أوصال الدولة العثمانية في الفترة من (١٢٤٦ - ١٢٥٦هـ / ١٨٣٠-١٨٤٠م) . ففي سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م استولت فرنسا على الجزائر ومابين هذين التاريخين أيدت ثورة محمدعلي والي مصر ضد الدولة العثمانية (١) ، حيث اعتقدت فرنسا ان مصر من الدول التي يجب ان تحافظ عليها لتأمين البحر الابيض المتوسط ولحماية شواطئ أفريقيا(٢) . وعلى ذلك سعت على هذا الطريق للحصول على العون لتحقيق مشروعاتها الخاصة بالبحر المتوسط (٣).

لهذا نفذت فرنسا هذا الاحتلال ليكون لها مركزا حربيا في شمال أفريقيا حتى لاتكون انجلترا صاحبة السيادة بمفردها على البحر الأبيض المتوسط باحتلالها جبل طارق ، وجزيرة مالطة ، فسيرت جيشها وبعد قتال عنيف بين فرنسا والجزائر استطاعت فرنسا من الهيمنة على بلاد الجزائر، بعد خروج باى حسين وأعلنت احتلالها للجزائر سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣١م(٤) . وهذا ما درج أو سمى في التاريخ الحديث باسم (المسألة الشرقية) التي اشتركت في حوادثها الدول الكبرى الأوربية فأصبحت هذه المسألة مسألة معقدة استحال على الساسة وحيرهم حلها حلا يرضي جميع الأطراف.

فروسيا غيرت سياستها ولكنها تتنافس مع فرنسا على حماية رعاياها المسيحيين في املاك الدولة العثمانية الاثوذكس والاخرى ادعت حماية الكاثوليك مما سياتي الحديث عنها بالتفصيل في حرب القرم وصدور الخط الهمايوني .

أما النمسا فانها تتطلع نحو البلقان ،وبريطانيا اخذت تعمل ضد الاجهاز على الدولة العثمانية (٥) ، وتناوئ المشاريع الروسية

---

(١) أ.ج. جرانت وآخرون : اوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين ،جا ص٣٤٣.

(٢) آمال السبكي : أوربا في القرن التاسع عشر ،ص ٢٠٣.

(٣) أ.ج. جرانت واخرون : المرجع السابق ،ص٣٤٣.

(٤) محمد فريد بـــــا : تاريخ الدولة العلية ،ص ٤٤٧-٤٤٨.

(٥) عبد الحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة ،ص ٤٥-٤٦.

الفرنسية لتقسيم الدولة العثمانية [١].

وقد تجددت المسألة الشرقية عندما تعاظمت قوة محمد علي العسكرية في انتصاراته التي احرزها في حروبه ضد السلطان محمود الثاني سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م وقد هزم محمد علي واحتفظ السلطان العثماني بعرشه بعد تدخل دول أوربا [٢] كما سيأتي عنه الحديث في الفصل الرابع في أسباب صدور خط كلخانة .

الا أن المسألة الشرقية عادت مرة اخرى في سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م لسبب ثورة الهرسك ضد الدولة العثمانية واختلاف دعوى قسوة الحكام الاتراك في جباية الضرائب في المحاصيل الزراعية وانضم الى هؤلاء الثوار المتطوعون من الصرب والجبل الأسود وبلغاريا تتزعم هذه الأحلاف صربيا ، التي أعلنت الحرب على تركيا العثمانية ، عندئذ تنبهت كل من النمسا وروسيا الى مصالحهما وأطماعهما القديمة في البلقان وحاولت كل منهما أن تستفيد من الموقف المرتبك في البلاد [٣] .

وهذا ماسوف نوضحه ان شاء الله عند ذكر الحرب الروسية العثمانية التي نتج عنها معاهدة سان ستيفانو سنة ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م في عصر السلطان عبد الحميد الثاني ثم أعقب ذلك معاهدة برلين في نفس العام لتقسيم أملاك الدولة العثمانية كما هو معروف .

معنى ذلك أن أطماع الدول الاوربية في الدولة العثمانية قد استمر على طول تاريخ هذه الدولة في عصرها الثاني حتى سقوط الدولة في الحرب العالمية الاولى .

كما أننا لاننسى أيضا ايطاليا التي أصبحت هي الأخرى تتطلع الى الاستيلاء على ليبيا وانطاليا بعد اعلان المشروطية الثانية [٤].

---

(١) أ.ج. جرانت وآخرون : أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين، جا ، ص ٣٤٣.

(٢) زين نور الدين زين: الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، ص ٢٤.

(٣) عبد الحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة ، ص٤٨-٤٩.

(٤) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني (الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار السلام ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) ، ص ٧١.

هـ - أنشطة الماسونية والصهيونيـــة :

الماسونية مذهب لم تقنن معالم نظامه ، لأن كثيرا من تعاليمهـا تجري بصورة شفهية . ذلك أن محتوى أرشيفات المحافل الكبرى والمحافل المحلية لم تنشر بعد ، ومن المحتمل أن تكون قد عقدت له عدة مؤتمرات أخرى كبرى بحضور عدد من ذوى المراتب العليا من أنصار هذا الاتجاه المعادى للاسلام ، لم يذكر عنها شيء ، أما شعارها المزيف فهو الحرية والمساواة والاخاء[1] . ويظهر أن محاضر واعمال تلك الاجتماعات بقيت سرية أو محدودة التداول ، وذلك لما تحمله من مكائد وشرور ضد البشرية وخاصة ضد الأمة الاسلامية .

وقد ورد شعارهذه الماسونية في بروتوكول حكماء صهيون في البند التاسع في الجلسات السرية كما يلي : " ان الكلمات التحريرية لشعارنا هي الحرية والمساواة والاخاء " وسوف لانبدل كلمات شعارنا بل نصوغها معبرة عن فكرة ،وسوف نقول : " حق الحرية ، وواجب المساواة ،وفكرة الاخاء " وحينئذ نكون قد دمرنا كل القوى الحاكمة التي تقف أمامنا الا قوتنا فقط [2] . وهي شعارات مزيفة الهدف منها خداع البشرية من أجل التسلط والتحكم في مصائرها .

والحق أن المؤرخين لم يتفقوا على تحديد أصل الماسونية ،وكيفية نشأتها فقد تضاربت الآراء واختلفت الاقاويل فيها فمن نسب أصلها الى أقدم الأزمان ،وقائل أنها لاتتجاوز الجيل السابع عشر الميلادى والصراحة أن دون معرفة الحقيقة أستارا مسدولة تمنع النور من خرق الحجاب ... وعقبات جمة تعرقل سعي الباحث وتحيره في أمر نشأتها ومعرفة أول مؤسس لها[3].

---

(١) أحمد نورى النعمي : أثر الاقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ،(بغداد ،مطبعة جامعة بغداد ،١٩٨٢م ،) ص ١١٦.

(٢) محمد خليفه التونسي : الخطر اليهودى ،بروتوكولات صهيون ،(القاهرة ، مكتبة دار التراث) ص ١٩٠-١٩١.

(٣) شاهين مكاريوس : تاريخ الماسونية العملية ،(الطبعة الأولى ،١٨٩٧م) ، ص ١٤.

فدراسة تاريخ نشأة الماسونية موضوع آخر ، ومايعنينا هو دخول الماسيونية الى الدولة العثمانية ٠

فتذكر المصادر التي ارخت لهذا الحدث أن دخول الماسونية للدولة العثمانية كان في زمن السلطان بايزيد الثاني ،حيث أنشأ يهود سلانيك بعد انتقالهم من الاندلس سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٣م اول محفل ماسوني لهم فيها ، أصبح فيما بعد الأب غير الشرعي لجميع المحافل الماسونية التي انتشرت في جسم الدولة العثمانية وعلى رأسها محفل اسطنبول (١).

وقيل ان النشاط الماسوني قد دخل الى الدولة العثمانية سنة ١١٣٠هـ/١٧١٧م وكان ذلك في عصر السلطان احمد الثالث حيث اسسوا جمعية لهم في عاصمة الدولة اسطنبول وارتبطوا في هذه الجمعية بالجمعية الماسونية (المشرف الفرنسي) ٠وقد بقيت هذه الجمعية عاملة حتى سنة ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠م عندما أغلقت بعد قيام الثورة الفرنسية (٢) . هذا الوقت كانت الدولة العثمانية فيه منغمسة في مشاكلها داخلية وتناست مايحاك ضدها من دعوات هدامة لهذا نرى أن الماسونيين قد استغلوا هذه الاضطرابات لتقوية مراكزهم ، اذا صح دخولهم في ذلك الزمن ٠

الا أن الماسونية يبدو أنها انتشرت في الأراضي العثمانية منذ وقت بعيد ٠ ويقول الأب " لويس شيخو " عن موقف تريكا من الماسونية : " كانت الدولة العثمانية اول الدول التى ناهضت الماسونية منذ سنة ١١٦١هـ/١٧٤٨م ، وأن بين قوانينها مايحظر على العثمانيين دخول الجمعيات السرية ٠

---

(١) داود عبد الغفور سنقرط : القوى الخفية لليهود والعالمية الماسونية (الطبعة الاولى ،عمان ،دار الفرقان ،١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م)، ص ١٢٩٠

(٢) أحمد نوري النعيمي: أثر الاقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ،ص ١١٧٠

فكان السلاطين العظام ينظرون بعين النفور الى كل ما يستتر تحت حجاب الظلمة واذا بلغهم شيء من أمر تلك المجامع أسرعوا الى الغائها وتشتيت شمل أصحابها "(١) .

غير أن الماسونية الرمزية قد ظهرت في الدولة العثمانية سنة ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م في كورفو ،تحت رعاية المحفل الاعظم الانجليزى ، الا أن المعول عليه ، ان أول محفل انكليزى تأسس منها كان سنة ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م، واسمه محفل فيثاغورس ، ثم تأسست بعده محافل أخرى تحت رعاية المحفل الأعظم الانكليزى المتحد ، وتأسس غيرها تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنساوى (٢) .

الا أن الصدر الأعظم ابراهيم باشا ، الذى قرب اليه العلماء والمثقفون ، رأى في الماسونية تجديدا في الأفكار والاراء ،فانتسبوا اليها وكان رشيد باشا سفير الدولة العثمانية في بريطانيا قد انتسب سنة ١٢٦٩هـ/١٨٥٢م الى أحد المحافل الماسونية في بريطانيا ،وعندما عاد الى اسطنبول أسس جمعية ماسونية بالتعاون مع السفير البريطاني آنذاك في اسطنبول (٣) .

ولكن كان هناك مجلسا عال من الأتراك وهو المجمع الوحيد الوطني أسسه الأمير حليم باشا ،وكان رئيسه طول حياته تحت رعاية المحفل الأعظم الانجليزى (٤).

---

(١) حسان على حلاق : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية (بيروت ، الناشر جامعة بيروت ،١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ص ٢٨٣.

(٢) جورجي زيدان : تاريخ الماسونية العام (الطبعة الثانية ،بيروت ، دار الجيل ،١٩٨٤م) ص ١٤٤.

(٣) أحمد نورى النعيمي : أثر الاقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ،ص ١١٧.

(٤) جورجي زيدان : تاريخ الماسونية العام ،ص ١٤٤.

ونظرا للجهود المبذولة من قبل الماسيونية ،فقد تأسس عدد من المحافل في اسطنبول وأزمير ،بعضها تابع للشرق الاعظم الانجليزى وبعضها للمحافل الفرنسية او الايطالية الى أن أسس أو أنشأ حليم باشا مجمعا وطنيا ، ترأسه بنفسه ،وتعددت محافله حتى أصبح عدد الأتراك الماسونيين نحو عشرة الاف شخص من بينهم عدد من الوزراء والنواب وقادة كبار الجيش وكبار المسؤولين[1] . وفي هذا المجال نشط الماسونيون الانجليز ، وقاموا بتأسيس المحفل "الاورخان" وأدخلوا فيه بعض الأتراك .

وقد اعتبرت هذه الخطوة مرحلة جديدة في تطور الجمعية والنفوذ الماسوني الانجليزى في العاصمة العثمانية ،ولكن لم يلبث أن غيروا اسم محفلهم الى محفل " هومر " الذى عينوا في رئاسته اليهودى ميديانو سلفادور ،وقد استمر في هذا المنصب حتى سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩م في حين توسعت هذه الجمعيات حيث ضمت الكثير من الأتراك [2] لاسيما في عهد السلطان عبد الحميد الثاني الذى أثرت حوادث عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٦م في سياسته وسيرته ، منذ أن وجد عمه عبدالعزيز مقتولا في قصر " طولمة باغجة " ولماعين مراد سلطانا من بعده خلع ، ولم يبق طويلا في الحكم وعين مكانه أخوه عبدالحميد الثاني ، الذى بدأ اعماله في ظل هذه الظروف وهذا الوضع [3] بالحذر من هذه الحركات .

فالماسونية هي الاسم الجديد للشريعة اليهودية المقنعة كذلك رموزها وتقاليدها يهودية كابالا(Kabbala)[4]، وان معالمها

---

(١) حسان على حلاق : دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبدالحميد الثاني عن العرش (بيروت الدار الجامعية للطباعة والنشر، ١٩٨٢م) ص ٤٠ .

(٢) احمد نورى النعيمي : اثر الاقليات اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ،ص ١١٧ .

(٣) حسان على حلاق : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ،ص ٢٨٣ .

(٤) الكابالا: مزيج من الفلسفة والتعاليم الروحية والشعوذة والسحر، متعارف عنها عند اليهود ،منذ أقدم العصور وكان دعاة الكابالا يعلقون اهمية كبرى على السحر والشعوذة واسرار الطلاسم والرموز والارقام ..ولمزيد من المعلومات انظر :

رجعية مضحكة ، لأنها التقت بماضي مظلم وتدثرت بضباب قاتم من الأكاذيب والأراجيف الخانقة (١).

وان النظم والتعاليم اليهودية كان انتقال أسرارها الى الماسونية على يد الجمعية والفرسان أو الصليب الوردى ،وهي التي اتخذت أساسا لانشاء المحفل الماسوني الاكبر سنة ١١٣٠هـ/١٧١٧م ، ووضع رسومه ورموزه (٢).

ولاتزال الصهيونية واليهودية العالمية هي القوة المحركة الكامنة وراء الماسونية والاساتذة الكبار الحقيقيون في المحافل الماسونية هم الممثلون للجمعيات الصهيونية واليهودية السرية ، وان سر التماسك العجيب يرجع الى عدد من الصهاينة اليهود في الصفوف المتقدمة من الماسونية ودليل صلة الماسونية واليهودية يقدمه حكماء صهيون (٣) في البروتوكول الخامس عشر من جلساتهم السرية فيما يلى نصه : " والى أن يأتي الوقت الذى نصل فيه الى السلطة سنحاول أن ننشيء ونضاعف خلايا الماسيونيين الاحرار في جميع أنحاء العالم وسنجذب اليها كل بصير أو يكون معروفا بانه ذو روح عامة (Publie Spirit) وهذه الخلايا ستكون الاماكن الرئيسية التي سنحصل منها على مانريد من أخبار كما أنها ستكون أفضل مراكز للدعاية .

وسوف نركز كل هذه الخلايا تحت قيادة واحدة معروفة لنا وحدنا وستتألف هذه القيادات من علمائنا وسيكون لهذه الخلايا أيضا ممثلوها الخصوصيون ،كما نحجب المكان الذى نقيم فيه قيادتنا الحقيقية . وسيكون

---

(١) جواد رفعت آتلخان : أسرار الماسونية ،ترجمة نور الدين رضا الواعظ وآخرون ، (القاهرة ، الناشر مجلة الازهر ،١٤٠٥هـ) ص ٢٧.

(٢) عبد الله عنان : تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة في المشرق ص ٨٩.

(٣) جواد رفعت آتلخان : المصدر السابق ،ص ١١٣.

الحبائل والمصايد في هذه الخلايا لطبقات المجتمع الثورية . وان معظم الخطط السياسية السرية معروفة لنا . وسنهديها الى من ينفذها حالما تشكل "(١) ، فالماسونية اذا من افرازات الحركة الصهيونية والحقيقة أن الماسونية (البناء الحر) من أعظم وأقدم الجمعيات السرية التي مازالت قائمة ،ولكن منشأها مازال مجهولا وغايتها الحقيقية مازالت سرا حتى على أعضائها أنفسهم (٢).

يقول كاتب انجليزي " ان الماسوني وان لم يكن يهودي بالولادة الا أنه رجل متهود ".

وقد عبر عن الرأي نفسه ،هولت زنكر رئيس محاكم فينا بسخرية قائلا: " ان من بين الماسونيين المائة في فينا مائة واثنين من اليهود "(٣) . ويعتبر اليهود والماسونيين أنفسهم معا الابناء الروحيين لاعادة بناء هيكل سليمان (٤).

فالماسونية لعبت دورا خطيرا مؤثرا في ميدان السياسية الأوربية وهي التي دبرت الثورة الفرنسية في محافلها لأجل تحقيق اهدافها الخاصة (٥) .

وان الماركسية واللاقومية هما وليدتا الماسونية أيضا ، لأن مؤسسها كارلماركس وانجلز هما من ماسونيي الدرجة الحادية والثلاثين

---

(١) محمد خليفه التونسي : الخطر اليهودي، بروتوكولات صهيون ص ٢٣٠-٢٣١ .
،جواد رفعت آتلخان: أسرار الماسونية ص ١٣-١٤.
، أحمد نوري النعيمي : أثر الاقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ،ص ١٢١ .

(٢) جواد رفعت آتلخان : المصدر السابق ،ص ١١.

(٣) جواد رفعت آتلخان : المصدر السابق ص ٧٤ .
، أحمد نوري النعيمي : المصدر السابق ص ١٢٢.

(٤) احمد نوري النعيمي : المرجع السابق ،ص ١٢١.
،حسان علي حلاق: دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني .. ص ٤١.

ومن منتسبي المحفل الانجليزي ،وانهماكانا من الذين أداروا الماسونية السرية وبسياستهما أصدروا " البيان الشيوعي " المشهور الذى امتدحته المجلة الالمانية الماسونية (لاتونيا) قد أعلنت فرحها واستبشارها بانتشار الاشتراكية في مقال لهاسنة ١٣١٢ هـ / ١٢ تموز ١٨٩٤م وقالت ان " الماسونية قد وجدت في المبادىء الاشتراكية خير معوان لها فلابد لنا من معاضدتها "(١).

معنى ذلك أن القاعدة التي تنطلق منها هذه المذاهب الهدامة ، وان اختلفت في الاسماء والمسميات فهي في الحقيقة مؤسسات سرية يهودية .

لذلك تغلغل سلطان اليهود في العالم في اواخر القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجريين الموافق لاواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين . بما اتيح لهذه الجمعيات من مسببات الانتشار والنجاح : ذلك أن نشاطا تجاريا اجتاح العالم بسبب تطور الثورة الصناعية التي ساعدت على تطور وسائل المواصلات في العالم واتيح لهذه الجمعيات امكانية الانتشار والانتقال باعضائها من مكان لآخر لنشر مافي تعاليمهم من مبادىء واهداف تتعلق بأمانيهم وأطماعهم عن طريق هذه الجمعيات والمؤسسات التي تسيطر عليها وتوجهها كي ترتبط هذه الجمعيات بالهدف الذي تعبر عنه الخطة الكبرى للحكومة السرية العالمية او الخفية المنبثة في جميع بلدان العالم والتي تقوم بكل عمل ماسوني في خدمة الاطماع اليهودية فالافكار المستقلة التي لاتساير الأفكار الماسونية كانت تتعرض للنقد اللاذع والعداء من قبل الماسونيين(٢) ، ويمكن التصفية الجسدية كما هي عادتهم لمن يقف في طريق مخططاتهم وأهدافهم التلمودية .

---

(١) جواد رفعت اتلخان : أسرار الماسونية ، ص ٤٥.

(٢) جواد رفعت آتلخان : المصدر السابق ، ص ٤٥.

أما نشاط هؤلاء اليهود أو الحركة الصهيونية فقد بدأ أعداؤهـا مع الدولة العثمانية منذ عصر السلطان محمد الأول (٨٠٦-٨٢٥هـ / ١٤٠٣-١٤٢١م) الملقب " جلبي " .

ففي عهده استغلت اليهود ضعف الدولة عقب معركة أنقرة الأولى حين أسر بايزيد الاول وتفككت الدولة لموته في الأسر بصراع ابنائه حول كرسي الحكم فدست اليهود بين صفوف الناس شخصا يدعى (بدر الدين) كان يشغل منصبا كبيرا (القاضي عسكر) للسلطان محمد جلبي في الدولة متسترا بالاسلام والعلم فدعاه الى آراء هدامة من أعمال اليهود المعروفة ، فبات هذا اليهودي يشكل خطرا في كيان الدولة[1]، لنشر هذه العقيدة وجمع حوله حشود من الناس ،مستغلا بذلك اضطرابات الدولة في تلك الفترة فكثر اتباع بدر الدين وأخذوا في نشر مذهبه بالقوة ،يتعرضون للناس بسبب وبغير سبب وأموالهم فقد قتلوا آلافا وعلى رأسهم أمير لواء أزمير اسكندر بك، وقد تنبه له السلطان فقام بالقبض عليه ومحاكمته في الروملي سنة ٨٢٣ هـ / ١٤٢٠م[2].

ونتيجة لذلك أمر السلطان بقتله وخلص الناس من شره وبقتله انتهت دعوته وفتنته التي أثارها بتلك الدعوة [3].

وقد أشرنا من قبل في فصل سابق أن سبب وفاة السلطان محمد الفاتح كان نتيجة للسم الذى دسه له بصورة تدريجية العميل البندقي ،وهو أحد أطبائه الخاصين المسمى ميسترو لاكوبو (Mestro Lacopo) الذى ادعى انه اهتدى للاسلام وتسمى باسم يعقوب باشا ،ولكن الاتراك مزقوا هذا اليهودى في الحال[4].

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٥ ،
يلماز اوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ،جـ ١ ، ص ١١٨.

(٢) يلماز اوزتونا: المصدر السابق ، ص ١١٨.

(٣) على حسون: المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٤) يلماز اوزتونا: المصدر السابق ، ص ١١٨.

ومنذ سنة ٩٦١هـ / ١٥٥٣م والاصابع اليهودية تحاول الدس واثارة الفتن والاضطرابات في الدولة واخراجها عن جادة الطريق القويم عن الاسلام مما جعل ذلك عاملا من عوامل الضعف في الدولة [1] ،كما هي عادة اليهود في ايجاد الفتن والمؤامرات منذ عهد الرسول صلى اللهعليه وسلم في الخفاء دون المواجهة ولكنهم على طول هذه المؤامرات نراهم ينجحون في أهدافهم لابعاد الامة الاسلامية التي تخلت عن عقيدتها وتوادها وترابطها وتلاحمها ، وهذا من أهم أسباب خذلانها أمام دسائس بني صهيون .

ففي القرن السادس عشر الميلادي أهدى تتار القرم للسلطان سليمان الاول (القانوني) فتاة يهودية روسية اسمها " روكسلانا " كانوا قد سبوها في احدى غزواتهم ولشدة جمالها افتتن بها القانوني فاتخذها زوجة له وسماها (خرّم سلطان)[2] وبسبب نفوذها في القصر زوجت ابنتها (مهرماه) من اللقيط الكرواني رستم باشا ثم تمكنت من قتل ابراهيم باشا الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) للدولةونصبت بدلا عنه صهرها رستم باشا.

ولم تكتف بهذا العمل بلدبرت مؤامرة أخرى استطاعت فيها قتل ولي العهد مصطفى بن سليمان القانوني الابنالاكبر من زوجته الاولى،بحجة انه يفكر في الاطاحة بحكم والده [3]، وبهذه الوشايةمهدت الطريق لتولية ابنها سليم الثاني وليا للعهد.

لذلك كانت هناك اشارة لاحد اليهود التى كانت تربطه صداقة قوية بابنها السلطان سليم الثاني هذا اليهودى اسمه جوزيف ناسى قد قام بدوركبير وبارز في سياسة الدولة العثمانية وانحراف السلطان سليم الثاني ،وقد اسهم هذا بدرجةكبيرة في ضعف وتفكك الدولة العثمانية .

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص٤٧.

(٢) خرم: أى الباسمة .

(٣) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ترجمة كمال خوجه (الطبعة الرابعة ، القاهرة ،دار السلام للطباعة والنشر ،١٤٠٥/١٩٨٥م) ص ١٢.

فزين له فتح جزيرة ناكوس (Naxo) وتم استيلاء العثمانيين عليها في سنة ٩٧٥ هـ/١٥٦٧م وزادت خطورة هذا اليهودى لدى السلطان سليم عندما اهداه ناكوس اقطاعا له .

وكان من بين الاسانيد التي ساقها اليهودى للسلطان عن قبرص ان نبيذ قبرص لايضاهيه نبيذ آخر في العالم . وفي نشوة الخمر قال السلطان سليم الثاني لليهودى : " ستكون ملكا على قبرص "(١)

فلما جلس السلطان سليم الثاني على العرش ساق عمارة بحرية لفتحها وبعد حرب شديد استطاع جنود الدولة العثمانية من فتحها .

ونتيجة لذلك اتحدت البندقية مع البابا وملك اسبانيا وأعلنوا الحرب على الدولة وقادوا حلفاطيبيا بقيادة دنجوان الابن غير الشرعي للامبراطور شارل الخامس ملك اسبانيا فاشعل الحرب على الاسطول العثماني ، فاستطاع تدميره في مياه ليبانتو (Lepanto) وقتل قبطان البحرية العثمانية عثمان باشا(٢) ، معنى ذلك فقد جر هذا السلطان خسارة كبيرة لاجل ارضاء صعلوك من اليهود ، يريد اغراق الدولة اقتصاديا ليدخل الدولة في متاهات هي في غنى عنها وبالتالي يجرها الى الهاوية والتدهور والاستسلام لليهود أنفسهم ليغرقوا في مكائدهم .

وقد احتفلت اوربا كلها بهذا النصر لاعتباره أول نصر منذ أوائل القرن العاشر الهجرى ، تحل فيه الهزيمة بالعثمانيين ، وقد ثبت لاوروبا بعد هذه المعركة انه من الممكن هزيمة العثمانيين كما فتحت شهيتهم لمزيد من التسلط (٣) .

---

(١) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ص ٩٢٥-٩٢٦ . حاشية رقم (٢) .
؛ يوسف اصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ص ٨٠ .

(٢) يوسف آصاف : المصدر السابق ج٢ ص ٨٠- ٨٢ .

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٤٧ .

ويشير المؤرخ أحمد عبدالرحيممصطفى ، أن الصدر الأعظم محمد باشا موقوللي كان يستعين في تنفيذ مشروعاته بالأموال التي كان يوفرها البنكيون اليهود في تلك الفترة . وكان يتزعمهم دون جوزيف [1]، وكان أمل هذا اليهودي أن يجعل من قبرص وطنا قوميا لليهود الفارين من الاضطهاد الأوربي [2] ، أو مايسمى بهجرة اليهود من أسبانيا الى الدولة العثمانية ،وخاصة يهود الدونمة [3] ،والدونمة أطلقها الأتراك على اليهود الذين رحلوا من أسبانيا الى تركيا ،بعد طرد العرب واليهود من الأندلس في القرنين التاسع والعاشر الهجريين الموافق للقرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين . ولقد تزيّى هؤلاء بزي الأتراك المسلمين ، وماهم بأتراك ولا مسلمين ، عمدوا الى عمل ذلك ،حتى يسهل عليهم القضاء على الاسلام أولا ثم الدولة العثمانية حامية هذا الاسلام ، واعلان علمانيتها ، ومن ثم مساعدة يهود العالم على المسيرة للاستيطان في فلسطين [4] . ومنذ وصولهم من الوهلة الأولى تظاهروا بالاسلام في الدولة العثمانية والتزموا به ، فأخذوا يؤدون الفرائض في الظاهر، أمافي الباطن فانهم يهود قلباً وقالباً ، يمارسون طقوسهم الدينية سرا ،ويحتفظون بأسمائهم اليهودية - الى جانب أسمائهم التركية الاسلامية [5] . وذلك بايعاز من المجلس الأعلى لليهود ليسهل عليهم التغرير بالأتراك وكسب ثقتهم ، ومن ثم التغلغل الى مراكز السلطة في الدولة العثمانية ، وهذا يساعدهم على المدى البعيد على حماية

---

(١) كان يسمى هذا اليهودى في مطلع حياته دون ميجيه (Donmiguez)
- عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ج ٢ ، ص ٩٢٥ ،حاشية رقم(٢).

(٢) - في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٤٦

(٣) الدونمة كلمةتركية تعنى باللغة العربية "المرتدين ".
- أحمد نوري النعيمي : أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ،ص ٢٣ ، حاشية رقم(٢١).

(٤) داود عبدالعفو سنقرط : القوى الخفية لليهود العالمية الماسونية ، (الطبعة الاولى ،عمان ،دار الفرقان ،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص ١٢٨.

(٥) داود عبدالعفو سنقرط : المرجع السابق ،ص ١٢٨-١٢٩.
،أحمد نوري النعيمي :المرجع السابق ، ص ٢٣.

أبنائهم اليهود وتحقيق الأهداف لهم ومكائدهم العدوانية (١).

وكان على رأس هؤلاء ، مؤسس جماعة الدونمة اليهود في تركيا ساباتاي. ففي خلال محنة القرن الحادى عشر الهجرى الموافق للقرن السابع عشر الميلادى تعرض اليهود في جميع أنحاء " أوربا " وخاصة يهود أسبانيا الذين أصبحوا في وضع سيء للغاية ،قاسوا فيه أنواع العذاب ، هذا الوضع ساعد ساباتاي على اعلان نفسه المسيح المنتظر الذى بعث لخلاص اليهود سنة ١٠٥٨ هـ /١٦٤٨م (٢). حيث راجت في تلك الأيام شائعة مفادها أن المسيح سيظهر ، كي يقود اليهود في صورة المسيح وأنه سيحكم العالم في فلسطين ويجعل القدس عاصمة للدولة اليهودية المزعومة (٣) .

ذهب ساباتاي الى مصر سنة ١٠٧٤ هـ/١٦٦٣م ،فنزل ضيفا على صراف يهودى يدعى رفائيل جوزيف فدعمه بالمال ، ومن مصر رحل ساباتاي الى فلسطين ، ومنها الى أزمير ، وفي أزمير علا شأنه ،ووفدت اليه الوفود اليهودية من كل مكان لشهرته التي طبقت الآفاق ، وقلدته اليهود تاج " ملك الملوك " فقسم العالم الى (٣٨) قسما وعين لكل قسم ملكا ، وأخذ يوقع باسم " الابن الوحيد الاول ليهوه "(٤) ، اعتقادا منه أنه سيحكم العالم كله من فلسطين ،حيث كان يقول : " أنا سليل سليمان بن داود حاكم البشر ، اعتبر القدس قصرا لي " . ثم قام بشطب اسم السلطان محمد الرابع من الخطب التي كانت تلقى في كنائس اليهود ، وجعل

---

(١) أحمد نورى النعيمي : أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، ص ٢٣.

(٢) محمد على قطب : يهود الدونمة (الطبعة الاولى ،بيروت ،دار القلم، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ، ص ١٦-٢٠ .
، داود عبدالعفو سنقرط : القوى الخفية لليهود العالمية الماسونية ص ١٢٩-١٣٠.
، أحمدنورى النعيمي : المرجع السابق ، ص ٢٥

(٣) أحمد نورى النعيمي : المرجع السابق ، ص ٢٤-٢٥.
، محمد علي قطب : المرجع السابق ، ص ١٧.

(٤) محمد على قطب : المرجع السابق ، ص ١٦-٢٠.
، داود عبدالعفو سنقرط : المرجع السابق ، ص ١٣٠.

اسمه محل اسم السلطـــان (١) .

ومما يؤسف له أن السلطة العثمانية لم تعبأ أو تهتم بما يجري وذلك لسببين : الأول : التسامح الديني ،وحرية الاعتقاد والاستقلاليـــة الطائفية اليهودية بأمورها وشئونها والذى كان وبالا ونقمة على الـدولة العثمانية . أما الأمر الثاني : هو انشغال السلطان محمد الرابـع بحرب جزيرة كريت وغيرها (٢).

ولما استفحل أمر ساباتاي ألقى السلطان محمد الرابع القبض عليه ، وخيره بعد محاكمته بين ثلاث : اما اثبات دعواه ، أو الموت ، أو التوبة والاسلام ، ولكنه لم يجد بدا من الاسلام تحت اسم محمد البواب ، فعينـه السلطان في الحال رئيسا لبوابي قصره (٣)، وقيل تسمى باسم محمدعزيــز أفندى ، وطلب ساباتاي من السلطات العثمانية ، أن تسمح له بدعـوة اليهود الى الاسلام ، فأذنت له ،فانطلق بين اليهود يواصل دعوته الـى الايمان به ،ويحثهم في نفس الوقت على ضرورة الاسلام ظاهريا مبطنيـن الساباتية (٤) .

وقد تركت الدولة لساباتاي حرية التجول والدعوة ،فاستغلهـا وضمن لنفسه عدم الشبهة ، وانصرف الى تنظيم وتقنين ورسم معالم مذهبـه الجديد وجمع كل ذلك في وثيقة من ثمانى عشرة بندا ، انكشفت فيما بعـد، وكان أهم تلك المواد وأخطرها المادتان (١٦) و (١٧) وهذا نصهما :

المادة (١٦): يجب أن تطبق عادات الأتراك المسلمين بدقة بصـرف أنظارهم عنكم ، ويجب أن لايشعر أحد من الاتباع تضائقه من صيـام (رمضان) ومن الأضحية ،ويجب ان ينفذ كل شيء يجب تنفيذه أمام الملأ.

---

(١) أحمدنورى النعيمي : أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، ص ٢٥-٢٦.

(٢) محمد على قطب : يهود الدونمة ، ص ٢٩.

(٣) داودعبدالعفو سنقرط : القوى الخفية لليهود والعالمية الماسونية ،ص ١٣٠ ، اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ،ص ١٨٧-١٨٨.

(٤) محمد علي قطب : المرجع السابق ، ص ٣٥. ، أحمد نورى النعيمي : المرجع السابق ، ص ٢٧-٢٨.

المادة (١٧) : ان مناكحتهم - أى المسلمين - ممنوعة قطعا [١].

وهكذا نشأت على يد محمد البواب ، أو عزيز آفندى جماعة من يهود الدونمة ، في الدولة العثمانية ، والدونمة في الأصل العائد اى الى الاسلام، بعد أن كان تائها في اليهودية ، أما في الحقيقة فانهم كانوا يعنون بها المسلم ظاهرا واليهودى باطنا .

وحين تفاقم خطر الدونمة ، فانها صارت تعني القذر أو الخسيس [٢] .
وقد استطاع ساباتاى أن يقدم الشيء الكثير للحركة الصهيونية أثناء تلك الفترة ، ويقول أفرام غالانتي الكاتب اليهودى " أن ساباتاى قد أنقذ اليهود من المصائب والاضطهادات بهذه الطريقة "[٣].

ويبدو ذلك واضحا من توجيهه لليهود الى الدخول في الاسلام ظاهرا حتى يستطيع بناء قاعدة في عاصمة الدولة العثمانية ، باعتبارهم مسلمون ومن خلال اسلامهم يحصلون بلا شك على أهدافهم الاستعمارية .

حين بدأ رجال الدونمة يتغلغلون في جسم الدولة ،كما هي عادة اليهود ، فشنوا هجوما غير مباشر على أجهزتها المختلفة ، لشل حركة الدولة عن العمل ، فبدأوا بارباك الدولة ماديا وايقاعها تحت طائلة الديون فكانوا هم وأخوانهم من يهود العالم الذين يتحكمون بذهبه وسياسته [٤] أصحاب هذه الديون . وحين عجزت الدولة عن السداد أخذوا

---

(١) محمد على قطب : يهود الدونمة ، ص ٤٠-٤١.
(٢) داود عبد العفو سنقرط : القوى الخفية لليهود العالمية الماسونية ، ص ١٣٠-١٣١.
(٣) أحمد نوري النعيمي : أثر الاقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، ص ٢٦.
(٤) هذا الأمر لم تتنبه له الدولة العثمانية التي استقبلت اليهود، كما تنبهت له أسبانيا عندما قامت بطردهم ، في حين خيرت العرب بين الرحيل أو البقاء واعتناق المسيحية ،لكنهم لم يخيروا اليهود لماذا؟ والاجابة على ذلك : أن الأسبان يعرفون ويعلمون علم اليقين بانهم سوف يفضلون البقاء مع التظاهر باعتناق المسيحية لا اعتناق حقيقي ، لان اليهودى لايرضى بغير دينه بديلا ، اضافة الى أن ذلك (=)

يفرضون عليها مايشاؤون تدريجيا حسب خطة مدروسة ففرضوا عليها أول ما فرضوا مستشارين غربيين بحجة حماية ديونهم على الدولة . وكان الغرض الأساسي لذلك هو التجسس عليها وتوجيه دفة الدولة ، حيث يريدون ويرغبون والتحكم في سياستها الداخلية والخارجية .

وهكذا استطاعت هذه المحافل الماسونية بمساعدة يهود العالم والدول الاستعمارية التي تعمل على انقسام الدولة وعلى رأسها انجلترا وفرنسا ان تدس اليهود الدونمة في جميع المراكز الحساسة في جسم الدولة تمهيدا لاحتوائها وقلبها ، لدرجة أن السلطان في أواخر أيام الدولة ، ماكان يستطيع أن يعين ميزانية قصره الا بمشورة هؤلاء المستشارين، فأصبح منهم الوزراء ، والنواب ، وقادة الجيش ، وكبار الموظفين ، والمسئولين لدرجة أن تولى كاميل باشا رئاسة الوزراء ، في آخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني ،كما تولى جاويد بك في عهده عدة وزارات منها وزارة المالية [1].

وهنا يتضح بحق أن الماسونية تضم في محافلها أعضاء كبارا من اليهود الذين ينتمون الى الجمعية السرية . وأن وظيفة هؤلاء هي توحيد المساعي وتنسيقها بين مختلف المحافل وتوجيهها لخدمة اليهود . ويتبين من هذا أيضا أن الماسونية هي آلة لخدمة سرية أعلى منها وهي "اليهودية" [2].

وهذا ما لعبه المحفل الماسوني الذى أسس لهذه الغاية في الدولة بواسطة اليهود ، وهو استخدام رجالات الدولة العثمانية أنفسهم للحصول منهم على المساعدات اللازمة لفتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود من أنحاء

(=) ان معظم الأراضي الاسبانية بما فيها اراضي الكنيسة كانت مرهونة عند هؤلاء المرابين . لهذا تخلصوا منهم عندما قاموا بطردهم .
- داود عبد العفو سنقرط : القوى الخفية لليهود العالمية الماسيونية ،ص ١٢٨.

(١) داود عبد العفو سنقرط : المرجع السابق ،ص ١٢٩-١٣١-١٣٢.

(٢) جواد رفعت آتلخان : أسرار الماسونية ، ص ٧٥.

العالم ، واقامة وطن قومي فيها لليهود ، وقد ظهرت نتائج هذا المحفل في اشعال نار الثورة في تركيا العثمانية سنة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨م ،للموقف الذى أبداه السلطان عبدالحميدالثاني تجاه الحركة الصهيونية ورفضه لاغراءات وعروض هرتزل المالية لقبول اقامة الوطن اليهودى على أرض فلسطين ، وكان هذا الأمر له الأثر الكبير في دفع أو استخدام الصهيونية للماسونية من أجل الاطاحة بالسلطان عبدالحميد الثاني (١).

حين استطاعت الحركة الصهيونية من استخدام المحافل الماسونية في متابعة النشاط السياسي ، لتحقيق المشروع الصهيوني باستيطان فلسطين ، كما يؤكده يوسف الحاج الحائز على رتبة الأستاذية العظمى في الماسونية ومعتقداتها حيث يقول : " ان مبدأ هذه الفرقة وتعاليمها ودرجاتها وغاياتها ترمي كلها الى تقديس ماورد في التوراة واحترام الدين اليهودى والعمل على تجديد المملكة اليهودية في فلسطين باسم الوطن القومي اليهودى "(٢).

وهذا ما أشارت اليه بعض الوثائق البريطانية من تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين بالرغم من موقف الدولة العثمانية الحازم ضد هجرة وتسرب اليهود، الذين كانوا يأملون في الاقامة الدائمة في فلسطين والتضحية بأرواحهم ،وما لديهم أى رغبة في العودة الى أهلهم وذويهم. بالرغم من أن مستعمراتهم أو مستقراتهم فقيرة ، الا أنها مكيفة لهذا الغرض بحكم طبيعتها للتنافس مع السوريين وأهل فلسطين ، الا أنها مدعومة بشعور ديني قوي .

---

(١) ابراهيم فؤاد عباس : الماسونية تحت المجهر ،(الطبعة الأولى، جدة ، دار الرشاد ،١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص ٣٨ - ٣٩.

(٢) حسان على حلاق : دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبدالحميد الثاني عن العرش ، ص ٣٥.

وقد أشارت التقارير عن نشاط اليهود الواضح والملموس من ناحية التقدم الدراسي في الكلية الزراعية[1] في يافا ،ونظرة احتقار للعرب المسلمين واتهامهم بالكسل والخمول في الزراعة والتجارة التي برع فيها اليهود . غير أن اتجاه روسيا وبريطانيا وفرنسا اتضح في اصرارهم على تمهيد الاستيطان اليهودى في فلسطين .

كما تشير الحقائق ، أنه من الممكن تحقيق مخططات لورد بيكم فيلد ، وممكن أن تكون هذه الهجرات عاملا مهما في حل المسألة الشرقية[2].

وهذه الفكرة صدى لما كان يدور أو يخطط له في أروقة الخارجية البريطانية كما أسلفنا من قبل ، للتمهيد لما بعد ،في اعلان وعد بلفور في عام ١٣٣٦هـ الموافق ١٧ نوفمبر ١٩١٧م .

ويوم أن بلغوا في تحكمهم الذروة ،فرضوا على السلطان عبد الحميد الثاني المشروطية الثانية ،١٣٢٦هـ/١٩٠٨م ،ونفيه الى سلانيك سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م[3] لازاحته عن طريقهم بعد تدريب زعماء الثورة في محافلهم ،لتنفيذ مآربهم دون معارضة من الحكومة التي يعتبر حكامها من تلامذتهم كما سنتناوله في الفصل التالي .

...

---

(١) أسستها السيدة كريميه ويتولى أمرها حاليا اليهود الاسرائيليون الذين ينحدرون الى سلالة النبي يعقوب .

F.O.:424/197, Sir. N. O,Coner to the Marguess of Salisbury , No. 91, 24-12-1898.

(٢) Ibid.

(٣) داود عبد العفو سنقرط : القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية ، ص ١٣١-١٣٢.

الفصل الرابع : مظاهر الغزو الفكري في الدولة العثمانية

أ - الاستغراب : (إتجاه الدولة إلى الإصلاح العسكري) .

ب - عصر التنظيمات العثمانية .

جـ - التغريب : مدحت باشا وزملاؤه .

د - المشروطية الأولى والثانية .

أ - الاستغراب : (اتجاه الدولة الى الاصلاح العسكرى) :

أشرنا من قبل الى الخلل الذى لحق بالدولة في المجال الخارجي طوال القرن الثاني عشر الهجرى الموافق للقرن الثامن عشر الميلادى وما رافق ذلك من تكتلات قامت بها بعض الدول الأوربية ضد الدولة العثمانية ، مما أدى الى ظهور اتجاه جديد في الدولة العثمانية يدعو الى اصلاح بعض مؤسسات الدولة ، وخاصة الاصلاح العسكرى ، وهو الاتجاه المعروف بحركة الاصلاح على أساس اقتباس وتطبيق النظم العسكرية الأوربية (١).

وقد بدأ اصلاح الناحية العسكرية منذ أن طغى الانكشاريون على السلطة وأصبحوا خطرا على الدولة ، وكان السلطان عثمان الثاني (١٠٢٨/١٠٣٢هـ)/(١٦١٨/١٦٦٢م) هو أول من فكر في التنكيل بهم عقب امتناعهم عن مواصلة الحرب التي كانت بين الدولة والبولونيين ، حولوا نصر الدولة الى خسائر أصابت معظم قطاعاتها . ففكر السلطان في استبدالهم بجيش منظم ، ولكنهم حين علموا بأنه شرع في حشد جيش في آسيا ويعنى بتدريبه ، انقضوا عليه وخلعوه ثم قتلوه . وفعلوا مثل ذلك في السلطان ابراهيم الأول (١٠٥٠-١٠٥٨هـ/١٦٤٠-١٦٤٨م) حين شعروا أنه يتآمر عليهم ، وألحقوا به السلطان أحمد الثالث (١١١٥هـ - ١١٤٣هـ/ ١٧٠٣-١٧٣٠م) عندما فكر في تنظيم الجيش فخلعوه ونصبوا مكانه السلطان محمود الأول (٢).

وفي عهد السلطان مصطفى الثالث (١١٧١-١١٨٨هـ/١٧٥٧-١٧٧٤م) سار اصلاح الجيش سيرا بطيئا وكذلك في عهد السلطان عبد الحميد الاول (١١٨٨-١٢٠٤هـ/ ١٧٧٤-١٧٨٩م) الا أن هذا الاصلاح دخل في طور التنفيذ الفعلي في عهد السلطان سليم الثالث (١٢٠٤-١٢٢٢هـ/١٧٨٩-١٨٠٧م) (٣) الذى وطد العزم على التجديد

---

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية (مطبعة الرسالة، ١٩٥٧م) ص ٦١-٦٥.

(٢) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني (صدر ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م) الكتاب الثاني ، ص ١٥١-١٥٢.

(٣) ساطع الحصرى ، المرجع السابق ، ص ٦٥.

والاصلاح ساعده على ذلك قيام الثورة الفرنسية .[١]

فيتلك الفترة بلغ الوهن والضعف فيالدولة العثمانية مبلغا شديدا، مع نهاية السلاطين العشرة الأول العظام ، فتوقفتالفتوحات وأخذ التراجع يصبح الصفة الغالبة على الدولة على محاور قاراتها الثلاث ،مع غرق بعض السلاطين في حياة لاهية ، مما صدهم عن القيام بواجباتهم نحو تدبير شئون دولتهم في ميادين الفكر والسياسة ،فاعتدت كل من النمسا وروسيا وغيرهما من الدول الأوربية على ممتلكات الدولة العثمانية [٢]،وضمتها الى أملاكها ولم يقم السلاطين بواجبهم ، ذلك لأنهم غفلوا عن تربص أوربالهم ،ولم يعرفوا أن أوربا تنتظر الفرصة للانقضاض عليهم لتقطيع أوصال دولتهم .

وأخيرا وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام تلكالأطماع من غير أن يستعدوا لها ويتسلحوا بسلاح عدوهم العلمي والصناعي ، عندما فرطوا في الاهتمام بالعلوم النافعة ، فلم يطوروا صناعاتهم وفنونهم الحربية كما كان يحدث في أوربا ، ولم يفكروا أيضا في عمل التنظيماتالادارية المطلوبة . كما أن العلماء كانوا على درجة كبيرة من الضعف ، فأهملوا توجيه الأمة توجيها علميا وفكريا سليما [٣] . في الوقت الذى كانت فيه دولتهم تواجه محنة حكم مملكة واسعة ومترامية الأطراف ، اضافة الى ذلك لم يكن فيهم حماس عصر سلاطينالدولة الاول ،ولاقوتهم ،لمواجهة حضارة أوربا المادية الحاملة معها ثورة صناعية واسعة . ولذلك كان على سلاطين الدولة العمل على اخراج دولتهم من هذه الورطة ، فكيف السبيل الىالتغلب على هذه المشكلة ؟[٤]

---

(١) محمد جميل بيهم : التاريخ العثماني ، ص ١٥٢

(٢) روحي بك الخالدى المقدسي : الانقلاب العثماني ،(مجلة الهلال ، الجزء الثاني، السنة السابعة عشر ، ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) ص ٧٤.

،عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ،ص ٦٥.

(٣) أبو الحسن على الندوى ، الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، ص ٣٥.

، عبدالكريم مشهداني : المرجع السابق ص ٦٥-٦٦.

(٤) أبو الحسن على الندوى: المرجع السابق ،ص ٣٧.

كان الخروج من هذا المأزق الدقيق بنجاح ،يحتاج الى ذكاء مع معرفة صحيحة بالاسلام وحضارته العظيمة لمواجهة حضارة الغرب المادية . وكان لابد للدولة العثمانية أن تعمله ،والعالم الاسلامي كله مستعد لاتباعها والسير في ركابها ،لارتباط هذا العمل بمستقبل العالم الاسلامي ، الفكري والحضاري والسياسي الذي لايقبل أى تأجيل [1].

ومما يؤسف له أن الدولة العثمانية كانت في تلك الفترة منقسمة على نفسها الى طائفتين طائفة تريد الاصلاح والطائفة الأخرى متعصبة لاتعرف ولاتقدر خطورة الموقف ،وضخامته الذى ظهر لدولتهم بتأثير القوة الناهضة في أوربا [2] .

فجاء جانبا التناقض في الحاجة الظاهرة الى الاصلاح بعد الانسحاب الثاني من فينا ، فقام في ذلك الحين المصلحون العثمانيون بالدراسة بصورة مبدئية لنقاط الضعف الداخلى للدولة العثمانية ،وقد تركز ذلك على معرفة مدى ماوصلت اليه مؤسساتها فيجميع المجالات ومن ثم التفتت مقترحاتهم الى الرجوع نحو استعادة الدولة الى حالتها الأولى أى الىعصر الدولة الأول [3] ، لتعود الدولة الى ماكانت عليه من قوة في جميع المجالات ،وهكذا أخذت محاولات الاصلاح تدخل الى مؤسسات الدولة وذلك ببطء شديد . ولكن بعد معاهدة كارلوفتز (سنة ١١١١هـ/١٦٩٩م) وباساروتيز (١١٣١هـ/١٧١٨م) اللاتي عبرتا عن التفوق العسكرى الغربي ، عندئذ حان الوقت لسلاطين الدولة العثمانية للنظر الى مقترحات الاصلاح بجدية . وقد تحقق هذا بدخول ابراهيم باشا الى الوزارة برتبة (صدر أعظم) سنة ١١٣١- ١١٤٣هـ/ ١٧١٨-١٧٣٠م)، الذى كان يفضل الاصلاح ، وفي نفس الوقت تلقى السلطان أحمد الثالث مذكرة توضح الحاجة الى العمل على التقدم العسكرى والاستفادة من تجارب الدول الأوربية

---

(١) أبو احسن على الندوى: الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، ص ٣٧-٣٨.
،عبد الكريم مشهداني :العلمانية وآثارها على الاوضاع الاسلامية في تركيا، ص ٦٥ .

(٢) أبو الحسن على الندوى :المرجع السابق ،ص ٣٨.

(٣) Roderic. H. Davison: Turkey A Short History (England the Eothen Press walkington, Beverly 1981) p. 68.

في هذا المجال . وعلى أثر ذلك فانه من المعقول اتخاذ سنة ١١٣١هـ/١٧١٨م كبداية لنشأة حركة الاستغراب في الدولة العثمانية . ذلك لأن جهود الاصلاح ظهرت بخصائص ثلاث وبدأت منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للقرن الثامن عشر الميلادى . وهذه الخصائص الثلاث هي كالتالي :

الخاصة الأولى : كانت تتعلق بحقيقة واضحة ،هي أن معظم الطموحات نحو حركة الاستغراب ، قد جاء في المصادر والنماذج الفرنسية ، أو صورة مصغرة عن الحضارة الغربية كما كانت أيضا الحليف التقليدى للعثمانيين .

أما الخاصة الثانية : ان معظم جهود الاصلاح ركزت في تحسين التدريب والتنظيم للجيش وفي استخدام الأسلحة العسكرية الحديثة .

والخاصة الثالثة : فقد أصبح واضحا ان الاصلاح بامكانه احداث الصدام بين المؤيدين لهذا الاصلاح والمعارضين له ، الى درجة العنف ،ولذلك يجب تبرير أسباب الاصلاح وخطواته للعامة وغيرهم .(١)

ونتيجة لذلك اهتمت الدولة في عهد السلطان أحمد الثالث بالطباعة وسبقت هذا الحادث العظيم بحوث مستفيضة قام بها العماء حول شرعية الطباعة وأخيرا أفتى شيخ الاسلام عبد الله افندى في سنة ١١٢٩هـ/١٧١٦م باباحة ذلك بشرط جودة الطبع والتصحيح وبناء على ذلك صدر خط شريف بانشاء المطبعة وأوكل أمرها الى ابراهيم متفرقة (Ibrahim Muteferrikg) المجرى الذى اعتنق الاسلام ،وذلك لانشاء أول مطبعة في الدولة العثمانية ، وكان خوف العلماء مبعثه أن يعمد أصحاب الأغراض السيئة الى الكتب الدينية فيحرفونها ويشوهوها ، ولذلك تعهد لهم ابراهيم بعدم طبع كتب التفسير والحديث والفقه أو أى كتاب ديني (٢) .

---

(1) Rederic H. Davison : Turkey A Short History, p.68.

(2) Roderic . H. Davison: Ibid , p. 69-70.

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوى : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٩٣.

وقد أصدر في البداية حوالي سبعة عشر كتابا تدور موضوعاتها حول الدراسات العلمية والعسكرية للمدارس العسكرية الحديثة التى أنشئت في عهد السلطان عبدالحميد الاول كما جاء الى اسطنبول وفود عديدة من الغرب خاصة من الفرنسيين لأسباب رسمية وغير رسمية .

وقد تطور هذا الاتجاه نحو الاصلاح فكان الوزير خليل حامد (١١٩٧-١٢٠٠هـ/١٧٨٢-١٧٨٥م) يميل الى الاصلاحات الغربية ،كما كان له صداقات تربطه بفرنسا ، ولكن المحافظين الذين شعروا بالقلق من تدفق الرجال والأفكار الأوربية من ديار الكفر ،خافوا من سيطرة فرنسا على البحر المتوسط التي كانت من أهم أهداف سياستها الاستعمارية . لهذا قام المحافظون بقتل هذا الوزير ووضعوا على جثته بعد قتله شعار " عدو للشريعة والدولة "(١).

لذلك اقتنع السلطان عبدالحميد الأول أن الدولة اذا لم تصلح جيشها ونظامها العام فان ايامها لن تطول ،وكان يرى ان الاصلاح الحربي يجب أن يكون في مقدمة الاصلاحات لان سنة ١١٨٨هـ/١٧٧٤م تمثل نقطة الضعف الخارجي على الدولة فكانت معاهدة قينارجه ،مقياسا حقيقيا لمدى الضعف الذى وصلت اليه الدولة ،والتي تمت نتيجة للحرب التي قامت بين روسيا والدولة العثمانية في عصر السلطان احمد الثالث . وقد أظهرت تلك الحروب وما أعقبها من توقيع المعاهدة مدى تفوق الأسلحة الغربية . لذلك اتجهت عناية السلطان الى الاصلاح الحربي .

وفي هذه الأثناء نشر أحمد راسم افندى رسالة شرح فيها أسباب ضعف الدولة العثمانية في الحروب التي خاضتها خلال الفترة (١١٨٣ - ١١٨٨هـ/١٧٦٩-١٧٧٤م) وأوضح أن العلاج الناجح هو الاصلاح والتنظيم العاجل للجيش وتطوير أسلحته .

---

(١) Roderic H. Davison : Turkey A Short History, p.70.

لهذا اهتم السلطان عبد الحميد الأول بهذه الاصلاحات ولكنه لم يستطع تنفيذ برنامجه الاصلاحي في هذا الشأن لمعارضة الانكشارية له [١].

وخلال هذه الفترة تولى السلطان سليم الثالث، وكان يتوق الى الاصلاح، وقدهزته أفكار الثورة الفرنسية، فكان عهده بمثابة عهد جديد لاصلاح أجهزة الدولة [٢].

فقد أتاح له عمه السلطان عبد الحميد الاول حرية التفكير خلال ولايته والتي استمرت خمسة عشر سنة، حياة حرة، واتصالات واسعة، اكتسب منها ثقافة وتحصيلا واسعا [٣].

وكان من أقرب المقربين الى السلطان سليم الثالث طبيب ايطالي اسمه لورنزو (Lorenzo) حصل منه ومن غيره من الأوربيين على معلومات عن دول أوربا وعن مؤسساتها المدنية والعسكرية وكذلك أسباب تفوقها على العثمانيين. بل ان سليما أجرى مراسلات عن طريق وسيط مخلص له، اسمه (اسحق بك) مع الملك الفرنسي لويس السادس عشر ووزرائه بهدف تزويده بمعلومات ثقافية وسياسية من قادة ما اعتقده سليم الثالث أنها ارقى دول أوربا.

وظل يراسل لويس السادس عشر الى أن قامت الثورة الفرنسية سنة ١٠٢٤ هـ / ١٧٨٩م. وهو نفس العام الذي تولى فيه السلطان سليم السلطة كل ذلك يلقي الضوء على رغبة السلطان سليم الثالث في الاصلاح، هذه الرغبة التي أفقدته فيما بعد عرشه ثم حياته في النهاية [٤].

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي: حركة الاصلاح العثماني، ص ٩٨.
(٢) اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار، ج٢ ص ٦٤٤.
، عبد الكريم مشهداني: العلمانية وآثارها على الاوضاع الاسلامية في تركيا ص ٦٥.
يلماز اوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج١ ص ٦٤٣.
(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، ص ١٧٣-١٧٤.
(٤) ، محمد عبد اللطيف البحراوي: المرجع السابق، ص ٩٩.

وقيل ان والده السلطان مصطفى الثالث ،ترك له مذكرات مكتوبة شرح فيها أوجه الخلل في الدولة ووسائل الاصلاح ،لذلك جاء سليم الثالث للسلطنة متحفزا للاصلاح (١) .

وعلى مايظهر أن السلطان سليم الثالث قام بكل ذلك لأنه كان يأمل من لويس السادس عشر الحصول على بعض المساعدات الفرنسية لمواجهة روسيا (٢) . وقد أخطأ سليم في اتجاهه الى فرنسا التي كانت تموج بكل النظريات ،في حين أن لويس السادس عشر ورجاله كانوا يخططون لايقاع الدولة العثمانية في شباكهم ، فكان عليه أن يدرك أن مايفيد الغرب المسيحي لايمكن أن يطبق بأي شكل من الأشكال على العثمانيين (٣).

وفي السنوات التي تلت جلوس سليم الثالث على العرش ، افتتح سفارات دائمة في العواصم الغربية وهي لندن وفيينا وبرلين وباريس (٤)، ومن خلال تلك الاتصالات أخذت حضارة الغرب المادية تتسرب بشكل أو بآخر الى مؤسسات الدولة العثمانية، ولكن بشكل بطيء وخاصة حينما تم تأسيس المطبعة ، التي اقتصرت على طباعة الكتب غير الدينية (٥) .

ولم يقتصر السلطان سليم الثالث في تحرياته عن أسباب التقدم الأوربي على المصادر الفرنسية فقط ، بل أرسل ابابكر راتب أفندى الى فيينا ليدرس الحالة هناك عن كثب ، في أوربا ،ولما عاد في نفس السنة كتب تقريرا

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ،ص ٩٩ .

(٢) Roderic H. Davison : Turkey A Short History, p. 70.

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٧٤

(٤) ،عبد الكريم مشهداني :العلمانية وآثارها على الاوضاع الاسلامية في تركيا ص ٦٦ .
، أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق ،ص ١٧٧

(٥) عبد العزيز نوار: الشعوب الاسلامية ، ص ١٧٥
Roderic H. Davison: Op.cit., p.70.
، عبد الكريم مشهداني : المرجع السابق ، ص ٦٦.

مفصلاعما شاهده عن الحكومة والفكر السياسي المعاصر ،مع اقتباس لبعض أقوال الفلاسفة والسياسيين ، فأوضح في تقريره ضرورة الاهتمام بالجيش وتدريبه وكذلك الاهتمام بموارد الدولة وتنظيمها على أسس حديثة .

وكان امام السلطان سليم الثالث مثل واضح فيما فعله بطرس الاكبر في روسيا بواسطة القوة التي دربها له خبراء غربيون على النسق الأوربي اذ استطاع بها التغلب في حروبه وصد الخطر الداخلي والخارجي على السواء[(1)] . ولم يعلم سليم الثالث أن ذلك القياس خطأ من أساسه ذلك لانّ الدولة العثمانية دولة اسلامية لها نظمها وحضارتها الاسلامية ولايمكن قياسها بروسيا ولكنه أصر على الاخذ بارائه دون دراسة الوضع دراسة تتمشى مع مكانة الدولة الدينية والسياسية وأخذ في ادخال بعض التحسينات المهمة التي طورت بها اوربا جيشها وكان هذا العمل من أشد الأعمال خطرا على الدولة[(2)] .

كان السلطان سليم الثالث حليماعاقلا وحكيما محبا للاصلاح . وقد رأى بنفسه مابلغ اختلال أحوال الدولة بسبب استبداد الانكشارية في أمور الدولة ،حتى صاروا يعزلون ويولون كما كان يفعل الجند التركي في الدولة العباسية فعزم على التخلص منهم واستبدالهم بجند منظم[(3)]. غذاؤه جيد ، لباسه جيد ،راتبه أيضا جيد ،يفرغ حتى لايكون له عملا الا الدفاع عن دينه ووطنه . لايتدخل في شئون الدولة والسياسة ولاينهب الشعب ،مطيعا لقادته وقيادته طاعة عمياء ،ملما الماما جيدا بالعلوم العسكرية الجديدة ليعود بأمجاد الدولة الى ماكانت عليه في عصرها الأول[(4)] .

---

(١) محمدعبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص١٠٠.
(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ص ٦٤٤.
(٣) هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني ،مجلة الهلال ،ج ٨ ، س ١٧ ، ١٣٢٦ هـ /١٩٠٩م ، ص ٤٦٨ .
(٤) يلماز اوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ،ج ١ ص ٦٤٦-٦٤٨ .

لذلك طلب السلطان سليم الثالث في سنة ١٢٠٦هـ/١٧٩١م من تسعة عشر تركيا واجنبيين أن يقدم كل منهم تقريرا عن أسباب فقدان الدولة العلية قدرتها السابقة. واقترح الاصلاحات التي يلزم اجراؤها حاليا لاستعادتها تلك القدرة (١) .

والغريب أن التقارير تركزت كلها حول نقطة واحدة هي أن الاصلاح يجب أن يبدأ في الجيش أولا ، وكان اتفاقا مدهشا بالنسبة الى التشكيلات الانكشارية ، ولذلك لم يتردد السلطان سليم الثالث ابدا ان يبدأ في اصلاح الجيش أولا ، وهو يعرف ان هناك من فقد راسه من اجداده ومن الوزراء دون أن يتمكنوا من اصلاح الانكشارية ولذلك أصدر مرسوما بذلك في سنة ١٢٠٨ هـ/١٧٩٣م ينص على قيام نظام حركة التجديد والنظام الجديد لتكوين الجيش (٢).

وقد انتهزت الدول الأوربية وعلى رأسها فرنسا هذه الفرصة لاستغلال اتجاهات السلطان سليم الثالث نحو التجديد فأظهرت له المودة و ساعدته بادخال المخترعات العسكرية الحديثة في جيشه ، فأرسلت له السفير المسيو أوبير دوبايت (Aubert du Bayts) ،ومعه عدد من المهندسين الفرنسيين يرافقهم عدد من الضباط والمعلمين للتدريب على كل الأسلحة ،وصناعة المدافع وقد جلبلوا معهم بعض المدافع الجاهزة المركبة على عجلات هدية للسلطان ، ولتكون نموذجا لصناعة المدافع في الدولة العثمانية .

كما قامت البعثة الفرنسية بتوجيهه وتكوين فيلق من المدفعية (الطوبجية)مكون من ثمانمائة (٣)، كما نظمت فرقة من الخيالة تسير على النظم العسكرية الاوربية الحديثة وقامت بتعليمها على الطراز الاوربي الحديث

---

(١) Roder. H. Davison : Turkey A short History, p.70
، يلماز اوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١، ص ٦٤٣.

(٢) يلماز أوزتونا: المصدر السابق ص ٦٤٦-٦٤٧.

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج١ ،ص ٦٤٥.
،ابراهيم حليم بك : التحفة الحليمية فيتاريخ الدولة العلية ،ص ١٧٩
،محمدعبداللطيف البحراوى : حركة الاصلاح العثماني ،ص ١٠١

وفي الوقت نفسه أوجدت هذه البعثة تشكيلات من المشاة (البيادة) فكانت هذه الفيالق أو الفرق نواة الجيش الجديد ، الذى أسند السلطان قيادته الى مصطفى باشا (١) .

وعلى هذا المنوال سار السلطان سليم الثالث واخذ في ادخال اصلاحاته الجديدة في كافة فروع الجيش وادارة الدولة ،ولكن الصدر الاعظم حافظ اسماعيل باشا ،كان يظهر للسلطان انه ممن يميلون الى هذا الاصلاح أو التنظيمات الجديدة قلبا وقالبا ،لكنه في قرارة نفسه كان يكره هذه التنظيمات ،فاكتسبت بذلك الطائفة المعارضة قوة لمساندة الصدر الأعظم لهم .

اتضح هذا الموقف عندما أراد السلطان بث التنظيمات العسكرية الجديدة بجهة الروملي ، فأرسل لهذه المهمة والى قونية عبدالرحمن باشا حيث أمره السلطان في الظاهر بتنكيل أشقياء الصرب وفي الباطن القيام باجراء الاصلاحات ،كما رسمت له سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م .

ولما بلغ ذلك أعيان الروملي اجتمعوا وتحالفوا خفية في ادرنة واتفقوا على منعه بالقوة فشاع الخبر ، لذلك أشار رجال الدولة على السلطان لزوم عودة عبدالرحمن باشا الولايته ، فتفرق اعضاء ذلك التحالف وعادوا الى بلدانهم فاشتهرت هذه الواقعة في التاريخ العثماني بوقعة أدرنة الثانية (٢).

وفي تلك الفترة حدثت في داخل الدولة بعض الاضطرابات بسبب مشروع السلطان تعميم أو تنظيم الجيوش على النظام الجديد ، قام بها الجيش الانكشاري الذى لم ينظر لهذه الاصلاحات العسكرية بعين الارتياح (٣) لرفضهم استعمال

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ص ٦٤٥.
، احمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ١٧٨.

(٢) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ج ص ٦٤٥-٦٤٦.

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٨١.

الأسلحة الجديدة والقيام بالتدريب الجديد[١] .

وفي هذه الأثناء هلك الجنرال دوبايت الفرنسي الذي حضر لتدريب الجيش على النظام الجديد ،فعاد عدد كثير من ضباطه الى فرنسا وبموته تشتتت هذه القوة [٢].

كان السلطان مقابل ذلك كثير التنازل ، كان يتحاشى سفك الدماء ظنا منه اذا تسامح وقدم بعض التنازلات فان المعارضين سيلينون ،لكن ذلك زادهم تشجيعا في المعارضة .

ورغم محاولاته لم يتمكن من تصفية تشكيلات الانكشارية ،أما الانكشارية فانها كانت تعلم علم اليقين أنها تعيش أيامها الأخيرة ، سواء كان الانكشاريون من الجنود المخلصين الذين يؤمنون بأن ابتعادهم عن تقاليدهم وتركهم في تشكيلات تقلل من شرفهم ،أو الذين يخشون من فقدانهم الكثير من دخلهم سيقتصر على الراتب فقط ،في حالة دخولهم النظام الجديد ،لذلك لم يكونوا راغبين في الانفصال عن تشكيلات الانكشارية وتسجيل انفسهم في حركة النظام الجديد.

والحقيقة أن هناك عدد من قواد الانكشارية المثقفين الذين يوقنون عدم امكان القتال مع الدول الاوربية بهذه التشكيلات ،ولم يكن هؤلاء يخشون فقدان مناصبهم لكونهم من ذوى الرتب العالية لانهم بطبيعة الحال سوف ينقلون الى مناصب اخرى ،لكن عدم وجود الشجاعة الكافية لدى السلطان لالغاء هذه التشكيلات زاد من شجاعة المعارضين [٣] ،مما جعل السلطان سليم الثالث يسعى الى انشاء قوة مشاة جديدة مع الاهتمام بكبح جماح

---

(١) أحمدعبدالرحيم مصطفى: في اصول التاريخ العثماني ،ص ١٧٩.
(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٨١.
، احمدعبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ،ص ١٧٩
(٣) يلماز اوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ٦٥٧-٦٥٨.

الانكشارية ، الذين كانوا عقبة في طريق الاصلاح العسكري[1]. وقد أطلق على هذه الفرقة اسم "النظام الجديد". ولتمويل هذه الفرقة أنشئت له خزانة خاصة للصرف منها على هذا النظام الجديد ، فاستقدم له الخبراء من فرنسا وانجلترا وروسيا[2] وذلك بصورة خفية عن الخاصة والعامة[3].

كان العلماء في البداية مترددين تجاه حركة النظام الجديد ،وكان من بينهم من يؤيد الحركة ،وعند تعيين اسحق زاده محمد عبدالله افندى في المشيخة في سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م بدأ العلماء في المعارضة عندماحرضهم على العصيان بكل قوة ضد النظام الجديد ،وضد مؤسس هذا النظام السلطان سليم الثالث[4].

كان العلماء المتعصبون ،يدعون أن جيش النظام الجديد كافر ، لأنه يرتدى البنطلون (السروال) بدلا من الشالوار (لباس يغطي النصف الاسفل من الجسم عريض وواسع) وأن السلطان سيلبسهم القبعات فكانوا يثيرون عامة الناس بمثل هذه الأقوال[5] حتى حرموا باستعمال النبادق ذات الحراب لأن استعمال اسلحة الكفار عندهم اثم عظيم ، وأساؤوا الى سمعة السلطان وبثوا كراهيته في نفوس الجمهور ،بقولهم انه بهذا العمل يسيء الى الاسلام

---

(١) فقد تمردوا في عهد السلطان عثمان الثاني سنة ١٦٢٢م ، ومصطفى الثالث سنة ١٦٢٣م وابراهيم سنة ١٦٤٨م واحمد الاول سنة ١٧٣٠م ومالبثوا ان تمردوا عليه اى السلطان سليم الثالث سنة ١٨٠٧م ومن بعده مصطفى الرابع سنة ١٨٠٨م .
وكل هؤلاء السلاطين ، اما خلعوا أوقتلوا على أيدى الانكشارية.
- احمدعبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ١٧٩.

(٢) احمد عبدالرحيم مصطفى: المرجع السابق ،ص ١٧٩.

(٣) محمدعبداللطيف البحراوى : حركة الاصلاح العثماني ، ص ١٠٢

(٤) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ،ج ١ ،ص ٦٥٧.

(٥) يلماز اوزتونا : المرجع السابق ،ج ١ ص ٦٥٨
، أبو الاعلى المودودى : نحن والحضارة الغربية ، (بيروت مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ) ص ١١١.

بترويجه أساليب الكفار [١].

ولم تؤثر تلك المعارضة في تصميم السلطان سليم الثالث على التجديد بل سار في تعميم هذا النظام الجديد في الولايات العثمانية ، غير أن الانكشاريين مالبثوا أن وقفوا في وجهه وأرغموه الى الغاء "النظام الجديد" الذى وصفوه بأنه بدعة مخالفة للشرع ، وأعدموا جميع مؤيديه من رجال الدولة [٢]، وكان شيخ الاسلام عطا الله أفندى وكان الصدر الأعظم يحرضون الثوار سرا [٣] .

ولم يكتف الانكشارية بذلك ، بل استصدروا فتوى من شيخ الاسلام بأن السلطان الذى "يعمل بخلاف القرآن " لايجدر بالبقاء على العرش حتى لايتركوا له فرصة احياء النظام الجديد ، وعزلوه بالفعل في سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م [٤] .

وفي الواقع ان التغير كان في البداية في مجال التجهيزات للجيش وتنظيمه وتدريبه ، ولم يكن هناك اى تفكير او تدخل في الامور الاساسية مثل التعليم او الصناعة او الزراعة ، بل ان حركة الاستغراب الحقيقية في عهد السلطان تركزت في المجال العسكرى فقط ، لاعادة تنظيم فيالق الجيش المختلفة ، وتزويد بعضها بأسلحة جديدة ، وقد اهتم السلطان كثيرا بالمدارس الفنية العسكرية ، وعمليات الترجمة [٥] لبناء الوحدات

---

(١) أبو الاعلى المودودى : نحن والحضارة الغربية ، ص ١١١ .
، عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الاوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٦٧.

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، جا ص ٦٥٧-٦٥٨
، علاء موسى كاظم نورس: مسئولية الانكشارية فيتدهور الدولة العثمانية (المجلة التاريخية المغربية العدد ٢٥ ، ٢٦ ، ١٩٨٢م)، ص ١١٠

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٥٨.

(٤) ابو الاعلى المودودى : المصدر السابق ، ص ١١١
، علاء موسى كاظم نورس : المرجع للسابق ص ١١١.

(٥) Roderic H. Davison: Turkey A Short History, p.70-71.

العسكرية ، المشاة والمدفعية ، ومهندسين لبناء السفن ، وصناعة المدافع لمواجهة تسلط الانكشارية على مؤسسات الدولة وفشلهم في خوض الحروب أمام القوى الاوربية . ومهما يكن فقد اعتلى العرش مكانه ابن عمه مصطفى الرابع بعد أن نصبه الانكشارية ، وعلى الرغم من انه وصل الى العرش مستندا الى فكرة مخالفة النظام الجديد الا انه قتل المتسببين في الثورة التى قامت ضد السلطان سليم الثالث ونظامه .

هذه الثورة عندما قامت بقتل قسم من مؤيدى النظام الجديد ،تمكن الآخر من الفرار و لجئوا الى مصطفى باشا الملقب بعلمدار ، أحد مؤيدى السلطان سليم الثالث للنظام الجديد في روسجك " أصحاب روسجك " وبتشجيع من رجال الدولة ،وكان أكثرهم من الشباب المتحمسين الى النظام الجديد، قرر علمدار اعادة سليم الثالث لعرش الدولة مرة ثانية مهما كان. ولكن السلطان مصطفى لما علم بالأمر ذهب الى سراى داود باشا خارج اسطنبول واستقبل هناك علمدار فعرض " أصحاب روسجك " على علمدار اعتقال السلطان مصطفى الرابع فرفض علمدار ذلك واضاع من يديه الفرصة .

فقام السلطان مصطفى الرابع بناء على رغبة علمدار بعزل شيخ الاسلام ونفي العلماء الذين تدخلوا في هذا الانقلاب ، تهدأة للنفوس فشكر السلطان علمدار على خدماته وأمر بعودته الى سواحل الطونة وعدم تركها (١) .

تلكأ علمدار مدة اسبوع دون قصد يفكر فيما سيفعله وفي النهاية اقتحم علمدار الباب العالي واخذ الختم الهمايوني من الصدر الاعظم وصار علمدار مصطفى باشا صدرا أعظم للبلاد ، وان لم يكن بصورة شرعية .

علم السلطان مصطفى الرابع بحادث اقتحام الباب العالي وعرف مايقصده فاتخذ التدابير حيال ذلك لكن علمدار لم يسرع في اعتقاله للمرة الثانية

---

(١) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية جا ص ٦٥٩، ٦٦٢ ، ٦٦٣.

ولكنه أرسل اليه شيخ الاسلام يعرض عليه التنازل في الحال عن العرش ولكن السلطان مصطفى الرابع امر بقتل السلطان سليم الثالث و السلطان محمود الثاني ولي العهد حتى يبقي هو الوحيد من بني عثمان ، فنجح في قتل السلطان سليم ، ونجى السلطان محمود الثاني باعجوبة بعد تهريبه الى فناء المنزل الذى دخله علمدار ،ولكي يقضي السلطان مصطفى الرابع على آمال علمدار أمر يقذف جثة سليم الثالث الى الفناء فلما راى علمدار هذا المنظر انكب على جسد السلطان سليم باكيا ، في هذه اللحظة جاء محمود الثاني فبايعه علمدار في الحال وقاموا بخلع السلطان مصطفى الرابع واجلسوا محمودا على كرسي العرش (١).

هذه الأحداث تعكس ضعف الدولة وانهيارها بجلاء من الداخل مما مهد الطريق لعوامل الغزو الفكرى أن تتسرب داخل الدولة العثمانية .

كانت الاحتياجات العسكرية قد فتحت أمام الاتراك بعض مجالات الاقتباس ليس فقط في العلوم العسكرية الجديدة فقط ولكن كذلك في العلوم الطبية وفي تعليم اللغات الاوربية وخاصة الفرنسية (٢)

لم يدرك السلطان سليم الثالث أن الاصلاحات الاوربية انها وليدة ثورات اجتماعية واقتصادية وسياسية استمرت منذ عصور النهضة الاوربية وان الحياة العثمانية بأسرها كانت تتطلب الاصلاح العسكرى وتستلزم اصلاحات في النواحي الاقتصادية ولكن ليس على الاسلوب الاوربي . وكان هدفه من ذلك هو مواجهة متطلبات الحياة العسكرية ،واعادة تنظيم الادارة العامة واضفاء الكفاءة عليها والاهم من ذلك كله أن الدولة لم تكن لديها ميزانية عامة ،مما أوجد فوضى اقتصادية حول استقلال موظفي الحكومة الانفاق كما يحلو لهم دون رقابة او اشراف ادارى ومالي .

---

(١) يلماز اوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ،جا ص ٦٦٣ .
(٢) عبد العزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٧٥.

ولم يواجه سليم هذه المشكلة بوضع ميزانية للدولة، بل حاول اعادة الكفاءة للنظام القديم بالقضاء على الرشوة ومحاباة الاقارب لاجراء الترقيات حسب الكفاءة (1).

وهكذا تسلم السلطان محمود الثاني السلطنة بعد ثورة دموية أدرك بعدها السلطان أنه لن يتمكن من اصلاح الجيش الا بالتخلص من الانكشارية ،ولكنه تريث وراح يخطط لهذه المهمة الصعبة وخصوصا وان الانكشارية يستمدون نفوذهم من البكتاشية ،وهم من اكبر فرق الطرق الصوفية التي باركت تأسيس الانكشارية في البلاد. فحاول السلطان محمود الثاني اقناع هؤلاء الانكشارية بقبول التعليم العسكرى على النظام الاوربي ولكن دون جدوى ، بل كانوا ينكرون فائدته قائلين: " ان ولي الله الحاج بكتاشي ،كان قد بارك جماعة الانكشارية عند تأسيسها ودعالها بالنصر الدائم وكانوا يزعمون أن بركة ذلك الولي ودعاءه يغنيها عن كل تعليم "(٢).

وقد استفاد محمود الثاني الذى كان يكن للسلطان سليم الثالث حبا عميقا ،من كافة أخطائه ،وكان يلتقي به لمدة اربعة شهور الاولى من تولي السلطان مصطفى الرابع السلطنة ، وكان السلطان محمود الثاني يملك الصفات التي تؤهله لتقييم هذه الاخطاء بعد أن قام سليم الثالث بسردها عليه وأوصاه بعدم الوقوع في الأخطاء التي وقع هو بها.

لذلك استدعى السلطان محمود الثاني عند توليه العرش الاعيان من الاناضول والروملي الى اسطنبول ،وأفهموا ان الدولة في حالة حرب دائمة مع روسيا ، فحرروا ميثاق الاتفاق المسمى " سند اتفاق " وبموجبه

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ١٨٠-١٨١.

(٢) علاء موسى كاظم نورس : مدى مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية المجلة التاريخية المغربية ، العدد ٢٦/٢٦- س ٥ ، ١٩٨٢م ،ص ١١١.

وقعوا على أنهم سيمتثلون لأوامر الدولة ،وكان توقيع هذا الاتفاق سنة ١٢٢٣ هـ /١٨٠٨م .

ولحاجة الدولة الى جيش محارب تم احياء النظام الجديد الذى ألغته ثورة الانكشارية على السلطان سليم الثالث ، باسم " سكبان جديد".

وبتاريخ ١٤/١٠/١٨٠٨ هـ استدعى عبدالرحمن باشا من قونية الى اسطنبول ليترأس هذا الجيش (١) كنوع من النظام الجديد احتراسا من تجدد الفتن من الانكشارية (٢).

وكان السلطان محمود الثاني قد علم بما أتته الجنود المصرية المنظمة من انتصارات باهرة في حرب المورة ، فتاقت نفسه الى هذا التنظيم ، وزاد تعلقا بهذا الاصلاح وصمم على استكماله (٣).

معنى ذلك أن حرب المورة قد أظهرت محاسن التنظيم العسكر الجديد عند الخاصة والعامة ،وأن المعارضة في الاصلاح الحربي لم تعد امرا مقبولا من المعارضين ،واصبح الرأى بتنظيم الجيش الجديد شيئا طبيعيا وفشلت على اثر ذلك مخططات اغاحسين باشا رئيس الانكشارية آنذاك وبقية زعمائهم ومنذ أن جرت تلك الحرب وكثيرا من العلماء ،ورجال الدولة يجرون المشاورات ويكتبون المذكرات لاجراء ترتيب جديد ، ولما سئل حسين باشا عن رأيه في صورة مناسبة لتنفيذ الاصلاح الحتمي ، وهو حاكم قلاع البسفور برتبة وزير وكان من قبل أغا للانكشارية ،فهو عليم بأصولهم وعناصرهم قال:" ان حال الانكشارية معلوم وعلى كل حال يمكن ان نلزم الكبار ونسكت الصغار منهم ، اما مابين هذين الصنفين فهم لايقبلون حقا، وربما يثيرون عصيانا

---

(١) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ، جا ، ص ٦٦٤-٦٦٥.
(٢) محمدعبداللطيف البحراوى :حركة الاصلاح العثماني ،ص ١٧١.
(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ٤٢٩.

ولكن تأثيرهم لايتعدى قشلاقات [1]، استنبول وهؤلاء يجب اعدامهم فورا".
ولكن اعدام عدد كبير منهم لمجرد احتمال عدم موافقتهم امر مناف للعدل
ولذلك استقر الرأى على التفاهم معهم اولا بالحسنى ، فاذا لم يقبلوا نفذ
هذا الرأى . ثم أمر السلطان ان كل مايتعهدون به او يقولونه يكون
مكتوبا دون لبس أو ابهام [2]، فيما بعد عليهم .

كان السلطان سليم الثالث ،قد لقن السلطان محمود الثاني بشكل
جيد ان مستقبل الدولة متعلق بتأسيس جيش جديد ،فقام السلطان الذى
لم يغفل لحظة واحدة عن اخطاء السلطان سليم الثالث فادخل بين جنرالات
الانكشارية جنرالات من مؤيديه يؤمنون بفكرة الاصلاح ،لذلك سعى
السلطان محمود الثاني ولمدة سبعة عشر عاما الى التحزم بالصبر
والاحتياط . لالغاء تشكيلات الانكشارية الذين لم يتمكنوا من الوقوف تجاه
عصيان اليونان ،فكيف حالهم فيحرب روسيا التي يحتمل أن تعلن في أى لحظة،
لم يكن هذا الأمر يقلق السلطان وحده ، بل أخذ يقلق جميع رجال الدولة .
وفي سبيل تحقيق آماله فانه لجأ الى دس انصاره بينهم حتى لايثيرهم
لانهم أكثر منه حذرا ، وقلقا ، وفي النهاية تم الامر بصورة رسمية اعلان تأسيس
تشكيل جديد في الجيش باسم " تشكيلات اشكينجي " وذلك في سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٦م .
فجند فورا سبعة الاف وستمائة وخمسين شخصا وشرع بتدريبهم على الطراز
الاوربي ، وقد أتم هؤلاء الافراد الذين تم تشكيلهم من بين الانكشارية
المتطوعين اختيارا دقيقا [3] لتعليم فنون الحرب وكانهم قد حولوا فعلا

---

(١) قيشلان : اصبحت قشلة واصلها قيشلق ،ومعناها المأوى الخاص بالشتاء
ثم أصبحت تطلق على قلاع الجنود او مراكزهم السكنية عامة .
ـ محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٣٨٢ حاشية رقم(١)
(٢) محمدعبداللطيف البحراوى : حركة الاصلاح العثماني ،ص ١٧٤.
(٣) يلماز اوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ،جا ،ص ٦٧٦.

للنظام الجديد [١]. اضافة الى تزويدهم بعدد من شباب المسلمين المقيدين في ديوان الجند [٢] . فاصدر شيخ الاسلام فتواه المشهورة حول تأسيس هذه التشكيلات الجديدة ، فألبس الجند الجدد اللباس على الطراز الأوربي [٣]، ووافق جلال الدين اغا على اعداد هذا الجيش ، وتدريبه على احدث النظم [٤] ، فجلال اغا وجنرالات الانكشارية الاخرون من رجال السلطان ،لهذا وضع السلطان كافة التدابير حيال عصيان الانكشارية [٥].

وحينما شرع السلطان محمود الثاني سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٦م بتعليم جنوده على القواعد الاوربية الحديثة قيل عنه انه أخذ من ذلك اليوم يفكر في تدمير الانكشارية وابادتهم ، وقد اصدر منشورات سلطانية تتضمن القدح في اعمالهم، عدد فيها ما ارتكبوه من الفظائع والغلطات التي ارتكبوها ضد سلاطينهم ظلما واستبدادا [٦] .

ومهمايكن من أمر فان الانكشارية لم يستطيعوا الصبر خاصة عندما شاهدوا السلطان يقوم بتطبيق النظام الجديد على وحدات الجيش المختلفة مما حد من سطوتهم ونفوذهم فنسوا عهودهم وأخذوا يتحدثون سرا وينقمون على ذلك النظام ، فحاول الصدر الأعظم قمعهم سرا وجهرا فلم يزدادوا الا عنادا [٧] .

---

(١) محمدعبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ١٧٥.
(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ،ص ٦٦١.
(٣) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ،ج ١ ، ص ٦٧٦.
، اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ،ص ٦٦١ .
(٤) محمدعبداللطيف البحراوي : المرجع السابق ،ص ١٧٥.
(٥) يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ص ٦٧٧.
(٦) اسماعيل سرهنك: المصدر السابق، ج ١ ،ص ٦٧٨.
(٧) هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني ،(مجلة العلال ،ج ٨ ، س ١٧ ، ١٣٢٦هـ/١٩٠٩م ، ص٤٦٩.)

هؤلاء الانكشارية الذين صبروا على جنود النظام الجديد " سكبان" أربعة عشر سنة ، عصوا هذه المرة بعد البدء بتدريب تشكيلات " اشكينجي " ثلاث أيام فقط ، وقد نجا جلال الدين آغا من الموت بصعوبة لتمكنه من الفرار[1] . فتمردوا وهاجوا وماجوا ، وهجموا على منزل الصدر الأعظم وبعض الوزراء ،فلم يظفروا باحد منهم، فخرجوا الى شوارع المدينة ينادون بجواز قتل العلماء ورجال الدولة وكل من له يد في وضع النظام الجديد، وأخذوا يقتلون كل من صادفوه ، وينهبون ويحرقون ،وقد تمكن الصدر الاعظم من الوصول الى السلطان محمود الثاني وأخبره بما حدث ، فأمر السلطان العسكر الجديد بصد الانكشارية ، ودعوة الناس للاجتماع أمام السراى فاجتمع خلق كثير من علماء وقواد وضباط وأعيان [2]. فوقف الصدر الاعظم ومن حوله من العلماء ورجال الدولة ،ينتظرون وصول السلطان من سراى بشكطاش ، فلما حضر ، خطب في الجماهير الحاضرة فاستنهض هممهم ، فأقسموا على الثبات حتى يفوزوا بابادة الانكشارية أو يقتلوا فداء عن سلطانهم . فطلبوا منه أن يرفع لهم الراية ، فرفعها ومشى، ومشى الناس خلفه، وتوافدوا من أنحاء المدينة للدفاع عن السلطان والدولة . ففرق السلطان عليهم الاسلحة ثم سلم العلم الى المفتى قاضي زاده طاهر ،وجلس هو في قصر (كشك) فوق باب السراى للاشراف على ساحة القتال[3].

وقبل بدأ المعركة اجتمع الصدر الاعظم والمفتى والعلماء في جامع السلطان احمد ،وتلوا بعض سور القرآن الكريم ،ثم نهضوا لحرب الانكشارية وسار معهم العسكر ، وأهل المدينة فأدركوا الانكشارية وقد تجمهروا

---

(١) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ،ج ١ ص ٦٧٧ .

(٢) هيئة التحرير: تاريخ الجند العثماني، مجلة الهلال ،ج٨ ،س ١٧ ، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٩م ، ص ٤٦٩.
Roderic H. Davison: Turkey A Short History, p. 74.
،محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٣٠ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٣٠.
، هيئة التحرير : المصدر السابق ج ٨ س ١٧ ، ١٣٢٦هـ/١٩٠٩م ،ص ٤٦٩.

في ساحة آت ميدان " ميدان الحصان " وقد قلبوا قدورهم معلنين بذلك العصيان والتمرد ،فحاولوا ردهم بالحسنى، فأبوا مصممين على الانقلاب عندئذ اطلقوا عليهم الرصاص من كل صوب ، والتحم الفريقان وكانت مذبحة هائلة دارت الدائرة فيها على جنود الانكشاريين ،ومن لم يقتل منهم قيد اسيرا ،فنجت البلاد منهم وهدأت الاحوال ،وأخذ السلطان في تنظيم الجند الجديد(١).

لهذا استطاع السلطان محمود الثاني أن يقضي على الانكشارية القضاء التام عندما استحصل على فتوى شرعية تجيز له حل هذه الطائفة (٢) مماهيأ له جوا مناسبا للاصلاح وحقق نجاحا باهرا في استمالة العلماء الىجانبه، بعد أن كان هؤلاء العلماء سندا للانكشارية ، كذلك اوجد انقساما آخر بين الانكشارية أنفسهم مهد له الطريق للتخلص منهم(٣)..

وأحدث الغاء تشكيلات الانكشارية صدى كبيرا في جميع أنحاء العالم وخصصت الصحف الاوربية عناوين كبيرة لذلك الحدث . وهنأ السفراء السلطان في اسطنبول باسم حكامهم (٤) .

وسمى العثمانيون هذه "الوقعة الخيرية " لانهم تفاءلوا بها خيرا .

ومعنى ذلك ان الاستغراب قد زاد فيعهد السلطان محمود الثاني وتوسع الاتصال بالغرب ،وخاصة منذ سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٦م عندما دبر مذبحة الانكشارية والقضاء عليهم ، لانهم كانوا العقبة الكأداء في طريق الاصلاح ومن ذلك الحين بدأ تكوين جيش جديد على الطراز الاوربي واستدعى لتدريبه

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٤٣٠
، هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني جـ٨ س ١٧ ، ١٣٢٦هـ/١٩٠٩م ص ٤٦٩.

(٢) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ،ص ٦٩.
(٣) محمدعبداللطيف الحبراوى : حركة الاصلاح العثماني ، ص ١٧٦.
(٤) يلماز اوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ،جـ ١ ص ٦٧٨.

ضباط ومهندسين فرنسيين وألمان ، ثم قام بتأسيس الاكاديمية العسكرية سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م وأرسل بعض خريجيها الى العواصم الأوربية لاستكمال تعليمهم .

وأسس مدرسة للطب وكان التدريس بها باللغة الفرنسية [١]، كما أسس ادارة للترجمة ، ومجلسا اعلى للقضاء كلفه بوضع القوانين الجديدة، التي لم يرد لها نص في القرآن والسنة ،وعرف باسم " مجلس والى لأحكام عدلية " وكان أعضاؤه من مختلف الأديان ،ومن هذا المجلس انبثق مجلس الدولة (مجلس شورى دولت) سنة ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م [٢]

كما أعاد السلطان محمود الثاني سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م افتتاح سفاراته في العواصم الأوربية وقد كانت أغفلت على اثر خلع السلطان سليم الثالث وفي هذه السفارات جرى تدريب مصلحى القرن التاسع عشر الهجرى الموافق للقرن التاسع عشر الميلادى أمثال مصطفى رشيد الذى كان سفيرا في باريس سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤م وعلى باشا الذى كان يعمل في سفارة فينا سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م وفؤاد باشا الذى عملفي سفارة بلاده في لندن سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م [٣].

اضافة الى ذلك فقد ضمت الكلية الحربية في اسطنبول حوالى أربعمائة كتابا بالفرنسية،وكان من ضمن هذه الكتب دائرة المعارف الفرنسية وكتب فولتير وجاك روسو ، أحد رواد الثورة الفرنسية . فكان العسكريون هم الفئة التي تعرضت لاطول احتكاك مع الغرب .

لذلك كانت القوة العسكرية هي أول أدوات التحول الكبرى في ميدان التغيرات الاصلاحية ، ومع استيراد المدربين والفنيين ،دخلت الافكار الغربية ، محطمة للنظام السياسي والاجتماعي في الدولة .

---

(١) عبدالكريم مشهداني: العلمانية واثارها على الاوضاع الاسلامية في تركيا ص ٦٩ .
، عبدالعزيز نوار: الشعوب الاسلامية ص ١٧٨
، Roderic H. Davison:Turkey A Short History,p.75.
(٢) عبدالعزيز نوار: المرجع السابق ،ص ١٧٩.
(٣) أحمدعبدالرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ،ص ١٩٣-١٩٤

ففي سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م أرسل السلطان محمود الثاني بعثة تركية مؤلفة من مائة وخمسين طالبا لعدة دول أوربية .

وبعد عدة سنوات ارتفع عدد طلاب البعثات كثيرا حتى بلغ الالاف وكانت أوربا خلال الفترة (١٢٣٦-١٢٥٦هـ / ١٨٢٠-١٨٤٠م) تموج بأشياء كثيرة تعلمها الطلاب المبتعثون من الشرق ،وتأثروا بها وكانت من أسباب ظهور طائفة جديدة من أبناء الدولة العثمانية ،لم يستطع ان يتقبلهم المجتمع العثماني ، وقد أطلق عليهم اسم " الشبيبة العثمانية" اى (العثمانيون الشباب) تشكلت منهم مجموعة من المتحررين الذين استوطنوا اوربا ليقوموا بدور المعارضة (١) فيما بعد.

وبعد استعراض هذه الاحداث يتبين لنا انه بعد الغاء الانكشارية والحد من سلطتهم ، صارت الدولة العثمانية تسير في طريق الاصلاحات والتنظيمات العسكرية (٢).

فقام السلطان محمود الثاني اضافة الى ماسبق باصدار جريدة رسمية وادخل اللباس الافرنجي وجعله زى الجند النظامي ، الى جانب قيامه ببعض المشاريع العمرانية لبناء مؤسسات الدولة ، ولكن الروس بدأت تتحرش به حتى لاتكتمل هذه الاصلاحات خوفا من استعادة الدولة قوتها ، وقد ساعد الروس محمد على والى مصر في حملته ضد الدولة العثمانية ،ولولاه لاسترسل السلطان في اصلاحاته وخاصة العسكرية (٣) .

---

(١) عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٦٩-٧٠.

(٢) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٦٩.

(٣) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٥٩

لكن السلطان محمود الثاني ابتكر في نهاية عهده مدرسة " ثانوية " اخرى لتعليم الموظفين ، كانت تدرس فيها اللغة الفرنسية ،وموضوعات علمانية أخرى ، وذلك لتولى المناصب العليا في الدولة ، عن طريق الحصول على تعليم حديث علماني[1]. وهذا التعليم يوضح تغلغل وبداية الغزو الفكرى الذى دخل عن طريق التعليم العسكرى ، والطبى ،والهندسي وأخيرا نرى السلطان محمود يفتتح مدرسة ثانوية خاصة للموظفين الكبار الذين يهيؤون لتولي مناصب الدولة على احدث الطرق العلمانية ، التي انتشرت فيما بعد ، عند اصدار التنظيمات المعروفة في عهد السلطان عبد المجيد.

...

(١) Roderic H. Davison : Turkey A Short History, p. 76.

، أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٩٣.

ب ـ عصر التنظيمات العثمانية :

عصر التنظيمات في مفهوم التاريخ العثماني الحديث مصدر " قانون تنظيم اتمك " وتعني (عمل وتنظيم قانون) ويقصد بالتنظيمات هنا الاصلاحات التي أدخلت على أداة الحكم والمؤسسات الادارية في الدولة العثمانية منذ بداية عهد السلطان عبد المجيد (١٢٥٥ هـ ـ ١٨٣٩م) (١).

والتنظيمات تستند الى مرسومين سلطانيين أساسيين : صدر الأول منهما سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩م وعرف هذا المرسوم باسم " منشور كلخانة " أو (خط كلخانة) وصدر الآخر سنة ١٢٧٣ هـ/١٨٥٦م وعرف باسم "الخط الهمايوني" (٢).

والتنظيمات ماهي الا امتداد للاصلاحات التي قام بها السلطان سليم الثالث والسلطان محمود الثاني، وكان الغرض منها هو انقاذ الدولة العثمانية من الضعف الذى تسرب الى مؤسساتها المختلفة . وقد شاهدنا في الفصل السابق كيف استطاع السلطان محمود الثاني بحنكته السياسية القضاء على الانكشارية التي كانت تعارض كل اصلاح أو تجديد في المؤسسات الحربية بصورة خاصة والمؤسسات الأخرى بصورة عامة (٣) .

ومن ذلك التاريخ أصبحت محاولات الاصلاح ممكنة ، وبالرغم من أن السلطان محمود الثاني كان يركز في اصلاحاته على الجوانب العسكرية أكثر من سواها فان عهد السلطان عبد المجيد سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م (٤) قد أضفى على حركة تغريب الدولة العثمانية الصبغة الرسمية . اذ أمر أن تتبنى الدولة هذه الحركة فأصدر المرسومان السابقان وبهما بدأت الدولة العثمانية بما يسمى بعصر التنظيمات .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية : مادة تنظيمات ،ج ٥ ،ص ٤٩٩.

(٢) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ،ص ٧٥.

(٣) دائرة المعارف العثمانية ، المرجع السابق ج ٥ ،ص ٤٩٩ .
،عبد الكريم مشهداني :العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا، ص ٧١.

(٤) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٥٠.
، عبد الكريم مشهداني : المرجع السابق ،ص ٧١.

وبهذين المرسومين بدأت الدولة العثمانية للأسف تستلهم الروح الغربية في الحياة ، وتستلهم الفكر الغربي في التقنين واقامة المؤسسات الادارية والعسكرية وتتنكر لاصولها وحضارتها وشريعتها الاسلامية .

والحق أن السلطان عبدالمجيد كان خاضعا لتأثير وزيره مصطفى رشيد باشا الذى وجد في الغرب مثله الأعلى وفي الماسونية فلسفته المثلى وهو الذى أعد الجيل التالي له في الوزارة ورجال الدولة . وبمساعدته أسهم هؤلاء من بعده في دفع عجلة التغريب التي بدأها هو أولا والذى صار سقوط السلطان عبدالحميد الثاني بعد ذلك وخروج الدولة عن الخط الاسلامي امتدادا طبيعيا لفكرة التغريب فيها [(1)].

أما أسباب صدور هذين المرسومين فقد تمثل في انتهاز الدول الأوربية للأزمات الكبرى التي كانت تمر بها الدولة العثمانية والعمل على زحزحتها عن نظمها الاسلامية وهذه الأزمات هي :

١- أزمة محمدعلى مع الدولة العثمانية ،وصدورخط كلخانة سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م .

٢- حرب القرم بين الدولة العثمانية والروس ، وصدور الخط الهمايوني سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م .

هاتان الأزمتان هما ماسوف نتحدثعنه هنا بايجاز حتى نصل من خلال تلك الاحداث الى سبب اصدار هذين الخطين أو المرسومين وماتلى ذلك من تنظيمات فأول الأسباب ،كان بعد موقعة نفارينو ، عندما اختلفت وجهة نظر السلطان العثماني وواليه في مصر محمد علي فالسلطان رغم تدمير اسطول الدولة العثمانية في المعركة قد صمم على رفض مطالب الدول المتحالفة بل انه لم يقف عند هذا الحد ، فاخذ يطالب بالتعويض بالمال عما لحق بأسطوله من الدمار.

---

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد: ترجمة وتحقيق وتعليق محمد حرب عبدالحميد (الطبعة الاولى ، الكويت ،دار الوثائق ،١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ص ٣٠.

أما وجهة نظر الوالي العثماني في مصر محمد على فقد رأى أنه لافائدة تنالها من مواصلة القتال أمام القوات المتحالفة ، بعد أن فقدت الدولة العثمانية أسطولها في المعركة فقرر عدم تقديم أى مساعدة للقوات العثمانية المنهزمة والانسحاب بكامل قواته الى مصر ، ويظهر أن محمد على كانت تراوده فكرة مشروع ترمي الى تشكيل دولة عربية يستقطعها لنفسه من بلاد السلطان محمود الثاني ، الا أن هذه الفكرة لم تتحقق لأنه اصطدم بمعارضة اللورد بالمرستون (Palmerston) والذى كان أول من تنبه لمشروع محمد علي ، فتحطم حلمه ، ولكنه أوشك ان يحقق هذا الحلم بالاستيلاء على بلاد الشام في ٢٧ رجب سنة ١٢٤٨هـ الموافق ٢٠ ديسمبر ١٨٣٢م [١].

علما بأن مصر لم تنل من الحرب اليونانية من الناحية المادية أى شيء الا أن اشتراكها في تلك الحرب برهن على كفاءة جيشها الذى أصبح يضارع أرقى الجيوش الأوربية في ميادين القتال [٢].

ونتيجة لهذا التصرف الذى قام به محمد على تجاه السلطان محمود الثاني والدولة العثمانية بدأ النزاع بين السلطان وواليه على مصر محمد علي وذلك بعد انسحاب قوات السلطان من بلاد المورة بموجب معاهدة أدرنه سنة ١٢٤٥ هـ/١٨٢٩م واعترافه باستقلال اليونان ، على غير مايرغب وربما يكون سبب ذلك أن محمد على راى ضآلة المكافأة التي منحها له السلطان ثمنا لتدخله في بلاد اليونان ،باعطائه جزيرة كريت ، في الوقت الذى كان محمد علي يطمح في تعيين ابنه واليا على بلاد الشام بدلا من جزيرة كريت ،ولكن السلطان لم يستجب لطلبه [٣].

(١) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، تعريب على حيدر الركابي ، (دمشق ، مطبعة الترقي ، ١٣٥٦ هـ/١٩٤٦م) ص ١٢.
(٢) عبدالرحمن الرافعي : عصر محمد علي ، ص ٢١٥.
(٣) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ١٦٤، عبدالرحمن الرافعي : عصر محمدعلى ،ص ٢١٧.

ذلك أنه لما نشبت حرب اليونان لم يكن محمد علي متحمسا للاشتراك فيها ، بجانب قوات السلطان ،ولكن التلويح له باعطائه جزيرة كريت وولاية الشام بعد الحرب من السلطان جعله يدفع بقواته لاخماد الحرب اليونانية ومساندة الجيش العثماني(١) .

وبالرغم من أن هزيمة نفارينو سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م كانت لها آثارها السلبية على محمد علي ، لكنها في الواقع كانت فرصة له لزيادة مطالبه من السلطان بصورة واضحة والتأكيد على ضم بلاد الشام الى ولايته ،مكافأة له على المساعدة التى بذلها في حرب اليونان . ولما لم يجبه السلطان على طلبه عمد الى احتلال تلك البلاد معتمدا على قوة السيف والمدفع (٢). ولم يكتف محمد علي بذلك بل انه أخذ يفكر في الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية وقد ظهر ذلك واضحا عندما طلب السلطان محمود الثاني ارسال الاسطول المصري لمساعدة القوات العثمانية في حرب روسيا ، فامتنع عن مد يد المساعدة وتلبية طلب السلطان (٣) . وفي الوقت نفسه أخذ يحاول ارضاء السلطان بالمال ،كما أنه شرع في تقوية جيشه وأسطوله (٤) .

ولكن أثناء اعداد هذا الجيش لم تسعفه الموارد المالية التي كان يقدمها بسخاء للسلطان والجيش فلجأ الى فرض الضرائب الفادحة على الشعب المصري، كما استخدم بعض العمال بالسخرة ، لهذا السبب فر من مصر اعداد كثيرة هروبا من سياسته التعسفية التي كان يعامل بها السكان (٥) .

---

(١) عايض حزام الروقي : حروب محمد علي في الشام .. ،ص ٧٢.
، محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ،ص ١٤١
(٢) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ص١٣.
(٣) عبدالرحمن الرافعي :عصر محمد علي ، ص ٢١٦
،عايض حزام الروقي : المرجع السابق ،ص ٣٨
(٤) محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٦٤.
(٥) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٤٨-٤٤٩.

وبعد أن استطاع بناء هذا الجيش والأسطول أصبح في وضع عسكرى جيد يجعله ندا للسلطان بل أصبح لديه جيش أقوى من جيش السلطان نفسه [١]، لذلك ازدادت مطامعه وصار يتحين فرصة الانقضاض على بلاد الشام وانشاء دولة عربية تشمل معظم الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية [٢] وتكون مصر رأس هذه الدولة ، خاصة وانه كان يعرف الكثير عن ضعف حكومة اسطنبول ويدرك كل الادراك نوايا الدول الاوربية نحو الدولة العثمانية ،لذلك اعتبر نفسه وريثا لقسم من املاك الدولة [٣] ، وذلك بوصفه عثمانيا مسلما ، فعندما رأى علو قوته ، وضعف الدولة العثمانية وارتباك احوالها عقب حرب اليونان وحرب الروس وامضاء معاهدة أدرنة معها ، اضافة الى كثرة الاضطرابات الداخلية بها ، لمقاومتها بعض رعاياها حول معارضتهم إدخال بعض الاصلاحات في الدولة [٤]، ولذلك استغل هذه الظروف مجتمعة وأعلن الحرب على السلطان ويظهر أن تحركه هذا كان بايعاز من فرنسا التي كانت ترغب في اشعال روح الخلاف بين السلطان وواليه في مصر حتى تتمكن من تأسيس الامبراطورية التي عزمت على تأسيسها في شمال أفريقيا وهي التي طلبت من محمد علي أن يشترك معها في غزو الجزائر ، حتى يزداد الخلاف بين السلطان وواليه على مصر، وهي تعلم ان السلطان العثماني ليس لديه الوقت أو المال الكافي لانشاء جيش جديد قوى معد بالأسلحة الحديثة ،والعمل على تنظيم موارده المالية ،لتنفيذ اصلاحاته بعد القضاء على الانكشارية •

وقد رحب محمد علي بفكرة الاشتراك مع فرنسا في غزو الجزائر وانتزاعها من الدولة العثمانية ،وكاد أن يشترك معها ، لولا أن حذرته انجلترا وهددته من المغامرة ، لأهدافها السياسية ،فتراجع محمد على عن الفكرة خوفا من الاصطدام مع انجلترا [٥]، لأنه يعرف أطماعها في المنطقة وهي تعرف أطماعه

---

(١) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ١٦٤•

(٢) أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى ، (بيروت ، دار الكتاب العربي)،ص ٢٢•

(٣) نجلاء عزالدين: العالم الغربي: ترجمة محمد عوض ابراهيم واخرون(الطبعة الثانية ، القاهرة ، الناشر: دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦٢) ، ص ١٠٦–١٠٧

(٤) اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار ،جا ، ص ٦٨٩•

(٥) محمد ضياء الدين الريس: الشرق الاوسط : (الطبعة الثانية ،القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٦٥م) ص ٩٣•

المستقبلية . كما أن بريطانيا كانت السند له في حروبه في شبه الجزيرة العربية وغيرها وهو الاداة التي تعتمد عليه في تنفيذ أطماعها . وعندما فشلت فرنسا في كسب محمدعلي الى جانبها اوعزت اليه بالمساعدة والمساندة اذا هو قام بالاستيلاءعلى بلاد الشام مستغلا الخلاف الذى نشب بينه وبين والي عكا عبدالله الجزار الذى امتنع عن تسليم الفارين اليه من المصريين بدعوى أن الاقليمين تابعين لسلطان واحد ، لذلك آمر محمد علي في سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م بالتجهيز لحرب بلاد الشام وأسند مهمة قيادة الجيش لابنه ابراهيم باشا الذى سار وحاصر مدينة عكا برا وبحرا ،(١) بعد أن عقد محمدعلي في وقت سابق معاهدة سرية مع بشير الشهابي آمر لبنان وبعض مشايخ الدروز ومشايخجبل نابلس لمساعدته في الاستيلاء على بلاد الشام(٢).

ولما علم السلطان محمود الثاني بغزو محمد على على الشام أرسل اليه يامره بالكف عن تلك الحرب واخراج جنوده من الشام ، وله بعد ذلك أن يرفع شكواه الى الباب العالي ليحكم بينه وبين خصمه عبدالله الجزار ،ولكن محمد علي لم يعبأ به ولم يعر اهتماما لأوامر السلطان عندئذ طلب السلطان مجلس مؤلف من مشاهير العلماء ،وكبار المدرسين ، وعرض عليهم خروج محمد علي عن الطاعة ، فأفتوه جميعا بخروجه عن طاعة السلطان (٣).

لهذا طلب السلطان من والي حلب السير لحرب جيوش محمد علي واسترجاع مدينة عكا ،ولكن ابراهيمباشا لم ينتظر ملاقاته في عكا ،بل سارلملاقاته بعيدا عن عكا ،فتقابلالجيشان في مدينة حمص ، وانتهت المعركة بانتصار الجيشالمصرى ، ثمعاد ابراهيمباشا الى مدينة عكا وشدد الحصار عليها حتى استسلمت ودخلها في سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣٢م وأسرعبدالله الجزار وأرسله الى

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٤٥٠.
اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،جا ،ص ٦٨٧.
(٢) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، ص ٢٢.
(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٨٧.

مصر ليتولي محمدعلي أمره [1] .

وبمجرد وصول خبر سقوط عكا للسلطان أمر بجمع مايمكن جمعه من الجنود المنتظمة ،وكانتتقدر بحوالي ستين الف جندى ،فعين عليها حسين باشـــا والي ادرنه قائدا عاما ، وسار هذا الجيش الى بلاد الشام ، والتقى مـع جيش ابراهيمباشا بمضيق بيلان [2]، فاستطاع ابراهيم باشا الفوزعلىالجيـش العثماني سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م [3] .

لهذا الأمر استدعى السلطان الصدر الأعظم رشيد محمد باشا وهو مـن أعظم القواد وأشجعهم في تلك الفترة وكان ببلاد الارنؤط ينظم أحوالهـا عقب انفصال اليونان عن الدولة ،فارسله السلطان بجيش لصد خطر ابراهيـم باشا الذيعبر جبالطوروس واحتل اقليم أطنه وهو في طريقه الى مدينـة قونية ،وسط الأناضول ، فالتقى الجيشان في موقع بالقرب من مدينة قونيـة المذكورة ،وبعد حرب طاحنة أسر الصدر الاعظم رشيد محمد باشا في يوم مطيـر كثير السحاب والضباب ، بينماكان يعد جيشه للقتال ، وذلك أنه دخـل بين صفوف الخيالة المصرية ظنا منه بأنهم عساكره ،فأسروه ،وبانتشـار خبر أسره اختل جيشه وانهزم أمام قوة الجيش المصرى ،في الوقت الـذى كاد أن يهزم فيه الجيش المصرى .

وبعد هذه الموقعة تقدم ابراهيمباشا الى كوتاهية،حيث تغلب على القوى العثمانية ، وأصبح الطريق ممهدا أمامه الىاسطنبول [4].

ونتيجة لهذه الهزائم المتلاحقة لجيش السلطان ساد القلق مدينـة اسطنبولوخشي السكان من تقدمابراهيم باشا بجيشه كما ان تلك الانتصـارات أخافت الدول الأوربية وخشيت أن يكون قصد محمد على احتلال اسطنبـول،

---

(١) محمد فريد بك : تاريخالدولة العلية ،ص٤٥٠.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ص ٦٨٧.
،كامل باشا: تاريخ سياست دولت علية عثمانية ج٣ ،١٣٠-١٣١.
(٢) بيلان: اهم مضايق جبال طوروس الفاصلة بين الشام والاناضول :
ـ محمد فريد بك : المصدر السابق ص ٤٥٠.
(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ص ٤٥٠

فيختل التوازن الأوروبي، وكانت روسيا أشد قلقا من غيرها لخوفها من سقوط اسطنبول في يد من يمكنه الذود عنها بقوة أكثر من آل عثمان فلا يمكنها فيمابعد تنفيذ وصية بطرس الأكبر (١).

وقد انتهزت روسيا هذه الفرصة فتقدمت للسلطان تعرض عليه المساعدة وحمايته من خطر محمد علي ، فرفض السلطان في بادىء الامر ،(٢) الا أنه في هذه اللحظة الحرجة كان يبحث عن حليف له ،يصد عنه هذه القوة الجارفة من قوات محمد علي • فلقد وجد ان فرنسا تؤيد محمد علي وتساعده كماسبق وبريطانيا لاتستمع الى نداءات السلطان ،ربما بسبب مشاغلها في المشكلة البلجيكية (٣) ، ولذلك لم يجد السلطان أمامه سوى القيصر الروسي •

وماكان السلطان ليقبل هذا التحالف مع عدوه اللدود ،ولكن الظروف كانت قاسية ، وبعد المفاوضات عقد السلطان مع القيصر الروسي اتفاقية (خنكار اسكله سي) (الميناء الملكي) في سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م التي خولت للقيصر ارسال جيش للمضايق العثمانية للدفاع عن السلطنة العثمانية حتى لاتقع في ايدى محمد على وفعلا نفذت المعاهدة ، ونزلت القوات الروسية على مقربة من اسطنبول ، الأمر الذى أزعج الانجليز وجعلها تحتاط للأمر (٤).

فبما أن معاهدة خنكار اسكله سي قد أثارت العواصم الأوربية حيث انها أخذت شكلا سياسيا آخر ،فانها أيضا كانت سببا في اهتمام اللورد بالمرستون رئيس وزراء انجلترا ، والأمير مترنيخ رئيس وزراء النمسا (٥)، اللذان توصلا من خلال تحليلهما للموقف الجديد الى حقيقة هامة هي أن الروس بعد

---

(١) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ،ص ٤٥٠-٤٥١•
(٢) نجلاء عزالدين: العالم العربي ،ص ١٠٧•
(٣) كانت ثائرة على هولندة للاستقلال عنها لأنها ضمت لها عام ١٨١٥م بموجب مؤتمر فينا في أعقاب حرب نابليون وخلعه عن عرش فرنسا •
(٤) عبدالعزيز نوار: الشعوب الاسلامية ،ص ١٨٣•
(٥) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار،جا ،ص ٦٨٧•

معاهدة (خنكار اسكله سي) أصبحت القوة المواجهة لمصر ،وأصبحوا في نفس الوقت حامية للدولة العثمانية ،ولهذا عملت حكومة بالمرستون على تدويل القضية [١]، لأن أبواب الدولة العثمانيةوفارس أصبحت مفتوحة أمام الروس ، هذا ماقاله الانجليز وهذهمبالغة ،كانت من أساليب الانجليز لاثارة الرأى العام ضد خصمهم اللدود روسيا[٢].

لهذا أخذ اللورد بالمرستون ومترنيخ يتخابران مع فرنسا فاتفقوا جميعاعلىالزام ابراهيم باشا بعدم التقدم ،مما اضطر محمد على الى عقد الصلح معهماوالانصياع الى أوامر السلطان [٣] . وفيالوقت نفسه نصحت بريطانيا السلطان بتسوية المسألة ،ووعدته بالتوسط بينهما ،فقبل السلطان بهذا التوسط .

وبعد مخابرات دارت بينالاطراف المتنازعة ، اتفقا على أن يخلي محمد على منطقة الاناضولمن جيوشه وترجع الى ماوراء جبال طوروس ،ويعطي السلطان لمحمد علي ولاية مصر مدى حياته ، ويعين واليا على ولايات الشام الاربع (عكا وطرابلس وحلب ودمشق) وعلىجزيرة كريت . وان يعينابنه ابراهيم باشا علىاقليم أطنه . وقد سمي هذا الاتفاق باسم معاهدة كوتاهية وتمت في سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م [٤].

ولاشك أن هذا التدخل الأوربي فيتسوية المشكلة ليس حبا في الدولة العثمانيةولا لمصر ،ولكن كل هذا من أجل المحافظة على مصالحهم في المنطقة وزيادة أطماعهم الاستعمارية فيها والرغبة في سد الباب أمام روسيا [٥]

---

(١) عبدالعزيزنوار: الشعوبالاسلامية ،ص ١٨٣.
،نجلاء عزالدين: العالمالعربي ،ص١٠٧.
(٢) عبدالعزيز نوار: المرجع السابق ،ص١٨٣.
(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبارعن دول البحار ،ج١ ،ص ٦٨٧.
(٤) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٤٥١.
(٥) اسماعيل سرهنك : المرجع السابق ، ص ٦٨٧.

حتى لاتزحف الى المنطقة فتضيع بذلك مصالح بريطانيا وفرنسا في البحار والاقطار التابعة للدولة العثمانية .

وفي الحقيقة فان حرب الشام الاولى كانت نهايتها مؤقتة ، اذ لم يقبل السلطان بهذه التسوية الا ليتمكن من ترتيب وبناء جيشه ، ليستطيع بعد ذلك استرجاع ما انتزع منه بالقوة . كذلك محمد علي لم يقبل بهذا الحل الا خوفا من أن تتخذ الدول الاوربية ضده موقفا يفقده من توسعاته الجديدة [1] .

والواقع أن محمد على تسبب فعلا في زيادة ضعف الدولة وارتباكها أمام دول أوربا ، وأدخلها في متاهات كانت في غنى عنها ، وكان من المفروض أن يكون ساعدها الأيمن حتى تقف أمام أطماع هذه الدول التي أصبحت تملي شروطها على الطرفين ، وخاصة وأن الدولة قد فقدت جيشها الانكشاري وفي طور البناء حتى تستطيع أن تحرر ممتلكاتها من أطماع اوربا ومحمد علي .

ومنذ دخول قوات محمدعلى بلاد الشام والسلطان محمود الثاني يفكر في الدرجة الأولى باستعادة هذه الولاية ، ولم يكن بد من ارجاعها الا باعادة تنظيم الجيش العثماني تنظيما اعمق من ذلك الذى جرى عقب نكبة الانكشارية وقد أخفق السلطان في توفير المدربين الاكفاء بسبب محاولة الدول العظمى عزل الدولة العثمانية وعدم تمكينها من تطوير مؤسساتها وذلك بخلق المشاكل والحروب المستمرة بينها وبين ولاتها ورعاياها وفرض نظمها عليها حتى تبعدها عن شريعتها واسلامها عن طريق ارسال البعوث اليها .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٥١-٤٥٢ .

وفي صيف سنة ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م وفد الى اسطنبول في رحلة خاصة قائدان بروسيان هما (فون مولتكه) و (فون برج) فقدمهما الى السلطان القائد العام (سر عسكر) على أنهما لديهما الخبرة الكافية لتطوير الجيش العثماني فخدع السلطان بكلام قائده فطلب من ملك بروسيا ابقائهما في الدولة العثمانية لتنظيم الجيش العثماني . فقام كل منهما بتنظيم هذا الجيش وإعادة بناؤه على الاسس الاوربية . كما انهما ساهما في جلب أعداد كبيرة من العتاد والأسلحة من بروسيا وغيرها .(١)

واضافة الى ذلك فان السلطان العثماني عمل على استثارة شعور أهل الشام واستمالة رؤساء العشائر وأصحاب الزعامات والأعيان فيها الى جانبها في سبيل اخراج محمد علي من بلاد الشام حتى أمسى أهل الشام بأسره يترقبوا هزيمة تحل بمحمد علي وحكومته حتى يتخلصوا من سوء حكمه ومعاملته .(٢)

وقد كانت أهم الأمور التي شجعت السلطان على خوض حرب الشام الثانية قيام القنصل الانجليزي في اسطنبول بتقديم الضمانات للسلطان بوقوف جميع الدول الاوربية الى جانبه في هذه الحرب ، ماعدا فرنسا التي تقف خلف محمد علي وتدفعه للتمسك بهذه الولايات ،وأن بريطانيا ستقف الى جانب الدولة العثمانية في حروبها مع محمد علي لاسترداد الشام وصد اى خطر يهددها من جراء هذه الحرب (٣) .

ولعل ذلك ما أراد التلويح به اللورد بالمرستون(Palmerston) حيث كتب يقول: " ان مصلحتنا ان يسترد السلطان سوريا بل ومصر "(٤) .

---

(١) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٥٥٧-٥٥٨.
(٢) ،محمد كرد علي : خطط الشام: (الطبعة الثانية ،بيروت ، الناشر مكتبة النوري .دمشق ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ج ٣ ص ٦٣.
محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٤٥٢.
(٣) حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث (الطبعة الثانية ، القاهرة نشر لجنة الجامعيين لنشر العلم) ص ٢٣٢.
(٤) عايض خزام الروقي : حروب محمد علي في الشام ،ص ٤٠١.

ويلاحظ أن محمد علي شعر بالتحركات التي تدور لاشعال حرب الشام مرة أخرى ،ولذلك اجتمع ببعض سفراء الدول الاوربية في مصر وعرض عليهم بأن تكون مصر و الشام وبلاد العرب له ولاولاده من بعده ، فأبلغ هؤلاء السفراء دولهم التي أبلغت السلطان العثماني على كيفيات مختلفة ،فسباندت فرنسا مطالب محمد علي باشا ،بواسطة سفيرها في اسطنبول ، الذى اقنع الباب العالي بمناقشة هذا الاقتراح و التفاوض مع محمدعلي ،لهذا ارسل السلطان سارين افندى ،من موظفي الخارجية العثمانية الى مصر ،للتفاوض في هذا الامر مع محمد علي ،وبعدمداولات استطاع محمد علي استمالة مندوب الدولة بما خطط و اقناعه ،فاتفقا على ان له ولايتي مصر وبلاد العرب ارثا له ولاولاده من بعده ،وبلاد الشام الى جبال طوروس مدة حياته . فلم يقبل السلطان العثماني بهذا الوفاق الذى حمله له سارين ،بل أمر على أن تكون جبال طوروس ومفارزها في الحود العثمانية ،لا المصرية . فصمم محمدعلي أن تكون التسوية على هذا الأساس ، لأن المفاوز أبواب الشام بأجمعها ،فلو احتلها الدولة العثمانية أمكنها الغارة على بر الشام في أى لحظة ومتى تريد(١) .

ونتيجة لاختلاف وجهات النظر بين السلطان ومحمد علي في أمر الشام عاد الخلاف من جديد ، وكل منهما يريد مبررا لاستئناف الحرب ،محمد علي تسانده فرنسا ،و السلطان العثماني تدفعه بريطانيا للحرب ،فأضحى الحرب وشيك الاندلاع بين الطرفين .

ودخلت الازمة في دورها الحاسم سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م رغم المحاولات التي بذلت من الدبلوماسيين الأوربيين في البداية لايقاف انفجار الحرب و ازالة شبحه (٢)، الا أن الجيش العثماني عبر نهر الفرات بسرعة فائقة في أوائل

---

(١) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العثمانية ،ص ٤٥٢ .

(٢) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ،ص ١٧٩.

سنة ١٢٥٥ هـ الموافق ١٨٣٩م وبعد عدة مناوشات ومناورات خفيفة بين الجيشين ، كانت المعركة الحاسمة بالقرب من مدينة نصيبين المشهورة في الكتب الأوربية باسم (نزيب) (Nizip) في ١١ ربيع الآخر سنة ١٢٥٥ هـ الموافق ٢٤ يونيو سنة ١٨٣٩م ، انتصرت فيها قوات محمد علي ، وتقهقر الجيش العثماني بعد معركة حامية الوطيس ،وقدعرفت هذه المعركة باسم موقعة نصيبين [١].

لم يقدر للسلطان محمود الثاني آن يسمع بانباء هذه الكارثة التي حلت في جيوشه في نصيبين ،لانه توفى في يوم ١٩ ربيع الاخر سنة ١٢٥٥ الموافق ٢ يوليو سنة ١٨٣٩م قبل آن تصل اليه اخبار هذه الهزيمة [٢] .

وخلفه في السلطنة ابنه عبدالمجيد ،فتي لايتجاوز عمره السادسة عشرة لا دراية له باموررالحرب ولا بالسياسة في وقت توالت فيه النكبات على الدولة ،فقد ابحر الاسطول العثماني الى ثغر الاسكندرية بعد الهزيمة واستسلم لمحمد علي وتذرع قائده بان الاخبار التي اتت اليه آن اسطنبول قد بيعت للروس . لذلك فقدت الدولة في اقل من اسبوع جيشها وسلطانها وبحريتها وبدا كما لو آن محمدعلي قد أصبح سيد الموقف بلا منازع [٣].

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٥٢.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ص ٣٤٧.
، صبحي وحيده : فيأصول المسألة المصرية ،(القاهرة ،مكتبة الانجلو المصرية ،١٩٥٠م) ص ١٤٥-١٤٦

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ٤٥٤.
اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ،ص ٦٨٨.
محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسالة الشرقية ،١٨٠.

(٣) محمد كرد علي : خطط الشام ،ج٣ ص ٦٤.
،أ.ج. جرانت واخرون : اوربا فيالقرنينالتاسع عشر والعشرين ، ج ١ ص ٣٤٧.
، محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ،ص ١٨٠.

لذلك قررت حكومة السلطان عبدالمجيد أن تحسم النزاع مع محمد علي حقنا لدماء المسلمين ، فتناست الخلافات وبعث السلطان رسوله عارف افندى برسالة رسمية يطلب فيها تقديم الولاء والطاعة للسلطان منعا للتدخلات الاجنبية ،وتوقيفا للحرب استعدادا للمفاوضات لفض النزاع بين الطرفين ، ولما استلم محمد علي هذه الرسالة من منذوب السلطان بعث برسالة عاجلة الى ابنه ابراهيم باشا ،لوقف الحرب والمناوشات ضد الجيش العثماني ،وخاصة عندما علم بوفاة السلطان محمود الثاني • ثم صرح محمد علي باشا للقنصل البريطاني في مصر ،بقوله : " انه واثق بأن كل الاختلافات سوف تحسم بدون تدخل القوى الكبرى ،لانه يعترف باحترام الكبير والخضوع للسلطان" (١).

ويبدو من ذلك أن القنصل البريطاني في مصر نقل الى اللورد بالمرستون خواطر محمد علي وتفاؤله بالصلح والتسوية دون تدخل أيدى أجنبية •

وبرهن محمدعلي استعداده على ذلك بأن طلب من ابنه ابراهيم باشا ، وقف الحرب وان ذلك تم بمجرد تسلم جنود السلطان أوامر الانسحاب من حدود سوريا كما صرح محمد علي في مقابلة مع القنصل البريطاني حول مصير الأسطول العثماني انه سيعيده الى السلطان حتى لو رغب قائده في التخلي عنه لنا (٢).

وبالفعل كاد الجانبان ان يتوصلا الى اتفاق بينهما دون تدخل اجنبي، كما توقع محمد علي ،وقد مال السلطان الى أن يستجيب لمطالبه ويتنازل عن مصر والشام وراثيتين ولكن الدول الاوربية لم تترك لمحمد علي فرصة لتحقيق مطالبه بل تدخلت لتفرض هي الصلح التي تريده ، لا كما يريده غيرها خدمة لأهدافها ومصالحها السياسية والاقتصادية في المنطقة (٣).

---

(١) Document: F.O.: 78/374. From Campbell to Palmerston No. : 247, 12-3-1833.

(٢) Ibid,

(٣) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ،ص ١٨٠ ، عايض خزام الروقي : حروب محمد علي في الشام ص ٤١ •

وفي الوقت نفسه شعر بالمرستون بخطورة الموقف في توحيد مصر والشام تحت حكم قوى ، خاصة بعد موافقة السلطان العثماني على منح حكمها لمحمد علي وراثيا لذا قرر بالمرستون التدخل وبحزم لمنع حدوث ما اعتبره كارثة ستحل لو حصلت تهديد طريق مواصلات انجلترا الى الهند والشرق الأقصى، وكان بالمرستون شديد الحقد على محمد علي ، ويعتبره عميلا لفرنسا في المشرق لتمكن لنفسها في مصر.

ويرى بالمرستون أن اطماع محمد علي وحربه للسلطان هما اللذان أتيا بالروس الى الدردنيل والبوسفور وهو ماحاولت بريطانيا منعه [١]. لذلك ارتبكت الدول الأوربية وافترضت وقوع الدولة في يد شخص قوى ،وهي التي تخطط لتمزيقها واقتسامها ،عندما هالها قوة جيش محمد علي التي كان بامكانه تجديد القوة الاسلامية، لو أن الدولة وقعت تحت قبضته [٢] ،ولانتشار أنباء كثيرة في اوربا مفادها ان السلطان الصغير ،ربما يقدم لمحمد علي مايطلبه وخاصة في انجلترا [٣].

لذلك أرسلت الدول الأوربية الى السلطان العثماني مذكرة مشتركة من سفراء كل من انجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا تنص فيها على وجوب عدم اتخاذ قرار فيما بين السلطان العثماني ومحمد على الا بموافقتها وتحت علمها [٤].

---

(١) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص١٨١.
(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٥٤.
،محمد شفيق غربال :محمد على الكبير (القاهرة ،دار الهلال)ص ١٥٤
،على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ص ١٤٤.
(٣) عايض خزام الورقي : حروب محمد على في الشام ، ص ٤٠٩.
(٤) محمد فريد بك: المصدر السابق ص١٥٤.
،محمد شفيق غربال : المرجع السابق ،ص ١٥٤
، على حسون : المرجع السابق ،ص ١٤٤.

هذا الاشتراك أو الوفاق رحبت به الدول المشتركة الخمس واعتبرته احلالا للهيمنة الدولية على الشئون الشرقية محل الهيمنة الروسية . كما أن هذا العمل يعتبر في نظرها تتويج لما عملته او بذلته بريطانيا من جهود في السنوات الاخيرة ضد أطماع محمد علي وتوسعاته .(١)

كما عرضت الدول الأوربية استعدادها ايضا للتوسط بين الفريقين فقبلت بهذا الدولة العثمانية لحين استرجاع مافقدته من جيشها واسطولها.

ولما علم محمدعلى اشتراك الدول في المفاوضات ومن بينهما حليفته (٢) بدأ يستعد لصد هذا العدوان بتدريب الاهالي على استعمال السلاح ،ثم استدعى جيشه من نجد والحجاز لمقاومة هذا الحلف وتخلى عن بلاد العرب وأصدر أوامره لابنه بضبط الشام الذى بدأ يتحرك ضده وقمع تحركاته .

وبناء على طلب النمسا لحل المسألة المصرية عقد مؤتمر في لندن سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م حضره مندوب عن الباب العالي وذلك لمحاولة تدعيم الموقف الاوربي في هذه المسألة ولكن هذا المؤتمر فشل لاختلاف أطماع الدول في الدولة مع اختلاف وجهات النظر بينهما (٣) .

لهذا عرضت بريطانيا على السلطان العثماني الضغط على محمد على لارجاع الاسطول مقابل ادخال سفنها الى البوسفور ،ولما علم الفرنسيون بنوايا الانجليز ، أبدوا عدم التعاون معهم ضد محمد على وكانت فرنسا ترغب في احتفاظ محمد علي بولايتي مصر والشام له ولذريته من بعده ،بينما

---

(١) محمد شفيق غربال : محمدعلى الكبير ،ص ١٥٤.

(٢) ان حوادث التاريخ تعطينا اكبر العبر بان العدو الحاقد على الاسلام والمسلمين لايمكنه ان يقف مع المسلمين في صف واحد وان تظاهر بذلك فسرعان مايكشف زيفه ويفضح امره وتظهر نواياه الغادرة فهو دائما يسعى لضرب المسلمين بعضهم ببعض لاضعاف شوكتهم ويخشى بروز قوة في ديارهم التي تكون منطلق لاعادة مجد الاسلام.
– علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ص ١٤٥ ،حاشية رقم (١).

(٣) علي حسون : المرجع السابق ، ص ١٤٥-١٤٦
،محمد شفيق غربال: المرجع السابق ،ص ١٥٤.

لاترغب بريطانيا في اعطائه الا ولاية مصر ،ولكنها وافقت أن يعطى بلاد الشام الجنوبية باستثناء عكا مدى الحياة ، الأمر الذى رفضته فرنسا، فانتهزت روسيا فرصة الخلاف بين الانجليز والفرنسيين حول هذا الموضوع فاتجهت لتعميق نفوذها في الشرق وبسط حمايتها على أكبر جزء من الدولة العثمانية ، وأبدت استعدادها ترك حرية العمل لبريطانيا في مصر ضد محمد علي مقابل انزالها جيشا في (سينوب) على البحر الاسود بحجة نجدة الدولة العثمانية في حالة تهديدها بالاحتلال من قبل ابراهيم باشا.

ولكن انجلترا اقترحت عليها اعلان التنازل عن حقوقها في معاهدة (خنكار اسكله سي) فرفض الروس ، وأجلت المفاوضات بشأن المسألة المصرية حتى سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م (١).

ولمواجهة خطر روسيا ،طلبت كل من فرنسا وبريطانيا من السلطان العثماني التصريح لمراكبها بالمرور في بوغاز الدردنيل لحمايته عند الضرورة من روسيا ،ومن جيوش محمد علي ،وجاء قائد الأسطول البريطاني بنفسه الى اسطنبول للحصول على هذا التصريح . فأعلن في الحال سفير روسيا بانه اذا دخلت مراكب الانجليز وفرنسا البوغاز فانه سوف يقطع علاقاته السياسية مع الدولة العثمانية .

لذلك كتبت النمسا الوزارتي لندن وباريس بأن طلبهما هذا مخل للسلم في أوربا ، وأنهما لو أصرا عليه تخرج من التحالف . فخاف السلطان من تفاقم الازمة ، ورفض طلب حكومتي فرنسا وبريطانيا على السواء ، بل طلب منهما ابعاد مراكبهما عن مدخل البوغاز.

ولأجل تلك الأسباب توقفت المخابرات وتوقفت الدول عن مطامعها مؤقتا في المسألة المصرية لدراسة الوضع الحالي (٢) دراسة أوسع ووضع الحلول المناسبة للموقف .

---

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ١٤٥.
(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٤٥٧-٤٥٨.

وفي أوائل شهر رجب سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م عادت النمسا مرة أخرى وطلبت من الدول الأوربية عقد اجتماع في مدينة فينا لتسوية هذه المسألة التي أقلقت الجميع ، فقبلت تلك الدولعقده في لندن ،وطلبت فرنسا أن يكون للسلطان العثماني مندوب في هذا المؤتمر مراعاةلما له من السيادة العظمى على البلاد المتنازع عليها [1]. على أن لايكون له اى صفة أو كلمة لان زمام الامور والمبادرة في يد هذه الدول الكبرى التى تتصارع حول أملاكه .

فلما اجتمع المؤتمرون طلبت فرنسا ابقاء الشام كلها تحت يد محمد علي باشا فعارضتها انجلترا وأصرت ان لايعطى له الا النصف الجنوبي من الشام ، لكنها قبلت أخيرا بناء على موقف فرنسا ادخال عكا ضمن هذا القسم ،بشرط أن يكون له مدةحياته ولاينتقل الى ورثته بل الى الدولة العثمانية .

وقد قبلت بذلك روسيا والنمسا والبروسيا ،وعارضته فرنسا وطلبت استمراره لورثته من بعده ،فشددت انجلترا وخصوصا اللورد بالمرستون على موقفها وعدم الرجوع عنه ،ونظرا لهذه الأسباب فشل هذا المؤتمر وبقيت الحالة على ماهي عليه .

ولما تولى (تيير) رئاسة الوزارة الفرنسية سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م لم يتبع خطة من سبقه ،بل انفرد دون دول أوربا لانهاء المشكلة المصرية العثمانية بمطالبة السلطان العثماني بترك ولايتي مصر والشام لمحمد علي ولذريته وأرسل في نفس الوقت لمحمد على بأن يقوى مركزه في الشام بالجيش والعتاد دون الالتفات الى مهاترات انجلترا ،بل عليه التأهب والكفاح وان فرنسا تقف خلفه ومستعدةلخدمته ضد الانجليز .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٦٠ - ٤٦٢.

ولما عرف اللورد بالمرستون بموقف فرنسا الجديد حنق على الحكومة الفرنسية فخطط ، وضرب ضربته ، وقام ببذل مساعي جبارة في الاتفاق مع روسيا والنمسا والبروسيا ، لارجاع محمد على الى حدود مصر، والنصف الجنوبي من الشام يدخل ضمنه عكا ، والزامه بالقوة اذا لم يلتزم ، ولقد نجح بالمرستون في مسعاه واستطاع ان يعقد مع الدول المذكورة معاهدة لندن سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م [١] . وتنص هذه المعاهدة على منح محمدعلي باشوية مصر وراثية في بيته ومنحه جنوبي الشام مدة حياته [٢] وقد صدق على هذا الاتفاق مندوب الحكومة العثمانية [٣].

وكان من ضمن شروط معاهدة لندن ، أنهم اشترطوا على السلطان العثماني أن تكون لسفنهم حق دخول البوسفور لحماية اسطنبول من جيوش محمد علي ولا يحق دخول تلك المياه لاحد مادامت العاصمة غير مهددة ، وقد الغت هذه المعاهدة معاهدة (خنكار اسكله سي) الروسية العثمانية ثم صدرت الأوامر للاسطول الانجليزى الذى تولى هذه المهمة ، وقام بحصار سواحل بلاد الشام لتنفيذ المعاهدة ، ولما وصل الاسطول الانجليزى سواحل الشام عرض مندوبه على محمدعلى باسم الدول أن تكون له ولاية مصر ولذريته من بعده ، وولاية عكا مدى الحياة ، وأفهموه بأن فرنسا لايمكنها مساعدته ، وأيضا قبول الدولة العثمانية ، وتصميم الدول تنفيذ هذه المهمة مهما تكن الظروف والعوائق ، وأعطى له مهلة عشرة أيام ، ولكنه رفض هذا الانذار ، وانتهت المهلة [٤]. فأبلغوه أنه فقد حقه في ولاية عكا ، وأعطى عشرة أيام أخرى ، ولكنه لازال مصرا على الرفض ، عندئذ بدأت السفن البريطانية تطلق نيرانها على بيروت ، فاستولوا على بيروت وطرابلس وصيدا وصور ،

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٦٠-٤٦٢.
(٢) محمد شفيق غربال : محمد على الكبير ، ص ١٥٤.
(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٦٢.
(٤) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٤٧.

واحتلوا عكا بالقوة ، وكان ابراهيم باشا يعتمد على عكا أكثر من غيرها لتحصينها القوى ، فانهزمت الجيوش المصرية وتقهقرت ، فاضطر ابراهيم للعودة الى مصر [١] .

ثم توجه جزء من الأسطول لتنفيذ المهمة الى ثغر الاسكندرية حيث ألزم محمدعلى ، قرار الدول ، بأن تكون له ولاية مصر ولذريته من بعده وكان ذلك في سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م فقبل الباشا بذلك وأرسل الاسطول العثماني الى اسطنبول وتم تسلمه للدولة العثمانية في اوائل ذى الحجة سنة ١٢٥٦هـ/ الموافق ٢٤ يناير سنة ١٨٤١م ، لذلك أصدر السلطان عبدالمجيد المرسوم السلطاني الذى ينظم الوراثة العائلية لمحمد على مشتملا على امتياز حكم القطر ، بمصادقة الدول الأوربية ، وبعد هذا المرسوم توجه محمد على الى اسطنبول لعرض طاعته على السلطان [٢] .

وهكذا فان فكرة الدولة العربية التي رسمها خيال محمد على ورعاها ابنه ابراهيم لم تلق في بلاد الشام التأييد اللازم مما عجل في القضاء عليها مناهضة بريطانيا وخاصة بالمرستون [٣] .

وهكذا أسدل الستار على احداث شخصية محمد على القوية بعد صدور المرسوم السلطاني ، وعاد تحت الطاعة كما كان سابقا . أما السلطان فقد بدأ في مواصلة الاصلاحات التى لقنه مبادؤها والده .

وتحت وطأة هذه الأزمة أصدر السلطان عبدالمجيد أول مرسوم من مراسيم التنظيمات وعرف هذا الخط باسم خط كلخانة [٤] ، وتفصيل ذلك هو أن بعد تسلم عبدالمجيد السلطنة بحوالى أربعة أشهر ، استدعى رشيد باشا السفير

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، جـ١ ، ص ٦٩٠-٦٩١ .
(٢) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٩١ .
(٣) جورج انطونيوس : يقظة العرب ، ص ٢٤ .
(٤) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٨٤ .

فوق العادة في لندن الى اسطنبول ليعين وزيرا للخارجية ، وما ان تسلم مقاليد منصبه حتى حمل معه الدعوة لنظام حكم برلماني دستوري ، مدعيا رفع الدولة الى مصاف الدول المتقدمة عن طريق دستور ينص على حقوق المواطنين والغاء عدم المساواة البارزة بين المواطنين (١) .

وكان رشيد باشا هذا قد عمل سفيرا في لندن وباريس ، وبطبيعة عمله السياسي ألم بسياسات الدول العظمى وتأثر بها ، فتحمس لتحديد سلطة السلطان تحمسه للاصلاح وذلك بتطوير النظم وجعلها شبيهة بالنمط الأوربي الدستوري ، على أن تكون بداية الانطلاق هي مصلحة الرعايا المسيحيين وتحسين أحوالهم (٢) .

وقد استطاع رشيد باشا الوصول الى هذا العمل حينما استغل الازمة التي سببتها هزيمة القوات العثمانية في نزيب من القوات المصرية للحصول على المساندة الرسمية لترسيخ مفاهيمه الغربية بعد أن وجد أن الدولة في وضع حرج تحتاج فيه الى مساندة الدول الاوربية ضد محمدعلي ، فمن شأن اعلان هذا البرنامج التغريبي أن يوضح للدول الأوربية أن بامكان الدولة العثمانية ان تحرز التقدم وأنها تستحق الانقاذ (٣)، وجديرة بأن تعامل معاملة الدول المتحضرة الحديثة (٤) . فأجرى رشيد باشا مشاوراته مع بالمرستون وغيره من المسئولين لحسم الازمة لصالح الدولة العثمانية ، بل للحصول على المساندة الخارجية للاصلاحات التي كان على وشك القيام بها ، وهدفه منها تقوية مركز الدولة (٥) .

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥٠.

(٢) أحمدعبدالحريم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٩٩. ، عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٧١-٧٢.

(٣) أحمدعبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ١٩٩-٢٠٠ .

(٤) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٨٤.

(٥) عبدالكريم مشهداني : المرجع السابق ، ص ٧٣.

وكان السلطان عبد المجيد في تلك الفترة قد أفزعه الخطر الروسي الجاثم بجوارها الذى يترصد حركاتها ويتحين الفرص لالتهامه ، اضافة الى الانتفاضات المستمرة في البلقان بتحريض من الروس ، مما جعل السلطان يطمح الى مساندة الدول الأوربية التي جاءت معظم الخطوات التنظيمية استرضاء لها ،لتظهر أمام الرأى العام الأوربي أيضا بمظهر البلد المتقدم (١) .

ولهذا استغلت أوربا المسيحية فرصة الأزمة التي مرت بها الدولة العثمانية بسبب حروب محمد على ، على بلاد الشام ، وضغطت على السلطان عبد المجيد ، فأصدر الوثيقة المعروفة بخط كلخانة (٢) .

وللاحتفال بهذه المناسبة نصبت خيام كثيرة في حدائق قصر (طوب قبو) المعروف باسم كلخانة (دار الزهور) حيث اجتمع حشد من كبار موظفي الدولة ، وممثلي الدول الأجنبية ومن بينهم كان ولي عهد فرنسا (جوا نويل) في حين اصطفت العساكر النظامية في شوارع المدينة وميادينها المجاورة ، وحين وصل السلطان عبد المجيد الى مكان الاحتفال سمح لبطريركي الكنيستين اليونانية و الأرمنية وكبير حاخامات اليهود و الوفود من مختلف الهيئات و أعضاء الحكومة يتبعهم موظفوهم لحضور الاحتفال . و اتخذ كبار العلماء و الضباط اماكنهم المعدة لهم ، ثم بعد ذلك قدم الصدر الأعظم وعود الاصلاح التي تضمنها الخط الشريف الى رشيد باشا وزير الخارجية الذى أعلنها بدوره بصوت مسموع بالانابة عن السلطان عبد المجيد متضمنا أسس تنظيم الدولة (٣).

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوى: التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة الحديثة ،(الدارة ، ع ٢،س ١١ ،١٤٠٦هـ/١٩٨٥م)،ص ٨٢.
،عبد الكريم مشهداني: العلمانية وآثارها على الاوضاع الاسلامية فيتركيا ص ٧٢.

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوى : المرجع السابق ص ٨٢.

(٣) أ.آنكد لهارد :تركيا وتنظيمات دولت عثمانية نك تاريخ اصلاحاتي :ترجمة على رشاد (اسطنبول قناعت كتب خانه سي ١٣٢٨هـ) ص ٣٨-٣٩.
أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ص ٢٠٠ ،
روحي بك الخالدى المقدسي: الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة (مجلة الهلال ،

ومن جملة ما قال : " لايخفى على عموم الناس أن دولتنا العلية من مبدأها وهي جارية على الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها . ولذا كانت قوة ومكانة سلطتنا السنية ورفاهية وعمارية أهلها وصلت حد الغاية . وقد انعكس الأمر منذ مائة وخمسين سنة بسبب عدم الانقياد والامتثال للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة بناء على طروء الكوارث المتعاقبة والاسباب المتنوعة فتبدلت قوتها بالضعف وثرتها بالفقر . وبما أن الممالك التي لاتكون اداراتها بحسب القوانين الشرعية لايمكن أن تكون ثابتة كانت أفكارنا الخيرية المملوكية منحصرة في أعمار الممالك واتحاد ورفاهية الأهالي والفقراء من جلوسنا السعيد وصار التشبث في الاسباب اللازمة بالنظر الى مواقع ممالك دولتنا العلية الجغرافية ولأراضيها الخصبة والاستعداد وقابلية اهاليها لتحصل بمشيئة الله تعالى الفائدة المقصودة في ظرف خمس أو عشر سنين" (١).

ثم سلم رشيد باشا الخط الشريف بعد قراءته الى الصدر الاعظم ، الذى قبله ورفعه الى جبهته وصدق عليه شيخ الاسلام واطلقت المدفعية طلقات عديدة تحية من جميع بطاريات اسطنبول ، ثم تقدم أعضاء الوزارة وأقسموا يمين الولاء بتنفيذ هذا الخط . وانتهى الحفل (٢) .

من الملاحظ وضوح الرؤية الصحيحة من وجهة النظر الاسلامية نظريا لدى السلطان الشاب . كما يظهر من اضطراره اصدار تلك التنظيمات التي وضعها رجال تربوا ونشؤا على حب الغرب ومبادئه التى استفحل خطرها شيئا فشيئا حتى تحقق لدعاتها وحملتها مايصبون اليه فيما بعد ومن بعدهم أسيادهم وهم المحركين لهم في الخفاء (٣).

---

(١) أ . انكد لهارد: تركيا وتنظيمات دولت عثمانية نك اصلاحاتي ، ص ٣٨ .
، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٨١ .

(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠٠ .

(٣) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥٢ ، حاشية رقم (١) .

ويعتبر هذا الخط من أهم مظاهر الغزو الفكرى في الدولة لأنــــه أول تنظيم أتاح للنظم الأوربية أن تتسرب الى مؤ سسات الدولة المختلفـــــة خاصة وأن الذى قام بصياغته واصداره مصطفى رشيد باشا ،سفير الدولـــــة في باريس ولندن ،ووزير الخارجية في عهد السلطان عبد المجيد، الذى تصفـــه المراجع الأوربية بالاستنارة ، وقد تأثر الى حد بعيد بالافكار الأوربية [1].

وأخطر مافي خط كلخانه هو اعطاء الذميين نفس أوضاع المسلميـــن ، فهذا الخط يمثل بدء اصدار أوامر سلطانية لاتستند الى حجة شرعيــــة أو فتوى شيخ الاسلام [2]. لهذا نص علىتساوى رعايا الدولة أمام القانــون المسلمين منهم وغير المسلمين ،ولكن مع المحافظة على الشريعة الاسلاميـــة أو الاطار الاسلامي ،رغم مانص عليه الخط من أن مرجع ضعف الدولة هـــو عدم تطبيق مبادىء القرآن وتشريعاته السماوية [3] . ومع ذلك كان هــذا الخط خطوة كبيرة نحو الأخذ بالقوانين الوضعية حين قرر المساواة بيـــن المسلم وغير المسلم [4]، وتوفير الاخاء بين كل رعايا الدولة العثمانيـــة بهدف تقوية الدولة عن طريق تعزيز ولاء سكانها المسلمين والمسيحييـــن، لاضعاف الروح الاسلامية [5].

وقد أكد هذا الخط على معالجة بعض الأمور الأمنية والادارية منهـــا ضرورة ايجاد ضمانات لأمن جميع رعايا الدولة على أموالهم وأملاكهـــم وأرواحهم ، وبالتالي وجوب اعلان المحاكمات ومطابقتها للوائح والغـــاء نظام مصادرة الأملاك ، ومحاكمة المجرمين علنية .

---

(١) محمدعبد اللطيف البحراوى: التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنـة الحديثة ،(الدارة ،ع ٢ ،س ١١ ،١٤٠٦هـ/١٩٨٥م) ص ٨٢.
(٢) محمدعبد اللطيف البحراوى: المرجع السابق ،ص٨٢.
(٣) أحمدعبد الرحيم مصطفى: فيأصول التاريخ العثماني ،ص ٢٠١.
أ. أنكدلهارد: تركيا وتنظيمات دولت عثمانية نك تاريخ اصلاحاتى،ص ٣٨
(٤) عبد العزيز نوار: الشعوب الاسلامية ،ص ١٨٥.
(٥) أحمدعبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢٠١.

و ايجاد نظام ثابت للضرائب يحل محل الالتزام الذى وضعه خط كلخانه بأنه من آلات الخراب في الدولة ومن أسباب تدهورها • ثم تحديد نظام ثابت للجندية بحيث لاتستمر مدى الحياة ، بل تحدد مدتها بفترة تتراوح بين أربع أو خمس سنوات والغاء القطاعات العسكرية الغاءا عاما [1].

وقد كلف مجلس الأحكام العدلية الذى نشأ في عهد محمود الثاني لوضع التشريعات بايضاح تفاصيل اجراءات الاصلاح ، وبهذا بدأ عصر التنظيمات منذ سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩م واستمر حتى اعلان الدستور سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٦م [2].

كما دعى هذا الخط أيضا الى الحرية الشخصية والتملك الشخصي بحرية حتى لورثت الجناة ، التي تستلزم اعمالهم مصادرة أملاكهم ، أصبحت لاتصادر ، ثم التفت الى التجنيد ، وقسم الجيش لست فيالق ، اثنان في شبه جزيرة البلقان ،وفيلقان في آسيا الصغرى ،وفيلق في سوريا ،وآخر في العراق كما وضعت قوات في اليمن واستدعى الخبراء الفرنسيون والبروسيون لتدريب الضباط على أحدث النظم واستخدام الآلات الحربية الجديدة [3]

ونتيجة لذلك استتب الأمن ،وتأسست المدارس الطبية والحربية ، وأنشأت وزارة المعارف ، وأعلن مبدأ التعليم المجاني الاجبارى ،وامتدت يد الاصلاح الى الولايات ، واستورد السلاح الجديد المتطور ، فأصبحت القوات العسكرية على يد الخبراء تستكمل تدريبها على أحدث الأساليب العصرية [4]. وأعيد تنظيم الادارة المحلية والمركزية ، فكان الأكثر خطورة هو النظام العلماني الجديد الذى أدخل على السلطة القضائية ،ولم يبق تحت حكم

---

(١) أ٠ أنكدلهارد: تركيا وتنظيمات دولةعثمانية نكتاريخ اصلاحاتي ، ص ٣٩٠
،على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ١٥١٠
، عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ،ص ١٨٥٠
، أحمدعبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٠٢
،عبدالكريم مشهداني : العلمانيةواثارها علىالاوضاع الاسلامية في تركيا ص ٧٢ - ١٧٣٠

(٢) أ٠أنكدلهارد :المصدر السابق ص ٣٩٠
، أحمدعبدالرحيم مصطفى :المرجع السابق ، ص ٢٠١-٢٠٢٠

(٣) على حسون : المرجع السابق ،ص ١٥١٠

الشريعة الاسلامية الا كما ذكرنا قانون الأحوال الشخصية (١).

ومنهنا أعرضت الدولة عن الخط الاسلامي الذى كان يطبقه أسلافهم تطبيقا حير الأوربيين ، لقوة الدولة وتماسكها ، بتمسكها بكتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وظهرت مظاهر الغزو الفكرى فى نظمها ظنا منهم أنهم سينقذون الدولة من الانحطاط ،وما يدرون أن انحطاط الدولة فيابتعادها عن الشريعة الاسلامية .

وبهذه الاعمال قطعت الدولة العثمانية شوطا شاسعا في طريق التغريب ، وأرسل الطلاب الى أوربا لاتمام تحصيلهم العلمي (٢)، وازدادت الاتصالات بالغرب وعين الشبان العثمانيون الذين تعلموا في ديار الغرب في الوظائف الدبلوماسية في الدولة (٣) . وهكذا فتحت التنظيمات العثمانية الجديدة باب الدولة لتدفق الحضارة الأوربية المادية عليها بأقصى سرعة ممكنة ، في الوقت الذى كانت فيه هذه الحضارة تستغل بشكل بشع الدولة العثمانية اقتصاديا ،وسياسيا ، كما أن ذلك فتح باب الارساليات التنصيرية والمدارس الأجنبية على مصراعيه حتى عمت مختلف مناطق الدولة العثمانية ومدنها (٤).

ان هذا الخط بالرغممن موافقته لأهداف الدول الأوربية فانه لم يمر دون مصاعب ومتاعب فقد رفضه النصارى بدعوىأنه يجردهم منالامتيازات التي كانوا ينعمون بها عدة قرون ، والتيوفرتها لهم الحمايات الاجنبية حيث كانوا في شبه استقلال ذاتي فالكاثوليك كانوا تحت الحماية الفرنسية والأرثوذكس تحت الحماية الروسية ،أما البروتستانت فهم تحت الحماية الانجليزية (٥).

---

(١) أ.أنكدلهارد: تركيا وتنظيمات دولت عثمانية نك تاريخ اصلاحاتي ،ص ٣٩.
، على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ١٥١.

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ص ٦٩١.

(٣) على حسون : المرجع السابق ،ص ١٥١.

(٤) عبدالعزيز نوار: الشعوب الاسلامية ،ص ١٨٦.

(٥) خير الدين التونسي : أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك(الطبعة الثانية ،تونس ، الدار التونسية للنشر ،١٩٨٦م) ص ١٤١-١٤٢.

وقد امتدح هذا الخط أيضا ثلة من الأوربيين حيث اعتبروه بمثابة "العهد الأعظم " بالنسبة للعثمانيين (١).

أما موقف المسلمين من صدور خط كلخانة ،فقد تذمروا بشدة حين رأوا ان الدولة تساويهم بالنصارى واليهود ، ورأوا في رشيد باشا الصدر الأعظم آلة في يد الدول الأوربية ، وأنه كثيرا مايمالئ النصارى على حساب المسلمين ، مما أحدث اضطرابا شديدا ،خاصة بين موظفي الدولة في الولايات المختلفة ، وقد رأوا أن هذا الخط يضر مصالحهم الاقتصادية ويحد من حرياتهم التى ضمنها لهم الاسلام ، لهذا أعلنوا بين الناس أن " هذا شرع جديد مخالف لشريعة الاسلام " مما اضطر الدولة لارسال شيخ الاسلام " عارف حكمت " الى جهات الاضطراب لوعظ الناس وأمرهم بالطاعة والامتثال وخطب بذلك على المنابر وبين للناس أن تلك التنظيمات ليست خارجة على المنهج الشرعي وماهي الا ضبط للجهات الشرعية التي كانت أهملت من قبل ، وان لجوء الدولة اليها هي تحسين أوضاع المملكة وحفظ حقوق الأمة فهدأت الرعية ،وسكنت ،واستمر العمل بالتنظيمات في سائر الجهات بيسير بقدر الامكان (٢) .

وبعد أن أنهى الاتحاد الأوربي تسوية مشكلة الدولة العثمانية مع محمد علي ،لم تعد الدولة بحاجة ماسة الى الاصلاح باعتباره سلاحا دبلوماسيا ، لهذا اشتدت المعارضة للاصلاح نفسه (٣)، وانشطر الرجال البارزون الى قسمين الاصلاحيون ، وعلى رأسهم رشيد باشا ، والمحافظون على النظم الاسلامية ، وعلى رأسهم رضا باشا . وتساعد الفئة الأولى انكلترا ، وروسيا الفئة الثانية . أما السلطان فكان يرتدد بين الفريقين ،حتى مال الى المحافظين على النظم الاسلامية ،بعد أن كان مؤيدا

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٢٠١ .

(٢) أ.أنكدلهارد : تركيا وتنظيمات دولت عثمانية نك اصلاحاتي ،ص ٤٦ .
خير الدين التونسي : أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ص ١٤١-١٤٢ .

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٢٠٤ .

للاصلاح ، وعزل رشيد باشا سنة ١٢٥٧ هـ/١٨٤١م (١).

ومما يظهر أن التفكير في عزل رشيد باشا وفي الوقت نفسه وقف مفعول خط كلخانة ، لم تكن أجهزة الدولة المضطربة هي المسئولة وحدها عنه ، بل لقد لعبت روسيا دورا كبيرا في عزل رشيد باشا لانها كانت ضد سياسة التنظيمات ، لانها ترى في هذا الخط حائلا دون تحقيق اطماعها ، وبريطانيا ترى فيه معينا لها على تحقيق اطماعها . وعلى اى حال فقد توقفت الحركة الاصلاحية بعد عزل رشيد باشا مؤقتا ،ثم استعادت قدرتها على المسير مرة أخرى (٢) .

ولما لم يكن لدى السلطان جهازا اداريا يستطيع أن يدير وينفذ الاصلاحات عندما اتجه الى الاصلاح ،فقد أعاد رشيد باشا الى رئاسة الوزارة سنة ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م (٣) . وعندما عاد رشيد باشا الى السلطة ،تابع حركته الاصلاحية (٤) ، لتدريب البيروقراطيين اللازمين لمتابعة اصلاحاته موضع التنفيذ . سواء كان على رأس العمل معه أو فيمن سيخلفه ،ليواصل هذه الاصلاحات من بعده .

وأوجد رشيد باشا بعد موافقة السلطان تقسيما اداريا يشبه التقسيم الفرنسي ،اذ قسمت البلاد الى عدة ولايات ،فسناجق ، فأقضية ، ووضع ادارة كل ولاية بيد ثلاثة موظفين . وهم الوالي،والحاكم العسكري ، والخازن ، ثم أوجد في كل ولاية مجلس من الوجهاء لمراقبة ادارة الوالي، وقد سعى رشيد باشا الى تحقيق الاصلاح المالي فلم يفلح ،ولكنه أنشأ المصرف العثماني ،ثم سعى في اصلاح الجيش فنجح في ذلك بشكل محدود .

---

(١) أ.انكدلهارد : تركيا وتنظيمات دولت عثمانية نك اصلاحي ، ص ٤٧-٤٨. ، عابدين حمادة : تاريخ الشرق والغرب (الطبعة الثالثة ،دمشق ، المطبعة الجديدة) ١٩٥٨م ، ص ٢٠.

(٢) عبد العزيز نوار: الشعوب الاسلامية ص ١٨٧.

(٣) أ. أنكدلهارد: المصدر السابق ص ٧٧ . ،عبادين حمادة :المرجع السابق ،ص ٢٠ ، أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٢٠٤.

(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ،ص ٢٠٤.

هذه الاصلاحات تم تنفيذها فقط على العاصمة اسطبول وماحولها وكان لها تأثيرها هناك ولكنها لم تطبق في سائر ولايات الدولة لعدم استعداد الراى العام لتقبلها (١).

مع العلم ان الدولة العثمانية قد خطت منذ القضاء على الخطر المصرى سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م وحتى نشوب حرب القرم سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م بفترة هدوء مكنتها من دعم الاصلاحات العسكرية التي تريدها مع بعض الاصلاحات الضرورية التي تحتاجها الدولة في نظر رشيد باشا (٢) .

الا أن تلك الاصلاحات بقيت سطحية لانها لم تمس جوهر المرض ، بل كانت تظاهر امام أعين الناس وكان جل اهتمام هذا الاصلاح الذى جاء به رشيد باشا ينصب على الاهتمام باحوال الرعايا من النصارى في البلاد العثمانية ، وليس تقدم المسلمين او ادخال النظم الحديثة الى بلادهم باستثناء القشور الزائفة التي كانوا ولايزالون يهتمون بانتشارها كما شقت الازياء الاوربية طريقها الى العاصمة الاسلامية واعطى السلطان المثل بارتداء اللباس الأوربي وبمنحه العطايا واقامة المناسبات والحفلات على ذلك الطراز الأوربي، من لباس وعادات ولم تكسب البلاد من وراء هذه الاصلاحات الا الاخلال بتعاليم الاسلام واستباحة محرماته ولذلك طالب أولئك المستغربون بأن يكون قصد الاصلاح آمن وسعادة كافة المواطنين دون اعتبار للدين .

ومع ذلك طالبوا بما ادعوه اصلاح الافئدة والعقول وثورتها في صفوف من يقودون دفة الحكم في الدولة ،وازداد تدخل الدول الاوربية في شئون الدولة العثمانية تحت شعار انصاف النصارى والدفاع عنهم .(٣)

بيد أن حرب القرم تعتبر أحد تلك الحروب العديدة التي تصارعت فيه الدول الكبرى الاوربية حول الشرق العثماني لاطماعها في توزيع ممتلكات

---

(١) عابدين حمادة :تاريخ الغرب والشرق ، ص ٢٠-٢١
(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ الاسلامي ،ص ٢٠٥.
(٣) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ١٥٢.

الدولة الاسلاميـــة [1].

وكما تمخضت آزمة محمد علي سنة ١٢٥٥ هـ - ١٢٥٦م / ١٨٣٩-١٨٤٠م ،عن صدور خط شريف كلخانة ، فقد تمخضت حرب القرم سنة ١٢٧٠ هـ - ١٢٧٣هـ / ١٧٥٣-١٨٥٦م ،عن صدور خط اصلاحي جديد هو الخط الهمايوني سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م.

فبعد القضاء على خطر محمدعلي، عادة روسيا الى سياستها العدوانية لتدمير الدولة العثمانية باى شكل من الاشكال عن طريق الضغط العسكري و اثارت الاضطرابات في البلقان [2]، وخاصة عندما فقدت بمعاهدة لندن سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م معاهدة (خنكار اسكله سي) المهمة سنة ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م ، فقامت بتحريض سكان البوسنه و الهرسك وبلغاريا ،وغيرها من الولايات التي تتطلع الى الاستقلال ، الى المطالبة بالحكم المطلق [3]. وفي مقابل ذلك وجد السلطان عبدالمجيد في شخص القائد عمر باشا قائدا ممتازا تمكن من قمع كل هذه الثورات و الفتن التي تثيرها المناطق المذكورة بمساندة روسيا لمعارضة حركة الاصلاح في تلك الجهات التي مهدت لحرب القرم [4] .

وتمهيدا لحرب القرم فقد حدثت في اوربا سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م الحركة الدستورية التي بدأت في باريس بظهور الجمهورية الثانية بعد اسقاط حكومة (لويس فيليب) التي آشرنا لها في الفصل الثالث ، اذ تسربت أفكارها الدستورية الى برلين وفينا وبراغ ،فاضطرت حكوماتها الى استعمال القوة ،ومن ضمن تلك الدول روسيا التي قامت بارسال قوة لاطفاء حركة بولونيا الدستورية قبل استفحال خطرها ، كما ساعدت النمسا ضد المجر وقد فر بعض المجريين الى الدولة العثمانية [5]. لان المجريين

---

(١) عبدالعزيز نوار: الشعوب الاسلامية ،ص ١٨٩.
(٢) احمدعبدالرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ص ٢٠٧.
(٣) دائرة المعارف الاسلامية : مادة تنظيمات ج ٥ ،ص ٥٠١.
(٤) احمدعبدالرحيم مصطفى: المرجع السابق ،ص ٢٠٥.
(٥) علي حسون: تاريخ الدولة العثمانية ،ص ١٥٢.

لجأوا الى الدولة العثمانية ، فطلبت روسيا من الدولة وبالحاح تسليم زعماء المجر اللاجئين الى بلادها فامتنعت الدولة العثمانية وذلك طبقا للقوانين الدولية التي تنص بعدم تسليم اللاجئين السياسيين [(١)].

وكان من نتائج الحركة الدستورية تطلع كل من الافلاق والبغدان التابعة للدولة العثمانية الى الاستقلال والانضمام الى ترانسلفانيا لتكوين دولة رومانية جديدة ، فثار الاهالي على اميرى الولايتين، فاضطرا الى الفرار فأقاموا حكومة مؤقتة .

وردا على ذلك ارسل السلطان كعادته جيشا بقيادة عمر باشا الذى استطاع اعادة الأمور الى نصابها كما كانت عليه من قبل ، ولكن الروس الذين يتحينون الفرصة كما ذكرنا على الدولة العثمانية ، قاموا بالتدخل وارسلوا الجنود الى البغدان ، لأنهم كانوا يترقبون الى مثل هذه الاحداث للتحرش بالدولة العثمانية والتدخل في شئونها فاحتلوا مدينة الافلاق سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م مما ادى الى تأزم الموقف بين الروس والدولة ، ضد هذا التدخل حتى أصبحت الحرب وشيكة ، ولولا حدوث المخابرات بين الدولتين ، التي انتهت باحتفاظ السلطان العثماني بتعيين أمراء الولايتين ، كما كان على أن تبقى البلاد تحت حكم مشترك عثماني روسي لمدة سبع سنوات حتى يستتب الأمن وسمى هذا الاتفاق باتفاق (بلطه ليمان) موقع تركي على ضفة البوسفور [(٢)].

فكانت هذه الحركة الدستورية بداية لحرب القرم وصدور الخط الهمايوني سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م كما سيأتي .

وسبب ذلك كانت روسيا تطمح بانظارها الى امتلاك اسطنبول في اى وقت كما يعلم الخاص والعام ، فكانت في كل فرصة ولو تافهة تسنح لها في

---

(١) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٩٠.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٦٩٢.
، علي حسون: العثمانيون والروس ص ١٠٦-١٠٧.

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٤٩٠.
، علي حسون: المرجع السابق ، ص ١٠٧.

الأراضي العثمانية ، او تدنيها من قصدها ،تشن الغارة على الدولة العثمانية لتقطع منها شيئا من ممتلكاتها ،وتصل عن طريق ذلك الى تحقيق وصية بطرس الأكبر (١).

ففي سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م حاول القيصر نيقولا الاول ، أن يتفق مع بريطانيا على اقتسام أملاك الدولة العثمانية ، التي وصفها الروس " بالرجل المريض ، الذى لايرجى شفاؤه " فاقترح ان تقوم روسيا بالاستيلاء على اسطنبول ، مقابل استيلاء بريطانيا على جزيرة كريت ومصر ، الا أن بريطانيا رفضت هذا العرض خاصة وأنها كانت لاتزال متمسكة برأيها القديم ،وهي المحافظة على كامل املاك السلطان من اجل حماية طريق الهند وتوفير حاجز في مواجهة التوسع الروسي ، وقد سبق الحديث عنه في الفصل الثالث . ولهذا السبب أصبحت بريطانيا تساند حركة الاصلاح العثمانية ، التي تعارضها روسيا (٢).

وبالرغم من ان دولة روسيا كانت على يقين من ان الاصلاحات التي أدخلتها الدولة في حربيتها ،وتنظيم جنودها البرية والبحرية هي نفس الاصلاحات التي ادخلتها هي في جيشها وبها استطاعت الانتصارات على الدولة العثمانية المتوالية . لهذا كانت روسيا تتمنى ألا ترى الدولة العثمانية في مصاف الدول المتقدمة ، لان ذلك اصبح يتنافى مع سياستها وامانيها التوسعية في الجهات الشرقية . فظلت روسيا تنظر الى الدولة العثمانية بعين الحقد وتود عرقلة مساعيها في اصلاحاتها العسكرية القائمة (٣).

---

(١) عمر طوسون : الجيش المصرى :(مصر ،مطبعة المستقبل ، الاسكندرية ، ١٣٥٥هـ) ص ٤٥ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ج ١ ص ٦٩٣ . ، أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ص ٢٠٧. ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٩٣.

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ،ص ٦٩٣.

ثم مالبثت روسيا أن تعللت بسبب آخر عندما تحرشت بالدولة العثمانية مستغلة ماعرف باسم " أزمة البقاع المسيحية " في فلسطين . هذه المسألة تعد في حد ذاتها قليلة الأهمية في نظر السلطان عبدالمجيد ، وترجع أصول هذه الأزمة الى فترة نهاية الحروب الصليبية حين أصبحت الأماكن المسيحية في القدس وماحولها ملكا مشتركا للطوائف المسيحية في حين أن الكنيسة الارثوذكسية كانت أقوى الكنائس المسيحية في داخل الدولة العثمانية ، باعتبارها ممثلة لاكثر من ثلاثة عشر مليونا من رعايا السلطان الذين ادعت روسيا حمايتهم ،كما ادعت فرنسا حمايتها للكاثوليك (١) .فروسيا تسعى لتجريد الكاثوليك من امتيازاتها السابقة نحو الكنائس التي في ممالك الدولة العثمانية واعطائها للارثوذكس لنشرها بين رعاياها في الدولة .

بالرغم من ان المعاهدات المعقودة مع الدولة العثمانية لم تنص صراحة على مثل هذه الحماية فالدولتين حاولتا تأكيد نفوذهما بين رعايا السلطان غير المسلمين ، بتوفير حماية خاصة لكهنة كل منهما وبالتالي تكون مقاصد روسيا بمثابة آلة صماء يحركونها كيف يشاءون ضد الدولة العثمانية (٢) .

ففي منتصف القرن الثالث عشر الهجرى الموافق لمنتصف القرن التاسع عشر الميلادى وقع خلاف بين الكهنوت الكاثوليكي والكهنوت الارثوذكسي للاستيلاء على مفاتيح الاماكن المقدسة في فلسطين واشتد الخلاف فتدخلت على اثر ذلك الحكومة الفرنسية للدفاع عن الكاثوليك والحكومة الروسية للدفاع عن الارثوذكس (٣)،وهكذا اشتد الاحتكاك بين روسيا وفرنسا بحيث

---

(١) محمدفريد بك :تاريخ الدولة العلية ،ص ٤٩١.
، احمدعبدالرحيم مصطفى : في اصول التاريخ الاسلامي ،ص ٢٠٨
، علي حسون : العثمانيون والروس ،ص ١٠٧

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ج ١ ص ٦٩٣.
، أحمدعبدالرحيم مصطفي : المرجع السابق ،ص ٢٠٨

(٣) عابدين حماده : تاريخ الشرق والغرب ، ص ٢١.

حاولت كل منهما الضغط على السلطان الذى لزم الحياد • ورغم تهديد روسيا بقطع علاقتها الدبولماسية معه اذا استسلم للضغط الفرنسي [1] وأخذت كل منهما تطلب من الحكومة العثمانية منح امتيازات الاماكن المقدسة للفئة التي تحت رعايتها ، فوقفت الحكومة العثمانية ازاء ذلك حائرة مترددة [2] • الا أن حجة الكاثوليك كانت أقوى بموجب الامتيازات الممنوحة لفرنسا سنة ١١١٣هـ/١٧٤٠م من الدولة العثمانية نجدانها تخولهم الحصول على امتلاك الكنائس فيها ،وكان الروس يسعون جاهدين لسلبهم تلك الامتيازات واعطائها للأرثوذكس بسبب حمايتهم لذلك المذهب ونشر نفوذهم في الدولة عن طريق تحريك رعاياهم في البلقان وضرب الدولة بهم •

ففي الوقت الذى كانت فرنسا منشغلة بحروب نابليون والثورة فانها لم تتمكن من المحافظة على مركزها هناك فسيطر الارثوذكس على مركز النفوذ، فقام نابليون الثالث بمحاولة لاعادة الوضع في محاولة منه لارضاء الرأى العام الفرنسي بالتدخل لدى الباب العالي لفض الخلاف ، وقد احال السلطان هذه القضية على لجنة لحل هذا الخلاف ،وبعد عدة اجتماعات قرر المجتمعون باحقية الكاثوليك في امتلاك عدة كنائس وأديرة ،فيها حق الأولوية للكاثوليك فعارض الروس وهددوا السلطان فيما لو نفذت هذه القرارات ولكن الدولة العثمانية كانت حازمة ولم تتردد عن موقفها [3].

فبالرغم من تهديد روسيا فقد قرر السلطان سنة ١٢٦٨هـ/١٨٥٢م منح الكاثوليك بعض الامتيازات التي أقرتها اللجنة ،وأهمها تسليم المفاتيح الثلاثة الخاصة بالأبواب الرئيسية لكنيسة العذراء وباب السراديب القائمة تحت كنيسة المهد في بيت لحم ، لذلك ارتاح السفير الفرنسي في

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠٩•

(٢) عابدين حمادة : تاريخ الشرق والغرب ص ٢١•

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٩١-٤٩٢
،علي حسون : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٥٣
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ص ٦٩٣•

اسطنبول بهذا الاجراء فثارت ثائرة الارثوذكس ، كما استاءت روسيا شعبا وقيصرا من هذا القرار [1] . فعزم قيصر روسيا على الانتقام من الدولة العثمانية وارضاء الراى العام الروسي ،متخذا من هذا الخلاف ذريعة لتنفيذ وصية بطرس الأكبر، ولهذه الغاية ارسل الى اسطنبول سفيرا فوق العادة يدعى منشتكوف (Menthikof) الذى طلب من السلطان منح قيصر روسيا حماية الرعايا الأرثوذكس في الدولة العثمانية فرفض السلطان هذا الطلب الذى يمس كرامة وسيادة الدولة العثمانية [2].

والحقيقة لم يكن يقصد من ارساله الا ايجاد اسباب الشقاق للتوصل في النهاية الى اعلان الحرب بحجة مقبولة لدى الدول . وبالفعل حصل ماكان يتوقعه له،صدام شديد بين منشتكوف وبين وزير خارجية الدولة العثمانية القوى فؤاد باشا ،وقد نتج عن هذا اللقاء ان صفع فؤاد باشا منشتكوف صفعة قوية ألقته على الارض لاخلاله بأصول القواعد المتبعة أثناء مقابلة السلطان مما زاد الموقف تأزما ولتأزم الموقف طلب السفير الروسي تغيير هذا الوزير بآخر يدعى (رفعت باشا) فلبى طلبه [3]وهذا ماكانت تريده روسيا في التخلص من هذا الوزير القوى الذى كان يكره روسيا ويميل الى بريطانيا .

وقد خشيت فرنسا من وقوع الحرب بين الدولة والروس ،لتصرفات هذا الوزير الروسي ،لأن الامبراطور نابليون الثالث يميل الى السلم ،فكلف سفيره في اسطنبول باخبار السلطان باستعداد فرنسا لتنازلها عن قسم كبير من الحقوق التي كان قد منحها السلطان الى الكنيسة الكاثوليكية ، وعلى أثر ذلك اتفق منشتكوف مع رئيس الوزراء التركي الجديد على باشا

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٢٠٩
، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٤٩١-٤٩٢
، على حسون : العثمانيون والروس ،ص ١٠٨.

(٢) محمد فريد بك: المصدر السابق ص ٤٩٢-٤٩٣
، أحمد عبد الرحيم مصطفى: المصدر السابق ،ص ٢٠٩
،على حسون : المصدر السابق ، ص ١٠٨

(٣) على حمادة : تاريخ الشرق والغرب ، ص ٢٢.

منح روسيا حق الاشراف على المذهب الارثوذكسي في الدولة العثمانية ومنح الارثوذكس الحق في ممارسة دينهم بحرية تامة ، واعتقد الرأى العام زوال شبح الحرب (١) .

لذلك بدأ منشتكوف يبذل جهده لدى السلطان لاحياء معاهدة (خونكار اسكله سي) القاضية بأن يكون لروسيا حق حماية جميع المسيحيين الموجودين بين رعايا الدولة ،وكان السلطان العثماني يتردد في الاجابة وفي هذه اللحظة أعاد رشيد باشا الى الصدارة ،لأنه سبق عزله ارضاء لروسيا منعا لأسباب الشقاق فظهر من ذلك أن السلطان قد عدل عن سياسة اللين والمسالمة وعزم رفض مطالبة روسيا وايده في ذلك عدوها اللدود رشيد باشا(٢).

ومهما يكن فلابد أن ندرك الدور الذى لعبه سفير بريطانيا في اسطنبول (ستراتفورد كانتج) المشهور باسم (لورد اتفورد دى ريدكليف) هو السبب في وقوع حرب القرم ، الذى كان يدرك حقيقة الكراهية الشديدة التي كان يكنها الشعب الانجليزى للروس بسبب تصادم المصالح في أكثر من منطقة ، وكان هذا الرجل له مكانة كبيرة لدى السلطان عبد المجيد، حتى لقد وصف بأنه " السلطان العثماني " غير المتوج ،لذلك كان كانتج يدرك أن روسيا بلغت من القوة الدرجة التي أصبحت فيه قوة خطيرة تهدد القوة البريطانية وان تقليم اظافرها في وقت مبكر خير من تأجيل الحرب التي لابد أن تقع في يوم ما ،وكانت ظروف بريطانيا مواتية تماما حيث أن نابليون الثالث - امبراطور فرنسا - كان قد عقد العزم على أن لايصطدم ببريطانيا ،وأن تكون امجاده العسكرية بالتعاون مع بريطانيا ضد روسيا أو النمسا(٣).

---

(١) عابدين حمادة : تاريخ الغرب والشرق ،ص ٢٢.

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٩٤-٤٩٥.

(٣) عبد العزيز نوار: الشعوب الاسلامية ،ص ١٩٠-١٩١. ، محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٩٣-٤٩٤.

وعندماعادالسفير البريطاني من رحلته الى بريطانيا ، استغل هذه الظروف ،لما يتمتع به من نفوذ قوى بسبب مساندته للدولة وللبرامج الاصلاحية ، فأقنع السلطان برفض المطالب الروسية [1] وابعاد على باشا عن رئاسة الوزارة ،وتعيين رشيد باشا صديق انجلترا وعدو روسيا مكانه التي كانت لها دور في عزله من وزارة الخارجية كما سبق [2].

ولما رأى منشتكوف عدول السلطان عن اعطائه هذه الامتيازات ارسل له بلاغا نهائيا في ٢٦ رجب ١٢٦٩هـ الموافق ٥ مايو سنة ١٨٥٣م بطلبات دولته وطلب الاجابة في مدة أقصاها خمسة ايام لكن السلطان لم يلتفت الى هذا البلاغ،ولما انقضت المدة بدون الاجابة على طلبه انتظر ثمانية أيام أخرى على أمل أن يرد عليه السلطان ،فماكان من السلطان الا أن صمم على رفض طلبات الروس ،لذلك قطع السفير الروسي في ١٧ شعبان ١٢٦٩هـ الموافق ٢٦ مايو سنة ١٨٥٣م العلاقة مع الدولة العثمانية مهددا الدولة باحتلال جنوده لامارتي الافلاق والبغدان [3] . فتدخل رئيس وزراء النمسا لمنع نشوب الحرب،وكاد أن يصل الى اتفاق بين الطرفين لمنع الحرب لولا السفير البريطاني المذكور الذي حال دون ذلك بالايعاز الى رشيد باشا بالتصلب في موقفه وعدم التساهل ،وهكذا قضى كانتنج على آخر أمل بالسلم [4].

فتقدمت الجنود الروسية الى الافلاق ، ودفع الانجليز ومن ورائهم الفرنسيين الدولة العثمانية باتجاه الحرب ولوحوا لهم بالمساعدة ،فأعلن السلطان الحرب على روسيا في سنة ١٢٦٩هـ/١٨٥٣م [5] وأنذر الروس باخلاء الافلاق والبغدان خلال خمسة عشر يوما ، وأمر السلطان عمر باشا بعبور

---

(١) احمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ،ص ٢٠٩

(٢) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العثمانية ص ٤٩٥.
،عابدين حمادة : تاريخ الغرب والشرق ،ص ٢٢
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،جا ص ٦٩٣.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ص ٤٩٥
، اسماعيل سرهنك: المصدر السابق ص ٦٩٣.

(٤) عابدين حماده : المرجع السابق ص ٢٢

(٥) محمد فريد بك: المصدر السابق ص ٤٩٥
،عابدين حمادة : المرجع السابق ص ٢٢.

الدانـــــوب بعد ان تجاهلت روسيا الانذار العثماني ، فاستطاع القائد العثماني عمر باشا من تحقيق النصر على الروس ،فتقهقر الجيش الروسي عن الضفة اليسرى للدانوب [(١)].

لذلك أبحر الادميرال الروسي (نشيمون) حالا باتجاه الجنوب ليهاجم القاعدة البحرية في " سينوب "[(٢)] . ففاجأته السفن العثمانية هناك . وأطلقت العديد من السفن الحربية الروسية المجهزة قذائفها السريعة فأصابت هذه القذائف السفن الحربية العثمانية التي استطاعت اصابتها واغراقها والجدير بالذكر أن الروس كانوا قد تعهدوا لفرنسا وانكلترا بعدم الاعتداء على البحر الاسود وكان ذلك في سنة ١٢٦٨هـ/١٨٥٣م[(٣)] . ولأجل ذلك دخل الاسطولان الانجليزى والفرنسي البحر الاسود وطلبوا من الاسطول الروسي الانسحاب الى سيواستوبول (اسباستوبول)فاستاء القيصر لهذا الطلب الذى من شأنه أن يظهر ضعف روسيا المسيطرة على البحر الاسود منذ عهد بطرس الأكبر ،لكنه لم يعبأ بهذا الانذار الذى أرسلته فرنسا وانكلترا معا مما أدى الى اعلان الحرب من قبلهما على روسيا سنة ١٢٦٨هـ/١٨٥٤م ، وتوجهت حملة فرنسية انجليزية الى غاليبولي للدفاع عن اسطنبول[(٤)]، لاحبا في الدولة ولكن خوفا من امتداد نفوذ روسيا وبسط سيطرتها على اسطنبول[(٥)].

---

(١) على حسون : العثمانيون والروس ، ص ١١٠-١١١.
، اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ص ٦٩٤.

(٢) سينوب : بلدة تركية على الساحل الجنوبي من البحر الاسود ،تقع على رأس شمالي غرب سمسون .
- على حسون : العثمانيون والروس ، ص ١١١ ، حاشية رقم (١).

(٣) على حسون : المرجع السابق ، ص ١١١ .
، اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٩٥.
، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٩٨.

(٤) عابدين حمادة : تاريخ الغرب والشرق ، ص ٢٢-٢٣.

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٩٨.

هذا التدخل كان بعد عدة معارك طاحنة دارت بين الروس والدولة العثمانية لا داعي للخوض فيها، وكانت النتيجة، بعد المشاورات والمداولات بين الدول الأوربية والدولة العثمانية اقترحت نقل المعركة الى بلاد القرم والاستيلاء على المرفأ الروسي الحربي سيواستوبول فكان لهم ذلك فتم حصار سيوستوبول الذى دام حوالى سنة كاملة ودخلت هذه الحرب أيضا (البيمونت) في الحرب مع الحلفاء ضد روسيا وذلك للتقرب من نابليون لمساعدتها على الوحدة الايطالية . فاستولى الحلفاء على سيواستوبول بعد تحطيم الاسطول الروسي وبعد مذابح وأهوال عديدة وتضحيات جسيمة حتى أتت سنة ١٢٧٢هـ الموافق ١٨٥٥م ، مال الفريقان الى السلم بعد أن توسطت النمسا بينهما (١).

وكانت الأسباب الرئيسية لعقد الصلح ، أن حقق الانجليز والفرنسيون هدفهم ،وهو تحطيم الاسطول الروسي ،وبذلك لن يكون في استطاعة الروس القيام بدور في البحر الابيض المتوسط بعد أن ثبت للحلفاء السيطرة البحرية الكاملة في البحر الأسود ، التي كانت روسيا تسيطر عليه ،فاكتفى هؤلاء الحلفاء بهذا النصر ،ورفضوا التقدم وراء سيواستوبول ، مع أن بريطانيا كانت تريد الاستمرار حتى تذل روسيا اذلال كاملا يقضي على دورها في السياسة الأوربية ، ولكن نابليون اختلف مع بريطانيا فى استمرار الحرب وأمر بوقف الحرب ، الأمر الذى أرغم الانجليز على وقفها (٢).

وبعد مداولات ومخابرات تم الاتفاق بين النمسا وبريطانيا وفرنسا على شروط قدمتها النمسا الى روسيا في سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م على شكل انذار بالانضمام الى الحلفاء في حالة رفضها (٣).

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٥٠٨.
، عابدين حمادة : تاريخ الغرب والشرق ،ص ٢٣ .
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار جـ ١ ص ٧٠٠-٧٠١.
(٢) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ص ١٩٢.
(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ص ٢١٠.

وهذه الشروط لايقاف الحرب بين المتحاربين كانت كمايلي :

أولا : وضع المقاطعتين (الافلاق والبغدان) التابعتين الى تركيا العثمانية تحت حماية الدول الأوربية ، بدلا من حماية روسيا وحدها.

ثانيا : حرية العبور في نهر الدانوب.

ثالثا : اعادة النظر في اتفاقية المضايق المعقودة عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م لمصلحة التوازن الأوربي.

رابعا : حماية رعايا السلطان المسيحيين على أن لاتمس هذه الحماية بسيادته.

فقبلت روسيا هذه النقاط الأربع ، وتم الاتفاق على عقد معاهدة باريس في سنة ١٢٧٣ هـ/ ١٨٥٦م [٢] لانتهاء المسألة الشرقية أو انهاء هذه الحرب بين روسيا والدولة العثمانية.

وفي باريس تقرر عقد هذا الصلح بين الدولتين للسلم ، بتاريخ ١٨ جمادى الاخرة سنة ١٢٧٣ هـ الموافق ٢٥ فبراير سنة ١٨٥٦م.

وكان أهم البنود التي جاءت في نصوص هذه المعاهدة هي :

١ - تعهد الجميع بحفظ استقلال الدولة العثمانية الاسلامية.

٢ - المصالحة بين الفريقين المتحاربين واخلاء ما احتل من أراضي كل فريق.

٣ - اعادة المواقع العثمانية التي احتلتها روسيا واعادة ما احتله للعثمانيين.

٤ - اعلان العفو العام واعادة الأسرى.

٥ - اعتراف الدول الأوربية باشتراك الباب العالي معهم في الاستفادة من المنافع الأوربية واحترام استقلاله والمحافظة على ذلك.

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢١٠.

(٢) عابدين حمادة : تاريخ الشرق والغرب ، ص ٢٣.

٦ - تعهد الدول المتعاهدة بالتوسط لمنع الحرب بين الباب العالي العثماني والدول الأخرى .

٧ - اصدار منشور عثماني لصالح النصارى القاطنين في المناطق العثمانية (١).

واتفق لقبول العثمانيين ضمن المجموعة الأوربية أن تنفذ البند السابع من المعاهدة ،وتصدر خطا جديدا يضع برنامجا واضحا للاصلاح أكثر اتساعا ودقة من خط (كلخانة) (٢).

وعلى هذا الأساس صدر خط " همايون " سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م وهو تأكيد على ماجاء في خط كلخانة سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م مع اضافات جديدة تتعلق بحقوق النصارى والتنظيمات الادارية الجديدة ، فكان أكثر دقة من الخط الاول ،حيث يميز بوضع حد للقوة المتناهية لروسيا ، ولايقاف مطامع الروس المتزايدة في أراضي الدولة العثمانية خاصة بعد أن منى الروس بالهزيمة سنة ١٢٧٢ هـ/ ١٨٥٥م ،وتحطم أسطولهم (٣) .

وبالرغم من أن الخط الهمايوني جاء نتيجة للضغط الخارجي ،ومن ضمن شروط الصلح على عكس خط كلخانة ،فقد تشابه الخطان في كثير من النقاط . الا أن صيغة الخط الهمايوني اكثر عصرية وأكثر اقتباسا عن الغرب بصورة لم تعهد من قبل في الوثائق العثمانية ،فهو لم يستشهد بآية قرآنية واحدة أو بقوانين الدولة العثمانية القديمة وأمجادها وكان ذلك أمرا خطيرا من الناحية النفسية ، لان هذا المرسوم يتطلع الى التغريب أكثر مما يستوجب الرجوع الى الشريعة (٤) ، وأخذ كل اصلاح يوافق

---

(١) علي حسون : العثمانيون والروس ،ص ١١٦-١١٧.

(٢) عبد العزيز نوار: الشعوب الاسلامية ص ١٩٣.

(٣) عبد الكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الاوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٧٥.
، أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ،ص ٢١١
، محمد عبد اللطيف الحبراوي: التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة الحديثة ، الدارة ،ع ٢ ،س ١١ ، ١٤٠٦/١٩٨٥م ص ٨٢

(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق ، ص ٢١٠-٢١١.

الشريعة ،ورفض كل اصلاح ينافي الشريعة الاسلامية • لارفض كل شيء ولاقبول كل شيء ، ولكن حسب المعايير المحددة في الدين الاسلامي الحنيف •

معنى ذلك كما هو واضح أن هذا الخط قد مس التقاليد العثمانية مسا خطيرا ،وتناول الشريعة بالتحريف ، ومعناه من الناحية التاريخية انحراف الدولة عن قواعدها الأصلية (١) •

ويتضح من هذا الخط التركيز على المساواة الدينية وفصل حقوق معينة للنصارى منها أن المسائل المدنية تكون العهدة في ادارتها الى مجلس مختلط بين المدنيين ورجال الدين النصارى ينتخبه الشعب بنفسه ، ومنها عدم اكراه المسلم الذى يعتنق النصرانية على الرجوع الى الاسلام بل يسمح له بالردة عن الاسلام ، واعتناق النصرانية •(٢)

لذلك كان صدور هذه التنظيمات التي أصدرتها الدولة العثمانية باسم(التنظيمات الخيرية)وانشاء المحاكم المختلطة ،وتطبيق القوانين والنظم الأوربية كما جاء في هذين الخطين في الدولة الاسلامية ،كان ينافي الاسلام عقيدة ومنهجا ،ولضعف الدولة وخللها في العلماء والسلاطين ،فقد كان ذلك بداية انهيار التشريع الاسلامي في النظم العثمانية التي كانت تنظر اليها اوربا على أنها عاصمة الاسلام ،فقد تغيرت هذه النظرة من القوة الى الضعف • ,عندما كفلت حرية العبادة وبناء المدارس على أن تتفق مع مناهج الدولة ، وسمح للاجانب بامتلاك العقارات وفق شروط معينة وأكد الخط ضرورة انشاء مجالس الولايات وكان من قبل مطبقا على نطاق ضيق (٣) •

---

(١) محمد عبد اللطيف البجراوى : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة الحديثة ، الدارة ،ع٢ ،س ١١ ،١٤٠٦هـ/١٩٨٥م) ،ص ٨٢•

(٢) على حسون :تاريخ الدولة العثمانية ،ص ١٦١

(٣) عبد العزيز نوار : الشعوب الاسلامية ،ص١٩٣

ثم فتحت أبواب معاهد التعليم الرسمية ،وبالتالى وظائف الدولة المدنية ، امام المسيحيين الذين فرضت عليهم الخدمة العسكرية رسميا، ووعدوا بازدياد تمثيلهم في مجالس الولايات والمجالس المحلية ووعد السلطان بايجاد نظام ضريبي أكثر عدالة ، كما وعد بتحديد ميزانية سنوية ،وانشاء البنوك والاستعانة برأس المال والخبرات الأوربية (اليهودية) بهدف تطوير اقتصاد الدولة وتبويب القانون الجنائي والتجارى واصلاح نظام السجون ، وانشاء محاكم مختلطة في القضايا الخاصة بالمسلمين وغير المسلمين ،وأعلنت الدول مساندتها التامة لهذا الخط لضمان تنفيذ العثمانيين لوعودهم (١).

وبعد صدور هذه القوانين الجديدة وافتتاح المحاكم المختلطة ظهر المحامون الذين يرافعون بموجب تلك القوانين العلمانية ،وقد كان المحامون من قبلهم من العلماء ، اما الآن فقد اصبحوا من صحافيين ومحامين وضباط وموظفين مدنيين ،قاموا بدور كبير في الحياة السياسية وتطبيق الاساليب والافكار الغربية الجديدة (٢) ، التى حذر منها السياسي النمساوى (مترنخ) العثمانيين ، ومن خطرها الكامن وراء استعارة أساليب الحضارة الأوربية المتعارضة مع الحضارة الاسلامية العثمانية (٣).

وقد فهم هذا الخط من زوايا متعددة ففسرته كل جماعة حسب مصالحها فالغالبية العظمى من مسيحيى الدول العثمانية كانت ترى في صدور هذا الخط مظهرا من مظاهر ضعفها وتطلع بعض زعمائهم الى الدول الأوربية وتمسكوا بما جاء في الخط الهمايوني من حقوق لهم ، تاركين مابه من التزامات وواجبات عليهم ،بل تمسكوا في نفس الوقت بما كان لديهم من امتيازات سابقة تتعارض مع الخط الهمايوني ، اى تمسكوا بكل الامتيازات الواردة في الخطين التي تخصهم — دون النظر الى التزامهم نحو دولتهم

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في اصول التاريخ العثماني ،ص ٢١١-٢١٣.

(٢) عبد الستار فتح الله سعيد :الغزو الفكرى (الطبعة الرابعة ،القاهرة دار الوفاء ،١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص ٥٨.

(٣) عبد العزيز نوار : الشعوب الاسلامية ،ص ١٨٥.

وماعليهم من واجبات واخذوا يساوموِن الدولة على ذلك [١] .

وعلى الرغم من انتقاد شيخ الاسلام هذا الخط الهمايوني كما انتقده رجل الاصلاح رشيد باشا ،وقال : " انه سار اشواطا بعيدة الى الامام ،لأنه جاء كقفزة بدلا من النص على تنفيذ الاصلاح بالتدريج ،وان الحاقه بصلح باريس يشكل خطرا على السلطان والدولة " وتبع هذه الانتقادات انتقادات آخرى من كبار رجال الدولة العثمانية ،مما أدى الى نشوب الاضطرابات في الشام . كما أن ضمانات الدول الكبرى حررت رجال التنظيمات من خوف التدخل الأجنبي مما جعلهم يعقدون على مواصلة الاصلاح الا انه كان من المعروف أن أوربا من وراء صدور هذا الخط ،مما جعل مسيحي الدول يتطلعون الى مزيد من التدخل الاوربي حول تنفيذ الاصلاحات بدلا من تطلعهم الى السلطات العثمانية .

والحقيقة أن عالي باشا وفؤاد باشا ربماكانا يهدفان باصدار هذا الخط الهمايوني ظنا منهم أنه سيكسر منحدة التدخل الاجنبي وابقاء المبادرة في أيديهما [٢] .

لهذا انتشرت الشائعات عن الدول الاوربية أنها ستقف الى جانب مسيحي الدولة لو ثاروا ضدها ، ساعد هذا على وقوع الفتن في الشام ولبنان بين الدروز والمسيحيين المارونيين ليسير لبنان في اتجاه الحكم الذاتي وبنظام خاص عرف بالمتصرفية ، الذى كان يتعارض مع خطة الدولة العثمانية في توحيد البلاد العثمانية تحت نظام واحد ،يعتمد على الخط الهمايوني [٣] .

---

(١) عبدالعزيز نوار: الشعوب الاسلامية ، ص ١٩٤.
(٢) أحمدعبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٢١٣.
(٣) عبدالعزيز نوار: المرجع السابق ،ص ١٩٤.

وهكذا نرى أن الدولة الأوربية أخذت في غزوها الفكري للدولة مسألة الطوائف غير المسلمة ذريعة للتدخل المستمر في شئون الدولة (١) .

وقد أعقب صدور خط كلخانة والخط الهمايوني مجموعة من القوانين التنظيمية التي مست المجتمع العثماني ، صدرت هذه القوانين في أوقات متفاوتة ، كان أولها صدورا هو القانون التجاري صدر سنة ١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠م ، وكان معظمه مأخوذا من القانون الفرنسي ، ثم القانون الجنائي الصادر سنة ١٢٧٥ هـ / ١٨٥٨م ، وقانون التجارة البحرية الصادر سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م ، ومجموعة القوانين التجارية الصادرة سنة ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م . كل هذه القوانين كانت أيضا مقتبسة من القانون الفرنسي ، وكذلك صدرت فرمانات أخرى حول تأسيس بنك الدولة والأوراق النقدية وانشاء جامعة عثمانية (٢).

وقانون الأراضي (الطابو) سنة ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م وقانون الولايات من سنة ١٢٧٧ - ١٢٨٠هـ / ١٨٦٠-١٨٦٣م ، كان الغرض من اصدار قانون الأراضي هو التخلص نهائيا من نظام الالتزام ، والاقطاعات العسكرية وتحسين حال الفلاح بتمليكه قطعة من الأرض . تمليكا غير مطلق يرتزق منها ، وعندما وضع القانون موضع التنفيذ جاءت نتيجته على غير ما كان يتوقع منه . فقد كان الفلاح فقيرا لايستطيع دفع قيمة الارض ، بينما كان لدى الملتزم المال والخبرة ، فسجل الملتزمون باسمهم مساحات واسعة من الاراضي وتحول الفلاح أجيرا لدى هؤلاء الملاك وبذلك لم تحل المشكلة (٣) .

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة الحديثة ، (الدارة ، ع ٢ ، س ١١ ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م) ، ص ٨٢.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة تنظيمات ، جـ ٥ ، ص ٥٠٣ ، ، عبد الكريم مشهداني: العلمانية وآثارها على الاوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٧٤-٧٥.

(٣) عبد العزيز نوار: الشعوب الاسلامية ، ص ١٩٤-١٩٥.

أما قانون الولايات، فيعتبر المحاولة العملية لاصلاح حال الولايات من جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتأكيد خضوعها للدولة. فقد حدد القانون نظام الادارة واختصاص الوالي، وطريقة انتخاب أعضاء مجلس الولاية، وكان من اهداف هذا القانون اشراك الاهالي في ادارة امور بلادهم حسب الاصلاحات الجديدة التي أدخلت في مختلف المرافق العامة. كما كان من أهداف هذا القانون ان يتمشى مع أحوال كل ولاية، اذ أدرك العثمانيون أن الولايات العثمانية تختلف عن بعضها اختلافات جوهرية أحيانا، وأنه من العسير وضع قانون موحد ينظم القوميات المسيحية البلقانية المتعددة المذاهب والاكراد الجبليين وعشائر العراق، وعصبيات الشام وعرب شمال افريقية وترك الاناضول ومسلمي البوسنة وألبانيا.

هذا القانون وضع السلطة العليا في يد الحكومة المركزية في اسطنبول وقد عملت حكومة اسطنبول هذه التنظيمات اعتقادا منها ان فساد الادارة في الولايات هو المسئول عن عدم تحسين احوالها، وانه لهذا السبب يجب أن يكون الوالي مجرد منفذ لأوامر رؤسائه في اسطنبول فقط، يرجع اليهم في أمور الولاية الهامة، يساعد على ذلك في تلك الفترة استخدام الخطوط البرقية في الدولة العثمانية على نطاق واسع في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجرى الموافق منتصف القرن التاسع عشر الميلادى [١].

أما اذا أردنا أن ندرس تلك التنظيمات فان الدولة العثمانية أصدرت هذه التنظيمات ارضاء لاوربا، ولاسيما انجلترا، لانها لم تفهم معنى هذه التنظيمات، ولامعنى تأمين الناس على أرواحهم وأموالهم واعراضهم. كأن الشريعة الاسلامية دستور الدولة العثمانية منذ تأسيسها تبيح التجاوزات والتعدى على المال والارواح والاعراض، حشا لله من ذلك. ولكن كل البلاء ليس سببه الابتعاد عن الشريعة الاسلامية

---

(١) عبد العزيز نوار: الشعوب الاسلامية، ص ١٩٥.

حتى يزول باصدار هذه التنظيمات وانما السبب في ذلك هو الاستبداد المتسلط على كل قانون وشريعة . فالتنظيمات التى منحتها لم تكن شيئا مذكورا بجوار الحرية التي منحها القرآن ، لزوال الاستبداد والجهل الذى آل اليه سلاطين عصر الدولة الثاني الذين جهلوا تطبيقه وقوانينه (١) . وانغمسوا في الشهوات والملذات الدنيوية ونسوا بناء دولهم حتى آلت الى ماهي عليه ،لم يعتبروا بأسلافهم الاول الذين طبقوا الشريعة الاسلامية في كل اعمالهم حتى سمت الدولة ، ووصلت الى اقصى المد في عهد السلطان سليمان الأول ، فارهبت بتطبيقه أوربا ودخل النظام تحت لواء هذه الدولة لما وجده في تسامح في تطبيق هذه النظم الاسلامية على أهل الذمة ، الذين لم يجدوه في أوربا نفسها .

وقد جاء هذا التشريع العلماني أو الغزو الفكرى الحديث نتيجة لعدد من العوامل منها وقع الفكر الغربي على الدولة العثمانية والضغط السياسي الذى كانت الدول الغربية تمارسه في علاقتها مع الاتراك العثمانيين لضعفهم والمحاولات المختلفة التي قام بها الاتراك أنفسهم لادخال الاصلاح الغربي الى مؤسسات الدولة العثمانية، لاسيما "التنظيمات" عدا الاحوال الشخصية فقد بقي هذا النظام خاضعا لأحكام الشريعة الاسلامية (٢). وما عداه فقد انزلق نحو العلمانية ،وخاصة بعد صدور الخط الهمايوني الذى استنبطت قوانينه من القانون الفرنسي .

والحقيقة أننا لانعرف احدا من سلاطين الدولة العثمانية الذين أصدروا " الخط الهمايوني " كان يفكر جديا في أن يصبح هو نفسه ذات يوم دستوريا ،وكان يرضى بأن يرى الدول الغربية تتدخل في شئونه الداخلية

---

(١) روحى الخالدى : الانقلاب السياسي العثماني (ج ١ ،س ١٧، مجلة الهلال ، ١٩٠٨م) ،ص ٧٦.

(٢) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ،ص ٣٥.

فكيف كان للسلطان أن يوافق على وضع قيود تحد من سلطته ،وهو أمر يتنافى مع مركزه السامي وألقابه العديدة [1].

ولكننا لو أمعنا النظر في معاهدة باريس سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م لوجدنا معناها دخول الدولة العثمانية تحت مظلة كفالة الدول الاوربية واعتراف منها بالعجز والحاجة الى حماية الدول الاوربية ،تحت أهم بند في المعاهدة وهو البند التاسع ، الذى يعد المسيحيين بحرية ليس لها ضوابط ،والغريب في الامر ان ممثل روسيا والنمسا هم أول من تنبه الى خطورة هذا البند ،وخشيا عواقبه اكثر من ممثلى الدولة العثمانية في المؤتمر لانهما خشيا سريان هذه الحرية الفوضوية الى دولتيهما اللتين تضمان عناصر وأديانا ولغات مختلفة ،لذا نرى ان ممثل النمسا يقول عقب توقيع المعاهدة : " بعد بذل كل الانفس والاموال في هذه الحرب لم ترس المسألة الشرقية على أساس ثابت لقد أشركنا الدولة العثمانية في مجموعة الدول الاوربية ... حسنا ولكن ماهو الفرق بين ان نقول لها : " نفذى البند التاسع من هذه المعاهدة أونقول لها انتحرى !! "[2]

ان قيام القوميات داخل الدولة العثمانية ، تساندها اوربا معناه تفتيت الدولة العثمانية ،والقضاء على وحدتها من الداخل ،مستغلين الأقليات غير المسلمة داخل الدولة ،وهذا من السياسات الخطيرة التي فرضتها الدول الاوربية في معاهدة باريس لاثارة هذه الاقليات ضد الدولة ، وهذا ماحدث بالفعل خلال تلك الفترة حين حدثت الفتنة بين الدروز والمارونة في لبنان من أملاك الدولة العثمانية ، ولاشك ان هذا البند كان لعبة سياسية ماهرة ضد الدولة العثمانية ، الغاية منه جرها الى أزمة مخيفة حسب تعبير ممثل روسيا الذى صرح هو أيضا عقب توقيع المعاهدة قائلا :

---

(١) زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية ، ص ٣٥.

(٢) أورخان محمد على : حياة السلطان عبدالحميد الثاني ... ص ٣١-٣٢.

" أعتقد أننا لم نعمل هنا الا لتعقيد المسألة الشرقية اكثر من السابق فبينما سقنا الدولة العثمانية المتألفة من اثنين وثلاثين مليونا الى أزمة مخيفة حرمنا روسيا ذات الثمانين مليونا من امكانية الدفاع عن حدودها الجنوبية .

ان عهد وجود الحرية دون ضوابط سوف يزلزل الدولة العثمانية أمام النظام الجديد للبحر الأسود ،من هذه المعاهدة ستندفع روسيا الى البحث الدائم عن فرصة للحرب ،وأحسب أن هذه الحرية السائبة سوف تخلق في الدولة العثمانية أسبابا طيبة لاعلان حرب جديدة عليها ، مثلا بحجة حماية ومعاونة المسيحيين الذين سوف تأخذهم حمى الحرية "(١)

والحقيقة ان معاهدة باريس هي التى مهدت لتمزيق الدولة العثمانية بقصد الحماية لرعاياها وهو ما أشار اليه ممثل روسيا والنمسا دون أن تنتبه الدولة العثمانية نفسها، ولكن الذى حصل ان الدولة العثمانية أصبحت في حالة الدفاع عن النفس تنتظر مصيرها المحتوم لاستقلال كثير من ممتلكاتها في أوربا وتنظر التوزيع املاكها في افريقيا وفي آسيا دون ان تحرك ساكنا لضعفها وعجزها المالي والدفاعي أمام الغزو الأوربي الحربي والفكرى ، وذلك لتغلغل الامتيازات الاجنبية فوق أرضها حتى أصبحت الدول الكبرى تتصارع وتمارس سيادتها التشريعية والقضائية بكل حرية لرعايها داخل الدولة الاسلامية العثمانية التي كانت لاتجرؤ هذه الدول على الاقدام لمثل هذه الاعمال في عصر الدولة الاول الا باذنها وفي قضايا محددة .

ولكن عقب حرب الروس والدولة العثمانية سنة ١٢٧٠-١٢٧٢/١٨٥٣-١٨٥٥م والتي انتهت بمعاهدة باريس كما مر بنا سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م استطاعت فرنسا

---

(١) أورخان محمد علي : حياة السلطان عبد الحميد الثاني .. ،ص ٣٢-٣٣.

وبريطانيا دفع الدولة الاسلامية الى منزلق الاصلاح أو الزامها باصدار خط كلخانة والخط الهمايوني اللذان أخرجا الدولة عن أصولها وقواعدها الاسلامية كما كانت تطبقها الدولة في عصرها الأول ،حتى سقطت في الحرب العالمية الأولى ٠

•••

جـ - التغريب : مدحت باشا وزملاؤه :

في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري الموافق للنصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ، انصبت اصلاحات السلطان محمود في الحصول على المال والقوة وايجاد القوات المسلحة القوية والحديثة ، وكان هذا ديدن من أتى بعده .

ولكن ما ان أصبحت الاصلاحات تسير على النمط الأوربي حتى سحبت خلفها الأفكار ونظم الحكم ، وأساليب الحياة الأوربية . وخاصة بعد صدور التنظيمات التي تطبعت بالمبادئ الأوربية العلمانية الخاصة بحرية العقيدة وسيادة القانون ، وهذا مارأيناه في نصوص الخط الهمايوني الذى صدر سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م [١].

وقد قام المهتمون بالحركة الدستورية بترجمة كتب رفاعه الطهطاوى من العربية الى التركية سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م والعمل على رواجها لأن فيها وصف لمشاهداته في فرنسا وحديثه عن النظام البرلماني والدستور والقوانين الأوربية ، وغيرها من الافكار الضالة التي وافقت هوى نفوس بعض الشباب العثماني المتطلع الى الاصلاح [٢] وسن القوانين الوضعية .

وخلال هذه الفترة بزر على مسرح الاحداث مدحت باشا المستغرب الذى تنقل الى كل من لندن وباريس ، وبروكسل ، ودرس وشاهد هناك هذه الأنظمة والدساتير الوضعية البعيدة كل البعد عن الشريعة الاسلامية والحضارة الاسلامية [٣] ، فصمم على ايجاد دستور وضعي يسير وفق الأحكام الغربية بغية ارضاء الدول الأوربية ليلقى الدعم والتأييد منها ، ولكن السلطان عبدالمجيد وفاه الأجل في ١٧ ذى الحجة سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م ، فسنحت الفرصة

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٢٤.

(٢) عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٧٩.

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ٢٢٥.

لمدحت باشا تحقيقمايصبو اليه [١].

ومدحت باشا هذا منتلاميذ رشيد باشا زعيم حركة الاصلاح الـذى تولى الصدارة العظمى ست مرات ، ووزارة الخارجية ثلاثمرات ،حتى وفاته سنة ١٢٧٥ هـ/١٨٥٨م فواصلتلاميذه الاصلاحات من بعده ومن أشهرهم محمد أمين وعالي باشا ،ومحمود باشا ،وكان مدحت باشا المذكور من أبرزهم ،حين ساند الحركة الدستورية التي أنهت عصر التنظيمات [٢].

والحقيقة أن غالبية السلاطين العثمانيين كانوا مخلصين فيماقطعوه من عهود لرعاياهم ،ولكنبازدياد صعوبات الدولة الماليةوحلول السلطان عبدالعزيز محل السلطان عبدالمجيد سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م انشغلت الأذهان خلال الستنيات بوسائل الحد من سلطة السلطان المطلقة ، وهي المشكلة التي غطت على سابقتها الخاصة بقبول أو رفض الاصلاحاتالمستوحاة من الغرب [٣].

تلى ذلك في سنة ١٢٧٨هـ/١٨٦١م اعلان باى تونس محمد الصادق الدستور ،وهو أول دستور في البلاد الاسلامية حيث كانت تونس في تلك الفترة تابعة اسما للدولة العثمانية [٤]. الا أن عبدالعزيز لم يلتفت الى ذلك ، بل قام في مستهل اعماله بتعيين نامق باشا وزيرا للجهاد بدلا من رضا باشا الا أنه وجه أمره الى الصدر الاعظم آنذاك عالي باشا في متابعة السير فيتنفيذ الاصلاحات الضرورية مع الالتزام بالامور الشرعية في النظام والقانونو الاستقامة و الاخلاص ،وحض على اعطاء الرعايا النصارى الدقة في في العدالة حسبما جاء في الخط الهمايوني [٥].

---

(١) علىحسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٢.
(٢) أحمدعبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٢٠٥-٢٠٧.
(٣) أحمدعبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ،ص ٢٢٥ .
(٤) عبد الكريم مشهداني :العلمانية وآثارها على الاوضاع الاسلامية في تركيا ،ص ٧٩.
(٥) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ١٦٣.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ج١ ،ص ٧٠٦.

ويفهم منهذا أنه كانيود اعطاء الرعايا النصارى أكثر من حقهم حتى يضمن عدمتدخل الدول الاوربية [1].

وقد تمكن السلطانعبدالعزيز في السنوات الأولى من حكمه تخليص بلاده من الضائقة الماليةحيث بذل جهوده للاصلاح واحاط نفسه بوزراء أكفاء ولعلصعوبة المشاكلالتي كانت تئن بها الدولة العثمانية وكثرتها وصعوبة حلها ، أوقعته في اليأس والقنوط ، والسطور التالية من مذكرات جودت باشا تصور الوضع الاقتصادى في اسطنبول في السنوات الاولى من حكم السلطان عبدالعزيز والتي كانت من أهم العوامل التي ساعدت على تغلغل الغزو الفكرى الأوربي حيث يقول : " كانت الخزينة في وضع مالي سيء جدا ويزداد سوءا معمرور الوقت ،وفي أحدالايام وقبل أن يصل فؤاد باشا الى اسطنبول كان الذهب الذى قيمته مائة قرش بالنقود الورقية المسماة "القائمة" قد ظفر وأصبح بثلاثمائة قرش ،وفي اليوم التالي تجاوزت الثلاثمائة قرش ثم ما ان وصلت القيمة الى أربعمائة قرشحتى أصبحت هذه الاوراق المالية لاتساوى شيئا ، وأصبح البقال والخباز والقصاب لايقبلها ،بينما لم يكن في أيدى الشعب سوى هذه الاوراق المالية ،لذلك بقي الكثيرون جياعا ، والذين كانوا يملكون النقد اشتروا الخبز لثلاثة أيام لذا فقد نفذ الخبز ولم يجده الآخرون فيالسوق .

وقد حاول البعض أخذ الخبز بالقوة من أيدى الذين اشتروه بكمية كبيرة ،وظهرت بعض امارات الفوضى بسبب نهب الخبز في الطرقات ، الأمر الذى دعا الكثيرين لحمل السلاح والعتاد واستولى على اسطنبول جو من الرهبة واستولت الحيرة على الجميع "[2] .

فقام السلطان عبدالعزيزبتعديل في الجهاز الحكومي ،حيث عزل عالي باشا سنة ١٢٧٨هـ/١٨٦١م وعين مكانه فؤاد باشا صدرا أعظم ،فقام فؤاد

---

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص١٦٣.
(٢) أورخان محمدعلي : السلطان عبدالحميد الثاني ... ، ص ٤٤-٤٥.

باشا أولا باصلاح المالية ، اذ كانت البلاد تئن من الافلاس بسبب الديون المتراكمة من عهد السلطانين محمود الثاني ،وعبدالمجيد [١].

ولبيان ذلك : أنه عندما نشبت حرب استقلال اليونان ودمرت الدول الأوربية اسطول الدولة العثمانية، قامت الدولة باصدار القوائم المالية وذلك من أجل الحصول على المال لتجديد مراكبها وتقوية جيوشها فأصدرت أولا في سنة ١٢٤٦هـ:١٨٣٠م أوراقا بمبلغ اثنين وثلاثين ألف ليرة بفائدة ربوية مقدارها ثمانية فيالمائة سنويا ،تسدد في ثمان سنوات وبسبب حروبالشام بين مصر والدولة العثمانية زاد العبء المالي حيث أصدار السلطان أوراق بلافائدةوامتنعت خزينة الدولة عن دفع فوائد القرض الاول ،وتوالى بعد ذلكاصدار الاوراق في كل سنة دون رصيد لها.

ولماجلس السلطانعبدالمجيد على السلطنة ، أراد سحب اوراقالفوائد واصلاح الناحية المالية ، الا أن حرب القرم وماجرته علىالدولة من المصاريف الباهظة منعه عن تتميم مشروعه الاصلاحي ،واضطرته الاحوال الىالاستدانة من أوربا للقيام بأعباء الحرب المذكور،ثم استهلكت الحرب كل القرض ،فأصدر اوراق فوائد جديدة ، واستمر الحال ايضا على هذا المنوال ،حتى ولي السلطان عبدالعزيز فؤاد باشا منصب الصدارة كما سبق ، فأقنع السلطان بضرورة ابطال أوراقالفوائد وتسوية جميع الديون ، فأصدر السلطان مرسوما سلطانيا بتاريخ ٢٢ رجب سنة ١٢٧٨ هـ الموافق ٢١ يناير سنة ١٨٦٢م لفؤاد باشا باصلاح المالية وابطال أوراقالفوائدوتسوية جميع الديون بكيفية منتظمة ،وعملميزانية لايرادات ومصروفات الدولة سنويا [٢]. فاقترضت الدولة ثمانيةملايين جنيها انكليزيا ، ثم اقترضت ثمانية ملايين أخرى بواسطة البنك العثماني ،ولكثرة الديون وتراكمها صار دفع الفوائد

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٤٥١.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ص ٧٠٧
(٢) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ،ج ١ ، ص ٧٠٧.

حملا ثقيلا على عاتق ميزانية الدولة ، فأمر السلطان عبدالعزيز بالاقتصاد حتى في أموره الشخصية ، وقد استقرت بعد ذلك أحوال الدولة المالية [١]، وأصبحت المعاملة بالنقود في كافة الولايات [٢].

وبعد ان استقرت الأحوال المالية أو كادت تحركت الفتن السياسية ضد الدولة العثمانية ،فثارت جزيرة كريت ،وكانت اليونان من ورائها وتسعى لضمها اليها ،ولكن امكانيات الدول البحرية انذاك لم تسمح لهم في هذه المرة ،بتأييد مطالب اليونان بل كلها كانت تعارض سلخ هذه الجزيرة عن أملاك الدولة العثمانية ، ولذلك منعت الدول مملكة اليونان من مساعدة جزيرة كريت الثائرة [٣]، في الوقت الذى أرسلت فيه الدولة العثمانية جيشا لقمع ذلك التمرد .

وفي هذه الفترة استقال رشدى باشا من منصب الصدارة [٤] ،فأعيد عالى باشا ،كما أعيد فؤاد باشا الصدر الاسبق ناظرا للخارجية ،وعين محمد رشدى قائدا للجيش ،وعين في ذلك الوقت عمر باشا بطل القرم قائدا عاما للجيوش المقاتلة فحارب كل المتمردين .

ولكن الدول لم يرضها ذلك العمل ،فتدخلت وطلبت ارسال لجنة دولية الى الجزيرة لتسوية أزمة القرم ،فرفض السلطان العثماني هذا الطلب واقترح اقتراحات محددة [٥]، وأرسل الصدر الاعظم عالي باشا الى الجزيرة حيث استطاع تسكين كبار الثوار في الجزيرة بمنحهم الرتب والنياشين وعين عوني باشا واليا للجزيرة ، وعاد الى اسطنبول بعد أن اضطربت المخابرات السياسية ، بشأن تحركات مملكة اليونان لمساعدة الثائرين ورغبتها في ضم الجزيرة باى طريقة ،ولو أدت الحال الى الحرب ، ولكن

---

(١) محمدفريد بك :تاريخ الدولة العلية ،ص ٤٥١.
على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ص ١٦٣

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ص ٧٠٧.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ٥٤٢.

(٤) عين في الصدارة عقب فؤاد باشا .

(٥) على حسون :المرجع السابق ، ص ١٦٣-١٦٤
،محمدفريد بك: المصدر السابق ص ٤٢
،اسماعيل سرهنك: المصدر السابق ،ج ١ ،ص ٧١١.

الدول لم تساعدها في ذلك ، بل أظهرت لها الجفاء وهددتها لو أشارت نار الحرب [1].

لهذا انعقد في باريس مؤتمر بهذا الخصوص من قبل الدول التي وقعت على معاهدة باريس سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م كان من نتائجه أن أصدر السلطان قرارا بمنح الجزيرة بعض الامتيازات في عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م منها اعفاء أهلها من دفع الأموال والخدمة العسكرية ،وبذلك انتهت الثورة مؤقتا [2].

ولكن بعد وفاة عالي باشا وفؤاد باشا ،مارس السلطان عبدالعزيز حكمه الشخصي ،وعين في منصب الصدارة العظمى شخصيات محافظة من أبرزها محمود نديم .

وعلى أثر وفاة عالي باشا سنة ١٢٨٨ هـ/١٨٧١م ظهر فريقان سياسيان عثمانيان يتصارعان حول مسألة الاصلاح ونظام الحكومة ، فهناك من كانوا يسعون الى متابعة سياسة عالي وفؤاد كما وجد المحافظون ،وقد مس الخلاف بين هذين الفريقين كثيرا من المسائل ربما أهمها مايلي :

الفريق الأول : يسعى جاهدا الى انهاء حكم السلطان المطلق، ومنح حقوق مدنية وسياسية لغير المسلمين تجعلهم مساوين للاغلبية المسلمة ، على اعتبار ان ذلك ضرورة أساسية لقيام حكومة منظمة ،والحفاظ على تمام الدولة متأثرين بالعلمانية الأوربية .

الفريق الثاني : فقد اتجه الى الامتناع عن القيام بأي اجراء من شأنه اضعاف سلطة العاهل وسيطرت العناصر الاسلامية ، وهما الشرطان الاساسيان للحفاظ على تماسك الدولة العثمانية [3].

---

(١) محمدفريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٥٤٥ .
، اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار،جا ص ٧١٢-٧١٣.

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ص ٥٤٧.
،علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ص ١٦٤
، اسماعيل سرهنك : المصدر السابق . ص ٧١٣.

(٣) أحمدعبدالرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٢٨-٢٢٩.

وحين تولى محمود نديم الصدارة العظمي وفر الفرصة لفريق المحافظين لكي يسيطر على شئون الدولة ، ويعزز نظام الحكم المطلق و الحكومة المركزية ، و انتهز السلطان عبدالعزيز الفرصة ليعيد الحكم المطلق ويؤكد خلافته كوسيلة لمساندة اتجاهاته لكسب راى العالم الاسلامي في الدولة . و اشتد سخط الفريق الأول على ممارسات السلطان السلطة المطلقة فازدياد السخط أدى الى انتشار افكار الدستور و البرلمان في الافكار التي روج لها مدحت باشا وغيره وجرت مناقشتها على صفحات الجرائد (١).

في تلك اللحظة كان مدحت باشا واليا لبغداد ، حيث كان الصدر الأعظم محمود نديم باشا ،وكان كثير العزل و التبديل ، فنقل مدحت باشا من ولاية بغداد الى آدرنه لسوء التفاهم حول التعارض في سياستهما فمر بالسلطان في طريقه الى آدرنه وطلب مقابلة السلطان وأبدى له في هذه المقابلة الخلل وسوء الادارة ،وعاقبة الأمور اذا تركت على هذه الصفة ، فاستحسن السلطان عبدالعزيز قول مدحت ،وأخذ به ،وعزل السلطان محمود نديم وعين مدحت باشا صدرا أعظم بدلا عنه (٢).

لذلك استغل مدحت باشا ،صدارة الدولة ،وحاول اقناع السلطان عبدالعزيز بوضع دستور مشتق من النظم الأوربية ، فكتب له باصلاح الوضع ، فماكان من السلطان عبدالعزيز الا آن غضب غضبا شديدا وأصدر اوامره بعزل مدحت باشا من الصدارة فورا و ابعاده وتم تعيينه واليا لسلانيك (٣).

وبعد أن عزل مدحت باشا كثر تبديل الصدور حتى بلغوا نحو العشرة في خلال سنة ونصف ثم آعيد الى الصدارة محمود نديم (٤).

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٢٢٩

(٢) روحي الخالدى المقدسي : الانقلاب العثماني ... (مجلة الهلال ،جـ٣ ،ص ١٧، ١٣٢٦ هـ /١٩٠٨م) ص١٣١-١٣٢.

(٣) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٤-١٦٥.

(٤) روحي الخالدى : المصدر السابق ،ص ١٣٢.

أما السلطان عبدالعزيز فقد قام باصلاحاته الداخلية أهمها: القانون القاضي بجواز انتقال الميرية (أى الخراجية) الموقوفة لورثة صاحبها ومنها وضع مجلة الأحكام الشرعية سنة ١٢٨٥هـ/١٨٦٩م للعمل فيها في المحاكم النظامية التي أنشئت [١]، وهي محاولة لجمع قانون الملكية وقانون الضمانات وفق المذهب الحنفي، وقام بهذا مجلس برئاسة أحمدجودت باشا [٢].

وبعد مدة قصيرة أعيد مدحت باشا الى اسطنبول وعين وزير دولة في حكومة السلطان، فاتفق مع حسين عوني باشا قائد الجيش (سرعسكر) الدولة على خلع السلطان عبدالعزيز [٣].

وكان السلطان عبدالعزيز يدرك سوء نوايا الدول الاوربية المتحالفة مع الدولة في حرب القرم ومابعدها لم تكن الا لاضعافها بالتدخل في شئونها الداخلية، ومساعدة مناهضة الطوائف الخاضعة للدولة على بث روح الفتن والفساد، تحت اسم نشر الحرية والعلوم، فرأى السلطان أن الأولى به هو الابتعاد عن الدول الأوربية الغربية والتحالف والتقرب من الروس وأيده في ذلك الصدر الاعظم محمود نديم، وقيل كثرت اجتماعات السلطان العثماني مع سفير روسيا في اسطنبول الجنرال اغناتيف وقد تواتر هذا القول وشاع ولكن لم يثبت في أوراق رسمية بين الطرفين معاهدة هجومية دفاعية، يكون من أهم بنودها، ضم جميع بلاد المشرق التي تتبع الولايات الاسلامية او التي يغلب فيها العنصر الاسلامي للدولة العلية الاسلامية، واختصاص جميع الاقاليم المسيحية أو التي يسود فيها العنصر المسيحي لروسيا [٤].

---

(١) علي حسون: تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٦٤
، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية، ص ٥٤٦.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية: مادة تنظيمات، ج ٥، ص ٥٠٣

(٣) علي حسون: المرجع السابق، ص ١٦٥.

(٤) محمد فريد بك: المصدر السابق، ص ٥٧٥.
، علي حسون: المرجع السابق، ص ١٦٥.

ولما شاع هذا الخبر ، لجأت الدول الاوربية خوفا على مصالحها في الشرق وخاصة انجلترا، للدسيسة وتأليب الموقف ضد السلطان عن طريق عمالهم وسفرائهم في اسطنبول السريين وغير السريين متهمين السلطان بالتبذير والاسراف وعدم الاهلية لادارة مهام الملك . حتى اقنعوا بوسائلهم المتعددة الوزراء بوجوب عزله وان اقالته من الاعمال الواجبة .(١)

ويبدو أن هذه الدول افتعلت هذه الاشاعة ، التي لم تدون بمعاهدات مكتوبة ،لأن السلطان حينما حاول الرجوع والعمل على استقرار الدولة ، أبت عليه اوربا واتخذتمن الازمة المالية عاملا جديدا ،أو سلاحا جديدا للتدخل في شئون الدولة العثمانية (٢). لاسيما وانها قامت بتقوية الأسطول والجيش وكان هذا هو هم السلطان وشغله الشاغل بحيث أصبح أسطوله يأتي بالمرتبة بعد الاسطول الانكليزي لذلك أقلق بريطانيا ولم يكن ينافس هذا الجيش سوى الجيش الروسي ، لذلك لابد من اضعاف هذا الجيش ، اما بدفعه الى الحرب مع روسيا لاستنفاذ قوته اوتدبير انقلاب للاطاحة بالسلطان ولم يكن دفعه الى الحرب ممكنا مع روسيا ،فقد اتبع السلطان سياسة حيادية واتى الى الصدارة بمحمود نديم الذي اشيع عنه انه صديق روسيا (٣).

وعلى كل حال لما تسلم زمام الدولة حزب مدحت باشا المناصب الهامة في الدولة (٤) بدأوا في عقد الاجتماعات لعزل السلطان عبدالعزيز وكان اركان المؤامرة هم الصدر الاعظم محمد رشدى ،وحسين عوني ناظر الحربية واحمد باشا قيصرلى ناظر البحرية، ومدحت باشا ، وشيخ الاسلام حسن خير الله أفندى (٥) . وكان حسين عوني هو الرأس المدبر وقائد هذه الحركة ،قد اشترك

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٥٧٥-٥٧٦.
،على حسون: تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٥.

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوى: التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالازمنة الحديثة (الدارة ع ٢ س ١١ ،١٤٠٦) ص ٨٢.

(٣) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ...،ص ٧٠

(٤) روحي الخالدى المقدسي: الانقلاب العثماني (مجلة الهلال ،ج٣ ،س ١٧ ، ١٣٢ هـ/١٩٠٨م) ص ١٣٣.

(٥) اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ، ص ٧٢٢.

في معارك عديدة ، وأبدى بطولات فيها ،وترقى في المناصب حتى وصل الى وزير الحربية " سر عسكر " ولكنه تعرض لغضب السلطان بمكيدة من الصدر الأعظم نديم باشا سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م حيث عزل من منصبه وجرد من أوسمته والقابه ونفي الى بلدة " اسبارطه "(١) ، وتم ابلاغه امر ذلك النفي في منتصف الليل ولكنه غادر العاصمة في الصباح الباكر الى منفاه وبقي هناك حوالي احدى عشر شهرا ثم عفى السلطان عنه وجعله على ولاية آيدين ، ثم وزيرا للبحرية (٢) . ولكن الباشا لم يعف عن السلطان وقد قرر الانتقام منه . وفي سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م طلب اذنا من السلطان للذهاب الى الخارج للعلاج فأذن له السلطان . وفي باريس عقد حسين عوني بعض الاجتماعات السرية ،فاجتمع مع رئيس جمهورية فرنسا المارشال (مكمهون) على انفراد وهذه الزيارة جاءت خارج البروتوكول ،وكانت زيارة سرية تحت ستار العلاج ، دون أن يعلم بها سفير الدولة العثمانية في باريس .

وكان حسين عوني يحاول جاهدا ان يضمن اعتراف فرنسا بالحكومة الجديدة بعد الانقلاب ، لذلك فقد بدأ حسين عوني يلوح بمسألة "الكوبونات" على الدوام لمعرفة مدى اهتمام فرنسا حول تأمين دفع أقساط الفائدة على قروضها للدولة العثمانية .

وبينما كان حسين عوني باشا يتصل في باريس سرا بالحكومة الفرنسية كان مدحت باشا يتصل سرا مع السفير الانجليزي السير (هنرى اليوت) للتباحث معه حول خلع السلطان عبد العزيز(٣) .

وقد اعترف السفير الانجليزي " هنرى اليوت "في المقالة التي كتبها في مجلة "القرن التاسع عشر Nineteenth Century "

---

(١) يعني بورسه .
مذكرات مدحت باشا : تعريب يوسف كمال بك حتاتة (الطبعة الاولى،القاهرة، مطبعة هندية بمصر ، ١٣٣١هـ/١٩١٢م) ص ١٣

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد : ترجمة محمد حرب عبد الحميد ، الطبعة الاولى ، الكويت ،دار الوثائق ،١٤٠٦/١٩٨٦م) ص ٢٦.
،مذكرات مدحت باشا : المصدر السابق ص ١٣.

(٣) أورخان محمد علي : المصدر السابق ، ص ٦٨ - ٦٩.

بدوره في التحريض على تنحية السلطان عبدالعزيز اذ يقول " لكوني قد قضيت في تركيا سنوات عديدة [1] فانني كنت أعلم ان الدولة العثمانية في حاجة الى اصلاحات كثيرة ،وكنت أعلم انه مالم يتم تشكيل مجلس يراقب السلطان ووزرائه فانه لافائدة من أى اصلاح وقد فرحت كثيرا عندما بلغتني المحاولات التي يقوم بها مدحت باشا وقد بذلت مافي وسعى لحثه وتشجيعه على ذلك "[2] .

وعلى أية حال ، فبعد هذه الاتصالات وجد حزب اللامركزية الصدر الأعظم محمد رشدى باشا وحسين عوني ناظر الحربية واحمد باشا قيصرلي ناظر البحرية ومدحت باشا ،وشيخ الاسلام حسن خير الله افندى [3]، التشجيع من قبل فرنسا وانجلترا ،على تنفيذ مؤامرة خلع السلطان عبدالعزيز الذين لوحوا بها من قبل واتهموه بالاسراف والتبذير .

ولكن قبل الشروع في تنفيذ خلع السلطان ، أصدر شيخ الاسلام فتوى بوجوب خلعه [4]، ووضعها في جيبه منتظرا ساعة الصفر . وكان ولي العهد الامير مراد الخامس على علم بهذا الانقلاب ،فكان يتهيأ للجلوس على العرش [5] ، لانتمائه الى هذا الحزب حزب اللامركزية ويميل الى اصدار الدستور.

---

(١) كان سير (هنرى اليوت) قد عين سفيرا لبلاده في اسطنبول سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م اى كان له تسع سنوات من سفارته عندما تم عزل السلطان عبدالعزيز.
- اورخان محمدعلي : السلطان عبدالحميد الثاني .. ص ٧١.

(٢) اورخان محمد علي : المرجع السابق ،ص ٧١.

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٥٧٦.

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق .

(٥) اورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٦٣-٦٤.

ثم أناطوا الىحسينعوني باشا ناظر البحرية بأمر خلع السلطان عبدالعزيز ،وشيخ الاسلام وباقيالوزراء بمبايعة السلطان مراد .

ففي يوم الاثنين ٦/٥/١٢٩٣هـ/ الموافق ٣٠/٥/١٨٧٦م اخذ في تجهيز مراكبه لحصار السرايا السلطانيةبحرا ،فاستغرب السلطان حصول هذه المناورات البحرية بالبحر تحت شبابيك قصره ،من دونعلمه ،فأرسل يستطلع الخبر ،فأجيب على سؤاله ان مايحدث هو من دواعى الحال ومقتضياته اوجبت ذلك [1]، ثم أخبر احمد باشا قيصر لى الصدر الأعظم ومدحتباشا بسؤال السلطان فعزموا على تنفيذالاوامر اللازمة لخلع السلطان في مساء ذلك اليومخوفا من أن يكون قد شعر بشيء من قصدهم [2] . وبما أن الأحوال تحتم وجوب كتم المسألة عنالعامة لذلك اتفق رشدى باشا ومدحتباشا وخير الله افندى شيخ الاسلام احضار ولي العهد الىالباب الهمايوني عملا بالاصول القديمة لاجلاسه علىالعرش ، وقبل الموعد بيومين ارسل عبدالعزيز رسولا الىعوني باشا للحضور الى سرايا (القصر) فتنصل ببعض الاعذار،وظن أن السلطان قدوقف على جلية الأمر [3]، ومهمايكن منالمواقف التي دائما ما تصاحب هذه العمليات فقد كلفوا رديف باشا بحصارالسرايا برا بينماحاصرها احمد باشا قيصرلي بحراء، واجتمع بعد ذلك المتآمرون بعد غروب الشمس في ذلكاليوم في ديوان قيادة الجيش ، وتوجه رديف باشا مع آلاف من الجند ، وأمر سليمان باشا رئيس المدرسة بحراسة باب السراى مع مائة من تلامذة المدرسة الحربية

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٥٧٦-٥٧٧.
(٢) مذكرات مدحتباشا : تعريب كمال يوسف كمال بك حتاتة ، ص١٣.
،محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ٥٧٧.
(٣) مذكرات مدحتباشا : المصدر السابق ، ص ١٣-١٤.

على ظهور خيولهم مدججين بالسلاح [1] . ولما تم لهم حصار سرايا السلطان برا وبحرا ، أخبروا المتآمرون بذلك ، فتوجه حسين باشا في عربة الى مقر السلطان مراد ،وأركبه معه وعاد معا الى قيادة الجيش حيث كان بانتظارهما شيخ الاسلام ،وجميع أعيان الدولة من عسكريين ومدنيين، وطوقت السرايا فرقة من الجنود لمنع من فيها من الخروج ، ثمتمت بيعة السلطان مراد الخامس بالسلطنة من الحاضرين [2] .

ودخل أيضا حسينعوني الى مقر السلطان عبدالعزيز ،وأخذه معه الى قيادة الجيش ، وأبلغههناك أن الامة عزلته وسلم صورة فتوى الخلع فلم يصدقهذا الخبر ، الاحينما رأى القوة تحاصره وتحيط به من كل جانب فنزل مستسلما ، وأحاط به الجند [3]، ونقل مع عائلته الى سراى طوب قبو ، ومنه الى بيت في "اورطه كوى " في اسطنبول [4]. وأطلقت المدافع من البر والبحر ايذانا بخلع السلطان عبدالعزيز وتتويج السلطان مراد الخامس [5] .

ويقول السلطان عبدالحميد فيمذكراته : "تولدت فكرةخلع السلطان عبدالعزيز أول ماتولدت عند حسين عوني باشا ،وسبب هذا أن السلطان نفاه من قبل الى أسبرطه • وكان المرحوم عمي وقورا ،وكان كريم الظن بكلانسان فقد عفا عن رجل حقود مثل عوني ، وبعد فترة قليلة عينه سر عسكر•

---

(١) محمد فريد بك : تاريخالدولة العلية ، ص ٥٧٧.
، عليحسون: تاريخ الدولة العثمانية ،ص ١٦٥.
(٢) مذكرات مدحتباشا: تعريب يوسف كمال بك حتاتة ،ص ١٤ •
،محمد فريد بك : المصدرالسابق ، ص ٥٧٦-٥٧٧.
(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ص ٧٢٢.
،علي حسون: المرجع السابق ،ص ١٦٦.
(٤) أورخان محمد علي : السلطانعبدالحميد الثاني ، ص ٧٢.
(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص٥٨٩ •
، اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ،ص ٧٢٢.

وهكذا ذهب عمي ضحية خطئه هذا باشتراك مدحت باشا في عملية الخلـــع ، فانتقل بذلك من مصاف رجال الحكم الى عداد الثوار. "(١).

وهكذا تم الخلع دون مقاومة من الدول الاوربية ودونما اى احتجاج على تلك الثورة الداخلية بل كانت مشتركة فيها أصابع الدول وخاصة انجلترا وفرنسا كما سبق ، بل كان لدى جميع القناصل علم بهذه المؤامرة ، وكان باتفاقهم ان لم يكن قد اشترك بعضهم فعلا في خلع السلطان (٢) • ويؤكد ذلك أن مدحت باشا قد بعث بمذكرة مفصلة الى دول أوربا قبل تنفيذ المؤامرة عدا روسيا وأعلمهم فيها بأن خلع السلطان يحتمه الشرع الاسلامي الذى يقضي بأن يكون رئيس الدولة مالكا لقواه العقلية • وهكذا باتفاق الدول الاجنبية الكبرى ، أطاح المتآمرون بالسلطان لرفضه الانصياع لرغباتهم في سن دستور للدولة الاسلامية مستمد من النظم والأفكار الأوربية (٢) بعيـــدا عن الشريعة الاسلامية •

ويذكر مدحت باشا في مذكراته ، حيث يقول : " لم نقصد بخلع السلطان والدخول في المآزق الحرجة سوى تخليص الدولة من آزمتها واتخاذ مسلك ثابت للادارة ، والدواء الوحيد لهذا الداء هو اتباع قواعد الشورى بتاسيس حكومة دستورية يعيش فيها افراد الامة الاحرار متساوين وكانت هذه المسألة قد ارتسمت في فكرى حين كنت واليا في (الطونه) فكتبت قانونا موافقا لروح العصر ، وحان وقت العمل به ولكن اعلانه كان يقضي موافقة أقراني على محتوياته فتباحثنا في مواده في الليالي التى قضيناها في السراى فقال حسين عوني باشا ان القانون الذى سنعمل به سيخالف هذا القانون في بعض مواده الاساسية فيجب أن نهمل ذكره في الخط الهمايوني الذى سننشره فاكتفينا بتنزيل مرتبات السراى السلطانية الى ٦٠ الف

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٦•
، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٥٨٠•

(٢) على حسون : المرجع السابق ، ص ١٦٦•

ليرا والحقنا معدن فحم (اركلي) وبقية المعادن والاراضي المسماه بالشفالك الهمايونية بنظارة المالية وباجراء مقدمات الاصلاح ،ولكن الأساس الذى يجب النظر اليه هو اختلال ادارة الحكومة واذا استمر الحال علىهذا المنوال فلا يتم البرء من الداء الا بالشورى التى ينتظرها الناس بفروغ صبر،وقد جلس السلطان علىتخت اجداده وهو عازم على تأسيس حكومة شورية"(١) .

يالعجب .. هل الشورىبادخال القوانين والدساتير الوضعية .. أم بتطبيق النظم الاسلامية في المعاملات والعبادات.. نسى هؤلاء أسلافهم وأعجبوا بتطبيق الدستور المستورد ، ان الدولة العثمانية فيعمرها الاول وبتطبيق الشريعة السمحاء وصلت الى قلب اوربا ،وارعدت فرائضها ، وطبقوا النظم الاسلامية في معاملة اهل الذمة ، الذين عاشوافي الدولة العثماتية والذين شهدو الهم بحفظ حقوقهم وحرية معتقداتهم وقد هرب النصارى من بلدانهم للعيش في الدولة العثمانية للتسامح الاسلامي المفقود في بلدانهم.

ويواصل مدحتباشا قوله :

" فزاد انتشار فكرة الشورى بين الاحرار وقررنا تشكيلمجلس بعد الانتهاء من حفلات الجلوس والعمل بقراراته بعد البت فيما يجب اجراؤه لاعلان الشورى ... وتوجه الموظفون الى مناصبهم واشتغل كل بعمله فتغلبالكبرياء على عبدالعزيز وانتحر في يوم الاحد وهو اليوم السادس لخلعه وذلك أنه طلب من احد خازنداراته مقراظا وقطع به شرياني ذراعيه فمات وانتشر خبر انتحاره بينالناس ولكنه لم يصلني الخبر الا بعد زمن لانى كنت آقيم في مصيفي وهو بعيد عن الآستانة "(٢) .

ولكن هيهات فقد اختلفت الأقوال في الوفاة وأسبابها ،فمن قائل انه انتحر لعدم انتظام قواه العقلية بسبب خلعه ،فمات كمدا ،وقالوا

---

(١) مذكرات مدحتباشا : تعريب يوسفكمال بك حتاتة ص ١٦.

(٢) مذكرات مدحت باشا : المصدر السابق ، ص ١٦.

ان المتآمرين قضوا عليه خفية خوفا من رجوعه الى الحكم والتنكيل بهم [1] .

لهذا اكتنفت وفاته شيئا من الغموض الا أن الأدلة والقرائن تثبت ان الانقلابيين كان لهم دور كبير في ذلك ، عندما خلعوا السلطان عبدالعزيز ابرقوا الى جميع وحدات الجيش في أرجاء الدولة ،يزفون اليهم الأمر لذلك . ولما لم يكن لدى وحدات الجيش خبر هذا الانقلاب فقد انصاعوا للأوامر فقد أرسلت جميعها برقيات التأييد ، ولكن رغم ورود هذه البرقيات الا أن بال الانقلابيين لم يكن مرتاحا فقد تأخر قائد جيش " روملي" احمد مختار باشا في ارسال برقية التأييد ، وكان من أنصار ومحبي السلطان، وموقعه قريب من اسطنبول وجيشه في نفس الوقت من أقوى الجيوش ،ليس لدى المتآمرين قوة تستطيع ردعه لو هجم على العاصمة ، لذلك دام صمته ثلاثة ايام ، أقضى مضجع حسين عوني باشا ،واعوانه ،وقد خشوا أن تتكرر وقفة العلمدار مصطفى باشا [2] لذلك تقرر قتل السلطان واعلان الخبر ، أن السلطان انتحر لكي يسدوا الطريق على أي أمل بانقاذ السلطان واعادته الى العرش ، اضافة الى حقد عوني باشا على السلطان [3] .

ومما يوجب الشك أيضا انه مات مقتولا ماكتبه عبدالعزيز للسلطان مراد قبل وفاته بيوم واحد طالبا منه نقله من (طوب قبوا)وهذا مايثبت ان قواه العقلية سليمة حيث قال: " بعد اتكالي على الله وجهت اتكالي عليك فأهنئك بجلوسك على تخت السلطنة وأبين لك حالي من الأسف على أنني لم أقدر على أن أخدم الامة حسب مرادها فآمل انك أنت تبلغ هذا الارب وانك

---

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص١٦٦.

(٢) عندما تآمر الجيش الانكشاري بخلع السلطان سليم الثالث ونجحوا في تنحيته عن العرش عام ١٨٠٨ كان العلمدار مصطفى باشا قائدا في منطقة الدانوب .وعندما سمع بخلع السلطان سار بجيشه الى اسطنبول لانقاذ السلطان ولكن في اثناء دخوله القصر قام الانكشاريون بقتل السلطان وقد قضى العلمدار مصطفى باشا على اعداء السلطان سليم الثالث فعزل السلطان مصطفى الرابع واجلس محمود الثاني على العرش .
— اورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٧٣ حاشية رقم (٧٦)

(٣) أورخان محمد علي : المرجع السابق ،ص ٧٢-٧٣.

لاتنسى اني تشبثت بالوسائل الفعالة لصيانة المملكة وحفظ شرفها
وأوصيك ان تتذكر ان من صيرني الى هذه الحالة هم العساكر الذين سلحتهم
أنا بيدي وحيث كان من دأبي دائما الرفق بالمظلومين وشملتهم بالمعروف
الذي تقتضيه الانسانية أرغب اليك آن تنقذني من هذا المكان الضيق المعتم الذى صرت
اليه ، وتعين لي محلا اكثر ملاءمة وأهنئك بان الملك انتقل الى ذرية أخي
عبد المجيد" (١).

وهذا دحض قوي لادعاءات خصومه الذين كانوا وراء مقتله (٢) . ولكن
زيادة في ايهام الناس بأنه قتل نفسه ، قام الوزراء باستدعاء أطباء
القناصل في اسطنبول ايضا لتاكيد انتحاره معتقدين آن الامة لاتصدق قولهم ،
فعمدوا الى تقوية حجتهم بالكشف الطبي المصدق عليه من أطباء السفارات
بما يعتبر اقرارا وتأكيدا لروايتهم (٣) .

ان رواية مدحت باشا التي رواها في مذكراته عن انتحار السلطان
عبد العزيز وروجها حزب الاحرار ،كماسبق ، قد جانبها الصحة . كيف لمدحت
باشا ان لايعرف عن موت السلطان الا بعد عدة أيام والسلطان مات بعد خلعه
بستة أيام فقط ، كما يقول ، وبأنه في مصيفه البعيد عن اسطنبول ؟ متى
ذهب الى المصيف ولماذا؟ وهو أهم أعضاء رجال الانقلاب ، ومتى
غادر اسطنبول ؟ هل يعقل غادرها بتلك السرعة ، اذا علمنا انه الرجل
الثاني بعد حسين عوني والاثنان غايتهما واحدة خاصة وانهما تعرضا لطرد السلطان
في يوم ما ، والأهم من ذلك آن الدولة لازالت في حاجة الى خدماته ،وكان
يخطط مع حسين عوني وغيره لوضع الدستور . ولكن هذه التناقضات التي
أوردها مدحت باشا تضيف دليلا آخر على ماسبق أنه مات مقتولا .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٥٨٠-٥٨١.
،علي حسون : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٦٦.
(٢) علي حسون : المصدر السابق ، ص ١٦٦.
(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٥٨١.

والجدير بالذكر أن حادثة الانقلاب التي دبرت للسلطان عبدالعزيز مهمة جدا ليس لانها أدت الى تغيير سلطان بل لكون ذلك أول انقلاب دبر بمساعدة الدول الاجنبية ،بحيث أصبحت الدول لم تعد تكتفي بالتدخل بجواسيسها واعوانها في تدبير الفتن الداخلية في أنحاء الدولة بل زادت في هذه المرة جرأتها وشملت محاولت تغيير السلاطين والذى يشد الانتباه أكثر ان هذه المحاولة نجحت بكل البساطة [1]، وبهذه الصورة وبمساعدة رجال الدولة ، أو حزب الأحرار ، الذين كانوا يتطلعون الى مثل هذا الحدث في الوصول الى اهدافهم لفرض الدستور الذى كانوا يحلمون به منذ أواخر عهد السلطان عبدالمجيد . وكان أشد السفراء سرورا هو السير هنرى اليوت سفير انكلترا واكثرهم غما الجنرال اغناتيف سفير روسيا الذى كان يعارض سياسة الانجليز وكما يقال صديقا للصدر محمود نديم الذى يعارض سياسة حزب الأحرار [2] .

يظهر ذلك انه عندما تمت بيعة السلطان الجديد مراد الخامس بحضور الملايين من الشعب وردت التلغرافات الى اوربا والى الولايات لاعلامها بتوليته ونادى المنادون في اسطنبول معلنين جلوسه فرفعت سفن الدول الاجنبية الرايات واثارت المصابيح ولكن السفن الروسية لم ترفع راياتها الا بعد يومين .

واستاء الروس من عزل نديم باشا وزادهم خلع السلطان عبدالعزيز غما فاجاب امبراطور روسيا على تلغراف تعيين السلطان مراد بتلغراف أرسل الى سفارة الروس في اسطنبول واخر الى ناظر خارجية الدولة العثمانية اظهر فيه تاسفه من جرأة قائد الجيش حسين عوني على خلع السلطان بقوة السلاح [3].

---

(١) أورخان محمدعلي : السلطان عبدالحميد... ص ٦٣-٦٤.
(٢) روحي الخالدى المقدسي : الانقلاب العثماني ... (مجلة الهلال ج ٣ ، س ١٧ ، ١٣٢٦/١٩٠٨م) ص ١٣٣.
(٣) مذكرات مدحت باشا : تعريب يوسف كمال بك حتاته ،ص ١٤.

وهكذا كان السلطان ضحية عدم تطبيق الدستور او المشروطية التي فرضت في عهد السلطان عبدالحميد كما سياتي في موضعه . وقد كان هذا درسا بليغا للسلطان عبد الحميد ،لذلك عندما تولى السلطنة انشأ جهازا قويا للاستخبارات ، استطاع أن يصارع الاستخبارات الأجنبية بكفاءة كبيرة وحفظ بلاده عدة سنوات من التدخل الأجنبي [1].

لذلك رأينا التدخل السافر من الدول الاجنبية ولاول مرة في تاريخ الدولة العثمانية بتدبير خلع السلطان عبدالعزيز عن السلطنة وتعيين أخوه محمد رشاد الموافق لهواهم بدلا عنه . ومما يسترعي الانتباه ويشد الباحث هو سهولة تنفيذ هذا المخطط دون رقابة من الدولة نفسها وبمساعدة رجال الدولة وعلى رأسهم اخيه والذين تأثروا بالافكار الأوربية ، وحاولوا تطبيقها في الدولة ، ولرفض السلطان المتكرر ،واصدار مجلة الاحكام العدلية جعلهم يصممون على خلعه ،لازاحته عن طريقهم لادخال الدساتير الوضعية الأوربية ، ونبذ النظم الاسلامية في المعاملات والعبادات ،فنسوا تطبيق أسلافهم لها ، وأعجبوا بتطبيق الدستور المستورد ، والذى قادهم فيما بعد الى العلمانية عن علم أو بدون علم كما سيأتي الحديث عنه .

...

---

(١) أورخان محمدعلي : السلطان عبدالحميد الثاني ...،ص ٧٢.

د- المشروطية الأولى والثانية :

أشرنا فيماسبق الى المؤامرة التي أنهت حكم السلطان عبدالعزيز، وتولية السلطان مراد الخامس عرش الدولة العثمانية سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م . ولكنه لم يدم في الحكم سوى ثلاثة شهور ، لذلك يجب أن نحلل أولا شخصية هذا السلطان قبل وبعد توليه السلطة.

لقد ظهرت ملامح شخصية مراد الخامس وميوله للغرب المسيحي منذ الزيارة التي قام بها عمه السلطان عبدالعزيز عام ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م الى انجلترا حيث كان يرافقه في تلك الرحلة . ففي هذه الزيارة نرى اهتماما خاصا يوجه لولي العهد مراد ،وبخاصة من قبل ولي عهد انجلترا آنذاك الأمير (ادوارد) ، اذ نرى أن صداقة حميمة تنشأ بسرعة ،وسبب ذلك هو أن ولي العهد مراد الخامس كان ميالا للغرب وحضارتهم ،وقد قيل انه أصبح ماسونيا في تلك الزيارة بالحاح من ولي عهد انكلترا الماسوني الذى كان مرتبطا بالمحفل الاسكتلندى ،ولكن الحقيقة أن مراد كان ماسونيا ، قبل مجيئه الى انكلترا بوقت طويل ،كما كان متعلقا بأفكار الثورة الفرنسية [١].

ولما كان المتآمرون على السلطان عبدالعزيز يعرفون أفكاره وميوله، فانهم رأوا فيه خير وسيلة لتحقيق أهدافهم [٢].

وهؤلاء هم جماعة تركيا الفتاة ، هذه الجماعة رأت أن انقاذ الدولة لايكون الا في نظام برلماني بالمفهوم الأوربي ، فبدأت في أواخر عهد السلطان عبدالمجيد حوالي سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م في تشكيل افرادها والعمل بسرية وفي الخفاء [٣] . وقد وجد أعضاء هذه الجماعة في مراد أملهم في تحقيق أهدافهم ودفع عجلة تطور في الدولة على درب أوربا ، ذلك لأنه كانت ثقافته وكل انتماءاته فكرا وسلوكا أوربية [٤]، فاتجهت تحركاتهم الى افهام مراد

---

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٥ ، ، اورخان محمدعلي : السلطان عبدالحميد الثاني ...،ص ٧٠ ، ٧١ ، ٧٧ .

(٢) أورخان محمدعلي : المرجع السابق ، ص ٧٧ .

(٣) مذكرات السلطان عبدالحميد: المصدر السابق ،ص ٤.

(٤) مذكرات السلطان عبدالحميد: المصدر السابق ،ص ٥. ، أورخان محمدعلي : المرجع السابق ، ص ٧٧.

بأن هذه الأحوال لايمكن انتعالج الا باصدار قانون أساسي يفهم السلطان بأن سلطته ليست مطلقة ، بل مشروطة بقيود وحدود يعينها ويقررها هذا القانون أو الدستور. وقد سمى الأتراك العثمانيون هذا الدستور باسم (القانون الأساسي) ، كما اصطلحوا على تسمية (العهد الدستوري) - بـ(عهد المشروطية)[1] .

ولهذا بادرت هذه الجماعة في استمالة مراد وضمه الى صفوفهم فأصبح يعقد معهم الاجتماعات السرية علي تنفيذ هذه المشروطية ،فكان على صلة قوية بأعضاء جماعة تركيا الفتاة [2] بل اعتبر عضوا رئيسيا بها.

وقيل ان الأمير عبد الحميد الثاني كان على علم بهذه الاجتماعات اذ حاول مدحت باشا وزملاؤه من جره الى صفوفهم ولكنهم لم ينجحوا في محاولاتهم[3]، الا أنني أشك في هذه الرواية ، وبدوري أتساءل : هل من المعقول أن يكون السلطان عبد الحميد الثاني يعرف شيئا عن هذه المؤامرة بل الاطاحة بعمه عن الحكم ، ويلتزم الصمت ويترك لهؤلاء الجماعة العمل بحرية تامة حتى تمكنوا من خلع السلطان عبد العزيز دون حراك ، انني أشك في مثل هذا القول حيث أنه لايمكن أن يعلم عبد الحميد الثاني بهذه المؤامرة ولايبلغ عمه السلطان ليتخذ الاجراءات الكفيلة بالتخلص من هذا الحزب الفاسد ، ولكن هذا الاحتمال ضعيف جدا.

لقد كان مراد ميالا للاصلاح حسب النهج الأوربي ومحبا للمساواة بين أفراد رعيته مقتصدا في مصرفة غير ميال للسرف[4]، صاحب انحرافات ومفاسد لاتؤهله أن يصبح سلطانا [5].

---

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٨٤.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد : محمد حرب عبد الحميد ،ص ٥٠ ، أورخان محمدعلي : السلطان عبد الحميد الثاني .. ، ص ٧٧.

(٣) أورخان محمدعلي : المرجع السابق ،ص ٧٧.

(٤) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ،ص ٥٨٤. ، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ١٦٧ ،

(٥) هيئة التحرير: عبد الحميد الثاني في أول شبابه قبل توليته الملك ، (القاهرة ،مجلة الهلال ج ٩ ،س ١٧ ،١٩٠٩م)، ص ٥١٨.

الا أنه في الوقت نفسه كان متصلا بالانقلابيين قبل توليه للحكم ،وانه كان محور اهتماماتهم ،والشخص الذى انعقدت عليه آمالهم في تنفيذ الدستور، وذلك لانه الشخص الذى انبهر بحضارة الغرب والثورة الفرنسية فأرادمحاذاتهم وكان على علم بتاريخ الانقلاب ، ولكن المكلفين بتنفيذ المهمة اضطروا الى تقديم موعد الانقلاب على السلطان [1]. تم ذلك عندما أرسل السلطان عبدالعزيز قبل تنفيذ المهمة بيومين رسولا الى عوني باشا وزير الحربية الذى هوالشخصية البارزة في تنفيذ الانقلاب لصالح جمعية (تركيا الفتاة)،يدعوه الى السراى فتنصل ببعض الأعذار وظن أن السلطان قد وقف على حقيقة الأمر فأرسل الرسل يدعون أركان المؤامرة فاجتمعوا سراواتفقوا على سرعة تنفيذ المهمة لخلع السلطان [2]،دون ان يتم ابلاغ مراد بما استجد من أحداث [3] .

لهذا ذهب حسين عوني باشا ليخبره بنجاح هذا الانقلاب ،٠ وكان الوقت ليلا ، فأيقظ السلطان من نومه ،وطلب منه أن يرتدى ملابسه على عجل ، فذعر مراد من هذا وخاف أن يكون السلطان قد أنقذ حسين باشا للايقاع به والقبض عليه . فسأله ماذا تريد؟ قال : اننا طوقنا القصر ،ولايمكن لعمك الفرار وسيعلم بعد قليل عن خلعه ،وانمراد الخامس هو وريثه الشرعي ،فلم يطمئن مراد لهذا الجواب ، فدفع اليه حسين عوني ،فرد وقال : " اذا كنت تخشى خيانة مني فخذ هذا وطير به رأسي " فاقتنع مراد الخامس قليلا ،واستعد للخروج معه حيث استقلاقاربا بانتظارهما فتوجها بالقارب نحو مدرعة بناء على أمر حسين عوني ليبلغه أمرا كان نسيه .

فهناك تعاظم قلق مراد وظن أنهذه المدرعة هي سجنه الابدى ،ولكن حسين عوني عاد وأمر البحار بالتوجه نحو مقر الجيش حينئذ اطمأن قلبه [4].

---

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ...، ص ٧٨.

(٢) مذكرات مدحت باشا: يوسف كمال بك حتاته ، ص ١٣-١٤.

(٣) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٧٨.

(٤) سليم سركيس : كتاب سر مملكة ، (طبع في مصر ،١٨٩٥م) جا ،ص ١٣٣-١٣٤. ، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،جا ،ص ٧٢٧.

ولكنه عندما رأى تألب الجموع للبيعة كما سبق أن أشرنا اليه سابقا حصل له وهم اضطره الىاصدار اراده سنية قاضية بابقاء النظار ،حسين عوني ،ومدحت باشا وخير الله أفندى ورشدى باشا ،ثلاث ليال في السراى امتثالا لارادة السلطان الجديد مراد الخامس (١).

وزاد ذلك تتابع الحوادث بعد توليه السلطة ،ساعدت على زيادة ارهاق أعصابه ، اذ لم يمض أيام من جلوسه علىالعرش حتى نعي اليه عمه السلطان عبدالعزيز . وسواء أكان مشتركا في قتل عمه أم أن جماعة الانقلاب " تركيا الفتاة " هي التي قامت بذلك دون علمه،لذلك فان هذه الحادثة قد هزته كثيرا(٢)، خاصة وأن السلطان مراد الخامس قد تعهد لعمه السلطان عبدالعزيز أن يحسن معاملته ،حين تسلم رسالته ،فلما بلغه خبر موته صاح بأعلى صوته " خنتني ياحسين عوني وقد البستموني ثوب عار لايفني الى الأبد، لانني تعهدت له أن أحفظ حياته ،فياللعار " وأوقع السلطان التهمة علىحسين عوني (٣).

لذلك كان كثيرا مايقول لمن حوله في أسف : " سيظن الناس انني أنا الذى قتلته " وكانت والدته تقول له : "انظر ماذا سيكون حالنا .انظر فقد قتلوا عمك أيضا ".

ويذكر السفير الانجليزى (السير هنرى اليوت) حيث يقول : " كان السلطان مراد رجلا وجلا وغير متزن ... يشرب الخمر كثيرا... ولكنه في الأيام التي سبقت لخلع السلطان عبدالعزيزترك نفسه تماما للشراب ، لانه كان في رغب كبير وخوف شديد من افتضاح أمر المؤامرة مما كان يعني أن رؤوسهم ستقطع لامحالة . كان منكبا على الشراب ... كمن فقد رشده ،وعند ما علم (بانتحار) السلطان عبدالعزيز ارتج من أعماقه وفقد عقله تماما "(٤).

---

(١) مذكرات مدحتباشا: يوسف كمال بك حتاتة ، ص ١٥.
، هيئة التحرير: السلطان عبدالحميد في أول شبابه .. (مجلة الهلال ، ج ٩ ،س ١٧ ، ١٩٠٩م) ،ص ٥١٨.

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ..،ص ٧٨.

(٣) سليم سركيس : كتاب سر مملكة ، ص ١٣٧.

(٤) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٧٨.

كأنني أرى من هذا النص اتهاما موجها الى شخص السلطان مـــراد يؤكد بأنه على علم بقاتله ، والحق أنه متواطىء من اللحظة الاولى مع أهـــل الثورة لقلب الحكم على عمه ، ولكن بعد تنفيذها يبدو أنه ندم ندمـــا شديدا لمسايرة الثوار على عملهم الشنيع الذى أقدم معهم عليه مع العلـــم أنه هو ولي العهد ستؤول اليه السلطنة بعد وفاة عمه ، آجلا أو عاجلا.

وهنا أتت القشة التي تقصم ظهر الجمل ، فهزت السلطان المريـــض هزا اذ قتل رجل الانقلاب القوى حسين عوني ووزير الخارجية رشيد باشا ومعهما آخرون برصاصات اطلقها عليهما حسن الشركسي ، شقيق زوجة السلطان عبد العزيـــز الثانية (مهرى) ،لأخذ ثأر السلطان عبد العزيز منهما ، لذلك اضطر الجيـــش الى مضاعفة حراسة القصر باستقدام جنود آخرين (١).

وعلى الرغم من ابلاغه بمضاعفة عدد الحرس ، الا أنه لما سمع خبر مقتـــل الشركسي المذكور لناظر الخارجية والحربية المذكورين كان في هذه اللحظـــة يتناول الطعام فازداد اضطرابـــا وتغير لون وجهه فترك الطعام وقـــام فأغمى عليه ، وصار بعدها لايميز بيـــن وزير وآخـــر ، ومـــع ذلك فقد كان الصدر الأعظم رشدى باشا يجتهد مع بقية الوزراء ورجال البيـــت المالك في اخفاء هذا الامر في اوله ،وقد استدعوا الاطباء لمعالجته ،واستمـــر في تسيير شئون الحكم الا ان امتناع السلطان عن حضوره الاحتفالات الرسميـــة وتقلده السيف حسب عادة سلاطين ال عثمان ، وعدم مقابلته للسفراء لتقديـــم اوراق اعتمادهم الرسمية ، ببقائهم في مراكزهم كالمعتاد لمدة شهرين كان موضع شك من السفراء مع ارتياب الاوضاع ذاع خبر مرض السلطان (٢). في الوقت الـــذى كان يحاول فيه مدحت باشا اعلان الدستور الوضعي بدلا من الشرع أثناء مـــرض السلطان مراد ،ويدرس القوانين والنظم الغربية ،ويتصل باعوانه حتى استطـــاع

---

(١) سليم سركيس : كتاب سر مملكة ، ج١ ، ص ٥٥.
، اورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني .. ، ص٧٩.
،هيئة التحرير: عبد الحميد الثاني في اول شبابه ..(مجلة الهلال ،ج ٩ ، س ١٧ ، ١٩٠٩م) ص ٥١٩-٥٢٠.

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ، ص ٧٢٧.

اعداد هذا الدستوربشكل جاهر [1] . الا أن وطأة المرض لم تخف بل اشتدت على السلطان ،وانتشر خبره في اسطنبول وخاصة حينما كان يمشي مع حرسه في بستان القصر ،فرمى نفسه في حوض البستان ، فأنقذوه من الغرق [2]. ولما تناقلت الصحف الأوربية خبر مرضه حينئذ ابلغ ناظر الخارجية السفراء بالحالة ،وأخبرهم بلزوم خلعه ، ثم استدعوا الوزراء في محاولة أخيرة الدكتور (ليد روزف) النمساوى رئيس مستشفي (ويانه) الشهير في الأمراض النفسية ،وطلبوا منه الكشف على السلطان ، وتأمل لحالته الصحية ، وعندما وصل هذا الطبيب لازمه عدة ايام وراى حركاته وسكناته واستعلم عن كيفية معيشته ، في ايامه الماضية ،فكتب تقريرا ذكر فيه ان مرضه هذا كان مقرونا بالخطر ،وقد بذل الجهد في معالجته فاوصى باستنشاقه نسيم البحر فصار حراسه يخرجونه في يخته الى البوغاز يوميا ،وكان المرض يزداد حتي ظهرت عليه علامات غريبة حيث كاد في احد الايام أن يلقي بنفسه من احدى نوافذ القصر، فتشاور الوزراء في تنحيته ،ثم عرضوا الامر على أخيه عبدالحميد الثاني ، وعليه أن يستلم مقاليد الحكم فنصحهم بالتاني وعدم التسرع في الأمور ولما كانت بعض الدول تلح باحلال سلطان جديد لمتابعة اصلاحات الدولة ،فقد عين لجنة من الاطباء للنظر في حالة السلطان مراد الصحية وصلاحيته لحكم البلاد ،فقرروا جميعا اصابته بداءعضال لايرجى شفاؤه [3].

وبعد أن ذهبت جميع المحاولات في استشفاء السلطان لم يبق أمام رجال مدحت باشا مناص من خلعه [4] . ولكن مدحت باشا وزملاؤه رأوا أن يأخذوا المواثيق على السلطان الجديد قبل مبايعته فقرروا أن يذهب مدحت باشا الى الامير عبدالحميد ،ويستطلعه عن رأيه في الاصلاح الذى كادوا تطبيقه

---

(١) على حسون :تاريخ الدولة العثمانية ،ص ١٦٧.

(٢) مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حتاته ،ص ١٧.

(٣) اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ، ص ٧٢٢.
،محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ،ص ٥٨٥-٥٨٦.
،هيئة التحرير: السلطان عبدالحميد الثاني في أول شبابه ..(مجلة الهلال ،ج ٢٩ ،س ١٧ ، ١٩٠٩) ص ٥٢١.

(٤) أورخان محمدعلي : السلطان عبدالحميدالثاني .. ،ص ٨٩.

لولا مرض السلطان مراد ،من حيث الدستور وغيره حتى اذا خالفهم في ذلك عرضوه على أخيه رشاد، الذى سبق أخذ موافقته .

فقد كانت شروط هؤلاء التيعرضوها علىالأمير عبدالحميد الثاني اذاتولى السلطة عليه أن :

(١) أن يعلن الدستور حالا،

(٢) ان لايستشير فياعمال الدولة الا أعضاء الحكومة الرسميين،

(٣) أن يعين رضا بك وكمال بك سكرتيرين خصوصيين للسلطان مع سعد الله رئيس السكرتارية (الباشكاتب) .

فأجاب السلطان مطالبهم بكل رضا ،ووعد بأكثر وأن يوسع النظام الدستورى الى أكثر مما يطلبون [١].

فضياء بك وكمال بك من الحريصين علىاجراء أحكام القانون الاساسي وممن اشتغلا في تسويده وتنقيحه [٢].

وعادمدحت باشا بموافقة السلطان علىاعلان الدستور ،فاجتمع الوزراء واستقر رأيهم في ١٢٩٣/٨/١٠هـ الموافق ١٨٧٦/٨/٣٠م ،على مبايعة السلطان عبدالحميدالثاني ، ثم أرسلوا بلاغا الى والدة السلطان يبلغونها فيه مع الأسف الشديد ما استقر عليه رأىالوكلاء والوزراء فأرسلت الى الصدر الاعظم كتاب اظهرت فيه قبولها فاستفتوا في ذلك شيخ الاسلام خير الله أفندى، فأفتى بالجواز[٣] . " اذا جن امام المسلمينجنونا مطبقا ففات المقصود منالامامة فهل يصح حل الامامة من عهدته ؟ الجواب يصح والله أعلم. (كتبه الفقير حسن خير الله)[٤] . وعلى ذلك تقرر مبايعة السلطان عبدالحميد الثاني [٥]،وحضرالى سراى (طوب قبو) ومنها الى سراى

---

(١) هيئة التحير: عبدالحميدالثاني في اول شبابه (مجلة الهلال ،ج ٩ ،س ١٧ ١٩٠٩م) ص ٥٢٢ .

(٢) روحي الخالدى المقدسي : الانقلاب العثماني...(مجلة الهلال ج ٣ ،س ١٧ ، ١٩٠٩م) ص ٣٤ .

(٣) اسماعيل سرهنك :حقائق الاخبار عن دول البحار ج١ ،ص ٧٢٧-٧٢٨.

(٤) محمد فريد بك: تاريخالدولةالعلية ،ص٥٨٧.

(٥) اسماعيل سرهنك : المرجع السابق ،ص ٧٢٧-٧٢٨.

بشكطاش حيث بايعه جميع من حضر من رؤساء واعيان الشعب ،كان ذلك في يوم ١٢٩٣/٨/١٨هـ الموافق ١٨٧٦/٩/٧م وتقلد السيف في مسجد أبي أيوب ،كما كانت تجرى مراسيم آل عثمان . وأظهر للوزراء رغبته الاكيدة في الاصلاح (١).

وكان عبد الحميد قد قرأ نسخة القانون الاساسي (الدستور) وقال: "ان الدولة لاتتخلص من مشاكلها الحاضرة الا اذا عملت حكومتها به" فلما جلس على كرسي العرش جلس وهو مصمم على اعلانه كالسلطان مراد.

أما مواد هذا الدستور الأساسية او المهمة فقد كانت تقضي بمساواة عناصر الدولة واتحادها تحت العلم العثماني ،واعطاء كل فرد حريته التي يبيحها له القانون وملاحظة رفع قوة الدولة والمقارنة بين دخل الحكومة ونفقاتها فكان المؤيدون لهذا ينتظرون اعلان القانون بفارغ الصبر ، اما الفريق الاخر فقد عارض صدور هذا القانون قائلين انه يمسخ شخصية السلطان ويقلب الحكومة الى جمهورية لاتحكم بكتاب الله وسنة رسوله الكريم ،وكادت هذه الخلافات ان ينتج عنها ثورة في اسطنبول بين الطرفين لولا يقظة رجال الحكومة (٢).

وبما أن السلطان عبد الحميد قد وعد مدحت باشا قبل جلوسه على العرش باصدار القانون الأساسي (٣)، الا أنه أظهر بتعيين سعيد بك كرئيس للكتاب ولبيب بك في وظيفة كاتب للقصر ،لاحاطة نفسه بالرجال المخلصين له ، لأن رجال الانقلاب لايزالون حوله ، كما أقال القائد العام رديف باشا وعين بدلا عنه عبد الكريم باشا (٤).

هؤلاء كانوا كلهم ضد اصدار القانون الاساسي ،لذلك عينهم في ديوان القصر السلطاني ،لتقوية مركزه مع سعيه لاستمالة الرأى العام لابطال الدستور (٥).

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٥٨٧.
(٢) مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حتاته ،ص ٢٣.
(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ٧٠٣.
(٤) اورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني.. ،ص ٩٤.
(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ٧٠٣.

تمت هذه التعيينات بارادة السلطان الشاب والتي أظهرت بأنه لايرضى أن يكون اسيرا او لعبة رجال الانقلاب • وقد ثار لهذا الصدر الأعظم رشدي باشا وقدم استقالته ،ولكن السلطان رفض استقالته ودعاه لمقابلته حيث طيب خاطره •

وعندماتولى السلطان عبد الحميد السلطة كان هناك تيار قوى يطالب باعلان الدستور ،ويعتقد دعاته بان شفاء امراض الدولة العثمانية لايتم الا عن هذا الطريق وأن اعلان هذا الدستور سيكون جوابا حاسما للدول الاجنبية التي كانت تطالب وبالحاح لاصلاح الاوضاع في الدولة العثمانية •

لذلك اصدر السلطان بتشكيل لجنة برئاسة مدحت باشا تضم هذه اللجنة ثمانية وعشرين عضوا وتتألف من عشرة علماء وستة عشر مدنيا واثنين من العسكريين ،كما كانت تضم أشهر الشخصيات الداعية الى اعلان الدستور مثل نامق كمال وضياء بك وممثلين عن الأقليات غير المسلمة منهم جاميح أوهانيس وأوديان أفندى ، وقد قدمت هذه اللجنة مايقارب من عشرين مشروعا حول الدستور كان دستور مدحت باشا أحدها (١).

لهذا يقول السلطان عبد الحميد : " ان مدحت باشا لم ير غير فوائد الحكم المشروطي في أوربا ،ولكنه لم يدرس أسباب هذه المشروطية ولاتأثيراتها الأخرى... وأظن أن أصول المشروطية لاتصلح لكل شعب ولكل بنية قومية • كنت أظن أنها غير مفيدة ، أما الآن فانني مقتنع بضررها"•

لم يكن مدحت باشا قد درس أى قانون أساسي في أية دولة من الدول عندما اقترح علي ضرورة اعلان القانون الاساسي ولم يكن لهم في هذا الموضوع فكر متأصل• كان أوديان افندى استاذه الفكرى • وأوديان افندى هذا لم يكن في ذلك الوقت أفضل مشرع عندنا ،خاصة أنه لم يكن يعرف البلاد• وأظن أن عدم المعرفة هذه ذهبت مع مدحت باشا حتى قلعت الطايف "(٢).

---

(١) أورخان محمدعلي : السلطان عبد الحميد الثاني،ص ٩٥•

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني: محمد حرب عبد الحميد ، ص ٢٩• ، أورخان محمد علي : المصدر السابق ،ص ٩٦•

ويواصل السلطان القول فيقول : " في عام ١٢٩٣هـ أعد كل من ضياء باشا وكمال بك وعابدين لائحة القانون الاساسي كما أعد كل من كاتب سري" سعيد باشا" لائحة وناظر المدارس الحربية المشير سليمان باشا لائحة اخرى وقدموا لي هذه اللوائح ، ولم يكن بين هؤلاء السادة توافق أفكار قط . كان كمال بك معارضا لمدحت باشا ،ومعارضا مع أصدقائه لسعيد باشا ،في هذا الموضوع ،وقدم لي مايقارب من عشرين عريضة ...

لكن المعارضيون للقانون الأساسي من طبقة الخواص كانوا أكثر من المؤيدين كان أدهم باشا وكثير من الوزراء الاخرين وأصحاب النفوذ من رجال الدولة ضد اعطاء حرية كاملة لشعب من الشعوب دون تأن واعداد ،حتى ان وزيرا جريئا في الحق مثل خير الدين باشا التونسي قال لي ذات مرة عندما كان في الصدارة العظمى : " ينبغي التفكير كثيرا قبل تسليح الأجلاف بالقانون " وهو نص تعبير خير الدين باشا)(١).

ويظهر من التقرير الذي أرسله المركيز سالسبوري (Salisbury) السفير البريطاني الى بلاده من خلال سير المباحثات حول الدستور الى بلاده قوله :"ان هناك ضغطا شديدا من جانب المبعوثين السياسيين الاتراك ،وكذلك من جانب الصدر الاعظم (مدحت باشا) بشأن اصدار الدستور الذى وعد به السلطان عبد الحميد قبل جلوسه على عرش الدولة ،وكان الثوار ينظرون الى اعلانه كضمان كاف لوقف المظالم السابقة وأن وعود الاصلاحات التي أهملت من قبل سوف تتحقق فعلا بصدوره "(٢) .

لهذا يقول السلطان لم أكن استطيع الوقوف أمام تيار ذلك العهد، وقلت : " مادامت الامة تريد تجربة مسؤوليتها عن مقدراتها وحكم نفسها فليكن ماتريده الأمة " واخترت من بين لوائح القوانين الاساسية لائحة مدحت باشا".

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني: محمد حرب عبد الحميد ،ص ٢٩-٣٠.

(٢) (2)F.O.:424/37. The Marquis of Salisbury to the Earl of Derby, No.:(210),1877.

ويواصل السلطان عبد الحميد حديثه عن الدستور لبيان السبب في اختيار لائحة مدحت باشا فيقول: " كنت مجبرا في البداية على تفضيل لائحة مدحت باشا على لوائح الآخرين ، فقد كان من الضروري أن نقدم لشعب مريض أفصح بأن اسم (مدحت) يساوي بحساب الجمل " دواء الأمة " الذى نقدم له الدواء الذى طلبه ولم أكن استطع اسكاته بصورة أخرى [(١)].

كانت لائحة مدحت باشا من مائة واربعين بندا أحالها السلطان بدوره الى مجلس الوزراء (المابين) لمناقشتها ،ثم اصدر اوامره ايضا بتشكيل مجلس النواب (مجلس المبعوثان) وأكد عليه تجنب مالايتفق اولا مع عادات وتقاليد الامة وان تقدم دراسة حول هذا الموضوع الى السلطان[(٢)] .

وأرسل خطابا الى مدحت باشا يخبره فيه باختيار لائحته الدستورية ووضعها على بساط البحث بين ايدى الوكلاء لتحويرها وطلب منه سرية هذا الكلام حتى صدورها [(٣)].

أما مجلس الوزراء أو أعضاء الدولة فبعد دراسة مسودة الدستور راى ادخال بعض التعديلات واحالها السلطان الى ثلاثة من مستشارية وهم الفريق سعيد باشا وسليمان باشا ،ورئيس الكتاب سعيد بك ٠ مع اقتراحه بادخال بند جديد على اللائحة يعطي للسلطان صلاحية نفي المشتبه به الى خارج البلاد اذا توفرت فيه دلائل الاشتباه ٠ وقد انقسم مشتشاروه الى فريقين: فريق يرى ادخال هذه المادة ،والفريق الآخر يعارضه ،وبعد تردد أصر السلطان عبد الحميد الثاني على ادخال هذه المادة الى الدستور ، وقد استغل السلطان هذه المادة لتمكينه من نفي مدحت باشا[(٤)].

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني : محمد حرب عبد الحميد ،ص ٣٠٠

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحيمد ٠٠ ،ص ٩٦٠

(٣) مذكرات مدحت باشا: يوسف كمال بك حتاته ،ص٩٩٠

(٤) أورخان محمد علي : المرجع السابق ،ص ٩٦-٩٧٠

وبما أن الثوار كانوا لايرغبون من هذا الدستور ان تكون للسلطان مميزات خاصة تميزه عن بقية الأعضاء ، لأن هذا فيه مسخ لوظيفة السلطان لكن الفريق الثاني لايريد اللامركزية ،ويؤيد سلطة السلطان بأنها أفضل من الانسياب وتسليم النظام بيد الثوار وحتى لاينسون بذلك السلطة الشرعية والقانونية للمسلمين وينساقون خلف العادات والأنظمة الغربية .

ولعل أغرب ماحاوله مدحت باشا هو محاولة اشراك الدول الأوربية في مسألة الدستور ،وجعلها طرفا ضامنا بينه وبين السلطان عبدالحميد ،فقد أرسل لهذه المهمة أستاذه " أوديان افندى " الذى كان مستشارا في وزارة الشئون الاجتماعية الى الدول الأوربية في مهمة خاصة .

ويتحدث أحمد صائب عن هذه المهمة فيقول : " استطاع "أوديان افندى " لقاء وزير خارجية انكلترا اللورد " دربي" حيث ذكر له بأن القانون الأساسي الموضوع الآن في الدولة العلية سيؤمن ويحقق أمن المسيحيين ويوفر لهم حقوقهم وان الادارة في الدولة العلية لاتمانع في وضع ادارة المشروطية بشكل معاهدة دولية وهي مستعدة لاعطاء جميع الضمانات التي تطلبها هذه الدول،لذلك فلا داعى لأى قرار يتخذه المؤتمر بشأن "روملي ".

استمع اللورد " دربي " لحديث أوديان افندى بكل اهتمام ثم ذكر له بأنه لايستطيع اعطاءه جوابا قطعيا ،ولكنه بعد أيام ذكر له بأن مسألة القانون الأساسي مسألة داخلية لايمكن أن تتدخل فيها الحكومات الأوربية)[1].

ومهما يكن فقد أتى السلطان عبدالحميد الثاني الى الحكم ، والدولة مضطربة في تلك الفترة ، فالأوضاع في البلقان تغلى ،فالثورات قائمة في البوسنة والهرسك وفي الجبل الأسود وبلغاريا بتحريض من الدول الأوربية وروسيا خاصة للمطالبة باستقلالها[2] .

---

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٩٦-٩٧.
(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٧٠٣.

ونتيجة لذلك أصدر السلطان أوامره بسرعة ارسال الجنود الى ولايات البلقان، الصرب ، والجبل الأسود والبوسنة والهرسك لاخماد ثوراتهم ،فانتصر العثمانيون في أغلب المواقع ،وشدد القائد العثماني عبدالكريم نادر باشا الحصار على الصربيين وهزم قائدهم الروسي الجنرال جرنايف ، الذى كان متقلدا قيادة الجيوش الصربية التي تقدمت لحرب الدولة العثمانية وذلك بايعاز من روسيا التي تسعى في اثارة الطوائف المسيحية على الدولة كماهي عادتها وعادة الدول الأوربية الأخرى .

وانتصر العثمانيون على جيوش الصرب بقيادة لاشانين وفتحت نيشوا ز ، وتقدمت جنود الدولة الى بلغراد عاصمة الصرب ،فانهزم جموع الصربيين .

وقد أظهرت هذه الانتصارات العثمانية خوف الامير ميلان أمير الصرب فطلب في ٢/٨/١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م من قناصل الدول الأوربية ايقاف الحرب ، والتوسط في الصلح بين الطرفين الصرب والدولة العثمانية ،وبناء على ذلك تدخلت الدول وطلبت من الدولة هدنة لمدة شهر لوضع شروط الصلح (١). ووافق السلطان عبدالحميد الثاني على عقد هذه الهدنة بشرط منع ارسال اسلحة أوذخائر أوقوات عسكرية الى ثوار البوسنة والهرسك والصرب والجبل الأسود في أثناء الهدنة الا أن الدول رفضت شرط السلطان . وتدخلت روسيا بمفردها ،وأرسلت في اليوم الخامس من أكتوبر سنة ١٨٧٦م الموافق لسنة ١٢٩٣ هـ انذارا الى السلطان العثماني بضرورة عقد هدنة بدون قيد أوشرط من جانب السلطان وان تمنح الدولة العثمانية استقلالا اداريا لبعض الولايات البلقانية وان تضمن الدول الأوربية حقوق سكانها المسيحيين . فوافق السلطان على مضض أمام تهديد الروس على عقد هدنة لمدة شهرين (٢) .

وكان الباعث من قبول السلطان عبدالحميد لهذين الشرطين هو رغبته في كسب الوقت لاستكمال استعداداته الحربية ، وحتى تصل اليه الامدادات العسكرية

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،جـ ١ ،ص ٧٢٨-٧٢٩.

(٢) عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، جـ ٢ ، ص ١٠٦٧.

التي طلبها من الولايات .

الا أن بريطانيا حاولت تخفيف حدة الأزمة خشية قيام حرب بين الدولتين لأن روسيا كانت مصممة على حرب الدولة العثمانية لتحقيق أطماعها التوسعية في الدولة تحت شعار الانتصار للشعوب المسيحية في الولايات البلقانية (١).

ولخوف بريطانيا من انفراد روسيا بالدولة العثمانية، وتحقيق أطماعها التوسعية وابتلاع الدولة، لذلك فقد أوعزت الى سفيرها في روسيا بمقابلة القيصر في روسيا لمعرفة النية الحقيقية تجاه هذه المسألة التي تنوى روسيا السير فيها. وكان جواب القيصر واضحا حيث قال: " ان على الدول الكبرى أن تعقد على الفور مؤتمرا لبحث المسألة الشرقية والقضية البلقانية واذا لم تقدم الدول الكبرى على هذه الخطوة فان روسيا ستضطر عندئذ الى انجاز هذه المهمة وحدها "(٢) .

بعد هذه المقابلة أخذت انجلترا على عاتقها مهمة دعوة الدول الكبرى الى مؤتمر في اسطنبول، تشترك فيه الدولة العثمانية لبحث هذه المشكلة.

ووافقت الدول على هذا الاقتراح ، الا أن روسيا أضافت مطلبا جديدا وهو وجوب عدم اكتفاء الدول بوعود الدولة بالاصلاحات، بل يجب أن يكون هناك ضمان قوى . ولايمكن حصول هذا الضمان الا بوجود وحدات عسكرية من هذه الدول داخل الدولة العثمانية لمراقبة مدى تطبيق هذه الاصلاحات .

ولكن هذا الشرط اعترضت عليه انكلترا قائلة ليس هناك مبرر لمثل هذا الضمان اذ يكفي ان تعد الدولة باجراء الاصلاحات (٣) .

وتقرر عقد مؤتمر اسطنبول لاتخاذ التدابير اللازمة لتسكين التحركات في البلاد واصلاحها وكان المؤتمر يضم احد عشر مندوبا اثنين من بريطانيا وهما سفيرها السير هانرى اليوت (Elliot) واللورد سالسبورى ، واثنين

---

(١) عبد العزيز الشناوى : "الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، ج ٢ ص ١٠٦٧. ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٧٠٣ - ٧٠٤

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني... ، ص ١٠٦-١٠٧.

(٣) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ١٠٧.

من كل من فرنسا وايطاليا ،والنمسا ، وواحد من هنغاريا ومن روسيا واحد هو اغناتيف ، وواحد من المانيا ،واثنين من جانب الدولة العثمانية وهما صفوت باشا ،وأدهم باشا [١] . فعقد المؤتمر جلسته الاولى بتاريخ ٦ ذي الحجة عام ١٢٩٣هـ الموافق ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦م للنظر في الاصلاحات الواجب ادخالها لتحسين احوال المسيحيين في الدولة العثمانية والتى كانت اوربا تطالب بها منذ فترة طويلة [٢] . عقدت هذه الجلسة الاولى من المؤتمر في اليوم الذى دوت فيه أصوات المدافع ايذانا باعلان القانون الأساسي . فقام صفوت باشا مندوب الدولة في المؤتمر وقال : " أيها السادة ان اصوات المدافع التي تسمعونها هي دلالة على اعلان القانون الاساسي من جلالة سلطاننا الاعظم وهذا القانون متكفل بالحقوق والحرية المعترف بها لجميع رعايا الدولة العثمانية بلا استثناء وبسبب هذه الحادثة فاعمال المؤتمر في ظني تكون لافائدة منها" [٣].

وقد علق الجنرال اغناتيف بقوله لاعضاء المؤتمر : "ان السلطان يصدر الارادات تلو الاخرى ولكنها تبقى حبرا على ورق وسيكون الدستور غير نافذ المفعول كغيره من اللوائح والقوانين الاصلاحية في الدولة العثمانية" [٤] .

وقد واصل المؤتمر اعماله باجتماع ممثلى الدول الاوربية في السفارة الروسية دون اشراك ممثلى الدولة العثمانية [٥] الذين انسحبا حين صدور الدستور . واستمر هذا الاجتماع حوالى عشرة أيام [٦] عقد خلالها تسع

---

(١) روحي الخالدى المقدسي : الانقلاب العثماني، (مجلة الهلال ، ج ٣ ،س ١٧ ، ١٩٠٨م) ص ١٣٥.

(٢) يوسف اصاف : تاريخ سلاطين ال عثمان ،ج ٢ ،ص ١٥٩-١٦١.
، روحي الخالدى المقدسي : المصدر السابق ص ٧٣٥.

(٣) روحي الخالدى المقدسي : المصدر السابق ،ص ١٣٥.

(٤) مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حتاتة ،ص ٢٧.

(٥) وقيل عشريون يوما.
- اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج١ ،ص ٧٣١.

(٦) مذكرات مدحت باشا: المصدر السابق ،ص ٢٧.

جلسات والباب العالي ينتظر بقلق نتائج هذا المؤتمر واخيرا قدمت هذه الدول خلاصة مباحثها [1] حول تسوية الولايات البلقانية على الشكل التالي:

(١) يحتفظ الصرب بوضعه قبل الحرب .

(٢) منح الجبل الاسود بعض الاراضي من الهرسك ومن الباشيا.

(٣) منح البوسنة وهرسك استقلالا اداريا وان يعين الباب العالي لهما حاكما مسيحيا لمدة خمس سنوات .

(٤) منح الاستقلال الداخلي لبلاد البلغار.

(٥) تشكيل جيش مختلط مسلح من المسلمين والمسيحيين لحفظ امن هذه البلدان.

(٦) ان تعدد اللغات الرسمية يعتبر لغة بجانب اللغة التركية .

(٧) حرية انتخاب مشايخ القرى والقضاة والعسكريين وغير ذلك في اقاليم فلبه ومقدونيا العليا المجاورة للبلاد .

أما الشروط المؤقتة فهي :

(١) تكوين لجنة مراقبة دولية من ست دول اوربية تقوم بمراقبة الاصلاحات لمدة سنة كاملة .

(٢) وان تكون من ضمن هذه القوات قوات بلجيكية قوامها خمسة الاف جندى تتحمل مصاريفها الدولة .[2]

(٣) تنتهي هذه الشروط المؤقتة بتنفيذ الاصلاحات المعنلة .

وفي اثناء هذه المباحثات حدث ماكان منتظرا اذ قام السلطان عبد الحميد بتقديم ختم الصدارة الى مدحت باشا الذى كشف جهوده منذ عدة اشهر حول اصدار القانون الاساسي (الدستور او المشروطية) وقطع فيه مراحل حتى وصل الى مراحله الاخيرة اذا تم اعلانه في يوم ٦ ذى الحجة سنة ١٢٩٣ هـ الموافق ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦م [3] ولنقف قليلا عند الحديث في الدستور لمناقشة مواد المؤتمر الذى قرر وزراؤه ابلاغ مواده للسلطان عبد الحميد الثاني

---

(١) أورخان محمد علي: السطان عبد الحميد الثاني .. ،ص١٠٨.

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، جـ ١ ،ص ٣٢١.

(٣) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص١٠٩.

الذى يقول "ارسلوا انذار الى دولتنا ،فاما تنفذ ماقالوه بالحرف الواحد واما يدخلون الحرب معنا بالتعاون مع روسيا ضدنا "[١].

وقد أثارت هذه الطلبات الغريبة الاحساس والحماس الوطني لدى العثمانيين الذين تهيؤا جميعا لرفضها لان اوربا لايمكن ان تحرمهم من ثمرات انتصاراتهم وفتوحاتهم ،وكيف تعاملهم كمغلوبين على أمرهم والأمر خلاف ذلك [٢].

لهذا اعترض الباب العالي على بعض فقرات هذه القرارات المجحفة ولاسيما فقرة الولاة المسيحيين ولجنة المراقبة وأرسل السلطان عبد الحميد لمناقشة هذا الشأن سعيد باشا سرا الى مندوب انكلترا اللورد سالسبوري قبل مغادرته اسطنبول حيث استطاع حذف اقتراح الجنود البلجيكيين كما تم الاتفاق على تعديل فقرة الولاة المسيحيين وجعلت موافقة الدول على اختيارهم مرة واحدة فقط [٣].

ولكن مدحت باشا قال ان الانجليز والفرنسيين سيقومون معنا مؤيدون حربنا ضد روسيا ودول البلقان ويقول السلطان عبد الحميد: واذا بي في نفس الوقت أتلقى عن طريق موظف خاص من السفارة الانجليزية رسالة من سالسبوري وزير الخارجية الانجليزية يقول لي فيها بصراحة انه في حالة قبولنا الحرب ضد روسيا فانهم لايستطيعون تقديم أى عون لنا "[٤] .

ولكن مدحت باشا وانصاره لم يكونوا في مستوى من يدرك الخطر الكبير الذى يجابه الدولة العثمانية ،والجو السياسي الملتهب الحالي الذى كان يحتم التصرف ببعض المرونة [٥] وخاصة حين نرى أن انكلترا التي دائما تساند

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني: محمد حرب عبد الحميد ،ص ٤١.
(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١ ،ص ٧٣١.
(٣) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ،ص ١١٢.
(٤) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني :المصدر السابق ،ص ٤١.
(٥) أورخان محمد علي : المرجع السابق ،ص ١١٢-١١٣.

الدولة العثمانية نجدها في هذه المرة تتخلى عنها في أحلك الأوقات وأقساها.

لكن جواب مدحت باشا الصدر الاعظم وانصاره كان الرفض لكل الاقتراحات المقدمة من الدول ، دون تقديم البديل ،وكانت حجتهم في ذلك انه لايسعهم قبول هذه الشروط لان ذلك خارج صلاحيتهم ،وان مجلس الشعب الذى سيجتمع (بعد انتم انتخابه) هو الذى يملك صلاحية قبول مثل هذه الاقتراحات ذلك لأن الشعب أصبح الآن هو مصدر السلطات (1).

لهذا اعترض السلطان عبد الحميد الثاني على قرار مدحت باشا الصدر الأعظم ووزرائه الذى قرر فيه رفض اقتراح الدول الكبرى . وهذا يعني الحرب .

ولعدم تروي مدحت باشا في هذا القرار ،فقد استدعى السلطان مدحت باشا الى القصر السلطاني في عجل لبحث هذه الامور ،لذلك طلب منه عقد مجلس عام من كبار رجال الدولة قبل اتخاذ أى اجراء بابلاغ الدول الكبرى بقرار موبوء مثل هذا القرار ومن الباب العالي " مجلس الوزراء "(2) فما كان من مدحت باشا (الصدر الاعظم) الا الانصياع لأمر السلطان ،وعقد مجلسا عاليا مؤلفا من الوزراء ورجال الدولة والمشيرين وأعيان المسلمين والمسيحيين، وعرض عليهم لائحة المؤتمر. وتلى عليهم مطالب الدول الاوربية وأن ردها يؤدى الى الحرب ،فتشاوروا وابدى كل منهم رأيه وقال رؤوف بك رفعت باشا ناظر خارجية سابق ، ان الحرب كداء الحمى يمكن أن نتخلص منه ،ولكن هذه الشروط كداء السل عاقبته القبر لامحالة ،فلنلبس الصوف ونوقد الشمع ونحارب العدو وقال آخر من خطبة طويلة نختار الموت على الاهانة . وقال بطريق الارمن الكاثوليك يجب رفض اقتراحات المؤتمر ،واخيرا وافق المقررون برفض مقترحات المؤتمر.

---

(1) آورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ، ص ١١٣.

(2) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني : محمد حرب عبد الحميد ،ص ٤١-٤٢.

ويظهر من هذا اتفاق وجهة نظر المسلمين والمسيحيين واليهود في المجلس واتحادهم على محبة الوطن والغيرة على منافعه ،وكان اشدهم حماسا الروم والارمن من الكاثوليك حتى ان الروم عزموا على تشكيل فرقة متطوعة لمحاربة الصرب مع الجنود العثمانيين لان استقلال الامم البلقانية من الصرب والجبل الاسود والبلغار مضر بمصالح الروم لخورجهم عن الكنيسة الارثوذكسية التي هي تحت رئاسة بطريق الروم في اسطنبول ورفضهم استعمال اللغة والاداب اليونانية (1).

ويظهر من اتفاق وجهة نظر المسلمين والمسيحيين اهمية خطر ابعاد التدخل الاجنبي وماتدعيه الاوساط الاوربية من مفتريات في حق الدولة العثمانية المسلمة يدحضها هذا الموقف من رعايا الدولة والحق ماشهد به الاعداء .

ولكن السلطان عبد الحميد يعلق على هذا الاجتماع بان مدحت باشا لم يهمل الاستعداد لاتخاذ قرار يريده هو ،فأخذ الكلمة الاولى بعده الصدر الاعظم السابق محمد رشدى ،رفيق دربه في عملية خلع عمي السلطان عبد العزيز حيث قال: " ليس لارباب الشرق الا طريق واحد وأنا أؤيد الرفض القطعي لاقتراحات هذا المؤتمر " قالها وخرج،فصدر كما أراده مدحت باشا (٢).

وحول مناقشاتهم عن هذا الموقف فقد كان الجواب :

" ان القانون الاساسي قد قيد حركتنا ،فاذا لم تجر الانتخابات ويجتمع المجلسان (٣) فاننا لانستطيع البحث في هذا الموضوع".

وبناء على قرار المجلس العالي اجاب السلطان في ٢كانون سنة ١٨٧٧م ، الموافق ١٢٩٤ هـ رفض شروط الدول ،وانفض المؤتمر وغادر مندوبو الدول وقناصلها اسطنبول ،ويعتبر هذا الامر اشارة الى قطع علاقاتها مع الدولة

(١) روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني...(مجلة الهلال ،ج ٣ ،س ١٧، ١٩٠٨ م) ص ١٣٦.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني: محمد حرب عبد الحميد ،ص ٤٢.

(٣) يعني ذلك مجلس النواب ومجلس الاعيان .

العثمانية الدولية والودية [1] . كما أنهذا يعني جعل الدولة في عزلة تامة عن بقية دول العالم مع احتمال حرب ضروس مع روسيا وحليفاتها في البلقان .

وأمام هذا الخطر المحدق دعا السلطان وزراءه الى الاجتماع في مساء اليوم نفسه وطلب منهم أثناء الاجتماع اعطاءه تقريرا كافيا عن الوضع الحالي العسكري والمالي في الدولة ،وقد جاءت اجابات الاعضاء متناقضة [2] فقائد الجيش يقول ان لديه مائتي ألف جندي تحت السلاح ،جاهزين لاى غزو محتمل ياتى من جانب العدو ، وفي نفس الوقت تلقى السلطان برقية من الغازى احمد مختار باشا قائد جيش "الروملي" يفيده بان لديه وتحت يده ثلاثين الف جندى وانه لايستطيع بقوة صغيرة مواجهة قوات العدو التي تبلغ مئات الالوف بناء على طلب السلطان .

لذلك استدعى السلطان الصدر الاعظم مدحت باشا وقائد الجيش على باشا الى مجلسه بالقصر واطلعهما على البرقية ،فتهرب الصدر الاعظم من الموقف بانه كان لايعرف استعدادات الجيش ،وارتج على باشا قائد الجيش ، وعرف السلطان انه من الجنون والمخاطرة في دخول الحرب مجازفة دون تخطيط [3].

ان هذه الحادثة لاشك أنها تنم عن مؤامرة دبرها مدحت باشا وأعوانه لاقحام الدولة على الدخول في الحرب دون التأكد من قوتها ، واستعداد جيشها قتاليا وماليا ومعنويا ، بما تدل على انه عميل للانجليز وماسوني لايريد للاسلام عزة ونصر ،والا تريث في اصدار حكمه وضحى ببعض الشروط لتهدئة الاحوال ، لذلك كان اقدامه على هذا العمل ينافي ميوله للاصلاح كما يدعى .

---

(١) يوسف اصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، ج ٢ ص ١٦١ ،
روحي الخالدى القدسي : الانقلاب لعثماني .. (مجلة الهلال ، ج ٣ س ١٧ ، ١٩٠٨) ص ١٣٦ .

(٢) مذكرات السلطان عبد الحيمد : محمد حرب عبد الحميد ، ص ٤٢ .
، اورخان محمدعلي : السلطان عبد الحميد الثاني ، ص ١١٤ .

(٣) [illegible]

وعلي آية حال فحين رفضت الدولة شروط الدول الاوربية جعل الامير الروسي غورشاكوف يكتب الى سفراء روسيا لدى دول اوربا وذلك في ٣١ يناير سنة ١٨٧٧م الموافق ١٢٩٤ هـ يطلب رأى تلك الدول في رفض الدولة العثمانية لقرارات مؤتمر اسطنبول من اجل الخروج بموقف موحد لهذه الدول ازاء الدولة العثمانية (١) ،وطلب منهم أيضا التدخل في سرعة اجراء الاصلاحات في ممالك الدولة العثمانية منطقة النزاع والا اضطر القيصر وحده الى اتخاذ الاجراءات الكفيلة بذلك وحده (٢) .

وقد رد عليه صفوت باشا ناظر خارجية الدولة العثمانية بارسال رسائل مماثلة الى سفراء الدول الاوربية ،موضحا فيها موقف الدولة العثمانية من هذه الشروط وكذلك عدم شروعية انعقاد المؤتمر في اسطنبول لعدة جلسات دون حضور مندوب الدولة العثمانية تلك الاجتماعات ،حتى كأنه لم يعقد بطريقة رسمية الا لغرض أمور قد اتفق عليها مسبقا من قبل هذه الدول والتصديق عليها في اسطنبول فقط . وقال ان الدولة لايمكنها ان تقبل بمثل هذه الشروط اصلا لانها تحط من قدرها . فكان موقف الدول هو تجميد جواب الروس والدولة العثمانية على السواء(٣).

اما السلطان عبد الحميد الثاني فقد حاول الوقوف بصلابة أمام جر الدولة العثمانية الى هذه الحرب اذ كان يعلم علم اليقين ان الاوضاع الخارجية والداخلية للدولة لاتسمح لها ابدا بالحرب مع روسيا القيصرية وكان يشاركه في هذا الرأى سعيد باشا ،لكن مدحت باشا خلق حواليه جوا معينا يجعل من يعارض الحرب متقاعسا ويعده خائنا،وقدوجه تهديدا غير مباشر الى السلطان عبد الحميد ،وذلك عندما اتهم سعيد باشا بالخيانة وسقوط الهمة لمعارضته للحرب ،ولم يكتف مدحت باشا بهذا بل قام بتحريض طلبة المدارس الدينية للقيام بمظاهرات صاخبة لتأييد الحرب باسم الجهاد.

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ،جـ ١ ص ٧٣٢.
(٢) روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ... مجلة الهلال ،جـ ٣ ،س١٧، ١٨٠٨م) ص ١٣٧.
(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٧٣٢.

وكانت سياسة مدحت باشا وانصاره في مثل هذه الظروف القاسية متجاهلة القدرة المالية والبشرية للبلاد قائلين ان العبرة لاتكون في القوة العسكرية ولا بالاستعدادات ،فكما جئنا الى الاناضول ونحن اربعمائة فارس فاننا مستعدون ان نحارب الى ان يصل عددنا الى اربعمائة ايضا. ان هذا كلام في الواقع يفتقر الى الشعور بالمسؤولية امام هذا الوضع الخطير من اجل جر الدولة الى الدمار(١).

لكن الشعب متعلق بمدحت وينتظر منه المعجزات وابعاده سيكون خطأ من الدولة ولايمكن احراز اي نصر بتجاهل عدد جنوده واستعداداته بل يمكن عن طريقه تأكيد الهزيمة (٢).

وخروجا من هذا المأزق فقد صالح السلطان عبدالحميد دولة الصرب لمعالجة الموقف على حساب الدولة العثمانية ،ولضعف موقفه ، بشروط منها: خروج الجند العثماني من الصرب ،وان لاتبني الصرب قلاعا جديدة ،وان يرفع العلم العثماني الى جانب العالم الصربي ولم تعقد المصالحة مع اهل الجبل الاسود لطلبهم ان تتنازل لهم الدولة عن قطعة من اراضيها(٣).

فقرر السلطان عبدالحميد الثاني ان يقطعه ارضا من الاراضي الواقعة بجهة (سوترينه ،) ولكن دولة النمسا عارضت اعطائه تلك المنطقة الزراعية ، واخيرا وضعت هذه المسألة على بساط البحث في مجلس الوكلاء(٤) .

---

(١) اورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ،ص ١١٥-١١٦.

(٢) مذكرات السلطان عبدالحميد : محمد حرب عبدالحميد،ص ٤٢.

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج ١،ص ٧٣٢.

(٤) مذكرات السلطان عبدالحميد: المصدر السابق ،ص ٤٢.

وقال مدحت باشا في هذا الصدد انه بعث (اوديان افندى) مستشاره الى انجلترا لاستطلاع وجهة نظر رجال السياسة في باريس ولندن ،فالتقى باللورد (بيكونسفيلد) رئيس الوزراة واللورد (دربي) ناظر الخارجية في مقابلة خاصة وكتب من هناك برقية قال فيها: "انهم متفقون على تسكين حدة روسيا لاخراج الدولة العثمانية من هذا المأزق بلاخطر ،وارسل برقية اخرى قال فيها : ان الانجليز والفرنسيون يقولون بوجوب مصالحة الصرب والجبل الاسود والموافقة على بعض مطالب البلغاريين ويحبذون الاحكام الدستورية ولكنهم يشيرون الى الاسراع بانفباذها "(١).

معنى ذلك ان مدحت باشا عاد الى سياسة السلطان عبد الحميد الثاني ولكن ذلك تم بعد مشاورة الانجليز ،للتخلص من غلطاته الجسيمة . اننا نرى هنا ان هذا العميل الانجليزى يلجأ الى أسياده ليلقنوه الحل الذى غاب عنه وسبقه اليه السلطان حين طلب منه عدم التسرع في دراسة شروط الدول السابقة . ولكنهم يؤكدون عليه سرعة تطبيق الدستور.

ويتضح من ذلك انه يعمل لحساب اوربا مما جعله يرفض هذه الشروط ليقود الدولة لحالة الحرب لشيء في نفسه .

بعد هذه الاعمال وما سيلحق اخذ السلطان يفكر جديا في عزل مدحت باشا ولكنه كان ينتظر الفرصة ، لتثبيت سلطته وهيمنته على الدولة لتخليص نفسه من كونه العوبة بين مدحت باشا واعوانه لعدم صلاحيته (٢).

وهذا التقرير من اليوت (Elliot) يؤكد ان مدحت باشا كان على اتصال بالسفارة البريطانية في اسطنبول فقد اكد لساندسيون (Sandison) بتقرير موثق اقر فيه مدحت باشا بان السلطان عبد الحميد الثاني قد أعطى موافقته على الاصلاحات المختلفة . لذلك املى عليه ساندسيون(Sandison) تعليمات اساسية وعد مدحت باشا بتنفيذها بنفسه . وقد كرر مدحت باشا ما كان

---

(١) مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حتاتة ،ص٢٩.

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ، ص ١٢٠.

ينوى فعله مثلما ذكر لسانديسون (Sandison)تماما. فقد قال لي مدحت باشا بالرغم من ان المسيحيين قد يشغلون مناصب مثل نائب الحكم او المحافظة في الولايات الا انه قرر في نفسه ان يشغلوا مناصب اعلى مقاما .

أما عن قانون الولايات الحالي فقد قال بالغائه ليحل محله قانون اخر يعطى للناس فرصة حقيقية للاشتراك في ادارة المقاطعات اكثر مما سبق . وان يتم انتخاب أعضاء مجالس المقاطعات عن طريق السكان الذين لهم حق الانتخاب وبالنسبة لحق الامتلاك فسوف يكون المسيحيون على قدم المساواة مع المسلمين وسوف يلغى النظام القديم .

وعن المحاكم الشرعية فقد قال عنها ان صفة المحاكم الشرعية سوف تقتصر على القضايا المتعلقة بها.

أما القضايا الاخرى فسوف تعرض على المحاكم المدنية .وهذه النقطة تعتبر في غاية الاهمية بالنسبة للمسلمين لأن المحاكم الشرعية اصبحت لاتقبل ادلة المسيحيين . لذلك فان المسيحيين يأملون في تغيير هذه الأوضاع[1]

ومن هذه الوثيقة نلمس العلمانية في تصريحات مدحت باشا تفتح المجال للغزو الفكرى الذى تشرب به مدحت وانصاره واخذوا في تطبيقه من خلال الدستور الذى قدمه الى السلطان عبد الحميد الثاني. بل لقد ذهب اكثر من ذلك فقد وعد الانجليز بتطبيقه واعطاهم فيه بعض البنود التي تضمن لهم الحرية في كثير من التدخل في أمور البلاد وأصبح أيضا العوبة هو نفسه في يد الانجليز يوجهونه لتدمير الأمة الاسلامية لانه هو وأنصاره قد وصلوا الى ادارة دفة الدولة ،فظن أنه سيبقى طول الدهر ،والحق أنه وصل الى ماتريد أوربا عن طريق تطبيق الدستور الذى يستمد أنظمته من الحياة الأوربية.

---

(١) F.O.: 424/39.Sir H. Elliot to The Earlat Derby , No, 572. 20-11-1875.

ولهذا مازال مدحت باشا يعمل على طلب اجتماع مجلس المبعوثين ويجتهد في تأليفه من الأحرار والمابين (1) ،حتى ضاق صدره لمحاولته اجتماع مجلس المبعوثين ،كيف لايحاول وهوقد قطع على نفسه تنفيذ أوامر بريطانيا في تطبيق الدستور وأعطاهم حقوقا تنم عن ماسونيته والسلطان يحاول تأخيره لعزله عن الصدارة . فكتب الى السلطان كتابا هذا نصه :
" لم يكن غرضنا من اعلان القانون الأساسي الا قطع دابر الاستبداد وتأمين جميع الناس على حريتهم وحقوقهم حتى تنهض البلاد الى معارج الارتقاء(2) واني لفي غاية الاحترام لشخص جلالتكم لكن بالنظر لاحكام الشرع يجب على أن لا أطيع اوامركم اذا لم تكن موافقة لمنافع الأمة .. " .. ياللعجب فالسلطان سياسته معروفة وهو حكمه بالشرع ليس له مطلق الحرية ولا مطلق التصرف بأموال الناس وحقوقهم الا حسب ماتمليه الشريعة السمحاء (3).

فغضب السلطان من هذه الجرأة وعزل مدحت باشا ونفاه الى ايطاليا(4)، وعين أدهم باشا مكانه في الصدارة . وكانت صدارته اقل من شهرين حيث عزل في ١٢٩٤/١/٢١ هـ الموافق ٥ فبراير سنة ١٨٧٧م قبل أن يرى الهيئة البرلمانية التى حاول فرضها في البلاد العثمانية (5).

وتشير هذه الوثيقة البريطانية حول استقالة مدحت باشا الصدر الاعظم من الوزارة بانها ظاهرة جديدة في سياسة السلطان عبدالحميد الثاني لانه الشخص الوحيد الذى يعتمد عليه ،والذى ينظر اليه عامة الشعب على أنه قادر على حل مشاكل الدولة ،وكذلك فان اى مشروع للاصلاح يرفضه معناه لن يأخذ ثقة الشعب وسوف ينتج عنه عدم الرضا (6) .

---

(١) رجال القصر السلطاني .
(٢) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ،ج ٢ ،ص ١٦١.
(٣) روحي الخالدى المقدسي : الانقلاب العثماني ،(مجلة الهلال ،ج٣ ،س ١٧ ، ١٩٠٨) ص ١٣٧.
(٤) يوسف آصاف: المصدر السابق ،ص ١٦١.
(٥) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ،ص٥٩٣.
(٦) F.O: 424/39, Sir H.Elliot to The Earlal Derby , No., 572. 20-11-1875.

وهنا يقول السلطان عبد الحميد الثاني مانصه : "واني لواثق أنه لو كان مدحت باشا صدرا أعظم حكيما ومحنكا لكان ولاشك قد استمر في الصدارة حتى ختام الحرب الروسية ، وجدته ينصب من نفسه ومنذ اليوم الاول أمرا علي ووصيا ،وكان في معاملته بعيدا عن المشروطية وأقرب الى الاستبداد "(١)

ومما عجل على عزله أنه كان يريد تنفيذ مايريده في الحال ،مع ماكان يعلم السلطان من أن كمال بك وضياء بك ورشدى بك وآخرين من رفاقهم يجتمعون كل مساء في قصر مدحت باشا يشربون الخمر . وذات مرة قال مدحت باشا : " ليس من الاسرة المالكة العثمانية خير يرجى ،ولم يبق الا الاتجاه نحو الجمهورية ،ترى كيف يمكن هذا ؟ ان عدة اشخاص مثلكم يفهمون المسألة الاتية : يوجد في العالم حتى الان مايسمى بآل عثمان. ماذا يحدث لوظهر مايسمى بآل مدحت ؟".

ويستمر السلطان في الحديث حول مدحت باشا حيث يقول: " ... كانت انجلترا دائبة على تسيير الفتن عن طريق الماسونية . وكان مدحت باشا ماسونيا ،لم يكتف باشارة ما أثار من مشاكل فهو من ناحية يريد خلق أزمة في الرأى ،ومن ناحية أخرى يريد الزج بالبلاد في آتون الحرب . وقد حاول سن بعض الاعمال التي لايتصورها العقل مثل تعيين ولاة من الاقلية في ولايات الاغلبية فيها مسلمون وقبول طلبة من الاروام في المدرسة الحربية التي هي عماد الجيش . اعمال مثل هذه يمكن أن تؤدى الى تقويض الدولة من اساسها لذلك رفض السلطان التوقيع على مثل هذه القرارات"(٢)

وهذا فعلا ماوعد به سانديسون (Sandison) بأن المسيحيين سيشغلون مناصب عليا في الدولة وتعيين الولاة لبعض المناطق من الأقليات النصرانية وهذا ماتنبأ بها السلطان عبد الحميد وقطع دابرها(٣) .

---

(١) F.O.: 424/39, Sir H. Elliot to The Earlal Derby, No. 572 , 20-11-1875.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد : محمد حرب عبد الحميد ،ص ٤٣-٤٤.

(٣) Op.cit,.

وقد تأثرت الدول الاوربية وحدث فيها رد فعل فقامت الدنيا وقعدت وخاصة في انجلترا . وكتبت الصحف هناك بانه لايمكن توقع شيء من اصلاح الدولة العثمانية لاقالة مدحت باشا على الاطلاق . يقول السلطان " كنت اعرف أن هذا سيحدث وكنت أتوقعه .."

وقد تعاون مدحت باشا مع الانجليز وايدها وكان الانجليز يعرفون أن الاصلاحات التي يوصون بها من شأنها أن تفرق الدولة العثمانية سريعا، تماما مثلما اعرفانا . فعل ياترى كان مدحت باشا يعرف هذه الحقيقة ؟

اذا كانت الاصلاحات هي الأمر الذى ينقذ الدولة العثمانية فقد احيطة الدول الكبرى علما وكتابة بالاصلاحات المتصور قيامها ، والمعلنة في الدستور الاساسي وذلك أثناء مباحثات هذه الذول في الترسانة " على هذا كان يجب على انجلترا وهي تنظر الى فم السفير الروسي ألا تطالبنا باستقلال بلغاريا واعطاء الأرض للصرب والجبل الاسود لاننا قبلنا كل ما اوصت به وبدأنا تطبيقه "(١) . أليس هذا كافيا؟ ولكن اطماع الدول الاوربية التوسعية هي الغاية والهدف الذى تسعى اليه هذه الدول ومن اجله قامت باثارة الثورات والحروب ،ليست المسألة مسألة اصلاح الدولة وانما هي مصالح دول، وهذه بالطبع تتصادم مع أطماع هذه الدول وتكاد ان توشك الحرب بينهم حول اطماعهم في الدولة العثمانية .

وعلي أية حال ففي سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م رأت روسيا اعداد الاجابة على المنشور الذى ارسلته الى الدول من قبل فاصبح الموقف لها غامض عما تنوى هذه الدول اجراؤه ، وانها اذا لم تبادر باشعال نار الحرب قد تضيع منها الفرصة بعد ان تجشمت الخسائر في المال والرجال، ولكي تقتطع ولايات عثمانية لحسابها ، ولاتمام الدولة العثمانية الصلح مع الصرب ، وربما تصالح قريبا الجبل الاسود فتسود السكينة ولايعود لها وجه في المداخله ، ولاسيما عما قليل سيصبح مسيحيو الدولة راضين عنها بسبب مساواتهم مع المسلمين ، بمقتضى القانون الأساسي .(٢) .

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحيمد الثاني : محمد حرب عبد الحميد ، ص ٤٥.

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٦١٩-٦٢٠.

، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول الحبار ، ج ١ ص ٧٣٢.

لذلك بدأت روسيا فيخلق المشاكل والازمات وتصعيدها مستهدفة الحرب مع الدولة العثمانية . وفينفس الوقت فان روسيا تبذل جهودا دبلوماسية مكثفة لتضمن حياد الدول الأوربية الكبرى اذا لم تتعاون معها ضد الدولة فيحروبها المقبلة (١).

لذلك حرر الأمير غورشاكوف الى سفيره في لندن في ١١ مارس ١٨٧٧م / المصادف ١٢٩٤هـ اجابة نهائية تتضمن شروطه لاطلاع الحكومة البريطانية عليها فاذا صادقت على تلك الشروط فأمره أن يعرضها على باقي السفراء بلندن(٢).

وأوفد لهذه المهمة ايضا اغناتيف الى العواصم الاوربية فزارها عاصمة عاصمة ولقي فيها كل ترحيب وحصل علىتاييد حكوماتهابعدم معارضة روسيا فيتدخلاتها ضد الدولة العثمانية (٣).

وفي لندن توجت جهود اغناتيف بأن صادقت بريطانيا على الشروط الروسية ثم اجتمع بقية سفراء الدول الموقعة على مؤتمر اسطنبول في ١٨٧٧/١١/٣١م المصادف سنة ١٢٩٤م بوزارة خارجية بريطانيا ماعدا سفير الدولة العثمانية بطبيعة الحال ووقعوا بالموافقة على هذه الشروط (٤)،وصدر عن هذا المؤتمر اتفاقية عرفت باسم " بروتوكول لندن " في ٣١ مارس سنة ١٨٧٧م الموافق ١٢٩٤ هـ وهو عبارة عن انذار من الدول الست(٥) بريطانيا وفرنسا وروسيا والمانيا وايطاليا والنمسا ضد الدولة العثمانية (٦)

---

(١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، جـ ٢ ص ١٠٧١.

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية، ص ٦١٩ – ٦٢٠.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،جـ ١ ،ص ٣٧٢.

(٣) عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ، ص ١٠٧١–١٠٧٢.

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ٦٢٠.
، اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٧٣٢.

(٥) عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ، ص ١٠٧٢.

(٦) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٧٣٢.

ومن أهم نصوص هذه الاتفاقية :

- عقد معاهدة الصلح مع الجبل الاسود على اساس منح هذا الاقليم اضافات اقليمية كان يطالب بها كما سبق بحجة ان لغتهم سلافية ودينهم نصراني .
- انقاص عدد الجيش العثماني وتحسين أحوال الرعايا المسيحيين في الدولة تحت مراقبة السفراء لتامين وصول تلك الاصلاحات .

فأبلغوا الباب العالي بهذه الشروط مع تهديد الدولة بالحرب اذا خالفت ذلك (١) .

ولكن بريطانيا أبلغت سفيرها في اسطنبول سرا بان يخبر الباب العالي بان تصديقها على هذه الاتفاقية او البروتوكول هو المحافظة على السلم في اوربا فقط. ويعني ذلك من بريطانيا تشجيع الدولة في الاستمرار في رفضها (٢) .

وفي هذه الاثناء أصدر السلطان عبد الحميد الثاني المرسوم السلطاني الذى يقضي بانتخاب مجلس "المبعوثين" لانفاذ احكام القانون الاساسي عندما رأى اصرار الدول الاوربية على هذا الاصلاح . فافتتح المجلس في ١٢٩٥/٣/٤هـ الموافق ١٨٧٧/١/١٩م في (طولمه بغجة) بمحلة بشكطاش افتتحه السلطان عبد الحميد الثاني بالنص الآتي : (٣)

"هيئة الاعيان

السادة المبعوثين

لقد سررت باعلان الانضمام للمجلس العمومي المجتمع للمرة الاولى في دولتنا العلية وليكن في علم الجميع ان العدل اساس الجاه والسلطان وهو الذى أدى الى نهوض الامة ومرجع عدم جود خلل في العقيدة والدين أدى الى التصريحات التي أصدرها اجدادنا العظماء السلطان محمد خان الفاتح بعد اعتلائه العرش لضمان حرية الدين والعقيدة وتامين الحريات ورعايته للعدل وشتى صنوف الحق والمنافع وقد سار اسلافنا العظماء على نهجه في الحكومة المشهورة بقوتها منذ بداية ظهور دولتنا العلية .

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ص ٧٣٢ .
، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ص ٦٢٠
، عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ١٠٧١-١٠٧٢ .
، يوسف اصاف : تاريخ سلاطين ال عثمان ، ج ٢ ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .
، روحي الخالدى المقدسي : الانقلاب العثماني (مجلة الهلال ، ج ٣ س ١٧ ، ١٩٠٨) ص ١٤٠ .

ومنذ مايقارب من ستمائة عام كان الحفاظ على العقيدة واللغة والقومية نتيجة طبيعية عادلة غير قابلة للانكار والرفض فتبدلت القوة الى ضعف مما أدى الى التأخير الحضاري الذى سببه عدم التمسك بالقوانين المطروحة وعدم التمسك بالشرع الشريف الذيكان فيماسبق سببا في رقي وسعادة الدولة وثراء الوطن وحماية العدل لكافة القوانين في ذلك الوقت ..."[1].

هذا الدستور أعلنه السلطان عقب نفي مدحت باشا [2] وعين احمد وفيق رئيسا لمجلس المبعوثان ، وانعقدت الجلسة الاولى تحت رئاسته فدارت فيها مناقشة وضع المذكرة الواجب تقديمها جوابا على النطق السلطاني فتحررت مسودة الجواب وصادق عليها الجميع [3].

عند ذلك أحال السلطان الشروط التي وصلت له من الدول الأوربية الى ناظر الخارجية العثمانية الذى قدم هذه الشروط الى مجلس المبعوثان المنعقد هناك وشرح لهم ماتحتويه هذه المذكرة وبين لهم أحوال السياسة الخارجية ،وأفهمهم بأن رفض التسليم بماجاء في تلك المذكرة معناه الحرب مع روسيا وأظهر لهم اضطراب الاحوال المالية والضايقة المالية التي تمر بها الدولة من جراء ذلك لتأمين المؤن الحربية والغذائية للجنود.

وقد اعترض أكثر أعضاء مجلس المبعوثين ورفضوا هذه الشروط ، وأظهروا الحماس والغيرة الوطنية من مسلمين ومسيحيين لقبول مثل هذه الشروط [4].

---

(١) Osmanli Arsivi Yildiz Esas Evraki, Zarf. No : 313.

(٢) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ،جـ ٢ ،ص ١٦٣.
، روحي الخالدى المقدسي : الانقلاب العثماني (مجلة الهلال ،جـ ٣ ،س ١٧، ١٩٠٨) ص ١٤٠.

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٦٢١.

(٤) يوسف آصاف : المصدر السابق ،جـ ٢ ،ص ١٦٣.

فأصدر السلطان منشورا الى سفراء الدول المشتركة في الاتفاق لتبليغه الى دولهم بعبارة صريحة هي عدم قبول هذه الشروط أو عدم الالتزام بها اذ من المستحيل ان توافق عليها أى دولة تغار على شرفها ووجودها بين العالم السياسي (١).

وكمثال لذلك فقد قام ممثلحلب (مانوك الارمني) فخطب قائلا: " ان روسيا لم تقم في أى وقت من الأوقات بحماية المسيحيين فان المسيحيين لم يقولوا بأنهم في حاجة الى مثل هذه الحماية، علما بأن مسيحي تركيا يملكون الآن حكومة تحاول تلبية مطالبهم ، انني مسيحي ارمني وأريد أن أقول باسم شعب ولايتي باننا غير محتاجين الى حماية روسيا اذ أننا مرتاحون وراضون بوضعنا ومستعدون لأن نضحى بأنفسنا وأموالنا في سبيل وطننا وسلطاننا لصد الاعتداء الروسي "(٢) . وكان اخوانه من ارمن ومن مسيحيين على مختلف مذاهبهم ويهود على شاكلته ،ومن كان على شاكلتهم من حزب الاحرار الذين تتلمذوا على أيديهم يريدون الحرب مع روسيا لأغراض دفينة في أنفسهم. وقد أثبتت الاحداث التي تعاقبت صدق ذلك . وان تأييدهم لاستخدام الارمن كان من قبيل الخداع والتضليل بالدولة وقد ظهر ذلك النفاق عندما نشبت الحرب بين الدولتين روسيا والدولة العثمانية بعد حوالي شهرين من رفض هذه الشروط ، تقديم معاونة صادقة من الارمن للروس في حربهم في آسيا ، ضد الدولة ،ومع ذلك فان روسيا قد ابتلعت شرائح اقليمية من بلاد الارمن سواء من ارمنية العثمانية او ارمينية الروسية دون الالتفات الى تحريرهم (٣) .

وكأن القيصر اراد ان يتفادى الحرب مع الدولة العثمانية فتنازل عن شورطه الاولى وتقدم بعرض آخر للدولة العثمانية يطلب فيه ترك قضاء

---

(١) يوسف اصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ،ج ٢ ص ١٦٣.

(٢) اورخان محمدعلي : السلطان عبد الحميد الثاني ،ص ١٢٢-١٢٣.

(٣) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج٢ ص ١٠٧٠.

(نيكشك) فقط من الجبل الاسود ، الا أن هذا العرض المخفف رفض من قبل الصدر الاعظم أدهم باشا بحجة عدم اتفاقه مع الدستور ،وانقطع آخر بارقة أمل، وكان لابد من الحرب ، وهكذا بدأت روسيا باعلان الحرب على الدولة [1].

لهذا أمر السلطان عبد الحميد الثاني بانعقاد مجلس المبعوثان بصفة مستمرة حتى انقضاء الحرب مع روسيا لدراسة المستجدات ورفع التقارير اللازمة والمشاورات في الاوضاع الامنية والحربية [2] • ودخلت روسيا الحرب والى جانبها الجبل الاسود ثم انضمت اليها رومانسيا (البغدان والافلاق) وقد اتخذت هذه الحرب شكلا دينيا بين الدولة العثمانية الاسلامية والمسيحية السلافية • ولذلك كانت في نظر الفريقين جهاد مقدس حياة أو موت [3] •تمكن العثمانيون في بادىء الامر من صد هجمات الروس ،ونتيجة لقلة التجهيزات العسكرية نظرا لفراغ الخزينة من المال ، اتاح النصر للروس حتى تجاوزت جيوشهم نهر الطونة وجبال البلقان واستولوا على قارس ،وحاصروا ارضروم من جهة الأناضول.[4] فاحتشد الجيش العثماني في مدينة (بلفنة)واستحكموا في حصونها لصد الغزو الروسي وبدأ الروس حصار هذه المدينة وقد كلف الروس هذا الحصار ضحايا جسيمة لاستبسال الجنود العثمانيين وعلى راسهم القائد العظيم عثمان باشا للدفاع بشجاعة عن تلك المدينة مما جعل الروس يستدعون جنود الاحتياط لديهم لمواجهة هذه الحرب •

وبقيت هذه الحملة العثمانية في الاستحكامات ثلاثة اشهر حتى نفذ الطعام من عندهم فاضطر قائدها عثمان باشا الى الخروج والهجوم على الجيش الروسي • غير ان كثرة الجيش الروسي ارغمته على الاستسلام • فابلى عثمان وجنوده بلاءً حسنا اندهشت له اوربا تقديرا لشجاعة هذا القائد • وعلى أثر ذلك استولت الجنود الروسية على بلفنة ، ثم واصلوا تقدمهم نحو اسطنبول

---

(١) عابدين حمادة : تاريخ الشرق والغرب ، ص ٢٦•
، اورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ،ص ١٢٣-١٢٤•
(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني محمد حرب عبد الحميد، ص٥٩
(٣) عابدين حماده : المرجع السابق ،ص ٢٧•
(٤) عابدين حماده : المرجع السابق ،ص ٢٧ •
يوسف آصاف • تاريخ سلاطين آل عثمان ،جـ ٢ ص ١٦٣•

وكانت صربيا قد تمكنت من تنظيم نفسها، فعادت واعلنت الحرب ثانية على الدولة العثمانية ونقضت الصلح معها، ووقفت بجانب الروس [(١)] .

لهذا انعقد مجلس المبعوثين الدائم تحت رئاسة حسن فهمي افندي ودارت المناقشات حول حرب الروس مع الدولة واتخاذ الحلول المناسبة ولكن كثر الجدال بشان محاكمة المرتكبين وقطع دابر المرتشين وتحسين أحوال المحاكم، حتى قال أحد المبعوثان ان الجنود في الولايات تنهب الأهالي وأن المحاكم ترتشي على ابطال الحق، وغير ذلك من الفساد المنتشر في ذلك العصر [(٢)] .

فقد كانت هناك نغمة أخرى هي محاسبة المسئولين عن نتائج هذه الحرب التي انتهت بالهزيمة، فاتفق أعضاء مجلس المبعوثين على كتابة بيان يتهم فيه المجلس جميع المسئولين من مدنيين وعسكريين ويحملهم أسباب الهزيمة وقد صيغ البيان باسلوب يوحي أن السلطان نفسه يتحمل المسئولية، وبدأت الاتهامات تتكرر بين الاعضاء، فهذا يطالب بارجاع المنفيين السياسيين بعد أن تبين للسلطان أنهم يريدون مدحت باشا، وهذا نائب ينتقد الحكومة لانها لم تكن تأخذ آراء النواب في أمور الحرب [(٣)]، وقد نسى الجميع أن أسباب الحرب التي قامت بين الدولة وروسيا سببه مجلس المبعوثان واصراره على الحرب عندما رفض شروط الدول .

لذلك أخذ المجلس يعطي انطباعا فوضويا وكمثل على ذلك انه عندما بدأت الدعوات القومية تظهر وتصرح عن نفسها في وسط المجلس بكل جرأة بدا لكل عين بصيرة أن كل هذه الحركات تسعى لتفتيت الدولة العثمانية [(٤)].

---

(١) عابدين حمادة : تاريخ الشرق والغرب، ص ٢٧.
، يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، ج ٢ ص ١٦٣.

(٢) يوسف آصاف: المرجع السابق ، ص ١٦٤.

(٣) أورخان محد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ، ص ١٣٦.

(٤) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ١٣٦.

وفي تلك الفترة كان الروس يتابعون زحفهم على ممتلكات الدولة حتى استولوا على أدرنة وماجاورها[1]، فخشيت بريطانيا أن تستولي الروس على اسطنبول، لذلك نراها ترسل أسطولا الى مضيق البوسفور لحماية الدولة، ولكن الجنود الروس تقدموا حتى سان ستيفانو [2]، وهناك وقفوا ولم يجرؤوا على الدخول الى العاصمة اسطنبول، خوفا من وقوع الحرب بينهم وبين بريطانيا[3].

لذلك استغل السلطان عبد الحميد الثاني وقوع الخلافات في مجلس الأعيان ووقوع الخلاف أيضا بين الدول حول هذه الحرب واستغنى عن مشورة مجلس المبعوثين وشكل بدلاعنه في ١٠/٢/١٢٩٥ هـ الموافق ١١ فبراير سنة ١٨٧٨م مجلسا عاليا من وكلاء الدولة وأعيانها وهذا المجلس استدعى اليه خمسة أشخاص من مجلس المبعوثين وهم الرئيس ووكيلاه واحد مبعوثي اسطنبول واخر يهودي للمداولة معهم في الحالة الحاضرة في احداث الساعة، وأصدر ارادته السنية في ١٣/٢/١٢٩٥ هـ الموافق ١٤ فبراير سنة ١٨٧٨م بتعطيل مجلس المبعوثين لأجل غير مسمى [4].

وقد قال بسمارك حول تعطيل السلطان للدستور، عندما زار المشير علي باشا المانيا: " لقد أحسنتم صنعا بتعطيلكم المجلس، ذلك لأن أية دولة عندما تكون متكونة من قوميات عدة فان ضرر النظام البرلماني فيها يكون أكثر من فائدته "[5].

واذا كانت الظروف السياسية قد حتمت على السلطان قبول هذا الدستور أو المشروطية، فان ظروف الحرب مع روسيا أيضا ساعدته على التخلص من هذه المشروطية بعد مرور سنتين من اعلانها، ونفي وابعاد البارزين من

---

(١) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، ج ٢ ص ١٦٤.
(٢) سان ستيفانو: ضاحية من ضواحي العاصمة اسطنبول في ذلك الوقت.
- عابدين حمادة : تاريخ الشرق والغرب، ص ٣٧.
(٣) عابدين حمادة : المرجع السابق، ص ٣٧.
(٤) يوسف آصاف : المرجع السابق، ص ٣٧.
(٥) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني، ص ١٣٧.

المبعوثين [(١)] . ونادى بالجامعة الاسلامية ، وتلك هي الحركة التي تشير اليها بعض الكتب بالانقلاب الحميدى [(٢)].

عندما كان السلطان عبد الحميد الثاني يرى أن الحروب الصليبية ضد الدولة العثمانية دائمة ومستمرة لاتنقطع ،وهذه ماهي الا امتدادا للحروب الصليبية السابقة حتى ولو اخذت اشكالا سرية متعددة ،لذلك كان يعمل - بالاسلام - على توحيد العناصر المتعددة في الدولة من ترك وعرب وأكراد وغيرهم في صف واحد لكي يمكنهم الصمود أمام الغرب وتحدياته للشرق كما كان يرى ضرورة امتداد تأثير الوحدة الاسلامية الى كل مسلمي آسيا وكان يرى أيضا ضرورة العمل على تدعيم أواصر الاخوة الاسلامية بين كل المسلمين في العالم في الصين والهند واواسط آسيا وأفريقيا وغيرها من البلدان والقارات ،وحتى مع ايران . وفي هذا يقول : (ان عدم وجود تفاهم مع ايران أمر جدير بالتأسف عليه ،واذا أردنا أن نفوت الفرصة على الانجليز وعلى الروس فانا نرى فائدة في وجود تقارب اسلامي في هذا الأمر) [(٣)].

هذا هو هدف السلطان عبد الحميد من الجامعة الاسلامية التى كان يرى أنها هي السبيل الأفضل لتوحيد صف المسلمين قالبا وقلبا ، ضد أعداء الاسلام وخاصة السلاف التي ينادى بها الروس ومحاولة الانجليز في استغلال الدول الاسلامية وهدم أركان الاسلام ،بتصدير الأفكار الهدامة ودون ان يعرف أحد سياسة عبد الحميد وأهدافه السامية من قيام الجامعة الاسلامية ، فالغزو الفكري سيطر على عقول الاحرار الذين يريدون دستورا غربيا دون فهم نصوصه بل مستوردا لاينطبق على المسلمين .

ولهذا نرى السلطان يتخذ من خط سكة حديد الحجاز وسيلة لتنفيذ فكرة الجامعة الاسلامية ،معارضا في ذلك القومية الطورانية وغيرها من الأمور

---

(١) محمد قربان نيازملا : السلطان عبد الحميد الثاني ، (الطبعة الاولى ، مكة مكتبة المنارة ، ١٤٠٨هـ) ص ٥٥ .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي: التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالازمنة الحديثة مجلة الدارة العدد ٢ ، السنة ١٧، ١٤٠٦هـ) ص ٨٣ .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني : محمد حرب عبد الحميد ، ص ٥٧ .

التي تدعو الى الخروج عن التعاليم الاسلامية ،فيقول" المهم هو اتمام خط السكة الحديدية بين دمشق ومكة في أسرع وقت ... ففي هذا تقوية للرابطة بين المسلمين ،كما أن فيه أيضا اتخاذ هذه الرابطة ـ بعد تقويتها ـ صخرة صلبة تتحطم عليها الخيانات والخدع الانجليزية ".

وقد استعان السلطان في مجال الجامعة الاسلامية بجمال الدين الافغاني الذى كان ينادى بهذه الجامعة وقربه منه لنشر هذه الافكار بين العالم الاسلامي للتضامن حول هذه الجامعة (١).

وهكذا فقد هددت روسيا الدولة العثمانية بعد أن وصلت الى مشارف اسطنبول باحتلال اسطنبول الا ان بريطانيا قد دخلت باسطولها الحربي لمواجهة الروس في بحر مرمره ورست به ، ولوحت عن استعدادها للدخول في حرب مع الروس لو حاولت التقدم الى اسطنبول (٢). ولكن روسيا قد اجبرت الدولة العثمانية على توقيع معاهدة سان ستيفانو (Sanstefano) في ٢٨ صفر سنة ١٢٩٥هـ الموافق ٣ مارس سنة ١٨٧٨م (٣) . ففقدت بموجبها الدولة العثمانية المناطق التالية :

ـ استقلال رومانيا وصربيا والجبل الاسود واقامة دولة بلغارية كبرى تمتد من الدانوب حتى ادرنة ومن سلانيك حتى البحر الأسود (وهي في الظاهر مستقلة ولكنها تخضع لروسيا) وأعطت روسيا مقاطعة بساربيا التي كانت خسرتها على اثر انكسارها في حرب القرم ثم اعتراف السلطان بالاستقلال الداخلى لمقاطعتي البوسنة والهرسك (٤).

ـ كما أن هذه المعاهدة قد أثارت الرأى العام الاوربي والحكومات الأوربية فحاول السلطان عبد الحميد الثاني بكل الطرق الدبلوماسية ابطال

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني : محمد حرب عبد الحميد ،ص ٧-٨.
(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ،ص ١٣٨.
(٣) محمد عبد اللطيف الحبراوى : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة الحديثة (مجلة الدارة ،العدد ٢ ،السنة ١١ ،١٤٠٦هـ) ص ٨٣.
(٤) Osmanli Arsivi, Yildiz Tansnifncinsi : Muahede Nama, Namarasi, No: 19,1878.

هذه المعاهدة مستفيدا من هذا التذمر الأوربي، وأخيرا اتفق مع بريطانيا سرا باعطائهم جزيرة قبرص مقابل ابطال معاهدة سان ستيفانو ،والدفاع المسلح عن شرق الاناضول ضد الروس اذا دعت الحاجة (١).

لهذا أرغمت بريطانيا روسيا باعادة النظر في معاهدة سان ستيفانو ولهذه الغاية عقد مؤتمر برلين في سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م من نفس السنة ملغيا معاهدة سان ستيفانو حيث ادخل عليها بعض التعديلات ومن اهمها :

المادة (١) اصبحت بلغاريا دولة صغيرة تتمتع باستقلال داخلي تابعة للسلطان فكان لها حكومة مسيحية ومليشيا قومية .

المادة (١٣) اقتطعت منها الروملي الشرقية والحقت بالدولة على أن تحكم بواسطة حاكم مسيحي وتتمتع بادارة خاصة كما اقتطعت منها مقدونيا وألحقت بالدولة بدون قيد أو شرط .

المادة (٢٥) وضعت مقاطعتا البوسنة والهرسك تحت الادارة النمساوية على أن تبقيا تابعتين اسما للسلطان العثماني .

المادة (٥٣) ايد المؤتمر مانصت عليه معاهدة سان ستيفانو من استقلال رومانيا وصربيا والجبل الاسود استقلالا تاما (٢).

أما النتائج التي ترتبت على هذا المؤتمر فقد قضى على السيطرة الروسية في البلقان ،وأوقفت المطامع السلافية (٣) كما نرى ذلك في البنود التالية :

المادة (٦٢) اوضح الباب العالي تطوعه بحفظ مبدأ الحرية الدينية وسجلت الاطراف المجتمعة هذا التصريح العفوى : بان الباب العالي لن يعوق الاختلافات الدينية بين الأشخاص في اى مكان من الدولة العثمانية في الوظائف اوممارسة المهن والصناعات المختلفة . والجميع سوف يقبلون للشهادة أمام المحاكم بدون تفرقة دينية . كما أن حرية العبادات وممارستها الخارجية مكفولة

---

(١) عابدين حماده : تاريخ الغرب والشرق ، ص ٢٩.

(2) Osmanli Arsivi, Yildiz, Tansnifncinsi: Muahede Nama, Numarasi, No.: 171.

(٢)

(٣) عابدين حمادة : تاريخ الغرب والشرق ،ص ٢٩.

للجميع .. رجال الكنيسة والحجاج والرهبان من كل الجنسيات الذين ينتقلون في مناطق الدولة الاوربية او الاسيوية يتمتعون بنفس الحقوق والمميزات والحماية الرسمية المعترف بها للدبلوماسيين وقناصل الدول في تركيا العثمانية وحفظ مؤسسات رعايا الدول الدينية والجمعيات الخيرية (الماسونية وغيرها) في البلاد العثمانية وخاصة ماكان منها في الاماكن المقدسة (فلسطين)[1]. ولكن الدولة في نفس الوقت خضعت بنص هذه المادة الى المساواة رسميا بين المسلمين والنصارى في كافة الحقوق والمزايا حتى الشهادة تقبل من المسيحي على المسلم دون التقيد بنصوص الشريعة الاسلامية في هذا البند وقد قبلت الدولة تطوعا هذه الشروط .

وكان البند رقم (٦١) أشار الى تعهد الباب العالي بدون تاخير تنفيذ الاصلاحات او التحسينات التي تتطلبها المقاطعات التي يقطنها الارمن ضد الشراكسة والاكراد وسوف تخطر الدول التي ستشرف على التنفيذ على مراقبة هذا الاصلاح[2].

معنى هذا أن الدولة العثمانية أصبحت تحت سيطرة الدول الاوربية أو تحت مظلتها توقع على مايملى عليها .

وعلى أية حال نعود الى الغاء المشروطية الاولى من قبل السلطان عبد الحميد الثاني التى اعتبرها حزب الاحرار اهانة لهم بعد فرضها ،فأخذوا يسعون في اعادة المشروطية باقلامهم[3] وفي ندواتهم داخل الدولة وخارجها. اذ يرون فيه أن مرور الدولة بالازمات المتكررة والمتوالية هي التي جعلت بعض العثمانيين يعتقدون ان الحل هو اقامة حكومة على النسق الاوربي وخلق نوع من التعاون بين المسلمين في الدولة لتجنب تدخل الدول الاوربية ،وهؤلاء كانوا دستوريين لاحبا في الدستور في حد ذاته ولكنهم راوا فيه حلا لأزمات الدولة الخارجية .

---

(١) (1) Osmanli Arsivi Yildiz Tansnifncinsi:Muahede Nama, Numarasi, No: 171.

(٢) (2) Ibid.

(٣) روحي الخالدى المقدسي : الانقلاب العثماني .. مجلة الهلال ،جا ،س ١٧، ١٩١٨م) ص ١٣.

وترتبط هذه التطورات التاريخية في هذه الفترة بالطورانية أو القومية التركية وتركيا الفتاة [1]، التي اعادت المشروطية الثانية سنة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨م.

ولهذا الغرض فقد شكلت سنة ١٣٠٧ هـ/١٨٨٩م جماعة من طلبة المدرسة الطبية العسكرية في اسطنبول جمعية سرية هدفها الواضح عزل السلطان عبدالحميد الثاني .

فكان تكوين هذه الجماعة معناه تحديد البداية الحقيقية لحركة تركيا الفتاة وكان المحرك الرئيسي لهذه الحركة طالب الباني ماسوني اسمه ابراهيم تيمو أو ادهم كما كان يدعى ذلك أحيانا.

لقد قضى تيمو في هذه المدرسة بضع سنوات طالبا فتوفرت له فرصة كافية للتعرف على عدد من الطلاب الذين يفكرون على شاكلته [٢] .

ففي ٢١ مارس سنة ١٨٨٩م المصادف سنة ١٣٠٧ هـ ناقش تيمو ثلاثة طلاب من أصدقائه وقدتعرف على آرائهم وهم اسحق سكوتي من ديار بكر وعبدالله جودت من قونية ،ومحمد أمين من قوقاسية [٣] وطرح عليهم فكرة تشكيل جمعية وطنية سرية ، وقد اصبح هؤلاء الطلاب الاربعة هم النواة للجمعية الاولى لتركية الفتاة والتي كانت تدعى "الترقي والاتحاد " لا " الاتحاد والترقي" والذى اتخذته اسما لها واشتهرت به فيما بعد [٤].

---

(١) محمدعبداللطيف البحراوي : التاريخ المعاصر وعلاقته بالازمنة الحديثة (مجلة الدارة العدد(٢) السنة ١٧) ،١٤٠٦هـ ،) ص ٨٣.

(٢) ارنست أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ترجمة صالح العلي ، (بيروت ، نشر فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر ،١٩٦٠م) ص ٤٩-٥٠.

(٣) أرنست أ.رامزور : المصدر السابق ، ص ٥٠.
الا أن يوسف اصاف : يضيف على ذلك طالب رابع اسمه "حكمت امين من قونية ".
تاريخ سلاطين ال عثمان : ص ١٦٦.

(٤) أرنست أ. رامزور : المصدر السابق ص ٥٠.

وقد رفعت هذه الجمعية شعارها المطالبة بالاصلاحات الدستورية ومنها اعادة الدستور والعمل بالمشروطية للمساواة بين أجناس الرعية ،والحصول على الحرية في القول والعمل وسلامة الأرواح والأموال وتقييد سلطة السلطان بالقوانين (١). فانضم الى هذه الجمعية بعض تلاميذ المدارس وأرباب الأقلام وذلك خلال مدة وجيزة من تأسيسها أمثال شرف الدين مغمومي ، وكريتلي شفيق وجودت عثمان وكريم سيباطي ومكلي صبري ،وسلانيكلي ناظم (٢) واساف درويش ،وعلي رشدي ومحمد غيريد ،وحسن زاده علي ،ونجيب ذارغا ،وطلعت بك وشطين كقوصوالي ابراهيم ، وقد كان هؤلاء المؤسسين الأوائل لهذه الجمعية (٣).

وكان تنظيم أو بناء هيكل هذه الجمعية على طراز جمعية الكاربوناري الايطالية التي تشكلت في القسم الاول من القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقسم الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ،ففي العطلة الصيفية للسنة التي سبقت تشكيل هذه الجمعية توقف تيمو في مدينة برنديزي عندما كان في طريقه الى بلاده ألبانية وزار خلال اقامته في برنديزي ونابولي محفلا ماسونيا برفقة أحد أصدقائه وتعلم تعليما كافيا عن دور الكابوناري في التاريخ الايطالي . وقد تأثر بتنظيماتها الماسونية فيما بعد ،حين قرر أنينشىء في تركية جمعية سرية تشبهها (٤).

ويبدو أن ابراهيم تيمو قد تدرب جيدا على أيدي الماسون الايطاليين ولهذا اتبع الطريقة الماسونية هو وزملاؤه عند عقد اجتماعاتهم واجراء مراسيم قبول عضوية هذه الجمعية (٥).

وفي هذا الصدد يؤكد المؤرخ يوسف آصاف حيث يقول : " اتخذوا في قبول الأعضاء وادخالهم في هذه الجمعية طرقا تشبه الطرق الماسونية وزادوا عليها

---

(١) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ،ج ٢ ،ص ١٦٦.
(٢) آرنست أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٨٠٨م ،ص ٥٠.
(٣) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ، ص ٢٧١
(٤) آرنست أ. رامزور : المصدر السابق ،ص ٥٠.
(٥) أورخان محمد علي : المصدر السابق ،ص ٢٧١.

أسلوباغريبا بأن يأمن الداخل كشف أمره حتى بين اخوانه أعضاء الجمعية بحيث أن العضو الواحد لايعرف من سائر الاعضاء لو كانوا ألوفا الا اثنين العضو الذى أدخله والعضو الذى توسط لادخاله (١).

أما صاحب كتاب تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨فيقول : " كان أثر الكاربانورى فيها واضحا من حيث أن المفروض في اعضائها ان يعرف بعضهم بعضا بارقام كسرية ،وتتكون هذه الارقام الكسرية من ترقيم كل خلية جديدة في المنظمة، ثم باعطاء رقم لكل عضو في تلك الجماعة فكان رقم الخلية او الفرع هو المقام ورقم العضو البسط . ولتوضيح ذلك نقول ان العضو الخامس في الخلية السابقة كان يدخل في قائمة الجميعة برقم (٧/٥) وكان رقم ابراهيم تيمو منشئ الحركة " ١/١"(٢) .

وقد انتشرت أفكار هذه الجمعية وسرت بين طلاب المدارس العسكرية ذلك لأن التعليم العسكرى كان على اتصال بالثقافة الأوربية . وعندما افتضح سر الجمعية عن طريق ثلاثة طلاب ، قدموا الى القصر السلطاني تقريرا يبينون فيه نشاط هذه الجمعية سنة ١٣١٠ هـ/١٨٩٢م غادر بعض أعضائها البلاد الى باريس خوفا من أن يقبض عليهم السلطان عبد الحميد الثاني لنشاطهم المعادى للدولة ، ولاستكمال دراستهم ومنهم خليل غانم العربي المسيحي الذى أصدر في جنيف جريدة " الهلال " ثم جريدة (تركيا الفتاة) في باريس وأيضا سلانيكلي ناظم ، الذى استطاع ان يكمل تحصيله في الطب بفرنسا في الوقت الذى لازال يعارض أفكار السلطان عبد الحميد الثاني (٣) . وخلال تلك الفترة ، هرب الى فرنسا أحمد رضا بحجة زيارة معرض باريس حيث أصبح هناك من أشهر رجال الاتحاد والترقي كما سيأتي .

ومن باريس بدأ يرسل الى السلطان عبد الحميد الثاني برسائل ينتقد فيها الأوضاع ويبدى فيها رأيه في كيفية الاصلاح ،وعندما سمع به الاتحاديون

---

(١) تاريخ سلاطين آل عثمان ،جـ٢ ،ص ١٦٦.

(٢) آرنيست أ. رامزوز: تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ،ص ٥٠-٥١.

(٣) آرنست أ.رامزور: المرجع السابق ، ص ٥٠-٥٣.
،محمودصالح منسى: حركة اليقظة العربية،(الطبعة الثانية، ملتزم الطبع والنشر: دار الفكر العربي ،١٩٧٨م) ص ١١٨-١١٩.

في باريس عرضوا عليه أن يمثل الجمعية في باريس فلم يتردد أحمد رضا من القبول ، وهناك تبدل اسم الجمعية الى "جمعية الاتحاد والترقي".

وبعد وصول سلانيكلي ناظم الى باريس ، اتصل باحمد رضا رئيس جمعية الاتحاد والترقي ، واقترح عليه أن يكون مديرا للصحيفة التي أصبحت فيمابعد اللسان الرسمي للجمعية ، وبدأوا بالتعاون مع خليل غانم وعدد من المنفيين ،باصدار صحيفة " مشورت " التي كانت تصدر مرتين في الشهر وكانت تطبع باللغة التركية فقط ، لانها كانت تستهدف القراء داخل الدولة العثمانية ، غير أن أحمد رضا الحق بها ملحقا بالفرنسية.

وكانت " مشورت " الصحيفة الرسمية لجمعية الاتحاد والترقي ويذكر رامزور انه : " ... في كانون الاول – ديسمبر ١٨٩٥م نشرت " مشورت " مقالا بينت فيه أهداف الجمعية ،وقدمتها الى قرائها ... وكان عنوان المقال " منهاجنا ونصه كمايلي :

ان لجنة الاتحاد والترقي العثمانية أنشأت في باريس صحيفة "مشورت" رغبة منها في اظهار وجودها ، نظرا لأن الطباعة مقيدة في تركية كما هو معروف . " والملحق الفرنسي سيجعل القراء الاجانب على اتصال دائم بميول حزب تركيا الفتاة ورغباته .. اننا نرغب العمل لا لخلع الاسرة الحاكمة التي نعتبرها ضرورية لحفظ النظام السليم . ولكن لنشر فكرة التقدم التي نريد لها نصرا سليما. ولما كان شعارنا هو "النظام والترقي" فاننا نطالب بالاصلاحات ولانقصرها على هذه الولاية او تلك ، بل نطلبها للامبراطورية كافة ، لا لمصلحة قومية واحدة ، بل لمصلحة العثمانيين كافة سواء كانوا يهودا أونصارى أو مسلمين . اننا نريد أن نتقدم في مضمار المدنية ، ولكننا نعلم بعزم اننا لانريد أن نتقدم الا بالطريق الذى فيه تدعيم العنصر العثماني واحترام ظروف وجوده الخاصة .

اننا مصممون على رعاية اصالة حضارتنا الشرقية ،ولهذا السبب لانأخذ من الغرب الا النتائج العامة لتطوره العلمي والاشياء التي يمكن هضمها

حقا وهي ضرورية لتوجيه الشعب في سرية نحو الحرية ..." (١)

ويواصل رامزور حديثه عن أهداف هذه الجمعية حيث يقول : "اننا نعارض احلال التدخل المباشر للدول الغربية محل السلطنة العثمانية وهذا ليس ناجما عن التعصب لان المسألة الدينية عندنا امر خاص، ولكنه منبعث من العاطفة المشروعة للكرامة المدنية والقومية ".

ومن الواضح أن هذا المنهاج هو عمل احمد رضا رئيس جمعية الاتحاد والترقي لاتفاقه مع انصاره على نقطة واحدة وهي التتريك والأخذ عن أوروبا وقد ظلت هذه النغمة هي الاساس الذى تتخلل منهاج أعضاء تركية الفتاة المتأخرين ، رغم الاراء المعارضة لها في بعض الاحزاب الاسلامية كما سيأتي الحديث عنه ،ففي هذه اللحظة كانت الجمعية تدبر انقلابا في اسطنبول(٢) لابراز مهمتها الى حيز العمل عندما اخذت تنتشر بسرية الامر الذى كان يثير الدولة وخاصة عندما قررت خلع السلطان عبدالحميد واعادة السلطان مراد أو ولي العهد مكانه (محمد رشاد) واسندوا تنفيذ هذه المهمة الى (على كاظم باشا) قائد الفيلق الاول في اسطنبول . وعندما كانوا يتحفزون للعمل لتنفيذ المؤامرة اذ قدم نجيب باشا سفير تركيا في مدريد سابقا واعترض على ذلك لان القوة التي كانت تحت يد كاظم باشا غير كافية لتنفيذ هذه المهمة، فاخروا تنفيذ هذا القرار الى وقت لاحق ، هذا التأخير أفسد العمل كله وحدث لأجل ذلك ضجة بين أعضاء الجمعية حتى أن نادر بك سكرتير الجمعية المركزية في اسطنبول اعترض على التأخير بصوت جهورى قائلا: " ياصديقي اني آسف لعنادك لأن التأجيل الى الغد يضرنا وويل للذين لايكونون معنا " ووقعت كلماته في أذن احد رجال السلطان فوشى به الى المابين فساقوه الى السلطان وبعد التحقيق اعترف بأسماء كثيرين من الاعضاء فأرسل السلطان قواته للقبض على عدد من الأعضاء للجمعية (٣) الأصليين للجمعية بمافيهم

---

(١) آرنست أ. رامزور: تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ،ص ٥٦-٥٧.
،يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ،ج ٢ ،ص١٦٧.
(٢) ارنست أ.رامزور : المصدر السابق ،ص ٥٧-٥٨.
(٣) روحي الخالدى المقدسي : الانقلاب العثماني ..(مجلة الهلال ،ج ١ ،س ١٧ ، ١٩٠٨م) ص ١٩-٢٠.
، يوسف آصاف : المرجع السابق ،ج ٢ ،ص ١٦٧.

عبد الله جودت واسحـــاق سكوتي وشرف الدين مغمومي وكريم سيباطـــــــي. ثم نفوا. كما تم القبض على وتشروكسولا وأحمد بك وهو مدرس في المدرســـة الحربية ، فنفيا الى رودوس غير أنهما استطاعا ان يصلا الى باريس . وامـــا عبد الله جودت فقد أرسل الى طرابلس الغرب فاستطاع ان يعبر الحدود الـــى تونس ثم انتهى به المطاف الى باريس في صيف سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م .

أما ابراهيم تيمو فقد خرج من البلاد قبل أن يقبض عليه ، وذهب الـــى رومانية حيث نظم فرعا للجمعية ونشر صحيفة لتركيا الفتاة (١)

ومن الملاحظ أن السلطان عبد الحميدفي كل مرة تراه يقبض على رجـــال الاتحاد والترقي يخفف عنهم الحكم ، اما بالنفي أو بالسجن لفترة ثم يطلـــق سراحهم . ياللعجب .. يريدون قلب حكومته وهو يعاملهم باللين وفي هـــذه المرة نراه يكتفي بنفي هؤلاء الذين ارادوا خلعه الىخارج البلاد !

ولقد قال السلطان عبد الحميد الثاني ذات مرة : " انهم يدفعوننـــي لكي أسلك الشدة والعنف ولكنني لا أستطيع ذلك لأنني لا أملك نفس المـــزاج العنيف الذي كان يملكه جدى السلطان محمود الثاني "(٢) .

الا أن مراد بك الداغستاني رفع الى السلطان قائمة بالاصلاحات التـــي اعتبرها ضرورية لاصلاح الدولة ومراد هذا معلم للتاريخ في الكلية المدنيـــة باسطنبول انضم الى جمعية الاتحاد والترقي وخلال الاحداث السابقة تطوع برفع هذه القائمة وقد ارتأى كما كان يدعو اليه احمد رضا رئيس الجمعيـــة في باريس ، فرأى السلطان نفيه فاختار مصر حيث أسس جريدة " الميزان" التي اخذت تتسرب خفية الى أيدى الثوار من الماسونيين في اسطنبول (٣) .

---

(١) أرنست آ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ ، ص ٥٨.

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ، ص ٧٣.

(٣) أرنست ٠آ. رامزور: المصدر السابق ، ص ٥٩. ، محمود منسى : حركة اليقـظة العربية ، ص ١١٩.

وبهذا النفي والهرب زاد عدد الأتراك في المنفي من الخارجين على سلطة الدولة والشريعة الاسلامية وممن تأثروا بالماسونية وتثقفوا بالثقافة الاوربية وخاصة بعد افتضاح أمر المؤامرة التي دبرت للاطاحة بالسلطان عبدالحميد الثاني سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م وقد تركز نشاط حزب الاتحاد والترقي أو تركيا الفتاة في تلك الفترة في باريس [1].

أما مراد الداغستاني فقد اشارت عليه جمعية الاتحاد والترقي أن ينتقل الي جنيف، ووضعت له بعض الشروط والتنظيمات وهو عدم نشر مقالاته في جريدتي (ميزان ومشورت) الا بعد مصادقة شعبة الاتحاد والترقي في جنيف وكان مراد بك الداغستاني رئيسها ورضا بك عضوا فيها.

اضافة الى ذلك فقد اجتهد مراد بك لاعادة مركز جمعية الاتحاد والترقي الى اسطنبول فأنشأ فرعين في مدرسة بانقة العسكرية باسطنبول احدهما عرف باسم حسين عوني والثاني عرف باسم سليمان، واستعان هؤلاء الطلاب بطلاب كلية الطب لاجراء مظاهرة صاخبة حول قصر يلدز والمناداة باعادة الدستور او المشروطية فقبض الجيش على زعيم هذه الجمعية وأفادهم باسماء الثائرين معه وحاكموهم في طاش قشله تحت رئاسة رشيد باشا، فحكم عليهم فأعدم من أعدم وحبس من حبس لخروجهم على طاعة السلطان [3].

وقد حاول السلطان عبدالحميد الثاني عرقلة نشاط الجمعية في باريس بالتدخل الدبلوماسي ،وباستخدام الوسطاء حتى نجح في اقناع مراد بك الداغستاني بالتخلي عن نشاطه الثوري والعودة الى اسطنبول [4].

وتفصيل ذلك رأى السلطان أن اتباع سياسة ان الشدة لاتفيد في القضاء على جمعية "الاتحاد والترقي " فعمد الى الدبلوماسية في استرضائهم فأرسل

---

(١) محمود منسى : حركة اليقظة العربية ،ص ١١٦.

(٢) روحي الخالدى : الانقلاب العثماني ،(مجلة الهلال ،ج ١ ،س ١٧ ،١٩٠٨)، ص ٢٢ .

(٣) روحي الخالدى : المصدر السابق ، ص ٢٢.

(٤) محمود منسى : المرجع السابق ،ص ١١٦.

الى مراد بك ، أحمد جلال الدين باشا ، فأبلغه أن السلطان يوافق الثوار على الاصلاحات المطلوبة ولكنه يسألهم هدنة يتمكن من خلالها وضع خطة متكاملة للاصلاح • وقد دعا زعماء الحزب في اسطنبول وعرض عليهم استبقاء حياتهم والانعام عليهم اذا اذعنوا ورجعوا واذا ابوا زادهم اضطهادا وقتلا فوافق الثوار على الشروط التالية :

١- يوافقون على الهدنة ولكنهم لاينزعون سلاحهم •

٢- يرفضون كل انعام او مكافأة شخصية •

٣- ان مراد بك مندوب لثوار يصل اولا بمفرده تحت رعاية الدولة فيعرض نفسه لهذا الخطر رغبة في المصلحة العامة •

٤- يتعهد السلطان بالاصلاحات المطلوبة ويعفو عفوا عاما عن جميع أعضاء الثورة •

٥- أحمد رضا بك يبقى على رئاسة الحزب الى أن تنجز الوعود •

فبعث جلال الدين مندوب السلطان تلغرافيا الى السلطان بهذه الشروط فجاء الجواب بالايجاب وبالعفو العام عن الثوار العثمانيين سواء كانوا في السجون او المنفى وبناء على ذلك انحلت جمعية الاتحاد والترقي(١). الا أن هناك بعض المتمسكين الذين لايزالون يطالبون بالاصلاح ولم يرضخوا الى الهدنة التي وافق عليها السلطان مع مراد بك ، بل كانوا باقين على آرائهم وعلى رأسهم رئيس جمعية الاتحاد والترقي احمد رضا ،ولكنهم استسلموا للهدنة •

وفي سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م ظهرت الجمعية في ثوب جديدوذلك عندما هرب الى باريس الداماد محمود باشا صهر السلطان عبدالحميد الثاني وزوج شقيقته ومعه ولداه صباح الدين ،ولطف الله ، الى باريس خفية ودون علم السلطة بعد ان استطاع ان ينفذ من الرقابة ،حيث انضم الى الثوار الاتراك في باريس(٢) وبعد وصوله الى باريس أول ما فكر فيه هو احياء جمعية الاتحاد والترقي

---

(١) روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ،مجلة الهلال ،ج ١ ،س ١٧ ، ١٩٠٨م) ص٢٣•

(٢) محمود منسى : حركة اليقظة العربية ،ص ١١٦•

التي كان يرجو فيها صلاح الدولة لاختلافه مع السلطان لحكمه الاستبدادي كما يقول . لذلك مال الى الحركة الدستورية ، لقلب الحكم ،فكتب الداماد محمود باشا الى احمد رضا مديرجريدة (مشورت) يدعوه الى الظهور وتايد أفكاره فاجابه لطلبه وحقق رغبته ثم كتب الداماد الى السلطان في ٢١ يناير سنة ١٩٠٠م الموافق ١٣١٨ هـ كتابا شديد اللهجة ذكر فيه الاسباب التي حملته على الخروج وضمن هذا الكتاب كثيرا من النقد والتجريح للسلطان ودولته .

فأذن السلطان عبد الحميد لرجال الدولة وسفراء الدول أن يتوسطوا بالصلح بينه وبين صهره في باريس لاسترضائه ولكنه أصر على موقفه وهو "الاصلاح والعودة الى الدستور الوضعي والعمل على تحقيق الاهداف التي يريدها ". ولكنه لم يلبث أن أصيب بمرضهات على اثره في ١٨ يناير سنة ١٩٠٣م الموافق ١٣٢١ هـ "(١) . فانضم والداه صباح الدين ولطف الله الى الثوار الاتراك في باريس وكان مطلبهما الوحيد هو حرب السلطان عبد الحميد الثاني والقضاء على حكمه ،ولكنهما اختلفا حول طريقة ادارة الدولة بعد ذلك،حيث كان أحمد رضا وأنصاره يصرون على قيام حكم مركزى في اسطنبول ،تجتمع في يده كل السلطان كما كان صباح الدين وزملاؤه يريدون تطبيق اللامركزية وتوسيع صلاحيات الولايات ويدعون الى تكوين اتحاد عثماني يكون فيه التمثيل لمختلف قوميات الدولة (٢).

لهذا تفرغ الامير صباح الدين لنصرة الثوار فجمع المشتتين منهم في اوربا وغيرهم فبلغ عددهم حوالى سبعة واربعون فردا من امم شتى فيهم العربي واليوناني والكردى والألباني والشركسي واليهودى والارمني والتركي اجتمعوا من مصر وبلغاريا وجنيف وباريس فتألف منهم جمعية تحت رئاسة صباح الدين فألقى فيهم خطابا شجعهم وأحيى آمالهم وحثهم على الثبات وجمع كلمتهم المختلفة تحت اسم الثوار الأتراك بلاتمييز في المذهب

---

(١) روحي الخالدى المقدسي : الانقلاب العثماني (مجلة الهلال ج ١ ،س ١٧ ، ١٩٠٨) ص ٢٤-٢٥.

(٢) ارنست أ. رامزور: تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ص ٩٩. ،محمود منسي : حركة اليقظة العربية ،ص ١١٦.

أو الجنس وحث على الوحدة بين الطوائف التركية في الدولة . وطالب بمساعدته الدول الاوربية له ماليا وعسكريا ومعنويا . ووضع برنامجا مطولا لجمعية وافقه الثوار الا انصار أحمد رضا الذى شق عليهم تدخل الدول الأوربية وهذا ماينافي هدفهم المعلن . وكتب زعيمهم في جريدته " مشورت " فصولا عديدة عن ذلك التحرك (١).

وعلى أثر ذلك عادت جمعية الاتحاد والترقي في الظهور من جديد في باريس للعمل وتألفت لجنتها من جديد للبحث في تفاصيل الاصلاح اللازمة للدولة من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليم وغير ذلك من الأمور .

كما أوصى أعضاء الجمعية بنشر الجمعيات والشعب على أنحاء المملكة العثمانية توصلا الى هذه الغاية . فتعددت الجمعيات والشعب في الدولة العثمانية وخاصة في أواسط آسيا الصغرى .

أما صباح الدين فقد أنشأ صحيفة في سنة ١٣٢٤هـ:١٩٠٦م سماها "ترقي" لمخاطبة مختلف الطوائف داخل تركيا وخارجها ،وسعى الى التقريب بين العناصر المختلفة في الدولة ،وخاطب الارمن على وجه الخصوص بكتاب مفتوح حضهم فيه على الوفاق وقال لهم : " انكم تطلبون توسط أوربا في انقاذكم فهذا نفس مطلب الأتراك أيضا ،فمصلحتنا في هذا الشأن مشتركة فلنسعى معا في هذا السبيل وأوربا ترحب بنا ،وتدعم مسيرتنا لاننا نقاوم الظلم والظالمين ".

وقد أدت خطبة صباح الدين الى جمع كلمة الثوار من الطوائف وجعل قاعدة سعيهم الاتحاد بين العناصر والمذاهب والاستعانة والاستغاثة بدول أوربا .. وعلى هذا المنهج والهدف قامت جمعية صباح الدين وأنصاره ،حتى

---

(١) روحي الخالدى المقدسي : الانقلاب العثماني .. (مجلة الهلال ،ج ١ ،س ١٧، ١٩٠٨) ص ٢٥-٢٦.

حققت مطلبها وهو اعادة الدستور [1] بالتعاون مع جمعية الاتحاد والترقي تحت قيادة أحمد رضا .

وعندما كانت حركة الاتحاد والترقي أوتركيا الفتاة تسير في ثورتها داخل الدولة العثمانية كان أحمد رضا وصباح الدين دائبين على عملهما وكانت صفوفهما تزداد عددا بين فترة وأخرى بالهاربين من اسطنبول الذين يطالبون باعادة المشروطية .

وبينماكان صباح الدين يكسب أنصارا من قوميات مختلفة كان معظم الاتراك تجذبهم القومية التركية الصريحة التي يدعو اليها حزب احمد رضا (الاتحاد والترقي) أكثر مما تجلبهم دعوة عصبة صباح الدين (اللامركزية) الادارية والمبادرة الخاصة [2] .

وكان قصر يلدز قد كشف في سنة ١٣١٩ هـ/ ١٩٠١م عن حركات ومؤامرة لاثنين من الاتراك هما سزاني بك والطبيب بهاء الدين شاكر ،فهربا قبل القبض عليهما من اسطنبول الى باريس لماذا؟ لانهم كانوا ينوون احياء جمعية الاتحادوالترقي داخل اسطنبول ولذلك اتصلا بأحمد رضا واتفقا أن يعملا سويا معا ،حيث استمر أحمد رضا في اصدار جريدته " مشورت " بالفرنسية فظهرت الى جانبها صحيفةجديدة باسم " شوراى امت" (شورى الامة) يحررها سزاني بك فتوسعت الجمعيةوازدادت قوتها لدرجة كبيرة فلميعد كفاح رجل وعدد قليل بل لم يعد احمد رضا صوت الجمعية الذى يناقش وقداستمرت الصحيفتان تصدر جنبا الىجنب وتصلان الى الدولة والى مراكز الثوار في كل مكان [3] حتى انه في اواخر سنة ١٣٢٥ هـ/١٩٠٧م تم التفاوض بين الجماعتين بعد عقد عدة مؤتمرات لتقارب وجهات النظر بين أحمد رضا رئيسجمعية الاتحاد والترقي والجمعية العثمانية (اللامركزية) تحت

---

(١) روحيالخالدى المقدسي : الانقلاب العثماني..(مجلة الهلال ،ج ١ ،س ١٧، ١٩٠٨) ص ٢٦-٢٧.

(٢) آرنست أ.رامزور: تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨،ص١٣٦.

(٣) آرنست أ.رامزور: المصدر السابق ص ١٣٦-١٣٧.

رئاسة صباح الدين، وكانت الاخيرة ليس في بالها الا الاطاحة بالحكومة القائمة في تركية بالقوة . الا أن احمد رضا كان يستنكر دائما استعمال القوة لتحقيق الغايات التي ينشدها ويبدو انه في النهاية اقتنع على التضحية بمبادئه من اجل الوحدة ولمكانة الامير صباح الدين ثم المزج بين الجمعيتين ثم اسهم في البرنامج الذى أقره المؤتمر الثاني عام ١٩٠٧م/ الثوار وهذا البرنامج يدعو الى تبديل الحكومة في الدولة العثمانية بالقوة اذا اقتضت الضرورة .

وتقرر أيضا أن يطلق على الجمعيتين الاسم المشهور وهو" جمعية الاتحاد والترقي العثمانية " عثمانلي ترقى واتحادى جمعيتى"[1] ليتحدوا يدا واحدة ضد السلطان عبد الحميد الثاني حول اعادة المشروطية او تغيير الحكومة لنشر هذا الدستور.

إضافة الى ذلك كانت هناك قوة أخرى تساندهم تتمثل في اليهود الذين انتشروا في كافة أقطار الدولة العثمانية وتجنسوا بالجنسيات الاجنبية للاستفادة من الامتيازات الممنوحة للاجانب يتحينون الفرص لمساعدة الجمعيات السرية في البلاد العثمانية مع ان الدولة سمحت لهم بالدخول الى اراضيها وعاملتهم معاملة حسنة الا ان هؤلاء اليهود كانوا يتحينون الفرصة لتصل الى فلسطين واحتلالها سواء كان ذلك بالطرق المشروعة أو الملتوية كما سنرى . مع انهم عاشوا في أرغد عيش ، في البلاد العربية في بيروت ،وفي سلانيك وفي بلاد الروم وفي الأناضول ،كانوا هم السماسرة والأغنياء ،عاشوا حياة مترفة ومريحة في الممالك العثمانية واعتبروا الأتراك أكبر أعدائهم وعلى رأسهم السلطان عبد الحميد[2].

وفي هذا الصدد يذكر لنا مصطفى طوران معاصر هذه الاحداث انه في سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م عقد مؤتمرا للصهيونية العالمية في مدينة (بازل)

---

(١) روحي الخالدى المقدسي : الانقلاب العثماني (مجلة الهلال ،ج ١ ،س ١٧ ١٩٠٨م) ص ٢٨.

(٢) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ،ص ١٣- ١٤.

بسويسرا واشترك فيه (٢٠٤)عضوا من الاعضاء الصهاينة وبعد مناقشات طويلة توصلوا الى قرار حول تأمين وطن ليهود العالم . تقرر أن يكون هذا الوطن في الارجنتين أو أوغندة . الا أن تيودرور هرتزل أصر على أن يكون هذا الوطن في فلسطين، فوافقه الأغلبية الساحقة فاتخذوا القرار التالي : ضرورة نجاح هذه القضية ولو اقتضت صرف الملايين وقد اعطيت الصلاحية المطلقة لتيودور هرتزل لقاء تعهده بالوصول الى هذه الغاية (١).

وكان في هذه الفترة يهود روسيا يهاجرون الى تركيا وقد تمكن بعضهم من الوصول الى فلسطين هربا من روسيا ومن رومانيا (٢) . وفي سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م لحق تيودور هرتزل امبراطور المانيا ويليم الثاني الذي وصل الى اسطنبول بدعوة من السلطان عبد الحميد الثاني فاستغل تيودور هرتزل هذه الفرصة واتجه مسرعا الى اسطنبول لمحاولة الاتصال بالاحزاب هنا ومعرفة خططهم ، الا ان زيارة الامبراطور ويليم لاسطنبول قد انتهت وبدأ زيارته للقدس فلحقه هرتزل هناك وتمكن بعد ان توسط برئيس الوزراء الالماني (فون بولوف) مقابلة الامبراطور ويليم ، لذلك طلب مساعدته في تسهيل هجرة يهود العالم الى فلسطين ، فرد الامبراطور عليه انه يمكنه المساعدة ولكن بشرط عدم المساس بحق حكم السلطان العثماني، فقبل هرتزل ذلك وطلب منه التوسط في مقابلة السلطان . وقد بذل الامبراطور وساطته وفعلا عاد هرتزل الى اسطنبول يحدوه الأمل ويرافقه قرا صو زعيم الاقلية التركية والحاخام ليفي موشيه حاخام اليهود بعد ان بذل ويليم امبراطور المانيا وساطته وتمكن هرتزل من مقابلة السلطان عبد الحميد الثاني في قصره بيلدز بعد أن مهدت سفارة المانيا لهذه المقابلة . فقدم هرتزل الى السلطان عبد الحميد الرشوة قائلا : " مولانا صاحب الشوكة جلالة السلطان لقد وكلنا عبيدكم اليهود وهم يقبلون التراب الذي تدوسونه ويستعطفونكم

---

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ١٥.

(٢) F.O.: 424/222. Mr.Marling to Sir Eduard Grey.No:(2), 3-1-1910.

للهجرة الى فلسطين المقدسة ، ولقاء أوامركم العالية الجليلة نرجو التفضل بقبول هديتهم خمسة ملايين ليرة ذهبية ".

وكان السلطان عبد الحميد على علم بقرار مؤتمرهم في سويسرا وعلى علم بوصول المهاجرين اليهود من روسيا الى الدولة لذا كان يعرف مايقصده هذا الوفد اليهودى من هديته [1] وبعد ان استمع السلطان الى هذا العرض بكل هدوء : امر الحرس بطردهم من القصر واصدر على الفور اوامره بمنع هجرة اليهود الى فلسطين ووضع كل العقبات في طريقها [2] . لكن اليهود لم يرتدعوا فنراهم يعودون مرة ثانية تدفعهم الى ذلك ضايقة الدولة المالية التي كانت تمر بها لعلها تكون المدخل الذى يستطيعون منه انتزاع موافقة السلطان عبد الحميد الثاني بالسماح لليهود بالهجرة الى فلسطين فعادوا يحاولون مرة أخرى مقابلة السلطان ولما تمت لهم هذه المقابلة عرض هرتزل على السلطان مبلغا ضخما تحت شعار تقديم العون للدولة العثمانية ، مقابل السماح لليهود بالهجرة الى فلسطين . وماكاد هرتزل ينهي كلامه حتى قال له السلطان غاضبا : " لوكنت اعلم انك جئت اليوم تطلب مني مارفضت اجابتك اليه من قبل لما سمحت لك بالدخول . واعلم ياهرتزل ان فلسطين جزء من ارض الاسلام وارض الاسلام لاتباع بالذهب والدراهم ولقد حصلنا على كل شبر منها ببذل دماء اجدادنا ولن نفرط بشبر منها قبل أن نبذل كل دمائنا دفاعا عن هذه الارض المقدسة مهما كلفنا الأمر " [3]

لذلك ناصب هرتزل العداء للسلطان عبد الحميد الثاني ، فقرر اليهود الوصول الى أهدافهم عن طريق خلع السلطان بالوسائل السياسية الملتوية [4]

---

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ١٦-١٧ .

(٢) F.O.:424/222. Mr.Marling to Grey, No.:(2), 3-1-1910.

(٣) زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الاتراك ، ص ٤٥-٤٦ .

(٤) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ١٧ .

وهكذا فشلت المساعي الصهيونية في انتزاع أرض فلسطين . لذلك نراها تستخدم الماسونية ،والماسونية كماسبق الحديث عنهافي الفصل الثالث ماهي الا واجهة من واجهات الصهيونية . لذلك قررت الماسونية التخلص من السلطان فمدت يدها الى جمعية الاتحاد والترقي لتبعث فيها الحياة ، وقد أدركت الماسونية ان دور وجهد بضعة اشخاص هاربين من الدولة العثمانية لن يكون مجديا على الاطلاق وأن الأسلوب المؤثر والفعال هو التسرب بين صفوف الجيش واصطياد ضباط من الشباب باستخدام كل أنواع المغريات للانخراط في سلك الماسونية . وكان الجيش الثالث هو الانسب لهم فهو بعيد عن مركز الدولة أوفي اقليم مضطرب مشحون بالفتن والحركات السرية . (١)

وفي نفس الوقت الذي استمر فيه حزب الاتحاد والترقي بالنشاط في باريس واسطنبول بعد توحيد احزابه تشكلت منظمة سرية بين ضباط الجيش الثالث في مناستر وقوصوه وسلانيك غايتها اسقاط حكم السلطان عبدالحميد واعادة الدستور وعهد المشروطية والتمسك بالدولة العثمانية وعدم التفريق بين المواطنين في الدين أو العرق وتقوية السلطة وجعل الجيش سندا للثورة .

ففي سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م قام طلعت بك موزع البريد مع سبعة من اصدقائه بتشكيل جمعية للاتحاد والترقي في سلانيك وعندما سمع احمد رضا رئيس حزب الاتحاد والترقي في باريس بالخبر أرسل الطبيب ناظم الى سلانيك للاتصال بالتنظيم الجديد وتأييده . لذلك اتصل الطبيب بطلعت وبعد المشاورات التي دارت بينهما تقرر أن يكون للجمعية فرع في باريس اطلق عليه اسم التنظيم الخارجي لجمعية الاتحاد والترقي (٢).

ومن هنا نرى أنه في هذه الاثناء سرت شرارة صغيرة من هذه الحركة الى الجيش الثالث في مدينة سلانيك مركز يهود الدونمة الماسونيين

---

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني .. ،ص ٢٨١.

(٢) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٤٩-٥٠.

فوجدته مرتعا خصبا لها . يقول أحد الاتحاديين : " كان الجيش الثالث يتمتع بنوع من الحرية العسكرية ،ذلك لأن تدخل الدول العظمي في احداث الروملي ساعد على اكتساب هذا الجيش نوعا من الاستقلال لم تتمتع بها الجيوش الاخرى ،مما عمل على تهيئة تربة جيدة لفكر الحرية لنشاط هؤلاء هناك" (١). فأحس المحفل الماسوني في سلانيك بان طلعت سيكون له مستقبل كبير في الدولة العثمانية فاتصلوا به وسجلوه في قائمة الماسونيين ورقى طلعت الى عدة درجات في المحفل الماسوني ،وأصبح يتقاضى منه راتبا شهريا مقداره عشر ليرات انجليزية .

وقد كان الرأس المدبر في سلانيك هو عمانوئل قراصو اليهودي وقد استطاع أن يحتضن طلعت ويقربه منه (٢).

ولكن السلطان عبد الحميد الثاني بلغه مايجرى في أوساط الجيش الثالث في سلانيك عن طريق عيونه التي يبثها السلطان في كل مكان،خوفا على تقويض أركان دولته وفي هذه اللحظة قدم طلعت وقراصو الى اسطنبول لتوثيق العلاقة مع التنظيم لجمعية الاتحاد والترقي في اسطنبول لحزب الاتحاد والترقي فألقى القبض عليهما واستجوبا أمام لجنة خاصة شكلت بقصر يلدز بصورة مستعجلة ، استطاع قراصو بدهائه أن ينقذ نفسه وينقذ معه طلعت اذ قال: " نحن ماسونيون لاننكر ذلك لكننا لسنا اعضاء في جمعية سرية فاقتنعت اللجنة بكلامه (٣) .

لهذا نرى ان الجمعيات التي تأسست في داخل اسطنبول لم تستطع تحقيق أهدافها حسبما خطط لها ،وذلك بسبب صرامة المراقبة من السلطان لهذه الجمعيات ،ولكن اختيار رجال جمعية الاتحاد والترقي ، سالونيك في مقدونيا مركزا لنشاطهم يعود الى أنها اكثر المناطق اتصالا بالعالم الاوربي

---

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ،ص ٢٨٠-٢٨١.
(٢) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ،ص ٤٩-٥٠.
(٣) مصطفى طوران: المصدر السابق ،ص ٥٠.

هذا الى جانب ضعف قبضة السلطان عبد الحميد نسبيا عليها ، اضافة الى أن نشاط قوميات البلقان في المنطقة دفع الدولة الى حشد قوات عسكرية بها ، ونظرا لاضطراب هذه المنطقة فقد أنشئت ادارة دولية خاصة تحت اشراف خمس دول اوربية [(١)] وهي انجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وايطاليا [(٢)]، لهذا وجد الجيش العثماني الثالث نفسه في قلب دائرة التدخل الأجنبي[(٣)].

ففي عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م اتسعت جمعية الاتحاد والترقي وتفاقم خطرها خاصة بعد دخول اليهود في عضويتها ودخول يهود الدونمة خاصة المتسترين (Grrpricjew) والمقيمين في سلانيك .

وتعتبر هذه المدينة هي المركز الرئيس لدسائسهم ومؤامراتهم لأن هذه المدينة تضم اكبر عدد من الهيود في تركيا ، معظمهم من اليهود الدونمة ورأى الاتحاديون ان نهاية السلطان باتت وشيكة الوقوع[(٤)] وخاصة عندما علموا في سالونيك باجتماع ريفال بين نيقولا الثاني قيصر روسيا وادوارد السابع ملك بريطانيا سنة ١٣٢٦هـ /١٩٠٨م انتابهم المخاوف من احتمال فرض تضحيات جديدة على لدولة العثمانية وصار أعضاء الاتحاد والترقي يخشون أن تتنازل بريطانيا عن معارضتها التقليدية للاطماع الروسية وذلك معناه زوال الحكم التركي العثماني من أوربا[(٥)].

لهذا قرر أعضاء الجمعية البدء بهذه الثورة والقيام بها يوم ذكرى مقتل السلطان عبد العزيز، غير أن الظروف حالت دون تنفيذ ذلك فتأجلت من ٥ يونيه ١٩٠٨م الى ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨م .[(٦)]

---

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٣-٩٤ ، محمود منسى : حركة اليقظة العربية ، ص ١١٧-١١٨ .
(٢) ساطع الحصري : المصدر السابق ، ص ٩٤ .
(٣) محمود منسى : المرجع السابق ، ص١١٨ .
(٤) حسان علي حلاق: دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش ، ص ٥٠ .
(٥) محمود منسى : المرجع السابق ، ص ١١٨ .
(٦) حسان على حلاق: المرجع السابق ، ص ٥٠ .

ويذكر القائد التركي جواد رفعت اتلخان المعاصر للسلطان عبد الحميد الثاني ان الهدف من ثورة سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م هو: " ان الصهيونية يريدون تجريد السلطان عبد الحميد الثاني من سلطنته وثروته واملاكه انتقاما منه لعدم افساح المجال له للقيام ضدهم ثانية . ويهود الدونمة المرتدون كانوا في سلانيك يريدون ازاحة عبد الحميد من أمامهم ليصفى الجو لهم ..وجمعية الاتحاد الترقي كانت بحاجة الى المال .."

ويضيف ان اليهود هم الذين نشروا الفوضى في داخل البلاد ونظموا القوة المناهضة للحكم العثماني بقصد تحطيم الدولة العثمانية وسلحوا أعضاء تركيا الفتاة في الخارج ونظموا صفوفهم وأمدوهم بالأموال، كما نظموا عصابات السلافية في البلقان ".

وكان المحفل الماسوني قد شارك في هذه النشاطات قبل فترة طويلة ويبدو انها في سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م عندما حصل اليهودى قراصو على اذن لعقد اجتماعات جمعية الاتحاد والترقي في محفله .. وبهذه الطريقة أصبح أعضاء هذه الجمعية من الماسون (١).

وعلى أية حال لما بلغ السلطان العثماني كثرة انتظام الضباط والموظفين في جمعية الاتحاد والترقى في سلانيك اخذ يستدعى المتهمين الى اسطنبول بحجة النقل والترقية ،فخاف سائر الاعضاء من الفشل كما حصل من قبل فعزموا على مباشرة الثورة (٢).

فانفجر الموقف بالشرارة الاولى من سلانيك مقر قيادة الجيش الثالث وحدث أن اغتيل قائد الجيش الاول وكانت هذه الحادثة سببا في اضطراب الدولة فقام القائد نيازي بك بالسيطرة على مركز البريد في (رسنة) وارسل من هناك برقية الى السلطان عبد الحميد يخبره فيها بانه سيعلن الثورة والدستور ويطالبه

---

(١) حسان حلاق: دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش ، ص١٥٠ نقلا عن جواد رفعت اتلخان :الخطر بالاسلام وبنو اسرائيل ص ١٥١-١٥٢.

(٢) مصطفى طوران :اسرار الانقلاب العثماني ،ص٥٦.

بقبول ذلك دون قيد أوشرط والا فالمسئولية الكاملة تقع عليه . وكان نيازى يعتمد على الجيش الثاني والثالث المعسكر في سلانيك ومناستر وعلى الفيلق الرابع في أرضروم (١).

فعظم طلب هذا الاصلاح على السلطان عبدالحميد فلأمر فرقبة كانت تتأهب على الحدود للدفاع عن الدولة فما كان من هذه الفرقة الا أنها هي الأخرى انضمت الى الثوار تطلب الدستور (٢) . وكان الالبان يعاضدون هذه الثورة ، فأخذت البرقيات تنهال على السلطان من جميع فرق الجيش مطالبة باعادة الدستور(٣)، فخشي السلطان من تفاقم الازمة وراى أن من الحكمة ان يمنح الجمعية مطالبها حقنا للدماء ،وأعلن قبول الدستور في سنة ١٣١٦هـ/١٩٠٨م(٤) .

لما تمرد الجيش الثالث في مقدونيا وخاصة في ولاية سلانيك وأعلن أحمد نيازى الثورة وهدد بالتقدم نحو العاصمة اسطنبول(٥) أمر باستدعاء انور ونيازى أبرز زعماء هذه الحركة الى اسطنبول فلما تجاهل الاثنان هذا الامر أمر السلطان بارسال الجيوش الاسيوية لاخماد هذه الثورة ولكن جنود الأناضول وهم جنوده الآسيويون - رفضوا اطلاق النار على اخوانهم وزاد في حيرته ان القوات كلها اشتركت في ترديد كلمة " الثورة والمساواة والترقى" بدلا من قتل مرددى هذا النداء . فلم يكن أمامه الا أن يعقد مجلس الدولة في ٢٣ يوليه سنة ١٩٠٨م الموافق ١٣٢٦هـ (٦) فاجتمع بالوزراء ودام هذا الاجتماع من الصباح الباكر حتى منتصف الليل الساعة الثامنة ليلا

---

(١) روحي الخالدى المقدسي : الانقلاب العثماني (مجلة الهلال ،ج ١ ،س ١٧ ، ١٩٠٨) ص ٢٩-٣٠ .

(٢) روحي الخالدى المقدسي : المصدر السابق ،ص ٣٠، ،عابدين حماده :تاريخ الغرب والشرق ،ص ٢٩.

(٣) عابدين حماده : المرجع السابق ص ٣٥

(٤) روحي الخالدى المقدسي / المصدر السابق ص ٣١.

(٥) لوتسكى:تاريخ الاقطار العربية ،ص ٣٩٦-٣٩٧.

(٦) الماوتلن:عبدالحميد ظل الله على الارض :ترجمة راسم رشدى (القاهرة ، ١٩٥٠م) ص ١٨٧.

تماما بالتوقيت الغروبي ، جرى خلال هذا المجلس مناقشات حامية انقسم فيه المجلس الى فرقتين فرقة تؤيد قبول الدستور وعلى راسها قائد الجيش رضا باشا والأخرى مصممة على رفضه وعلى رأسها اسماعيل حقي باشا بل يطالب بالتنكيل بهؤلاء المتمردين على السلطة والقضاء عليهم وكانت كل فئة تتحفز وتتحامل لضرب الفئة الأخرى (١) .

ويقول السلطان في هذا الصدد " لم يبق لنا الا وسيلة واحدة لاحباط المؤامرات السياسية الانجليزية وهي أن أقوم على راس هؤلاء الثوار فأعلن الدستور واتظاهر باتباع الانجليز فهذا هو الطريق الوحيد لافشال مؤامراتهم . وغدا سيفهم المعجبون بافكارهم الثورية الى أى الطرق المهلكة ستؤدى بهم هذه الافكار.

آمل أن يتحد جميع العثمانيون ولو في آخر لحظة للعمل على بقاء دولتهم والسير على هدى دستورهم المقدس (القرآن الكريم) مؤمنين به متمثلين لاوامره والا فالمصير الأسود ينتظرنا حيث تتأهب الدول النصرانية لتمزيق اشلائنا وتقاسم الممالك العثمانية فيمابعد"(٢).

لذلك تأخرت الصحف عن موعدها فبدأ الناس يقلقون ،يريدون أخبار هذا الاجتماع ،ويسألون عن أسباب تأخير الصحف ؟ ومن هو السبب في تأخيرها؟ ولماذا لاتصدر كعادتها؟ في حين أن الثورة قد أعلنت في مناستر وسلانيك وقوصوه في ولايات مقدونيا وأطلقت المدافع فى كل مكان لهذا الحدث .

وبعد تأخر الجرائد عدة ساعات عن موعدها الرسمي صدرت معلنة أن الحكم سيكون مقيدا في كافة اقطار وممالك الدولة العثمانية وأن الأمر السلطاني سيصدر بهذا الشأن وبعد بضع ساعات سمعت أصوات المدافع حول اسطنبول ،لذلك تعانق القساوسة بالمشايخ واليهود والنصارى بالمسلمين واعلنت الثورة بشعاراتها الثلاثة : الحرية - العدالة - والمساواة" وزاد عليها الأخوة"

---

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ،ص ٥٣-٥٤.
، السلطان عبدالحميد الثاني : مذكراتي السياسية ،ص ١٠٧.
(٢) السلطان عبدالحميد الثاني : المصدر السابق ، ص ١٠٧

في ١٣٢٦/٦/١ هـ الموافق ٢٤يوليو سنة ١٩٠٨م .

وتلى ذلك ان استقبلت اسطنبول جمعيةالاتحاد والترقى .(١)

وكانت طريقة عبدالحيمد في قبول الدستور تكشف عن مواهبه كسياسي فذ . فقد أعلن عن استعداده ليرأس جمعية الاتحاد والترقي ولكنه اقتنع بقبول العضوية العادية عندما اشار عليه اعضاء اللجنة المركزية للحزب بان الاعضاء كلهم متساوون بل ذهب أكبر من ذلك فقد شكر رجال تركيا الفتاة ، لأنهم " فتحوا عينه " الى أن الوقت قد نضج وتبرع لهم بنصف مليون جنيه من جيبه الخاص لصندوق الجمعية ووهب لهم احد قصوره ليكون مقرا للبرلمان القادم . واستطاع السلطان بخبرته ان يمتص حماس الشباب ويحولها الى أوربا (٢).

وفي هذا الصدد يقول السلطان عبدالحميد : " ان الاتراك قوم خياليون فاعلان الدستور وتشكيل حكومة نيابية في بلادنا يعني حدوث الفوض وانقسام الناس الى شيعا واحزابا يقاتل بعضهم بعضا ،ويؤدى بالدولة العثمانية الى الخراب وتعاطف الانجليز مع الاتراك الشباب او يلفت انتباهنا فهم يشجعون هؤلاء المغترين على المطالبة باعلان الدستور ويرفضونه لانفسهم في الهند السمتعمرة من قبل الانكليز،مع أن أوضاع الهند تشبه أوضاع بلادنا حيث تعيش فيها عناصر غير متجانسة من المسلمين والنصارى والبوذيين والبراهمة ومن الصعب جمعهم في مجلس واحد "(٣).

وفي يوم ٢جمادى الثانية سنة ١٣٢٦هـ الموافق ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨م ، أصدر السلطان مرسوما سلطانيا باعادة مجلس المبعوثين الذى صدر به القانون الاساسي سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م وعينت وزارة هذا العهد الجديد من سعيد باشا للصدارة ،وعمر رشدي للحربية ، امابقية الوزراء فثبتوا في مناصبهم (٤).

---

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ،ص ٥٤.
(٢) الماوتلن: عبدالحيمد ظل الله على الارض ،ص ١٨٨.
(٣) السلطان عبدالحيمد الثاني:مذكراتي السياسية ص ١٠٥
(٤) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ص ١٦٩.

وقد افتتح السلطان مجلس المبعوثين في ٢٣ ذى العقدة سنة ١٣٢٦ هـ الموافق ١٧ديسمبر سنة ١٩٠٨ م في سراى طولمه بغجه بمحلة بشكطاش بحضرة السلطان بالنطق الآتي :

" الاعيان المبعوثين..

فيوقت جلوسي فقد وضعت القانون الأساسي لموقع التطبيق وصادفته مشكلات في هذا الزمان وبناء على اللزوم الذى ظهر من طرف رجال الدولة فقد اصبح تعطيل مجلس المبعوثين مؤقتا وقد أصبح تأخير توجيه وعرض القانون المذكور حتى قابلية الاهالى للدرجة المطلوبة بترقية المعارف في مملكتي السلطانية وقداصبح الاهتمام بترقية المعارف بتأسيس المكاتب في كل طرف في الممالك السلطانية بالتعليم وبالحث على تكرار اجتماع مجلس المبعوثين ليكن الشكر. فقد علت الاستعدادات لتسوية صنوف اهالينا في ظل انتشا رالمعارف للحصول على هذا المقصد.

وقد أردت الدعوة لاجتماع مجلس المبعوثين باجراء انتخابات جديدة وأعلنت على راسها القانون الأساسي بلاتردد رغما عن الموجودين للمطالبة ومخالفة رأيهم من اطمئناني لما حدث بموجب سعادة الحال والمستقبل حصول دولتي ومملكتي لهذه الرغبة... "(١)

وبعد فترة من اعادة المشروطية الثانية حدثت محاولة ثورة مضادة في اسطنبول للقضاء على ثورة ١٩٠٨م اتهم فيها السلطان عبد الحميد الثاني

---

(1) (١) Osmanli Arsivi Yildiz:Esas, Evrak Zarf. No: 314.
6,Faik resit Unot:ikinci Mascutiyetin ilani va otuzbir Mart Hadisesi, II .Abdu Lhamid in Son Mabeyn Baskatibi Ali Cevat Bey in Fezlekesi, (Turk Tarih Kurumu, Ankara, 1985), S. 28-29.

ولكن جيش مقدونيا بقيادة شوكت باشا زحف على العاصمة وضرب الحصار على قصر السلطان بيلدز ، بعد أن خلص الدولة من هذه الثورة وعقد المجلسان مجلس النواب ومجلس الأعيان جلسة صوت فيها أعضاؤه على خلع السلطان عبدالحميد الثاني وتسليم العرش الى أخيه محمد رشاد الذى أصبح يلقب بالسلطان محمد الخامس ، وبلغ السلطان عبدالحميد بقرار الخلع عن طريق وفد يضم اليهودي قراصو ثم نفي السلطان الى سلانيك ترافقه حاشيته ،وسجنوا جميعا في فلا الاتينث (Alatini) ضاحية من ضواحي سلانيك نفسها[1]. كما سيأتي تفصيل ذلك في الفصل التالي في مقاومة الحزب الاسلامي للمشروطية الثانية داخل الدولة والولايات الاخرى ان شاء الله .

...

---

(١) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ،ص ٥٥.

الفصل الخامس : مواجهة الغزو الفكري في الدولة العثمانية

أ - في تركيا والولايات العثمانية الأخرى .

ب - دعوة التوحيد والإصلاح في شبه الجزيرة العربية

١ - أهميتها في مواجهة الغزو .
٢ - استمرارها في أدوار السعودية الثلاث .
٣ - تقديم نموذج للدولة الإسلامية العصرية .
٤ - صد التدهور عن الجزيرة العربية .

جـ- تأثر حركات الإصلاح في العالم الإسلامي بها .

مقاومة المشروطية الثانية في تركيا العثمانية والولايات الأخرى :

أشرنا فيما سبق الى كيفية اعادة المشروطية الثانية ،ولكن عندما اجتمع البرلمان الجديد ،كان الى جانبهم حزب الأحرار ، الذى يدعو الى "اللامركزية" وكان يقود هذا الحزب الامير صباح الدين بن محمود باشا صهر السلطان عبدالحميد ، وكان عدد من زعمائه من المسيحيين الذين سمح لهم بدخول البرلمان . وكرد فعل لكل ذلك قام حزب الاتحاد الاسلامي الذيكان يرى في المشروطية خروجا على الشريعة الاسلامية (١).

وكان قيام حزب الاتحاد الاسلامي من أخطر الصدمات التي هزت كيان العهد الجديد أو رجال المشروطية ،فلقد قام هذا الحزب بالثورة ضد حزب الاحرار ودعاة المشروطية . وفي ٣١ مارس سنة ١٩٠٩م اندلعت الثورة التي قادها زعماء حزب الاتحاد الاسلامي في عاصمة الدولة وقبل أن تتم المشروطية شهرها التاسع (٢).

هذه الثورة المضادة ، ظهرت لمقاومة المشروطية الثانية ودعاتها من المسيحيين وتزعم هذه الانتفاضة دعاة الجامعة الاسلامية الذين نادوا بأن الشريعة في خطر وطالبوا بعودة أحكامها خاصة ،وقد سرت الاشاعات بان حزب الاحرار يدعو الى النظام العلماني الجديد الذى يعمل للحط من مكانة الشريعة الاسلامية ، وفي الوقت نفسه قام مجموعة من الجنود بالتمرد على بعض الضباط الذين تلقوا تعليمهم في المدارس العسكرية ذات البرامج الغربية ، وتحول هذا التمرد الى سخط ،قام به الجنود العاديون في ١٣ ابريل سنة ١٩٠٩م الموافق ١٣٢٧ هـ . ولم يشترك في هذا التمرد سوى عدد قليل من الضباط (٣)، وهتفوا : نريد الشريعة ،نريد الشريعة ، فأرسل

---

(١) محمدعبداللطيف البحراوى: التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة الحديثة ،(مجلة الدارة ،ع ٢ ، س ١١ ، ١٤٠٦هـ) ص ٨٣.

(٢) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ،ص ٩٧.

(٣) أحمدعبدالرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٧٢ ، ساطع الحصرى : المرجع السابق ،ص ٩٧.

السلطان لهم رئيس كتابه حال سماعه النبأ ليخبرهم بأن الشريعة بخير وانه لاأحد يستطيع أن يمسها بسوء[1]. ولكن هؤلاء الجنود هاجموا مجلس المبعوثين والباب العالي وطالبوا باسقاط الحكومة التي أقامتها لجنة الاتحاد والترقي ورفض مجلس المبعوثين والغاء الدستور (المشروطية) واعلان سيادة الشريعة الاسلامية[2]، وتغيير الصدر الاعظم حسين حلمي باشا ووزير الحربية على رضا باشا ،وقائد الفرقة الأولى محمود مختار باشا، ورئيس مجلس المبعوثين أحمد رضا ، ونفي الاتحاديين من البلد ،واعادة ضباط (الأيلي) [3] الى الخدمة العسكرية والعفو عن جميع المشتركين في هذا التحرك لانهم لايقصدون سوءاً . الا أنهم في نفس الوقت كانوا يبحثون عن رئيس مجلس المبعوثان أحمد رضا بك وعن الصحفي حسين يالجين لشيوع عداوتهما للاسلام ، غير أنهم لم يعثروا عليهما ، فقد هربا واختفيا عن الانظار ولكن الجنود قتلوا وزير العدل ناظم باشا ظنا منهم انه هو احمد رضا ، كما ألحقوه بنائب وفد اللاذقية يحسبونه انه الصحفي المعادى للاسلام حسين يالجين، كما قتلوا اعدداً من الجنود من خريجي الكليات والمعاهد الحربية ، فلقد كان المتمردون يستوقفون الضابط ويسالونه هل انت ضابط متخرج من المدارس أم ضابط خدمة (آلايلي)؟ فاذا كان الجواب انه من خريجي الكلية قتلوه[4] .

---

(١) أورخان محمدعلي : السلطان عبدالحميد الثاني ،ص ٣٢٢.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٧٢.
،ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٧.

(٣) كان الضباط في الدولة العثمانية على نوعين : الضباط من خريجي الكلية الحربية ويطلق عليهم " مكتبلي " اى خريجي المدارس ،والضباط الذين تدرجوا في الرتب العسكرية بطول الممارسة ا و بالخبرة في رتبة جندى حتى رتبة الضابط (الايلي) وقد بدأ الاتحاديون باخراج هؤلاء من الجيش واحالتهم الى التقاعد مما ولد تذمرا في الجيش لكثرة عدد هؤلاء الضباط . وكان أحد أسباب هذا التمرد.
- أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٣٢٣ حاشية رقم (٣٧٥).

(٤) ساطع الحصري : المرجع السابق ص ٩٧.
، اورخان محمدعلي : المرجع السابق ص ٣٢٣.

وكان زعيم هذه الثورة يسمى درويش وحدتي ، الذى تحمس للاسلام وأغار عليه ،ونادى بأن المشروطية مخالفة للشريعة الاسلامية ، وكان السلطان عبدالحميد الثاني معارضا للمشروطية، وان اعلانه قد تم تحت الضغط والاكراه فالواجب الديني يقضي بالغاء القانون الأساسي واعلان الشريعة المحمدية (١).

ولتهدئة الاحوال فقد قام السلطان بعزل الصدر الاعظموعين بدلا عنه توفيق باشا كما تم تبديل وزير وقائد الفرقة الاولى نزولا عند رغبة الجنودالثوار ورغبة في انهاء حركة التمردالا انها لم تنته (٢).

ولم تقتصر حركة التمردعلى اسطنبول فقط ، بل انتشرت حركات مماثلة في الولايات العثمانية وخاصة في الاناضول وفي مدينة اضنة حيث قام المسلمون فيها بالاشتباك مع عدد من الارمن والاتراك الموالين لتاييد المشروطية ثم امتدت هذه الحركة ايضا الى شمال الشام (٣).

قام هذا التمرد في الولايات المذكورة بناء على ما أرسله دعاة الجامعة الاسلامية من المنشورات في ١٥ ابريل سنة ١٩٠٩م الموافق ١٣٢٧ هـ ، الى المسؤولين العثمانيين يطلبون منهم المحافظة على أصول الشريعة (٤) .

ورغم سيطرة دعاة الجامعة الاسلامية على العاصمة فلم يكن لهم برنامج سياسي (٥) أو هدفواضح الا الغاء هذه المشروطيةونفي أصحابها وعودة السلطان الىادارة دفة الحكم بصلابة وحكمة دون تدخل من الدستوريين .

---

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ،ص ٩٧.
(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ،ص ٣٢٣.
(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٢٧٢-٢٧٣. ، عبدالعزيز الشناوى :الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ج ٢ ،ص ١٠٠٦.
(٤) عبدالعزيز الشناوى : المرجع السابق ، ص ١٠٠٦-١٠٠٧.
(٥) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢٧٣ .

وماكان من السلطان عبد الحميد الا آن استجاب لرغباتهم معلنا الغاء المشروطية ، وألف حكومة جديدة لتنفيذ ذلك • وبما انه كانت المدافع قد أطلقت احدى وعشرين طلقة عند اعلان المشروطية فان معارضي المشروطية طلبوا من السلطان ان يتم الاحتفال باعلان الشريعة والغاء المشروطية باطلاق مائة طلقة ، ثم أخذت افواج الجيش تطوف بشوارع المدينة الرئيسية والجنود يطلقون رصاص بنادقهم ابتهاجا بالنصر الذى احرزوه يهتفون باصواتهم " باشاسون شيريعة محمدية " ويعني ذلك "" فلتعش الشريعة الاسلامية "• يتزعم ذلك أئمة المساجد وفريق من علماء الدين الاسلامي (١) والدراويش وطلبة المعاهد الدينية وضباط الجيش (الايلي) -وهم الضباط الذين نشأوا وتقدموا من بين صفوف الجنود - بناء على الاقدمية وخدماتهم العسكرية حتى وصلوا الى رتبة ملازم دون دراسة في المدارس العسكرية (٢) •

هذه الثورة ضد أنصار المشروطية والدستور ساندها الجيش المحتشد في العاصمة ، أما الجيوش في الولايات البلقانية في مقدونيا (مناستر ، وقوصوه ، وسلانيك) وخاصة سلانيك وهي التي مهدت للمشروطية الثانية فقد كانت على ولائها لما يسمى بالعهد الجديد أو الدستور المتأثر بالنظم الاوربية ، ولذلك بادرت هذه الجيوش الموالية للنظام الدستوري بالزحف على العاصمة بقيادة محمود شوكت من سلانيك ، وهذا الجيش عرف باسم " جيش الحركة " (حركة أوردوسو) (٣) • وذلك لتسكين الهياج وتاييد الدستور وتثبيته في اسطنبول فحاصروا الثائرين على المشروطية واحتلوا مواقعهم في ٢٣ ابريل ١٩٠٩ م الموافق ١٣٢٧هـ •

---

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٨•

(٢) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ص ١٠٠٦•

(٣) ساطع الحصرى : المرجع السابق ، ص ٩٨ •
، أحمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ، ص ٢٧٣•
، عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٠٧•

وفي يوم السبت ٢٤ ابريل سنة ١٩٠٩م الموافق ١٣٢٧م استيقظ الناس على دوى المدافع من جهة يلدز لان السلطان كما يزعمون أمر على المقاومة ،فحاصروا السراى ،وبعد ذلك أرسل قائد الاحتلال محمود شوكت الى جواد بك قائد جنود يلدز انذارا بالاستسلام ،فاستسلم جواد بك ، ولكن بعض الجنود بداخل السراى لم يقبلوا بالاستسلام فوقع بينهم وبين أنصار المشروطية معركة حامية الوطيس تمكن بعدها انصار المشروطية بقوتهم من التغلب عليهم .

أما السلطان فقد سلم وطلب لنفسه الأمان فنقل الى (سراى بغجة) ينتظر المصير المحتوم.

عند ذلك أعلن محمود شوكت المشروطية الثانية وفرض الأحكام العرفية في اسطنبول ، وطلب من مجلس النواب الاجتماع ،فاجتمعوا في الحال في سان ستيفانو أحد ضواحى اسطنبول لتقرير مصير السلطان [1] .

وقد اتهم دعاة المشروطية السلطان عبدالحميد الثاني بتدبير هذه الثورة المضادة ، وان كان يحتمل ذلك ،فان دوره لايتعدى مساندتها بعديدها حين تبين له انها قوية بحيث تمكنه من استعادة سلطته المسلوبة [2] ،وخاصة ان مجلس المبعوثين اختفي يوم ٣١ مارس سنة ١٩٠٩ م/ ١٣٢٧هـ وقد بقي القليل من أعضائه مختبئا في اسطنبول اما معظمهم ففر الى الولايات الثلاث المذكورة للاحتماء بها [3].

ماذا يريد هؤلاء الاحرار أو الاشرار ان صح هذا التعبير من السلطان عبدالحميد ان يعملوا الناس تطلب منه الغاء المشروطية والدستور وهذا المطلب القيم والذى يجب على كل مسلم غيور على الاسلام ان يسانده ذلك لأن المشروطية أريد بها هدم الشريعة الاسلامية والاسلام ،ومعروف أن

---

(١) يوسف اصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ،ج ٢ ص ١٧٠-١٧١.
(٢) أحمدعبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ،ص ٢٧٣
(٣) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ،ص ٩٩.

السلطان عبد الحميد الثاني رجل مسلم تنازل لجمعية الاتحاد والترقي على مضض وهو يعرف من كان يساندهم وهم الانجليز وقد سبق أن صرح بذلك أكثر من مرة . كما أنه من الواضح أن الانجليز يريدون من خلال هذه المشروطية هدم الشريعة الاسلامية واحلال القانون الوضعي عوضا عنها . وبالتالي هدم الدولة الاسلامية بتمكين حزب الاتحاد والترقي الذى تربى أعضاءه في أحضان الماسونية في سلانيك ،ونحن نعرف ارتباط الماسونية بالصهيونية لانهما وجهان لعملة واحدة ، وكلاهما يسعى لايجاد وطن قومي لليهود في فلسطين . ومن أجل ذلك خططت هذه الفئة الباغية لخلع السلطان عبدالحميد الذى وقف حجر عثرة أمام آمالهم ورفض جميع عروضهم المالية المغرية . ورأوا انه في سبيل تحقيق اهدافهم ومخططاتهم فانه لابد من تسليم زمام السلطة في الدولة للفئة التي قاموا بترتيبها وتدريبها على العمل على معاداة الشريعة الاسلامية ، وقد تحققت ظنون السلطان بذلك عندما استلمت هذه الفئة الباغية الحكم من بعده ، وعملوا على تسهيل هجرة اليهود الى فلسطين دون قيد أو شرط .

وهذا ما أثبتته الوثائق والتقارير البريطانية ،وقد أحدثت هذه التحركات في الدولة العثمانية تغييرا ملائما للتوقعات ،فقد كثرت المستوطنات اليهودية في فلسطين اكثر من ذى قبل .وقد كان للدور الذى لعبه اليهود وخاصة اليهود الاتراك (الدونمه) في سلانيك في الثورة الحديثة دورا مميزا مما أعطاهم الفرصة في الحصول على تأثير خاص في المجالس النيابية التركية .

وقد كان السلطان عبد الحميد معارضا لمثل هذه المشروعات وخاصة مايتعلق منها في ايجاد وطن قومي لليهود في فلسطين ، وقد أدى موقفه هذا الى استياء اليهود وخاصة اليهود الأتراك الذين كان معظمهم من دعاة المشروطية ،وأعداء الشريعة الاسلامية ممن يملكون شعورا قويا بالانتماء للشرق ، كما أنهم يعتبرون من أصحاب الاستثمارات الكبيرة في منطقة مقدونيا ، وعندما قامت الثورة ضدهم قاموا بتقليل مساعداتهم المادية

لتركيا . وقد حاول هؤلاء البغاة وعلى رأسهم قرا صو بالاطاحة بحكم السلطان عبد الحميد(1)، وكان قرا صو أحد أعضاء الوفد الذى قام بتبليغ السلطان قرار الخلع كما سيأتي .

وهنا نود أن نقول ماهو رأى بعض المؤرخين المسلمين الذين أكدوا أن السلطان عبد الحميد الثاني بعد اعلانه الدستور استعمل كل حيلة ودهاء ليؤكد للدستوريين أنه أصبح دستوريا أكثر منهم وأعلن ذلك مرارا ،لكنه سعى سرا في تأليف جمعية باسم " الجمعية الاسلامية " على مبدأ الشريعة الاسلامية فأقبل الناس على الدخول فيها ، وفي مدة وجيزة انتشرت في عموم الولايات العثمانية وقامت باول اعمالها يوم ١٢ ربيع الاول سنة ١٣٢٧ هـ الموافق سنة ١٩٠٩م حيث تجمهر عدد كبير من علية الناس يطالبون باعادة الشريعة الاسلامية وطرد الاتحاديين (٢) .

والآن نعود الى اجتماع المبعوثين مع أعضاء مجلس الاعيان في سان ستيفانو حيث عقدوا جلسة رسمية قرروا فيها خلع السلطان عبد الحميد ،بعد أن استصدروا فتوى الخلع ، في يوم الثلاثاء ٢٧ ربيع الاخر سنة ١٣٢٧ هـ/ الموافق ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٩م واجلاس ولي العهد محمد رشاد على العرش باسم السلطان محمد الخامس . وكان هذا السلطان في الرابعة والستين من عمره يستجيب لما يؤمر به (٣) .

أما كيف تم ابلاغ السلطان عبد الحميد الثاني بقرار مجلس النواب؟ فقد اختار النواب لهذه المهمة وفدا لن ينساه المسلمون ولن ينساه

---

(1) F.O.: 242/222, Mr.Marling to Sir Eduard Grey. No.: (2). 3-1-1910.

(٢) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ،ج ٢ ،ص ١٦٩.
،ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٧ .
، عابدين حمادة : تاريخ الغرب والشرق ،ص ٣٦٠.
وغير هؤلاء المؤرخين كثيرون قد طرقوا هذا المنهج.

(٣) ساطع الحصرى : المرجع السابق ، ص ٩٩ .
،يوسف آصاف : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٧١.

التاريخ أبدا ،لانه وفد يندى لذكره الجبين . لقد ضم الوفد: ارم افندى ، عمانوئيل قرا صو المذكور اليهودى ونائب سلانيك والعدو الأول للاسلام رفيق درب هرتزل ،ومدبر المكايد للقضاء على الدولة العثمانية ،وأسعد طوبطاني الارنؤوطي ، وعارف حكمت باشا ، قدم هذا الوفد الى السلطان فوجدوه واقفا فلما قرأ عارف حكمت الفتوى التي أصدرها شيخ الاسلام ضياء الدين افندى أجاب السلطان جواب المؤمن : " ذلك تقدير العزيز العليم " وأعقب ذلك اسعد طوبطاني قائلا : لقد عزلتك الامة ،فغضب عبد الحميد وقال : تقصد ان الأمة خلعتني ، لابأس ،ولكن لماذا جئتم بهذا اليهودى ؟ الى مقام الخلافة [1] ويعني السلطان بهذا القول قرا صو .

ولهذا يذكر المؤرخ التركي أورخان محمد علي قول السلطان عبد الحميد حيث يقول : " ان أشد ما آلمني هو تبليغي قرار الخلع من قبل ذلك اليهودى الماسوني ، فأنا لا أستطيع نسيان "عمانوئيل قرا صو " من بين وفد المبعوثين (النواب) الذين جاءوا الى يلدز . لقد كان هذا اهانة لمقام الخلافة ونحن جميعا نعلم مدى الحقد الذى يكنه اليهودى للاسلام منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم [2].

ويضيف السلطان فيقول: "وعندما كنت على عرش السلطنة جاءني في أحد الايام "تيودور هرتزل " مؤسس المنظمة اليهودية العالمية مع رئيس الحاخاميين وذلك من أجل غاية صهيونية ... فكان طلبهم هو وطن لليهود ،وكانوا يقترحون القدس لذلك ،حتى ان تيودور هرتزل قال بلا خجل: " أحب أن أعرض لجلالتكم باسمنا مستعدون لتقديم الملايين التي ترونها مناسبة من الذهب الا من أجل القدس ... صرخت بهم قائلا: اخرجا من هنا...

---

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني : محمد حرب عبد الحميد ، ص ٢٨٨ — ٢٨٩.

ان الوطن لايباع بالمال ... ومن ذلك الوقت ناصبني اليهود العداء .. وكل ما أقاسيه هنا في سلانيك هو جزاء عدم اعطائي وطنا لليهود"(١).

والى الشيء نفسه يشير السلطان عبدالحميد في رسالته التي وجهها الى شيخه محمود أفندى ابي الشامات في منفاه بسلانيك ،حيث يقول فيها: بعد الحمد والتسليم والتحية لشيخه مايلي :

(... أعرض لرشادتكم والى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ : انني لم أتخل عن الخلافة الاسلامية لسبب ما ،سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون ترك) وتهديدهم- اضطررت واجبرت على ترك الخلافة الاسلامية .

ان هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم اصرارهم لم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف ، واخيرا وعدوا بتقديم (١٥٠)مائة وخمسين مليونا ليرة انجليزية ذهبا وأجبتهم بالجواب القطعي التالي :

(انكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا فضلا عن (١٥٠) مائة وخمسين مليونا ليرة انجليزية ذهبا - فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي .

لقد خدمت الملة الاسلامية والأمة المحمدية مايزيد عن ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين ،لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضا.

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي وأبلغوني انهم سيبعدونني الى سلانيك فقبلت بهذا التكليف الأخير.

هذا وحمدت المولى وأحمده انني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الاسلامي بهذا العار الأبدى الناشئ عن تكليفكم باقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة "فلسطين " وقد كان بعد ذلك ماكان .

---

(١) السلطان عبدالحميد الثاني : ص ٢٨٨-٢٨٩.

ولذا فانني أكرر الحمد والثناء على الله تعالى ،وأعتقد أن ماعرضته كاف في هذا الموضوع ، المهم وبه اختم رسالتي هذه

ألثم يديكم المباركتين وأرجو وأسترحم أنتتفضلوا بقبول احترامي وسلامي الى جميع الاخوان والاصدقاء .

يا أستاذي المعظم . لقد اطلت عليكم البحث ،ولكن دفعني لهذه الاطالة أن نحيط سماحتكم علما ونحيط جماعتكم بذلك أيضا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

في ٢٢ ايلول ١٣٢٩ هـ

خادم المسلمين: عبدالحميد عبدالحميد (١)

وهكذا بعد أن أزيح السلطان عن سدة الحكم أرسل في ١٣٢٧/٤/٧ هـ ، الموافق ٢٨ ابريل سنة ١٩٠٩م مع نسائه وأولاده عبدالرحيم ومحمد وعابد وبناته شادية وعائشة ورافعة وبعض الخدم الى سلانيك ،ووضع في قصر الاثبتي الصيفي كما سبق ،تحت حراسة فدائي الاتحاد والترقي ولما اندلعت حرب البلقان جرى نقله معحاشيته الى قصر بكلربكي في اسطنبول بعد توسط صديقه القديم الامبراطور ويليم الثاني وقد أقام هناك حتى توفي في هذا القصر (٢) .

وهكذا نرى أن السلطان نفى بتدبير حادثة ٣١ مارس في مذكراته وأنه لايعرف عنها شيئا وفيهذا الصدد يقول : " أريد أن يكون معلوما جيدا أنه لم يكن لي أدنىعلاقة لامن بعيد ولا من قريب بالاحداث التي تفجرت في ٣١ مارس . وعلي أمتي أن تبحث عن هؤلاء الذينكانوا سببا في هذه الحوادث وعليها أيضا أنتحاسبهم "(٣) .

---

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ،ص ٢٨٩-٢٩٠. ، عبدالكريم مشهداني: العلمانية واثارها على الاوضاع الاسلامية فيتركيا ،ص ٣٩٠-٣٩١.

(٢) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ١٠١

(٣) مذكرات السلطان عبدالحميد : محمدحرب عبدالحميد ،ص ١٠٢.

وفعلا لقد ثبت من التحريات أن أحداث ٣١ مارس بعد أن خدمت فتنتها أنه ضبط في منزل سعيد باشا القبرصي المعروف بولائه للانجليز النسخ الاصلية لكل المقالات والمنشورات الرئيسية التي نشرتها جريدة البركان السرية ،وقد سلمت هذه الوثائق الى رئاسة المحكمة العرفية ولكنهم سكتوا على هذا الموضوع ولم يستطع أحد أن يتفوه عن هذه المنشورات بكلمة واحدة ، فثبت بما لايقبل الشك أن وكالة الاستخبارات الانجليزية وراء هذه المؤامرة (١).

ونتيجة لذلك فقد خلا الجو لرجال الاتحاد والترقي وحولوا جمعيتهم من منظمة سرية الى حزب سياسي علني في شهر ابريل سنة ١٩٠٩م الموافق سنة ١٣٢٧ هـ وذلك في بيان أذاعته الجمعية في الصحف وانفردوا بالحكم اذ سمح لهم السلطان محمد الخامس أن يحكموا البلاد باسمه (٢).

درسنا في الفصل الثاني جهود المستشرقين والمنصرين في المدارس والارساليات والمؤسسات العلمية والخيرية للسعي الى زعزعة عقيدة المسلمين الناشئة ثم تهيئة هذه الناشئة بأساليبهم المختلفة لقبول النفوذ الغربي تمهيدا للاستعمار الأوربي .

وقد توصلنا الى حقيقة حيث أنه مهما تشعبت هذه المؤسسات بالمسميات تلتقي أهدافها عند غاية واحدة هي السيطرة الثقافية والدينية والسياسية الغربية على المشرق العربي الاسلامي . وقد اتضح لأصحاب هذه المؤسسات أن المسلمين كانوا أصلب عودا في تقبل النفوذ الاجنبي ، فراحوا يوجهون جهودهم للاستعانة بغير المسلمين من المستشرقين في البلاد العربية (٣). مع

---

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٩٦.
(٢) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٩.
، يوسف آصافي : تاريخ سلاطين آل عثمان ،جـ ٢ ، ص ١٧١.
(٣) مصطفى خالد وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ٥ - ٦.

الاهتمام والتركيز الخاص على المسلمين ، فنجحوا في استمالتهم عن طريق المدارس والمستشفيات والمؤسسات الخيرية ، التي مهدت لبسط النفوذ الأجنبي باعتبارها احدى وسائل التنصير . لذلك أخذ العثمانيون يقاومون هذا الغزو الفكري في بلاد الشام وفي العاصمة العثمانية نفسها كما مر بناء .

فتوالت الكوارث بتظافر القوى اليهودية والصليبية للقضاء على الخلافة العثمانية باعتبارها التجسيد الحي للأمة الاسلامية في ذلك الوقت، فأخذ الغرب المستعمر يقتطع أجزائها حيث أن روسيا كانت تقتطع منذ عهد كاترين (١١٧٦ هـ - ١٢١١ هـ / ١٧٦٢- ١٧٩٦م) بعض الأراضي والولايات العثمانية ، فهاجم نابليون مصر سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م وحرضوا البلقان على الثورة منذ عام ١٢١٩ هـ/١٨٠٤م ، وأمدتهم بالمساعدات حتى انفصلت عن الدولة العثمانية ، كما حرضت اليونان على الثورة منذ عام ١٢٣٦ هـ/١٨٢٠م حتى استقلت عن تركيا عام ١٢٤٦ هـ/١٨٣٠م كما سبق .

ثم توالت الحملات العسكرية الاستعمارية ، فاحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠م ، وتونس سنة ١٨٨١م ، ومراكش سنة ١٩١٢م ، كما احتلت ايطاليا ليبيا سنة ١٩١١م . (١)

أما الأطماع الأخرى فقد كانت الدول متفقة على اقتسام ميراث الدولة العثمانية عند زوالها من الوجود . فكانت بريطانيا تطمع في بترول الموصل وضمان انشاء خط ثاني بري للهند يمتد من فلسطين الى الخليج العربي ، لأن بريطانيا هي الأخرى قد استولت على الهند من قبل وانتزعت باستعمارها لها سيادة المسلمين للاستيلاء على ثروتها الاقتصادية ، كما احتلت عدن سنة ١٨٣٩م وبسطت حمايتها على لحج والمحميات من حدود اليمن الجنوبية الى شرق الجزيرة ، ثم استولت على مصر سنة ١٨٨٢م ، والسودان سنة ١٨٩٨م ، وكانت فرنسا تجاهر بأنها ستصيب استقلالها الاقتصادى بما تجنيه من القطن في حلب ، ومن الحرير في لبنان ، والصوف في سوريا وكانت ايطاليا مقتنعة بالاستيلاء على القسم الغربي من الأناضول ، أما روسيا فتطمع في قسم من

---

(١) مصطفى صبرى : الأسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية ، تقديم مصطفى حلمي ، (الطبعة الاولى ، الاسكندرية ، دار الدعوة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص ٢٦ - ٢٧ .

من تراقبه واسطنبول وأرمينيا وكردستان ، واستولت هولندا على جزر الهند الشرقية ، وحوصرت أفغانستان تحت الضغط الانجليزي والروسي ، كما حوصرت ايران [(١)].

واستكمالا لهذا المخطط ، فقد شجع المنصرون والاستعمار العرب على الانفصال عن الدولة العثمانية تحت شعار جديد لايعرفه الاسلام وهو " القومية العربية " لا حبا في العرب ومصلحتهم ، ولكنه من أجل القضاء على الرابطة الاسلامية القومية بين المجتمع الاسلامي .

اضافة الى ذلك فقد بدأت مهمة السفارات والقنصليات تعمل عملها في الأقطار الاسلامية ، لحرب الوحدة الاسلامية ، وبث الروح القومية بين المسلمين .

وقد برزت أعمالها بشكلواضح في اسطنبول وبيروت والقاهرة ودمشق واتخذتا لهما مركزين. الاول في اسطنبول لضرب الدولة الاسلامية في عاصمتها ، والثاني في بيروت لضرب الدولة الاسلامية في قلبها العربي[(٢)].

ويلاحظ في ذلك نشوء الحركة القومية العربية ،فانالمسيحيين قد لعبوا دورا كبيرا في اثارة الوعيالقومي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادى الذى شهد عددا من رواد الأدباء والمفكرين العرب الذين حملوا لواء النهضة الأدبية والفكرية ، وقد برز منهم نصيف اليازجي وبطرس البستاني ، فاليازجي استعان به الامريكيون في تأليف الكتب التي تدرس بمدارسهم ، وأخذ يدعو العرب المسلمين والمسيحيين الى احياء الأدب العربيالقديم . وأما البستاني فقد استعان به الامريكيون أيضا في تدريس اللغة العربية في كلية المعلمين بعباى ، وفي تأليف الكتب واشترك مع ايلي سمث في ترجمة الانجيل ، ثم وضع سفريه ، قاموس محيط

---

(١) مصطفى صبرى : الأسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية، تقديم مصطفىحلمي (الطبعة الاولى ،الاسكندرية ،دار الدعوة ،١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) ص ٢٦-٢٧.

(٢) مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر، ص ١٤٤-١٤٦.

المحيط " ومختصره " قطر المحيط " ثم موسوعته العربية (دائرة المعارف) وقد تردد هذا النشاط الثقافي [1] على شكل جمعيات مثل " جمعية الفنون والعلوم " التي أنشأتها البعثة التنصيرية الامريكية سنة ١٢٦٤ هـ / ١٧٤٧م ، والتي تولى رعايتها العميلان الانجليزيان " بطرس البستاني ، وناصيف اليازجي ، واشترك معهما في رعايتها طائفة من أعضاء البعثة التنصيرية الامريكية ، ولم يدخلها احد من المسلمين، وان ظهرت هذه الجمعية بمظهر نشر العلوم والفنون واحياء اللغة العربية وآدابها ، الا أن الغرض الصحيح هو اثارة النعرات القومية والحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية •

ثم بعد ذلك تبدأ مرحلة جديدة انتقل فيها النشاط الى يد الوطنيين العرب من نصارى ومسلمين ، وذلك عندما نشأت سنة ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٧م (الجمعية العلمية السورية) وأدى هذا النشاط المتزايد الطيبي الى مذابح سنة ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م كما سبق ذكره ، بين الدروز والموارنة في الشام ، أدت هذه الفتنة الى تقسيم الشام الى طوائف متحاربة ، وقد تسببت في وقف نشاط الجمعيات مؤقتا وهجرة بعض رجالها الى مصر ليقظة الدولة العثمانية الا أنها استأنفت نشاطها بقوة وأخذت تجند أكثر الشخصيات العربية من المسلمين والمسيحيين على السواء من اسطنبول والقاهرة وبيروت والشام وغيرها [2].

هذه الأحداث دفعت البستاني الى محاولة تهدئة النفوس والقضاء على التعصب ، فأصدر في بيروت عام ١٨٦٠م (نفير سوريا) أسبوعيا ، وهي أول صحيفة سياسية نذرت جهودها من أجل الدعوة الى الوحدةونبذ التعصب •

---

(١) محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية ، ص ٦٤ - ٦٥•

(٢) مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر، ص ١٤٦ - ١٤٧•

وبعد ثلاث سنوات أنشأ (المدرسة الوطنية) لكي تزود التلاميذ من مختلف الأديان بتعليم قومي ، وفي عام ١٨٧٠م اصدر (الجنان) وهي مجلة أدبية سياسية نصف شهرية كان هدفها - كنفير سوريا - محاربة التعصب ، والدعوة الى التفاهم والوحدة من أجل خير الوطن ، وكان شعارها: الوطنية من الايمان ، ويعني ذلك أن اللغة العربية وآدابها لم تجد ملجأ سوى لدى الارساليات التنصيرية المسيحية ،حيث كان التعليم في مدارسها يجرى باللغة العربية ، وهكذا أتيح للمسيحيين فرصة الاطلاع والبحث في تاريخ العرب ولغتهم وآدابهم (١)، عن طريق نصارى العرب في بلاد الشام أمثال هؤلاء البستاني واليازجي .

فكانت أول جمعية أخذت شكل التنظيم السياسي هي : " جمعية بيروت السرية " هذه الجمعية تأسست عام ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م وقامت على أساس فكرة القومية العربية ، وكانت في الظاهر تعمل للعرب والعروبة وتثير العداء للدولة العثمانية ولكنها في الواقع كانت تعمل على فصل الدين عن الدولة وجعل القومية العربية هي الأساس ، وتحويل الولاء عن العقيدة الاسلامية ليكون للأقليات المسيحية واليهودية في البلاد العربية وجود بل دول في المنطقة (٢) ،وهكذا بدأت الحركة القومية كحركة أدبية تعمل على احياء اللغة العربية وآدابها ، ثم تحولت الى دور العمل السياسي (٣) ، وهذا ما كان يخطط له في أروقة بريطانيا فعلا وقد نفذ فيما بعد بصدور وعد بلفور سنة ١٩١٧م لاقامة وطن يهودى في فلسطين . ففي تلك الفترة ظهرت دعوة جديدة تقول باقامة خلافة عربية مقام الخلافة العثمانية نادى بها عبدالرحمن الكواكبى (١٨٥٤ - ١٩٠٢م) في كتابه " أم القرى " الذى صدر سنة ١٣١٦هـ حيث تناول مسألة الخلافة وألقى بذور الشك في صحة

---

(١) محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية ، ص ٦٤ - ٦٦ .
(٢) مصطفى محمد رمضان : المرجع السابق ، ص ١٤٧ .
(٣) محمود صالح منسي : المرجع السابق ، ص ٦٧ .

اعتبار السلاطين العثمانيين خلفاء للمسلمين ، وأوضح أن الكتب الفقهية الأساسية تذكر بين شروط الخلافة " النسب القرشي " ودعا الى ثورة العرب على الأتراك .

وتلى ذلك أن أنشأ نجيب عازوري " عصبة الوطن " في باريس - وهو عربي نصراني - بهدف تحرير الولايات العربية من الحكم العثماني . ونشرت العصبة حوالى خمسين نداء موجها الى العرب يدعوهم الى الثورة على الأتراك ثم نشر عام ١٩٠٥م كتابا بالفرنسية هو " يقظة الامة العربية " دعا فيه الى فصل الولايات العربية عن الدولة العثمانية على أن تكون الحجاز مقرا للخلافة ، وأن تكون الشام والعراق دولة عربية موحدة عصرية (١).

في هذا الوقت كانت جمعية الاتحاد والترقي في اسطنبول تلعب دورا مهما في اسقاط حكومة السلطان عبدالحميد الثاني ، عندما تعاونت هذه الجمعية مع أوكار الصهيونية والماسونية التي انتشرت في البلاد العثمانية ، فعرضت البلاد للمحن والكوارث والثورات داخل البلاد حتى أصلت نار الفرقة بين الشعبين التركي والعربي الشقيقين (٢).

ذلك بعد اعلان المشروطية الثانية سنة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨م اتسعت الحركة القومية في الدولة العثمانية ، فالتنصير لم يرض أن يوقظ الروح القومية ولا اخمادها ،ولكنه أراد أن يحولها الى خدمة أهدافه (٣). عندما استقبل العرب كغيرهم من شعوب الدولة العثمانية الدستور العثماني بفرح وسرور وحماسة ، فاندفعوا وراء جمعية الاتحاد والترقي التى تضم عددا كبيرا من كبار الضباط العرب . الا أنه بعد انقلاب سنة ١٩٠٩م رأى الاتحاديون في العرب خطرا على سيادة العنصر التركي فسلكوا فيهم طريق الشدة والعنف في معاملتهم . فأصيب العرب بخيبة أمل ازاء هذا الموقف من الاتحاديين

---

(١) على المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب ، ١٣٣ - ١٣٤.
(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٤٣.
(٣) مصطفى خالد وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ١٧٢.

فلجأ العرب الى انشاء الجمعيات السرية ، وكان من أهدافها أن تحول الدولة العثمانية الى مملكة ثنائية من العرب والترك ، وأن تؤلف الولايات العربية مملكة لها برلمانها وحكومتها ولغتها العربية وأن تؤلف مع الدولة العثمانية دولة عربية تركية ، لكنها عقب الحرب العالمية الأولى أصبح العرب يسعون الى تحرير البلاد العربية من الحكم التركي واستقلالها التام (١).

لذلك شجع أهل الغرب الحركات الانفصالية داخل الدولة بين الترك والعرب وحركوا الثورة العربية بواسطة عملائها لورنس العرب وجلوب حسين أثاروا فتنة القوميات العربية بغرض تقويض أركان الدولة العثمانية (٢).

وفي هذا الصدد يحدد لورنس العرب في تقرير سرى رفعه الى المخابرات البريطانية في شهر كانون الثاني سنة ١٩١٦م بعنوان " سياسات مكة " وهي أهداف بريطانيا الرئيسية والغرب نحو المسلمين ، فيقول فيه :" أهدافنا الرئيسية : تفتيت الوحدة الاسلامية ونحر الامبراطورية العثمانية وتدميرها ... "(٣) .

وفي نفس العام قامت الثورة العربية بقيادة الشريف حسين للتخلص من حكم الأتراك واستقلال البلاد العربية ، والتي تدفعها اطماع بريطانيا وخلفاؤها ، وكانت هذه الثورة وبالا على العرب والأتراك لصدور وعد بلفور سنة ١٩١٧م ، حول منح اليهود حق انشاء وطن قومي لهم في فلسطين .

لذلك نجح الاستعمار الشرقي والغربي بالغزو الفكري في تفتيت الجسد الواحد أو التضامن الاسلامي وحوله الى دول ودويلات لكل منها حاكم وعلم ونشيد وحدود جغرافية مصطنعة ، وغزاها بالأفكار القومية والوطنية فأصبح

---

(١) على المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب ، ص ٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٢ .
(٢) مصطفى صبرى : الاسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية ، ص ٢٦-٢٧ .
(٣) زهدى الفاتح : لورنس العرب ، (الطبعة الاولى ، بيروت ، دار النفائس ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م) ، ص ٦٤ .

ولاء الأمة اما للاشخاص الزعماء أو القادة ورجال الحكم والسياسة أو للافكار والمذاهب والفلسفات الواردة ، وبذلك حولت الشعوب الاسلامية عن الولاء الوحيد الذى ينبغي أن تخضع له دون سواه ، وهو الولاء لله الواحد القهار ،واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم (١) الى ولاء هؤلاء الأشخاص كما قال تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾(٢).

وبالرغم من أن الغزو الفكرى الذى عم أرجاء الدولة العثمانية الا أن الدولة السعودية قامت على أسس اسلامية سليمة مكنتها من أن تصد التدهور عن شبه الجزيرة العربية ، حيث ظهرت الدعوة السلفية في نجد وشبه الجزيرة العربية بكاملها ثم انطلقت خارجها نحو شمالها وجنوبها الى السودان والهند وسومطرة وشمال افريقيا وخاصة بعد أن ضم الامام سعود بن عبدالعزيز مكة المكرمة سنة ١٢١٦ هـ الى الدولة السعودية ، انتشرت هذه الدعوة خارج نجد الى الدول الاسلامية المجاورة عن طريق الحجاج الذين رأوا في الدعوة السلفية انها ليست دعوة جديدة كما روج لها أعداؤها كما سيأتي .

...

---

(١) مصطفى صبرى : الأسرار الخفية .. ، ص ٢٩-٣٠.
(٢) سورة آل عمران : آية رقم (١١٠).

ـ دعوة التوحيد والاصلاح فى الجزيرة العربية :

منذ اوائل القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للقرن التاسع عشر الميلادى بدأ الضعف يدب فى كيان الدوله العثمانية ، نتيجة لفساد الكثير من الانظمة الداخلية ، وبالتالى أحدث هذا خللا فى السياسة الخارجية ايضا ، رافق ذلك كثرة الحروب التى شنتها كل من روسيا والنمسا ضدها ، وذلك بغية تصفية ممتلكاتها فى اوربا اولا ، ثم القضاء عليها ثانية . وقد انعكس هذا الضعف على البلاد العربية الخاضعه للحكم العثمانى .

فأمسى الحجاز بصورة عامة ونجد والاحساء بصورة خاصة من جملة تلك المناطق والاقطار التى لم تجد من الدولة العثمانية الحماية والعناية المطلوبة ، حتى كادت ان تقع الاحساء فريسة للاستعمار الاوربى المتربص بها والطامع فى موقعها وثروتها .(١)

لهذا قامت دعوة التوحيد والاصلاح فى شبه الجزيرة العربية التى نادى بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، وكان الباعث الاول من قيامها هو ما وصل اليه العالم الاسلامى فى عصره من تدهور وفساد على كافة الاصعدة الدينية والسياسية ، والاجتماعية والاقتصادية (٢) ، وما يهمنا هو الوضع الدينى والسياسى .

---

(١) عبداللطيف عبدالله بن دهيش : احوال شبه الجزيرة قبل قيام الدولة السعودية الاولى ، (مجلة العرب ، الرياض ، دار اليمامه للبحث والترجمة والنشر ، ج ١ ، ٢ ، س ١١ ، رجب وشعبان ، ١٤٠٧ هـ /١٩٨٧م) ص ٢٢ .

، محمد كمال الدسوقى : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٢٨٤

(٢) محمد عبدالله السلمان : دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، (الطبعة الأولى ، القاهرة ، المطبعة السلفية ـ ومكتبتها ، ١٤٠١) ص ٧ .

وعلى آية حال فقد كان هذا امام الضعف الذى سيطر على الدولة العثمانية ، وعجزها عن دفع الضرر عن رعاياها وبلادهم [١] ، حيث بدأت تتجه الى اوربا لتستمد منها قوتها ظنا منها انها تستطيع النهوض بدولتها وشعوبها اذا ما قلدت الغرب فى انظمته ، صارفة النظر عن الدين وتعاليمه فانقسم الشعب الى فئتين فئة تنادى بالرجوع الى الشريعة الاسلامية ، والفئة الاخرى تدعو لاعتناق المبادئ الأوربية ، وفات الفريق الثانى أنهم جهلوا عن هذه الحقيقة وهى ان الاحوال فى الغرب كانت غير الاحوال فى البلاد الاسلامية سياسيا ودينيا واجتماعيا ، وانه ليس كل مايصلح للغربيين فى نهضاتهم يصلح للمسلمين ويساعدهم .

ولهذا نشأت حركات الاصلاح ، هدفها الاساسى احياء تعاليم الشريعة الاسلامية التى اصبح نسيا منسيا للتخلص من الاستعمار ، وكان اول هذه الدعوات كما ذكرنا دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الاصلاحية السلفية والتى تعتبر اول حركة اصلاحية سلفية فى العصر الحديث ، وأولى الحركات الاصلاحية التى ظهرت فى الدولة العثمانية [٢] تدعو الى نقاء العقيدة الاسلامية من كل البدع والخرافات والرجوع الى اصول الاسلام الصحيح .[٣]

لذلك عملت دعوة التوحيد والاصلاح نوعا من التوازن لمواجهة الغزو الفكرى الذى تسرب الى داخل الدولة العثمانية وعاصمتها . وهذا عندما ركن قادتها الى سياسة العزلة ، وعملوا على عدم ادخال آى اصلاحات جوهرية تتمشى مع التعاليم الاسلامية سياسية كانت أو دينية ، مما آدى الى

---

(١) عمر عبدالعزيز عمر : تاريخ المشرق العربى ص ٢١١

(٢) عمر عبدالعزيز عمر : المرجع السابق ، ص ٢١١

(٣) محمد بن ماضى : النهضات الحديثة فى جزيرة العرب ، ص ٣٩ .

قيام عناصر متطرفة تساندها عناصر غير اسلامية من اليهود وأحزابهم الى المطالبة بفرض قوانين وضعية واصلاحات بعيدة في معظمها عن الروح الاسلامية وقد ساعد ذلك على ضعف مركز السلطان الذى أصبح ألعوبة في هذه الفئات المتطرفة ، وهذا بدوره أضعف أيضا قبضة الدولة على السلطة في داخل العاصمة والولايات التابعة لها في أوربا والبلاد العربية ، ونتيجة لذلك طمع الغرب المستعمر رويدا رويدا في البلاد والبحار العربية من أجل حماية مصالحه وتجارته القادمة من الشرق ، فاستغل الامتيازات التي حصل عليها في الدولة العثمانية ، وزاد عليها معاهدات أخرى تجارية ودينية واسعة ، كما زادت أيضا في الوقت نفسه البعثات التنصيرية الى البلاد العربية وخاصة في بلاد الشام .

كما استبد الولاة وكثرت البدع والخرافات ، وابتعد الناس عن تحكيم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وفي هذه الظروف السياسية والدينية المتدهورة أصبحت شبه الجزيرة العربية في حالة سيئة من الناحية الدينية والسياسية (١).

فلقد تنازع الحكام فيما بينهم على السلطة ، فتعددت السلطات وعمت البدع والخرافات ولكن شاء ارادة الله أن ينقذ دينه وينصر من ينصره فظهر في منطقة نجد المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبدالوهاب خاصة بعد أن نسي الناس الطريق الصحيح ، وتعاهد مع الامام محمد بن سعود على توحيد الأمة والعمل على تحكيم كتاب الله والسنة النبوية المطهرة ومحاربة البدع والخرافات (٢) .

فكانت هذه الدعوة فكرا مضادا لحركة الغزو الفكرى التى عمت الدولة العثمانية في تلك الفترة .

أولا: ان قيام قيادة سياسية واعية مؤمنة بهذه الدعوة ومبادئها ومرتبطة بها وحارسة لقيمها ومدافعة عنها بدلا من الفرقة والتمزق الذى كانت تعيشه

---

(١) محمد بن ماضي ، النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، ص ٣٩-٤٠ .

(٢) حسين بن غنام : تاريخ نجد ، تحقيق ناصر الدين الاسد (الطبعة الثالثة ، الرياض ، مطابع شركة الصفحات الذهبية ، ١٤٠٣هـ) ج ١ ، ص ١٠ .

منطقة نجد وماجاورها في قلب شبه جزيرة العرب واشعارها بمسؤوليتها عن هذه العقيدة ومقتضياتها ، كل هذا الأمر يجعل الدولة العثمانية تخشى من أن تتحول بعض الولايات والاقاليم التابعة لحكمها والمجاورة لهذه الدولة الجديدة الى هذه الدولة وخاصة ان الدولة العثمانية بدأت تنحرف من خلال الفساد الذى عم الدولة العثمانية والذى كان من أهم اسبابه الغزو الفكرى للدولة العثمانية .

ثانيا: أن الغزو الفكرى قد ساعد على انتشار المبادىء الهدامة والعقائد الفاسدة التي تصرف الناس عن جوهر دينهم ، وعلى فساد الاخلاق بينما ساعدت الدولة السعودية على ابطال البدع والخرافات بمختلف مظاهرها في العقيدة والسلوك والاخلاق والاداب والمعاملات واحلال القيم الصحيحة والاصول السليمة والاداب الاسلامية محلها ، وعلى هذا فدولة قائمة على هذه القيم والمبادىء ستمنع من دخول الفساد والانحراف في الدين والاخلاق ، وبالتالي لايتمكن الغزو الفكرى بسمومه ومبادئه الهدامة من التأثير على هذه الدولة والذى يخشى منه هو أن يمتد نفوذ هذه الدولة او الدعوة السلفية الى الارجاء التيتقع تحت حكم الدولة العثمانية التي اصبحت بواسطة الغزو مرتع لهذا الفساد والانحراف وبالتالي توجهتالدولة العثمانية لمحاربتها .

ثالثا: ان انتشارالدعوة السلفية كما أسلفنا في كثير من البلدان التابعة للحكومة العثمانية قد أدى الى شعور هذه الدولة بان هذه الدعوة قد تؤدى الى تفكيك هذا الحكم فلابد من محاربتها في موطنها الأصلي ، والشعور بان هذه الدعوة قد تؤدى الى تفكيك هذا الحكم مرده الىالمبادىء الفكرية الوافدة على أمتنا الاسلامية والتي تجعل من أبناء الأمة المسير مع كل اصلاح .

رابعا: ان الغزو الفكرى بما حمله من ثقافات مختلفة أثرت في المسلمين مع الاسف وخاصة في الذين لم يتمكن الاسلام في قلوبهم ، فقد انبهروا بها وأخذوا بها وذهلوا بما فيها ، وخاصة حكام وأمراء الدولة العثمانية مما دفعهم الىمحاربة الدولة السعودية التي تحتضن الدولة

السلفية لانها ستكون في نظرهم ضد استمرارهم في النشوة التي يعيشونها مع هذه الثقافات الوافدة .

أما كيف كان ظهورهذه الدعوة السلفية ، فقد كانت الحالة الدينية عند فئةكبيرة منعامة الناس خلال النصف الاول من القرن الثاني عشر الهجرى الموافق لاوائلالقرنالثامن عشر الميلادى ، قبل دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب قدانصرفت عن طريق الحق ليس رغبة في ذلك وانما لجهلهم بأمور دينهم ودنياهم ، وقلة الدعاة لارشادهم الى الطريق السليم والنهج القويم وضعف السلطات الحاكمة في المنطقة من شيوخ قبائل وأمراء مدن وتنازعهم مع بعضهم حتى كثرت البدع والخرافات وحكمت العادات والتقاليد مكان الشرع الحكيم حتى أصبح بعض أولئك العامة يرون في الجمادات كالأحجار والأشجار القدرة على تقديمالنفع ودفع الضرر وقد زين لهم الشيطان انهم ينالون بهذا العمل ثوابا يقربهم من الله تعالى . فعبدوا أهل القبور ،وصرفوا النذور اليهم والابتهال بالدعاء لهم وجعلوا لغيره عز وجل مالايجوز صرفه الا اليه سبحانه وتعالى .

ولم يكن هذاالأمر مقصورا في نجد وحدها ، بل ان هذا كان هو حال معظم ديار المسلمين[1] معنى ذلك أن الضلالات والبدع والخرافات والاساطير حلت محل القيم الاسلامية الصحيحة ، واضمحلت في نفوس معظم الناس تعاليم الاسلام وتنظيماته الحكيمة ، ولكن ليس بالصورة المبالغ فيها حسب التعميم الصادر من حسين بن غنام ومن بعده عثمان بن بشر عن سوء الحالة الدينية في تلك الفترة ، لأن شبه الحزيرة العربية كانت خلال القرن الثانيعشر الهجرى تعج بالعلماء الذين تحلوا بالصفات الحميدة والعلم الوفير ، وكانت لهم مؤلفاتهم في كثير من العلوم ، وبخاصة في علوم القرآن والحديث والفقه والتوحيد وعلم الآله والسيرة النبوية والتاريخ الاسلامي ، وكانت المساجد تؤدى دورها في التعليم والارشاد وخاصة في المسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوىالشريف في المدينة المنورة وبعض المساجد فيالمدن الرئيسية في نجد والقصيم وحائل [2].

---

(١) حسين بن غنام ، تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ١٠.

(٢) عبداللطيف عبدالله بن دهيش : احوال شبه الجزيرة العربية قبل قيامالدولة السعودية الاولى(مجلة العرب ،الرياض ،دار اليمامة للبحث والترجمة ، والنشر [illegible] ص ٢٧.

اما البيئة التى عاش فيها الشيخ محمد بن عبدالوهاب كانت بيئة علمية محافظة ، تتميز بالجد ، والاستقامه ، والحرص على الاصول الاسلامية والمحافظة عليها [1] . وقد كانت الحالة السياسية فى الجزيرة العربية وبالتحديد خلال النصف الاول من القرن الثانى عشر الهجرى - الموافق للقرن الثامن عشر الميلادى ، ويعنى ذلك قبيل دعوة الشيخ بقليل مضطربة يسودها الانقسام وتعمها الفرقة وعدم الاستقرار لتعدد الامارات والمشيخات .

فاتسمت بالتفكك السياسى والصراع الدائم حول السلطه بين حكام المنطقة من أمراء مدن وشيوخ قبائل ، فلم يكن فيها عند قيام الدولة السعودية وظهور الدعوة الاصلاحية دولة قوية توحدها وتجمع شملها [2].

وكانت نجد فى تلك الحقبه مقسمه الى عدة أمارات ، كل امارة مستقلة عن الاخرى يحكمها أمير ومن أهم هذه الامارات .

١ - امارة آل سعود فى الدرعية .

٢ - امارة آل دواس فى الرياض .

٣ - امارة آل معمر فى العيينه .

٤ - امارة آل على فى حائل .

٥ - امارة آل حجيلان فى القصيم .

٦ - امارة آل شبيب فى شمال نجد وجنوب العراق .

٧ - امارة آل زامل فى الخرج

بجانب شيوخ القبائل الذين لهم السلطة على قبائلهم المنتشرة فى ربوع الجزيرة العربية وكثير ما تشتعل الحروب والخصومات والفتن بين امراء المدن وشيوخ القبائل على أتفه الأسباب [3].

---

(١) عبدالله بن سعد الرويشد: الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، (القاهرة ، الناشر مكتبة عيسى البابى الحلبى وشركاه ، ١٣٩٢) ، ج١،ص٣

(٢) عبداللطيف عبدالله بن دهيش : احوال شبه الجزيره العربية قبل قيام الدوله السعودية الاولى ، (مجله العرب ، الرياض ، دار اليمامه للبحث والترجمة والنشر ، ج ١ ، ٢ ، س ٢٢ ، رجب وشعبان سنة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ١٥

(٣) عبد الله بن سعد الرويشد : المرجع السابق ، ص ٣ .

وليس هناك قانون ولا شريعة يحكم بها هؤلاء الامراء ، الا ما قضت به أهواء الامراء وعمالهم وليس على حسب احكام الشريعة الاسلامية .

اما كيف يصل هذا الحاكم الى سدة الحكم، فهناك طرق مختلفة منها ماكان سليما ، ومنها ماكان عن طريق القوة . وكثيرا ما كانت الامارة وراثية الا اذا حدث خلاف داخل الاسرة ذاتها [1] فزعيم القبيلة كان يختار حسب مؤهلاته القيادية الذاتية ، لاتصافه بالكرم والشجاعة والحلم وسداد الراى من قبل عشيرته بكامل بطونها [2].

والجدير بالذكر ان الصراع حول السلطة ، واللجوء الى القوة احيانا لحل النزاعات ليسا من الامور الخاصة بنجد خلال تلك الفترة ، وانما هماأمران لم يخل منهما تاريخ أية أمة على مختلف العصور والازمان .[3]

وكان معظم الناس متفرقين ليس فيهم ملك أو امام ، ولايسودهم شرع يقتل بعضهم بعضا ، ويأكل قويهم ضعيفهم ، لاينهون عن منكر فعلوه ، ولافرض تركوه . ولذلك لابد من ظهور عالم يجدد لهذه الامة معالم دينها ويوقظها من ادران البدع والخرافات التى انغمسوا فيها .[4]

لان البلوى قد اعمت قلوب بعض عامة الناس فانحرفوا عن الطريق المستقيم واتبعوا بعض الامور والتى من اعظمها الاشراك بالله بالتوجه الى الموتى وسؤالهم النصر على الاعداء ، وقضاء الحاجات وتفريج الكربات ، التى لايقدر عليها الا رب السموات والارض وكذلك التقرب اليهم بالنذور وذبح القربان والاستغاثة بهم فى كشف الشدائد وجلب الفوائد الى غير ذلك من انواع العبادة التى لاتصح الا لله .

---

(١) عبدالله الصالح العثيمين : الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره ص١٤، ١٥

(٢) عبداللطيف بن هيش : احوال شبه الجزيره العربية قبل قيام الدوله السعوديه الاولى (مجلة العرب ، الرياض ، دار اليمامه للبحث والترجمة والنشر ، ج١ ، ٢ ، س ٢٢ ، رجب وشعبان سنة ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م ، ص ١٦

(٣) عبدالله الصالح العثيمين : المرجع السابق ،ص ١٥.

(٤) محمدعبدالله بن المحسن آل عبدالقادر الاحساني : تاريخ الاحساء (الطبعة الاولى ، الرياض ،مطبعة الرياض ،١٣٧٩هـ) ص ١٢٤-١٢٥.

وصرف شيء من انواع العباده لغير الله كصرف جميعها لانه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك ولايقبل من العمل الا ماكان خالصا كما قال تعالى " فاعبد الله مخلصا له الدين الا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار " (١) .

فافتتن بعض عامة الناس بهذه الامور والخرافات وظنوا فيها النفع والضرر والعياذ بالله (٢)، حتى قيض الله لذلك العالم الجليل المجدد للدين الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، الذى نادى بالتوجه الى الله فى كل الأمور الدينية والدنيوية فى المعاملات والعبادات (٣) ونبذ البدع والخرافات .

ولقد ولد ونشأ صاحب هذه الدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فى العيينه فى بلاد نجد شمال الرياض سنة ١١١٥ هـ / ١٧٠٣ م ، فترعرع فى كنف والده عبدالوهاب بن سليمان ، الذى كان يعمل قاضيا لامارة العيينه فقرأ الشيخ رحمة الله على يد أبيه القرآن الكريم وتعلم الكتابة حتى حفظ القرآن وعمره لم يتجاوز الثانية عشر ثم اخذ فى قراءة كتب الحديث والتفسير وتتبع من خلالها وكلام العلماء فى أصل الاسلام (٤)

فشرح الله تعالى صدره لمعرفة التوحيد ومعرفة نواقضه المغلقة عن الطريق فى وقت كانت فيه الظلالات قد فشت وانتشرت فى نجد وغيرها من البلدان المجاورة ، حيث كثر الاعتقاد فى الاحجار والاشجار والقبور فأخذ الشيخ محمد يعارض وينكر على من نهج هذا المنهج من الضلاله والبدعة من أهل نجد (٥) .

---

(١) سورة الزمر ، اية ٢ ، ٣
(٢) عبدالعزيز زيد الرومى وآخرون : اسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، القسم الخاص للرسائل الشخصية ، (طبع جامعة الامام محمد بن سعود) ص ١١١ - ١١٢ .
(٣) محمد عبدالله بن عبدالمحسن آل عبدالقادر الاحسائى : تاريخ الاحساء، ص١٢٥ .
(٤) السيد محمود شكرى الالوسى : تاريخ نجد ، تحقيق بهجت الاثرى ، (القاهرة ، المطبعة السلفية بمصر ، ١٣٤٣ هـ) ، ص ١٠٦ .
(٥) عثمان بن عبدالله بن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، تحقيق عبدالرحمن عبدالله آل الشيخ ، (الطبعة الرابعة ، الرياض ، من مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز ١٤٠٢ هـ) ج ١ ، ص ٣٣ .

فضاق صدره ذرعا من هذه الافعال ، لذلك استأذن والده ، وسافر من بلده العيينه الى الحج لبيت الله الحرام ، وكان ذلك فى حوالى عام ١١٣٦ هـ / ١٧٢٣ م ، ساعيا كذلك فى طلب العلم فالتقى مع العلماء فى مكه المكرمه اثناء موسم الحج ، وأدى مشاعرة ، وقام بمناسكه ، وآخذ عنهم ، ورحل قاصدا المدينة المنورة (١). فنزل فيها وآخذ العلم فيها على يد الشيخ عبدالله بن ابراهيم بن سيف من آل سيف رؤساء بلد المجمعه المعروفه فى ناحية سدير من نجد .

وكان عالما فى الفقه والحديث الشريف (٢) . وآخذه هذا الشيخ الى الشيخ محمد حياة السندى المدنى ، فناقشه واخذ من علمه الواسع وبعد ان اقام فى المدينه ماشاء الله له ، خرج منها قاصدا نجد ، لانه كان ينوى الشام ، فتجهز من هناك مواصلا رحلته العلمية الى البصرة والشام فلما وصل الى البصرة نزل فيها ، وقرأ فيها على يد العالم الجليل محمد المجموعى ، فمكث هناك عدة اعوام يقرأ على يد الشيخ المجموعى وينكر على أهل البصرة أشياء من البدع ، فأحدثت المناقشات التى تمت بينه وبين اصحاب البدع والظلالات خصوصا ماكان منها فى العقيده بعض الخلاف (٣)

ولما اعلن الشيخ افكارة الشديد لتلك الظلالات والبدع ضاق به أهل البصرة ، فاذوه وآخرجوه فى وقت الهجيره من البصرة فقصد بلده الزبير ، ولما توسط الشيخ الطريق مابين البصره والزبير ، سقط فى الطريق مغميا عليه وكاد ان يهلك من العطش لشده الحر ، ولانه قطع تلك المسافة مشيا على الاقدام ، ولكن مشيئة الله ، شاءت ان يدركه رجل من أهل الزبير

---

(١) عبدالله بن سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ج ١، ص ١٨

(٢) عبدالله الصالح العثيمين : الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره ، (الرياض ، الناشر دار العلوم ، مطبعة نهضة مصر) ص ٣٤ .

(٣) أمين الريحاني : تاريخ نجد ، (الطبعة الأولى ،بيروت ،الموسسة العربية للدراسات والنشر ،١٩٨٠م) ،جـ ٥ ،ص ٣٧.

فسقاه وحمله على دابته الى بلد الزبيـــر [1]. وبعد ذلك قرر الشيخ ان يغادر الزبير ويتجه الى نجد ، فاتجه فى طريق عودته من البصره الى صـــوب الاحساء ، ونزل فى الاحساء عند الشيخ عبدالله بن عبداللطيف الشافعـــــى الاحسائى فاستفاد من علمه الواسع ، ومن الاحساء ام بلد حريملاء ، الـــذى كان ابوه قد انتقل اليها من العيينه فى سنة ١١٣٩ هـ / ١٧٢٦ م ، نتيجـــه لوفاة اميرها عبدالله بن معمر ، فتولى بعده ابن ابنه محمد ابن حمـــد الملقب بخرفاش، فوقع بينه وبين عبدالوهاب خصومه عزل عن القضاء علـــــى اثرها فانتقل بعدها الى حريملاء .

ولما وصل الشيخ محمد بن عبدالوهاب الى حريملاء ، حيث والده ، واستقر بها ، آخذ يقرأ على والده ، ويدعو الناس الى اخلاص العباده لله وحـــده فى الاقوال والافعال فى عقائدهم وكل اعمالهم حتى حصل بينه وبيّن عامة الناس فى بلد حريملاء كلام كثير حول هذه المسائل استمر هذا النقاش لمدة سنتين [2]

وقد تدخل والده ينصحه بترك هذه الدعوة والعدول عنها خوفا عليـــه من عامة الناس ، الذين كانوا يهددونه وبعد ان شكوه مرارا الى والـــده، فتردد الشيخ محمد احتراما لوالده حتى توفى سنة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م [3] ولكـــن عبدالله العثيمين يؤكد أن وصول الشيخ محمدبن عبدالوهابالى الاحساء كان مابيـن عامي (١١٤٧–١١٤٨هـ) ولم تطل اقامته بالاحساء حيث غادرها الى والده في حريملاء التي وصلها عام ١١٤٩ هـ [4]، والباحث يرجح هذا القول لانه من غير المعقـــول أن يمكث الشيخفي حريملاء حوالى (١٤) سنة اى من (١١٣٩ – ١١٥٣ هـ) .

---

(١) الآلوسى : تاريخ نجد : ص١٠٧
،ابن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٣٥ – ٣٦
،عبدالكريم الخطيب : الدعوة الوهابية ، (الطبعة الثانية ، جده ، دار الشروق ، ١٣٩٤ هـ ، ص ٦٣ .

(٢) ابن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، ج١ ، ص ٣٧ .
، الآلوسى : تاريخ نجـــد ، ص ١٠٧

(٣) امين سعيد : تاريخ الدوله السعودية ، (الرياض– مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز) ج ١ ، ص ٣٥.

(٤) الشيخ محمد بن عبدالوهاب ،حياته وفكره ، ص ٤٤.

لذكر ابن بشر انه بقى مع والده فى حريملاء مدة سنتين .(١)

وحين توفى سنة ١١٥٣ هـ اعلن الشيخ دعوته المباركة من حريملاء التى تدعو فى مضمونها الى العودة الى توحيد الله بالعمل والعبادة ، فجدد ماكان قد اندرس من أصول الملة ، وقواعد الشريعة الاسلامية عند بعض عامة الناس ودعا الى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وبمذهب السلف الصالح والأئمة الاربعة .(٢)

فتبعه من حريملاء اناس وعارضه آخرون ، وكان فى حريملاء قبيلتان من أهل واحد تتنازعان على الامارة ، والكل منهما يدعى الامارة لنفسه وليس لأحد على الآخر من سلطان ، وليس هناك سلطة او حاكم قوى يوحدهما

وكان لأحد القبيلتين عبيد يسمون آل حمين من أهل الفساد والضلال فأراد الشيخ ان ينصحهم ويمنعهم عن هذا الفساد ، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر والفساد ، فاضمروا له شرا وعزموا أن يفتكوا به خفية فلما جنح الظلام ، تسوروا عليه جداره ، يريدون قتله ، فشعر بهم بعض المجاورين فصاحوا عليهم فهربوا (٣)

---

(١) عبدالله الصالح العثيمين : الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره ، ص ٤٤ - ٤٥ .
، عنوان المجد في تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٣٧.

(٢) عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ : مشاهير علماء نجد وغيرهم ، (الطبعة الاولى ، الرياض ، دار اليمامه للبحث والترجمة والنشر ١٣٩٢ هـ) ، ص ١٦ .

(٣) ابن غنام : تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٧٧ - ٧٨ .
، ابن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، ج ١ ص ٣٧ - ٣٨ .
، الألوسى : تاريخ نجد ، ص ١٠٨
،محمد عبدالله آل عبدالقادر الاحسائى : تاريخ الاحساء ، ص ١٢٦ .

وبعد هذه الحادثه خاف الشيخ على نفسه فغادر حريملاء الى العيينه مسقط رأسه ، وكان رئيسها فى ذلك الوقت عثمان بن معمر بن حمد بن معمر فتلقاه بالقبول الحسن ، لانه يميل الى دعوة الشيخ ، وزوجه عمته الجوهرة ابنه عبدالله بن معمر ، وقام الشيخ بشرح دعوته الاصلاحية القائمة على الاسس الاسلامية الصحيحة المستمده من الكتاب والسنة المطهره للامام عثمان بن معمر الذى شرح الله صدره لهذه الدعوة وقام فى الحال بمساندتها وأعلن الشيخ دعوته الى الله ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وشدد فى التذكير على من خالف كلمة لا اله الا الله ، فأخذ رحمه الله فى بلد العيينه ، يعيد اقامة الحدود المعطلة ، وكان الامير عثمان بن معمر يعاونه فى كل الامور لاعادة هذه الحدود .(١)

وكان فى العيينه وما حولها بعض الاشجار والاحجار التى يعظمونها ويتبركون بها كشجرة قريوه ، وكذلك يوجد بها قبه على قبر الصحابى الجليل زيد بن الخطاب رضى الله عنه فى بلد الجبيله ، فخرج الشيخ ومعه عثمان بن معمر ، وكثير من اتباعه الى تلك الاماكن بالمعاول ، فقطعوا الاشجار، وهدموا القبة المبنية على قبر زيد بن الخطاب وسويت النصب التى وضعت على بعض القبور من العامه عملا بالسنة المحمدية والتوجيهات الاسلامية .

وهكذا اقام الشيخ الحدود وازال شكوك الناس بازالة البدع والخرافات والضلالات احياءا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأسيا بسيرة خلفائه الراشدين .(٢)

ولم يزل مقيما فى العيينه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعلم الناس آمور دينهم ويزيل البدع ويقيم الحدود ، حتى جاءته امرأة واعترفت عنده بالزنا ، وبعد ان عرف انها محصنه ، وتكرر منها الاقرار، وسأل عن عقلها ، فوجدها صحيحه العقل ، فحاول درء الحد عنها ، عندما

---

(١) ابن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٣٨ - ٣٩
(٢) ابن غنام : تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

قال لها لعلك مغصوبة فأقرت واعترفت بما يوجب الرجم ، فأمر برجمها ، فرجمت فعظم أمره من تلك اللحظه وكثر انصاره ، وفشى التوحيد فى المجتمع النجدى ، وتناقلت الركبان اخباره ، لما اشتهر أمره وخاصة بعد رجم الزانية ، وانتهى الامر الى سليمان بن محمد الحميدى رئيس الاحساء وبنى خالد ، حيث شوه الرواة دعوته ، وقيل لسليمان انه ظهر فى بلد العيينه وايده أميرها عثمان بن معمر ، ونادوا بالويل والشهورلسليمان ، شارحين له الاخبار مبدين ان انتصار هذه الدعوة معناه القضاء على ملكه ، وان الشيخ تعمد اثارة الناس عليه لتبديد ملكه ، وانه يسعى الى قطع المكوس والعشور التى تدفع اليه من القبائل والتجار ، لانها من الامور المنافية للدين (1) وتعليماته التى امرت بدفع الزكاة لبيت مال المسلمين وحددت موارد الدولة وطرق الانفاق منها .

لهذا ضاق صدر سليمان بن محمد ، وارسل كتابا فى الحال يهدد فيه عثمان بن معمر امير العيينه لمناصرته لدعوة التوحيد ويأمره بقتل الشيخ أو على الاقل اخراجة من العيينه . والا اضطر الاستيلاء على ريع بساتين ابن معمر التى فى الاحساء والاستيلاء على تلك الاملاك كما انه سوف يمتنع عن تقديم اى مساعدة لعثمان بن معمر .

فعظم على عثمان بن معمر مخالفة سليمان بن محمد رئيس بني خالد والاحساء ، ويظهرانه فضل الناحية المادية على مناصرة الدين ، وغاب عن ذهنه عظمه رب العالمين وان الله سوف ينصر من ينصره . ومما يؤسف له أن عثمان بن معمر رضخ لتهديدات حاكم الاحساء فاستدعى الشيخ واخبره بكتاب رئيس بنى خالد ، وأمره بالخروج من العيينه ، ولم يفد فيه وعظ الشيخ ونصحه ، بأنه لابد للداعى والمصلح ان ينالة الأذي وفى النهاية تكون

---

(1) حسين خلف الشيخ خز عل : تاريخ الجزيرة العربية فى عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، (الطبعة الاولى ، بيروت ، مطابع دار الكتاب ، ١٩٦٨م) ص ١٤١ .

العاقبة للمتقين ، ولمن يحمي دينه من التمكين في البلاد والعباد ولكنه اعرض عن ذلك كله [١] .

وقال عليك ان تترك العيينه وتختار اى بلد شئت سنه أو سنتين حتى نرى ماذا يفعل الله ثم ان مرجعكم الينا .[٢]

فقال الشيخ : اريد الدرعية ، فأمر ابن معمر فارسا يقال له الفريد الظفيرى وخيالة معه لمرافقة الشيخ الى الدرعية فسار ومعه الفرسان حتى وصلا الى الدرعية [٣] ، فنزل الشيخ ضيفا عند عبدالله ابن سويلم وكان ذلك فى اواخر عام ١١٥٧ هـ / ١٧٤٤ م ثم انتقل بعد ذلك فى اليوم التالى الى تلميذه احمد بن سويلم ، الذى خاف على نفسه من الامير محمد بن سعود أمير الدرعية ، لانه كان يعلم حال الناس والمعارضين لهذه الدعوة الذين لايقبلون على ما أتى به هذا العالم ، فخاف خوفا شديدا ،وضاقت عليه داره ، ولكن الشيخ هدأ من روعة وسكن جأشه ووعظه بأن الله سيجعل لنا ولكم مخرجا . فعلم بالشيخ بعض الخواص من أهل الدرعية فزاروه خفيه ، فشرح لهم معنى التوحيد ، ولكن الامير محمد كان له اخوان (مشارى وثنيان) وكانا على صلة بالشيخ وهو فى العيينه وقد اشتركا معه فى هدم بعض القبور والقباب ، اضافة الى ان زوجة الامير محمد كانت امرأة عاقله ، فبين الاخوين لأخيهما ، وساعدتهم على ذلك زوجة الامير على ان الشيخ محمد نازل ضيفا عند تلميذه احمد بن سويلم وان هذا الرجل غنيمه قد ساقه الله اليك ، فاغتنم ماخصك الله به ، ورغبوه فى زيارة الشيخ فى بيت ابن سويلم [٤].

---

(١) احمد بن حجر آل بوطامى : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، (الطبعة الثالثة ، الرياض ، شركة مطابع الجزيرة ، ص ٢٨

(٢) حسين خلف خزعل : تاريخ الجزيرة العربية فى عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص ١٤٢ .

(٣) ابن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٤١ .

(٤) احمد بن حجر آل بوطامى ، الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ٢٩ .

فسار محمد بن سعود اليه ، فرحب به وقال : ابشر ببلاد خير من بلادك وبالعز والمنعه قال الشيخ ، وانا ابشرك بالعز والتمكين والنصر المبين والغلبه على جميع بلاد نجد ، وهذه كلمة لا اله الا الله من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد ، وهى كلمة التوحيد وأول ما دعت اليه الرسل من أولهم الى آخرهم .

وبتركها ترى نجدا كلها وأقطارها اطبقت على الشرك والجهل والفرقة والخلافات الدائمة ، وقتال بعضهم بعضا جورا وعدوانا ، وقال الشيخ : أرجو من الله ان تكون اماما يجتمع عليك المسلمون وعلى ذريتك من بعدك (١) .

ولما تحقق للامام محمد بن سعود صدق قول الشيخ محمد وشرح الله صدره لهذا القول قال له : يا أيها الشيخ أن هذا دين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الذى لاشك فيه ، فابشر بالنصره لما أردت وبجهاد من خالف هذا الدين فتمت المبايعة على ذلك .(٢)

ولهذا اعتبر المؤرخون وصول الشيخ محمد بن عبدالوهاب الى الدرعية فى اواخر عام ١١٥٧ هـ / ١٧٤٤ م ، وعقد هذا الاتفاق مع اميرها محمد بن سعود هو تاريخ نشأة الدوله السعودية الاولى ويوم ظهور ميلادها حتى يومنا الحاضر .(٣)

---

(١) ابن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٤٢
، احمد عبدالغفور عطار : محمد بن عبدالوهاب ، (الطبعة الثانية ،بيروت منشورات مكتبه العرفان ، ١٣٩٢ هـ) ، ص ٦١ - ٦٢
، الألوسى : تاريخ نجد ، ص ١٠٩ - ١١٠

(٢) ابن بشر : المصدر السابق ، ص ٤٢

(٣) ابن سعيد : تاريخ الدوله السعودية الاولى ، ج١ ، ص ٤١

- أهميتها في مواجهة الغزو :

ومن هنا بدأ الشيخ والأمير محمد بن سعود يعدان العدة للخروج بالدعوة الى الخارج حدود الدرعية الى الامارات النجدية ثم الى بقية اجزاء شبه الجزيرة العربية سائرين بكل جد لنشر هذه الدعوة السلفية ، على اسسها الصحيحه كما كانت عليه فى عهد الرعيل الاول من السلف الصالح ، لايقاظ الامة والرجوع بها الى اصولها الاولى [1] الى الدين الصحيح ، ونبذ الاعتقادات الباطله فى الاحجار والاشجار والقباب والاولياء وجعل هذه الأمور كلها لله ولاشريك له ، ومواجهه كل غزو وافد الى شبه الجزيرة العربية ومحاولة صده مهما كان نوعه .

فالحالة الدينية فى العالم الاسلامى ، حالة العقيدة الاسلامية فى نفوس أتباع ومدى تمسكهم الصحيح بها ، ولما كان الاسلام عقيده ومنهج حياة . فقد كانت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، تبعا للاسلام وايقاظا لمن غفل عن هذا الدين . عندما انتشرت الفوضى والجهل والاستهانة بالدين فى العالم الاسلامى على طول النصف الاول من القرن الثانى عشر الهجرى الموافق للقرن الثامن عشر الميلادى . وخاصة عندما دخلت الدوله العثمانية عصر الانحطاط فى ذلك العصر ، ازدادت الحالة الدينية سوءا بين المسلمين وذلك لجمود علماء المسلمين ، وعدم سعيهم للاصلاح السائر على اسس اسلامية وفتح باب الاجتهاد ، ذلك لان الاسلام صالح لكل عصر فامتنعوا عن ايجاد اى اصلاح سليم ، وقد شجعهم على ذلك بعض اصحاب السلطه فى تلك الفترة ، لمعارضة الاصلاح آيا كان نوعه .

وكثيرا ما يعدون صاحبه كافرا ، كما فعلت الدولة العثمانية مع دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، حينما عدوا حركته السلفيه خارجة عن الدين [2]. واتهموها بالوهابية ، فى الوقت الذى اطلق فيه اصحاب

---

(١) عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم : الدوله السعودية الاولى ، (الطبعة الرابعة ، القاهرة ،دار الكتاب الجامعى ، ١٤٠٢ هـ) ، ص ٨ .

(٢) محمد كمال جمعه : انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٤ - ١٨

السلطه العثمانية العنان لأهل البدع المتصوفين من البلهاء حتى علا شأنهم عند العامة ، واعتقدوا فيهم الولاية ، حتى كان لاصحاب الطرق الصوفيه عند الناس منزلة عظيمه فنشروا بدعهم بين الناس ، ومن البدع التى اصابت عقيده التوحيد وانتشرت فى البلاد الاسلامية المختلفة الاعتقاد الاعمى فى القبور والأولياء والصالحين ، فبنيت عليهم القباب ، وقدمت لهم الهدايا والقرابين فصرفوا انواعا من العبادات التى لايجوز صرفها الا لله وحده كالدعاء والاستعانة والذبح والنذر والشفاعة الى غير ذلك من الامور الباطله التى انتشرت فى كل بقاع العالم الاسلامى .

وهنا نرى كيف ضاعت عناية السلطة العثمانية بدين الاسلام فى هذه الامور من البدع دون اهتمام الدوله بها ، أو النصح فى عدم اتباعها (١)

وقد بدأ الامام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب بالدعوة لتوحيد الامة فارسلوا الرسل من العلماء الى المدن والقرى المجاورة لدعوتهم لتأييد هذه الدعوة الاصلاحية وتحكيم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وكذلك دعوة شيوخ القبائل الى الانضمام لوحدة الامة ونظرا لان ابناء نجد قدسئموا من حالة الفوضى التى كانوا يعيشونها فانهم لم يترددوا فى اتباع الدعوة السلفية التى قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والامام محمد بن سعود بتأييدها ونصرتها بالمال والسلاح (٢) فزاد عدد انصار الدعوة واعلن الكثير من حكام المدن والقرى وشيوخ القبائل انضمامهم للوحدة السياسية التى دعا اليها الامام محمد بن سعود كما ايدوا تطبيق الاحكام الشرعية على الفسقة والجناة ومحاربة البدع والخرافات واطلق على الامير محمد بن سعود لقب الامام لاتساع امارته حتى اصبحت تضم معظم بلدان نجد خلال اربعين سنه من انطلاق الدعوة المباركة من قاعدتها الاولى الدرعية .

---

(١) محمد عبدالله السلمان : دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٢ - ١٦

(٢) امين سعيد : تاريخ السعودية الاولى ، ج ١ ، ص ٤٢ .

ويمكن القول ان هناك قاعدة تاريخية وهى ان مبادئ الدعوة السلفيه كانت تسبق الجيوش السعودية وتمهد لها مما ساعدها على ضم هذه الامارة بمساعدة انصار الدعوة فى تلك الامارات فاصبحوا عونا للدعوة وأهلها .

وهكذا قامت الدعوة السعودية واتسع نطاقها وانصارها ، وفى عام ١١٧٩ هـ توفى الامام محمد بن سعود فخلفه ابنه الامام عبدالعزيز الذى ضم نجد بكاملها لدولته واخذ يتطلع لضم الاحساء لانها المنفذ الوحيد لبلاده ولان اقليم الاحساء يشكل اقليما خصبا يحقق لنجد الاكتفاء الذاتى وعلى ممر مائى هام هو الخليج العربى فضلا على انها نافذه تطل بها نجد على العالم الخارجى ، حيث الحركة الدائبه ، والمصايد التى تشكل موردا كبيرا للؤ لؤ وللاسماك الجيدة فى ذلك الوقت وبهذا يتوفر للدولة موردا جديدا من موارد الصرف على المرافق المختلفة اضافة الى ذلك فان ضم الاحساء سيجعل من نجد دولة خليجية وتكون قاعدة سعودية برية وبحرية تنطلق منها الجيوش السعودية نحو بلدان الخليج لنشر الدعوة السلفية دعوة التوحيد والاصلاح (١) .

لهذا شن الامام عبدالعزيز بن محمد هجومه الحاسم ، حتى تمكن من ضم الاحساء للدوله السعودية وذلك منذ عام ١٢٠٧ هـ / ١٧٩٢ م (٢).

والحقيقة ان الدولة العثمانية وقفت منذ بداية عام ١٢٠١هـ ١٧٨٦ م ضد هذه التطورات ولاحداث الدوله السعودية الاولى ، ففتحت جبهة العراق ممثلة فى واليها سليمان باشا ، حين رأت هجوم الدولة السعودية الخاطف على الاحساء تمهيدا لضمه الى نجد ، فساعدت كل تحرك يهدف الى

---

(١) محمد عرابى نخله : تاريخ الاحساء السياسى ، (الكويت ، منشورات ذات السلاسل ، ١٤٠٠ هـ) ، ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) محمد عبدالله آل عبدالقادر الاحسائى : تاريخ الاحساء ، ص ١٣٥ .

تدمير الدولة السعودية فى مهدها ومنذلك مساعدتها لبنى خالد فى تحركاتهم الهجوميه على نجد كما ان الدوله العثمانية سعت على تحريض الموالين للدولة على نقض ولائهم لها ، الا ان الدولة العثمانية لم تهتم اهتماما كبيرا بهذه الدوله الناشئة ، حينما كانت مجرد امارة داخلية ولكن حينما قامت هذه الدوله تتطلع الى ضم الاحساء ، رأت الدولة العثمانية ان هذا يعد تهديدا لها ، من تلك اللحظه بدأت تحس بوجود الدرعية .(١)

وعندما كانت السلطه فى جنوب العراق فى تلك الفترة فى أيدى امراء المنتق . لذلك كانت الدولة العثمانية تساير هذه القبيلة خوفا من تعدد غاراتهم ، فى وقت كان الخلل قد تسرب الى جسم الدولة العثمانية وكان رئيسهم هو ثوينى بن عبد الله آل شبيب يتخوف ايضا من انتشار الدعوة السلفية فى جنوب العراق بين المنتفق ويخشى من خطرها . فاستمالته الدوله العثمانية وجعلته فى جانبها ، واخفت عنه ما تكنه له من عداء . واثارت مخاوفه من توسع الحكم السعودى . عند ذلك اظهرت له الدولة العثمانية استعدادها ومساعدتها فى حربه مع أهل الدرعية ، ومده بالمال والسلاح .(٢)

وعندما ضم آل سعود الاحساء اثار هذا العمل الدوله العثمانية وتجسم لديهم خطر قوة آل سعود بشكل مثير (٣) ، لانها اصبحت بضمها هذا الجزء دولة خليجية تطل على الخليج العربى ، ولم تكن كما كانت دولة داخلية ، وكذلك تسمية امرائها بلقب امام المسلمين اثار غضب خلفاء الدوله العثمانية واعتبروه تحديا لسلطتهم لان السلطان العثمانى كان يعتبر نفسه خليفه لبلاد المسلمين عامة .

وهذا ما ازعج الدولة العثمانية حتى باتوا يخشون من خطرها

---

(١) خلف دبلان الوذينانى : الاحساء فى القرن الثانى عشر الهجرى ، ص ٣٥

(٢) حسين خلف خزعل : تاريخ الجزيرة العربية فى عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص ٣٣٠

(٣) محمد سعيد المسلم : ساحل الذهب الاسود ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

وتهديدها للسلطة العثمانية ، وزوال حمايتهم للحجاز ، لذلك صمم العثمانيون على مقاومة الدولة السعودية الاولى ففتحوا جبهة العراق [1] وكأن الأمر مجرد البحث عن الالقاب والتفاخر بها دون النظر الى الدولة العثمانية قد اهملت البلدان والولايات التابعة لها وخاصة فى شبة الجزيرة العربية ولما قامت الدوله السعودية لم تسع لوضع يدها معها وتأيدها بالمال والسلاح من اجل خير شعوبها وانما وضعت امام عينها البحث عن الالقاب من خليفه او سلطان وما علمت ان الخليفه والسلطان مسؤل امام الله قبل كل شئ عن شعبة وامته وهكذا سعت الدوله العثمانية الى تجريد حملة ثويني بن عبدالله ومساعدته لحرب الدوله السعودية من اجل تفتيت وحدة تلك الشعوب وجعلها تعيش حياة الفقر والجهل والقتل من اجل ان يستعيد السلطان لقبه . وهكذا جمع ثويني العساكر والجنود اللازمة وتحرك من البصرة واتجه صوب الاحساء لمحاربة السعوديين هناك بعد ان انضوى تحت شوكته كل العناصر المناوئة للدولة [2] حتى وصل الشباك ، الماء المعروف فى الاحساء ، ونزل به ، وكان فى جيشه عبد من موالى الجبور من بنى خالد ، موال للدعوة السلفية يسمى " طعيس " ، فلما جلس ثويني فى خيمته المعده لجلوسة وكان خدمه وخاصته منشغلين عنه فى بناء خيامهم ، فرأى طعيس ان ثويني خال من الحرس وكان معه حربة يخفيها ، فاستطاع فى غفلة الحرس ان ينقض بهاعلي ثويني فطعنه فى صدرة ، فلقى ثويني مصرعة فى تلك الساعة وكان ذلك فى يوم ٤ / ١ / ١٢١٢ هـ الموافق ١٧٩٧ م . وقتل العبد فى الحال (٣) فاضطربت قوات ثويني بموت قائدها ، وتراجعت عن تحقيق هدفها ، وانهزمت مولية الادبار الى البصرة [4]. وذلك لان القوات السعودية التى ارسلها الامام عبدالعزيز

---

(١) محمود شاكر : البحرين (الطبعة الاولى ، بيروت ، المكتب الاسلامى ١٤٠١ هـ) ، ص ٧٥ .

(٢) خلف دبلان الوذيناني: الاحساء في القرن الثاني عشر ،ص ٣٥٠ .

(٣) ابراهيم بن صالح بن عيسى: تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد (الرياض ، من منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) ص ١٩. ،خلف بن دبلان الوذيناني : المرجع السابق ،ص ٣٦٠.

(٤) خلف بن دبلان الوذيناني : المرجع السابق ، ص ٣٦٠.

قد وصلت الى الموقع فتتبعت فلول قوات ثويني فولت هاربة الى داخل الاراضي العراقية فاصبحت اسلحة ومدافع وذخائر قوات ثويني غنيمه للقوات السعودية[1] ففشلت بذلك حملة ثويني بموته .

وقد كانت نتيجه فشل معركة ثويني وموته صدمه شديدة على سليمان باشا والي العراق دون ان يحقق مايرجوه . وكان امير مكه الشريف غالب بن مساعد قد فتح هو الآخر جبهة أخرى ضد آل سعود للقضاء على حكومه الدرعية وعلى الدعوة السلفية ، وقد جرد لهذه المهمة عدة حملات ، وكانت اولى هذه الحملات سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م [2] .

لكن هذه الحمله فشلت . وهكذا لم يتوف الشيخ محمد بن عبدالوهاب الا وقد شهد في علامات قوة الدولة التي قامت على دعوة التوحيد بدأ رجحان كفتها على كفة امراء الحجاز .

ومن المعروف ان الدولة السعودية استمرت في توسعها بعد وفاة الشيخ سنة ١٢٠٦ هـ [3] .

ومهما يكن فقد توالت حملات الشريف غالب على الدرعية في ١٢١٠ هـ - ١٢١١ هـ / ١٧٩٥ - ١٧٩٦ ، فكان الامام يتصدى لهذه الحملات ، ويبادل الاشراف الهجمات حتى دانت لآل سعود معظم المدن والقبائل الحجازية التي ادركت حقيقة الدعوة الاصلاحية السلفية في محاربة البدع والخرافات وتطبيق الشريعة الاسلامية على الفسقة والجناة ، فدخل في طاعة آل سعود ابن ربيعان العتيبي

---

(١) محمد بن عمر الفاخري : الاخبار النجدية ، تحقيق عبدالله يوسف الشبل (الرياض ، من مطبوعات جامعة الامام محمد بن سعود) ، ص ١٢٨ .
، ابن عيسى : المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

(٢) صلاح الدين المختار : تاريخ المملكه العربية السعودية ماضيها وحاضرها (بيروت ، منشورات مكتبه الحياة ،) ، ج١ ، ص ٥٢
، حسين خلف خزعل : تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص ٣٨٠ .

(٣) عبدالله الصالح العثيمين : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ٧٨ .

وجماعته ، ومن معه من قبائل أهل الحجاز ، ودخلت تربة وأهلها البقوم ولحقتها رنية وبيشـــــه [1].

ففى سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ، استغل أمير مكة غالب بن مساعد انشغال الامام عبدالعزيز وابنه الامير سعود فى حروبهم ضد القبائل الخارجة عن طاعتـــــه وظن انه سيلحق بالدرعية الدمار ، فسار بنفسه على راس قوة انصـــــارة فقصد الدرعية حتى نزل الخرمه ، فدارت المعركة بين القوات السعوديـــــة بقيادة هادى بن قرمله والشريف غالب بن مساعد ، انهزم على اثرها الشريـــف غالب وجنوده ، وعاد الى بلاده ، فجنح بعد هذه المعركة الى الصلح علـــى شرط أن يسمح لأهل نجد بالوفود الى الحجاز لاداء مناسك الحج والعمرة .[2]

كان سليمان باشا الوالى العثمانى فى بغداد يتابع هذه الاحـــداث على ملل ، ولما سمع بالصلح بين الشريف غالب بن مساعد ، والامام عبدالعزيز زعيم الدوله السعودية لم يرق له بال ، وهو مايزال يئن من موت ثوينـــى وفشل حملته . فقام باعداد حملة من الجنود النظامية سنة ١٢١٣ هـ /١٧٩٨ م لمحاربة الدولة السعودية من الاحساء ، فأوكل قيادتها الى نائبة علـــى باشا كخيا ، وساندة فى هذه الحمله فرسان بنى المنتفق تحت رئاســـة حمود بن ثامر الشبيب ، فاجتمعت له قوة هائلة تفوق حملة ثوينى بن عبدالله فسار على كخيا بهذه الجموع وقصد بها الاحساء ، فاخذ فى حرب اهلها حتـــى انضم اليه أهل المبرز والهفوف ، وأهل القرى الشرقية نتيجه للقوة الكبيرة والاستعداد العظيم الذى كان مـع على باشا كخيا ولكن قصر المبرز (صاهـــود) وحصن الهفوف ، امتنعا عن التسليم للقائد على كخيا ، فزحف القائـــــد العثمانى الى كوت المبرز لحصاره ، فحاصرة ستين يوما ، وقد وجه اليـــه المدافع ولكنه لم ينل منه شيئا ، لذلك عمد على كخيا الى كل حيلــــه

---

(١) صلاح الدين المختار : تاريخ المملكه العربية السعودية ماضيها وحاضرها ج ١ ، ص ٥٢ .

، حسين خلف خزعل : تاريخ الجزيرة العربية فى عصر الشيخ محمد بـــن عبدالوهاب ، ص ٣٨٠ .

(٢) صلاح الدين المختار : المرجع السابق ، ص ٥٢

للاستيلاء عليه ولكن كل محاولاته باءت بالفشل طوال هذه المدة . ولما طال المقام على كخيا وقواته دب الملل والخوف فى نفوسهم فارتحلوا من الاحساء الى العراق ، ونزلوا الشباك ، الماء المعروف قرب شادج فى طريقة الى بلاده .

وعندما علم الامام عبدالعزيز بتقدم القوات العثمانية للاحساء جهز قوة كبيرة وارسلها بقيادة ابنة الامير سعود الذى سار بأهل نجد وقصد ناحية الاحساء لنجدة اهلها ، ونزل ماء شاج بين الاحساء والبصرة .

لهذا اجتمع الجيشان على غير موعد ، والتقى الفريقان ، ودارت بينهما معارك ومناوشات لعدة أيام مما ارعب على كخيا ، ووجد انه واقع وقواته لامحالة فى قبضة القوات السعودية فلجأ الى طلب الصلح على ان ترجع قوات الطرفين الى مواقعها دون اى قتال وان لايتعرض على كخيا لاحد من رعايا الدولة السعودية ، فقبل الامير سعود بذلك وعاد على كخيا الى بلاده ، كما عاد الامير سعود الى الاحساء لضبطها وشكر اصحاب الحصون وترميمها (١)

ولما رأت الدوله العثمانية فشل بغداد ، أوكلت المهمة الى والى الشام ، الذى لم يكن بافضل حال من زميلة والى العراق .(٢)

وفى عام ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣ م دخل الامام سعود بن عبدالعزيز مكه المكرمه بعد ان قام الشريف غالب بنقض العهد الذى قطعة على اثر مقتل الامام عبد العزيز وعندما دخل مكه كتب رسالة الى السلطان سليم الثالث هذا نصها

من سعود بن عبدالعزيز الى سليم

اما بعد فقد دخلت مكه المكرمه فى اليوم الرابع من محرم سنة ١٢١٨ هـ ،

---

(١) خلف بن دبلان الوذيناني : الاحساء فى القرن الثانى عشر الهجرى، ص ٢٦٤ - ٢٦٦.

(٢) احمد عسه : معجزة فوق الرمال ، (الطبعة الثانية ، لبنان ، مطابع الاهلية اللبنانية ، ١٣٨٦ هـ) ، ص ٢١ .

وأمنت أهلها وأرواحهم وأموالهم بعد ما هدمت ماهنالك من أشياء وثنية والغيت الضرائب الا ما كان منها حقا ، واثبت القاضي الذى وليته انت طبقا للشرع .

فعليك ان تمنع والى دمشق ووالى القاهرة من المجىء بالمحمل والطبول والزمور الى هذا البلد المقدس ، فان ذلك ليس من الدين فى شىء ، وعليك رحمة الله وبركاته . الواثق بالله المعبود - سعود [1].

ويظهر ان السلطان لم يمغ لذلك حيث انه فى عام ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥ م خرج عبدالله العظم والى الشام بالمحمل الشامى ، فحدث صدام بينه وبين السعوديين . وقد قام الامام سعود بن عبدالعزيز في العام التالى بمنع عبدالله العظم والى الشام من ادخال المحمل الى مناطق الحج وذلك لاصطحابة المحمل بالزمور والطبول ، لتحذيرة فى السنة السابقة ، ولم يمنع الامام دخول حجاج العراق من الحج .[2]

وانما منع الامام سعود بن عبدالعزيز ان يغزو ارض الحرمين ما صاحب الحج من البدع التى افتتن فيها العثمانيون بالافانين فيما شتعلق بالمحمل وجمال المحمل ، وطقوس المحمل ، تسير خلفها قوافل الحجيج القادمه من مصر أو الشام أو العراق .

وكل ذلك بدعه فى الاسلام وكان حكام الولايات العثمانية يحتفلون رسميا ودينيا بوداع المحمل وباستقباله . كما ان الاشخاص الذين لم يحجوا يقومون بلمس بدن " جمل المحمل " ويتبركون به أما القوة العسكرية التى تصاحب الحجيج فهى اعلان عثمانى عن سلطان " حامى الحرمين " فى البلد الامن الذى يجب ان تبتعد الجيوش منه .[3]

---

(١) خير الدين الزركلى : شبه الجزيرة فى عهد الملك عبدالعزيز ، (الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٣٩٧ هـ) ، ج ١ ، ص ٣٧ - ٣٨ .
(٢) امين الريحانى : تاريخ نجد الحديث ، ج ٥ ، ص ٧١ .
(٣) عبدالحليم الجندى : الامام محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٦٧ .

ولكن رغم اوامر السلطان وتكرارها بالقيام بحرب آل سعود لعبد الله العظم او خلفه يوسف كنج لم تجد اذنا صاغية وقد انصرف يوسف كنج لجمع المال ، كعادة الولاة العثمانيين في ذلك العصر، واكتفى برده على السلطان سليم الثالث ، بارسال الخطط الحربية لكيفيه القضاء على الدوله السعودية ويقترح تظافر جهود مصر والعراق لتحقيق هذا الهدف ، فأخذ يماطل الدولة العثمانية حوالى اربعة اعوام [1]. وفى خلال هذه الاعوام قام الامام سعود بن عبدالعزيز سنة ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م بجمع جنوده ، وقصد بلاد الشام لاخماد تحركات بعض قبائل اهل الشام وعربانه ، الذين كانوا يتحرشون بحدود الدولة السعودية الشامية ، وقد تمكنت القوات السعودية من هزيمتهم ففروا الى داخل الشام وطاردهم الامام الى عمق الاراضي الشالمية ونتيجة لذلك قام السلطان سليم الثالث بعزل يوسف كنج والى الشام واسناد الولاية الى صاحب عكا سليمان باشا [2].

فكانت هزائم والى العراق وعجز والى الشام مظهرين من مظاهر الشلل الذى اصاب الدولة العثمانية منذ فتره طويلة .

ومن هنا وقع الشك فى مقدرة السلطان العثمانى سليم الثالث على الاضطلاع بمهمة حامى الحرمين الشريفين تلك التى كانت تفرض احترام الدوله العثمانية بين الشعوب والممالك الاسلامية ،وبهذا السلطان العثمانى لقب حامي حمى الحرمين الشريفين. [3]

ومما زاد فى غضب سلطان الدولة العثمانية هو اطلاق اسم الامامة فى بيت آل سعود منذ عهد الامام محمد بن سعود . [4]

---

(١) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، اقتراحات يوسف كنج الخاصة بحرب آل سعود ، محفظه (١) بحربرا وثيقة (٨) بتاريخ ١٩ صفر سنة ١٢٢٣ هـ — ١٦ ابريل سنة ١٨٠٨ م.
نقلا عن (عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم : تاريخ الدوله السعودية الاولى ، ج١ ، ص ٥٧٤)

(٢) عبدالرحمن الرفعى : عصر محمد على ص١١٩
، صلاح الدين المختار : تاريخ المملكه العربية السعودية ما فيها ، وحاضرها ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(٣) محمد عبدالله آل عبدالقادر الاحسائى : تاريخ الاحساء ، ص ١٣٩

(٤) خير الدين الزركلى : شبة الجزيرة فى عهد الملك عبدالعزيز ، ج١ ، ص٣٥

وما علموا أن الدولة السعودية عندما تقدمت لغم الحجاز كان اولا بسبب تحرس الشريف غالب بالدولة السعودية ورعاياها وتسير عدة حروب ضدها وقيامه بعد ذلك بمنع رعايا الدولة السعودية فى نجد والاحساء من اداء فريضة الحج احد اركان الاسلام وهذا العمل اثار غضب حكام الدولة ورعاياها وثانيا ان الحجاز فى تلك الفترة كاد ان يتعرض للغزو الصليبى الجديد عندما قدم نابليون واستولى على مصر فى عام ١٢١٢ هـ / ١٧٩٨ م ولم تستطع الدولة العثمانية وسلطاتها حماية مصر من ذلك الغزو كما انها لم تساعد احمد باشا الجزار والى عكا ضد حملة نابليون حتى كادت الشام ان تقع ايضا فى قبضة الغزو الصليبى الفرنسى مما اثار غيرة الامام عبدالعزيز ال سعود تجاه الاماكن الاسلامية فى مكه المكرمه والمدينة المنورة وخشيته من وقوعها فى يد الغزاة الصليبيين مع علمه بضعف الشريف غالب وعدم مقدرته على حماية تلك الاماكن من الغزو الصليبى ولذلك قام بضم الحجاز للدولة السعودية لكن سلاطين الدوله العثمانية بالرغم من ذلك كانوا قد اصروا على محاربة الدوله السعودية بحثا عن الالقاب وليس لاسعاد اهلها فاوكلت هذه المهمة وكونها فى مصر محمد على الارناؤطى فاصدر الباب العالى أوامره الى محمد على والى مصر ، بان يتولى حرب آل سعود ، وكان ذلك فى سنة ١٢٢٢ هـ/١٨٠٧م، فامتثل محمد على والى مصر لامر سلطانه ، وجهز حمله عسكرية كبيرة واسند قيادتها الى ابنه طوسون ، فسار بها سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م ، بعد الحاح من السلطان محمود الثانى ، ولكن هذه الحملة باءت بالفشل الذريع امام قوات الدولة السعودية ، وقد انكسر الجيش العثمانى عدة مرات ، وجنح طوسون الى الصلح بعد تعثرة امام القوات السعودية سنة ١٢٣٠ هـ / ١٨١٤ م ، على الشروط التالية ، ان يرفع العثمانيون أيديهم عن نجد ويرفع السعوديون ايديهم عن الحرمين وكل منهم يحج آمنا .(١)

---

(١) ابن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، ج١ ، ص ٣٧٨
، احمد بن حجر آل بوطامى : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ٦٣ - ٦٤

ولكن لم يلبث محمد على ان نقض العهد أو الصلح من أجل مطامع شخصية له ولتنفيذ اوامر سلطانه بوقف نمو الدوله السعودية السلفية الفتيه ، جهز حملة بربرية ، واسند مهمتها فى هذه المره الى ابنه ابراهيم للقضاء على الدوله السعودية حسب اوامر السلطان محمود الثانى [١] ، واستطاع بعد عدة معارك قاوم فيها السعوديون مقاومه الابطال ان يصل الى الدرعية سنة ١٢٣٣ هـ / ١٨١٧ م ، فضرب عليها الحصار ، حينها فوجئت القوات السعودية بالسلاح الحديث المتطور الذى زود به الجيش العثمانى ولكنها لم تأبه به فقد رتب الامام عبدالله بن سعود الدفاع عن الدرعية من كل جهاتها واستمرت الدرعية فى المقاومة ضد جيوش ابراهيم ، وبعد حصار دام ستة شهور ابلى فيه أهل الدرعية وعلى رأس امامهم عبدالله بن سعود بلاء حسنا ، صمم فيه على حرب ابراهيم حتى الموت ، ولكن لما رأى الامام كثرة الضحايا ، وتصميم الغازين استجاب للصلح مع ابراهيم بن محمد على ، وتم الصلح ، ودخل ابراهيم الدرعية فى ذى القعدة سنة ١٢٣٣ هـ / ١٨١٨ م .[٢]، ويظهر ان السلطان محمود الثانى اراد حرب الدوله السعودية وذلك لانه اعتبر قيام الدوله السعودية ، وانتشار الدعوة السلفية بمثابة تهديد خطير ليس على مسألة حدود ونفوذ ، ولكنها الدعوة السلفية التى تدعو الى العودة الصحيحه لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ونبذ البدع والخرافات التى كانت منتشرة فى انحاء العالم الاسلامى ، هذه الدعوة شكلت تهديدا خطيرا للدولة العثمانية حين ضمت الحجاز سنة ١٢١٨ هـ ، وخاصة عندما أخذت هذه الدعوة تنتشر فى اجزاء أخرى من العالم الاسلامى .

---

(١) الفاخرى : الاخبار النجدية ، ص ١٤٧
، ابن عيسى : تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) عبدالرحمن الرافعى : عصر محمد على ص ١٤٩
، محمد عبدالله عبدالقادر الاحسائى : تاريخ الاحساء ، ص ١٤٤

وقد تأثر بهذا كثيرا من علماء الأقطار ،ونقلوها الى بلادهم ، مما هدد النظام العام للدولة كلها[١] ، وكان هذه الدعوة أيقظت العالم الاسلامي لاعادة النظر في أنظمة الدولة العثمانية ، فظن العثمانيون أن هذه الدعوة تطالب بالخلافة العربية .

اضافة الى ذلك فان هناك عامل سياسي مهم هو أن السلطان محمود الثاني كان يرى أن انتصار الدعوة السلفية بقيادة أئمة آل سعود خروجا على طاعة الخليفة ، وانفصالا عن الدولة العثمانية ، فالوقت الذى يرى في محمد علي انفصاليا آخر ، لعله قد يضعف الدولة العثمانية حتى يستقل بمصر ، ثم يغزو الشام والعراق .

فوجد السلطان نفسه أمام خصمين : السعوديين ومحمد علي ، فاستطاع السلطان أن يضربهما بعضهما ببعض حتى يتخلص من احدهما أو كلاهما ، وكان يريد هزيمة محمد على أكثر من حرصه على هزيمة السعوديين ،لهذا اقتنع محمد علي بالسير للقضاء على الدرعية [٢] ، ولاننسى مطامع محمدعلي وحلمه في بناء دولة مستقلة تشمل معظم البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية .

لذلك يجدر بنا أن نقول ان اليقظة الاسلامية دعوة التوحيد والاصلاح واجهت تحديين خطيرين :

التحدى الأول : العسكرى الذى وجهته الدولة العثمانية اليها فقض على نهضتها الاولى كما رأينا.

التحدى الثاني : الغزو الفكرى والاستعمارى عن طريق المستشرقين وأعوانهم المنصرين ، وكذلك عملاء الغرب من المسلمين الذين شوهوها فوصفوها بأنها حركة رجعية للعودة الى الحياة البداثية ،فقاموا بخلق حركة موازية لها هي حركة التجديد الغربي الذى اخذ رجاله يحملون لواء الخصومة الواضحة للفكر الاسلامي ومقوماته وأسسه واثارة الشبهات للانتقاص من اللغة العربية والاسلام والتاريخ والتراث الاسلامي ،وكان هذا التحدى هو اخطر ماواجهته الدعوة نظرا لان الاستعمار والمستشرقين اعطاهما امكانية الذيوع والانتشار بفضل وسائل اعلامهم . لبذر الخلافات المذهبية والعرقية بين المسلمين لهدم الخلافة الاسلامية تمهيدا لاستعمارها.[٣] وهذا ما كان يخطط له نابليون منذ احتلاله لمصر والشام .

---

(١) خلف بن دبلان الوذيناني : الاحساء في القرن الثاني عشر ،ص ٣٨٠ - ٣٨١.

(٢) رئيس التحرير : الوثائق تتكلم (العدد الثاني ،السنة الاولى ،دارة الملك عبد العزيز ، ١٣٩٨ هـ ، ص ١٦٣ ، ١٦٤

- استمرارها في أدوار السعودية الثلاث :

ولئن كانت الدولة السعودية قد عرض لها ماعرض فقد بقيت الدعوة السلفية شعلة تضيء داخل شبه الجزيرة العربية على الرغم من اشتداد حلكة الظلمات ، بل تجاوزت اشعاع هذه الدعوة فانتشرت في خارج شبه الجزيرة العربية (١) ، والتي ما زالت ماثلة في اذهان الناس داخل شبة الجزيرة العربية وخارجها وظل المجتمع يكن الولاء للاسرة السعودية (٢).

فبعد ان قضى ابراهيم بن محمد على على الدوله السعودية الاولى سنة ١٢٣٣ هـ / ١٨١٨ م ، عاد الى مصر فى سنة ١٢٣٤ هـ / ١٨١٩ م ، وترك الحاميات من الجيش المصرى التركى فى الرس وشقرا وبريده وعنيزة تحت امره بعض قواده . وقد ساءت الاحوال فى نجد وغيرها عاد القتل والنهب فاضطرب الامن وانتشرت الفوضى ذلك لان القادة الاتراك لم يقوموا بتطبيق احكام الشريعة الاسلامية على الفسقة والجناة بل شجعوهم على الجريمة رغبة منهم فى نشر الفوضى والدمار فاستنجد اهل نجد بالامام تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود الذى كان موجود فى جنوب نجد فاستجاب الامام تركى لرغبة سكان نجد وتقدم الى الرياض واستولى عليها واتخذها عاصمة للدولة السعودية وذلك لتهدم الدرعية وعدم صلاحيتها لان تكون عاصمة للدولة السعودية ومنذ عام ١٢٤٠ هـ عادت الدوله السعودية من جديد فى دورها الثانى .

وقد واصل ابنه الامام فيصل بن تركى السير على نهج والده حكم الدولة السعودية خلالها لفترتين لم تخلو كل فترة منها من المناوشات والحروب مع اعداء الدولة او الخارجين عن طاعتها (٣).

ولكن بعد وفاة الامام فيصل بن تركى دب الشقاق فى البيت السعودى بين الاخوة والاعمام وتنازعوا على السلطة . فثار سعود بن فيصل على اخيه عبدالله بن فيصل ، ودارت بينهما حرب طاحنه كانت سجالا بين الطرفين

---

(١) عبدالله الحقيل : الدعوة الاصلاحية فى مواجهة التحديات (مقال منشور ، فى كتاب السنوى الثالث ، طبع مركز الوثائق التاريخية ، الحلقة السابعة ، المنامة ، ١٤٠٤ هـ) ص ١٢٥.

(٢) مديحة درويش : تاريخ السعودية حتى الربع الاول من القرن العشرين (الطبعة الثانية ، جدة ، دار الشروق ، ١٤٠٣ هـ) ، ص ٥٧

(٣) محمد جلال كشك : السعوديون والحل الاسلامي (الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ) ص ٢١١.

انتهت تلك المعارك بخروج آل سعود عن نجد الى الكويت واستيلاء محمد بن رشيد على السلطة فى حائل ونجد . .

وفى عام ١٣١٩ هـ / ١٩٠١ م استطاع الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود استراد الرياض مبتدئا بذلك اول خطواته نحو حكم مملكته المترامية الاطراف [١] ، واعادة بناء الدولة السعودية فى دورها الثالث ، وقد خيل للناس قبل ذلك ان الدور السعودى فى حمل رسالة الدعوة السلفية قد انتهى برحيل الامام عبدالرحمن الفيصل واحتلال ابن الرشيد للرياض ، ولكن التاريخ يعيد نفسه من جديد بأن آل سعود لايزالون يعون دورهم القيادى والريادى التاريخى الهام فى احتضان الدعوة السلفية والعمل على نشرها .

وهذا بالفعل ماحدث عندما كرر الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن المحاولات لاسترداد الرياض حتى تمكن فى سنة ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢ م ، من استرداده وانتزاعه من يد آل الرشيد [٢] ، ومن الرياض انطلق نحو بناء دولة موحدة وضعا امامه تطبيق احكام الشريعة الاسلامية ومحاربة البدع والخرافات

وقد استطاع الملك عبدالعزيز ضم القصيم والاحساء والقطيف الى امارته ، ثم تمكن من ضم جائل والمناطق الجنوبية والشماليه وقامت بينه وبين حكام الحجاز حروب طويله حتى استطاع ضم الحجاز وبهذا تمت خريطة المملكه على الصورة التى هى عليها اليوم ، وعرفت باسم المملكه العربية السعودية منذ ان اطلق عليها مؤسسها الملك عبدالعزيز هذا الاسم فى عام ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م . [٣].

---

(١) محمد المانع : توحيد المملكة العربية السعودية ،ترجمة عبدالله الصالح العثيمين (الطبعة الاولى، الدمام،مطبعة شركة مطابع المطوع،١٤٠٢) ص ٣١،٣٥٤.

(٢) ابراهيم جمعه : الاطلس التاريخى للدوله السعودية ، (من مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز ، ١٣٩٢ هـ) ، ص ١٢٢ - ١٢٨ .

(٣) احمد القطان وآخرون : امام التوحيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، (الطبعه الاولى ، الكويت ، مكتبه السندس ، ١٤٠٧ هـ) ، ص ٧٣

وهكذا فاننا نلمس بصدق استمرار هذه الدعوة السلفية في أدوار الدولة السعودية الثلاث ، كما أننا رأينا خلال ذلك تصميم آل سعود على تطبيق الشريعة الاسلامية والتعمق في تأصيلها وموازنها لتكون القاعدة التي تسير وتنطلق منها سياسة الدولة ونظمها كما انه على نفس الطريق الذى سار عليه اسلافه من آل سعود في نصر وتأييد الدعوة السلفية التي تنادى الى العودة الى التوحيد والالتزام بالعقيدة الصافية ، ومما كان عليه السلف الصالح من تحكيم لكتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم(١).

...

---

(١) محمد المانع : توحيد المملكة العربية السعودية ،ص ١١٠ .

١ - تقديم نموذج للدولة الاسلامية العصرية :

بدأ الملك عبدالعزيز منذ استرداده لمدينة الرياض يفكر في بناء دولة اسلامية عصرية ، خاصة وهو يعلم عن تناحر القبائل وخلافاتها ومطامعها ، فكيف السبيل الى جمع هؤلاء وتضامنهم لهذا قام الملك عبدالعزيز بغرس وتعميق الشريعة الاسلامية وتطبيقها وبتحكيم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومحاربة البدع والخرافات وارشاد الناس الى العودة الى الدين الصحيح وادرك انه لن يساعده في تحقيق ذلك وهو قيام الدولة النموذجية الا بتكوين مجتمع موحد يؤمن بالله ربا وبالاسلام دينا ، يسوده الأمن والعدل ، وان أهم مايجب عليه عمله هو ان يحول العربي البدوى الذى يهوى الترحل وعدم الاستقرار الى شخص مستقر داخل مستقرات أطلق عليها اسم الهجر وهي دليل هجرة هؤلاء البادية حياة التنقل والاعتداء على الغير الى حياة الاستقرار مع تعميق الايمان الصحيح في نفوسهم (٢).

وطلب منهم ان يتحولوا من رعاة الى مزارعين يقومون بزراعة مايمكن زراعته داخل تلك الهجر ويكون ذلك موردا ثابتا لرزقهم وأولادهم ، كما يعملوا

---

(١) محمد المانع : توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ١١٠-١١١ .

على استصلاح الارض الى جانب المحافظة على مواشيهم ، والاعتماد فى كسب رزقهم على انفسهم ، مع العمل على تأصيل العقيدة الصحيحة فى نفوسهم .

وقد أدرك الملك ان تلك الهجر حينما يتم تأسيسها بصورة جيدة فانها ستوجد لدى سكانها كل الاسباب التى تجعلهم يؤيدون حكومه قوية ثابته وبهذه الطريقة يمكن للحكومه القضاء على الفوضى التى كانت سائدة فى تلك الحقبة وكان الامام عبدالعزيز يأمل ان يغرس الدعوة السلفية دعوة التوحيد والاصلاح فى تلك الهجر حتى يرتبط سكانها برباط العقيدة الاسلامية الصحيحة .

وكانت لكل قبيله موارد مياه تعتبرها ملكا خاصا بها . وقد شجع الامام زعماء هذه القبائل بالهبات والمنح ، حتى يبنون بيوتا سكنية حول تلك الموارد ، مما جعل رجال القبائل يقبلون ببناء تلك الهجر .

وكانت هجرة الارطاوية اول تلك الهجر والتى تأسست عام ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ م وبعدها انتشرت الهجر فى وسط شبه الجزيرة العربية وخاصة فى نجد وتسمى فى سكن هذه الهجر باسم الاخوان [١].

وكان الهدف من هذه الحركه هو توحيد القبائل وجعلهم فى خدمة الدوله ونشر الدعوة السلفية بينهم .

وهكذا وجه الملك الطاقات القتالية عند القبائل العربية فى دولته الى خدمه الاسلام والدعوة السلفية ثم خدمه الملك والدوله الاسلامية

---

(١) محمد المانع : توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ١١٠ - ١١١

ومنعوا من اثارة أعمال النهب والسلب ، واتجهوا الى تنفيذ تعاليم الاسلام متحابين في الله • فكانت هذه القبائل العون للامام عبد العزيز في حروبه في الاحساء والحجاز وعسير والقصيم وحائل • (١)

ولكن هؤلاء الاخوان بعد ان دانت للملك عبد العزيز نجد والحجاز اعترضوا على استخدام بعض الوسائل المدنيه الحديثه التى ادخلها الملك عبد العزيز الى حكومته ، فاضطر الملك عبد العزيز الى عقد المؤتمر العام بالرياض لتوضيح هذه الامور التى كانوا يظنون انها حرام وبدعه ونجح الملك عبد العزيز في شرح مالبس عليهم وتوضيحه لهم ، لان الاغلبيه الساحقه من الاخوان كانوا يؤمنون بصدق ايمان الملك عبد العزيز • وهم يعلمون انه لايأمر بمعصيه كما يعرفون اقتداره واخلاصه للعقيده الاسلاميه (٢).

وهكذا نرى المنهج السلفي يقيم الدولة العصرية وهذه أحد خطب الملك عبد العزيز في مكة المكرمة عند ضمها الى مملكته • نقتطف منها مايلي :-

(ان التمدين الذى فيه حفظ ديننا واعراضنا وشرفنا " مرحبا به وأهلا " وأما التمدين الذى يؤذينا في أدياننا واعراضنا وشرفنا فوالله لن نذعن له ولن نعمل به ولو قطعت منا الرقاب) •

وفي غرة ذى الحجة سنة ١٣٤٧ هـ الموافق (١٩٢٩/٥/١١ م) خطب الحجيج بمكه ليعلن التزامه بالمنهج السلفي ويحدد ابعاده فقال : (يسموننا بالوهابيين ويسمون مذهبنا الوهابي باعتبار انه مذهب خاص ••• نحن لسنا أصحاب مذهب جديد أو عقيدة جديدة ، ولم يأت محمد بن عبد الوهاب بالجديد فعقيدتنا هي " عقيدة السلف الصالح " التى جاءت في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم • ونحن نحترم الأئمة الاربعة ، ولافرق عندنا

---

(١) محمد جلال كشك : السعوديون والحل الاسلامي ، ص ٥٥٩-٥٦٠•

(٢) عبد الله الحقيل : الدعوة الاصلاحيه في مواجهة التحديات ،(مقال منشور في الكتاب الثالث بمركز الوثائق التاريخيه ، بدولة البحرين ، ١٤٠٤هـ) ص ١٢٧ - ١٢٨ •

بين مالك والشافعى واحمد وأبى حنيفه ، كلهم محترمون فى نظرنا ، اننا لانبغى التجديد الذى يفقدنا ديننا وعقيدتنا ...) .

ومن خطبه ايضا تلك التى القاها فى حجيج سنة ١٣٥٢ / ١٩٣٤ م اى بعد توحيد المملكة بسنة تقريبا .

حيث قال : (وقد جعلنا الله مبشرين بالكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح ، لانتقيد بمذهب دون آخر ، ومتى وجدنا الدليل القوى فى آى مذهب من المذاهب الاربعة رجعنا اليه وتمسكنا به ، أما اذا لم نجد دليلا قويا فنأخذ بقول الامام احمد) .

وكما صنع هذا الملك العظيم بالعقيدة السلفية - صنعة بالمسلك السلفى الذى يهب للمسلم كل القوة ، اذ يدرك معنى الشهادة ومنطق العبادة ان الله اكبر . وان من كان الله معه فهو منصور (١).

وهكذا اقام الملك عبدالعزيز وخلفاؤه بالمنهج السلفى للدولة العصرية على اسس الشريعة الاسلامية ، مع الاخذ بوسائل المدينة التى لاتتنافى ولاتتعارض مع الدين الاسلامى القويم كما قالها نفسه لذلك رأى العالم المسلم منهم وغير المسلم ، كيف قامت دولة عصرية حديثة يتوفر فيها كل وسائل الرخاء والامن وكل متطلبات الحياة الحديثة دون ان ينسى الناس ولو لحظه واحدة انتمائهم للشريعة الاسلامية التى تحرص فيها الدولة قبل الفرد فى تنفيذ اوامر الله واجتناب نواهية فى كل امور الدين والدنيا .

ولاغرو فى ان الدعوة السلفية التى تدعو الى الرجوع الى الله والتى دعا بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، قد نجحت بحمد الله فى تاسيس دولة سلفية منذ اتفاق الدرعية سنة ١١٥٧ هـ بين الامام محمد بن سعود الذى ناصرها بالمال والرجال والنفس والنفيس والشيخ محمد بن عبدالوهاب حتي يومنا الحاضر(٢).

---

(١) عبدالحليم الجندى : الامام محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٨٣.

(٢) عبدالله الحقيل : الدعوة الاصلاحية في مواجهة التحديات (مقال منشور في الكتاب الثالث بمركز الوثائق التاريخية ،بدولة البحرين ،١٤٠٤هـ) ص ١٢٧-١٢٨.

صد التدهور عن شبه الجزيرة العربيــــة :

كان تاريخ ارساليات التبشير في شبه جزيرة العرب ،بوجه خاص هـــو تاريخ ارسالية التبشير العربية التي هي الابنة الممتازة لكنيسة الاصلاح الامريكية ولها فروع أربعة أقدمها عهدا " جمعية تبشير الكنيسة " التي تفرع عنها فرع آخر في فارس سنة ١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٢م ، وقد استقلت هذه الجمعية باعمالها باسم " جمعية التبشير العربية العثمانية " ولها في بغـــداد أربع ارساليات وفي الموصل واحدة .

وفي سنة ١٣٠٣ هـ/١٨٨٥م ذهب الىعدن " ايون كيث فالكونز" فأســـس هناك ارسالية تبشير اسكوتلندية وهي مؤلفة من طبيبين منصرين ، وتبعتهـا "ارسالية التنصير العربية " التي أسست سنة ١٣٠٧ هـ/١٨٨٩م وهي تابعـــة لكنيسة الاصلاح الامريكية ، فانتشرت في البصرة والبحرين ولها في البحرين خمسة منصرين اثنان منهم طبيبان واثنان امرأتان ، ولها في البصـــرة أربعة مبشرين أحدهم طبيب .فكان المرضى يشدون الرحال من أصقاع بعيـــدة الى مستشفيات المنصرين في الموصل ، وبغداد والبصرة والبحرين وعدن . فعندما يرحل المنصرون الأطباء يجوبون البلاد كانوا يغرسون في النفـــوس بذورا أمكنت المنصرين حصدها بعد ذلك وأن ينموا غرسها ، فعنـــــي المنصرين بالتعليم المدرسي والتربية الاخلاقية اللذين أسفرا عن نتائـــج وأثمرا ثمرات نافعة في الأطفال والمراهقين على السواء ،فكانت المحاضرات التي يلقيها المنصرون حول ارتقاء الممالك النصرانية وانحطاط ممالك الاســلام، فكان من نتائج ذلك ان اقتطفوا ثمرات اعمالهم في كل منطقة من مناطـــق التنصير بالتاسمح والاهتمام الحقيقي بالتعاليم النصرانية (١). حين استطاعوا تحويل سكان بعض هذه الاقطار الى النصرانية ،وخاصة المذهـــــــب البروتستانتي فيما بعد.

الا أن دعوة التوحيد والاصلاح قد لعبت دورا هاما في تجنيب الدولـــة السعودية الآثار المدمرة للغزو الفكرى والتي اتضحت آثاره في محـــاولات التنصير للتخوم المجاورة للدولة في الشام ومسقط والبحرين وبغـــداد

---

(١) ل. شاتليه : الغاره على العالم الاسلامي ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

والموصل وفارس وعدن عن طريق التعليم والعلاج الطبي لتحقيق الآلام البشرية ، وخاصة عندماضمت الدولة الاحساء جعل من نجد دولة خليجية وقاعدة سعودية برية وبحرية تنطلق منها جيوش الدعوة السلفية الى داخل بلدان الخليج لنشرها هناك .

زاد من اهمية هذا الصد عندما ضم الامام سعودبن عبدالعزيز مكة المكرمة سنة ١٢١٦هـ حين انتشرت هذه الدعوة الى الدول المجاورة خارج نجد، لـهذا هزت هذه الدعوة الركود الذى أصاب العالم الاسلامي ومهدت لظهور الدعوات الاصلاحية في البلدان المختلفة والمجاورة كما سيأتي .

مما تقدم يتضح لنا أن الدولة السعودية قد قامت على أسس اسلامية سليمة وعملت كل مافي وسعها من أجل رفعة هذا الدين وخدمته دون أن يمنعها ذلك من اللحاق بركب الحضارة في العصر الحديث .

اذا فقيام هذه الدولة الاسلامية على أسس اسلامية سليمة مكنها أن تصد التدهور الذى عم أرجاء الدولة العثمانية وتمنع أى تسرب للغزو الفكرى عن شبه الجزيرة العربية وخارجها لدورها الفعال في نشر النهج الاسلامي السليم في الاقطار المجاورة لشبه الجزيرة العربية ، وبث الصحوة الاسلامية بين ربوعها لتقف سدا منيعا للافكار الهدامة التي خيمت على بلدان وأقطار اسلامية عديدة تتاخم الدولة ودعوة أهلها الى الرجوع الى الله ونبذ كل بدعة وقول لاينفع والتمسك بتطبيق أحكام كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فهذه المبادىء الاسلامية لاتحل في مكان وتنتشر فيه الا ويكون من آثارها أن تشعر شعوبها بالأمن والاستقرار والعدل . فلقد ظهرت الدعوة السلفية في شبه جزيرة العرب بكاملها ، ثم انطلقت الى شمالها وجنوبها الى السودان والهند وسومطرة وشمال افريقيا ، ولقد تصدت هذه الدعوة لدفع التدهور عن أحوال العالم الاسلامي التي كانت تتشابه في كل هذه الأقطار وقت ظهور الدعوة السلفية في قلب نجد الى حد بعيد من حيث اعتناق أهلها للخرافات والبدع وانصرافهم عن تطبيق أحكام الشريعة

الاسلامية وتحديد موارد الدولة على أسس اسلامية ٠

وعلى كل حال فقد وجدت هذه الدعوة السلفية ميدانا للعمل واستطاع الدعاة المصلحون في كل تلك الاقطار أن يشعروا سكانها بحاجة الاصلاح الديني وبضرورة اتباع مبادئ الدعوة السلفية للنهوض ببلدانهم ضد الغزو الفكرى ، والتيارات الاستعمارية المعادية للاسلام والمسلمين والتي تريد غزو الاسلام في عقر داره لانحصار حدوده بعد أن كانت ممتدة في العمق الأوربي ٠

وبفضل من الله استطاعت هذه الدعوة السلفية ايقاظ العلماء فوقفوا أمام الهجوم الشرس الذى جاء به الغزو الفكرى للعالم الاسلامي ٠

•••

جـ - تأثر حركات الاصلاح في العالم الاسلامي بها :

لم يقتصر أثر الحركة السلفية القائمة على دعوة التوحيد والاصلاح على شبه الجزيرة العربية بل امتد هذا الاثر الى خارج حدودها وذلك عن طريق الحجاج الذين يفدون الى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، وكان الحجاج القادمين من الخليج والعراق يمرون في طريقهم على الدرعية عاصمة الدعوة السلفية حيث يلقون الضيافة والاكرام من حكام الدرعية وتلقى عليهم ايضا دروس في أصول الدعوة وأسسها لمدة ثلاثة أيام .(١)

وكان موسم الحج ميدانا صالحا ، وفرصة سانحة لعرض الدعوة على كبار حجاج بيت الله الحرام ، واستمالتهم لقبول مبادئها التي تدعو الى الرجوع الى الكتاب والسنة ، فاذا عادوا الى بلادهم دعوا اليها(٢). وخاصة بعد أن ضم السعوديون الحجاز ودخولهم مكة المكرمة سنة ١٢١٨ هـ/ ١٨٠٣م . أعطى الفرصة لسائر الحجاج من مختلف البلاد الاسلامية للتعرف على أصول الدعوة السلفية فيلتقوا بالعلماء ويناقشونهم فيما يدعون اليه(٣)، ويستمعون الى خطبهم ومواعظهم وارشاداتهم القيمة وتوجيهاتهم السديدة(٤).

وبهذا الانطباع انتشرت الدعوة السلفية خارج نجد الى الدول الاسلامية(٥)، وتأثر بها بعض الحجاج لما رأوا في هذه الدعوة التي دعا اليها الشيخ محمد بن عبدالوهاب انها ليست دعوة جديدة كما أعلنها خصوم الدعوة ، فهي تعتمد على أسس ثلاثة : الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح ، تحارب البدع والخرافات والخزعبلات الشائعة بين الناس من

---

(١) أحمد القطان وآخرون : امام التوحيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٠٣.
(٢) أحمد أمين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث (بيروت ، الناشر دار الكتاب العربي) ص ٢١.
(٣) محمد عبدالله ماضي : النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، ص ٦٢-٦٣.
(٤) عبدالله بن سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٧٦. ، محمد عبدالله ماضي : المرجع السابق ، ص ٦٣.
(٥) عبدالله بن سعد الرويشد : المرجع السابق ، ص ١٧٦.

تبريك وتقديس الأحجار والأشجار والقبور والبناء عليها،وبدعاء العلماء والأولياء والصالحين . فأخذ كلا منهم ينشر في بلاده التوحيد ويحارب هذه الخرافات الموجودة في بلاده (١) .

مع مرور الزمان انتقلت أصول هذه الدعوة الاصلاحية الى كل من القواسم ، الذين جاهدوا في سبيل هذه الدعوة الانجليز في الخليج العربي ودانوا وطاعوا للدولة السعودية الأولى والى السودان وسومطرة والهند والعراق والشام ومصر والجزائر وجاوه وعمان .

وكان هدف دعاتها في كل مكان حلوا به هو محاربة البدع والفساد والقضاء عليها ،وتصحيح العقيدة بما علق فيها من ادران الشرك للرجوع الى ماكان عليه السلف الصالح في القرن الأول للهجرة (٢) ؛

لذلك قامت هذه الحركات الاصلاحية ،ودعاة الاصلاح ضد الأوضاع السائدة في البلاد (٣).

ففي اليمن ظهر مجموعة من العلماء تأثروا بالدعوة السلفية ، ودعوا الناس الى مبادئها ،وكان على رأسهم العالم الجليل محمد الشوكاني ،وصار لهم أتباع ووقعت بينهم وبين خصومهم من العلماء الآخرين مناقشات ومنازعات ولكن ذلك لم يتعد الحرب الكلامية (٤).

أما في السودان ،فقد قامت هذه الدعوة على يد الداعية الشيخ عثمان بن فودى ،أحد أفراد قبيلة الفولا ، فانه بعد التقائه بعلماء الدعوة السلفية في موسم الحج ، اقتنع وأيد الدعوة السلفية التي دعا اليها الشيخ محمد عن طريق العلماء في مكة المكرمة ، فعاد عثمان

---

(١) أحمد بن حجر آل بوطامي : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ،ص ١٠٣.

(٢) عبدالله بن سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ،ص ١٧٦. ، أحمد بن حجر ال بوطامي: المرجع السابق ، ص ١٠٣.

(٣) أحمد أمين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ،ص ٢١-٢٢. ، محمد عبدالله السلمان: دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ،ص ٨٣.

(٤) عبدالله بن سعد الرويشد: المرجع السابق ،ص ١٧٧.

الى بلاده وأخذ يحارب البدع الشائعة بين قومه وعشيرته ،ويعمل على القضاء على بقايا الوثنية وعبادة الأموات التيكانت لاتزال سائدة يؤمن بها بعض أهل تلك الديار ، فاستطاع بهذه الدعوة أن يجمع حوله قبيلته في وحدة متماسكة مرتبطة برباط الدين ،بعد أن كانت منقسمة الىعدة فرق وشيع ضعيفة متخاذلة (١).

لذلك بدأت حروب سنة ١٢١٨ هـ/ ١٨٠٢م ضد قبائل الهوسا الوثنية وقضى على مملكة جبير ، التي كانت تقع على نهر مجرى النيجر.

ولم تمض الا سنتان حتى أقام عثمان بن فودى مملكة (سوكوتو) في السودان على أنقاض مملكة جبير ، على أساس دعوة التوحيد والاصلاح، دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ثم مدت دعوتها على جميع الاقطار الواقعة بين تمبكتو وبحيرة تشاد ،وبقيت هذه المملكة محافظة على استقلالها ووحدتها في تلك الفترة (٢) .

وكما غزت الدعوة السلفية منطقة السودان فقد نشطت في القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للقرن التاسع عشر الميلادى حركة الدعوة للاسلام في البنغال بنشاط ملحوظ . حيث قام دعاة هذه المقاطعة من البنغال ينتقلون في البلدان المجاورة لتطهير البلاد من بقايا العقائد الهندوكية القديمة عن طريق الوعظ ليوقظوا الحماس الديني وينشرون العقيدة الاسلامية بين الناس هناك (٣)، كان ذلك بواسطة أحد الحجاج الهنود السيد احمد ،وكان هذا الرجل من أمراء الهند ذهب الى الحجاز لأداء فريضة الحج بعد ان اعتنق الاسلام في سنة ١٢٣٢هـ/ ١٨١٦م . وحين وفد الى مكة المكرمة التقى بدعاة الدعوة السلفية في مكة المكرمة واقتنع بصحة اصول الدعوة السلفية فأصبح من دعاة التوحيد . ولما عاد

---

(١) محمد كمال جمعة : انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ،ص ١٠٥.
، محمد عبد الله ماضي: النهضات الحديثة في جزيرة العرب ،ص ٦٥-٦٦
، لوثروب ستوارد: حاضر العالم الاسلامي ،ج ٣ ،ص ٢٣.

(٢) محمد عبد الله ماضي : المرجع السابق ،ص ٦٦.
، أحمد بن حجر آل بوطامي: الشيخ محمد بن عبد الوهاب ،ص ١٠٣-١٠٤
،عبد الله سعد الرويشد: الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ،ص ١٧٧.

الى وطنه سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م في الهند باقليم البنغال وجد صعيدا صالحا للدعوة بين سكان تلك المنطقة من الهنود المسلمين الذين اختلطت عقيدتهم الدينية بالكثير من عقائد الهندوس هناك . فبدأ بدعوته في مدينة (بتين) ودعا أولا اخوانه المسلمين بترك البدع والعقائد الهندوسية التي كانت شائعة بين الناس، واتباع مبادئ الاسلام الصحيحة، وبعد مرحلة من الجهاد استطاع هؤلاء المسلمون ان يقيموا الدولة الاسلامية على أساس دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في البنجاب وما حولها تحت حكم الداعية السيد أحمد[1]، فاتسعت هذه الدولة في نفوذها حتى شملت منطقتي السند وبولخستان وجزءا من أفغانستان، ثم أعلن الجهاد الاسلامي على كل من خالف مذهبه السلفي، لذلك هزم الشيخ قرب مدينة بشاور، ولكنه تعرض لمقاومة عنيفة من الانجليز المتعاونين في محاولة للقضاء على الاسلام، حتى استشهد عام ١٢٤٦هـ/١٨٣١م[2] .

هذه الدعوة السلفية التي قامت على أصول الدعوة السلفية، لازالت قائمة هناك على يد خلفاء السيد أحمد من بعده ولم يستطع المستعمرون أن ينالوا منها شيئا، ولايزال هناك الكثيرون من سكان هذه المناطق يدينون بالاسلام على المذهب السلفي متبعين في ذلك أصول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

وفي سومطرة ابتدأت الدعوة السلفية سنة ١٢١٨ هـ/ ١٨٠٣م على يد أحد الحجاج من أجل اسعاد أهل الجزيرة ، الذي عاد من الحج في نفس السنة بعد أن التقى بالدعاة السلفيين ، واطلع على ماكان يدعون اليه ،

---

(١) عبد الله بن سعد الويشد : الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص ١٧٦-١٧٨.
، أحمد بن حجر آل بوطامي : الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص ١٠٤-١٠٥
، أحمد بن عبد الغفور العطار: الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص ٢٠٨.
، أحمد أمين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، ص ٢١.

(٢) محمد عبد الله السلمان : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص ١٨٥-١٨٦.

حيث اقتنع بصحته ،ولما عاد الى وطنه ابتدأ بالدعوة ثم تطورت هذه الحركة في بلاده حتى آدت الحروب طاحنة بين المسلمين السلفيين في سومطرة وبين غير المسلمين من سكانها ،حتى رأت حكومة الاستعمار الهولدنية سنة ١٢٤٧هـ/١٨٢١م ان تناهض هذه الحركة القوية محافظة على كيانها ونفوذها هناك • واستمرت المناوشات والحروب بين المستعمرين الهولنديين وبين المسلمين السلفيين في سومطرة حوالى ست عشرة سنة انتهت بتغلب قوى الاستعمار على القائمين بالدعوة والحركة السلفية [1].

أما الحركة السنوسية فقد بدأت في الجزائر في أواسط القرن الثالث عشر الهجري الموافق لاواسط القرن التاسع عشر الميلادى ،ثم غزت طرابلس بعد ذلك انتشرت في شمال أفريقيا ، ثم مدت رواقها نحو الجنوب حيث تمكنت في السودان ، فالحركة السنوسية قاومت وناهضت الاستعمار في كل مكان حلت به ، والتي كانت ولازالت مدرسة تربية وتهذيبا للشعب السنوسي آنذاك ، هذه الدعوة تأثرت بالدعوة السلفية ، فالسيد محمد علي السنوسي مؤسس الحركة السنوسية كان في مكة يطلب العلم وقت ضم السعوديين لها ،فتتلمذ على علماء الدعوة السلفية الذين قدموا الى مكة المكرمة ، وتأثر بمذهبهم ثم عاد الى الجزائر ونادى بحركته الاصلاحية على ضوء تعاليم الدعوة الاصلاحية الاسلامية السلفية التي أشعل نارها في شبه الجزيرة العربية الشيخ محمد بن عبد الوهاب [2].

---

(١) محمد عبد الله ماضي : النهضات الحديثة في جزيرة العرب ،ص ٦٨•
، احمد بن حجر آل بوطامي: الشيخ محمد بن عبد الوهاب ،ص ١٠٦
، عبد الله بن سعد الرويشد :الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ،ص١٧٨-١٧٩•
، أحمد عبد الغفور عطار: الشيخ محمد بن عبد اولهاب ،ص ٢٠٩-٢١٠•

(٢) محمد عبد الله ماضي :المرجع السابق ص ٦٨-٦٩•
،عبد الله سعد الرويشد: المرجع السابق ،ص ١٧٩•
، احمد بن حجر آل بوطامي: المرجع السابق، ص ١٠٦-١٠٧•

وكما انتشرت هذه الدعوة بواسطة الدعاة السلفيين ، فقد انتشرت هذه الدعوة المباركة في حضرموت ، وجاوة بواسطة السيد رشيد رضا الذى قام بتأليف جمعية الارشاد في تلك البلاد الى تطبيق مبادئ الدعوة السلفية دعوة التوحيد والاصلاح الذى نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

وللحقيقة فقد تأثر بهذه الدعوة كثيرون من أهل حضرموت ،وعدن،وجاوة وبالجملة لقد كان لهذه الدعوة الأثر العظيم في العالم الاسلامي من نواحي مختلفة ، وقد كانت هي الشعلة الأولى لليقظة الحديثة في العالم الاسلامي كله ،حيث تأثر بها زعماء الاصلاح في سائر الأقطار الاسلامية .

لهذا تأثرت كل الحركات الاصلاحية بالدعوة السلفية . ويمكن تحديد الصلة بينها وبين كل هذه الحركات ، اما عن طريق الاقتباس أو المحاكاة أو مجرد التأثير (١).

كما أن تأثر أى دعوة بالأخرى ، لايعني الاتفاق في جميع مبادئها الأساسية والفرعية . الا أن هذه الحركات الاصلاحية تأثرت بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الدعوة السلفية واتفقت معها في أهم المبادئ التي تدعو الى اخلاص التوحيد لله ، والدعوة الى الاجتهاد ، أما المسائل الفرعية فقد كان هناك خلاف معها (٢) .

ولكن هدف هذه الدعوات من الاصلاح هو أن يكون العمل لسيادة مبادئ الاسلام الصحيحة ، ثم بعد ذلك القضاء على البدع والخرافات ومحاولة

---

(١) أحمد بن حجر آل بوطامي : الشيخ محمد بن عبد الوهاب ،ص ١٠٧-١٠٨ ، عبد الله سعد الرويشد: الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ،ص ١٧٩-١٨٠.

(٢) محمد عبد الله السلمان : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ،ص ٨١.

بناء دولة اسلامية تحكم بتعاليم الاسلام وتطبق أحكامه في المعاملات والعبادات واقامة الحدود الشرعية ، وهذا ماكانت تهدف اليه الدعوة السلفية في الدولة السعودية في مراحلها الثلاث باستمرار ، وتحرص على ذلك وتؤكد عليه في كل مناسبة ومحفل ، بالحث على التمسك بالعقيدة السمحاء والعمل بها والحفاظ عليها.

لذلك يتضح لنا الدور المهم الذى حققته دعوة التوحيد والاصلاح والدولة والسعودية في صد خطر الغزو الأوربي عن شبه الجزيرة العربية وما أعقب ذلك من تأثر حركات الاصلاح في العالم الاسلامي بها ، وهذا يعنى امتداد صد خطر الغزو الفكرى عن أقطار عديدة من العالم الاسلامي التابع للدولة العثمانية وغيرها من الدول الاسلامية .

فانتقال تأثير دعوة التوحيد والاصلاح في بعض أقطار العالم الاسلامي هي احدى الركائز التي واجهت وصدت الغزو الفكرى الأوربي في معظم أقطار الدولة العثمانية والممالك الاسلامية الأخرى ، حيث حارب علماء الاصلاح في تلك المناطق الاستعمار الذى أخذ ينفث سمومه في الأراضي الاسلامية ، في كل ميدان حلت به هذه الدعوة ويفرض نظمه الأوربية ويشجع حركة التنصير في البلاد الاسلامية عن طريق نشر المبادئ والأفكار الهدامة والذى يعتبر من مقومات حركة الغزو الفكرى في العصر الحديث .

وهذا العمل كفيل بصد الغزو الفكرى بمختلف ألوانه وتياراته لتبقى العقيدة سليمة وصافية من كل الشوائب والمعتقدات الفاسدة الأخرى في مقابل نشر العقيدة الاسلامية في أنحاء الدول الأخرى تطبيقا عمليا في الأحكام والحدود والمعاملات كما كانت تطبق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين .

...

الخاتمة والنتائج

الدولة العثمانية والغزو الفكرى من الموضوعات الكبيرة والهامة التي كان لها تأثرها السياسي والحضارى على الأمة الاسلامية في العصور الحديثة ذلك لأن الحكم العثماني استمر فترة طويلة وشمل حكمه معظم البلاد الاسلامية في ثلاث قارات هي أوربا وآسيا وشمال أفريقيا وبذلك تأثرت الأمة الاسلامية بالتغيرات السياسية والحضارية التي عاصرت الدولة العثمانية ٠

ومما يلاحظ على تلك التغيرات السياسية والحضارية أن الدولة العثمانية كانت غازية فكريا وسياسيا في عصرها الأول ، عندما طبقت النظم الاسلامية تطبيقا شاملا ، وهذا ماتعرضنا له في الفصل الأول ٠ فتقدمت في فتوحاتها وأجبرت أعداءها على احترامها في عصر استقرار نظامها الذى ترتب على صلاح عناصرها القيادية التي ارتكزت عليها الدولة في عصرها الاول وهي : السلطان والشيخ والجندى ، وقد وصلت الدولة بهذه العناصر الى قوة ضاربة أرهبت بها أوربا وشقت طريقها داخل أوربا لنشر الاسلام والحضارة الاسلامية في ربوعها ، فلقد نشأت الدولة العثمانية من امارة صغيرة على أنقاض دولة السلاجقة الروم بعد وفاة آخر ملوكهم السلطان علاء الدين في عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م والذى هزم على يد المغول ٠

ولاحظنا ماصاحب نشأة هذه الامارة وجهادها مع البيزنطيين لايقاف التحركات الصليبية ضد البلاد والأمة الاسلامية وكانت قوتها التيتحركها هي روح الجهاد الاسلامي في الأجزاء الغربية من بيزنطة ،كما كان جند الدولة يسحقون الأحلاف التي تقف ضدهم من النصارى حتى تم لهم فتح أهم المدن البيزنطية النصرانية في آسيا الصغرى وشرق وجنوب أوربا ،وقد اتصف آل عثمان بالتسامح فعندما أراد عثمان بن أرطغرل نشر الاسلام بين المسيحيين البيزنطيين في آسيا فكان يخيرهم بين الاسلام أو الجزية أو الحرب ٠ وذلك قبل حربه معهم كما كان يفعل الرعيل الأول في الاسلام ٠

فكان بعضهم يختار الاسلام طوعا ، أما الفئة الثانية فقد اختارت دفع الجزية ،الا أن القسم الآخر قد امتنع ورفع راية العصيان رغبة في القتال ،مما دفع العثمانيين الى خوض هذه الحرب المقدسة واعتبار ذلك العمل

كجزء من واجبهم الاسلامي نحو الجهاد في سبيل الله ،لاحبا في القتال ولكن لنشر الدين واعلاء كلمة الحق .

وهكذا تدرجت هذه الامارة في النمو والاتساع وبفتح بورسة اصبحت دولة وزاد تعمقها في أوربا حين فتح السلطان مراد الأول أدرنة فأصبحت الدولة بعد ذلك آسيوية أوربية .

وفي مقابل ذلك كانت أوربا تتكتل في شكل أحلاف صليبية ضد الدولة العثمانية في مراحلها الاولى لضربها وسحقها قبل استفحالها ،لاستخلاص الأراضي التي فتحتها الدولة العثمانية في أوربا ،وقد حاولوا خلال أربع حملات حربية والخامسة كانت في عهد مراد الثاني ، الا أن محاولاتهم باءت جميعا بالفشل لقوة وصلابة ووحدة الدولة العثمانية وتسلح رجالها بالايمان واستبسالهم في طلب الشهادة والجهاد في سبيل الله واخلاصهم في الدفاع عن راية الاسلام ، لأنهم يعلمون أن هذه التجمعات والتكتلات يدفعها الحقد الصليبي الدفين منذ ان استرد صلاح الدين منهم بيت المقدس .فكانت هذه الاحلاف والتجمعات ، او الغزو الصليبي على الدولة العثمانية انما هو امتداد للحملات الصليبية السابقة في العصور الوسطى .

ولذلك كان الهدف من وراء هذه الحملات هو اخراج العثمانيين من أوربا كلها ثم من آسيا ليستمروا في الزحف حتى يصلون الى بيت المقدس الشريف ، وهو الهدف الذى رسمت من أجله هذه الحملات ،بل انه أهم اهدافها اضافة الى العامل الاقتصادى الذى لايقل اهمية عن الهدف الأول .

ويظهر لنا من هذه الدراسة حماس الدولة العثمانية في الجهاد ونشر الدعوة الى الله نحو الغرب دار الحرب وهو العامل الاساسي الذى يدفع الدولة منذ بدايتها .

وقد أكدت الدراسات أن العثمانيين أمة حرب وقتال من أجل خدمة الاسلام ونشره ، وقد اعترف ببسالتهم الهجومية والدفاعية الأعداء قبل الأصدقاء

لذلك انطلقت في جميع حروبها مع اوربا من منطلق اسلامي بحت ، وتحت راية الجهاد الاسلامي ، ومما يدل على ذلك المنطلق هو وصايا عثمان لابنه أورخان ، وهو على فراش الموت ،حيث أوصاه بنشر الاسلام ،وهداية الناس لهذا الدين مع الالتزام بحماية اعراض المسلمين وأموالهم ،وقد حثه على الجهاد لنشر الاسلام وعدم تركه وتحكيم شريعة الله ،والتقرب من العلماء وتقريبهم واستشارتهم في الأفعال والأعمال التي يقومون بها٠

لذلك اعتبر العثمانيون أن نشر الاسلام في الارض وهداية الناس به هو من أهم أعمالهم وأزكاها عند الله ومن واجباتهم الاساسية التي نشأت الدولة العثمانية من أجلها، وبالاضافة الى تلك العوامل والمقومات نرى العثمانيين يفتحون قلوبهم لمن اعتنق الاسلام في أوربا ،ومن أشهرهم الامير خوسيه ميخائيل الذى أسلم في زمن عثمان بن ارطغرل فاصبح هذا المسلم من خيرة المسلمين وارتقى بهذا الاسلام حتى كان من قادة المسلمين في الدولة العثمانية المرموقين ، ثم القائد افرينوس حاكم بورسه ،وغيرهم من الشخصيات الأوربية الذين أسلموا وحسن اسلامهم فأخلصوا والتزموا في اسلامهم فخدموا الاسلام والمسلمين ضد اوربا النصرانية ٠

فاتضح لنا أمانة التزام السلاطين انفسهم بهذه النظم الاسلامية التي كانوا يطبقونها في عصر الدولة الأولى على أهل الذمة ،كما كانت تطبق في عهد الخلافة الراشدة من حسن معاملة صادقة مما نتج عن ذلك انتشار الاسلام بين الدول الأوربية ،فكانوا يدفعون الجزية مقابل حمايتهم ، لذلك أسلم بعض المسيحيين نتيجة لتسامح المسلمين ، وباسلامهم سقطت عنهم الجزية٠

الا أننا يجب أن لاننسى دور الانكشارية في بناء هذه الدولة ، وقد كانت للحصانة الفكرية التي تربوا عليها الدور الواضح في حروبهم مع السلاطين ،وخاصة في عصر الدولة الاول لتشبع الجندى الانكشارى بالروح الجهادية واخلاصهم لعقيدته أولا ثم لوطنه ثانيا ،فكانوا يؤمنون بالاسلام عقيدة ومنهجا٠

لذلك كان الانكشاريون كتلة واحدة تشعر بواجبها الاسلامي العظيم وبالمهمة التي أعدوا من أجلها وهي أن السيف سلاحهم في سبيل الحق ونشر الاسلام ،ودعوة الحق شعارهم والرحمة والشفقة تملأقلوبهم، ذلك لان الاسلام دينهم والسلطان ولي أمرهم ،قد أصبحت هذه الفئة عونا للدولة على أعدائها حتىصار السلطان لايعول الا عليها ،ولهذاكانت الانكشارية من أهم عوامل بناء الدولة وامتدادها حيث رافق هذا الجيش تكوين الدولة وكان سببا وعونا فيانتشار الاسلام وتقدمه في أوربا خلال عصر عظمة الدولة .

ومنذ أن فتحت القوات العثمانية القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، أصبح اسمها اسطنبول كما اصبحت عاصمة الدولة العثمانية ،وبسقوطها قضى محمدالفاتح على آمال ومستقبل أوربا التي كانت تهدد العالم الاسلامي ومن هذهالمدينة انطلق فاتحها لمواصلة الجهاد لنشر الاسلام فيما تبقى من الدول الأوربية .

أما موقف أوربا ،فقد انتابها الخوف والقلق حيث تجسم أمامها خطر الاسلام ، وماكانت البابوية لتهدأ أويخلو لها بال بالرغم من كراهيتها وخلافها المذهبي للارثوذكس في القسطنطينية وبين أهل روما الكاثوليك في الغرب ، فهي لاتسمح بقضاء المسلمين على الامبراطورية البيزنطية ولكن قوة المسلمين في ذلك الوقت ، أوقفت أوربا عاجزة لاتستطيع أن تقدم يد العون الى القسطنطينية لخوفهم الشديد من العثمانيين لانهم لازالوا يتذكرون معركة (نيقوبوليس) الشهيرة التي أذهلت ملوك أوربا وشعوبها نتيجة للفشل الذريع ،فلم يعد من السهل استثارة الاوربيين للدولة العثمانية وقد انهت هذه المعركة الحملات الصليبية كحركات صليبية منظمة ضد الاسلام كما مر بنا في الفصول السابقة .

ومن ذلك الوقت سجلت اوربا تراجعا عكسيا ،خصوصا عقب سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين الذى أوقف نهائيا التهديد الصليبي لغزو

المقدسات الاسلامية في البلاد العربية وحصر طاقاتهم الدفاعية عن مقر البابوية في روما ،خوفا من سقوطها في يد المسلمين العثمانيين كما سقطت اياصوفيا مقر البابوية الشرقية ، أحد معاقل الديانة المسيحية الأرثوذكسية • وزاد السلطان محمد الفاتح أوربا ارتباكا وحيرة عندما أقسم أن يربط فرسه في كنيسة القديس بطرس في روما ، لذلك أصبحت روما تحت التهديد العثماني ، وانها لامحالة ستسقط كما سقط المعقل الشرقي الأرثوذكسي • فهز هذا القول أوربا وارتعدت خوفا امام القوة الاسلامية التي تطبق الاسلام بكامل حدوده وشعائره •

وحين عزم السلطان محمد الفاتح على ذلك مهما كلفه الامر جهز قواته وسار بها نحو شرق أوربا طلبا للجهاد في سبيل الله فاما النصر او الشهادة • ونتيجة لذلك أصبحت الامارات الاوربية تسقط في يده الواحدة تلو الأخرى وهو سائر في طريقه الى روما تحف به عناية الله وتوفيقه •

وحين رأت أوربا تصميمه لذلك قررت التخلص منه عن طريق طبيبه اليهودى الذى اعتنق الاسلام على مذهب يهود الدونمة ،فدس له السم في الطعام تدريجيا حتى قضى عليه غدرا كما هي عادة اليهود ، وبموته زال الخطر عن أوربا حيث عبرت عنه باقامة الافراح في كل مكان ،ولكن كان ذلك الفرح مؤقتا حيث واصل خلفاؤه من بعده السير على خطاه في الجهاد ونشر الاسلام •

ولذلك اعتبرت أوربا أن فتح الدولة العثمانية للقسطنطينية هو مولد المسألة الشرقية التى أشغلت اوربا في ذلك الوقت • ولاتزال قائمة تشغلها واضعة أمامها الاسئلة التالية : كيف تستطيع أوربا ايقاف تقدم الاسلام ونشره الى الأقطار والممالك الأوربية ؟ وكيف تعمل أوربا من أجل تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية ؟ ولماذا عاد الاسلام مرة أخرى ينطلق من الديار الشرقية ؟ • ولم تستطع أوربا أن تحقق مآربها أو أن تصل لغاياتها العدوانية ضد الامة الاسلامية وذلك لان الدولة العثمانية كانت قوية ذات مركز عالي مهابة الجانب والسرفي ذلك انها كانت تطبق شرائع

الاسلام قولا وعملا كما أن جندها كانوا متشبعين بروح الجهاد في سبيل نشر الاسلام • ومن أجل ذلك تحقق للدولة العثمانية كل أمانيها وأيدها الله بنصره لأن الله تعهد بأن ينصرمن ينصره •

وهكذا اتسعت رقعة الدولة العثمانية حتى وصلت الى أقصى اتساعها مما جعل ملوك أوربا يطلبون ود الدولة العثمانية ، ويستنجدون بها على أبناء جلدتهم ، ومن ذلك قيام فرانسوا الأول ملك فرنسا بالاستعانة بسلطان الدولة العثمانية السلطان سليمان الاول لمساعدته ضد شارلكان ملك النمسا الذى كان يحيط بأملاكه كالسوار بالمعصم ،وقد حالفه السلطان سليمان على ذلك لحمايته وصد الظلم عنه •

ونتيجة للانتصارات العظيمة التي حققتهاجيوش الدولة العثمانية فان كثير من النصارى دخل في الاسلام تطوعا ،فانضموا الى الجيش الانكشارى ، فعندما تم ضم البوسنة دخل أكثر شبابها الاسلام ،وقد ساهموا مع الجيش العثماني في فتح المدن الاوربية الأخرى ،وهذا يعود لسماحة السلاطين وتطبيقهم للاسلام •

ومن خلال استعراضنا للأحداث التاريخية خلال العصر العثماني الأول نجد أن الدولة العثمانية كانت غازية فكريا ودينيا كما أنها كانت ملتزمة بالاسلام قلباوقالبا فطبقتالنظم الاسلامية تطبيقا شاملا مما لايختلف فيها اثنان •

وحين انتقلنا الى الفصل الثاني تحدثنا عن الدولة في عصرها الثاني فقد كانت غير ذلك ،فاتساع رقعة البلاد وامتدادها على القارات الثلاث ، أوجد لها مشكلات غير عادية في مجال الدفاع الخارجيوالتنظيم والتماسك الداخلي ،أوصلت الدولة الى عوائق ، كان من الواجب على سلاطين الدولة الذين جاءوا بعد السلطان سليمان الاول العملعلى اجتياز تلك المشاكل الداخلية والخارجية وايجاد الحلول الكفيلة لها ولكنهم

تقاعسوا عن ذلك وتقاعس معهم العلماء والقادة فانصرفوا الى حياة الترف واللهو مما زاد من تفاقم المشاكل الداخلية والخارجية وعندما أرادوا ادخال بعض التعديلات والاصلاحات في النظم الداخلية لجأوا الى محاكاة الغرب المسيحي في تنظيماته فانصرفوا عن الاسلام فضلوا الطريق وأصبحوا ألعوبة في يد بلدان الغرب يعقدون معهم المعاهدات والاتفاقيات ويمنحونهم الامتيازات داخل اراضي الدولة العثمانية . وقد نتج عن هذا الاهمال من سلاطين الدولة زيادة المشاكل وصعوبة حلها مما أثر على وحدة الدولة وتماسكها وفتح الطريق أمام تسرب الخلل في جميع أجهزة الدولة وقد أدى وجود قوميات وأديان متعددة في الدولة الى اضطراب كيانها فكثرت الثورات الداخلية فانتشرت اعمال الفوضى واضطرب الامن ومنيت الجيوش العثمانية بهزائم كبيرة ، فكان هذا مبررا لتدخل الدول الأوربية في شئون الدولة العثمانية بحجة رعاية القوميات والأقليات الدينية في الدولة . ومن أجل تفاقم ذلك الخطر فان الدول الأوربية لم تتردد في تقديم المعونات المالية والعسكرية بل والبشرية لاشعال تلك الثورات وتشجيعها على المطالبة بالانفصال حتى ينتهي بها الامر الى الانفصال عن كيان الدولة الكبير أو حصول الدول الأوربية على معاهدات وامتيازات لرعاية تلك القوميات والديانات . وهذا كله ناتج عن انغماس أغلب سلاطين الدولة في حياة اللهو والمجون والاسراف وتفشي سوء الادارة وقبول الرشوة ، بين حاشية السلطان وعماله حتى أصبح ذلك شريعة سائدة في جميع أرجاء الدولة واقطارها .

كان ذلك بعد الانتصارات الباهرة التي أحرزها العثمانيون عندما حملوا راية الاسلام وساروا بفتوحاتهم صوب الغرب ولما داخلهم الغرور جنحوا الى الكسل وتهاونوا في تطبيق أصول الاسلام الداعية للعمل والجهاد وتطبيق النظم الاسلامية بكل معانيها ، فانشغالهم تبعا لشهواتهم أشغلهم عن الغرب وتخطيطاته ، وهدم الملة الاسلامية فاستغل الغرب هذه الغفلة وأخذ يخطط لما فيه خدمة مصالحه التجارية والسياسية والدينية في

المنطقة فكان ذلك عن طريق الغزو الفكرى منذ حملة نابليون تنفيذا لوصية لويس التاسع عشر ملك فرنسا ورائد حركة الغزو الفكرى والذى كاد أن يذهب ضحية الحملة الثامنة لولا قيامه بدفع مبلغ من المال كفدية لفكه من الأسر ، وهكذا تحولت المعركة من ميدان السلاح الى معركة في ميدان العقيدة والفكر بهدف تشويه عقيدة المسلمين التي تحمل معنى الجهاد. وكان من أهم عوامل الغزو الفكرى حركة التنصير . وقد اتضحت معالم هذه الحركة من خلال الهجمة الصليبية على الدولة العثمانية التي قامت بها الدول الاوربية منذ بداية القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للقرن التاسع عشر الميلادى بواسطة قناصل وسفراء تلك الدول الاوربية ومن خلال نشاط الجمعيات والارساليات التنصيرية المدعومة من الدول والجمعيات المسيحية والمتمثل في بناء المؤسسات التعليمية والعلاجية في اسطنبول وبلاد الشام ،وكيف كانت الدول الأوربية تتصارع على الزعامة لحماية الأماكن المقدسة في فلسطين .

وعن طريق هذه الخدمات استطاعت هذه الدول الأوربية أن تغزو العالم الاسلامي فكريا ودينيا وسياسيا وتعمل ماتريد لخدمة مصالحهم . كماحاولت أن تشكك المسلمين في دينهم وعلمائهم وبالتالي يتبعون الغرب ويصدقونه في كل مايقول . وكان الغزو الفكرى من العوامل الهامة التي ساعدت على تفتت الدولة الاسلامية لانه غرر بشعبها المسلم عندما شككه في دينه وعلمائه الأفاضل ،وأصبح مغرما بتفاهات الغرب وحضارتهم المادية واطلق عليها تعبيرا لايليق بدولة كبرى خدمت الاسلام والمسلمين وهو تسميتها (بالرجل المريض).

وقد لاحظنا في الفصل الثالث نشأت حركة الغزو الفكرى الاوربي ونشأت معها الأفكار العلمانية والقومية والحركة الدستورية ، وتسربت هذه الافكار عن طريق الثورة الفرنسية التي استطاعت أن تخترق الحياة السياسية والدينية وأن تؤثر في أوربا ،وتعمل على تغيير النظم القديمة في أوربا . فشجعت تلك الأفكار اليونان على المطالبة بالاستقلال ومن أتى من بعدهم طلبا لاستقلال بلاده سواء ضد النظم القديمة الأوربية أو الانفصال عن الدولة العثمانية ،

ويعني ذلك أن هذه الأفكار تسربت الى ممالك الدولة العثمانية الأوربية وكان أثر ذلك أن فقدت الدولة اليونان حتى الدولة العثمانية نفسها لم تنج فقد تسربت هذه الأفكار ، فأصابت المجتمع العثماني بكل طبقاته ، ولئن كان التأثير في بادئ الأمر ضعيفا الا أنه اصاب الطبقات المسيحية التي تعيش داخل الدولة أكثر من غيرهم ، وكان ذلك تمهيدا للحركة الدستورية التي اضطربت بأفكارها دول البلقان والصرب والافلاق والبغدان والجبل الاسود ، التابعة للدولة العثمانية طلبا للاستقلال ، فأخذت الدولة العثمانية تتصارع معها وروسيا تساند هذه الثورات وتحدث القلاقل حتى نالت استقلالها في معاهدة برلين سنة ١٨٧٨م ٠

وكان لتطورات التاريخ الأوربي الحديث الأثر الكبير على المناطق والشعوب في تغيير بنية المجتمعات الى علمانية وقومية جديدة نشرتها أوربا في المدن الاسلامية ،وكان شعارها المقنع (العدل والاخاء والمساواة) وهي نفس الشعارات التي تدعو لها الماسونية ويرددها أتباعهم ،ويؤكد ذلك ارتباط العلمانية بالماسونية ٠ كما أن ذلك يعني القاعدة التي تنطلق منها هذه المذاهب الهدامة ،وان اختلفت في الأسماء والمسميات فهي في الحقيقة مؤسسات سرية يهودية أريد بها هدم الاسلام وتفتيت الامة الاسلامية وبهذه الشعارات والدعوات والمذاهب الهدامة تغلغل سلطان اليهود وأخذت سماته تبرز للعيان منذ مطلع القرن الثاني عشر الهجرى الموافق للقرن الثامن عشر الميلادى ٠ وساعد في انتشارها أكثر تطور الثورة الصناعية واتساعها وتطور وسائل المواصلات في العالم مما أتاح لهذه الجمعيات والمؤسسات امكانية الانتقال والانتشار بأعضائها من مكان لآخر لنشر مبادئهم وتعاليمهم التي تتعلق بأهدافهم وأمانيهم وأطماعهم والعمل على توجيه هذه الجمعيات والمؤسسات التي تسيطر عليها لتحقيق الهدف الذى تعبر عنه الخطة الكبرى للجمعيات والمؤسسات السرية العالمية المنتشرة في جميع بلدان العالم والتي تقوم بكل عمل ماسوني في خدمة الأطماع اليهودية ،فالأفكار المستقلة التي تعارض الأفكار الماسونية ،كانت تتعرض للنقد اللاذع والعداء من قبل

الماسونيين . ويمكن التصفية الجسدية كما هي عادتهم ، لمن يقف في طريق مخططاتهم وأهدافهم العدوانية .

ولقد أدت حياة الركود والتراجع التي كانت تعيشها الدولة الى تغيير موقفها من الهجوم الى موقف الدفاع عن النفس . ولم تقف الامور عند هذا الحد بل بدأت الدولة تفقد في كل حرب مع اوربا او روسيا ولاياتها الواحدة تلو الأخرى ، لذلك بدأت الدولة في محاولات الاصلاح التي شملت النواحي العسكرية والسياسية والثقافية وحتى النفسية . في الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية تسيطر على الطرق العالمية الكبرى، ولكن عندما آثر السلاطين سياسة العزلة والانكفاء خلف شهواتهم اتسعت المشكلة فانتهزت الانكشارية يساندهم في ذلك العلماء هذه الفرصة وقامت بقتل كل فكرة اصلاحية جديدة حتى ولو لم تتعارض مع الشريعة الاسلامية ،مما زاد في طمع الغرب ؛ وفكر في تقسيم ممتلكات الدولة أكثر من مرة ولكن خوفهم من الخلاف بينهم على تقسيم الدولة واشتعال الحرب فيما بينهم لهذا أخذوا يؤجلون هذا الأمر ويرسمون الخطط لنشر الفوضى والاضطرابات داخل ولايات الدولة ومدنها الكبرى .

وحين انتقلنا الى الفصل الرابع بينا فيه الاضطرابات ودعوات الاصلاح في الدولة حتى اتجهت الى الاصلاح العسكرى اولا وقد واجه تحقيق ذلك سلسلة طويلة من العراقيل نتيجة للضعف الذى أصاب السلاطين والعلماء والانكشارية والتدهور الشامل في سياسة الدولة الداخلية والخارجية والتهاون في ادارة الدولة حتى بدأ سلاطين آل عثمان يتطلعون الى معرفة أسباب ضعف دولتهم وايجاد الحلول لذلك الضعف ،فقام السلطان سليم الثالث (١٢٠٤-١٢٢٢/ ١٧٨٩-١٨٠٧م) وبدأ الاصلاح في الدولة .

ولكن الانكشاريين لم يمهلوه ،فقدعارضوه ،وكان ضحية هذا الاصلاح بعد أن وضعوا مكانه السلطان مصطفى الرابع الذى كان يميل لهذه الفئة ولكن القائد مصطفى علمدار في روسجك الذى كان يؤيد الاصلاح ومن مؤيدى السلطان سليم الثالث استطاع أن يقضي على السلطان مصطفى الرابع بجيشه وأن يولى

محمود الثاني عرش الدولة العثمانية ، هذه الاحداث تعكس بجلاء ضعف الدولة وانهيارها وسوء اداراتها مما مهد الطريق لعوامل الغزو الفكري ان يتسرب داخل البلاد . وعندما تسلم السلطان محمود الثاني السلطنة بعد ثورة دموية ادرك بعدها انه لاسبيل الى الاصلاح الا بالتخلص من الانكشارية . ولكن كيف يتم ذلك ؟ ففكر وراح يخطط للوصول الى كيفية يتخلص بها من هذه الفئة الباغية والخارجة عن طاعة ولي الأمر. وخاصة أنه عقب حرب اليونان اتضح لديه عدم جدوى الجنود الانكشارية ،وأعجبه تنظيم الجيش المصري على الطريقة الحديثة وانتصاراتهم الباهرة التي حققها ابراهيم بن محمد علي في المورة كما كانت محل اعجاب أوربا نفسها لذا زاد من اصراره على القضاء على الانكشارية ،ولكنه في هذه المرة قبل البدء استحصل على فتوى شرعية تنص على وجوب التخلص من هذه القوة . ويظهر لنا من هذه الفتوى أنه استطاع اقناع العلماء وجعلهم الى جانبه بعد أن شرح لهم مشاكل الانكشارية وأنها أصبحت من أسباب ضعف الدولة العثمانية ، بعد أن كانت قبل ذلك احدى عوامل بناء الدولة وقوتها . فأعلن ذلك للملأ وسعى الى ايجاد انقساما بين صفوف الانكشارية فأحدث هذا النبأ حول الغاء تشكيلات الانكشارية صدى في جميع أنحاء العالم كما خصصت الصحف الأوربية عناوين كبيرة لهذا الحدث ،وسمى الأتراك العثمانيون هذا الحدث باسم "الواقعة الخيرية ".

لهذا اعتبر المؤرخون أن السلطان سليم الثالث رائد حركة الاصلاح ولكنه مات وهي في مهدها ، أما السلطان محمود الثاني فيعتبر بهذا العمل قد وضع حجر الأساس للاصلاح العسكري في الدولة . ولذلك شرع في تكوين جيش جديد على الطراز الأوربي واستدعى لتدريبه ضباطا ومهندسين فرنسيين وألمان ويعني ذلك العمل أن الاستغراب قد زاد في عهد السلطان وتوسع نحو الغرب بعد مذبحة الانكشارية .

ومن استعراضنا للاحداث التي كانت تمر بها حركة الاصلاح نرى أن القوة العسكرية كانت أولى عناصر الاصلاح التي اهتمت بها الدولة ،ومن خلال ذلك

دخل الاستغراب الى أنظمة الدولة العسكرية وذلك عن طريق المدربين والفنيين الذين تم استقدامهم من أوربا ،وكان هدف الدولة من ذلك بناء جيش قوى تستطيع الدفاع به عن نفسها ،ومن ثم تسترج مافقدته من ممتلكات .

ومن أجل ذلك سعى السلطان محمود الثاني الى زيادة عدد الطلاب المتبعثين الى المعاهد والمعسكرات الأوربية للدراسة والتدريب هناك حتى بلغ عددهم الآلاف ،وقد تأثر هؤلاء المبتعثون من خلال دراستهم بما كان يموج في أوربا من أفكار ثورية ،مما أدى الى ظهور طائفة جديدة من أبناء المسلمين في الدولة العثمانية لم يستطع المجتمع العثماني تقبلهم لتأثرهم بالافكار الهدامة ،وقد أطلق عليهم "الشبيبة العثمانية " تشكل منهم عناصر استوطنوا بعض المدن الأوربية ليقوموا بدور المعارضة بأفكارهم المخالفة للشريعة الاسلامية .

وهنا تجدر الاشارة أنه عندما توفى السلطان محمود الثاني سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م والدولة العثمانية على مشارف السقوط عقب الأزمة مع محمد علي ،وقد توفى قبل أن يعرف بهزيمة جيشه من قبل قوات الباشا بحوالي ثمانية أيام تقريبا ولكن خوف أوربا من محمد علي على مصالحها لانهم يعرفون قوته في حرب المورة ، لذلك تكالبت الدول الاوربية وخاصة الانجليز وعلى رأسهم بالمرستون خوفا من دخول محمد علي اسطنبول ، الذى كان يعرف اطماع محمد علي وأحلامه في اقامة دولة عربية من مصر الى الخليج العربي ،وهناك سبب آخر أيضا وهو تحالفه مع فرنسا ،مما يعني بالنسبة للانجليز ضياع مصالحهم في الهند.

وعقب وفاة السلطان محمود الثاني تولى من بعده السلطان عبدالمجيد سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م فقام بعدة تنظيمات مما يعتبر خروجا عن الأصول الأولى التى سارت عليها الدولة خلال عصرها الاول . وأهم ذلك استبعاد العمل بالشريعة الاسلامية حيث بدأت الدولة في طور غريب تتبع فيه التنظيمات الغربية في الحياة والتقنين وفي قيام المؤسسات على أنماط غربية . ويبدو لنا أن صغر سن السلطان عبدالمجيد جعله يخضع لتأثير وزيره رشيد باشا ، الذى

قضى معظم حياته في الغرب بين باريس ولندن ،والذى وجد في الغرب مثله الأعلى وفي الماسونية فلسفته المثلى لذلك استطاع جر الدولة الى هذا المنزلق الخطير طول فترة حكم السلطان عبد المجيد.

مع العلم أن السلطان عبد المجيد عقب توليه للسلطة اراد تسوية الأزمة مع محمد علي وديا دون تدخل الدول ، وقد وافق محمد على ،الا أن روسيا وانجلترا والنمسا وغيرها من الدول لم تترك هذه المسألة دون حلها تحت نظرهم لذلك تدخلت هذه الدول اجباريا للتسوية بين محمد علي والسلطان عبد المجيد فقررت بالاجماع دون فرنسا الزام محمد على بمعاهدة لندن سنة ١٢٥٥هـ/١٨٤٠م ، والتي كان من أهم شروطها :

١- يمنح لمحمد علي مصر وراثية وولاية عكا طوال حياته .
٢- ترسل الدولة أساطيلها للدفاع عن اسطنبول ان هددها محمد علي .
٣- اذا رفض محمد علي هذه الشروط في ظرف عشرة أيام تسحب منه ولاية عكا ويبقى له مصر فقط ، واذا رفض ذلك في مدة عشرة أيام أخرى ينظر السلطان في الأمر من جديد مع استشارة الحلفاء.

وقد كلفت الدول الاوربية الانجليز بتنفيذ هذه المهمة .

وعندما علم محمد علي بالاتفاقية رفضها واستدعى قواته من شبه الجزيرة العربية لمواجهة هذا الحلف ،ولكن المعركة بينه وبين الانجليز انتهت على اعطائه فقط وراثة مصر. لذلك أصدر السلطان عبد المجيد مرسوما سلطانيا ينظم امتياز حكم القطر المصرى وينظم وراثة محمد على بمصادقة الدول الأوربية فتوجه محمد على الى اسطنبول لعرض طاعته وتقديم خدماته للسلطان .

وبهذا المرسوم أسدل الستار على أحداث محمد علي ،وعاد الى طاعة السلطان كما كان سابقا لاحول له ولا قوة ، مرغما .

وهنا السؤال الذى يفرض نفسه ماذا كسب محمد على من هذه الحرب ضد السلطان محمود الثاني؟ حتى أرهق الدولة العثمانية بشان مطامعه ؟ وماذا فعلت له فرنسا؟ التى دفعته لحرب الشام . وها نحن نراها تتخلى عنه في

أول أزمة يمر بها ،ولم تعمل على مساندته كما وعدته ،وكما هي عادتها . فقد تحالف فرانسوا ملك فرنسا من قبل مع السلطان سليمان الاول ضد النمسا وعند التنفيذ أخلف بوعده . ومن خلال هذا البحث يمكن أن نقول انه لايمكن أن يتحالف نصراني مع مسلم ضد نصراني على دينه ومذهبه مهما ضحى المسلم ونفذ اوامر حليفه ولو كان على حساب دينه كما فعل محمد على ،نرى هذا الحليف يتخلى عنه ، اذا كان هذا العمل ضد مصالحه ومصالح بني جلدته كما فعلت فرنسا مع محمد على .

أما السلطان فقد أخذ في مواصلة تنظيماته عقب أزمة محمد على فأصدر اول مرسوم من مراسيم التنظيمات خط كلخانة سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م مستهلا حكمه وعقب هذا الخط اصدر الخط الهمايوني عندما افتعلت الروس الإسباب لحربها مع الدولة العثمانية سنة ١٢٧٠ - ١٢٧٢هـ/١٨٥٣-١٨٥٥م ،من أجل كسب أراضي جديدة وايقاف حركة الاصلاحات التي بدأت تخشى منها روسيا ،والتأكيد على قضية الامتيازات التي حصل عليها قساوسة الكاثوليك بموجب الامتيازات التي منحت لفرنسا في عصر السلطان سليمان الاول (القانوني) هذه الحقوق التي خولت لهم امتلاك الكنائس في فلسطين ،وكان الروس يسعون جاهدين لبسط نفوذهم على تلك الكنائس كما هو معروف وسلب فرنسا تلك الامتيازات واعطائها للارثوذكس الموالين لهم لتتولى الزعامة بسبب حمايتها لهذا المذهب ،ولأجل نشر نفوذهم في الدولة العثمانية عن طريق تحريك رعاياهم لهذا المذهب لضرب الدولة بهم . ونتيجة لانشغال فرنسا في حروبها مع نابليون فقد سيطر الروس على مركز النفوذ الذي كان لفرنسا ،وعندما حاول نابليون اعادة هذا النفوذ اختلف مع روسيا ولفض هذا الأمر تحاكموا الى الدولة صاحبة الأمر، فقررت الأووية النفوذ للكاثوليك ، فعارض الروس في هذا القرار ،وهددت الدولة العثمانية بالحرب لو صممت على هذا القرار فكانت الحرب الروسية العثمانية التي انتهت بتوقيع معاهدة باريس سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م .

ونتيجة لهذه المعاهدة التي أعقبت الحرب بين الدولتين فقد أوقعت الدول الاوربية الدولة العثمانية في المنزلق الخطير واجبار الدولة الى المزيد من التنظيمات واصدرت الخط الهمايوني سنة ٧٣ ١٢هـ/١٨٥٦م عقب حرب القرم.

جاء هذان الخطان خط كلخانة والخط الهمايوني نتيجة لتدخل الدول الأوربية مما ادى الى انحراف مسيرة الدولة العثمانية عن الطريق الصحيح والخروج عن جادة الشريعة الاسلامية من أجل ارضاء الدول الأوربية بحجة تحسين أحوال رعاياها في الدولة العثمانية.

والحقيقة أن معاهدة باريس سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م كان من بين بنودها ما مهد لتمزيق الدولة العثمانية حيث أدخلتها هذه المعاهدة تحت كفالة الدول الأوربية ،والتدخل في شئونها بقصد حماية رعاياها مستغلين في ذلك الامتيازات الممنوحة لهذه الأقليات غير المسلمة داخل الدولة العثمانية التي تثيرها روسيا وغيرها من الدول الأخرى ، وأهم بنود هذه المعاهدة هو البند التاسع الذى يعد المسيحيين بحرية ليس لها حدود ولاضوابط والغريب أن ممثلي روسيا والنمسا هما أول من تنبه الى خطورة هذا البند ،أكثر من مندوبي الدولة العثمانية نفسها ، لانهما خشيا سريان هذه الحرية الفوضوية الى بلاديهما. وهذا البند أدخل الدولة أيضا تحت كفالة الدول الأوربية ويمكن للقارئ أن يتساءل ; كيف يكون ذلك ؟ فنقول : ان تعدد القوميات داخل الدولة تساندها أوربا ،معناها تفتيت الدولة العثمانية من الداخل مستغلين الأقليات غير المسلمة النصرانية واليهودية . وهذه من السياسات الخطيرة التي فرضتها معاهدة باريس ، دون أن تتنبه لها الدولة العثمانية ،ولكن الذى حصل بعد هذه المعاهدة أن الدولة العثمانية أو المسألة الشرقية أصبحت في حالة الدفاع عن النفس.

ونتيجة لذلك تم انشاء المحاكم المختلطة والمحاكم التجارية ،وكانت هذه التنظيمات التي أدخلت في نظام أوبنية الدولة هي بداية انهيار التشريع الاسلامي فظهرت المدارس والمعاهد والارساليات التنصيرية علنا

في الدولة العثمانية .

وكان هذان الخطان أيضا ارهاصات ومقدمات لمحاولة تطبيق الدستور في عهد السلطان عبدالعزيز من قبل مدحت باشا وزملاؤه من الاشرار ، الذين رأوا أن الدولة لايخرجها من ازمتها هذه الا بتطبيق الدساتير الوضعية الأوربية ، ونسوا أو غفلوا أن تطبيق الشريعة الاسلامية هو العلاج الناجح لاصلاح الدولة اذا أرادوا اصلاحا . ولذلك حاول السلطان عبدالعزيز رفض ذلك وصرح بأن هذه الامور لاتصلح أن تطبق على المجتمع الاسلامي ، فأصدر مجلة الاحكام العدلية المعروفة ،فكان ذلك ردا على مدحت باشا وزملائه الذين لم يرق لهم الرجوع الى تطبيق النظم الاسلامية ،لذلك دبروا المكيدة لخلعه ثم قتله ، بتخطيط وتحريض من الانجليز الذين ساندوا هذه الفئة لاحلال الدستور محل الشريعة الاسلامية ،فكان هذا السلطان ضحية مدحت باشا وزملاؤه لعدمتطبيق المشروطية . ومما يؤسف له أن السلطان عبد الحميد الثاني قام بتطبيق المشروطية ربما لارضاء مدحت باشا وزملائه حيث أعلن المشروطية .

ومن خلال هذه التطورات عين السلطان مدحت باشا صدرا أعظم للدولة ولكنه لم يلبث الا شهورا حتى عزله السلطان عبدالحميد الثاني لعدم كفاءته لانه أقحم وأربك الدولة العثمانية في حربها مع الروس سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٨م ، هذه الحرب التي تبلورت فيها مرتكزات الغزو الفكري وأطماع الدول الأوربية وخاصة روسيا ، التي اتضح مسلكها بأنها لايهمها اعلان الدستور أو تعطيله بقدرمايهمها الحصول على أكبر مساحة ممكنة من أراضي الدولة المجاورة لها . ويبدو واضحا أن اتجاه روسيا لهذا الحرب هو عدمتحقيق امالها ومقاصدها التي لمتتحقق في حرب القرم الماضية ،لهذا نراها تسعى للتحرش بالدولة العثمانية لتقودها للحرب معها ولو لأتفه الأسباب .

ولقد انتهت هذه الحرب بهزيمة الدولة العثمانية ووصول الروس الى مشارف العاصمة اسطنبول ،ولولا تدخل الدول الأوربية لدخلت روسيا اسطنبول

ولكنها أوقفت الحرب . وفي نفس الوقت أرغمت الدولة العثمانية بتوقيع معاهدة سان ستيفانو سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م بالشروط التي املتها روسيا منفردة دون تدخل الدول الأوربية الأخرى . الا أن الدول الاوربية ثارت ثائرتها ، لانها لاتقر سياسة روسيا التوسعية ،فأجبرت روسيا على الغاء معاهدة سان ستيفانو في معاهدة برلين سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م . وتعديل شروطها حتى تتفق مع مصالحها ،وانتهت هذه المعاهدة بتفتيت وتقسيم الدولة بين الدول الأوربية الاستعمارية ،فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا.

ولما رأى السلطان عبد الحميد الثاني عدم جدوى اعلان الدستور،وانه عديم الفائدة لأن تطبيقه لم يمنع من مطامع الدول الاوربية في شئون الدولة الداخلية والخارجية ، وأن المسألة لاكما يدعون في ايجاد نظام دستوري للشعب بل المسألة تعدت ذلك وأصبحت مسألة اطماع .لهذه الأسباب قام السلطان عبد الحميد الثاني بالغاء الدستور لعدم اقتناعه من قبل بتطبيق أنظمة غير اسلامية على بلد اسلامي ، وأعلن الجامعة الاسلامية وكان يهدف منها توحيد العالم الاسلامي تحت مظلة الشريعة الاسلامية لتوحيد صفوفه لصد هذه الهجمة الشرسة الاستعمارية التي كان همها ابتلاع العالم الاسلامي ومحو الشريعة الاسلامية ،منذ معاهدة بباريس سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م كما أسلفنا .

وبعد الغاء الدستور أو المشروطية تشتت الدستوريون الى أمصار الممالك الأوربية ،فأسسوا جمعية الاتحاد والترقي في باريس ثم في سلانيك وفي آخر المطاف توحدت هاتان الجمعيتان للعمل على اعادة الدستور متحدين . فقد كانت الانشطة الماسونية آنذاك تقوم ببعض التحركات السرية ،حيث بدأو أنشطتهم في كل الجبهات لتقويض أركان الدولة العثمانية ومن تلك النشاطات ماقامت به الصهيونية بقيادة هرتزل الذى حاول استعطاف واغراء السلطان عبد الحميد لايجاد وطن قومي لليهود في فلسطين ولموقف السلطان عبد الحميد الثاني المشرف والنبيل ازاء نشاط الصهيونية

أصدر أوامره بايقاف هجرة اليهود الى فلسطين • لذلك ناصب اليهود منذ تلك اللحظة العداء للسلطان عبد الحميد . فقرروا الوصول الى أهدافهم عن طريق خلعه بالوسائل السياسية •

لذلك نرى اليهود يستخدمون الماسونية •والماسونية ماهي الا واجهة من واجهات الصهيونية وجدت لخدمتها وخدمة اليهودية ، وهذه المسميات وجوه لعملة واحدة ، فالصهيونية الاسم الجديد لليهودية والماسونية ايضا اسما جديدا للصهيونية ،فقد تتغير الاسماء لكن الهدف لايزال واحدا هو خدمة اليهود في كل مكان ، ولذلك اندس الماسون في صفوف الدستوريين لتوحيد مساعيهم وتنظيم حركتهم في سلانيك حيث المركز الرئيسي للماسونية التي يترأسها قراصو اليهودى •وقد عقدوا هناك عدة مؤتمرات تحت رئاسة قراصو رفيق درب هرتزل والذى فوضه اليهود للاطاحة بالسلطان عبد الحميد• فاتفق الدستوريون والماسونيون في هدف واحد وهو خلع السلطان عبد الحميد واعادة الدستور فقد تم لهم ذلك بالتعاون مع الماسونية والجيش الثالث في سلانيك باعادة المشروطية الثانية سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م التي قبلها وأعلنها السلطان على مضض ، بقصد احباط السياسة الانجليزية التي تساند حزب الاتحاد والترقي منذ نشأته لاحلال الدستور الوضعي بدلا من الشريعة الاسلامية ، لأن بريطانيا احدى الدول المعادية للاسلام ،فالغزو الفكرى يعني محاربة الشريعة الاسلامية ومحاولة تنصير أهلها كما هو معروف••

وبهذا نقول نجح الغزو الفكرى في تهيئة أنصارا له من أبناء الدولة العثمانية المسلمة ،سواء كانوا يعلمون أو يجهلون ذلك الغزو ، حتى انتهت الجولة بخلع السلطان سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م ونفيه الى سلانيك بحجة اشتراكه مع الحزب الاسلامي ، الذى رأى في المشروطية خروجا عن الشريعة الاسلامية ،فثار لمقاومتها وخصوصا عندما اجتمع البرلمان الجديد،وبجانبهم حزب الاحرار او الاشرار الذى يدعو الى اللامركزية ، ويترأسه صباح الدين ابن محمود باشا والذى كان أكثر أعضائه من المسيحيين •

وبتأييد من الانجليز دخل اليهود الى هذه الجمعيات واندسوا داخلها فزادوها اشتعالا واتهموا السلطان بتدبيرها للتمهيد لخلعه كماسبق حتى يخلو لهم الجو فيمابعد ويتمكنوا من تطبيق النظم والدساتير وتحقيق أهدافهم ومطامعه في فلسطين وجعل الدولة تسير على خطى العلمانية .

وهكذا يمكن أن نجيب على الشق الثاني من السؤال الذى فرضناه وهو أن الدولة العثمانية كانت غازية فكريا في عصرها الاول ذلك العصر الذى طبقت فيه الدولة النظم الاسلامية تطبيقا شاملا ،ولكنها كانت في عصرها الثاني غير ذلك لانها تهاونت في تطبيق النظم كما رأيناه وهذه نتيجة حتمية لمن سار على هذا الطريق ،فكانت حقلا للغزو الفكري الأوربي حتى انتهت الدولة الى العلمانية .

وقد أدرك الكثير من العلماء صعوبة تطبيق حكم نيابي أو حكومة مقيدة السلطة كماهو واضح عبر عصور التاريخ الاسلامية . وهذه الصعوبة تتمثل في استحالة قيام نظام دستورى وضعى في دار الاسلام . وان أخذ نظام سياسي جاهز من حضارة غير اسلامية وفرضه على مجتمع اسلامي امرخطير ولايمكن قبوله .

والحقيقة المرة أنه عندما شكل الحكم البرلماني في اسطنبول كانت تديره وتسنده أقلية وهي حزب الاتحاد والترقي الذى لم يتنبه الى انغماسه في اللعبة اليهودية التي استخدمت الماسونية لتعمل في الخفاء من خلال تدخلها في الاحزاب والبرامج الدبلوماسية لفرض الدستور الوضعى . وكان الشعب المسلم يراقب بخيبة امل تلك الاحداث والتي كان من نتائجها قيام نظام غريب لاصلة له بماضي أو حاضر الاسلام والدولة العثمانية الاسلامية .لهذا كان الغرب صانعا وموردا لهذا النظام الذى نفذه الشباب المغرور من الاشرار الذين لايعرفون انهم يتم تحريكهم بواسطة اليهودية العالمية .

ونعود للقول ان اللجنة التى خلعت السلطان عبد الحميد الثاني كان قرا صو اليهودى الماسوني هو رأس الوفد الذى أبلغ السلطان بخلعه رفيق درب هرتزل في طلب وطن قومي لليهود في فلسطين ،وكأن لسان حاله يقول هانحن وصلنا الى ماتريد ، وهنا نحن ايضا خالعوك ،ولهذا غضب السلطان لما سمع قرار الخلع من اسعد طوبطاني عندما قال ان الأمة خلعتك ،وقال تقصد أن الأمة هي التي خلعتني ، لابأس ولكن لماذا جئتم بهذا اليهودى الى مقام الخلافة . يعني ذلك ان اختيارهذا اليهودى ضمن الوفد اهانة للسلطان كماذكرنا .

وبهذا الخلع انتهت الدولة العثمانية بل واصبحت العوبة في يد الاتحاديين .

ولقد برهنت الحوادث ان الاتحاديين لم يفعلوا شيئا سوى اضافة مصائب جديدة على مصائب الدولة . فقد كان مطلعهم شوما على الاسلام والمسلمين وعلى الدولة اذ أنهم منذ ثورتهم الاولى في مقدونيا سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م فقد فقدت الدولة نهائيا البوسنة والهرسك وبلغاريا .

أما البوسنة والهرسك فقدوضعهما مؤتمربرلين سنة ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م تحت الادارة النمسوية ،على أن تبقى هاتان المقاطعتان تابعتين اسما للسلطان العثماني . ولما نشبت ثورة الاتحاديين ضد الدولة رأت النمسا أن الفرصة سانحة لانشغال الدولة عنها ،فقامت بضم المقاطعتين بصورة نهائية سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م لان النمسا كانت ترسم بسياستها لضمها ضمن أطماعها مع الدول الأوربية .

أما بلغاريا فقد جزأها مؤتمر برلين هي الأخرى الى ثلاثة أجزاء بلغاريا الاصلية التي تمتعت بالاستقلال الداخلي والروملي الشرقية التي أعيدت الى السلطان على أن يحكمها حاكم نصراني وتتمتع بادارة خاصة ومقدونيا التي ألحقت بالدولة العثمانية في مؤتمر برلين بدون قيد ولاشرط .

ومنذ ذلك الوقت وبلغاريا تسعى لتوحيد المقاطعتين الروملي الشرقية ومقدونيا كما كانت في معاهدة سان ستيفانو ،وقد نجحت في عام ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٦م بضم الروملي الشرقية ولكنهم لازالوا تابعين للسلطان ،فأخذوا يتطلعون الى الاستقلال ، وقد أتتهم هذه الفرصة اثر ثورة الاتحاديين حيث أعلن مليكهم (فرديناند) استقلالهم ودعا نفسه باسم (قيصر البلغاريين) وكان ذلك في سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م أيضا٠

وبتفاقم الغزو الفكرى سقطت الدولة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الاولى وتحقق وعد بلفور بايجاد وطن قومي لليهود في فلسطين سنة ١٣٣٦هـ/١٩١٧م وهذا ما كان يسعون اليه ٠ وبمشيئة الله سينتزعه المسلمون قريبا من العدو الغاشم المحتل على يد أبنائه المجاهدين الفلسطينيين واخوانهم من المسلمين ٠

لذلك أخذت مظاهر الغزو الفكرى تتفاقم حتى سقطت الدولة بسببه بعد أن أعيت اوربا الحلول العسكرية بسبب القوة والتماسك اللذين اكسبهما الاسلام للدولة العثمانية ٠

أما الفصل الخامس والأخير فقد استعرضنا فيه دعوة التوحيد والاصلاح ومقاومتها لصد هذا الغزو عن شبه الجزيرة العربية والتي قامت وانطلقت من قلب نجد والتي دعا اليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ،وهذه الدعوة تدعو الناس الى العودة الى الدين الصحيح والى العقيدة الصافية والتي أطلقها الشيخ بعد رحلاته العلمية من حريملاء وبعد ان ضيق أهلها عليه غادرها الى العيينة ٠ وفي العيينة اقام الحدود ،وهدم القبور بمساندة أميرها عثمان بن معمر ٠ فشاع ذكره بعد رجم الزانية حتى وصلت الأنباء لسليمان بن محمد حاكم الاحساء انذاك فهدد امير العيينة بحبس ريع مزارعه عنه والتي كانت في الاحساء اذا لم يقتل هذا الشيخ أو يخرجه ٠ فاستقر الرأى على خروج الشيخ لخوف عثمان بن معمر من تهديدات حاكم الاحساء ،

فخرج الشيخ وقصد الدرعية ،حيث تم الاتفاق المشهور سنة ١١٥٧هـ على نصرة هذا الدين مع الامام محمد بن سعود ،وباتفاقهما نشأت الدولة السعودية الاولى ،وقامت على اساس الكتاب والسنة المطهرة والدعوة للتوحيد وانطلقت هذه الدعوة حتى وحدت امارات نجد تحت لواء الدرعية ،وكان ينظر اليها الولاة العثمانيون في اول الامر على أنها حركة داخلية ،وبعد أن ضمت الاحساء أهاج هذا العمل الدولة العثمانية وترتب على ذلك نمو الدولة السعودية الأولى ، فأصبحت دولة خليجية تطل على الخليج العربي ،ولكن بعد ضمها للحجاز هاجت الدولة العثمانية ورأت ان مركزها في اسطنبول قد اهتز مماجعلها تكلف ولاتها في العراق والشام لصد توسعها لكن تلك الجبهتين لم تستطيعا فعل شيء أمام الدولة السعودية التي تدعو الى الاصلاح والرجوع الى ماكان عليه السلف الصالح وتحكيم كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

لهذا اتجهت الدولة العثمانية الى واليها على مصر محمدعلي ،وأسندت اليه حرب الدولة السعودية الاولى ، فأخذ محمد علي يعد العدة ويستعد استعدادا عظيما ، فأرسل ابنه طوسون بجيش جرار للقضاء على الزحف السعودى ولكن هذه الحملة باءت بالفشل امام القوات السعودية ، وأرسل له والده حملة اخرى مددا للاولى فاستطاعت القوات السعودية من احباط قوات طوسون بعد عدة معارك جنح طوسون بعدها للصلح مع الامام عبدالله بن سعود. ولكن هذا الصلح نقض لاسباب دينية واخرى سياسية .وكانت هذه الحرب التي وجهت للدولة السعودية الدولة الاسلامية كانت في الواقع تنفيذا لاوامر السلطان محمود الثاني آنذاك ، الذى كان يشك في نوايا محمد علي ،وولائه للدولة لهذ كان هدف السلطان محمود بتلك الحرب ضرب القوتين السعودية وقوات محمد علي بعضهما ببعض لينهك بعضها بعضا وكان كما قيل انه يريد انتصار الدولة السعودية لبعدها عن الاراضي التركية ،ولكن العكس حدث . وكما توقع السلطان محمود حدث ماكان في باله . فقد طالب محمدعلي السلطان بعد حرب المورة مباشرة باعطائه الشام وحدث ماحدث في حرب الشام الاولى

والثانية التي انتهت بوفاة محمود الثاني وحصر محمدعلى وراثته على مصر فقط وكان المستفيد من ذلك دول أوربا التي سيطرت بنفوذها على الدولة العثمانية وتدخلت بشأن هذه الحروب في شئونها الداخلية والخارجية ٠

أما الاسباب الدينية فهي انتشار الدعوة التي أخذت تنتشر بسرعة في أجزاء اخرى من العالم الاسلامي وقدتأثربها بعض علماء الأقطار ونقلوها الى اقطارهم ٠ وقد ايقظ هذا الشعور العالم الاسلامي لهذا خاف السلطان محمود من تغلب هذه الدولة ودعوتها على املاكه في آسيا وتاليب العالم الاسلامي ضد الدولة العثمانية خاصة وهناك منكان ينادى بان الخلافة لابد أن تكون للعرب ، ولهذا زادت ظنونه وتخوفه من تزعم الدولة لهذه الفكرة لتقويض دولته ٠ والا لماذا سير جيوشه ،والامام عبدالله قد ارسلخطابا تاريخيا اشار فيه الىطاعته ، ولكن اصرار العثمانيين على انهاء هذه الدولة أعمى بصائرهم عن الحق٠

ولهذا فقد سير محمد علىابنه ابراهيم للقضاء علىالدولة اثما وعدوانا فأخذ يهاجم المدن النجدية الواحدة تلو الاخرى حتى تم له حصار الدرعية الذى دام ستةشهور ،وقد ضرب أهلها أروع الامثلة في البسالة والبطولة حينما دافعوا عن الدرعية وكان على راسهم امامهم الامام عبدالله بن سعود الذى أبلىبلاءا حسنامع أهلها ، امام أسلحة فرنسية متطورة من مدافع وقنابل مع خبراء فرنسيين ومشورة فرنسية يبدو انهاتدفعه الى شبه الجزيرة العربية لتحقيق حلمه في اقامة دولة عربية من مصر الى الخليج العربي ٠

وبالرغم من هزيمة الدرعية عسكريا فانها قد ظلت قاعدة الدعوة السلفية فيالعصور الحديثة وسوف تظل الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وفي أثناء عرضنا للبحث رأينا قوة استمرار هذه الدعوة في أدوارالسعودية الثلاث لحرص آل سعود علىاستمرارها والحفاظ عليها٠

وقد استطاع الامام تركي بن عبدالله ان يعيد بناء الدولة السعودية الثانية ولكن في هذه المرة جعل عاصمتها الرياض حيث استمرت معها الدعوة السلفية التي اخذت تنتشر ايضا في عهد الامام تركي ثم من بعده ابنه الامير فيصل بن تركي حتى وصلت الى الخليج العربي ولكن كان هناك فاصلة فبعد موت الامام فيصل بن تركى فقد دب الخلاف بين الاسرة السعودية وقد استغل ابن الرشيد هذه الفرصة واستولى على الرياض ،ورحل الامام عبدالرحمن بن فيصل وابنه عبدالعزيز ،وظن الناس أن حكم آل سعود قد انتهى ولم يلبث الحق أن عاد الى أصحابه . فقد استعاد عبدالعزيز بن عبدالرحمن في سنة ١٣١٩ هـ الرياض من ابن الرشيد وقام بتوحيد شبه الجزيرة العربية باسم المملكة العربية السعودية وكون دولته الاسلامية الحديثة على دعائم الدعوة السلفية التي تدعو الى الرجوع الى الكتاب والسنة وآثار علماء السلف الصالح وكان منهجه واضحا منذ دخوله الى مكة المكرمة ،وقد صدت هذه الدعوة الغزو الفكرى عن شبه الجزيرة العربية لانتشار هذه الدعوة والأمن والامان والسلام في ربوع مملكته حيث اتبعه خلفاؤه من ابنائه الميامين سيرته العطرة متمسكين بهذه الدعوة المباركة التي تدعو الى :

(١) الكتاب والسنة واثار السلف الصالح وتطبيق احكام الشريعة الاسلامية .

(٢) محاربة البدع والخرافات . ومعاقبة الجناة وقطاع الطرق في اقامة الحدود .

(٣) تحديد موارد الدولة المالية وجعلها تسير حسب الاسس الشرعية (الزكاة) وخلافه ويطبق فيها النظم الاسلامية .

وهنا بدورنا نتساءل : ماذا كسب محمدعلى وماهي الفائدة التي جناها للسلطان محمود الثاني في حروبه داخل شبه الجزيرة العربية ضد الدولة السعودية الاولى ؟ وماهو المبرر في ذلك ، انه كان بامكان محمدعلى والسلطان التفاهم مع الامام عبدالله بن سعود ، وماهي الحاجة التي تدعو الى تحارب وتصارع جيوشا أخرى مسلمة وتهدر الطاقات الاسلامية . كان من الأجدر أن تتوحد هذه القوة ضد أعداء الاسلام والمسلمين بدلا من انهاك قواها مما أدى الى انفساح

المجال امام بريطانيا لزيادة اطماعها ونفوذها في ا منطقة الخليج العربي .وفي الوقت الذى كان فيه المسلمون يتصارعون فيمابينهم لأتفه الأسباب ، والاستعمار يحيط بهم من كل جانب ويتربص للانقضاض لابتلاع مايمكن ابتلاعه من الممالك الاسلامية فرنسا تدفع محمد علي والسلطان محمود تدفعه بريطانيا . وكان من الأصح أن يتعاون المسلمون ويصبحوا يدا واحدة لصد الغزو العسكرى الاستعماري والفكرى عن ديار الاسلام الذى يهدد المصالح الاسلامية في كل مكان لا للقضاء على الدول الاسلامية كمافعل محمد علي ، لانه ليس هناك مقنع يبرر به هذا الخطأ الجسيم وهوضرب الدعوة السلفية التي تساندها الدولة السعودية الأولى .

هذا الخطأ ترتب عليه أخطاء أخرى وهو انه عندما انقض محمدعلي على الدولة العثمانية نفسها ساعد بحروبه هذه في القضاء على الدولة وجعلها لقمة سائغة للاستعمار .

وفي النهاية ماذا فعلت معه حليفته فرنسا . لقد تخلت عنه في أحلك الامور ، ورضخ لاوامر اوربا وخاصة انجلترا التي تعرف مطامعه وتربطه بها صداقة ودية قامت هي الاخرى بسحب البساط من تحت قدميه في الوقت المناسب وقلبت له ظهر المجن وأرغمته كما اسلفنا بحصر وراثته على مصر فقط وسحب قواته من شبه الجزيرة العربية سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠ م وذهب الى السلطان عبدالمجيد يقدم له فروض الطاعة بعد ان كاد الاستيلاء على عاصمة بلاده وظل عبدالمجيد هو الآخر العوبة في يد أوربا وأرغموه على اصدار خط كلخانة لتحسين أحوال المسيحيين من رعاياه وبهذا الخط كما سبق الحديث عنه الانزلاق في التنظيمات التي اخرجت الدولة عن دينها وتقاليدها حتى سقطت في أحضان انصار الماسونية التي قادتها الى النهاية .

أما كان من الأولى أن يوحد محمد علي طاقاته القتالية والتكتيكية مع الدولة العثمانية للحرب في اليونان حينماطلب منه والى دول البلقان الثائرة على الدولة العثمانية لطلب الاستقلال تساعدها في ذلك الروس وخاصة ان محمد علي يملك قوةهائلة أرهبت اوربا ،ولكنه للأسف سخرها دون أن يعلم

في خدمة أوربا لانهاك الدولة العثمانية بدلا من الوقوف بهذه القوات الى جانب السلطان . ولوحصل ذلك أعتقد أنه كان سيغير من مجرى التاريخ لصالح الدولة العثمانية . في نفس الوقت نرى السلطان محمود يعد العدة لحرب محمدعلي لاخراجه من الشام ويوجه قواته الى ارض الاسلام بدلا من توجيهها الى أوربا كما كان يفعل أسلافه ولكنه محق لو أمعنا النظر قليلا لانه يريد ان يرد املاكه التي استولى عليها محمدعلى بالقوة في حرب الشام الأولى فمحمود الثاني هو الذى اثار حرب الشام الثانية والتي كادت أن تقضي على عاصمته بموته وهزيمة جيشه لولا لطف الله وتدخل الدول الأوربية .

كما كان موقف محمدعلى والسلطان محمود مع الدولة السعودية الأولى كان موقفا خاطئا كما أسلفنا ، أوقف الى حين تكملة مشوارها في صراعها في الخليج العربي مع القواسم السلفية ضد شركة الهند الشرقية الانجليزية وغيرها من الشركات الاخرى ،فلو اتحدت الدولة العثمانية مع الدولة السعودية والقواسم التابعين للدولة السعودية في ذلك الحين لكان أجدر للمسلمين ان يكونوا يدا واحدة ضد الاستعمار ،بدلا من ضياع جهودهم وهدر طاقاتهم دون جدوى ولافائدة تذكر بل أضعفوا بذلك قوتهم المالية والمعنوية حتى صاروا لقمة سائغة لاوربا كلها ،مع العلم ان الدولة السعودية عادت كما كانت مع الخسارة الفادحة للدولة العثمانية التي كان الاجدى بها ان توجه هذا الجيش الى اوربا والى الصليبية والماسونية ، وأن تطلب من السعوديين المساعدة ضد العدو المشترك ، ويبدو انها لن تتخلى عنها وسترسل لها المدد لجهادها ضد العدو . مع العلم ان نجد أوشبه الجزيرة العربية لم تشهد غزوا فكريا لان دعوة التوحيد والاصلاح صدت هذه التيارات المعادية بفضل من الله ثم بفضل حكمة أئمة آل سعود التي نشأت دولتهم على أسسها فانطلقوا بها حتى عمت أرجاء شبه الجزيرة والمناطق الاسلامية المجاورة ،ولازالت الدولة السعودية حصنا من الحصون المنيعة لصد أى تيار فكرى يقصد به هدم هذا الدين القويم بكل جهودها ومساعيها لتبقى القاعدة المتينة التي تنطلق منها الدعوة السلفية الى أنحاء العالم .

وفي ختام موضوعنا هذا نؤكد أن الدولة العثمانية كانت قوية بفضل تطبيق النظم الاسلامية تطبيقا كاملا في عصرها الأول .

ولكنها حين تساهلت في أمر هذا الدين في عصرها الثاني رأينا الغزو الفكرى يتغلغل كما لمسناه اثناء دراستنا لموضوع الدولة العثمانية والغزو الفكرى ، وهو المعول الذى هدم الدولة العثمانية وفتت ممتلكاتها الاسلامية أمام القوى النصرانية ، وهذا يعود لتنازل الدولة عن الخط القويم الذى قامت عليه وهو دستورها الشرعي المستمدة أحكامه من الشريعة الاسلامية بتحولها الى الدستور الوضعي الذى طبق فأصبح من اسباب انهيار وانزلاق الدولة عن مسارها الأول لتسقط في الحرب العالمية الاولى وهي مثخنة بجراحها لتفاقم الغزو الفكرى وانحدارها في هاوية العلمانية .

واذا كانت أوربا في يوم من الأيام قد تخلت عن الروح الصليبية والحل العسكرى الى الغزو الفكرى فان العالم الاسلامي في أزمانه المعاصرة ينبغي أن يركز على غزو فكرى اسلامي مضاد ، وفتح عقلي بكل الوسائل التي يتيحها التقدم الصناعي والتقني وأن تسير الرغبة والمطالبة بتطبيق الشريعة الاسلامية ، كحركة داخلية جنبا الى جنب مع الفتوحات الفكرية والغزوات العقلية كجهد خارجي وللاسلام كعقيدة .

...

الملاحق

فهرس الملاحـــــــــق

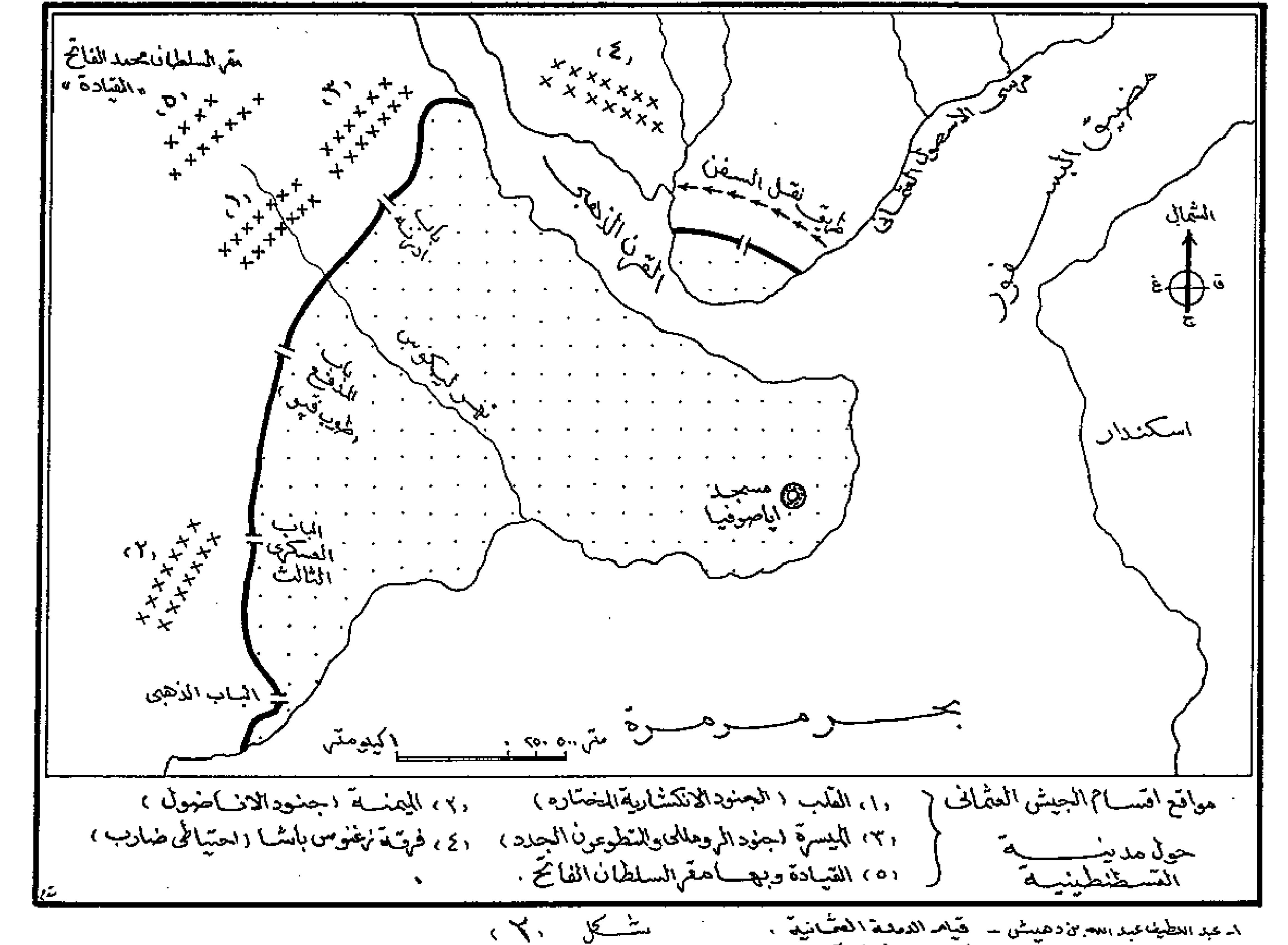
ملحق رقم (١) :

خريطة تبين: مراحل توسع الدولة العثمانية الى سنة ١٦٤٨م

١- احمد عبد الرحيم مصطفى - في اصول التاريخ العثماني . شكل (١) .

ملحق رقم (٢):

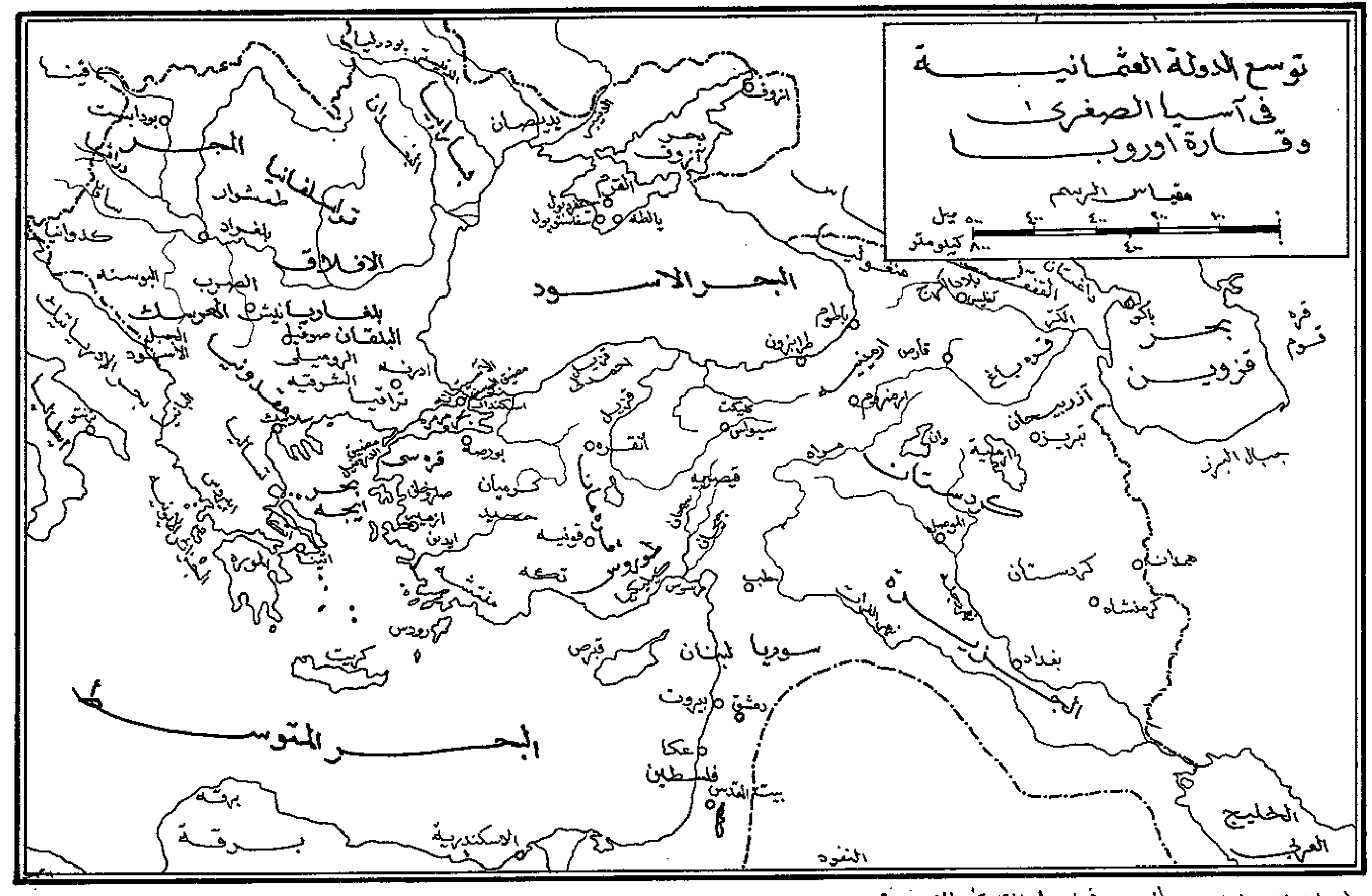
خريطة تبين: فتح القسطنطينية « اسطنبول »



شكل (٢)

١ـ عبد اللطيف عبد الله بن دهيش – قيام الدولة العثمانية.
٢ـ عبد السلام عبد العزيز فهمي – فتح القسطنطينية.
٣ـ Robert Maxwell – Pergamon world atlas Oxford 1968.

ملحق رقم (٣) :



١- احمد عبد الرحيم مصطفى - في اصول التاريخ الاسلامي .
٢- هاريف وآخرون - اطلس التاريخ الاسلامي .

ملحق رقم (٤) :



١- هاري وآخرون - اطلس التاريخ الاسلامي .

شكل (٤)

ملحق رقم (٥) :

توسع الدولة العثمانية
في شمال افريقيا

-.-.-. حدود الدولة .

مقياس الرسم

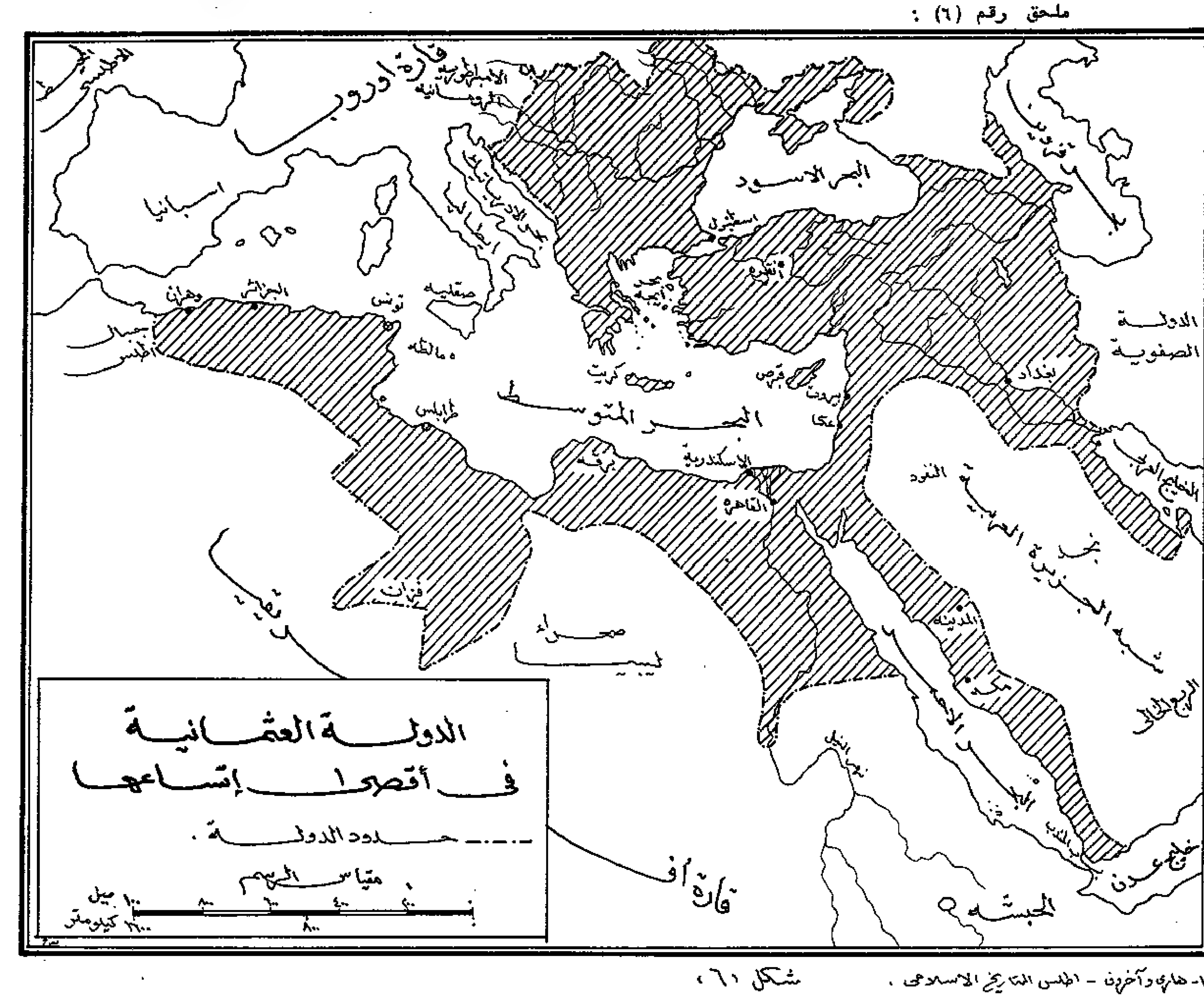
٥٠٠ ميل ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠

٨٠٠ كيلومتر

شكل (٥)

١- هاري وآخرون - اطلس التاريخ الاسلامي .

ملحق رقم (٦) :

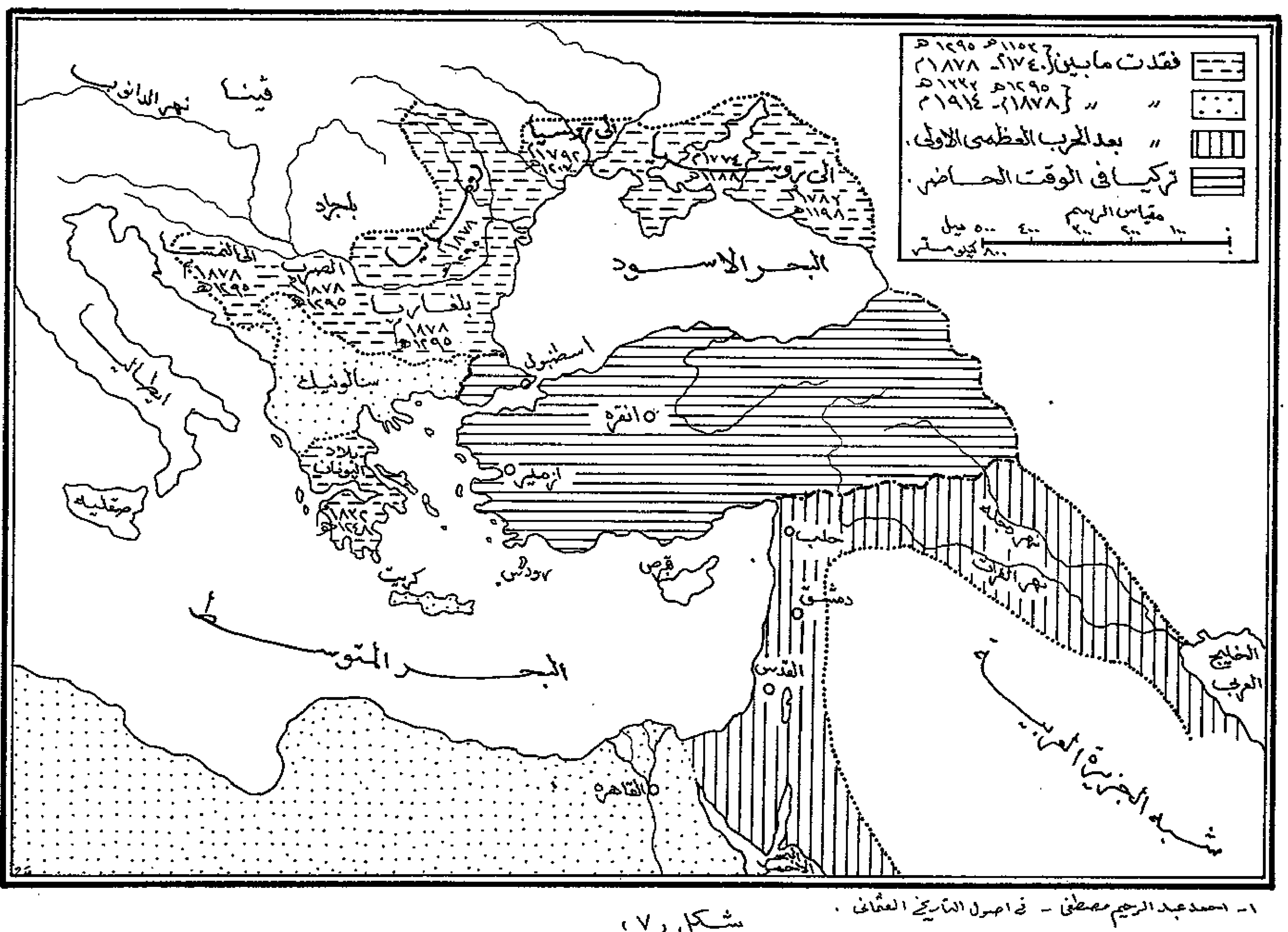


شكل (٦)

١- هاري وآخرون - أطلس التاريخ الإسلامي .

ملحق رقم (٧) :

خريطة تبيـن: ضعف الدولـة العثـمانيـة



١- احمد عبد الرحيم مصطفى - في اصول التاريخ العثماني .

شكل (٧)

ملحق رقـــم (٨)

ترجمة وصية (بطرس الاكبـــــــــــــر)

نقلا من : ابراهيم بك حليم : التحفة الحليميـــــــــــة في تاريخ الدولة العلية . (من ص ٢٣٩– ٣٤٣)

﴿ترجمة وصية بطرس الكبير﴾

من بطرس الاول الخ الى كل من يخلفنى على تخت الروسية التحية فان الله سبحانه وتعالى لم يزل منذ بداية الابد فى اعانتنا وأسدل فضله علينا بما حملنى على الاعتقاد بان الامة المسكوبية تتسلط (لا قدر الله) اذا شاء الله على الممالك الاورباوية والدليل على ذلك أن الامم الاورباوية قد هرم أكثرهم وأخذ البعض منهم

فى التلاشى فان أدركت الروسيا تمام قوتها لا شك أنها تتغلب على سائر الممالك لمالها من شوكة الشعوبية وعندى أن هجوم الامم الشمالية على أوربا من أحكام القدرة الالهية التى لابد من نفوذها كما وقع سابقا عند هجوم الامم المذكورة على مملكة الرومانيين فاحيتها بعد اضمحلالها وأنا وجدت روسيا جدولا صغيرا فتركتها نهرا كبيرا وأرجو أنه باعتناء من يخلفنى تصير بحرا عظيما يغطى بمياهه أوربا باسرها ولايتعرض لسيلانه عرمرم فحملنى هذا الاعتقاد على ان أقرر هنا الاصول التى لا بد من اتباعها نظرا الى ادراك هذا المقصد المعتبر وهى

﴿ أولا ﴾

على ملوك الروسيا ملازمة الحرب لتكون جيوشهم دائما على حال الرياضة والاستعداد فلايكفوا عن الحرب الا لاصلاح شأن المالية وجبر مانقص من العساكر وتربص فرصة الهجوم على الاعداء فالحرب والصلح يتناوبان حسبما تقتضيه الحاجة نظرا الى توسيع دائرة شوكتنا وفلاح البلاد

﴿ ثانيا ﴾

عليهم أن يجلبوا من سائر الاقطار الاوروباوية العارفين بالفنون الحربية مدة الحرب أما مدة الصلح فعليهم جلب من اشتهر من العلماء لتنتفع الروسيا بما يلائم الاخرى من دون خسارة مالها طبيعة

﴿ ثالثا ﴾

عليهم التداخل فى سائر أحوال الممالك الاوروباوية خصوصا المانيا لقربها الينا

﴿ رابعا ﴾

التداخل فى أحوال بلونيا وفى انتخاب ملوكها حتى لا تنتخب الا المحب للروسيا وادخال جيوشنا بها لحماية هؤلاء الملوك الى أن يتيسر التسلط على البلاد رأسا فان تعرضت الدول الاخرى تجب الاجابة الى مطالبهم الى أن نقدر على استرجاع ماسلبناه

﴿ خامسا ﴾

ناخذ من مملكة السويد مايمكن أخذه ونجعل بينهم وبين الدانيمرك عدوانا دائما

﴿ سادسا ﴾

لايتزوج أهل بيتنا الا بنات ملوك ألمانيا لتأكيد المحبة بين روسيا والمانيا وتكثير وسائل المواصلة بينهما

﴿ سابعا ﴾

يجب الاعتناء بمحالفة انكلترا لما لها من الحاجة الى أشجارنا لسفنها ولما نستفيدة منها نظرا الى اصلاح شأن أسطولنا فضلا عن فائدة تبديل مالنا من الخشب وغيره من النتائج بذهب انكلترا أوما ينشأ منه من كثرة المواصلة بين تجارنا وتجارها

﴿ ثامنا ﴾

نمتد بقدر الامكان من جهة الشمال وعلى شواطئ البالتيك كما يجب السعى بالامتداد من جهة المغرب وعلى شواطئ البحر الاسود

﴿ تاسعا ﴾

نقرب الى القسطنطينية والهنود بقدر الامكان فمن ملك القسطنطينية فقد ملك الدنيا فبناء على ذلك ينبغى ملازمة الحرب مع الترك ومملكة الفرس وجعل ترسخانه بشواطئ البالتيك والبحر الاسود وهذا من اللازم لنجاح ماقصدناه وينبغى أيضا تعجيل مملكة الفرس بالاضمحلال وتنشيط التجارة التى كانت بين الشام وجبل قاف فنتقدم الى الهند التى هى مخازن الدنيا وان تحصلنا على ذلك فلا حاجة لنا بذهب انكلترا

﴿عاشــرا﴾

يجب السعى فى تأكيد المحبة مع دولة النمسا باسعافها ظاهرا على ماقصدته من التسلط على ألمانيا مع اننا نحرّض عليها ملوك ألمانيا سرا

﴿حادى عشر﴾

نشارك النمسا فيما قصدناه من اخراج الترك من أوربا فان ظفرنا بالاستيلاء على القسطنطينية وأظهرت دولة النمسا شيأ من الغيرة لاجل ذلك فاننا نحث دولة من دول أوربا على محاربتها أو نسلم لها جانبا مما تحصلنا عليه ونسترجعه فى أول فرصة

﴿ثانى عشر﴾

نجمع سائر الاغريق ببولونيا وبممالك النمسا ونسعفهم بقدر الامكان بالحماية والدفاع عنهم حتى يكونوا لنا أحباء مابين الاعداء

﴿ثالث عشر﴾

بعد الاستيلاء على مملكة السويد وغلبة الفرس وبولونيا والتسلط على الممالك العثمانية وجمع جيوشنا ودخول أساطيلنا بالبالتيك والبحر الاسود نشرع فى المفاوضة السرية مع فرنسا ودولة النمسا فى قسمة الدنيا بيننا فان ارتضت احدى الدولتين ما نعرضه عليها نستعين بها على قهر الاخرى ثم نهجم عليها ونغلبها ولا يصعب علينا ذلك حينئذ حيث يكون بيدنا ملك المشرق ومعظم أوربا

﴿رابع عشر﴾

اذا امتنع كلتا الدولتين المذكورتين مما نعرضه عليهما وهذا مما يبعد وقوعه يجب السعى بتحريض احداهما على الاخرى فتتربص الفرصة ونهجم على ألمانيا بجيش عظيم ونوجه اسطولين الى البحر المحيط والبحر الاوسط للاستيلاء على فرنسا وبعد قهر فرنسا والمانيا لايصعب الاستيلاء على باقى أوربا. اه

هذه هى تصورات هذا الامبراطور المشهور فى عصره انه من أهم الرجال من منذ مائتى سنة تقريبا ولقد اهتم خلفاؤه اهتماما زائد حتى تحصلوا على بعض ما كان يتمناه بتمزيق مملكة بلونيا والاتفاق المستمر مع دولة النمسا والاستيلاء على بعض من ممالك ايران ومن ممالك كانت تحت سيادة الدولة العلية كالقريم والداغستان ولكن كل هذه الامور كلا شئ بالنسبة لهذة الوصية والحمد لله فالدولة العلية التى كان ينتظرها بالتأخر الزائد وقرب الاضمحلال موجودة وهى أقوى بضعفين عما كانت عليه اذ ذاك ونسأل الله تعالى أن يمن علينا بتأييدها واستمرار تزايد قوتها انه على كل شئ قدير آمين

وحيث قد أتت الاحوال والظروف بما لم يكن فى الحسبان حتى وجدت دولة ضخمة من أمم ضعفاء فى نظر بطرس الاكبر وهى دولة المانيا فضلا عن نمو دولة انجلترا التى ما كان يحسب بطرس الكبير لها حسابا غير أخذ ذهبها فلذا خلفاء بطرس الكبير قطعوا آمالهم بتنفيذ هذه الوصية ويئسوا منها بالمرة

﴿حوادث مبادى الحرب الروسية العثمانية الاخيرة﴾

قد ثار ممالك البوسنا وهرسك والصرب والبغدان والافلاق والجبل الاسود والبلغار فى سنة ١٢٩٢ كما تقدم بالتحريضات الاجنبية وأعقب ذلك واقعة المرحوم السلطان عبد العزيز وما أعقبها من المسائل حتى كانت الدولة فى أحرج الحالات وكان حزب يرغب تشكيل مجلس نواب كبرلمانات أوربا ولما جلس مولانا السلطان حفظه الله وأيده بنصره أمر بذلك وأصدر الادارة السلطانية المشهورة بخط يده للصدر الاعظم محمد رشدى باشا ثم اهتم حتى قهر كافة الامم العاصية المذكورة رغما عن مساعدة الروسيا لهم سدى هذا من أمرنا الداخلية وأما من أمر الخارجية فان أحوال الدول واختلاف أغراضهم ومشاربهم المعلومة تحركت وفى مقدمتهن الروسيا التى استعدت للحرب فى ظرف نحو ربع قرن

ملحق رقم (٩):

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ..

الحمد لله رب العالمين وافضل الصلاة واتم التسليم على سيدنا محمد
رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه اجمعين والتابعين الى يوم الدين .
اشبو عريضه‌مى طريقت عليه شاذليه شيخى و جان و روحه حيات
ويرن اجله‌ء شيخ محمود افندى ابو الشامات حضرتلرينه
رفع ايديورم مبارك اللرينى اوپرك و دعالرينى رجا ايدرك سلام
و حرمتلرمى تقديم ايلدكدن صكره عرض ايدرم كه سنه حاليه شهر مايسنك ۲۲نجى
گونى تاريخلى مكتوبيكز واصل اولدى . صحتكز سالم ايدوكنى اوگرنديكمدن دولايى
الله حمد و شكر ايتدم . افندم اوراد شاذليه‌يى لطفاً تنظيم ايدوب وظيفه شاذليه‌يى
الاقدام گيجه و گوندوز دوام ايديورم و بو وظيفه‌نك ادايه موفق
اولديغمدن دولايى الله تعالى حضرتلرينه حمد ايدرم و دعوات خيريه‌كزه دائما
محتاج اولديغمى عرض ايدرم . بو افاده‌دن صكره شو مهم مسئله‌يى ذات
رشادتمآب سماحتپناهيلرينه و ذات سماحتپناهيلرى امثالى عقول سليمه صاحبلرينه
تاريخى بر امانت اولارق عرض ايدرم كه . بن خلافت اسلاميه‌يى هيچ بر سبب ايله ترك
ايتمدم . آنجق ژون ترك اسميله معروف و مشهور اولان
اتحاد جمعيتى روساسنك تضييق و تهديدلرى ايله خلافت اسلاميه‌يى ترك ايتمكه
مجبور ايدلدم . بو اتحاديجيلر ارض مقدسه‌ده فلسطينده يهود ايچون
بر وطن قومى تأسيسنى قبول و تصديق ايتمكلكم ايچون اصرار ايتديلر و
دوام ايله اصرار ايتديلر . بونلره قطعيا بو تكليفى قبول ايتمدم
والآخره بونلر ۱۵۰ مليون آلتون انگليز ليراسى ويره‌جكلرينى وعد ايتديلر
بو تكليفى ده قطعيا رد ايتدم و كنديلرينه شو سوزلرله مقابله ده
بولندم . دكل ۱۵۰ مليون آلتون انگليز ليراسى دنيا دولوسى
آلتون ويرسه‌كز بو تكليفلركزى قطعيا قبول ايتمم . بن اوتوز سنه‌دن
فضله بر مدت ملت اسلاميه‌يه و امت محمديه‌يه خدمت ايتدم بوتون
سلاطين و خلفاء عثمانيه‌دن آباء و اجدادمك صحيفه‌لرينى
قاره ايتمم . بناء عليه بو تكليفكزى مطلقا قبول ايتمم ديه قطعى جواب
ويردكدن صكره خلعمه اتفاق ايتديلر و بنى سلانيكه گوندره‌جكلرينى بيلديرديلر
بو صون تكليفى قبول ايتدم . والله تعالى يه حمد ايدرم كه دولت
عثمانيه‌يه و بوتون عالم اسلامى ابدى بر لكه اولاجق اولان تكليفلرينى يعنى
ارض مقدسه‌ده فلسطينده يهودى دولتى قورولمسنى قبول ايتمدم . ايشته
بوندن صكره اولان اولدى و بوندن دولايى مولاى متعال حضرتلرينه حمد ايدرم
بو مهم مسئله‌ده شو معروضاتمى كافيه ايدوب شو سوزلرله مكتوبمه ختام ويريورم ..
مبارك اللركزى اوپرك حرمتلرمى قبول بيورمكزى سزدن رجا و استرحام ايدرم
اخوان و اصدقاءنه جمله‌سنه سلاملر ايدرم . اى مهم معظم استاذم . بو بابده سوزى
اوزاتدم . معلوم عالى سماحتپناهيلرى و بوتون جماعتكزجه معلوم
اولمق ايچون اوزاتمغه مجبور اولدم . والسلام عليكم و رحمة الله و بركاته

۲۲ ايلول ۳۲۹ خادم المسلمين
عبد الحميد

رسالة السلطان عبدالحميد الثاني من سلانيك الى الشيخ محمود ابو الشامات في دمشق ، يؤكد له سبب خلعه عن العرش لرفضه موافقة اليهود على اقامة وطن قومي لهم في فلسطين (نقلا عن : حسان على حلاق : موقف الدولـــــة العثمانية من الحركة الصهيونية) ص ٣٥٩.

المصادر والمراجع

أولا: الأرشيف العثماني في اسطنبول :

OSMANLI ARSIVI ISTANBUL:

- الوثائق والمعاهدات :

1- Osmanli Arsivi, Yildiz Esas, Evrakl, Zarf. No. 313

(الخطاب السلطاني لاعلان المشروطية الاولى سنة ١٢٩٤هـ) .

2- Osmanli Arsivi Yildiz , Esas, Evrakl, Zarf, No. 314.

(الخطاب السلطاني في اعادة المشروطية الثانية ١٣٢٦هـ).

3- Osmanli Arsivi, Yildiz Tansnifnamesi, Muahede Name, Namarsi, No. 19 , 1878.

4- Osmanli Arsivi, Yildiz Tansnifnamesi, Muahede Name, Namarsi. No. 171, 1878.

ثانيا : وثائق باللغة الانجليزية :

GREAT BRITAIN PUBLIC RECORD:

5- F.O.: 424/197. No. 91.
Sir, N .O,coner to the Marquess of Salisbury,24-12-1898.

6- F.O.: 424/198. No: 76.
Sir, N . O,coner to M. Salisbury. 25-4-1899.

7- F.O.: 424/199. No. 3/1
From Consul General Drummond Hay to Sir, N. O.conor. 21-6-1899.

8- F.O.: 424/199. No. 3/2 . From Consul General Drummond Hay to Sir., N . O.conor 15-5-1899.

9- F.O. : 424/200. No.: 23 Consul Richards to Sir N. O,conor, 19-2-1900.

10- F.O.: 424/200. No: 55 . Sir, N.O,coner to Marguess of Salisbury , 22-5-1900.

11- F.O.: 424/200 . No. 55/2 . Consul-General Drummond Hay to N. O,conor, 1900 .

12- F.O. : 424/200. No. 55/3 . Consul General Drummond Hay to No. O,conor , 7-5-1900.

13- F.O.: 424/222. No. 2 . Mrmarling to Sir. Eduard Grey , 3-1-1910.

14- F.O.: 78/374. No. 247 . Form Campbell to Palmerston , 21-3-1833.

15- F.O.: 424/37. No. 210. The Marguis of Salisbary to the Earl of Derdy , 13-1-1877.

16- F.O.: 424/39. No. 572. Sir., H., Elliot to the Earl of Derby, 20-11-1875.

ثالثا: الرسائل الجامعية :

١٧- رضوان : نبيل عبدالحي : جهود العثمانيون لانقاد الأندلس واسترداده، رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة أم القرى ، تحت الطبع ،١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

١٨ - الروقي : عايض خزام : حروب محمد علي في الشام ، وآثرها في الجزيرة العربية ،رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى ، لم تنشر ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

١٩ - الوذيناني : خلف دبلان: الاحساء في القرن الثاني عشرالهجري ،رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى ، لم تنشر ،١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

رابعا: المصادر العربيـــــــة :

٢٠ - القرآن الكريم .

٢١ - آصاف: يوسف . تاريخ سلاطين آل عثمان ، تحقيق بسام عبدالوهاب الجابي ، الطبعة الثالثة ، دمشق ، دار الطباعة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٢٢- ابن بشر : عثمان بن عبدالله ، عنوان المجد في تاريخ نجد ، تحقيـــق عبدالرحمن عبدالله آل الشيخ ، الطبعة الرابعة ، الريـــاض ، من مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م.

٢٣- بك : محمد فريد . تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق احســـان حقي ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار النفائس ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٢٤ - التونسي : خير الدين . أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالـــك ، الطبعة الثانية ، تونس ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٦م.

٢٥ - التونسي : محمد بيرم الخامس ، صفوة الاعتبار بمستودع الامصـــــار والأقطار ، بيروت ، دار صادر ، طبع بالمطبعة الاعلاميـــــة بمصر ، ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٥ م.

٢٦ - الجبرتي : عبدالرحمن : تاريخ عجائب الآثار في التراجم والاخبـــار ، بيروت ، دار الجيل .

٢٧ - حليم : ابراهيم بك : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العليـــة ، الطبعة الاولى ، مطبعة عموم الاوقاف ، ١٣٢٣ هـ/ ١٩٠٥م.

٢٨ - خانكي : عزيز بك : ترك واتاتورك ، القاهرة ، المطبعة العصرية ، الفحالة .

٢٩ - ابن حنبل : أحمد : مسند الامام ، بيروت . المكتب الاسلامي .

٣٠ - سركيس : سليم : كتاب سر مملكة ، طبع مصر ، ١٨٩٥م .

٣١ - سرهنك : اسماعيل : حقائق الاخبار عن دول البحار ، الطبعة الاولـــى ، مصر ، طبع بالمطبعة الاميرية ببولاق ، ١٣١٢هـ.

٣٢ - صبرى: مصطفى : الأسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية ، تقديـــم مصطفى حلمي ، الطبعة الأولى ، الاسكندرية ، دار الدعـــوة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.

٣٣ - طوسون : عمر : الجيش المصرى ، مصر ، المستقبل ، الاسكندرية ، ١٣٥٥ هـ.

٣٤ - علي : محمد كرد : خطط الشام ، الطبعة الثانية . بيروت .

٣٥ - بن عيسى : ابراهيم بن صالح : تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد الرياض . من منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر.

٣٦ - بن غنام : حسين : تاريخ نجد ، تحقيق ناصر الدين الأسد ، الطبعة الثانية ، الرياض ، مطابع شركة الصفحات الذهبية ، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م.

٣٧ - الفاخري : محمد بن عمر : الأخبار النجدية ، تحقيق عبدالله يوسف الشبل ، الرياض ، من مطبوعات جامعة الامام محمد بن سعود.

٣٨ - لبيب : حسين : تاريخ الأتراك العثمانيين ، القاهرة ، مطبعة الواعظ بمصر ١٣٣٥ هـ / ١٩١٧م.

٣٩ - المناوي : محمد المدعو بعبدالرؤوف : فيض القدير شرح الجامع الصغير ، الطبعة الثانية ، لبنان ، دار المعرفة للطباعة ، ١٣٩ هـ / ١٩٧٢م.

خامسا : المراجع العربيــــــة :

٤٠ - أحمد : ابراهيم خليل : تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ، الموصل ، مفيرية مطبعة الجامعة .

٤١ - أنيس : محمد : الدولة العثمانية والشرق العربي ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٨٥م .

٤٢ - أمين : أحمد : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، بيروت ، الناشر: دار الكتاب العربي .

٤٣ - البحراوي : محمد عبداللطيف : فتح العثمانيين عدن ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار التراث ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م.

٤٤ - البحراوي : محمد عبد اللطيف: حركة الاصلاح العثماني في عصر محمود الثاني ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، دار التراث ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

٤٥ - البطريق : عبدالحميد : التيارات السياسية المعاصرة ، الطبعة الأولى بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٤م.

٤٦ - آل بوطامي : أحمد بن حجر : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، الطبعة الثالثة ، الرياض ، شركة مطابع الجزيرة ، ١٣٩٣هـ.

٤٧ - بيهم : محمد جميل : فلسفة التاريخ العثماني ، الكتاب الثاني ، صدر في ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤م.

٤٨ - بيهم : محمدجميل : العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب بيروت ، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧م.

٤٩ - التل : عبدالله : جذور البلاء ، الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨م.

٥٠ - التونسي : محمد خليفة : الخطر اليهودي ، بروتوكالات صهيون ، القاهرة مكتبة دار التراث ١٩٥١م.

٥١ - جريشة : على محمد وآخرون : أساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامي ، دار الاعتصام .

٥٢ - جمعه : ابراهيم : الأطلس التاريخي للدولة السعودية ، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢م.

٥٣ - جمعه : ابراهيم : جداول تحويل السنين الهجرية الى مايقابلها من التواريخ الميلادية . مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز ، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

٥٤ - جمعه : محمد كمال : انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، الرياض ، من مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٥٥ - الجندى : عبدالحليم : الامام محمد بن عبدالوهاب ، القاهرة ، دار المعارف .

٥٦ - الاحساني : محمد عبدالله بن عبدالمحسن آل عبدالقادر ، الطبعة الاولى ، الرياض ، مطبعة الرياض ، ١٣٧٩ هـ/١٩٦٩م .

٥٧ - الحصرى : ساطع : البلاد العربية والدولة العثمانية ، مطبعة الرسالة ، ١٩٥٧م.

٥٨- حسن: ابراهيم شحاته : أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، الاسكندرية الناشر: منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٨١م.

٥٩ - حسون : علي ، العثمانيون والروس ، الطبعة الاولى ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٦٠ - حسون: علي : تاريخ الدولة العثمانية ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م.

٦١ - حسون: العثمانيون والبلقان ، الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م.

٦٢ - حمادة : عابدين : تاريخ الشرق والغرب ، الطبعة الثالثة ، دمشق ، المطبعة الجديدة ، ١٩٥٧م.

٦٣ - الحوالي : سفر عبدالرحمن : العلمانية ، الطبعة الاولى ، مكة المكرمة ، دار مكة للطباعة والنشر ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٦٤ - حلاق : حسان علي : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ، بيروت ، الناشر جامعة بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٦٥ - حلاق : حسان علي : دور اليهود والقوى في خلع السلطان عبدالحميد عن العرش ، بيروت ، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، ١٩٨٢م.

٦٦ - خالدى : مصطفى وفروخ : التبشير والاستعمار ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٣م.

٦٧ - خزعل : حسين خلف : تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، الطبعة الأولى ، بيروت ، مطابع دار الكتاب ، ١٩٦٨م.

٦٨ — الخطيب ; عبدالكريم : الدعوة الوهابية ، الطبعة الثانية ، جـــــدة ، دار الشروق ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤م٠

٦٩ — دحلان ; أحمد زيني : الفتوحات الاسلامية ، القاهرة ، الناشر مؤسســـة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ، ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٨م٠

٧٠ — درويش : مديحه : تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الاول من القـــرن العشرين ، الطبعة الثانية ، جدة ، دار الشروق ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م٠

٧١ — الدسوقي ; محمد كمال : الدولة العثمانية والمسألة الشرقيـــــة ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٦م٠

٧٢ — الدسوقي ; محمد كمال : تاريخ أوربا الحديث ، القاهرة ، مطبعـــة النهضة الجديدة ٠

٧٣ — بن دهيش ; عبداللطيف عبدالله : قيام الدولة العثمانية ، الطبعـــة الأولى ، مكة المكرمة ، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثـــة ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨م٠

٧٤ — الرافعي ; عبدالرحمن : عصر محمد علي ، الطبعة الرابعة ، القاهـــرة ، دار المعارف ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م٠

٧٥ — رجب ; عمر الفاروق السيد : دراسات جغرافية المملكة العربيـــة السعودية ، الطبعة الأولى ، جدة ، دار الشروق ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ٠

٧٦ — رمضان ; مصطفى محمد : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصـــر ، القاهرة ، دار الوفاء للطباعة ، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٢م٠

٧٧ — الرومي ; عبدالعزيز زيد وآخرون : أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهـــاب ، القسم الخاص للرسائل الشخصية ، طبع جامعة الامام محمد بـــن سعود ٠

٧٨ — الريحاني ; أمين : تاريخ نجد ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المؤسســة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠م٠

٧٩ - الريس : محمد ضياء الدين: الشرق الأوسط ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٦٥م.

٨٠ - الرويشد : عبدالله بن سعد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، القاهرة ، الناشر مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

٨١ - الزركلي : خير الدين: شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٨٢ - أبوزهرة : محمد : محاضرات في النصرانية ، الطبعة الرابعة ، الرياض ، طبع الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والدعوة والارشاد ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٨٣ - زيدان : جورجي : تاريخ الماسونية العام ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٨٤م.

٨٤ - زين : زين نورالدين: نشوء القومية العربية ، مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٩٧٩م.

٨٥ - زين: زين نورالدين : الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولاة دولتي سوريا ولبنان ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار النهار للنشر ، ١٩٧٧م.

٨٦ - السبكي : آمال : أوربا في القرن التاسع عشر ، الطبعة الاولى، جدة ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٨٧ - سعيد : أمين: الثورة العربية الكبرى ، بيروت ، دار الكتاب العربي .

٨٨ - سعيد : أمين : تاريخ الدولة السعودية ، الرياض ، من مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز .

٨٩ - سعيد: عبدالستار فتح الله : الغزو الفكري ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار الوفاء ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٩٠ - السلمان: محمد عبدالله :دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتباتها ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٩١ - سنقرد : داود عبدالعفو: القوى الخفية لليهود العالمية الماسونية الطبعة الأولى ، عمان ،دار الفرقان ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٩٢ - سليمان : أحمد السيعد : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، القاهرة ، الناشر دار المعارف ، ١٩٧٢م.

٩٣ - شاكر: محمود : التاريخ الاسلامي ، العهد العثماني ، الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الاسلامي ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م.

٩٤ - شاكر: محمود: البحرين ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م.

٩٥ - الشناوي : عبدالعزيز محمد : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ،١٩٨٠م.

٩٦ - آل الشيخ : عبدالرحمن عبداللطيف : مشاهير علماء نجد وغيرهم ، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢م.

٩٧ - الصغير : محمد حسين : المستشرقون والدراسات القرآنية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، مج. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م.

٩٨ - صفوت : محمد مصطفى : فتح القسطنطينية ، الرياض ، منشورات الفاخرية .

٩٩ - الصولي : أنيس : أسباب النهضة في القرن التاسع عشر ، حققه وقدم له : عبدالله الطباع ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار ابن زيدون، ١٤٠٥ هـ : ١٩٨٥م.

١٠٠ - عباس : ابراهيم فؤاد ، الماسونية تحت المجهر ، الطبعة الأولى ، جدة ، دار الرشاد ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م.

١٠١ - عبدالرحيم : عبدالرحيم عبدالرحمن ، الدولة السعودية الأولى ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، الناشر دار الكتاب الجامعي، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م.

١٠٢ - العثيمين : عبدالله الصالح : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، حياته ، وفكره ، الرياض ، الناشر دار العلوم ، مطبعة نهضة مصر .

١٠٣ — عسه : أحمد : معجزة فوق الرمال ، الطبعة الثانية ،لبنان ، المطابع الأهلية اللبنانية ،١٣٨٦هـ/١٩٦٦م٠

١٠٤ — عطار : عبدالغفور : محمد بن عبدالوهاب ، الطبعة الثانية ، بيروت منشورات مكتبة العرفان ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م٠

١٠٥ — عطا : زبيده : بلاد الترك في العصور الوسطي ،الناشر دار الفكر العربي ٠

١٠٦ — عفيفي : نجيب : المستشرقون ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار المعارف ٠

١٠٧ — عنان : محمد : تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة في المشرق ،دا رالبنين للنشر ٠

١٠٨ — علي : أورخان محمد : السلطانعبدالحميد الثاني ، حياته واحداث عهده ، الطبعة الاولى ، الكويت ،دار الوثائق ،١٤٠٧هـ/١٩٨٦م٠

١٠٩ — عليان : محمد عبدالفتاح : أضواء علىالاشتشراق ، الطبعة الأولى، الكويت ، الناشر دار النشر للطباعة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م٠

١١٠ — عمر : عمرعبدالعزيز : تاريخ المشرق العربي ، بيروت ،دارالنهضة العربية ،١٤٠٥هـ/١٩٨٥م٠

١١١— غربال : محمد شفيق : منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ماهي عليه اليوم ، القاهرة ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٦١م ٠

١١٢ — غربال: محمد شفيق : محمدعلي الكبير ، القاهرة ،دار الهلال ٠

١١٣ — الغنام : سليمان محمد : قراءة جديدة لسياسةمحمد علي التوسعية ، الطبعة الأولى ، جدة ،منشورات تهامة ،١٤٠٠هـ/١٩٨٠م٠

١١٤- أبوغنيمة : زياد : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، الطبعة الثانية ،عمان ، دار العرفان للنشر والتوزيع ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م٠

١١٥- أبوغنيمة : زياد : السلطان المجاهد الفاتح ، فاتح القسطنطينية ، الطبعة الثانية ،عمان ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م٠

١١٦ - الفاتح : زهدى: لورنس العرب ،الطبعة الاولى ، بيروت ، دار النفائس ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م٠

١١٧ - فرج: السيد أحمد: جذور العلمانية ، الطبعة الثالثة ، دار الوفاء، للطباعة والنشر ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م ٠

١١٨- فهمي : عبدالسلام عبدالعزيز : فتح القسطنطينية ،دار الكاتب العربي ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ،١٩٦٩م٠

١١٩- القطان : أحمد وآخرون : امام التوحيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب الطبعة الاولى ، الكويت ، مكتبة السندس ،١٤٠٧هـ/١٩٨٧م٠

١٢٠ - قطب : سيد : المستقبل لهذا الدين ، الطبعة السابعة ، القاهرة، دار الشروق ،١٤٠٧هـ/١٩٨٧م٠

١٢١ - قطب : محمد : واقعنا المعاصر ، الطبعة الرابعة ، جدة ، الناشر: موسسة المدينة للصحافة والطباعة وانشر ،١٤٠٧هـ/١٩٨٧م٠

١٢٢- قطب : محمد علي : يهود الدونمة ، الطبعة الاولى ، بيروت ،دار القلم ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م٠

١٢٣ _ كشك: محمد جلال : الغزو الفكرى ، الطبعة الرابعة ، المختار الاسلامي للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م٠

١٢٤- كشك : محمد جلال: السعوديون والحل الاسلامي ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م٠

١٢٥- كيلاني : اسماعيل : فصل الدين عن الدولة ، الطبعة الاولى ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م٠

١٢٦ - ماضي : محمدعبدالله : النهضات الحديثة في جزيرة العرب الطبعة الثانية، القاهرة، الناشر داراحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ،١٣٧٢هـ/١٩٥٢م٠

١٢٧ - محمود: على عبد الحليم: الغزو الفكرى والتيارات المعادية للاسلام من البحوث المقدمة لموتمر الفقه الاسلامي الذي عقدته جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض، عام ١٣٩٦ . مطابع جامعة الامام محمد بن سعود، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

١٢٨ - المختار: صلاح الدين: تاريخ المملكة العربية السعودية ماضيها وحاضرها، بيروت، منشورات مكتبة الحياة .

١٢٩ - مداح: أميرة: العثمانيون والامام القاسم بن محمد بن علي في اليمن، الطبعة الاولى، جدة، من مطبوعات تهامة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

١٣٠ - بن المرجه: موفق: صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الاسلامية، الكويت، مؤسسة صقر الخليج، ١٩٨٤م.

١٣١ - المسلم: محمد سعيد: ساحل الذهب الاسود، الطبعة الثانية، بيروت، من منشورات دار مكتب الحياة، ١٩٦٠م.

١٣٢ - مشهداني: عبد الكريم: العلمانية وآثارها على الاوضاع الاسلامية في تركيا الطبعة الأولى، منشورات المكتبة الدولية، الرياض ومكتبة الخافقين، دمشق، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

١٣٣ - مصطفى: أحمد عبد الرحيم: في أصول التاريخ العثماني، الطبعة الاولى، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

١٣٤ - مكاريوس: شاهين: تاريخ الماسونية العلمية، الطبعة الاولى، ١٨٩٧م.

١٣٥ - منسي: محمود صالح: حركة اليقظة العربية، الطبعة الثانية، ملتزم الطبع والنشر، دار الفكر العربي، ١٩٧٨م.

١٣٦ - المودودى: أبو الاعلى: نحن والحضارة الغربية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

١٣٧ - مؤنس: حسين: الشرق الاسلامي في العصر الحديث، الطبعة الثانية، القاهرة، نشر لجنة الجامعيين لنشر العلم .

١٣٨ ـ ملا: محمد قربان نيازي: السلطان عبد الحميد الثاني ، الطبعة الأولى ، مكة ، مكتبة المنارة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

١٣٩ ـ نخله : محمد عرابي : تاريخ الاحساء السياسي ، الكويت ، منشورات ذات السلاسل ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

١٤٠ ـ الندوى : أبو الحسن : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، الطبعة الثالثة ، الكويت ، دار القلم ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

١٤١ ـ النعيمي : أحمد نوري : أثر الاقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، بغداد ، مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٢م.

١٤٢ ـ نعنعي : عبد المجيد : أوربا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٣م.

١٤٣ ـ نوار: عبد العزيز سليمان : الشعوب الاسلامية ، بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٧٣م.

١٤٤ ـ نوار: عبد العزيز سليمان ، وعبد المجيد نعنعي : التاريخ المعاصر أوربا من الثورة الفرنسية الى الحرب العالمية الثانية ، بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١٤٥ ـ هريدى : محمد عبد اللطيف: الحروب العثمانية الفارسية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

١٤٦ ـ وحيده : صبحي : في أصول المسألة المصرية ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٠م.

١٤٧ ـ وجدى : محمد فريد: دائرة المعارف الاسلامية ، مادة "تنظيمات" الناشر جهان .

سادسا : المصادر الأجنبية المترجمة :

١٤٨ - اتلخان : جواد رفعت : أسرار الماسونية ، ترجمة نور الدين رضا الواعظ وآخرون . القاهرة ، الناشر مجلة الأزهر ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٤٩ - ارنولد : سيرتوماس . و. أ.: الدعوة الى الاسلام : ترجمة حسن ابراهيم وآخرون. الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠م.

١٥٠ - اورتونا : يلماز : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة : عدنان محمود سلميان ، تركيا ، استانبول ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل ، ١٩٨٨م.

١٥١ - الثاني: السلطان عبدالحميد : مذكراتي السياسية ، الطبعة الثانية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١٥٢ - مذكرات السلطان عبدالحميد : ترجمة محمد حرب عبدالحميد ، الطبعة الاولى ، الكويت ، دار الوثائق ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١٥٣ - جودت باشا : أحمد : تاريخ جودت : ترجمة عبدالقادر افندى الدنا ، بيروت ، طبع مطبعة جريدة بيروت ، ١٣٠٨هـ.

١٥٤ - ستودارد : لوثر ، و ب: حاضر العالم الاسلامي ، ترجمة عجاج نويهض وتعليق شكيب ارسلان ، الطبعة الرابعة ، بيروت ، دار الفكر ، للطباعة و النشر ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٣م.

١٥٥ - طوران : مصطفى : أسرار الانقلاب العثماني ، ترجمة كمال خوجه ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار السلام ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٥٦ - المانع : محمد : توحيد المملكة العربية السعودية ، ترجمة الدكتور/ عبدالله الصالح العثيمين ، الطبعة الاولى ، الدمام ، طبع في شركة مطابع المطوع ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

١٥٧ - مذكرات مدحت باشا : تعريب يوسف كمال بك حتاتة ، الطبعة الاولى القاهرة ، مطبعة هندية بمصر ، ١٣٣١هـ/١٩١٢م.

سابعا: المراجع الأجنبية المترجمة :

١٥٨ - انطنيويوس : جورج : يقظة العرب ، تعريب علي حيدر ، دمشق ، مطبعة الترقي ، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

١٥٩ - بروكلمان : كارل : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي ، الطبعة السادسة ، بيروت ، دار الملايين ، ١٩٧٤م.

١٦٠ - بوكاي موريس : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧م.

١٦١ - تونبي : أرنولد : تاريخ البشرية ، نقله الى العربية نقولا زيادة ، بيروت ، الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٢م.

١٦٢ - جب : هاملتون : المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩م.

١٦٣ - جرانت : أ.ج : وهارولد تمبرلي : أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ١٧٨٩م -١٩٥٠م .ترجمة بهاء فهمي ،مراجعة الدكتور أحمد عزت عبدالكريم . القاهرة ، الناشر مؤسسة العرب ، ١٩٨٥م.

١٦٤ - لو فرجيه : موريس : دساتير فرنسا : ترجمة أحمد حسيب عباس ، القاهرة، الناشر : مكتبة الاداب ، المطبعة النموذجية ، الحلمية الجديدة.

١٦٥ - رامزور : ارنست . أ. : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ، بيروت ، نيويورك ، نشر مع فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر ، ١٩٦٠م .

١٦٦ - شاتليه : أ.ل . : الغارة على العالم الاسلامي ، ترجمة محب الخطيب ومساعد الباقي ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

١٦٧ - شيني .ل.ج : تاريخ العالم العربي ، ترجمة مجدالدين حنفي ناصف ، القاهرة، الناشر دار النهضة العربية .

١٦٨ - لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية ، ترجمة عفيفه البستاني ، موسكو، دار التقدم.

١٦٩ - لويس : برنارد: استنبول ،تعريب سيد رضوان علي ، الطبعة الثانية ، جدة ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٧٠ _ لويس : برنارد : الغرب والشرق الاوسط ، تعريف الدكتور نبيل صبحـي ، الطبعة الاولى، القاهرة ، المختار الاسلامي للطباعة والنشر ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

١٧١ _ عزالدين: نجلاء : العالم الغربي ،ترجمة محمد عوض ابراهيم وآخرون ، الطبعة الثانية ، القاهرة، الناشر دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦٢م.

١٧٢ _ وتلن : الما : عبدالحميد ظل الله على الارض : ترجمة راسم افندى، القاهرة ١٩٥٠م.

١٧٣ _ ولز: هـ.ج.: معالم تاريخ الانسانية ،ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، الطبعة الثالثة . القاهرة ،مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٦٧م.

١٧٤ _ هازارد : هارى وآخرون : أطلس التاريخ الاسلامي ،ترجمة ابراهيم زكي خورشيد . القاهرة . مطبعة برنستون ومكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٤م.

ثامنا : المصادر التركيـة :

أ- باللغة العثمانية :

١٧٥ - باشا: كامل : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ،تأسس دولتعليه دن جنتمكان سلطان عبدالمجيد خانك اواخر سلطنتنه قدر كذران ايدن زمانه عائددر.
مطبعة احمد احسان ، ١٣٢٨هـ.

١٧٦ - راسم: أحمد : رسمي وخريطة لي عثمانلي تاريخي. برنجي طبع ، استانبول ،وناشرى اقبال كتبخانسي ، صاحبي حسين ،شمس مطبعة سي ، ١٣٢٨هـ.

١٧٧ - لبهارد: أ د.انكه : تركيا وتنظيمات دولت عثمانية نك تاريخ اصلاحاتي ١٨٢٦ - ١٨٨٢ مترجمي : على رشاد . طابع وناشرى صاحبي الياس . اسطنبول ١٣٢٨هـ.

ب ـ باللغة التركية :

178 - CEVAT: ALI : Ikinci Mesrutiyetin ilani ve otuzbir mart Hadisesi Abolu ehamid in son mabeyn Baskatibi Ali cevat bby'in Fezlekasi Yayina hazi, Layay: Faikresit Turic Taria Kurumu Basimevi, Ankara, 1985.

179 - Develliogla : Ferit: Osmanlica Turkce Ansiklopedik lugat. مادة (استانة).

180 - SHAW : Stanford. J.: Ezolkural shaw. Osmanli Imparatorlligu ve mobern turkiye Stunkcsi : Mehmet Har manci e yeyiular, I baski, Istanbul.1983.

تاسعا: المصادر والمراجع باللغة الانجليزية :

181 - Davison : Roderic. H.: Turkey ,A Short History, The Eother Press, Walkington, Beverley , England , 1981.

182 - Davis : Willam Stearns : A Short History of the Near East .

183 - Inalcin : Halil : The Ottoman Empire. Weiben Fel and Nicolsor, London.

184 - Morely: John: The Life of Willim Ewart Glad stone. Vol.1. 1809-859, London , 1903.

185 - Maxwell: Robert, Pergamon Worldatlas, Oxford , 1968.

186 - Parry: V.J.: A History of The Ottoman Empire, Cambridge University Press, Cambridge , London, New Yourk, Mel Bourne.

عاشرا : الدوريات والمجلات العلمية :

١٨٧ - البحراوي : محمد عبداللطيف : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة ، مجلة دارة الملك عبدالعزيز ، العدد الثاني، السنة الحادية عشرة ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م.

١٨٨ - البحراوي : محمد عبداللطيف: من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، مجلة دارة الملك عبدالعزيز ، العدد الرابع ، السنة الثالثة عشر ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م.

١٨٩ - الحقيل : عبدالله : الدعوة الاصلاحية في مواجهة التحديات ، مقال منشور في الكتاب السنوي الثالث ، طبع الوثائق التاريخية بدولة البحرين ،١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م .

١٩٠ - الدسوقي : محمد كمال : أهمية الحجاز في مطلع العصور الحديثة ، مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، العدد الثاني ، السنة الثانية ١٣٩٦ هـ / ١٣٩٧هـ .

١٩١ - الدسوقي : محمد كمال : العثمانيون وقراصنة رودس ، مجلة البحث العلمي ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بمكة المكرمة ، العدد الثاني ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م.

١٩٢ - ابن دهيش :عبداللطيف عبدالله : أحوال شبه الجزيرة العربية قبل قيام الدولة السعودية الاولى ، مجلة العرب ، تصدر عن دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، ج ١ ،٢ ، س ٢٢ ، رجب / شعبان ١٤٠٧هـ).

١٩٣ - رئيس التحرير : الوثائق تتكلم ، مجلة دارة الملك عبدالعزيز، العدد الثاني ، السنة الأولى ،١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥م.

١٩٤ - المقدسي : روحي بك الخالدى : الانقلاب العثماني ،مجلة الهلال ، القاهرة ، الجزء الثاني ، السنة السابعة عشر ،١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨م.

١٩٥ - نورس : علاء موسى كاظم : مسئولية الانكشارية فيتدهور الدولة العثمانية ، المجلة التاريخية المغربية ، السنة التاسعة ، العدد ٢٥ ، ٢٦ ، ١٩٨٢م.

١٩٦ - هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني ، مجلة الهلال ، القاهرة ، الجزء الثامن ، السنة السابعة عشر ،١٣٢٦ هـ/١٩٠٩م.

١٩٧ - هيئة الاخبار: الرجل المريض دعاية يهودية ، مجلة التضامن الاسلامي ، السنة الرابعة والاربعون ، الجزء السادس ،ذى الحجة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

١٩٨ - هيئة التحرير : سليمان الكبير ، مجلة الهلال ، القاهرة ،الجزء الثاني من السنة الاولى ، ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م .

١٩٩ - هيئة التحرير : عبدالحميد الثاني في أول شبابه قبل توليه الملك ، القاهرة ،مجلة الهلال ،الجزء التاسع ،السنة السابعة عشر ، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م.

٢٠٠ - هيئة التحرير: مجلة الدعوة السعودية ، العدد ٥٧٠ ، ٢٥ شوال سنة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

...

فهرس الموضوعات

تابع فهرس الموضوعات

...